

تفسير الجلالين

الفوت الرباني والإمام الصمداني

سيدي محيي الدين عبد القادر الجيلافي

المتوفى ٧١٣ هـ

تقريب وتحرير وتعليق

للشيخ أحمد فريد الزيري

المجلد الثاني

المحتوى:

أول سورة الأنعام - آخر سورة النحل



المكتبة المعروفة

كانسي روڈ شالدرہ کوٹہ پاکستان

فون: 0333-7807152, 0333-7907398

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للناشر

طبعة جديدة منقحة

ISBN: 9953-27-144-5

2010م 1431هـ



رَجَاءُ

غَفَرَ اللَّهُ ذُنُوبَ هَذَا النَّاشِرِ
وَذُنُوبَ وَالِدَيْهِ مَعاً فِي النَّظَرِ

غَفَرَ اللَّهُ ذُنُوبَهُ وَسَتَرَ عَيْبَهُ وَوَالِدَيْهِ وَالْمُسْلِمِينَ
أَجْمَعِينَ وَلَمْ يَدْعَ لَهُ يَغْيِرْ

راجي عفو ربه

عبدالقني حليمي



المكتبة المعرفية - الكويت - باكستان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الأنعام

فاتحة سورة الأنعام

لا يخفى على المستضيئين المستنيرين من أشعة نور الوجود اللائح من مشكاة العدم التي هي طلسمات التعينات والأظلال والهويات الظاهرة في عالم الكون والفساد، أن سر ظهور كمالات الوجود من العدم إنما هو لجلاء الوجود وصفائه، إلى حيث لم يدرك لو لم يكن في مقابلته مرآة مجلوة يترأى فيها ما انعكس منه، ولم يكن له مقابل غير العدم، لذلك ما انعكس كمالاته إلا منه، والمحجوب المقيد بسجن الطبيعة ما يرى الوجود والموجود إلا هذه العكوس المنعكسة في سراب العدم من الأمواج الحادثة في بحر الوجود من التجليات الحبيبة، ولم يتفطن إلى مبدئها، ولهذا عدل عن طريق الحق، وضل عن سواء السبيل، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

والمكاشف المشاهد بنور الله، المستغرق بمطالعة جماله، لا يرى في الوجود إلا هو، وكلما ظهر في العالم الصوري من الآثار فمن تجلياته المتشعبة من أوصافه الذاتية، وتطورات أسمائه الكمالية الجمالية والجلالية، وسر التكاليف الموردة في الكتب الإلهية والآثار النبوية إنما هو للتحقق والتقرب إلى ما عليه الوجود الحقيقي، من الاعتدال والاستواء الذي هو صراط الله الأقوم الأعديل.

لذلك ألهم سبحانه خلص عباده الذين تحققوا بوحدة الوجود، وانكشفوا بنوره المستقل، أن يواظبوا على حمده وثنائه دائماً مستمراً؛ ليتمكنوا بمقام الشكر الذي هو أعلى مقام العارف بالله، إذ الشكر إنما يحصل بقدر رفع حجب التعينات رأساً، وذلك لا يكون إلا بالفناء فيه، ومتى فني فيه فقد تحقق بمقام الشكر، وينطلق لسان حاله ومقاله بشكر نعمه، ولهذا أخبر سبحانه تعليمًا لعباده قائلاً متيمناً:

﴿يُسَبِّحُ اللَّهَ﴾ المستغني بذاته عن جميع الأكوان ﴿الرَّحْمَنُ﴾ عليها بإضافة نور

الوجود من محض الجود والامتنان ﴿الزَّحِيم﴾ بإقذارها على مواظبة الحمد والثناء له أداء لحق الإنعام والإحسان.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمُوتُونَ (٢) وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣) وَمَا تَأْنِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٥) [الأنعام: 1-5].

﴿الْحَمْدُ﴾ والثناء المشعر بالإطاعة والانقياد المنبأ عن التعظيم والتبجيل الذاتي الصادر عن السنة جميع من يدخل في حیطة الوجود، المعترف بتوحيده سبحانه وتفريده استقلالاً ثابتاً ﴿لِلَّهِ﴾ المستقل بالألوهية، المتوحد في الربوبية، المستحق في العبودية، وكيف لا يستحق سبحانه مع أنه القادر ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ وقدر ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (١) أي: أظهر علويات الأسماء والصفات وسفليات الطبيعة العدمية القابلة لانعكاس أشعة العلويات ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ﴾ أي: أنشأ حجب التعينات ﴿وَالنُّورِ﴾ أي: ظل الوجود المنبسط عليها ﴿ثُمَّ﴾ بعدما ظهر إشراق نور الوجود، ولمع أضواء شمس الذات ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ أي: ستروا بهويتهم الباطلة هويته الحقيقية السارية في

(١) قال الشيخ نجم الدين كبرى: الإشارة فيها أن الله تعالى ذكر الحمد بالالف واللام وهي لاستفراق الجنس، وفي قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ﴾ لام التملك يعني: في حمد يحمده أهل السماوات والأرض في الدنيا والآخرة ملك له، وهو الذي أعطاهم استعداد الحمد يحمده بآثار قدرته على قدر استعدادهم واستطاعتهم؛ فأين المحامد للجن والإنس متسع لحد جناب القدس؟! بل هو حمد نفسه القديم الأزلي، وقال: «الحمد لله حمد الخلق له مخلوق»، فإن وحده لنفسه قديم باق، ثم عرف نفسه بصنعه، فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾؛ أي: سماوات القلوب في أرض النفوس وجعل الظلمات في النفوس، وهي صفاتها البهيمية والحيوانية وأخلاقها السبعية والشيطانية والنور في القلوب، وهي صفاتها الروحانية الباقية، وإنما ذكر بلفظ الجمل؛ لأن النور والظلمة من عالم المعاني وهو عالم الأمر كقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ [الأعراف: 54]، ألا له الخلق والأمر فالسماوات والأرض من عالم الصورة ذكرها بلفظ الخلق كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ والنور والظلمة من عالم المعنى ذكره بلفظ الجمل.

الآفاق أزلاً وأبدًا ﴿يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: 1] يميلون وينحرفون عن طريق الحق جهلاً وعناداً.

وكيف تعدلون عن طريق الحق وتسترون هويته مع هوياتكم الباطلة أيها التائهون في تيه الضلال؟! إنه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ أي: قدر وجودكم ﴿مِنْ طِينٍ﴾ جماد قريب من العدم ﴿ثُمَّ قَضَى﴾ وقدر ﴿أَجَلًا﴾ لحياتكم في النشأة الأولى ﴿وَأَجَلَ مُّقْصًّى﴾ مقدر ﴿عِنْدَهُ﴾ لفنائكم فيه في النشأة الأخرى ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ﴾ بعدما علمتم وتحققتم منشأكم ونشأتكم الأولى ﴿تَمْتَرُونَ﴾ [الأنعام: 2] تشكون في النشأة الأخرى.

﴿وَكَيْفَ تَمْتَرُونَ وَتَشْكُونَ فِيهَا مَعَ أَنَّهُ﴾ ﴿هُوَ اللَّهُ﴾ القادر المتوحد المتفرد المتجلي ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ بالاستقلال والانفراد ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضورى ﴿سِرُّكُمْ وَجَهْرُكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾⁽¹⁾ [الأنعام: 3] من خير وشر ونفع وضر في نشأتكم الأولى.

﴿وَمِنْ أَمَارَاتِ كُفْرِهِمْ وَسْتَرِهِمْ أَنَّهُمْ﴾ ﴿مَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ﴾ عظيمة دالة على توحيد الحق بلسان رسول من الرسل العظام ﴿مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ المتوحد بالربوبية ﴿إِلَّا كَانُوا﴾ من غاية كفرهم وجهلهم ﴿عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الأنعام: 4].

ومن غاية إعراضهم وإلحادهم عن طريق الرشاد ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾ المطابق للواقع الذي هو القرآن الجامع ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ بلسان من هو أعلى مرتبة ومكانة عند الله، وأكمل ديناً وأقوم طريقاً فكذبوه واستهزءوا به ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ﴾ وسيظهر لهم في النشأة الأولى والأخرى ﴿أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: 5] حين نزول العذاب عليهم في الدنيا بضرب الذلة والمسكنة والجزية والصغار، وفي الآخرة العذاب والنكال المخلد.

(1) قال كبرى: باستعمال الاستعداد السر والجهر والمأمورات والمنهيات من الخير والشر، وقد خص الإنسان بهذا الكسب أيضاً من الملك والحيوان، فإن الملك لا يقدر أن يكسب من الصفات الحيوانية شيئاً، ولا الحيوان قادر على أن يكسب من الصفات الملكية شيئاً والإنسان متصرف في هاتين الصفتين، وله اكتساب التخلق بأخلاق الله، بالتقرب إلى الله بأداء ما فرض عليه والتزام النواقل واجتناب النواهي إلى أن يصير خير البرية، وأيضاً أن يكتب من الشر ما يصير به شر البرية، فيكون من أحواله ما أخبر عنه.

﴿الَّذِينَ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا
السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِذْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ
قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ
مُتَّبِعٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴿٨﴾﴾
[الأنعام: 6-8].

﴿أ﴾ يشكون في نزول العذاب ويترددون و﴿لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ
قَرْنٍ﴾ من أهل القرون الماضية كعاد وثمود وغيرهما مع أنا ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي:
قدرناهم فيها قادرين على أمور عظام وآثام جسام ﴿مَا لَمْ يُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ ولم نجعل في
وسعكم من اليسعة وطول الملك والترفة والاستيلاء ﴿وَو﴾ مع ذلك ﴿أَرْسَلْنَا السَّمَاءَ﴾
المطر ﴿عَلَيْهِمْ مِذْرَارًا﴾ مغزارة كثيرة ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ دائما
متجددا، وبالجمله: أمهلناهم زمانا طويلا متنعمين مترفهمين ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ بالمره
﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ التي صدرت عنهم من تكذيب الأنبياء وما جاءوا به، وإفسادهم في الأرض
بأنواع الفسادات ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: 6].

ولا تبال يا أكرم الرسل بتكذبياتهم واقتراحاتهم، ولا ترج منهم الإيمان بك
ويكتابك؛ لأنهم من غاية انهماكهم في الضلال.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا﴾ من مقام جودنا ﴿عَلَيْكَ كِتَابًا﴾ مكتوبا ﴿فِي قِرْطَاسٍ﴾ ورق
﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ حين نزوله ﴿لَقَالُوا الَّذينَ كَفَرُوا﴾ من خبث باطنهم وجهلهم الجبلي
﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُتَّبِعٌ﴾ [الأنعام: 7] عظيم ظاهرا؛ لأن الورق لا تنزل
من جانب السماء إلا بسحر.

﴿وَقَالُوا﴾ من غاية شقاقهم ونفاقهم معك: إن كان نبيا ﴿لَوْلَا﴾ هلا ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ
مَلَكٌ﴾ ويصدقه نبوته فنصدق، قل لهم في جوابهم نيابة عنا: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ﴾ على
مقتضى سنتنا في الأمم الماضية ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: لتحقق أمر إهلاكهم البتة ﴿ثُمَّ﴾
بعد نزول الملك بل تعذبون كالأمم السالفة ﴿لَا يُنْظَرُونَ﴾ [الأنعام: 8] ولا يمهلون
ساعة ولينكرون ويعذبون البتة.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلِيكُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ

أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١١﴾ [الأنعام: 9-11].

﴿و﴾ بعد ذلك أيضاً ﴿لَوْ جَعَلْنَاهُ﴾ أي: الرسول المنزل إليهم ﴿مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ أي: على صورته؛ إذ لا يمكن لبشر أن يرى الملك على صورته لمهابته، لذلك ما جاء جبريل على رسول الله ﷺ إلا على صورة دحية الكلبي، وأيضاً لم يمكنهم الاستفادة منه لعدم الجنسية ﴿و﴾ إن أنزلناه على صورة البشر ﴿لَلْبَشَنَّا﴾ أي: لخلطنا عليهم ما يلبسون⁽¹⁾ [الأنعام: 9] ما يخلطون على أنفسهم من البشر لا يليق بالرسالة فلم يصدقوه أيضاً.

﴿و﴾ لا تغمم ولا تضطرب يا أكمل الرسل من استهزائهم وسخريتهم معك واصبر على أذاهم فإنه ﴿لَقَدْ اسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ فصبروا على ما كذبوا واستهزئوا ﴿فَحَاقَ﴾ وأحاط من الجوانب ﴿بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: 10] فأهلكوا واستؤصلوا بما استهزءوا وإن أنكروا قصة هلاكهم.

﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: مستقر الفراعنة والأكاسرة والقياصرة والخواقين معتبرين ﴿ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [الأنعام: 11] الذين كذبوا الرسل عتوا وعناداً إلى حيث لم يبق من رسومهم وآثارهم وأظلالهم أصلاً مع أنهم كانوا أولي قوة وذوي بأس شديد.

﴿قُلْ لِّمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُتِبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَ كُتُبُكُمْ﴾

(1) قال ابن عجيبة: أي: لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم وعلى ضعفائهم، أو لفعلنا لهم في ذلك فعلاً مُلبساً يطرق لهم إلى أن يلبسوا به على أنفسهم وضعفائهم؛ فإن عادة الله في إظهار قدرته أن تكون مرتدية برداء حكمته؛ ليبقى سر الربوبية مضموناً، فمن سبقت له العناية خلق الله في قلبه التصديق بها، حتى علمها ضرورة، وغيره يلبس الأمر عليه فيها وكرامات الأولياء كمعجزات الأنبياء، لا تظهر إلا لأهل الصديق والتصديق، ولا يتحقق بولايتهم إلا من سبق له الوصول إلى عين التحقيق: «سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه، ولم يؤصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه»، فأهل الإنكار عليهم لا يرون إلا ما يقتضي البعد عنهم، وأهل الإقرار لا يرون إلا ما يقتضي القرب منهم والمحبة فيهم، والله تعالى أعلم. [البحر المديد (2/126)].

إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَهُ مَا
سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَخْبِرَ اللَّهُ أَنِّي فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَهُوَ يُطْعِمُهُ وَلَا يَطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
﴿١٤﴾ [الأنعام: 12-14].

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل تبكيًا وإلزامًا: ﴿لَمَنْ مَاء﴾ ظهر ﴿فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ﴾ تصرفًا وتملكًا إيجابًا وإظهارًا وإعدامًا وإفناء ﴿قُلْ﴾ أيضًا أنت يا أكمل
الرسل بعدما بُهتوا وتحيروا في الجواب: ﴿لِلَّهِ﴾ المتوحد المتفرد بالتجلي والظهور
والتصرف مطلقًا؛ إذ ﴿كَتَبَ﴾ أوجب وألزم ﴿عَلَى نَفْسِهِ﴾ أي: ذاته حين كان ولم يكن
معه شيء ﴿الرَّحْمَةُ﴾ العامة؛ أي: التجلي باسم الرحمن على عروش ذرائر الأكوان
المنعكسة من أوصافه الذاتية، والله ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ أيها العكوس والأظلال بمقتضى اسم
الرحيم ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ التي هي الطامة الكبرى المرتفعة فيها نقوش الغير والسوى
مطلقًا ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: في جمعه ورفع عند أولي البصائر المتأملين في سر الظهور
والإظهار، وأما ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ باقتصار النظر في هذه الأظلال والتماثيل
الزائفة الزائلة التي لا قرار لها ولا مدار للذاتها وشهواتها ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:
12] بالرجوع إلى ما في التوحيد ومقر التجريد والتفريد، أولئك هم الظالمون في تبه
الحرمان، الباقون في ظلمة الإمكان.

﴿وَوَ﴾ كيف ينكرون جمعه وتوحيده مع أنه ﴿لَهُ﴾ سبحانه ﴿مَا سَكَنَ﴾ ويطن
﴿فِي اللَّيْلِ﴾ أي: مرتبة الباطن والغيب ﴿وَوَ﴾ ما ظهر وانكشف في ﴿النَّهَارِ﴾ أي: مرتبة
الظاهر والشهادة ﴿وَهُوَ﴾ بذاته ﴿السَّمِيعُ﴾ لكل ما سمع ﴿الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: 13] لكل ما
علم وأدرك لا يخفى عليه شيء مما ظهر ويطن.

﴿قُلْ﴾ لمن أنكر توحيد الله وأثبت الشريك له، ومع ذلك يرغبك يا أكمل الرسل
إلى شركه إلزامًا وتبكيًا: ﴿أَخْبِرَ اللَّهُ﴾ الواحد الأحد الصمد الذي لا شريك له أصلًا
﴿أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ موليًا وكيلًا لاكون مشركًا مع كونه سبحانه ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾
أي: موجودهما ومظهرهما من كتم العدم ﴿وَهُوَ يُطْعِمُهُ﴾ أي: يرزق للمحتاجين ﴿وَلَا
يُطْعَمُ﴾ لتتزهه عن الأكل والشرب، خص بهذه الصنعة؛ لأنه من أقوى أسباب الإمكان،
وأجل أمارات الحدوث وأظهرها، والباقي متفرع عليه ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لكافة

البرايا: ﴿إِنِّي أُمِرْتُ﴾ من عند ربي ﴿أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أطاع وانقاد، وأظهر التوحيد الذاتي وأدعو الناس إليه ﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى الْفُتُونِ﴾ أيضًا نهيت أنا على وجه المبالغة والتأكيد من عنده سبحانه بقوله: ﴿لَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 14] المثبتين الوجود لغير الحق من الأظلال وبعدهما أمرت مما أمرت.

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ١٥ ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ ١٦ ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ١٧ ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ ١٨ [الأنعام: 15-18].

﴿قُلْ﴾ لمن تبعك لعلمهم ينتبهون: ﴿إِنِّي﴾ بعدما تحققت بمقام الكشف والشهود ﴿أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ أي: إن خرجت عن مقتضى توحيده ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام: 15] هو يوم العرض الأكبر الذي تجزى فيه كل نفس بما تسعى.

﴿مَنْ يُصْرَفْ﴾ العذاب ﴿عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ الحق، وحققه بمقام شهوده وكشفه ﴿وَذَلِكَ﴾ التحقق والانكشاف هو ﴿الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ [الأنعام: 16] لأهل العناية والوصول.

﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى الْفُتُونِ﴾ بعدما تحققت يا أكمل الرسل، وتقررت في مقر التوحيد ﴿إِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ بلية وعناء ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ﴾ إذ لا شيء غيره ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ﴾ عطية وغنى ﴿فَهُوَ﴾ أيضًا منه؛ لأنه ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من الخير والشر والنفع والضرر ﴿قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: 17] تحيط قدرته بجميع المقدورات.

﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى الْفُتُونِ﴾ كيف لا يكون قديرًا على كل ما أراد؛ إذ ﴿هُوَ الْقَاهِرُ﴾ العزيز الغالب ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾^(١) يتصرف فيهم كيف يشاء ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ المتقن في تدبيراتهم

(١) قال في التأويلات: في الأزل، فبالقهر إخراجهم من مكان العدم إلا أنه سبحانه وتعالى يقهر هذه الحالة ويبدل العدم بالوجود، وقد عم قهره جميع عباد، فقهر الكفار بموت القلوب وحياة النفوس إذ أخطأهم النور المرشش على الأرواح في بدء الخلقة، فضلوا في ظلمات الطبيعة وما اعتدوا إلى نور الشريعة، وقهر نفوس المؤمنين بأنوار الشريعة؛ فأخرجهم عن ظلمات الطبيعة بالقيام على طاعته وقهر قلوب المحبين في بلوغات الاشتياق، فأسنها بلطف مشاهدته وقهر أرواح الصديقين بسطوات تجلي صفات جماله، وقهر أسرار الواصلين بسطوات بها صفات

﴿الْخَيْرُ﴾ [الأنعام: 18] بحوائجهم يعطيهم ما ينبغي لهم ويمنعهم عما يضرهم بالإرادة والاختيار.

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَهَيْتُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَتابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنعام: 19-21].

وإن جادلوك واستشهدوا منك شهيداً على نبوتك ورسالتك ﴿قُلْ﴾ لهم إلزاماً وتبكيثاً: ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ﴾ وأتم ﴿شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ﴾ لأن المتعين المتميز بالعظمة والكبرياء هو ﴿شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ شهادته على أنه ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ الجامع للكتب السالفة من عنده ﴿لَأُنْذِرَكُمْ﴾ وأبشركم ﴿بِهِ﴾ أيها الموجودون في حين نزوله ﴿و﴾ كذا ﴿مَنْ بَلَغَ﴾ له خبر وحيه وحكمه من الأسود والأحمر إذ أرسلت إلى كافة البرية بشيراً ونذيراً على مقتضى التوحيد الذاتي ﴿أَيُّكُمْ﴾ أيها المنهمكون في بحر الضلال ﴿لَتَشْهَدُونَ﴾ بعد وضوح البرهان ﴿أَنَّ مَعَ اللَّهِ﴾ المتوحد بذاته، المستقل بالالوهية ﴿إِلَهَةً أُخْرَى﴾ مشاركة له في ملكه ووجوده ﴿قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ ما تشهدون ظلماً وزوراً بل ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ متفرد بالالوهية، متوحد بالربوبية، ليس لغيره وجود حتى يشارك معه، بل لا وجود إلا هو، ولا إله سواه ﴿وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: 19] إليه من الأضلال الباطلة والتماثيل العاطلة.

ثم قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ الْكِتَابَ﴾ من اليهود والنصارى ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ أي: سيدنا محمد ﷺ بحليته وأوصافه المذكورة في كتبهم ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ بلا شائبة شك ووهم ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ من أهل الشرك والتحريف ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: 20] به ونبوته ورسالته عناداً ومكابرة.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ عند الله وأوجب للبطلان والانتقام ﴿مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾

وحرف كتابه عناداً ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ المنزلة على رسوله المبينة لطريق توحيدِه مكابرة بلا سند ودليل، ومع ذلك يطلبون ويتوقعون الفوز والفلاح من عنده سبحانه ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: 21] الخارجون عن مقتضى العقل والنقل، التاركون متابعة من أيده الحق وأرسله إلى الخلق لإشاعة توحيدِه وتبليغ أحكامه اللائقة بوحدة ذاته وإزاحة الشرك وإزالته بالمرّة.

﴿وَيَوْمَ نَخْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاءُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْصُرُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوُونَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ دُفِعُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِحَايَتِ رَبِّنَا وَلَوْ كُنَّا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام: 22-27].

﴿و﴾ اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ نَخْشُرُهُمْ﴾ ونجمعهم ﴿جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ استهزاء وتفضيخاً لهم على رءوس الملا: ﴿أَيْنَ شُرَكَاءُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: 22] أنهم آلهة مستحقة للعبودية والإيمان، وتعتقدون أنهم يشفعون لكم وينقذونكم من العذاب؟ ادعوهم لينقذوكم.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما سمعوا ما سمعوا ﴿لَمْ تَكُنْ فَتَنْصُرُهُمْ﴾ وحيلتهم للخلاص ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ معتذرين مقسمين: ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا﴾ أنت يا مولانا ﴿مَا كُنَّا﴾ في أنفسنا ﴿مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 23] لك غيرك عابدين لسواك.

﴿أَنْظِرْ﴾ أيها الرائي ﴿كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ في مقعد الصدق ومحل اليقين ﴿و﴾ انظر كيف ﴿ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: 24] من الشركاء الذين يعتقدونهم شفعاء عند الله يخلصونهم من عذاب الله.

﴿و﴾ كان ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من هؤلاء المشركين المعتذرين ﴿مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ حين تلو القرآن ولم يفهموه أنكروه واستهزءوا به ﴿و﴾ كيف يفهمونه؛ إذ ﴿جَعَلْنَا عَلَى

قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةٌ^(١) أَغْطِيَةٌ وَأَغْشِيَةٌ كَرَاهَةٌ ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ يمنع عن استماعه ﴿وَهُمْ مِنْ غَايَةِ انْكَارِهِمْ وَعِنَادِهِمْ﴾ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ ﴿دَالَّةٍ عَلَى تَوْحِيدِ الْحَقِّ وَتَمْجِيدِهِ﴾ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴿عِنَادًا وَمُكَابَرَةً﴾ حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ ﴿مِنْ إِفْرَاطٍ عَتَوْهُمْ﴾ يُجَادِلُونَكَ ﴿فِي آيَاتِ اللَّهِ بِمَا لَا يَلِيقُ بِهَا﴾ حَيْثُ ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ سَتَرْنَا لِلْحَقِّ وَتَرَوِيجًا لِلْبَاطِلِ: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا كَلَامُ الَّذِي آتَى بِهِ سَيِّدُنَا مُحَمَّدٌ ﷺ﴾ [الأنعام: 25] يَسْطُرُونَهَا لِتَضْلِيلِ ضَعْفَاءِ الْعَوَامِ.

﴿وَهُمْ﴾ بهذا الطعن والقدح ﴿يَتَّبِعُونَ غَنَةً﴾ أي: يقصدون إضلال المؤمنين المسلمين عن متابعة الرسول والإيمان به ﴿وَهُمْ﴾ هم في أنفسهم ﴿يَتَّبِعُونَ غَنَةً﴾ أي: يبعدون عنه عتوا وعنادا ﴿وَإِنْ يَهْلِكُونَ﴾ أي: ما يهلكون بهذا التضليل والخداع ﴿إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: 26] أن ضرر إضلالهم وخداعهم لا يتجاوز عنهم؛ لأنهم هم ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: 7] في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَوْ تَرَى﴾ أيها الرائي ﴿إِذْ وَقَفُوا﴾ أي: حين أشرفوا ﴿عَلَى النَّارِ﴾ وتحققوا الوقوع والإيقاع فيها عنوة وعنفًا لرأيت أمرًا فظيماً فجيعاً ﴿فَقَالُوا﴾ حيثُ من غاية تفزعهم وتفجعهم متمنين: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ على أعقابنا التي كنا فيها ﴿وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ التي جئنا فيها فكذبناها ﴿وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: 27] المصدقين بمن جاءنا بها.

﴿بَلْ بَدَأْتُمْ مَا كَانُوا يَحْفَتُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَانِهِمْ وَاصْنَعُوا لَهُمْ لَكِنُيُونَ﴾^(٢٨) وَقَالُوا
إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ^(٢٩) وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ

(١) قال البقلي: كانت قلوبهم محجوبة بعوارض البشرية، وظلمات النفس الأتمة عن رؤية أنوار الغيب، وفهم خطاب الحق، كانت قلوبهم في أغشية الغيرة؛ لأنهم ليسوا مطبوعين باستعداد قبول خطاب الله، ورؤية عرائس الملكوت، وفي آذان أسرارهم وقر الضلالة، ولم يسمعوا بها ما لم يسمع بسمع الخاص، وعلى عيون ظاهرهم وباطنهم غشاوة العجب والجهل، حتى لم يروا براهين الحق في وجوه الصديقين. قال ابن عطاء: لأنه لم يجعل لهم سمع الفهم، وإنما جعل لهم سمع الخطاب.

وقال الراسطي: منهم من يستمع إليك بنفسه؛ فهو في ظلمات نفسه يتردد، ومنهم من يستمع منك بناءً؛ فهو في أنوار العارف يتقلب.

قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَقًّا إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَسَاءَ مَا يَرْزُونَ ﴿٣١﴾ [الأنعام: 28-31].

﴿بَلَىٰ بَدَا﴾ وظهر ﴿لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ حقية الرسل والكتب عنادًا واستكبارًا فتمنوا حين اليأس والبأس ضجرًا لا عزمًا صحيحًا؛ حيث لو ردوا لآمنوا البتة بل ﴿وَلَوْ رُدُّوا﴾ أي: لو فرض ردهم إلى الدنيا بعد وقوعهم على أهوال الآخرة ﴿لَعَادُوا﴾ من خبائة طبيعتهم ﴿لَمَّا نُهُوا عَنْهُ﴾ أيضًا مكابرة وعنادًا ﴿وَلَوْ﴾ بالجملة: ﴿إِنَّهُمْ﴾ في هذا التمني أيضًا ﴿لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: 28] البتة لكون جبلتهم وأصل فطرتهم على الكذب لا يزول عنهم أصلاً.

﴿وَلَوْ﴾ كيف لا تكونون مجبولين على الكذب والعناد إذ هم ﴿قَالُوا﴾ من خبث باطنهم حين دعاهم الرسل - عليهم السلام - إلى الإيمان بالله وباليوم الآخر: ﴿إِنْ هِيَ﴾ أي: ما الحياة ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ أي: التي كنا عليها فيها ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾⁽¹⁾ [الأنعام: 29] كما زعم هؤلاء السفهاء.

﴿وَلَوْ تَرَى﴾ أيها الرائي ﴿إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: حين وقفوا وصفوا عند ربهم؛ ليحاسبوا بما عملوا لرأيتهم حيارى سكارى مضطربين مضطربين ﴿قَالَ﴾ لهم سبحانه من وراء سرادقات العز والإجلال: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ أيها الحمقى الكاذبون المكذبون؟ ﴿قَالُوا﴾ بعدما كوشفوا وعوينوا معتذرين متفجعين مصدقين مقسمين: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ آمنا وصدقنا ﴿قَالَ﴾ سبحانه: الآن لن ينفعكم الإيمان ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: 30] وتكذبون به في النشأة الأولى التي هي دار الفتنة والاختبار.

(1) بعد أن متنا. وذلك لأنهم مجبولون على إنكار البعث وتكذيب الرسل، وأنهم قد كانوا في عالم الأرواح مشاهدين المطاف الحق ومخاطبي قوله: ﴿أَلَيْسَ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 172]، ومجيبى ﴿بَلَىٰ﴾ [الأعراف: 172]، فلما بعثوا إلى عالم الصورة وحجبوا بلباس البشرية فنسوا تلك الأحوال والأقوال، ولم يسمعوا عن الأنبياء حين ذكروا بتلك الأيام كما قال تعالى: وذكرهم بأيام الله فما نفعتهم الذكرى، إذا طبعوا كافرين وقال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: 55]، فكذلك لو ردوا إلى عالم الصورة لنسوا ما شاهدوا من الأحوال ولعادوا إلى ما كانوا عليه من الإنكار دون الإقرار. [التأويلات النجمية].

ثم قال سبحانه تفرغاً وتوبيخاً لهم: ﴿قَدْ خَسِرَ﴾ وخاب ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِإِيقَانِ اللَّهِ﴾ مع نزول الآيات الدالة عليه، وإرشاد الرسل والأنبياء والأولياء لهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ﴾ المعدة للعرض ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿قَالُوا﴾ بعدما انكشفوا به وتيقنوا له متحسرين خائبين خاسرين: ﴿يَا خَسِرَتْنَا﴾ كلمة تحسر وتأسف ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ أي: في النشأة الأولى من التكذيب وعدم الإيمان ﴿وَهُمْ﴾ في تلك الحالة ﴿يُخْمَلُونَ﴾ ويال ﴿أَوْزَارَهُمْ﴾ وآثامهم ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ خائبين خاسرين محرومين عن مطالعة وجه الله الكريم ﴿الْأَسَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: 31] في الدنيا، ويحرمون بها في العقبى عن لقاء المولى.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(٣٢)
 قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ^(٣٣)
 وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلٰى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرْنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ
 وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ^(٣٤) وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْغِي
 نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ
 مِنَ الْجَاهِلِينَ^(٣٥) [الأنعام: 32-35].

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ التي يحصرون الحياة عليها، ويحرمون من الحياة الحقيقية لأجلها ﴿إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ يلعب بهم ويلهيههم ويشغلهم عن الحياة الأبدية والبقاء السرمدي ﴿وَلَلْآخِرَةُ الْآخِرَةُ﴾ وجناتها الحقيقية ولذاتها المعنوية ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ عن محارم الله ومنهياته في الحياة الصورية ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(١) [الأنعام: 32] وتميزون أيها العقلاء بين الحياتين، ولا تعلمون أي اللذتين خير لكم.

(1) الإشارة فيها أن القيامة يوم ينكشف فيه الأسرار وتنهتك فيه الأستار، فكم من محل بثوب تقوية حكم له مقارنوه بأنه زاهد في دنياه، راغب في عقباه، محب طولاه، مفارق لهواه، كشف الأمر عما توهموه فافتضح عندهم بغير ما ظنوه، ولو ترى إذ وقفوا على ربهم هنأ أي: وقفوا على ربوبية عند ظهورها بالقهر ولو وقفوا على الربوبية في الدنيا لوقفوا عند ظهورها باللفظ، فمن خفي عليه الربوبية؛ فلغلبة القهر، ومن ظهر له به الربوبية اليوم؛ فلغلبة اللفظ بلسان القهر. [التأويلات].

ثم قال سبحانه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ﴾ الشأن ﴿لَيُخْزِنَنَّ﴾ ويؤذيك القول ﴿الَّذِي يَقُولُونَ﴾ في حقك أولئك المعاندون المكابرون من أنك ساحر كاذب مجنون شاعر وغيرها، ولا تبال بهم ويقولهم ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ في الحقيقة ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ الخارجين عن حدود الله، المنصرفين عن مقتضى أحكامه ﴿بآيَاتِ اللَّهِ﴾ المنزلة عليك من عنده لإهداء التائبين من عباده ﴿يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: 33] ينكرون ويعاندون جحودًا وإصرارًا، وبالجمله: فاصبر على أذاهم يا أكمل الرسل إلى أن يحل عليهم الغضب من الله المنتقم المقتدر.

﴿وَ﴾ الله يا أكمل الرسل ﴿لَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ مثل ما كذبت ﴿فَصَبِرُوا﴾ وتحملوا ﴿عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ الذي وعدناهم، فنصرناهم وانتقمنا من عدوهم فكانوا هم الغالين ﴿وَ﴾ بالجمله: لا تياس من نصر الله وتأيده بإمهال الله إياهم؛ إذ ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ التي سبقت منه سبحانه لنصر أنبيائه ورسله ﴿وَ﴾ كيف تياس وتقنط ﴿لَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَا الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: 34] ما يكفيك عن التردد فيه.

﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ﴾ وشق ﴿عَلَيْكَ إِغْرَاضُهُمْ﴾ عن الإيمان والانقياد لك ﴿فَإِنْ امْتِطَعْتَ﴾ من غاية حرصك لإيمانهم وانقيادهم ﴿أَنْ تَتَّبِعَنِ﴾ وتطلب ﴿نَفَقًا﴾ منفذًا ﴿فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا﴾ مرقاة ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ فافعل ﴿فَتَأْتِيَهُمْ بَآيَةٌ﴾ دالة على إلجائهم إلى الإيمان، وإلا فاصبر حتى يأتي الله بأمر من عنده وما لك إلا التبليغ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونُ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام: 35] بأن الأمور كلها بيد الله واختياره، يهدي من يشاء ويضل من يشاء، فلا تحرص على إيمانهم وهدايتهم، ولا تجهد فيما لا يسع فيه جهدك وسعيك؛ لأنك لا تهدي من أحببت، هذا تأديب من الله لرسوله وأمثال هذا في القرآن كثيرة.

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ (٣٦) وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ عَلَيْنَا آيَةٌ مِنْ رَبِّنَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٧) وَمِمَّن قَابَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلِيمٌ يَطِيرُ بِجَنَاحِهِ إِلَّا أُمٌّ آمَنَ آلُ مُثَلِّمٍ بِمَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّوهُمْ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَاءُ يُهْدِهِ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٩) [الأنعام: 36-39].

وكيف تطلب إيمانهم وتتوقع هدايتهم أيها الرسول الداعي مع أن الداعي ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾⁽¹⁾ الدعوة عن رضا، ويلقون السمع وقلوبهم حاضرة بفهمها، وهم في أنفسهم طالبون الحياة الحقيقية ﴿وَوَلَّاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ طالبون الحياة الحقيقية وإن كانوا أحياء صورة ﴿يَتَغَشَّوْنَ اللَّهَ﴾ في يوم الحشر ويحييهم بالحياة الحقيقية حتى يطلعوا على ما فاتهم في الحياة الصورية، ولا تنفعهم تلك الحياة والاطلاع إلا الحسرة والندامة على ما فات عنهم في دار العمل والاختبار ﴿ثُمَّ﴾ بعدما أحياهم وأطلعهم، ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره ﴿يُزَجَّفُونَ﴾ [الأنعام: 36] يساقون لجزاء ما عملوا في الدنيا من تكذيب الآيات والرسول والاستهزاء معهم والذب عنهم.

﴿وَوَلَّاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ من غاية بغضهم وعنادهم وبغضهم معك يا أكمل الرسل ﴿قَالُوا﴾ أي: بعضهم لبعض: إن كان محمد ﷺ نبيا ﴿لَوْلا﴾ هلا ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي: آية اقترحناها منه وآية تلجئنا إلى الإيمان به أو آية تستأصلنا بالمرّة مع أن دعواه أن ربه يقوى ويقدر على جميعها ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿قَادِرٌ﴾ بالقدرة التامة الكاملة ﴿عَلَى أَنْ يَنْزِلَ آيَةٌ﴾ من آية اقترحتموها متى تعلقت إرادته ومشيته ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: 37] أن الله فعال لما يريد، وأن الله لو أنزلها نزل عقبا عليهم البلاء كما نزل على الأمم الماضية.

﴿وَوَلَّاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ كيف لا يقدر سبحانه على جميع المرادات والمقدورات مع أنه ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ تتحرك ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ﴾ في الجو ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ إلا أمم أمثالكم محفوظة أحوالها وأرزاقها وآجالها عندنا؛ بحيث لا نهمل شيئا من حوائجها، بل نكتب ونثبت في لوحنا المحفوظ وكتابنا المبين على التفصيل بحيث ﴿مَا قَرَطْنَا﴾ وأفرطنا ﴿فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ من حوائجهم وأحوالهم ﴿ثُمَّ﴾ بعدما حفظوا ورزقوا كل منهم ﴿إِلَى رَبِّهِمْ يُخْشَرُونَ﴾ [الأنعام: 38] يرجعون رجوع الظل إلى ذي الظل.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على قدرتنا الكاملة ﴿صُمُّ﴾ عن استماع كلمة

(1) إنما يستجيب لدعوة الخصوصية، ويُجيبون الدعوة إلى السير لشهود عظمة الربوبية، الذين سبقت لهم العناية، وأحيا الله قلوبهم بالهداية، فيسمعون بسمع القلوب والأرواح، ويترقون من حضرة عالم الأشباح إلى حضرة عالم الأسرار والأرواح؛ والموتى بالهفلة والجهل يبعثهم الله ببركة ضجة أهل الله فتُهَبُّ عليهم نفحات الهداية؛ لما سبق لهم من سر العناية، ثم إليه يرجعون فيتنعمون في حضرة الشهود، في مقعد صدق عند الملك الودود [البحر المديد (141/2)].

الحق من ألسنة الرسل ﴿وَيُكِّمُ﴾ عن التنطق بها مع أنهم يتقنوا بها بل هم مغمورون ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾^(١) أي: الحجب الناشئة من هوياتهم الباطلة وهياكلهم الفاسدة العاطلة ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ﴾ إضلاله بمقتضى اسمه المذل المضل ﴿يُضِلُّهُ﴾ حتمًا بلا هداية وإرشاد أصلاً ﴿وَمَنْ يَشَأِ﴾ هدايته ﴿يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: 39] موصل إلى توحيده؛ إذ كل من عنده ميسر موفق لما خلق له.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٢) بل إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ^(٣) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ^(٤) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ^(٥) فَلَمَّاسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ^(٦) [الأنعام: 40-44].

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل إمحاضاً للنصح: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني صريحاً ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ﴾ في يوم الجزاء ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ التي تحشرون فيها إلى الله تعالى هائمين حائرين ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ﴾ المنقذ من العذاب، والمنجي من الحيرة والهيمنان ﴿تَدْعُونَ﴾ أم تدعونه تضرعاً وتلجئون نحوه استعاذة؟ بينوا إليّ أمركم في حالة اضطراركم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنعام: 40] في الأقوال والأخبار.

(١) وصف سبحانه أهل الامتحان الذين تهتف هواتف الإلهام بالخطاب لقلوبهم من الغيب فيستقبلونها بمعارضة نفوسهم، ويكذبون خواطر الحق بخاطر الباطل حين لم يعرفوا الإلهام من الوسواس، وذلك من وقر الضلالة في آذانهم؛ حيث لم يلقوا أسماعهم في مقام الشهود إلى الله، ولم تذكر اسم الله ألسنة أسرارهم بوصف الهيبة والمحبة، وذلك من بقايا نفوسهم في ظلمات هواها.

ومعناه: أي من كذب خواطر الحق الواردة من عندنا حين ألهمنا بخالص الإيمان بكرامات أوليائنا ومعجزات أنبيائنا تغطي آذان أسرارهم، وأبصار بصائرهم بغشاوة الضلالة؛ حتى لا يسمع كلامنا في الغيب ولا يرانا في الملكوت، ويبقى في ظلمات نفسه الأمارة وشيطانه الكافر، ولا يقدر أن يتكلم بذكرنا ومعرفتنا. قيل: لم تصدقوا إظهار كراماتنا على المقربين من عبادنا عموا وطمسوا عن أنوار الملاحظات، وبقوا مع ظلمات النفوس، وهواجس الهياكل.

﴿بَلْ إِتَاءَ تَدْعُونَ﴾ إِذْ لَا مَلْجَأَ وَلَا مَلَاذَ حَيْثُ لَا هُوَ ﴿فَيَكْشِفُ﴾ عَنْكُمْ ﴿مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ مِنَ الضَّرَرِ وَالْبَلَاءِ ﴿إِنْ شَاءَ﴾ أَي: إِنْ تَعَلَّقَتْ مَشِيَّتُهُ وَإِرَادَتُهُ ﴿وَتَنْسَوْنَ﴾ حَيْثُ ﴿مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: 41] لَهُ مِنَ الْأَظْلَالِ الْبَاطِلَةِ وَالتَّمَاثِيلِ الْعَاطِلَةِ، وَقُلْ لَهُمْ أَيْضًا: إِذَا سَمِعْتُمْ مَالَ أَمْرِكُمْ وَعَاقِبَةَ حَالِكُمْ وَشَأْنَكُمْ، فَتَضَرَّعُوا إِلَى اللَّهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِكُمْ، وَالتَّجَنُّوا نَحْوَهُ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَقْبَلُوا مِنْكَ قَوْلَكَ وَنَصَحَكَ الْبَتَّةَ لَخَبْثِ بَاطِنِهِمْ. ﴿وَوَ﴾ اَعْلَمُ أَنَا ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ رَسُولًا مِنْ مَقَامِ جُودِنَا وَلَطْفِنَا ﴿إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ وَأَيَّدْنَاهُمْ بِآيَاتٍ ظَاهِرَةٍ وَمُعْجَزَاتٍ بَاهِرَةٍ فَكَذَّبُوهُمْ ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: 42] رَجَاءُ أَنْ يَتَضَرَّعُوا إِلَيْنَا وَيَلْتَجِنُوا نَحُونَا فَلَمْ يَتَضَرَّعُوا وَلَمْ يَلْتَجِنُوا.

﴿فَلَوْلَا﴾ هَلَا ﴿إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ وَمَا هِيَ مِنْ عَدَمِ تَأْثَرِهِمْ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ بَلْ يَتَأَثَرُونَ مِنْهَا وَيَزْعَجُونَ ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ﴾ أَي: حَنِبَ وَحَسَنَ ﴿لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 43] مِنْ عَدَمِ الْمَبَالَاةِ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَتَكْذِيبِ رُسُلِهِ، وَالْإِعْرَاضِ عَنْ دِينِهِ.

﴿فَلَمَّا تَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ مِنَ الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَلَمْ يَتَعَذَّبُوا بِهَا ﴿فَتَحْنَأَ عَلَيْهِمْ﴾ ابْتِلَاءٌ وَفِتْنَةٌ ﴿أَبْوَابُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ نَافِعٌ وَخَيْرٌ وَأَمْهَلْنَاهُمْ عَلَيْهَا ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا﴾ أَعْجَبُوا ﴿بِمَا أُوتُوا﴾ مَتْرَفِهِمْ مَتْنَعِينَ بِطَرَيْنِ مَغْرُورِينَ بِالنِّعَمِ نَاسِينَ النِّعَمِ بِالْمَرَّةِ ﴿أَخَذْنَاهُمْ﴾ بِأَنْوَاعِ الْبَلَاءِ ﴿بَغْتَةً﴾ فَجَاءَ ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: 44] مُتَحَسِرُونَ آيِسُونَ خَائِبُونَ مُحْرَمُونَ.

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظَرَ كَيْفَ تُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنَا أَنَا عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ [الأنعام: 45-48].

﴿فَقُطِعَ﴾ وَاسْتُؤْصِلَ ﴿دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بِحَيْثُ لَمْ يَبْقَ مِنْ خَلْفِهِمْ مِنْ اسْتَخْلَفَهُمْ وَاسْتَدْبَرَهُمْ ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 45] عَلَى هَلَاكِهِمْ

واستصلحهم إلى حيث لم يبق من شؤمهم على وجه الأرض.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل أيضا للنصح لعلهم يتتهون: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ﴾ فأصمكم ﴿وَأَبْصَارَكُمْ﴾ فأعماكم ﴿وَوَخَّتُمْ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ بغطاء الغفلة فلا تحسوا ولا تعلموا ولا تفهموا أصلاً ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ الواحد الأحد القادر المقدر ﴿يَأْتِيَكُمْ﴾ ويرجعكم ﴿بِهِ﴾ أي: بالماخوذ ﴿انظُرْ﴾ أيها الرائي ﴿كَيْفَ نُصَرِّفُ﴾ نكرر لهم ﴿الآيَاتِ﴾ ليتنبهوا تارة عقلاً، وتارة تذكيراً وعظة، وتارة عبرة واعتباراً ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْذِقُونَ﴾ [الأنعام: 46] أي: ثم انظر كيف يعرضون عن جميعها من قساوة قلوبهم وخبث طبيعتهم.

﴿قُلْ﴾ لهم أيضاً: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً﴾ فجأة بلا سبق مقدمة وأمرة ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ مع سبق المقدمات والأمارات ﴿هَلْ يَهْلِكُ﴾ أي: من سبته سبحانه ما يهلك بأمثال هذا العذاب الفجائي أو الجهري ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: 47] الخارجون عن مقتضى أوامر الله ونواهيه الجارية على السنة الرسل المؤيدين من عنده. ﴿وَكَيْفَ لَا نَهْلِكُ الظَّالِمِينَ وَلَا نَعَذِّبُهُمْ؟﴾ إذ ﴿مَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ لمن آمن بنا وامثل بأوامرنا واجتنب عن نواهيها ﴿وَمُنْذِرِينَ﴾ لمن لم يؤمن ولم يمتثل ولم يجتنب ﴿فَمَنْ آمَنَ﴾ منهم بعدما سمع الدعوة من السنة الرسل ﴿وَأَصْلَحَ﴾ بالإيمان والتوبة ما أفسد من قبل ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ حين وصولهم إلينا ﴿وَلَا هُمْ يَخْزَنُونَ﴾ [الأنعام: 48] من سوء المنقلب والمآب.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ٤٩ ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنَّمَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ ٥٠ ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ٥١ ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ٥٢ [الأنعام: 49-52].

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ المنزلة على رسلنا، ولم يعملوا بمقتضاها ﴿يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ﴾ الذي يحيطهم من جميع جوانبهم ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأنعام: 49] أي:

بسبب فسقهم وخروجهم عن مقتضى أوامرنا ونواهيها.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل كلامًا ناشئًا عن محض الحكمة تليينًا لقلوبهم: ﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ أي: جميع مراداته ومقدوراته ﴿وَلَا﴾ أدعي أنني ﴿أَعْلَمُ الْغَيْبُ﴾ أي: جميعه؛ إذ هما مما استأثر الله به لا يحوم حوله أحد من خلقه ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ أيضًا: ﴿إِنِّي مَلَكٌ﴾ إذ أنا بشر من جنسكم بل أقول لكم: ﴿إِنْ أَتَّبِعْ﴾ أي: ما أتبع ﴿إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ من عنده لأبلغكم به وأخبركم عنه، والهداية والضلال بيد الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وإن أنكروا لياقة البشر لوحي الله وإلهامه ﴿قُلْ﴾ لهم على سبيل الالتزام: ﴿هَلْ يَسْتَوِي﴾ عندكم البشر ﴿الْأَعْمَى﴾ عن مطالعة عجائب مصنوعات الحق وغرائب مخترعاته ﴿وَالْبَصِيرُ﴾ المشاهد المطالع لها ﴿أ﴾ تشكون فيما بينهما من التفاوت ﴿فَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: 50] وتأملون حتى ينكشف ويتميز عندكم الحق الصريح من الباطل الزائل الزائغ.

﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾ أي: أنذر بما يوحي إليك يا أكمل الرسل ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يَخْشَوْا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ مع كونهم معتقدين أن ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ﴾ يولي أمرهم غيره ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ يشفع لهم عنده حتى ينقذهم من عذابه ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 51] لكي يتقوا ويحسنوا العمل لرضاه.

﴿وَ﴾ بعدما أرسلناك يا أكمل الرسل؛ لترويج الحق وتقوية أهله ﴿لَا تُطْرِدْ﴾ لا تبعد من عندك ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ﴾ أي: في جميع أوقات النهار ﴿وَالْعِشِيِّ﴾ أي: في جميع أوقات الليل، وبالجمله: يستغرقون جميع أوقاتهم بالتوجه نحوه سبحانه إنما ﴿يُرِيدُونَ﴾ بتوجههم غير أن يطالعوا ﴿وَجْهَةً﴾⁽¹⁾ الكريم بسبب ميلك إلى إيمان

(1) الآيتين الإشارة فيهما أن من عواطف إحسانه ولطائف امتنانه وحقوق خواص عباده أن يكون في بعض الأوقات لسانهم فيتكلمون به كما قال: «كنت له سمعًا وبصرًا ولسانًا... إلى آخره» وفي بعض الأوقات يكون لسانهم فيتكلم عنهم، فإذا تكلموا به لكلم مع عباده ليدعوهم إليه، وإذا تكلم عنهم مع عباده ليهديهم إليه فما كان حال الفقراء مع النبي ﷺ المعجز عن الاستدراك ومعارضته فيما كانوا بصدده من إخلاء الرسول ﷺ مجلسه عنهم سكوا عن الاعتراض وتوجهوا بقلوبهم إلى الحق تعالى متصرعين بين يديه متعرضين ببرائتهم لديه فتولى الحق سبحانه إظهارها في ضمائرهم، وإطلاع النبي ﷺ على ودائع سرائهم، فقال تعالى: ﴿وَلَا تُطْرِدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعِشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أخبره عن دوام ذكرهم، وأنهم حسباء الله بالغداة والعشي كما قال تعالى: «أنا جليس من ذكرني»، فلا تطردهم عن مجالستك فإنهم يطلبوني في

أهل الأهواء ومصاحبهم ومجالستهم، مع أنهم ليسوا من أهل الفلاح ولا قابلين له بل ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ﴾ وإيمانهم ﴿مَنْ شِئْ﴾ يعود إليه نفعه ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ﴾ وإيمانك ﴿عَلَيْهِمْ مَنْ شِئْ﴾ بل كل منك، ومنهم مجزي بما عمل ومستول عما فعل ﴿فَتَطْرَدُهُمْ﴾ أي: هؤلاء المؤمنون المریدین وجه الله في جميع أوقاتهم وحالاتهم؛ لأجل أولئك المنهمكين في الضلال ﴿فَتَكُونُ﴾ بواسطة طردهم وتبعيدهم ﴿مَنْ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: 52] الخارجين عن مقتضى العقل والشرع والمروءة.

روي أن قريشاً قالوا: لو طردت يا محمد هؤلاء السفلة - أرادوا عماراً وصهيباً وسلمان وغيرهم - جلسنا إليك وحادثنا معك فقال ﷺ: «وما أنا بطارد المؤمنين»⁽¹⁾. قالوا: فأقمهم من مجلسنا إن جلسنا معك.

قال له عمر رضي الله عنه: لو فعلت حتى ننظر ماذا يصيرون، فقبل ﷺ.

قالوا: فاكتب بذلك كتاباً، فدعا بالصحيفة وبعلي ليكتب، فنزلت:

﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ (٥٣) ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ فَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٥٤) ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ أَلْبَسَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٥٥) ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أُنَبِّئُكُمْ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (٥٦) [الأنعام: 53-56].

﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ أي: مثلما فتنا بعض الناس ببعض في الأمور

متابعتك وقد خصهم الله تعالى بإرادته عما سواهم كما قال تعالى: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: 152] وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: 52] فكل يريدون منه وهم لا يريدون عنه دونه، ويقال: تكلم الناس في الإرادة فأكثروا، وتحقيقها: احتياج يحصل في القلب يسلب القرار من العبد حتى يصل إلى الله تعالى، فصاحب الإرادة لا يهدوا ليلاً ولا نهاراً ولا يجد من دون وصوله إليه سبحانه مسكوناً ولا قراراً. [التأويلات النجمية].

(1) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (29/7).

المتعلقة بمعاش الدنيا من المال والجاه والرئاسة، فتناهم في أمور دينهم أيضًا ﴿لَيَقُولُوا﴾ من غاية استبعادهم واستحقارهم: ﴿أَهْؤُلَاءِ﴾ الضعفاء الفقراء ﴿مَنْ اللَّهُ﴾ عليهم مَنْ بَيْنَنَا ﴿قال سبحانه توبيخًا وتقريعًا لهم: بل هم أولئك الفقراء الصابرون على بلاء الله، الشاكرون لنعمائه﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ ﴿العالم بضمائر عبادہ﴾ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿[الأنعام: 53] الصابرين منهم ومنكم أيها الشرفاء الكافرون لنعمه.

﴿وَإِذَا جَاءَكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ ويمثلون بها بالغداة والعشي وهم يريدون وجهنا ﴿فَقُلْ﴾ لهم قبل تسليمهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المقبولون عند الله الراضون المرضييون وبشرهم بأنه ﴿كُتِبَ﴾ أي: قضى وحبب ﴿رَبُّكُمْ﴾ لأجلكم ﴿عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ الشفقة والرحمة إلى حيث ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا﴾ به يسيء نفسه عند الله صادرًا عنه ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ لا عن قصد وإصرار ﴿ثُمَّ﴾ بعدما علم وخامة عاقبته ﴿ثَابِتٌ مِنْ بَغْدِهِ﴾ واستغفر ربه ﴿وَأَصْلَحَ﴾ بالتوبة ما أفسد بالجهالة ﴿فَإِنَّهُ غَفُورٌ﴾ يستر تلك المعصية عنكم ﴿رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: 54] يقبل توبتكم بسبب إخلاصكم.

﴿وَكَذَلِكَ تَفْصِلُ﴾ ونوضح ﴿الآيَاتِ﴾ ليظهر طريق التوحيد ﴿وَلِتَشِيرَ﴾ ويتميز ﴿سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: 55] المنحرفين عن منهج الرشاد ومسلك السداد عن طريق أهل الحق.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للمشركين الذين يعبدون آلهة غير الله: ﴿إِنِّي نُهَيْتُ﴾ زجرت وصرفت بالدلائل القاطعة الدالة على توحيد الحق، وبالكشوف والمشاهدات الواردة من عنده سبحانه، الصارفة عن الميل والتوجه إلى الغير والسوى مطلقًا ﴿أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ وتسمون ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ آلهة باطلة بأهويتكم الفاسدة ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ التي اخترعتموها من تلقاء أنفسكم، وإن اتبعت بمتابعتكم تلك التماثيل العاطلة ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَ﴾ بعدما ضللت ﴿مَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: 56] أصلاً؛ أي: في شيء من الهداية كمثلكم.

﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ مَا جِئْتُ بِمَعْجَازٍ ﴿إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا قَوْلَ يَقُضِ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَوَاصِلِ﴾ ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا

يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾ [الأنعام: 57-59].

﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ﴾ واضحة ﴿مِّنْ﴾ معرفة ﴿رَّبِّي﴾ وتوحيده ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ ويتوحيده، وأشركتم له غيره واستوجبتم العقوبة العظيمة بشرككم، ومع ذلك استهزأتم باستعجال العذاب ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ من العذاب والنكال ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي: ما الحكم إلا له باستعجال العذاب ﴿يَقْضُ الْحَقُّ﴾ أي: يقضي فيه ويدفع الباطل ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: 57] الحاكمين في الوقائع.

﴿قُلْ لَّوْ أَن عِنْدِي﴾ وتحت قدرتي ومكتتي ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ من نزول العذاب والعقاب ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: لأهلككم بالمرة وارتفع النزاع ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ ولكن ليس لي هذه القدرة والمكنة ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لسرائر عباده ﴿أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: 58] المستوجبين للعذاب والنكال بأخذهم بظلمهم تعلق إرادته.

﴿وَعِنْدَهُ﴾ وتحت قدرته وإرادته ﴿مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ﴾ ومقاليد السرائر والخفيات ﴿لَا يَعْلَمُهَا﴾ وأوقات ظهورها من الغيب إلى الشهادة ﴿إِلَّا هُوَ﴾⁽¹⁾ إذ هو المحيط بجميع ما كان ويكون، لا يعزب عن علمه شيء، ثم لما كانت الأفهام قاصرة عن إدراك الغيب تنزل عن تلك المرتبة إلى ما هو أقرب إلى الأفهام فقال: ﴿وَيَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضورى جميع ﴿مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ من الكائنات والفاسدات، وتنزل منها أيضاً فقال: ﴿وَمَا

(1) قال الشيخ كبرى: لأنه لا خالق إلا هو وليس لنبي ولا لولي مدخل في هذه المفاتيح ولا في استعمالها؛ لأنه مختص بالخالق فحسب ما ضرب لك مثلاً يدركه به هذه الحقيقة، وذلك مثل نقاش الصور، فإن لكل صورة فيما ينشقها شهادة هي هيئتها، وغيب هو أعمل التصوير، ومفتاح يفتح به باب علم التصوير على هيئة الصورة لتنفعل الصورة ثابتة في ذهن النقاش، وهو العلم بيد النقاش لا مدخل لتصرف غيره فيه، فإن الله تعالى هو النقاش المصور والصور هي صورة المكونات المختلفة الغيبية والشهادية، وشهادة كل صورة منها خلقها وكونها وغيبها علم خلقها وتكوينها، وقلم تصويرها الذي هو مفتاح ويفتح به باب علم تكوينها على صورتها وكونها هو الملكوت فبقلم ملكوت كل شيء يكون كل شيء، وقلم الملكوت بيد الله سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: ﴿قُسْبَخَانُ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: 83]، فكما أن الشهادات مختلفة فالملكوتيات مختلفات، ولكل شيء من الجماد والنبات والحيوان والإنسان والملك غيب مناسب لصورته، ولهذا جمع المفاتيح ووجد الغيب، وقال ﴿عِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ﴾ هو علم التكوين وهو واحد في جميع الأشياء وفي الملكوت كثرة كما في الصور.

تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ ﴿٥٨﴾ مِنْ أَغْصَانِ الشَّجَرِ ﴿٥٩﴾ (إِلَّا يَغْلُمُهَا) كيف ينزل، ومن أين ينزل، وإلى أين ﴿٦٠﴾ (وَلَا حَبَّةٌ) ساقطة ﴿٦١﴾ (فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ) أي: كموناتها وبروزاتها إلى أن تصل إلى مرتبتها الأصلية التي كانت عليها قبل سقوطها ﴿٦٢﴾ (وَالْجَمَلَةُ) (لَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ) من الكوائن والفواسد ﴿٦٣﴾ (إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) [الأنعام: 59] هو علمه الحضورى المتحد بعينه وذاته الظاهرة في نفسه المظهرة لنفسه؛ إذ لا هو إلا هو، ولا شيء سواه.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٤﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَمَرُ الْغَاسِقِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الأنعام: 60-62].

﴿و﴾ كيف يخرج عن حيلة علمه شيء من الكائنات والفاسدات؛ إذ ﴿هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم﴾ أي: يغيب استعداداتكم ﴿بِاللَّيْلِ﴾ أي: في مقر البطون والغيب ﴿و﴾ في تلك المرتبة ﴿يَغْلُمُ﴾ بعلمه الحضورى ﴿مَا جَرَحْتُمْ﴾ أي شيء كسبتم واكتسبتم باستعداداتكم ﴿بِالنَّهَارِ﴾ أي: في فضاء الظهور والشهادة من المعارف والحقائق المقتضية للظهور والإظهار لو ظهرتم فيه ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ﴾ ويظهركم ﴿فِيهِ﴾ أي: في فضاء الظهور والشهادة ﴿لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ عنده لاكتسابكم ما في استعدادكم ﴿ثُمَّ﴾ بعد انقطاع الأجل المسمى ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ رجوع الظل إلى ذي الظل ﴿ثُمَّ﴾ بعدما رجعتم إليه ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ يخبركم ويحاسبكم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 60] وتكسبون في نشأة ظهوركم وشهادتكم من الأعمال الصالحة للقبول، والفاسدة الموجبة للرد.

﴿و﴾ عليكم أيها الأظلال الهالكة ألا تغفلوا عن مقتضيات توحيد الله، ولا تخرجوا عن أمثال أحكامه الجارية على السنة رسله؛ إذ ﴿هُوَ الْقَاهِرُ﴾ القادر الغالب ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾^(١) الرقيب المحافظ لهم يحفظهم عما لا يعينهم ﴿و﴾ من حفظه أنه

(1) قال ابن عجيبة: من علم أن الله قاهر فوق عباده، انبلى من حوله وقوته، وانعزل عن تلبيره واختياره؛ لإحاطة القهرية به، ومن تحقق عموم قهارته تعالى، علم أنه لا حجاب حسي بينه

﴿يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ من الملائكة يكتبون ويحصرون ما صدر عنكم ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ﴾ أي: الوقت الذي قدره الله لانقضاء الأجل المسمى ﴿تَوَفَّاهُ﴾ أي: وفي عليه حسابه ﴿رُسُلَنَا﴾ أي: الموكلون عليكم ﴿وَهُمْ﴾ أي: الرسل ﴿لَا يَفْرَطُونَ﴾ [الأنعام: 61] ولا يفرطون أصلاً فيما صدر عنكم.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما وفي الرسل حسابكم ﴿رُدُّوهُ﴾ للجزاء ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ الذي هو ﴿مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ﴾ العدل القائم بالقسط، العالم بجميع أحوال عباده؛ ليجازي كلًّا على مقتضى علمه وخبرته ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ والأمر والجزاء ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: 62] لعباده؛ إذ لا يغيب عن حفظه شيء من أعمالهم.

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيْنٍ أَنْجَحَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿١٤﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلِيَسَّكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظِرْ كَيْفَ نَصَرِفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ ﴿١٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٦﴾ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ [الأنعام: 63-67].

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي: شدائد ما وأهوالها حين ﴿تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا﴾ متضرعين معلنين ﴿وَخُفْيَةً﴾ مناجين مسرين قائلين: ﴿لَّئِنْ أَنْجَانَا﴾ الله بلطفه ﴿مِنْ هَٰذِهِ﴾ الأهوال والمخاوف ﴿لَنَكُونَنَّ﴾ لنعمه الصارفين لها إلى مقتضى ما أمره الحق ورضي عنه ﴿مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: 63].

﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ هم وغم ﴿ثُمَّ﴾ بعدما أنجاكم الله ﴿أَنْتُمْ﴾ أيها المنهمكون في بحر الضلال ﴿تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: 64] به ما لا وجود له من التماثيل، وتكفرون نعمة العقل المفاض من عنده لتنبهوا إلى توحيده.

وبينه، إذ لو حجبته شيء لستره ما حجبته، ولو كان له ساتر لكان لوجوده حاصر، وكل حاصر شيء فهو له قاهر ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾، وإنما المحجوب: العبد عن ربه بوجود وهمه وجهله، ومن تحقق أن الملائكة تحفظ أعماله استحيى من ارتكاب القبائح، لئلا تعرض على رءوس الأشهاد [البحر المعيد (2/156)].

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ﴾ المقتدر ﴿عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا﴾ نازلاً ﴿مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ مثل الرعد والبرق والصواعق الكائنة في الجو ﴿أَوْ﴾ حادثاً ﴿مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ مثل الزلزلة والغرق وغير ذلك ﴿أَوْ يُلْبِسَكُمْ﴾ ويخلط عليكم أهواءكم ويجعلكم ﴿شِيعًا﴾ فرقاً متخالفة متقابلة ﴿وَيَذِيقُ بَغْضَكُمْ بَأْسَ بَغْضٍ﴾ بالقتل والسبي والإجلاء ﴿وَانظُرْ﴾ أيها الرائي ﴿كَيْفَ نُصَرِّفُ﴾ نجدد ونكرر لهم ﴿الآيَاتِ﴾ أي: دلائل توحيدنا وشواهدنا ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: 65] رجاء أن يتفطنوا إلى سر توحيدنا وسريان هويتنا في مظاهرنا، ومع ذلك لم يتنبهوا.

﴿و﴾ من عدم تفطنهم وتنبههم ﴿كَذَّبَ بِهِ﴾ أي: بما جاء من عندنا إليك من الكتاب الجامع للكتب السالفة ﴿قَوْمُكَ﴾ يعني: قريشاً، ونسبوه لنا ما لا يليق بجنابنا ﴿و﴾ الحال أنه ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ المطابق للواقع نزوله منا إليك ﴿قُلْ﴾ لهم في مقابلة تكذيبهم: ﴿أُنْسَتْ عَلَيْكُمْ يَوْكِيلٌ﴾ [الأنعام: 66] موكل لحفظكم ليحفظكم عما يضركم بل ما علي إلا البلاغ والحفظ، والوقاية بيد الله.

واعلموا أن ﴿لِكُلِّ نَبَأٍ﴾ خبر وآيات نازلة من الله ﴿مُتَشَقِّقٌ﴾ مقر ومورد ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: 67] حين تقرره ونزوله في موره في الدنيا والآخرة.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِنَّمَا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدَ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِكَايِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَئِنْ ذُكِّرْتُمْ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ الَّذِينَ أَخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآءٍ وَلَهُمْ وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ رَبُّهُ أَنَّ بُسُلَ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهُمْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعِدْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنعام: 68-70].

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ بالطمع والتكذيب ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولا تصاحبهم، واخرج من بينهم ﴿حَتَّىٰ﴾ لا تكون سبباً لاستهزائهم ﴿وَيَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ أي: غير القدر والطمع في القرآن ﴿وَإِنَّمَا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾ الخروج بعد وقوفك بأباطيلهم ﴿فَلَا تَقْعُدَ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ﴾ والتذكر البتة ﴿مَعَ﴾

الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ [الأنعام: 68] الطاعنين على الله بما لا يليق بجنابه.

﴿و﴾ إن اتفق مجالسة المؤمنين معهم أحياناً ﴿مَا﴾ يلزم ويعود ﴿عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ عن محارم الله ﴿مِنْ حِسَابِهِمْ﴾ الذين يحاسبون عليها ومعاقبون لأجلها ﴿مَنْ شَيْءٍ﴾ أي: بشيء من الخطر والتزلزل ﴿وَلَكِنْ﴾ إن اتفق جمعهم لزمهم ﴿ذِكْرِي﴾ والموعظة الحسنة الناشئة عن محض الحكمة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 69] ينتهون عما هم عليه من الاستهزاء والتكذيب تأثراً واستحياء.

﴿و﴾ إن لم يتأثروا ولم يستحوا ﴿ذُرِّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ﴾ الذين يدعون الهداية بسببه ﴿لَعِبَاءَ وَلَهْوًا﴾ أي: ملعبة وملهى ليس منه تأثر أصلاً بل يجرونه على طرف اللسان ويلقون على طرف التمام، وكيف يتأثرون منه ولا يلعبون معه ﴿و﴾ إذ ﴿غَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بحيث عموا وصموا عن الأمور الأخروية بالمرة ﴿و﴾ إن أردت أن تذكر بالقرآن ﴿ذَكْرًا بِهِ﴾ على من هو على خطر من الله مخافة ﴿أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ﴾ أي: بتسلمه وتوقعه النفس العاصية إلى الهلاك الأبدي والبوار السرمدي ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ من العقائد الزائفة والمعاصي العائقة عن إقامة حدود الله؛ إذ ﴿لَيْسَ لَهَا﴾ أي: للنفس ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ﴾ يولي أمرها وينقذها من العذاب ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ يشفع لها عند الله لينجو من عذابه ﴿وَإِنْ تَغْدِلْ﴾ وتفد ﴿كُلَّ عَدْلٍ﴾ كل ما يفدى به من أمتعة الدنيا ﴿لَا يُؤْخَذُ﴾ ولا يقبل ﴿مِنْهَا أُولَئِكَ﴾ البعداء المطرودون عن روح الله هم ﴿الَّذِينَ أُبْسِلُوا﴾ سلموا نفوسهم إلى الهلاك ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ من شؤم نفوسهم من المعاصي تهياً ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿شُرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ يحرق بطونهم عن مسرة المؤمنين ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم عن مكانتهم عند الله ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: 70] أي: بسبب كفرهم وخروجهم عن حدود الله، وإن ادعى المشركون حقية دينهم ويدعون المسلمين إليه.

﴿قُلْ أَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أَتُنَادِي أُمَّةً قُلُوبًا هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَأَمِرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ

وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ [الأنعام: 71-73].

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل تعلیمًا لمن اتبعك: ﴿أُذْغَوْ﴾ ونعبد ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الخالق الرزاق الفاعل المختار ﴿مَا لَا﴾ يقدر على جلب ما ﴿يَتَفَعَّلْنَا وَلَا﴾ على دفع ما ﴿يُضَرُّنَا وَنُرَدُّ﴾ بعبادته ﴿عَلَى أَعْقَابِنَا﴾ التي كنا عليه من الشرك والعصيان ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ بنور التوحيد والعرفان؟ ﴿كَأَنَّ﴾ الشخص ﴿الَّذِي اسْتَهْوَتْهُ﴾ أي: ذهبت به ﴿الشَّيَاطِينُ﴾ والأغوال وطرحه ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي: المهاوي والمهامه ﴿خَيْرَانِ﴾ قلقة حائرة تائهة، وكان ﴿لَهُ أَصْحَابٌ﴾ ورفقة ﴿يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى﴾ أي: الطريق الواضح المستقيم صائحًا عليه قائلاً: ﴿اٰتِنَا﴾ حتى تهتدي إلى الطريق، ونحن فيها، لم يسمع كلامهم ولم يقبل قولهم، واقتفى أثر الغول المغوي حتى يضل ويهلك ﴿قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ﴾ الهادي لعباده إلى توحيده الذاتي ﴿هُوَ الْهُدَى﴾ أي: مقصور على الإسلام الموصل إليه ﴿وَأَمْرُنَا﴾ أيضًا من عنده بمقتضى توحيده الذاتي ﴿لِنُسْلِمَ﴾ ونفوض جميع أمورنا ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 71] إذ هو مستقل بتربية مظاهره؛ لأنه لا يجزي في ملكه إلا ما يشاء.

﴿وَوَ﴾ أمرنا أيضًا ﴿أَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ وأديموا الميل والتقرب نحوه ﴿وَاتَّقُوا﴾ من سخطه وغضبه بارتكاب منهيته ﴿وَوَ﴾ اعلموا أنه ﴿هُوَ﴾ الموجد المظهر ﴿الَّذِي إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره من العكوس والأظلال ﴿تُخْشَرُونَ﴾ [الأنعام: 72] ترجعون.

كيف لا ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: أوجدهما وأظهرهما ملتبسا ﴿بِالْحَقِّ﴾ على مقتضى الحكمة المتقنة التي ما ترى فيها من فطور وفطور ﴿وَوَ﴾ ذلك ﴿يَوْمَ﴾ حين ﴿يَقُولُ﴾ بعد تعلق إرادته ومشيته بتكوينهما ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾⁽¹⁾ على الفور

(1) أي: للحق يعني: لإظهار صفات الحق وجعل المخلوقات مرآة مناسبة تحاكي جميع صفاته تعالى وتقدس، ولكن لا تشاهد صفاته بالكمال إلا في مرآة النسيان لا المخلوقات بالكمال إلا الإنسان، وهو أكمل المخلوقات استعدادًا وأحسنهم تقويمًا في المراقبة وأنه يشاهد مرآة المخلوقات مما اختصت به من الصفات ما لا يشاهد غيره ويشاهد في مرآة نفسه من الصفات ما هو المخصوص به ولا يشاهد منه غيره كما قال تعالى: ﴿عَشْرِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [فصلت: 53]؛ أي: مرآة أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق والآيات هي الصفات ولما كانت المشاهدة بإرادة الحق لقوله تعالى: ﴿عَشْرِهِمْ﴾ والإرادة إنما تحصل بتكوينه إياها فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [الأنعام: 73]؛ يعني: وإذا أرادوا أن يرى عبدًا من عباده تلك

بلا تراخ ومهلة تنفيذًا لسرعة قضائه ﴿قَوْلُهُ﴾ لإعدامها أيضًا في الساعة ﴿الْحَقُّ﴾ المطابق للواقع بلا تخلف ﴿وَوَ﴾ كيف يتصور التخلف في قوله؛ إذ ﴿لَهُ﴾ لا لغيره ﴿الْمُلْكُ﴾ أي: المظاهر كلها وله التصرف فيها بالاستقلال إيجابًا وإعدامًا ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ لإعدام ما في الوجود وإفنائها إظهارًا لقدرته؛ إذ هو ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ وما يجري فيها ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ وما يترتب عليها ﴿وَهُوَ﴾ بذاته ﴿الْحَكِيمُ﴾ في إبداء مظاهره من الغيب ﴿الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: 73] بما ترتب عليها في الشهادة بعد إعادتها.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَعِزَّنِي بِمَا أَنتَ خَازِنُهُ أَوَافَتُنِي إِلَهِتِي وَقَوْمِي فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ٧٥ ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفَلِينَ ٧٦ ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ٧٧ ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُنْقِمُ رَبِّي لِإِيْمَانِي ٧٨﴾ [الأنعام: 74-78].

﴿وَوَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل لمن تبعك من المؤمنين وقت ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ حين يقيظ عن منام الغفلة وتنبه عن سنة النسيان ﴿لِأَبِيهِ﴾ المسمى ﴿أَزَرَ﴾ العابد للأصنام ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا﴾ تنحتها ﴿إِلَهِةً﴾ مستحقة للعبادة قادرة للإيجاد والإعدام ﴿إِنِّي﴾ بعدما تنبّهت وتفطنت بعدم قابليتها للألوهية بل الإله لا بد أن يكون متصفًا بجميع أوصاف الكمال بلا تغيير وزوال وانتقال ﴿أَرَاكَ﴾ يا أبت ﴿وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: 74] بعبادة هذه التماثيل الباطلة واعتقادها معبودات حقة.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما نوقظه من منام الغفلة في أمر الأصنام ﴿نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١) أي: عجائبهما وغرائبهما المودعة فيهما؛ ليتأمل فيها

الصفات يقول كن وأنا فيكون بهذا التيسير إلى أن ليس في استعداد الإنسان أن يصير راتبا بمجرد سعيه. صفات الحق في مرآة المخلوقات إلا أن يخلق الله تعالى فيه استعدادًا مناسبًا للرؤية عند رؤيته تلك الصفات.. [التأويلات].

(١) أي: وكما أريناه ظلمة الكفر والضلالة المستورة في ملكوت آزر وقومه نريه ملكوت السماوات

ويتفكر في تدبيراتها وتصريفاتها حتى ينكشف بمبدعها ﴿وَلْيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: 75] في أمرها لا من المنتظرين المترددين المتخذين بعضها آلهة كعبدة الكواكب والمجسمة وغيرهما.

﴿فَلَمَّا جَنَّ﴾ أظلم ﴿عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا﴾ استنار بنوره وانكشف عنه الظلمة بسببه، وظن أن انكشافه ذاتي مطلق دائم ﴿قَالَ﴾ على مقتضى ظنه به: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ إذ هو نور يتجلى في الظلمة فيستحق الربوبية والعبودية ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ غاب وانمحى ﴿قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: 76] فكيف أعبدته وأخص العبادة له؛ إذ الأفول والتغير من أمارات الحدوث، والحادث لا يستحق العبودية ولا يليق بالالوهية.

﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا﴾ مبتدئًا في الطلوع منيرًا، له إشراق وإضاءة وانكشاف خيله؛ إذ هو وحصره فيه ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ﴾ انمحى وانكسر ﴿قَالَ لَيْتَن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾ ولم يكشف علي أمره ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام: 77] باعتقاد إلهية هذا البازغ الأفل.

﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً﴾ قاهرة لجميع الكواكب مضيئة بنفسها مشرقة بجميع ما ظهر عليها بحيث لا يُنمحي انكشافها بسائر الكواكب أصلاً ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ إذ هو

والأرض؛ أي: باطنها، واعلم أن لكل شيء من العالم ظاهراً يعبر عنه تارة لجسمانية لما له من الأبعاد الثلاثة من الطول والعرض والعمق والتمحيذية وقبول القسمة والتحري، وتارة بالدنيا لدنوه إلى الحس وتارة بالصورة لقبول التشكل والإدراك بالحس، وتارة بالشهادة لشهوده بالحس وتارة بالملك لتملكه والتصرف فيه بالحق وباطناً، يعبر عنه تارة بالروحانية لا انتفائه عن الأبعاد الثلاثة وعن التحيز والتجزؤ في الحس، وتارة بالآخرة لتأخره عن الحس، وتارة بالمعنى لتعبره عن التشكل وبعده عن الحس، وتارة بالغيب لغيبوته عن الحس، وتارة بالملكوت لملاك عالم الملك والصورة فإن قيام الملك لملكوت وقيام الملكوت لقدرة الله تعالى كما قال تعالى: ﴿قَسْبَحَانَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: 83]، أي من طريق الملكوت والملكوت من الأوليات التي خلقها الله من لا شيء بأمر ﴿كُنْ﴾ [غافر: 68]، وكان الله ولم يكن معه شيء يدل عليه قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: 185]، فته إن الملكوت لم يخلق من شيء، وما سواها خلق من شيء وقد سمي الله ما خلق بالأمر أو ما خلق من الشيء خلقاً فقال: ﴿الْأَلَهُ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ﴾ [الأعراف: 54] فالله تعالى أرى إبراهيم عليه السلام ملكوت الأشياء والآيات المودعة فيها الدلالة على التوحيد [التأويلات النجمية].

أتم انكشافاً وأكمل إضاءة وإنارة ﴿هَذَا أَكْبَرُ﴾ من الجميع فهي المستحق بالالوهية والربوبية ﴿فَلَمَّا أَفْلَتْ﴾ وتغيرت، انكشف إلى نور لا أفول له ولا تغيير، بل هو ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: 35].

﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي﴾ بعدما كوشفت بنور الحق وعوينت بوجهه الكريم، تحققت بتوحيده وتمكنت بمقر تجريده وتفريده ﴿بَرِيءٌ مِّمَّا﴾ جميع ﴿تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: 78] به من التماثيل الباطلة والأظلال الهالكة الآفلة.

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّةُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ [الأنعام: 79-81].

﴿إِنِّي﴾ بعدما اجتهدت في طريق التوحيد، وبذلت جهدي في مسالكة ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ أي: وجه قلبي الذي هو يلي الحق نحوه بتوفيق منه، وجذب من جانبه وتوجهت ﴿لِلَّذِي فَطَرَ﴾ قدره وأظهره بلا مادة ومدة ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: العالم العلوي والسفلي ﴿خَنِيفًا﴾ مائلاً عن جميع الأديان الباطلة والآراء الفاسدة ﴿و﴾ بعدما تحققت بما تحققت ﴿مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 79] بإثبات الوجود لغير الحق بل الوجود منحصر به وما سواه أظلال أوصافه وعكوس تجلياته، لا إله إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم وإليه ترجعون رجوع الظل إلى ذي الظل.

﴿وَحَاجَّةُ قَوْمُهُ﴾ أي: خاصموا في توحيد الله وقالوا: أنترك ما يعبد آباؤنا بتسويات نفسك يا إبراهيم؟ ﴿قَالَ أَتُحَاجُّونِي﴾ وتخاصموني ﴿فِي﴾ حق ﴿اللَّهِ﴾ وتجادلونني في توحيده وتخوفوني بهذه التماثيل الزائفة؟! ﴿و﴾ الحال أنه ﴿قَدْ هَدَانِ﴾ بلطفه إلى مقر توحيده ﴿و﴾ بعدما كوشفت بتوحيد الله واستقلاله بالتصرف في مظاهره ﴿لَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ إذ لا نفع منه ولا ضرر ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ مكروهاً يلحقني من جهتها؛ لأنه من جملة مظاهره إذ ﴿وَسِعَ﴾ وأحاط ﴿رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: 80] وتتفكرون؛ لتمييزوا بين المظهر والظاهر والعاجز والقادر.

أعظم النعم والهداية ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ أي: من ذرية إبراهيم ﴿دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ﴾ أي: مثل جزاء هؤلاء ﴿نَجْزِي﴾ جميع ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنعام: 84] مع الله المتشوقين بلقائه.

﴿وَمِنْ هَدَيْنَا أَيْضًا﴾ ﴿زَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ﴾ و﴿كُلٌّ﴾ منهم ﴿مِمَّنِ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنعام: 85] لعناية الله وهدايته.

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَكْفُرُنَّ بِهَا بِكُفْرِنَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَةُ قُلْ لَا أَشْتَكُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾ [الأنعام: 86-90].

﴿وَمِنْ هَدَيْنَا أَيْضًا هَدَيْنَا مِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا وَكُلًّا﴾ من هؤلاء المذكورين ﴿فَضَّلْنَا﴾ بالنسبة والحكمة ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 86] أي: على الناس الموجودين في زمانهم.

﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾ ممن لم يبلغ مرتبة النبوة والحكمة فضلنا عليهم بأنواع النعم ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾ وانتخبناهم من بين الناس ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: 87] موصل إلى توحيدنا.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: سبب تقرب هؤلاء الكرام ﴿هُدَى اللَّهِ﴾ أي: هدايته وعنايته تفضلاً عليهم وامتناناً ﴿يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ إرادة واختياراً ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا﴾ بالله، هؤلاء المهديون بأن أثبتوا الوجود لغيره ﴿لَحَبِطَ﴾ واضمححل وضاع ﴿عَنْهُمْ﴾ ثواب ﴿مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: 88] من الخيرات والمبرات، وكانوا في حبوط الأعمال كسائر المشركين، نعتصم بك من إنزال قهرك يا ذا القوة المتين.

﴿أُولَئِكَ﴾ السعداء الأمناء ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ الجامع المبين لهم طريق تهذيب الظاهر والباطن ﴿وَالْحُكْمَ﴾ الفارق بين الحق والباطل في الوقائع على مقتضى الحكمة الإلهية ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ والرسالة المقتضية لإهداء التائبين في بقاء الغفلة والضلال

ثم قال سبحانه: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ﴾ جامع لما في الكتب السالفة على أبلغ وجه وأكده مع زيادات شريفة ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ إليك يا أكمل الرسل ﴿مُبَارَكٌ﴾ كثير الخير والبركة لك ولمن تبعك ﴿مُصَدِّقٌ﴾ للكتاب ﴿الَّذِي﴾ أحكامه ﴿بَيِّنٌ يَدِينُهُ﴾ أي: التوراة والإنجيل وجميع الكتب النازلة من عند الله، وإنما أنزلناه ﴿وَلِتُنذِرَ﴾ به ﴿أُمَّ الْقُرَى﴾ أي: أهل مكة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: جميع أقطار الأرض؛ إذ دُحيت الأرض من تحتها على ما قيل لذلك صار قبله لجميع أهل الأرض، وفرض حجها وطوافها ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ من أهل الكتاب ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: بالقرآن ﴿وَهُ﴾ سبب إيمانهم أنه ﴿هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: 92] أي: يراقبون ويدومون على الميل والتوجه نحو الحق بجميع شؤونه وتجلياته، ومن جملتها بل من أجلها: إنزال القرآن البالغ على درجات اليقين في تبين أحوال النشأة الأولى والآخرى؛ إذ هو منتخب منهما على وجه يعجز عنه أرباب اللسن من البشر، ومن له أدنى مسكنة من ذوي العقول لا بد أن يؤمن به وبإعجازه إلا من أضله الله وختم على قلبه.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام: 93-94].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن قال: بعثني الله نبيًا كمسيلمة والأسود العنسي ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ كعبد الله بن أبي سرح ﴿وَمَنْ قَالَ﴾ من كفار قريش: ﴿سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ ولو نشاء لقلنا مثل هذا ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ أيها الرائي ﴿إِذِ الظَّالِمُونَ﴾ المفترون على الله المكذبون لكتبه ورسله ﴿فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ وسكراته وأمواله ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ قائمون عليهم ﴿بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ كالمتقاضين قائلين لهم: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أيها المفترون الكاذبون بأيديكم حتى تخلصوا عن أيدينا واعلموا أن ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ المشتمل على الهوان والمذلة ﴿بِمَا كُنْتُمْ

تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ [الأنعام: 93] عَتَوْا وَعَنَادُوا.
 ﴿و﴾ الْآنَ ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى﴾ عَارِينَ مُفْرَدِينَ عَمَّا اسْتَكْبَرْتُمْ بِهِ مِنَ الْمَالِ
 وَالْجَاهِ وَالرَّئَاسَةِ ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ عَارِيَةً عَنْ جَمِيعِهَا ﴿وَتَرْكُتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ﴾
 ابْتِلِيَانَكُمْ بِهِ فِي النِّشَاةِ الْأُولَى؛ لِيَكُونَ سَبَبَ خِيَلَاتِكُمْ وَبَطْرِكُمْ ﴿وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَ﴾ أَيْضًا
 ﴿مَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمْ﴾ مَعْبُودَاتِكُمْ ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ﴾ أَيْ: فِي إِيجَادِكُمْ
 وَإِظْهَارِكُمْ ﴿شُرَكَاءَ﴾ مِنَ الْآنَ ﴿لَقَدْ ثَقَّطَ﴾ وَانْفَصَلَ ﴿بَيْنَكُمْ﴾ وَبَيْنَهُمْ ﴿وَضَلَّ﴾ أَيْ:
 غَاب وَتَخَفَى ﴿عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: 94] أَنَهَا شُفَعَاؤُكُمْ يَنْقُذُكُمْ مِنْ عَذَابِ
 اللَّهِ.

﴿ إِنَّا اللَّهُ فَالِقَ الْيَمِّ وَالنَّوَى ﴾ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْقَبْرِ وَمُخْرِجُ الْقَبْرِ مِنَ
 الْحَيِّ ذَلِكُمْ اللَّهُ فَإِنَّ تَوْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقَ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ مَسَكًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
 حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ
 الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ
 وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ [الأنعام: 95-98].

قُلْ يَا أَكْمَلُ الرُّسُلِ لِلْمُنْكَرِينَ الْبَعْثُ وَالْحَشْرُ الْمُسْتَبْعِدِينَ إِلَى الْمَمْتَنِينَ إِحْيَاءُ
 الْأَمْوَاتِ مِنَ الْعِظَامِ الرَّفَاتِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ مَا أَرَادَ وَشَاءَ ﴿فَالِقُ الْيَمِّ
 وَالنَّوَى﴾ أَيْ: الْحَبَّةُ وَالنُّطْفَةُ ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ﴾ أَيْ: الْحَبَّةُ
 وَالنُّطْفَةُ ﴿مِنْ الْحَيِّ﴾ أَيْ: الْحَيَوَانَ وَالنَّبَاتِ ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ﴾ الْمَحْيِي الْمَمِيتَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ
 الْمُسْتَحَقُّ لِلْأُلُوهِيَّةِ وَلِلْعِبَادِيَّةِ وَالرَّبُّوبِيَّةِ ﴿فَأَنْتَ تَوْفَكُونَ﴾ [الأنعام: 95] تَصْرَفُونَ عَنْهُ إِلَى
 غَيْرِهِ مِنَ الْأُظْلَالِ الْبَاطِلَةِ أَيُّهَا الْحَقُّ.

وَكَيْفَ تَصْرَفُونَ عَنْهُ وَهُوَ ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ أَيْ: شَاقُ ظِلَامِ اللَّيْلِ يَنْبُلُجُ الصَّبْحُ
 لَتَكْتَسِبُوا فِيهِ أَقْوَاتَكُمْ وَمَعَاشَكُمْ ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ﴾ مَسْكَنًا لِتَسْتَرِيحُوا فِيهِ مِنْ تَعَبِ الْكَدِّ،
 وَهَمَا مِنْ أَقْوَى أَسْبَابِ حَيَاتِكُمْ ﴿و﴾ أَيْضًا جَعَلَ لَكُمْ وَلِمَعَاشِكُمْ ﴿الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
 حُسْبَانًا﴾^(١) ذَا أَدْوَارٍ وَأَطْوَارٍ مُخْتَلِفَةٍ وَأَوْضَاعٍ مُتَفَاوِتَةٍ شَتَاءَ وَصَيْفًا رِيحًا وَخَرِيفًا تَتِمِّتَانِ.

(١) يعني: تجلي شمس الروحانية في طلوع قمر القلب بالحسبان؛ لئلا يفسد القلب والقلب، أيضًا

لأرزاقكم وأقواتكم ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ﴾ تدبير وتدوير ﴿الْعَزِيزِ﴾ القادر الغالب على جميع صور التدابير والتدوير ﴿الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: 96] بنفع التدوير المخصوص والوضع المتعارف لمعاش عباده.

﴿و﴾ كيف تصرفون عنه ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ﴾ لتدبير مصالحكم ﴿النُّجُومَ﴾ الزاهرات مرتكزة في السموات ﴿لِتَهْتَدُوا بِهَا﴾ وتوصلوا إلى مطالبكم بسببها حين كنتم تائهين ضالين ﴿فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ﴾ أي: مفاوزه ﴿وَالْبَحْرِ﴾ أي: لججه، وبالجمله: ﴿قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ الدالة على توحيدنا واستقلالنا في التصرفات والتدبيرات الواردة في عالم الكون والفساد ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: 97] يستدلون ويتفكرون بها ويتنبهون إلى وحدة موجدها ومصرفها.

﴿و﴾ أيضًا كيف يصرفون عنه سبحانه مع أنه ﴿هُوَ﴾ القادر ﴿الَّذِي أَنشَأَكُمْ﴾ وأظهركم بالتجلي الحبي ﴿مَنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ هي طبيعة العدم ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ أي: فكلكم أطوار مختلفة، وشؤون متفاوتة، لبعض قرار واستقرار، وبعض استبداء واستتار، تبدلون وتحولون من حال إلى حال على مقتضى تطوراتها وتجلياتها ﴿قَدْ فَضَّلْنَا﴾ وأوضحنا ﴿الْآيَاتِ﴾ الدالة على ألا وجود لغيرنا من الأظلال، والإقرار ولا مراد لها أصلاً ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: 98] يتأملون ويتدبرون لينكشفوا بكيفية سريان الهوية الإلهية في المظاهر الكونية والكيانية.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَبَاتٌ كُلٌّ شَيْءٍ فَاخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْوَعُهُ إِنِّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ وَقَعْلَىٰ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ

تجلي شمس الربوبية وطلوع قمر الروحانية لليل البشرية بالحساب؛ لئلا يفسد أمر الدين والدنيا على العبد بالتضييق والإفراط، فإن في إفراط طلوع شمس المعارف والشهود آفة «أنا الحق» و«سبحاني»، وفي تفريطه آفة «أنا ربكم»، ودعوى الإلهوية واتخاذ الهوى إلهاً.

وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ [الأنعام: 99-101].

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ﴾ جانب ﴿السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ أي: بالماء - التفت لثلاث يتوهم إسناد الإخراج إلى الماء - ﴿نَبَاتٍ كُلِّ شَيْءٍ﴾ نبت كل صنف من أصناف النباتات ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾ أي: من النبات ﴿خَضِرًا﴾ وهو الساق ﴿نُخْرِجُ مِنْهُ﴾ من الخضر ﴿حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾ وهو السنبله ﴿وَو﴾ أخرجنا ﴿مِنَ النَّخْلِ﴾ طلعها ﴿مِنْ طَلْعِهَا قِثْوَانٌ﴾ عنقود ﴿ذَاتِيَّةٌ﴾ ملتفة بعضها ببعض ﴿وَو﴾ أيضًا أخرجنا ﴿جَنَاتٍ مِنْ أَغْصَابٍ وَ﴾ كذا أخرجنا ﴿الزُّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ﴾ من أشجارهما ﴿مُشْتَبِهًا﴾ بعضها ببعض ﴿وَوغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ أي: أنواع مختلفة ﴿انظُرُوا﴾ أيها الناظرون ﴿إِلَى ثَمَرِهِ﴾ أي: ثمر كل من المذكورات ﴿إِذَا أَثْمَرَ﴾ حين أخرج أولاً صغيراً بلا لذة وانتفاع ﴿وَو﴾ انظر إلى ﴿وَنُضِجِهِ﴾ نضجه وبدو صلاحه ونفعه وكبره قليلاً قليلاً ﴿إِنْ فِي ذَلِكَمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: 99] دلائل واضحات على وجود الفاعل المختار الحكيم، المتقن في فعله بلا مشاركة أحد وممانعة ضد وند، العليم الخبير بتطوراتها وتبدلاتها من حال إلى حال متدرجاً من كمال إلى أكمل، المربي لها في كل مرتبة بما يناسبها ويلائمها على الاعتدال إلى أن يعود إلى ما بدأ.

﴿وَو﴾ مع عجائب صنيعه وغرائب قدرته ﴿جَعَلُوا﴾ من غاية جهلهم ونهاية غفلتهم ﴿لِلَّهِ﴾ المتوحد في ذاته، المتره عن الشريك مطلقاً ﴿شُرَكَاءَ﴾ خصوصاً ﴿الْجِنِّ﴾ أي: الشياطين فيعبدونهم كعبادة الله ويمثلون أوامرهم كأوامر الله ﴿وَو﴾ الحال أنهم عالمون بأن الله تعالى قد ﴿خَلَقَهُمْ﴾ ومعبوداتهم ﴿وَو﴾ من جملة شركهم أنهم ﴿خَرَقُوا لَهُ﴾ أي: أثبتوا له افتراء ومراء ﴿يَتِينَ﴾ كما قالت اليهود: عزيز ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله ﴿وَوَيَاتٍ﴾ كما قالت العرب: الملائكة بنات الله، كل ذلك صادر منهم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ومعرفة بذاته المتره عن الأهل والولد ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [الأنعام: 100] هؤلاء الظالمون المفرطون، إذ هو:

﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مبدعهما ومظهرهما من كتم العدم بلا سبق مادة ومدة وأزواج وأرواج، بل بالتجلي عليها ومد الظل إليها ﴿أَنَّى﴾ أي: من أين ﴿يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ وليس غيره أحد ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً﴾ والولد إنما يتصور بين المتجانسين ﴿وَوخَلَقَ﴾ أوجد وظهر ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ بأظلال أوصافه الذاتية وعكوس شؤونه وتجليات الحية ﴿وَوهُوَ﴾ بذاته ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ مما ظهر من تجليات صفاته ﴿عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: 101] لا يخفى عليه شيء.

﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (١٠٢) لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣) قَدْ جَاءَكُمْ بِصَافِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ [الأنعام: 102-105].

﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ﴾ أي: الذات الأحدية الموصوفة بالصفات الأزلية الأبدية السرمدية المتجلى بالتجليات اللطفية والقهرية ﴿رَبُّكُم﴾ ومربيكم أيها الأظلال الهالكة والعكوس الباطلة ﴿لَا إِلَهَ﴾ ولا موجود ﴿إِلَّا هُوَ﴾ وهو ﴿خَالِقُ﴾ ومظهر ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ ظهر من العكوس والأظلال ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ فهو المستحق للعبادة والرجوع، وفوضوا أموركم كلها إليه وكيف لا يفوضونها إليه ﴿وَهُوَ﴾ بذاته وأوصافه وأسمائه ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الكوائن والفواقد الحادثة في مظاهره ﴿وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: 102] يوليها ويصرفها كيف يشاء حسب قدرته وإرادته.

وإن كان ﴿لَا تُدْرِكُهُ﴾ من غاية ظهوره وجلاته ﴿الْأَبْصَارُ﴾ القاصرة عن إبطار نوره ﴿وَهُوَ﴾ كيف تدركه الأبصار ﴿هُوَ﴾ بذاته ﴿يُدْرِكُ﴾ ويبصر ﴿الْأَبْصَارُ﴾ ومبصر الأبصار لا يبصره الأبصار ﴿وَهُوَ﴾ كيف يبصر ﴿هُوَ اللَّطِيفُ﴾ الرقيق المنزه عن المجازاة والمقابلة والانطباع والمحاكاة ﴿الْخَبِيرُ﴾^(١) [الأنعام: 103] هو كيف يخبر عنه،

(١) قال أبو سليمان: اللطيف: هو البر بعباده، الذي يلطف بهم من حيث لا يعلمون، ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون؛ لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الشورى: 19]، وقيل: هو الذي يوصل إليك إريك في رفق، ويقال: هو الذي لطف عن أن يدرك بالكيفية، انتهى. وقال سيدي محمد القونوي - قدس الله سره: اللطيف سريانه. في أفعاله الموجودات، أي باعتبار أنه الفاعل لها، واختفاء لطائف حكمته في مظاهر الكائنات، هو الذي يسر كل عسير، ويجبر كل كسير، اعلم أن حقائق هذا الاسم وأسراره عمت مراتب الوجود، واللطيف مأخوذ من اللطف، وهو الخفاء، وأغرب أمثلته، خفيات أطافه، مد الظل وقبضه، فإن البصر لا يدرك غير امتداده وانقباضه، حالاً بعد حال، ولا قدرة له على شهود حركته المحسوسة على الدوام، فضلاً عن شهود حقيقة خروجه عن الأصل الحقيقي ورجوعه إليه، فإن الظل إذا أخذ في الامتداد، يخرج من ذات الشخص، وكذلك إذا انقبض لا ينقبض إلا ما منه خرج، هذا

وبالجملة: ما يرى الله إلا الله، وما يخبر عنه إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون رجوع الظل إلى ذي الظل.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ﴾ وحصل عندكم أيها المجبولون على فطرة التوحيد ﴿بَصَائِرُ﴾ شواهد وكواشف ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ الذي أوجدكم وأظهركم عليها ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ شهد وانكشف بها ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ أي: عاد نفعه إليها ﴿وَمَنْ عَمِيَ﴾ واحتجب ﴿فَعَلَيْهَا﴾ أي: وبالحا عائد عليها ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيظٍ﴾ [الأنعام: 104] رقيب مصرف بل منه مبلغ، والحفظ بيد الله، والتصرف بقدرته، يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

ثم قال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: مثل ذلك المذكور ﴿تُضَرَفُ﴾ ونكرر ﴿الآيَاتِ﴾ الدالة على توحيدنا رجاء أن يتنبهوا فلم يتنبهوا ﴿وَر﴾ غاية أمرهم أنهم ﴿لَيَقُولُوا﴾ لك يا أكمل الرسل: ﴿دَرَسْتَ﴾ تعلمت هذه الأساطير الكاذبة القديمة من

شهادة العين. وقال الحق عز شأنه: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان: 46] إشارة إلى أن ما يخرج منه هو الحق سبحانه، ظهر من حيث تجليه بصورة فيه، فظل يبرزه تارة ويقبضه أخرى، وكما أضاف القبض إلى نفسه، كذلك أضاف الامتداد إليه، بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ [الفرقان: 45] الآية، وهذا من اللفظ الإشارات، فإن العين تتركه، وتشهد حركة الامتداد وانقباضه من ذات، انكشف أنها هي حقيقة من لطائف تصرفات القوي اللطيف، وكذلك قوله: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: 80] إشارة إلى سريان هذا اللفظ الإلهي، الذي هو كسريان نور الشمس في أجزاء الجوا إذ امتزاجها بحيث لا تقع الإشارة إلى الهوى إلى النور، وكذلك سبب اختفاء الذات المتعالة سعة ظهوره واحتجابه عن الإدراكات بسبحات نوره، انتهى. وقال الجيلي - قدس الله سره - في «الكلمات الإلهية»: اسمه اللطيف تعالى، هو الذي امتنع إدراكه بالأبصار، وتنزه عن المكان، فلا يتحيز في الجهات والأقطار، وتعالى عن الحد، فلا تعرفه العقول بالفهوم والأفطار، وهو مع ذلك أقرب إلى الأشياء من ذواتها، وأظهر عليها من صفاتها غاية الإظهار، وهذا الاسم اسم صفة إلهية بهذا الاعتبار، ولهذا الاسم اعتبار آخر، وهو أن اللطيف هو الذي يسرع بكشف الغمة عند حلول النعمة، ويصبح بإزاء النعمة من حيث لا تتوقعها الغمة، وقد ورد في الحديث عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ فِي طَرَفِهِ عَيْنٌ تَنْظُرُ لَطْفًا إِلَى خَلْقِهِ»، فهذا الاعتبار اسمه اللطيف من أسماء صفات الأفعال، وصفته اللطيف، وهو عبارة عن سريان الرحمة بأنواع الإغاثة والنعمة من غير امتناع، وباعتبار الأول: أن اللطيف عبارة عن غموض أعلم به من حيث يحصل امتناع معرفته على الحقيقة؛ للطائفة عن مصادك الفهوم، وتنزهها عن مبلغ غايات العلوم أ.هـ.

أهل الكتاب ﴿و﴾ مع كونه ما نصرفها ونكررها إلا ﴿لِنُبَيِّنَهُ﴾ ونوضحه إلى التوحيد الذاتي المدلول عليه بتصرف الآيات والدلائل ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: 105] يستدلون بالدلائل القاطعة والبراهين الساطعة على وحدة الصانع الحكيم، وإن انصرفوا عنكم ولم يقبلوا منك ما جئت به من الآيات، اتركهم وحالهم.

﴿اتَّبِعْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِّيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٠٩﴾ [الأنعام: 106-109].

﴿اتَّبِعْ﴾ أنت ﴿مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِن﴾ توحيد ﴿رَّبِّكَ﴾ بأن ﴿لَا إِلَهَ﴾ أي: لا موجود ﴿إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 106] واتركهم وشركهم بعدما تحققت وتمكنت في مقر التوحيد.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ الهادي لعباده عدم إشراكهم ﴿مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ مصرفاً بل مبلغاً منها ﴿وَمَا أَنتَ﴾ أيضاً ﴿عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: 107] تشفع لهم وتقوم بأمرهم.

﴿وَلَا تَسُبُّوا﴾ أي: لا تذكروا بالمساوي والمقابح أيها المؤمنون الموحدون أصنام ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ ويعبدون؛ أي: المشركون ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ إذ هم من جملة المجالي والمظاهر لله مع أنكم إن تسبوهم وآلهتهم ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ﴾ من غاية جهلهم وحميتهم فتكونوا سبباً لسبب الله ﴿عَدْوًا﴾ تجاوزاً عن الحق إلى الباطل ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بماله ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل تزينا لكم دينكم وإلهكم وعملكم ﴿زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم ﴿عَمَلُهُمْ﴾ وإلههم سواء كان حقاً أو باطلاً؛ إذ ﴿كُلُّ جَزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: 53] ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 108] أي: يجازيهم على مقتضى ما عملوا من خير وشر وإيمان وكفر.

﴿و﴾ من غاية نفاقهم واستهزائهم منك يا أكمل الرسل وتهكمهم بما جئت به

من الآيات ﴿أَفَسُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي: مغلطين فيها مؤكدين لها تهكمًا ﴿لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ من مقترحاتهم ﴿لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ البتة وبك أيضًا ﴿قُلْ﴾ لهم كلامًا خاليًا عن وصمة الكذب: ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ﴾ ونزولها وإنزالها ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ ويقبضة قدرته وليس في وسعي وطاقتي شيء منها ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ ويظهر لكم أيها المؤمنون الطالبون لإيمان هؤلاء الكفرة، وأنتم تتفهمون من مظاهر حالهم لو تأملتم في شأنهم ﴿أَنَّهُ إِذَا جَاءَتْ﴾ جميع مقترحاتهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: 109] بها البتة؛ إذ طبع الله على قلوبهم بالكفر والنفاق.

﴿وَنَقَلَبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿١١٠﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكِيَّةَ وَكَلَّمَهُمُ الْوَقْقَ وَخَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لَيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ ﴿١١١﴾ ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْقَرُونَ﴾ ﴿١١٢﴾ [الأنعام: 110-112].

﴿و﴾ كيف يؤمنون بها؛ إذ ﴿نَقَلَبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾ عن الميل إلى الحق مطلقًا ﴿وَأَبْصَرَهُمْ﴾ عن إحساس شواهد وعلاماته ﴿كَمَا﴾ قلبنا ما حيث ﴿لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أي: بما جاء به من الحق ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ إذ لا تفاوت بين حقية الآيات سواء كانت مقترحة أم لا ﴿وَنَذَرَهُمْ﴾ نهمهم وندعهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ أي: ضلالهم المجاوز عن الحد ﴿يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: 110] يتحIRON ويرددون إلى أن نأخذهم ونستقم منهم.

﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكِيَّةَ﴾ كما اقترحوا ﴿وَكَلَّمَهُمُ الْوَقْقَ﴾ من قبورهم وأوصاهم بالإيمان ﴿وَخَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ كفلأ يرشدونهم إلى الإيمان ﴿وَمَا كَانُوا لَيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ إيمانهم أيضًا في قضاءه السابق ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ﴾ أي: أكثر الناس ﴿يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: 111] عن قضاء الله ومشيته فيتمنون إيمانهم.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: ومثل ما جعلنا لك يا أكمل الرمل عدوًا ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ من الأنبياء ﴿عَدُوًّا﴾ يعاديهم ﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ بالمظاهرة والمعاونة؛ إذ ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ﴾ أي: أباطيله وأراجيفه ﴿غُرُورًا﴾ ليقدموا ضعفاء

الأنام على مخاصمة الأنبياء ومعاداتهم، ويظهروا عليه بتغريب بعضهم ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ إيمانهم ﴿مَا فَعَلُوهُ﴾ أي: هذا الغرور والقول المزخرف المموه، وبالجمله: ﴿فَذَرُهُمْ﴾ وكفرهم ﴿وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: 112] ويزخرفون بسبب غرورهم وزخرفتهم.

﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرَضُوا بِمَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ (١١٣) أَفْغَيْرَ اللَّهِ ابْتِغَى حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَلَنْ تُطِيعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ بِيُضْلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ [الأنعام: 113-116].

﴿وَلِتَصْغَى﴾ ولتميل ﴿إِلَيْهِ﴾ وتوجه نحوه ﴿أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرَضُوا﴾ لأنفسهم ما يزخرفون به لكون جبلتهم عليه ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا﴾ ويكتسبوا بسببه ﴿مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: 113] مكتسبون من العقائد الزائفة والآثام.

قل لهم إن أرادوا أن يتصالحوا ويتحاكموا معك بعدما ظهر لك تنسيهم وتغريبهم إنكارًا عليهم: ﴿أَفْغَيْرَ اللَّهِ﴾ المستقل بالحكومة والتصرف ﴿أَبْتِغَى﴾ أطلب ﴿حَكَمًا﴾ عادلاً يفصل بيني وبينكم أيها المعاندون المكابرون ﴿وَالْحَالُ أَنَّهُ﴾ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ﴿مَبِينًا مَوْضِعًا مَغْنِيًا عَنِ التَّحَاكُمِ وَالتَّرَافِعِ﴾ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴿أَيُّ﴾ علمه إن أنصفوا، ولم يعاندوا ولم يكابروا ﴿يَعْلَمُونَ﴾ يَقِينًا بشهادة كتبهم ﴿أَنَّهُ﴾ أي: القرآن ﴿مُنْزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ﴾ ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ بلا ميل إلى الباطل أصلاً ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مِنَ الْمُتَمَرِّينَ﴾ [الأنعام: 114] في أنهم عالمون بحقية القرآن وموافقة لكتبهم، إلا أنهم يكابرون في تحريف كتبهم، ويعاندون بادعاء تكذيب القرآن ظلمًا وعدوانًا.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: انتهت وتناهت، وبلغت الغاية القصوى بيان كلمة التوحيد برسالتك يا أكمل الرسل؛ إذ ظهرت في تبينها وكشفها بما لا يظهر به أحد من الأنبياء؛ إذ الأنبياء إنما يظهرون توحيد الصفات والأفعال دون توحيد الذات، وأنت تظهر به حيث ورد في شأنك: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: 80]، وإن

الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ [الفتح: 10].

وقلت: «من رأي فقد رأى الحق»⁽¹⁾.

وقلت أيضا: «رأيت ربي في ليلة المعراج»⁽²⁾، وغير ذلك من الآثار والأخبار الدالة على التوحيد الذاتي.

لذلك أتممت مكارم الأقوال والأخلاق ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ ومتى تمت وبلغت ﴿لَا مُبَدِّلَ﴾ ولا محول ﴿لِكَلِمَاتِهِ﴾ إذ ختم وتم أمر الرسالة والنبوة وسد باب الوحي ﴿و﴾ بعد ذلك ظهر أنه ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقواله ﴿الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: 115] بشؤونه وتجلياته إلى ما شاء الله.

﴿و﴾ متى تحققت يا أكمل الرسل بمقام الشهود والمشاهدة ﴿إِنْ تُطِغْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ المتوحد بالذات والصفات والأسماء ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ﴾ ما يتبعون ويقتفون ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾ الفاسد والوهم الكاسد، والظن لا يغني عن الحق الصريح شيئا ﴿وَإِنْ هُمْ﴾ أي: ما هم في ظنونهم الكاذبة وأوهامهم الباطلة في الاعتقادات والأحكام ﴿إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: 116] يخلطون ويلبسون على أنفسهم حسدا وعنادا.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِفَايَتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَالَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنْ كُنْتُمْ لَيُّسَلُونَ بِأَهْوَاءِهِمْ يَغْفِرْ عَلَيْهِمْ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيَجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ [الأنعام: 117-120].

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ من أصحاب التقليد ﴿وَهُوَ﴾ أيضا ﴿أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: 117] من أرباب الشهود والمكاشفة لا يفيد تحريرهم وإضلالهم.

(1) رواه البخارى (2568/6، رقم 6595)، ومسلم (1776/4، رقم 2267)، وأحمد (306/5، رقم 22659).

(2) تقدم تخريجه.

وإذا علمتم أيها المؤمنون أن الهداية والإضلال بيد الله لا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا بتحريم المباح وتحليل الحرام ﴿فَكُلُوا﴾ أي: من الأزواج الثمانية وما يشبهها ﴿مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ عند ذبحه مستيحيين محللين على أنفسكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: 118] وبأحكامه مصدقين ممثلين.

﴿وَمَا لَكُمْ﴾ وأي شيء عرض لكم ويمنعكم ﴿أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَالحال أنه ﴿قَدْ فَضَّلَ لَكُمْ﴾ ربكم ﴿مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ...﴾ [المائدة: 3].

فعلیکم ألا تأكلوا المحرمات ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ حيث ذبح لكم منها مقدار سد جوعة ﴿وَإِنْ كَثِيرًا﴾ من الناس ﴿لَيُضِلُّونَ﴾ في أنفسهم ويضلون غيرهم من الضعفاء بتحليل المحرمات، وتحريم المحلات بلا سند شرعي ﴿بِأَهْوَائِهِمُ﴾ الباطلة ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بما عند الله فلا تتبعوا ولا تقتفوا أثرهم ﴿إِنْ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿هُوَ أَغْلَمُ بِالْمُغْتَدِينَ﴾ [الأنعام: 119] المتجاوزين عن حدوده بمتابعة أهوائهم الفاسدة فيجازيهم على مقتضى علمه.

﴿وَذَرُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿ظَاهِرَ الْإِثْمِ﴾ أي: الإقدام عليه والاتصاف به ﴿وَبَاطِنَهُ﴾ ⁽¹⁾ أي: أخطاره وإجرائه على القلب ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ﴾ ويميلون إليه متلذذين ﴿سَيُجْزَوْنَ﴾ في النشأة الأخرى ﴿بِمَا كَانُوا يَفْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: 120] أي: بمقدار ما يتلذذون.

(1) المراد بالإثم: جميع المعاصي، التي تؤثم العبد، أي: توقعه في الإثم، والحرَج، من الأشياء المتعلقة بحقوق الله، وحقوق عباده. فهي الله عباده، عن اقرار الإثم الظاهر والباطن، أي: السر والعلانية، المتعلقة بالبدن والجوارح، والمتعلقة بالقلب، ولا يتم للعبد، ترك المعاصي الظاهرة والباطنة، إلا بعد معرفتها، والبحث عنها، فيكون البحث عنها ومعرفة معاصي القلب والبدن، والعلم بذلك واجبا متعيना على المكلف، وكثير من الناس، تخفى عليه كثير من المعاصي، خصوصا معاصي القلب، كالكبر والعجب والرياء، ونحو ذلك، حتى إنه يكون به كثير منها، وهو لا يحس به ولا يشعر، وهذا من الإعراض عن العلم، وعدم البصيرة، ثم أخبر تعالى، أن الذين يكسبون الإثم الظاهر والباطن، سيجزون على حسب كسبهم، وعلى قدر ذنوبهم، قلت أو كثرت، وهذا الجزاء يكون في الآخرة، وقد يكون في الدنيا، يعاقب العبد، فيخفف عنه بذلك من سيئاته. انظر [تفسير السعدي (1/ 271)].

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا زَكَّرَ بِكُمُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَلَئِنْ الشَّيَاطِينُ لَيُوحُونَ إِلَيْكُمْ أُولِيَاءَهُمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوْ مَنْ كَانَ مِثْلًا فَأَخْبَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُّجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الأنعام: 121-123].

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ حين ذبحه ﴿وَلَئِنْ﴾ أي: أكلكم منه ﴿لَفِسْقٌ﴾ خروج عن حكم الله بمتابعة أهل الأهواء الضالين عن طريق الحق بوسوسة الشياطين، ولا تغفلوا من وسوستهم ﴿وَلَئِنْ الشَّيَاطِينُ لَيُوحُونَ﴾ يلقون ويوسوسون ﴿إِلَى أُولِيَاءِهِمْ﴾ من أهل الأهواء ﴿لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ أيها المؤمنون حتى يضلوكم عن طريق الحق سيما في المآكل والمشارب ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: 121] لانه من أطاع غير الله فقد أشرك به.

﴿أَوْ مَنْ كَانَ﴾ منكم ﴿مِثْلًا﴾ بالجهل والكفر ﴿فَأَخْبَيْنَاهُ﴾ بالمعرفة والإيمان ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ هاديًا منيرًا كان ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ﴾ وصفه وشأنه ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ المتراكمة المتزاحمة وهي ظلمة الجهل والكفر والعصيان، واعتقاده أنه ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ لعدم تناهيها فانقذه الله من ظلمة الضلالة بنور الهداية وهداه إلى صراط مستقيم هو الإسلام ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل تزين الإيمان للمؤمن ﴿زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 122] من الكفر والعصيان.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: كما جعل في مكة أكابر وصناديد يجرمون فيها جرائم عظيمة ﴿جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾ أي: قدرنا فيها ﴿أَكَابِرَ﴾ كانوا ﴿مُجْرِمِيهَا﴾ وترفها ﴿لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ بأنواع المكر والحيل ليضلوا ضعفاء العوام ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ﴾ هؤلاء الماكرون ﴿إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ لأن وبال مكرهم يعود عليهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: 123] لقساوة قلوبهم وشدة عمهم.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ مَائِدَةٌ فَظَلُّوا أَنَّهُمْ يُورِثُونَ حَقَّ تِلْكَ يَوْمَ الَّذِي مَلَكَ اللَّهُ نَفْسَهُ فَاعْلَمَ حَيْثُ يَجْمَلُ رِسَالَتُهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا

يَمَكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٢٧﴾ [الأنعام: 124-127].

﴿و﴾ من غاية جهلهم ونهاية فسوتهم ﴿إِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ هادية لهم إلى سبيل الرشاد ﴿قَالُوا﴾ من غاية بغضهم وعنادهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ﴾ بها ﴿حَتَّى نَأْتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ﴾ من يدعي أنهم ﴿رُشِلُ اللَّهِ﴾ إذ نحن وهم سواء في البشرية وأولى منهم في الرئاسة والنسب، فكيف يؤتى لهم ولم يؤت إلينا؟ قل لهم يا أكمل الرمل: الوحي والإيتاء بيد الله يؤتى من يشاء ويمنع ممن يشاء؛ إذ ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ لا يعتبر عنده الرئاسة والنسب بل تفضلاً على من تفضل من عباده بلا التفات إلى نسبه وحسبه بقدر قابليته واستعداده، المقدر له من عنده في سابق علمه، ﴿وَلَا تَخْزَنُ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل: 70] ويقولون إذ ﴿سَيَصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ مغرورين على رئاستهم وجهلهم ونسبهم ﴿صَفَاً﴾ مذلة وهوان ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ حين إحضارهم الحساب والجزاء ﴿و﴾ بعدما كشف حالهم وحسابهم لهم ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ [الأنعام: 124].

وإذا كان الأمر بيد الله من عنده ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ﴾ إلى توحيده ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ﴾ أي: يفسحه ويوسعه ﴿لِلْإِسْلَامِ﴾ أي: التفويض والاستسلام إلى حيث رضي بجميع ما قضي له، ومتى رضي بالقضاء يسع الحق فيه فيستولي عليه فيغنيه عن هويته ويبقيه ببقائه السرمدي ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ﴾ عن فسحة توحيده ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ﴾ الذي من شأنه أن يسع الحق فيه ﴿ضَيِّقًا﴾ ضيقاً في غاية الضيق باستيلاء لوازم الإمكان عليه، إلى حيث تضيق الأرض عليه فيتمنى الصعود إلى عالم الأسباب ﴿كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ﴾ أي: يطلب الصعود إلى السماء، ومن غاية احتياجه واضطراره، وهذا مثل يضرب به لمن ضاق عليه طرق معاشه ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: كحال من اضطر إلى الصعود نحو السماء ﴿يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ﴾ أي: خذلان الإمكان والحرمان في النشأة الأخرى ﴿عَلَى﴾ القوم ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: 125] بتوحيد الله وسعة لطفه وجوده.

﴿وَهَذَا﴾ أي: ما أنزلنا إليك يا أكمل الرسل من القرآن المبين لطريق المعرفة

والإيقان ﴿صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ لا عوج فيها أصلاً موصلاً إلى توحيده ﴿قَدْ فَضَّلْنَا﴾
وأوضحنا فيما أنزلناه إليك ﴿الآيَاتِ﴾ الدالة على توحيدنا ﴿لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾ [الأنعام: 126]
يتعظون بها ويتذكرون مبدأهم الذي ينشئون منه ويظهرون عنه وهو الوحدة
الذاتية.

﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ﴾ أي: مقام التفويض والاستسلام ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ بعدما تحققوا
بتوحيده ﴿وَهُوَ﴾ بذاته ﴿وَلَهُمْ﴾ ومولى أمورهم ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 127]
أي: بجميع ما كانوا يعملون من الأعمال؛ إذ هو سمعهم وبصرهم ويدهم ورجلهم
وجميع جوارحهم التي صدرت عنها أعمالهم على ما نطق الحديث القدسي صلوات
الله وسلامه على قائله.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَنْفَعُ الْجَنَّةَ الَّذِينَ قَدْ اسْتَكَرَّتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ
الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا آجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَلِيلِينَ فِيهَا
إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ
﴿١٢٩﴾﴾ [الأنعام: 128-129].

﴿و﴾ اذكر يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: جميع ما يتأتى منه
الإطاعة ويتوجه إليه التكليف من الثقلين قابلين عليهم منادين لهم: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجَنَّةِ﴾
أي: الشياطين ﴿قَدْ اسْتَكَرَّتُمْ﴾ أي: استبعمت بأن أضللتكم وأغويتم كثيراً ﴿مِنَ الْإِنْسِ﴾^(١)
بإيقاعهم إلى المعاصي والمهالك والخروج عن مقتضى أوامرنا ونواهيها، وإغرائهم إلى
مستلذات نفوسهم ومقتضيات شهواتهم ﴿و﴾ بعدما سمع الإنس هذا النداء ﴿قَالَ﴾
أولياؤهم أي: أولياء الجن ومتابعهم ﴿مِنَ الْإِنْسِ﴾ متذللين متحسرين: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من
ربانا بأنواع اللطف والكرم فكفرناك بمتابعة هؤلاء الغواة فإن ظهر الحق واضمحل
الباطل نحن نقر بما جرى بيننا وبينهم ﴿اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ منهم بإغوائهم
وإغرائهم إلى خلاف ما أمرتنا عليه بالسنة رسلك، وبعضهم استمتع ببعضنا بالموالاة

(١) يشير إلى أنه تعالى حشر وجمع الجن وهي صفة الشيطانية والإنس، وهي النفس الإنسانية
وصفاتها في موقف القلب البشري بحكمة بالغة وقدره كاملة ويحيطها بقوله: يا معشر الجن إلى
الصفات الشيطانية قد استكترتم من الإنس أي: قبلتم على الصفات الإنسانية، وأضللتهم عن
طلب الحق وهو الصراط المستقيم إلى الله الذي خلق الإنسان للعبور عليه والوصول إلى الحق،
ومن شأنه إقعاد الإنسان عن هذا الصراط. [التأويلات].

والمتابعة ﴿وَيَلْعَنَّا﴾ الآن ﴿أَجَلْنَا الَّذِي أَجَلْت لَنَا﴾ على السنة رسلك فالآن جئناك خائبين خاسرين ﴿قَالَ﴾ سبحانه من وراء سرادقات العز والجلال: الآن انقضى دار الابتلاء ومضى زمان الاهتداء ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ﴾ جميعاً أي: تابعيكم ومتبوعيكم مؤبداً ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبداً ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ وقتاً ينقذهم منها؛ لئلا يتعودوا بعذابها ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ متقن في أفعاله ﴿عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: 128] بمقدار جزاء العصاة.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: مثل قول أولياء الإنس والجن ﴿نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ﴾ من الإنس ﴿بَعْضاً﴾ منه ليفتضحوا ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: 129] من المظاهر بتغريب بعضهم بعضاً.

﴿يَمَعَشَرُ لَئِنْ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَٰهَدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَشَٰهَدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الأنعام: 130-132].

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ المفتضحين على رؤوس الأشهاد ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ﴾ غلب الإنس على الجن؛ إذ ليس يبعث من الجن نبي بل من الإنس إلى الثقلين ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي﴾ ويدعونكم إلى توحيد ذاتي وأوصافي وأفعالي ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ يوم القيامة والجزاء ﴿قَالُوا﴾ مضطرين معترفين: ﴿شَٰهَدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا﴾ يا ربنا بالجرم والعصيان بعدما ظهر الأمر وانكشف الحجاب، وصرنا مستحقين بالعذاب والنكال ﴿وَوَ﴾ ما ذلك إلا أن ﴿غَرَّتْهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾ بحيث لم يبالوا بما جاءهم من عند ربهم لإهدائهم بل يكذبونه ويستهزئون به ﴿وَوَ﴾ أدى عاقبة أمرهم في عتوهم وعنادهم إلى أن ﴿شَٰهَدُوا﴾ واعترفوا ﴿عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأنعام: 130] مستحقين بأنواع العقوبة والعذاب.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: إرسال الرسل وإنزال الكتب إنما هو ليتنبهوا ويتنبهوا؛ أي: العصاة على ما هم عليه والسر في الإرسال ﴿أَن﴾ أي: لأن ﴿لَّمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ أي: بسبب ظلم صدر عنه ﴿وَوَ﴾ الحال أنه ﴿أَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾⁽¹⁾ [الأنعام: 131]

(1) عن إنذار رسل الإلهامات الربانية، وذلك أن الاستعداد الروحاني لا يفسد استيفاء حظوظ

عن طريق الحق بلا تنبيه منه وإرشاد مرشد نبيه، وعَلِمَ من تبعك من المؤمنين.
﴿و﴾ اعلم يا أكمل الرسل وذكركم أن ﴿لِكُلِّ﴾ من أهل التكليف ﴿فَرَجَاتٍ﴾
عند الله حاصلة لهم ﴿فَمَّا عَمِلُوا﴾ عن الصالحات ﴿وَمَا رَبُّكَ﴾ المطلع لضمائر عباده
﴿يَغَافِلُ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 132] لمقتضى التكليف التي كلفهم بها.

﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ
مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنْ مَأْثُورٌ كُنْتُمْ لَأَنْتُمْ وَمَا
أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ لِي أَخْلُقَ مِنْكُمْ
مِمَّنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ عَقِبَهُ الدَّارُ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٥﴾ [الأنعام: 133-135].

﴿و﴾ الحال إِنْ نفعه عائد إليهم؛ إذ ﴿رَبُّكَ﴾ هو ﴿الْغَنِيُّ﴾ بذاته عنهم وعن
أعمالهم بالمرّة صالحاً أو فاسداً بل هو ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ على من عمل بمقتضى التكليف
امتناناً عليه وتفضلاً بلا احتياج له سبحانه إليهم وإلى عملهم بل ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أيها
الناس الناسون حقوق ألوهيته وتوحيده والتكاليف الواقعة في طريقه ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ
بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾ ممن يعمل على مقتضى تكاليفه ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾
[الأنعام: 133] قرناً بعد قرن، بطناً بعد بطن مع أنه يترحم عليكم ويبقيكم تفضلاً
وامتناناً.

قل لهم يا أكمل الرسل تنبيهاً عليهم: ﴿إِنْ مَأْثُورُونَ﴾ أيها المكلفون من
الحشر والنشر والجزاء ﴿لَأَنْتُمْ﴾ كامن ثابت لا محالة، واعملوا على مقتضى ما كلف به
﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [الأنعام: 134] أي: عاجزين عن الإتيان بالأمور حتى لا تواخذوا
بترك التكليف ولا تعذبوا به؛ إذ لا تكلف نفس إلا وسعها.

الحيواني في الطفولية، إلا بعد أن يصير العبد مستعداً لقبول فيض العقل وفيض الإلهام عند
البلوغ، فيخالف الإلهامات ويتبع الهوى، فيفسد بذلك حسن الاستعداد لقبول الفيض الإلهي،
كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: 26]، وهذا كما أنه تعالى لا يعذب
قوماً بلغهم الدعوة حتى يبعث فيهم رسولا، فيخالفونه فيعذبهم بها، وقد عبر لسان الشرع عن هذا
المعنى، بأنه لا يجري عليه قلم تكاليف الشريعة إلا بعد البلوغ بالأوامر والنواهي؛ لأنه أواني
ترقي الروح باستعمال المأمورات، ونقصانه باستعمال المنهيات، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ
فَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾. [التأويلات].

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل على طريق الترحم والتحنن إرخاء العنان مبالغة في التعريض: ﴿يَا قَوْمِ اْعْمَلُوا﴾ من المعاصي ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ مقدار مكتكم وطاقتم ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ أيضا من الصالحات المأمورة علي بمقتضى مكتي وطاقتي ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ حين انكشف الحجب وارتفع الغشاء ﴿مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ أي: العاقبة الحسنى التي تترتب على هذه الدار؛ أي: أين نفوز بها إنا أو أنتم؟ ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: 135] الخارجون عن حدوده بمقتضى أهويتهم الفاسدة.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرْغِمِهِمْ وَهَذَا لِسُرْكَائِنَا فَمَا كَانَتْ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَتْ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى اللَّهِ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُزِدُوهُمْ وَلِيَكْلِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأنعام: 136-137].

﴿و﴾ من جملة أهويتهم الباطلة أنهم ﴿جَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ برأ وخلق ﴿مِنْ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا﴾ المعين المفروز ﴿لِلَّهِ بِرْغِمِهِمْ وَهَذَا لِسُرْكَائِنَا﴾ أي: آلهتنا وشفعاتنا ﴿فَمَا كَانَ﴾ من أموالهم يفرز ﴿لِشُرَكَائِهِمْ﴾ إن كان جيدا طيبا ﴿فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ﴾ ولا يتجاوز عن شركائهم ﴿وَمَا كَانَ لِلَّهِ﴾ إن كان جيدا ﴿فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ﴾ بأن استبدلوها بالردئ الذي كان لشركائهم ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: 136] هؤلاء الجاهلون؛ لأن فعلهم واختيارهم هذا إنما هو تفضيل المفضول المترذل على الأصل الأفضل.

روي أنهم كانوا يعينون في حرثهم ونتاجهم لله، ويصرفونه إلى الضيفان والمساكين، وشيئا منها لآلهتهم وينفقونها إلى سدة آلهتهم وخدامهم، ويدبحون عندها ثم إن رأوا ما عينوا لله أزكى؛ بدلوه بما لآلهتهم من الردئ، وإن رأوا ما لآلهتهم أزكى تركوه لها حبا لآلهتهم، وهذا مما اخترعوه من تلقاء أنفسهم وإن افتروا إلى كتبهم ترويجا وتغريزا.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: مثل قسمتهم في القربات والصدقات ﴿زَيَّنَ﴾ حجب وحسن ﴿لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ﴾ أي: آلهتهم الذين يعبدونهم من دون الله من الشياطين، وما ذلك التزيين والتحسين إلا ﴿لِيُزِدُوهُمْ﴾ ليهلكوهم ويضلوهم

بالإغواء عن طريق الحق ﴿وَلْيَلْبِسُوا﴾ ويخلطوا ﴿عَلَيْهِمْ دِينَهُم﴾ الذي وجب عليهم الانقياد والإطاعة ليصلوا إلى طريق التوحيد ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ الهادي لعباده هدايتهم ﴿مَا فَعَلُوهُ﴾ أي: ما قبلوا ما زينوا عليهم ولبسوا عليهم ﴿فَلَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: 137] أي: جانب عنهم وعن افتراءاتهم إلى أن نأخذهم ونتقم عنهم.

﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرًا لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (١٣٨) ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلذَّكَورِ وَحُرْمٌ عَلَى أَرْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (١٣٩) [الأنعام: 138-139].

﴿و﴾ من جملة ما اخترعوها من تلقاء أنفسهم ونسبوا إلى الله وإلى كتابه ترويضاً أنهم ﴿قَالُوا هَذِهِ﴾ المعينة المفروضة ﴿أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرًا﴾ حرام ﴿لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ﴾ إطعامه؛ يعنون سدنة الأوثان وخدمتهم من الرجال دون النساء، فإنها يحل عليهم ويحرم على غيرهم وما هي إلا ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ الفاسد بلا حجة عقلية وعقلية ﴿و﴾ أيضاً قالوا: هذه ﴿أَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ وأراد البحائر والسوائب والحوامي، ﴿و﴾ قالوا أيضاً: هذه ﴿أَنْعَامٌ﴾ معدة للتجارة والحمل والظعن ﴿لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ أي: لا يركبونها للحج، كل ذلك من مخترعاتهم التي يخترعونها من أهويتهم الفاسدة وآرائهم الباطلة ويفترون ﴿افْتِرَاءً عَلَيْهِ﴾ سبحانه بلا سند لهم نازل من عنده ﴿سَيَجْزِيهِمْ﴾ الله ويعذبهم ﴿بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: 138] أي: بسبب بافترائهم عليه.

﴿و﴾ من جملة مفترياتهم ومخترعاتهم أنهم ﴿قَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ﴾ أي: البحائر والسوائب إن كانت حياً فهي ﴿خَالِصَةٌ لِلذَّكَورِ﴾ مخصوصة مستحيلة لهم ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَرْوَاجِنَا﴾ لا نصيب لهن فيه ﴿وَإِنْ يَكُن مَيْتَةً﴾ أي: وإن يخرج ميتة ﴿فَهُمْ﴾ أي: الذكور والإناث ﴿فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ بلا تفاوت وخصوصية ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ أي: سيجزيهم الله على وصفهم، وتفصيلهم هذا افتراء عليه ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ في جزاء المفترين ﴿عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: 139] بمقدار جزائهم.

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (١٤٠) ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ

وَعَبْرَ مَعْرُوشَتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكْلُهُمُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ كُلُوا مِنَّمَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٢﴾ [الأنعام: 140-142].

﴿قَدْ خَسِرَ﴾ وخاب خيبة مؤبدة الأعراب ﴿الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا﴾ مخافة سبي وإملاق ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ منهم بما يؤول أمرهم عليه، ولا شك أن الرازق لعباده هو الله لا هم ﴿وَوَ﴾ أيضًا ﴿حَزَمُوا﴾ على نفوسهم ﴿مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ وأباح عليهم من البحائر والسوائب وغيرها ونسبوا تحريمها ﴿افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾ هوى وميلًا إلى الباطل، وبالجمله: ﴿قَدْ ضَلُّوا﴾ بهذه الجرائم عن طريق الحق ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: 140] إلى توحيده وما يرجي منهم الهداية والفلاح أصلاً.

﴿وَوَ﴾ كيف تضلون عن طريق الحق أيها الجاهلون المسرفون مع أنه سبحانه ﴿هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ﴾ لكم لمعاشكم في النشأة الأولى ﴿جَنَّاتٍ﴾ من الكروم ﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾ مرتفعات من الأرض ﴿وَعَبْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾⁽¹⁾ ملقيات على وجه الأرض ﴿وَوَ﴾ أنشأ لكم أيضًا ﴿النَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكْلُهُ﴾ أي: أكمل كل واحد منهما رطبًا ويابسًا ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا﴾ بعضها ببعض ﴿وَعَبْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ بل مختلف في الشكل والطعم ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ أي: ثمر كل واحد من المذكورات حيث شئتم ﴿إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ﴾ أي: أخرجوا حق الله منه على الوجه المفروض ﴿يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ إدراكه وبدو صلاحه ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ في الأكل إلى حيث تقسى قلوبكم ويكل إدراككم ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾

(1) قال الشيخ نجم الدين كبرى: الإشارة فيها: إن الله تعالى عرّف ذاته بصفاته، وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ﴾؛ بساتين في الظاهر كما مر ذكره في المعاني، وبساتين في القلوب، مغروسات وغير مغروسات، كما هي قراءة على بن أبي طالب - كرم الله وجهه - فالمغروسات: لمغرسه الله تعالى في أرض القلوب من شجرة الإسلام والإيمان والإحسان، وما يتعلق بصفات الحق تعالى، كما قال ع: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَضَلُّهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: 42]، وغير المغروسات: هي أشجار من صفات الروحانية، التي جبلت القلوب عليها مثل: السخاء والحياء والوفاء والمروة والفتوة والشفقة والعفة والحلم والعلم والعقل والشجاعة والقناعة وأمثالها، فإن بساتين القلوب بها موفقة، وشموس الأسرار منها مشرقة، وأنهار المعارف فيها زاخرة، وأزهار الشواهد عنها زاهرة.

[الأنعام: 141] أي: لا يرضى عنهم وعن فعلهم؛ إذ الأكل إنما هو لقوام البدن وتقوية الروح على فعله، وإسرافه يفضي إلى التعطيل والتكليل المخل للحكمة الإلهية.

﴿وَلَكُمْ أَنْشَاءٌ لَكُمْ أَيْضًا﴾ [مِنْ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ] ﴿تَحْمِلُونَ أَثْقَالَكُمْ يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ ﴿وَفَزَّشَاءٌ﴾ تَفْرَسُونَ مِنْ أَصْوَابِهَا وَأَشْعَارِهَا وَأَوْبَارِهَا الْمَنْسُوجَةِ تَحْتَكُمْ يَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ﴿كُلُوا مِنْ مَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ وَأَبَاحَهُ عَلَيْكُمْ مِنْهَا ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا﴾ أَثَرُ ﴿خَطَوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ وَلَا تَسْمَعُوا وَسَاوِسَهُ فِي تَحْلِيلِ الْمُحَرَّمَاتِ وَتَحْرِيمِ الْمُبَاحَاتِ؛ يَعْنِي: لَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَكُمْ الَّتِي هِيَ مِنْ جُنُودِ الشَّيَاطِينِ ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأنعام: 142] ظَاهِرُ الْعَدَاوَةِ فَاجْتَنِبُوا مِنْ إِغْوَائِهَا.

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ أَلَذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْفَرْسَيْنِ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلِّيٍّ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ أَلَذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْكُمُ اللَّهُ بِهِذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: 143-144].

واعلموا أيها المؤمنون أن الله سبحانه أباح لكم من الأنعام ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ﴾ الكبش والنعجة وما يتولد منهما ﴿وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ التيس والعنز أيضًا كذلك ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لمن يدعي التحريم في تقدير الجنس إلزامًا وتبكيًا: ﴿الذَّكَرَيْنِ﴾ الكبش والتيس ﴿حَرَّمَ أَمْ الْأُنثَيَيْنِ﴾ النعجة والعنز ﴿أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ﴾ أي: حرم ما في بطن الأنثيين من هذين الجنسين ذكرًا كان أو أنثى ﴿نَبِّئُونِي﴾ أخبروني أيها المدعون بتحريم شيء منها ﴿بِعِلْمٍ﴾ أي: بمقدمة معلومة عندكم من نقل ونص دال على أن الله حرم شيئًا من ذلك ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنعام: 143] في دعوى التحريم.

﴿وَلَكُمْ أَيْضًا أَبَاحٌ لَكُمْ مِنْهَا أَرْحَامٌ كَأَرْحَامِ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ أَلَذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْكُمُ اللَّهُ بِهِذَا﴾ أي: حين وصاكم الله ﴿بِهِذَا﴾ التحريم؛ لأنه ما أخبر به نبي وما جاء به كتاب، فبقي أن تدعوا الحضور عنده سبحانه وأنتم أيها المفترون من

المردودين المطرودين عن ساحة عز حضوره سبحانه، وما من الأمر تسويلات نفوسكم وتليسات شياطين أو هامكم وخيالاتكم تفترونه على الله ظلماً وزوراً ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ﴾ عن طريق الحق ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ نص ونقل وارد نازل من عند الله بل من تلقاء نفسه تليسا وتخليطاً لضعفاء العوام ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع بمخايل المفسدين ﴿لَا يَهْدِي﴾ إلى طريق صراط توحيده ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: 144] المفترين عليه بأمثال هذه المفتريات الزائفة.

﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خنزير فَإِنَّهُ رَجَسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاطِلٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِغَيْرِهِمْ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأنعام: 145-146].

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل على مقتضى ما أوحينا إليك: ﴿لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ أي: في القرآن الجامع لأحكام الكتب السابقة المستحضر لها ﴿مُحَرَّمًا﴾ طعاماً حرمه الله ﴿عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ بل أجد كل ما يطعم حلالاً؛ إذ الأصل في الأشياء الحل ﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً﴾ مات حتف أنفه بلا زكاة ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ سائلاً جارياً مفروزاً عن اللحم ﴿أَوْ لَحْمَ خنزير فَإِنَّهُ رَجَسٌ﴾ نجس في نفسه لا يقبل الزكاة أصلاً ﴿أَوْ﴾ ما يذبح من المحللات ﴿فِسْقًا﴾ خروجاً عن مقتضى الشرع بأن ﴿أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ حين ذبحه من أسماء الأصنام وغيرها، وما سوى هذه المستثنيات المذكورة فهو مباح ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ﴾ أيضاً إلى تناول تلك المستثنيات حال كونه ﴿غَيْرَ بَاطِلٍ﴾ خارج على أهل الإسلام ظلماً ﴿وَلَا عَادٍ﴾ مجاوز عن سد الجوعة ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ﴾ لمن تناولها ضرورة ﴿رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: 145] لا يؤاخذها عليها بل إن لم يتناول في محل الاضطرار، وهلك كان عاصياً البتة؛ لأنه تخريب لبيت الله وإبطال لصنعه بعدما رخص.

﴿و﴾ إن سألوكم يا أكمل الرسل عن محرمات الأمم الماضية قل لهم نيابة عنا: ﴿عَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ وحافر يمكن أن يخرج معها ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ﴾ من الشحوم ﴿ظُهُورُهُمَا﴾ وهي الشروب وشحوم الكلى ﴿أَوْ﴾ حملتها ﴿الْحَوَايَا﴾ أي: الأمعاء ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ﴾ من الشحوم ﴿بِعَظْمٍ﴾ كالألية ﴿ذَلِكَ﴾ أي: تحريم هذه الأشياء، وإن كان الأصل في الأشياء الحل

والإباحة مطلقة بسبب أنا ﴿جَزَيْنَاهُمْ بِبَيْنِهِمْ﴾ بها وظلمهم وخروجهم عن حدودنا بلا ورود نص منا ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: 146] في جميع ما أوحينا إليك من الأقوال والأخبار والمواعيد والوعيدات.

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ [الأنعام: 147-149].

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ وعاندوك فيما تلونا عليك ﴿فَقُلْ﴾ لهم إحاضاً للنصح على مقتضى مرتبة النبوة: ﴿رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ يمهلكم على ما أنتم عليه ويوسع عليكم على مقتضى رحمته وجماله ﴿وَقُلْ﴾ الحال أنه ﴿لَا يُرَدُّ بَأْسُهُ﴾ ويطشه على مقتضى غيرته وحميته وجلاله ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: 147] الذين أجرموا على الله بالخروج عن مقتضى أحكامه النازلة على ألسنة رسله.

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ على سبيل التكذيب والإنكار فيما جنت به: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ ما أنت ترويه عنه وتدعيه بالنسبة إلينا ﴿مَا أَشْرَكْنَا﴾ مع أنه القادر على جميع ما أراد ﴿وَلَا﴾ أشرك ﴿آبَاؤُنَا﴾ أيضاً ﴿وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ مما أجزت تحريمه عنه بالنسبة إلينا بل ما هي إلا مفتريات تخترعه من عندك ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل تكذيبهم لك بأمثال هذه الهذيان الباطلة ﴿كَذَبَ الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أنبياءهم ﴿حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ الذي أنزلنا عليهم واستأصلناهم بتكذيبهم، وإن أردت إلزامهم وتبكيتهم ﴿قُلْ﴾ لهم مستفهماً: ﴿هَلْ﴾ حصل ﴿عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ﴾ نقل صريح وحجة واضحة ماردة من عند الله ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ وتظهروه حتى نتبعه، ونقبله؟ فإن لم يخرجوا فقل لهم: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ﴾ أي: ما تتبعون ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾ الذي لا يغني من الحق شيئاً ﴿وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ ^(١) [الأنعام: 148] تكذبون على الله افتراء ومراء، فأعرض عنهم ودع

(1) تكذبون على الله تعالى وقد تقدم الكلام في حكم اتباع الظن على التفصيل فتذكر قل فله خاصة الحجة البالغة أي البينة الواضحة التي بلغت غاية المتانة والقوة على الإثبات أو بلغ بها صاحبها صحة دعواه كعبشة راضية والمراد بها في المشهور الكتاب والرسول والبيان، وقال شيخ

مجادلتهم ومخاطبتهم.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل بعدما ألزموا وأفحموا: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ﴾ البينة الواضحة ﴿الْبَالِغَةُ﴾ حد الكمال ﴿فَلَوْ شَاءَ﴾ هدايتكم ﴿لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: 149] أي: لأوضح حجته عليكم ووفقكم إلى قبوله، ولكن لم تتعلق مشيئته على هدايتكم لذلك أصررتم واستكبرتم، وإذا لم ينتبهوا بعد إلقاء حجة الله عليهم بل أصرروا على تقليد أبحارهم.

﴿قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايِنَتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعِدُلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّهِنَّ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهٖ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام: 150-151].

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل: ﴿هَلُمْ شُهَدَاءُكُمْ﴾ أي: أحضروا أبحاركم ﴿الَّذِينَ

مشايخنا الكوراني: الحجة البالغة إشارة إلى أن العلم تابع للمعلوم وإن إرادة الله تعالى متعلقة باظهار ما اقتضاه استعداد المعلوم في نفسه مراعاة للحكمة حودا ورحمة لا وجوبا وهي من الحج بمعنى القصد كأنها يقصد بها إثبات الحكم وتطلبه أو بمعنى الغلبة وهو المشهور والفاء جواب شرط محذوف أي إذا ظهر أن لا حجة لكم قل فله الحجة فلو شاء هدايتكم جميعا لهداكم أجمعين، بالتوفيق لها والحمل عليها ولكن شاء هداية البعض الصارفين اختيارهم إلى سلوك طريق الحق وضلال آخرين صرفوه إلى خلاف ذلك، وقال الكوراني: المراد لكنه لم يشأ إذ لم يعلم أن لكم هداية يقتضيها استعدادكم بل المعلوم له عدم هدايتكم وهو مقتضى استعدادكم الأزلي الغير المجعول وهذا تحقيق للحق ولا ينافي ما في صدر الآية لما علمت من مرادهم به وقائدة ارسال الرسل على القول بالاستعداد تحريك الدواعي للفعل والترك باختيار المكلف الناشيء من ذلك الاستعداد وقطع اعتذار الظالمين وقد أشرنا الى ذلك من قبل فتذكر وذكر ابن المنير وجها آخر في توجيه ما في الآية وهو أن الرد عليهم إنما كان لاعتقادهم أنهم مسلوبون اختيارهم وقدرتهم وأن اشراكهم إنما صدر منهم على وجه الاضطرار وزعموا أنهم يقيمون الحجة على الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام بذلك فرد الله تعالى قولهم في دعواهم عدم الاختبار لأنفسهم وشبهتهم بمن اغتر قبلهم بهذا. انظر [روح المعاني (8/ 51)].

يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ ﴿هَذَا﴾ في كتابه ﴿هَذَا﴾ أي: ما ادعيتم تحريمها.

﴿فَإِنْ شَهِدُوا﴾ بعدما حضروا افتراء على كتاب الله ﴿فَلَا تَشْهَدُوا﴾ يا أكمل الرسل ﴿مَعَهُمْ﴾ ولا تقبل شهادتهم ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ ونسبوا إليها ما هي خالية عنها ﴿وَوَلَّيْتُ﴾ اعلم يا أكمل الرسل أن ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ ولا بالمجازاة والمكافأة مطلقاً، ولا يبالون من أفعال هذه المفتريات الباطلة ﴿وَهُمْ﴾ من غاية جهلهم ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ الذي رباهم بأنواع الكرم ﴿يَغْدِلُونَ﴾ [الأنعام: 150] يشركون ويجعلون له عديلاً، تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل على مقتضى شفقة النبوة: ﴿تَعَالَوْا﴾ أيها التائهون في بقاء الضلال ﴿أَتْلُ﴾ وأعد لكم ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ في نشأتكم الدنيا، أولها وعظماها: ﴿أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ من مصنوعاته؛ إذ هو أحد صمد فرد وتر ليس لغيره وجود حتى يشاركه ويمثله ﴿وَوَلَّيْتُ﴾ أن تفعلوا ﴿بِالْوَالِدَيْنِ﴾ اللذين هما سبيان قريبان لظهوركم إلا ﴿إِحْسَانًا﴾ لإحسانهما إليكم في حفظكم وحضانتكم ﴿وَوَلَّيْتُ﴾ أن ﴿لَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ ظلماً ناشئاً ﴿مِنْ﴾ خوف ﴿إِمْلَاقٍ﴾ فقر وقلة؛ إذ ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ وأن ﴿لَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾ القبيح ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ كالقود وقتل المرتد ورجم الزاني المحصن وغيرها من المحارم التي رخص الشرع بارتكابها، إذا ارتكابها من جملة المحللات والمأمورات ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور مفصلاً مما ﴿وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 151] رجاء أن تسترشدوا لتتهدوا إلى توحيده.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكُلُوا نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاقُولُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: 152-153].

﴿وَوَلَّيْتُ﴾ من جملة المحرمات التي حرّمها الحق عليكم: أن ﴿لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ ولا تتصرفوا ﴿إِلَّا بِ﴾ التصرفات ﴿الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ لليتيم وأحفظ لغبطته من تنمية ماله وحفظه ﴿حَتَّى يَبْلُغَ﴾ اليتيم ﴿أَشُدَّهُ﴾ أي: يسمع من التصرفات الشرعية شرعاً، وحيث يسلم إليه بعد تجربته واختباره، ﴿وَوَلَّيْتُ﴾ من جملتها أيضاً: ألا تقصروا وتخسروا

في الكيل والوزن بل ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل ولا تنقصوا منهما، وإن كان إيفاؤهما في غاية الصعوبة والعسر، فعليكم أن تبدلوا وسعكم وطاقتم في تعديلها وإيفائهما مهما أمكن لكم، وما ليس في وسعكم ﴿لَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ معفو عنكم، ﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ جَمَلَتْهَا أَلَّا تَمِيلُوا فِي الْأَحْكَامِ إِذَا قُلْتُمْ﴾ وحكمتم حال كونكم حاكمين بين الخصمين ﴿فَاعْدِلُوا﴾ في الحكومة ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ المحكوم عليه أو له ﴿ذَا قُرْبَى﴾ من حميمكم وذوي قرابتكم، وعليكم أيها الحكام ألا تتجاوزوا في الأحكام عما حكم الله به بل ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ﴾ الحكيم العليم ﴿أَوْفُوا﴾ وبمقتضى حكمه وحكمه وفوا ﴿ذَلِكُمْ﴾ المذكور مما ﴿وَصَّاكُمْ﴾ الله ﴿بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: 152] رجاء أن تتذكروا وتتعضوا به أيها المتوجهون إلى توحيده.

﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ أَعْلَمُوا أَيُّهَا الْمَائِلُونَ﴾ نحو توحيدي ﴿أَنَّ هَذَا﴾ أي: المذكور في هذه السورة من الأوامر والنواهي والمحرمات والمحللات والأحكام والإشارات والآداب والمعاملات ﴿صِرَاطِي﴾ الموصل إلى توحيدي ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ سويًا بلا ميل واعوجاج ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ حتى تفوزوا إليه ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ المتفرقة والطرق المختلفة ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ﴾ وتضلكم ﴿عَن سَبِيلِهِ﴾ أي: سبيل توحيده الذاتي ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي: اتباع طريق التوحيد مما ﴿وَصَّاكُمْ﴾ الله ﴿بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾⁽¹⁾ [الأنعام: 153] رجاء أن تحذروا

(1) قال في «التأويلات»: اعلم أن هذه الآيات لتشتمل على عشر خصال جامعة للخير كله: أولها: ألا تشركوا به شيئًا قدم الشرك؛ فإنه رأس المحرمات، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: 48]، فإنه لا يقبل معه شيئًا من الطاعات، وهو ينقسم إلى جلبي وخفي؛ فالجلبي: عبادة الأصنام ومتابعة الهوى في الأنام، فقال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الفرقان: 43]، والخفي: ملاحظة الأنام بعين استحكام الإعظام ورؤية الأغيار مع الله الواحد القهار.

وثانيها: قوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام: 151]، وإنما ذكر بعد تحريم الشرك تحريم العقوق والأمر بالإحسان إلى الوالدين؛ لأنهما سبب وجوده ومظهره، كما أن الله تعالى موجد وجوده ومبدعه ومبدئه فحرم عقوقهما بعد تحريم الشرك به، وأوجب الإحسان إليهما بعد القيام بعبادته، كما قال تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِنَاءَهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: 23]، إقامة لحقوقهما بعد الإقامة لحقوق الله تعالى، فالتقاعد عن أداء حقوقهما عقوق فهو أكبر الكبائر.

وثالثها: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: 151]، ثم حرم قتل الأولاد بعد تحريم العقوق؛ لما فيه من هدم بنيان الله تعالى، وملعون من هدم بنيانه، وفيه إبطال ثمرة، وشجرة وجوده، وقطع نسله، وفيه خشية إملاق؛ وهي ترك التوكل على الله

وعدم الثقة بالله إن يرزقهم وذلك يؤدي إلى تكذيب الله تعالى، لأنه قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ ذَاتَةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: 6]. ورابعها: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: 151]، ثم الفواحش جميعها، وقد يدخل في ذلك جميع أقسام الآثام ما ظهر منها: وهو ما يبعده من الجنة ويدينه، وباطن منها: وهو ما يبعده عن الحق ويحجبه عنه، وإن لم يحجبه عن الجنة ولم يبعده منها، وأيضاً ما ظهر منها بالفعل، وما بطن بالنية.

وخامسها: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: 151]، ثم حرّم القتل إلا بالحق؛ أي: وإلا في طلب الحق، فإن المقتول في سبيل الله هو حي عند ربه، وفي قتل ترك تعظيم أمر الحق وترك الشفقة على الخلق وهما ملاك الدين ﴿ذَلِكُمْ وَضَاكُم بِهِ﴾ [الأنعام: 151]، يعني: هذه الخمسة المحرمة، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: 151] لكي تعرفوا موجبات الانقطاع عن الله تعالى فتحرزوا عنها.

وسادسها: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ والاشدة: الصلاح، والفقه؛ يعني: يتفقه في الصلاح للدين لا في إفساد الدنيا، ثم حرّم المال بعد تحريم قتل النفس؛ لأن حرمة مال المسلم كحرمة دمه، وقدم مال اليتيم؛ لأنه عاجز عن حفظ ماله، فإن الله تولاه، ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾، وفيه معنيان: أمره وحي الخلق بالاجتناب عن ماله وبالشفقة والنظر في حقه.

وسابعها: قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ وفيه معنيان: أحدهما: تحريم الطمع في مال المسلم بنقصان الكيل والوزن عند الوفاء وأتاه بزيادتهما عند الاستيفاء.

والثاني: أوفوا الكيل العمر وميزان الشرع حقوق الربوبية، واستوفوا بكيل الاجتهاد وميزان الاقتصاد وحظوظ العبودية من الألوهية، ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا﴾ في إبقاء الحقوق واستيفاء الحظوظ، ﴿إِلَّا وَشْعَهَا﴾ إلا بحسب استعدادها.

وثامنها: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ ثم حرّم الظلم والجور والميل في الفعل المقال، ﴿وَلَوْ كَانُوا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: 152] أي: ولو كان المسلم على الكافر والكافر على المسلم وحقيقته العدل في الكلام أن ما يذكر الله تعالى ولا يذكر معه غيره، وأن يتكلم له وفي الله وبالله. وتاسعها: قوله تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ ثم حرّم نقص العهد مع الله وأمر بالوفاء بعهده عليه، وهو ألا يعبد إلا مولاه ولا يبحث إلا إياه ولا يرى سواه، ﴿ذَلِكُمْ وَضَاكُم بِهِ﴾ يعني: هذه المحرمة الأخرى، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ لكي تذكروا أيام الوصال في حضرة الجلال ومشاهدة ذلك الجمال:

أياماً قضت بذي القُضاء سقامن رجاف العشى بطول

إذا العيش غرض والشباب بمائه وفي حدثان الدهر منك خفول

ونحسن برّيع إن تطأ ثوابت ولا استجيب اللهم فيه قبول

وعاشرها: قوله تعالى: ﴿وَأَنْ هَلَّا صِرَاطِي مُنْتَقِيًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَقَرَّبَ بِكُمْ عَنْ

بسيه عن سبيل الأهوية الفاسدة والآراء الباطلة المضلة عن طريق الحق وتوحيده.

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأنعام: 154-157].

﴿ثُمَّ﴾ اعلموا أنا ﴿آتَيْنَا﴾ من مقام جودنا ﴿مُوسَى الْكِتَابَ﴾ تمامًا؛ أي: التوراة المبين لطريق الحق ﴿تَمَامًا عَلَى﴾ الوجه ﴿الَّذِي أَحْسَنَ﴾ بيانه وتوضيحه ﴿و﴾ بيِّنًا فيه أيضًا ﴿تَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ من الكوائن والفواصد المتعلقة بعالم الفواصد المتعلقة بعالم الملك والشهادة ﴿وَهُدًى﴾ من المعارف والحقائق المتعلقة بعالم الملكوت والغيب ﴿وَرَحْمَةً﴾ من المكاشفات والمشاهدات المسقطة للإضافات مطلقًا المغنية لنفوس الغير والسوى رأسًا ﴿لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: 154] رجاء أن يتحققوا بمرتبة اليقين العلمي ثم العيني ثم الحقيقي.

﴿وَهَذَا﴾ أي: القرآن ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ تَمِيمًا لمقاصد الكتب السالفة، وترويجًا لحكمه وأحكامه ﴿مُبَارَكٌ﴾ كثير الخير والنفع لمن آمن به وصدق به ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ أيها المتوجهون نحو التوجه الذاتي، وامثلوا جميع أوامره، واجتنبوا عن جميع نواهيه ﴿وَاتَّقُوا﴾ عن تكذيبه والقدح فيه وفيمن أنزل إليه ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: 155] تكشفون وتفوزون به إلى فضاء التوحيد.

وإنما أنزلنا القرآن بعد التوراة والإنجيل، وإن كان أكثر أحكام الكتب الإلهية مشتركة كراهة ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ أيها المؤمنون: ﴿إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾

سبيله﴾ ثم حزم إتباع كل سبيل الله، وأمر باتباع طريق محمد ﷺ، وقال تعالى: ﴿وَأَنْ هَذَا﴾ أي: ذكرنا من الخصال العشر، ﴿صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ يعني: إلى الله تعالى وهو صراط محمد ﷺ، واختص هذه الأمة باتباع صراط إلى الله تعالى. ثم قال ﷺ: ﴿ذَلِكُمْ وَضَاكُم بِهِ﴾ أي: بمتابعته وصيبتكم في السير إلى الله، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 153] بالله وتحترزون عن غير الله.

أي: اليهود والنصارى، وعلى لسانهم ولغتهم فلا تقبلون الأحكام الإلهية معللين قائلين: ﴿وَلِنْ﴾ أي ﴿كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ﴾ قراءتهم وتعلمهم لعدم علمنا بوضع لغتهم ﴿لِغَافِلِينَ﴾ [الأنعام: 156]

﴿أَوْ﴾ أن ﴿تَقُولُوا﴾ متحسرين متمنين: ﴿لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا الْكِتَابَ﴾ كما أنزل عليهم ﴿لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾ لحدة أذهاننا وصفاء صدورنا، ومتى علم واطلع سبحانه من استعداداتكم هذا ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ من عنده لإهدائكم وإيصالكم إلى مقر توحيده ﴿بَيِّنَةً﴾ واضحة ﴿مَنْ رُبِّكُمْ﴾ الذي رباكم بإضافة استعدادات التوحيد وقابلياته، دالة عليه، مينة له كاشفة إياه بالنسبة إلى المحجوبين من ذوي العلوم اليقينية ﴿وَهْدًى﴾ يرشدكم إلى مرتبة اليقين العيني ﴿وَرَحْمَةً﴾ لكم تستر هويتكم عن عيون بصائرهم ويفنيكم في هوية الحق. وبالجمله: لو امتثلتم بمقتضاه لصار علمكم عينا وعينكم حقا ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَيِّنَاتِ اللَّهِ﴾ بعدما سمع أوصافها وفرائدها من الله ﴿وَصَدَفَ﴾ صد وأعرض ﴿عَنْهَا﴾ عنادًا واستكبارًا، والله ﴿سَنَجْزِي﴾ باسمنا المتقم ﴿الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا﴾ إباء وتكذيبًا ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي: عذابًا يسوءهم ويشدد عليهم ﴿بِمَا كَانُوا﴾ أي: بشوم ما كانوا ﴿يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: 157] عنها، ويستنكفون عن قبولها عتوا وعنادًا بلا حجة قطعية بل ظنية أيضًا.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ مَا يَتَذَكَّرُ فِي يَوْمٍ يَأْتِي بَعْضُ مَا يَتَذَكَّرُ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَوْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ انظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يَجْزِيهِ إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأنعام: 158-160].

﴿هَلْ﴾ أي: ما ينتظرون ويسوفون أمر الإيمان ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: ملائكة العذاب كما أتوا الأمم الماضية فتلجئهم إليه ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ أي: يطلبون إتيان ربك عنادًا كما طلب اليهود حين قالوا: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: 153] ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ الدالة على انقضاء النشأة الأولى المسمى بأشراط الساعة، وبالجمله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا﴾ لكونها ملجئة إليه حين اضطرارها، ولا عبرة للإيمان حين البأس والإلجاء؛ إذ الإيمان تعبدى برهاني اختياري ﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: نفسًا لم تكن آمنت قبل ظهور الملجئ ﴿أَوْ﴾ لم تكن ﴿تَكْسِبَتْ﴾ وإن

آمَنَتْ ﴿فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا﴾ مقبولا عند الله ﴿قُلْ﴾ للمتظريين استهزاء: ﴿انْتَظِرُوا﴾ إلى ما تخيلتم وتوهمتم ﴿إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: 158] أيضا إلى حلول الوقت المعلوم ونزول العذاب فيه عليكم بكفركم وشرككم.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ الدِّينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ الذي يوصلهم إلى التوحيد الإلهي بلا منازعة ومخالفة ﴿وَكَانُوا شِيعًا﴾ أي: صاروا فرقا مختلفة متحيزة متعصبة كما قال ﷺ: «افترقت اليهود إلى إحدى وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة وهي الناجية، وافترقت النصارى إلى اثنتين وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة وهي الناجية، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة»⁽¹⁾.

﴿لَسْتُ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من شأنهم وإصلاحهم ﴿فِي شَيْءٍ﴾ بل ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ حين عرضوا وحشروا نحوه ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ﴾ ويخبرهم ﴿بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: 159] في النشأة الأولى التي هي دار الابتلاء.

وبالجملة: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ فيها ﴿فَلَهُ﴾ على مقتضى الفضل الإلهي ﴿عَشْرُ أََمْثَالِهَا﴾ امتنانا عليه وجزاء له ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ فيها ﴿فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ على مقتضى العدل الإلهي ﴿وَهُمْ﴾ في جزاء السيئة ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: 160] بالزيادة؛ إذ لا ظلم في ذلك اليوم.

﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٦١) ﴿قُلْ إِنِّي صَلَّيْتُ وَنُسَكِي وَمَحَيَّي وَمَعَافٍ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦٢) ﴿لَا شَرِيكَ لَهِ وَبِذَلِكَ بُرِئْتُ وَإِنَّا أَوَّلُ الْغَايِبِينَ﴾ (١٦٣) ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ بَنِي رَبِّي وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ لَكُمْ رَجْعُكُمْ فَبِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (١٦٤) ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا مَاتَكُمُ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٦٥) [الأنعام: 161-165].

(1) رواه أبو داود (197/4، رقم 4596)، والترمذي (25/5، رقم 2640)، وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (1321/2، رقم 3991)، والحاكم (47/1، رقم 10)، والبيهقي (208/10، رقم 20690)، وأحمد (332/2، رقم 8377)، وأبو يعلى (317/10، رقم 5910)، وابن حبان (140/14، رقم 6247).

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل المبعوث إلى كافة البرايا: ﴿إِنِّي﴾ مع كوني بشراً مثلكم ﴿هَدَانِي رَبِّي﴾ الذي رباني بأنواع اللطف والكرم ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ موصل إلى توحيد الذات، وآتاني من فضله ﴿دِينًا قِيمًا﴾ قويمًا مستقيماً ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ مائلاً عن الأديان الباطلة والآراء الفاسدة لذلك ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 161] في وقت من الأوقات.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل المظهر للتوحيد الذاتي مفوضاً جميع أمورك وما جرى عليك وظهر منك إلى ربك: ﴿إِنْ صَلَاتِي﴾ أي: ميلي بجميع أعضائي وجوارحي ﴿وَوُحْيِي﴾ سائر ﴿نُشْكِي﴾ وعبادتي التي هي سبب تقربي وتوسلي نحو الحق ﴿وَوُحْيِي﴾ بالجملة: لوازم ﴿مَخْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ خالصاً ﴿لِلَّهِ﴾ المتوحد المتصرف في ملكه وملكوته بما يشاء بالاستقلال والاختيار لكونه ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 162]

﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ ينازعه، ولا ضد له يكافئه ويمثله، لا وجود لغيره أصلاً ﴿وَبِذَلِكَ﴾ التفويض والإخلاص ﴿أُمِرْتُ﴾ من عنده لتوحيده ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: 163] الموحدين المظهرين الطاهرين بالتوحيد الذاتي.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل مستوبخاً مستقرعاً لمن عاندك في طريق التوحيد، وجادلوك بإثبات الشركاء له وتوقع موافقتك لشركه: ﴿أَغْوِيَ اللَّهُ﴾ المتوحد في ذاته، المتفرد في ألوهيته ﴿أُبْغِي﴾ أُنْخِضْ وأطلب ﴿رَبِّيَّ﴾⁽¹⁾ مربيًا موليًا ﴿وَوُحْيِي﴾ الحال أنه ﴿هُوَ﴾

(1) قال الشيخ نجم الدين كبرى: أي: كيف أطلب غير الله وهو حبيبي، والمحِب لا يطلب إلا الحبيب، وكل شيء طلب دونه فهو رب ذلك الشيء ومالكة، فإذا كان هو لي يكون ما له لي، وإن قبلت غيره لم أجده، وكل خير وجدته غيره يكون علي، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ [الأنعام: 164]، يعني: إن النفس إنما تكسب بأمر هواها، ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَفْزَاةٌ بِالشُّوْرِ إِلَّا مَا رَزَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف: 53]، ولهذا كان من دعائه: لا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا أقل من ذلك. واعلم أن النفس مأمورة بالسَّير إلى الله بقدَم العبودية والأعمال الصالحات بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ [الفجر: 27-28]، وإن اطمئنتها بالطبع إلى الدنيا وزخارفها مخالف لأمر الله تعالى وهو وزرها وسيرها إلى الثُّركات السفلى، فلا يمكن لغيرها أن يحمل قدرها، وإن القلب إذا كان سليماً من كدورات صفات النفس باقياً على ما جبل عليه من حب الله تعالى وطلبه مزيئاً بنور الإيمان ووجهه لا يؤخذ بمعاملة النفس وزرها، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: 164]، والنفس مأخوذة بوزرها ممّا معاقبة بما هي أهله ولا يتألم القلب بعذابها، وإن كان القلب منقلب الحال وأزاعه الحق تعالى بإصبع القهر إلى محاذاة النفس فينطبع مرآة القلب

بذاته وأسمائه وأوصافه ﴿وَبِثُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وخالقه وموجده من كتم العدم ﴿وَو﴾ إذا قلت لهم من كلمة الحق ما قلت دعهم وشركهم؛ إذ ﴿لَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من الجرائم والآثام ﴿إِلَّا﴾ تحمل ﴿عَلَيْهَا﴾ آصارها وأثقالها ﴿وَلَا تَزِرُ﴾ تقترف وتحمل نفس ﴿وَأِزْرَةً﴾ عاصية كافرة ﴿وِزْرَ أُخْرَى﴾ بل كل منها رهينة بما كسبت، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر ﴿ثُمَّ﴾ بعد انقضاء النشأة الأولى ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَّرْجِعُكُمْ﴾ رجوع الظل إلى ذي الظل ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: 164] أي: يميز لكم الحق من الباطل والهداية من الضلال والعناية من الإيصال والنكال.

﴿وَو﴾ كيف ينكرون توحيد الحق وتربيته إياكم مع أنه سبحانه ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ أي: خلفاء قابلين لمظهرية جميع أوصافه ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ في الاتصاف بأوصافه والتخلق بأخلاقه ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ ويختبركم ﴿فِي مَا آتَاكُمْ﴾ من استعداداتكم وقابلياتكم هل تصرفها إلى ما خلقتكم لأجله أم لا ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ على صنيع استعداده الفطري فيما لا يعنيه ﴿وَلِئِنَّ﴾ أيضًا ﴿الْفُجُورَ﴾ لمن تنبه واستغفر ﴿رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: 165] لمن تاب واستهدى.

خاتمة سورة الأنعام

عليك أيها المتوجه نحو الحق القاصد سلوك طريق توحيده، أنجح الله أملك وأوصلك إلى مبتغاك أن تنخلع وتتجرد عن مقتضيات القوى النفسانية من لذاتها وشهواتها الحسية والوهمية والخيالية، وتتوجه بما فيك من مبادئ القوى الروحانية إلى مبدئها، مقتفياً في توجهك أثر ما وصل إليك من آثار النبي ﷺ المختار، الذي استخلفه الحق وأظهره على مقتضى جميع أوصافه وأسمائه، واجتباها من بين جميع رسله وأنبيائه، وأرسله مظهرًا للتوحيد الذاتي وأنزل عليه كتابًا جامعًا محتويًا على جميع فوائد الكتب السالفة مع زيادات خلت عنها الجميع، مبيِّنًا لطريق التوحيد على الوجه الأتم الأكمل إلى حيث لم يبقَ بعد بعثته احتياج إلى مبيِّن آخر، لذلك قال سبحانه: ﴿الْيَوْمَ

بصفات النفس وأخلاقها، فيتبع النفس وهواها فيزول بطبع الشهوات ولذاتها، ويكسب الإثم والوزر بترك ما هو مأمور به من؛ الطهارة والصفاء والسلامة والذكر والفكر والتوحيد لله تعالى والإيمان به والتوكل عليه والصدق والإخلاص في القلب والعبودية، وغير ذلك من أعمال القلب فيكون مأخوذًا بوزره لا بوزر غيره، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: 14].

أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ... ﴿[المائدة: 3]﴾. وقال ﷺ: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»⁽¹⁾.

وبعد بعثته ﷺ ونزول الكتاب لم يبق للمسترشد المستهدي نحو التوحيد الذاتي إلا الاتصاف والامثال بما جاء به خاتم الرسالة، لذلك لم يكن الاجتهاد بعد بعثته إلا في جزئيات الأحكام دون المعتقدات الكلية؛ إذ خُتم أمر الرسالة والتشريع به ﷺ. ولا بد لك أن تربط قلبك بمرتبته ﷺ وتجعلها قبة مقصدك، وتقتفي أثر ما ورد عليه وجاء به ﷺ بحيث لا يهمل منها شيء. ولا بد أن يكون في متابعتك ﷺ على وثوق تام واطمئنان كامل، عارٍ عن جميع ما يشوشك من ظلمات الشكوك والأوهام، خالٍ عن جميع الرعونات العارضة من وساوس شياطين الأهواء الفاسدة مثل العجب والرياء والسمعة وغيرها.

وبالجملة: عليك أن تتوجه نحو التوحيد عن طريق الفناء والموت الإرادي؛ بحيث لا يصدر عنك شيء من أمارات الحياة الصورية ومقتضيات القوى البشرية، حتى يتيسر لك التحقق بمقام الخلعة، والتخلق بأخلاق الله، مع توفيق من قبل الحق وجذب من جانبه؛ إذ كل ميسر لما خلق له. ومتى صفت سرك وسريرتك عن جميع ما يشغلك عن الله ويضلك عن سبيله، تحققت بمقام التوحيد، وفنت عن مقتضيات أمارات التخمين والتقليد، وصرت على يقين من ربك وكشف وشهود لا نظماً منه أصلاً ولا تروى أبداً، وحيث حق لك أن تقول حقاً: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: 162-163].

﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّجْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: 10].

(1) رواه البيهقي في «الكبرى» (192/10)، والقضاعي في «الشهاب» (270/4).

سورة الأعراف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الأعراف

لا يخفى على المستبصر الخبير والمسترشد البصير أن إنزال الكتب وإرسال الرسل إنما هو لتبيين طريق التوحيد، وإهداء أصحاب الضلال والتقليد من المتوغلين في تيه الغفلة والنسيان نحو فضاء الوحدة الذاتية، ولا يتيسر لهم ذلك إلا بترك مألوفاتهم، وقطع تعلقاتهم التي كانوا عليها بمقتضى بشريتهم وبيارشادهم، وإهدائهم على التدرج بوضع التكاليف الشاقة المشتملة على الإنذارات الشديدة والتخويفات الغليظة المزكية لموانع الموصول إليه، حتى تستعد نفوسهم وتتهيأ سرهم وسريرتهم إلى أن تنكشف لهم سر سريان الوحدة الذاتية المشبعة المتجلية دائماً حسب أوصافه وأسمائه الذاتية على ذرائر المظاهر كلها.

لذلك أنزل سبحانه على حبيبه الذي أظهره جامعاً لجميع مراتب أوصافه وأسمائه الكتاب الجامع لجميع مراتب الوجود غيبها وشهادتها، أولها وآخرها، رطبها ويابسها، وأورد فيه أنواع الوعيد والإنذار والتخويف البليغ؛ ليتزجر به أهل الغفلة والهوى، وأنواع الوعد والتبشير؛ ليرغب نحوه أهل المحبة والولاء؛ ليتمتعوا على ما جبلوا عليه من الفطرية الأصلية التي فطر عليها بأمثال أوامره واجتناب نواهيه، وبالجملية ليتأدبوا بآدابه حتى يتخلقوا بأخلاقه سبحانه.

فقال منادياً لحبيبه ﷺ متيمناً متبركاً: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المنزه في ذاته عن النقص والاستكمال ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لعباده بالتكميل؛ لأن يصلوا إلى درجات القرب والكمال ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم بإنزال القرآن الهادي إلى سرادقات العز والجلال.

﴿الْمَصَّ ۝١﴾ كَتَبُ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى

لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ أَتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ

۝٣ وَكَمْ مِّن قَرِيبٍ أَهْلَكْنَاهَا فَبَاءَ مَا بَشَّرْنَا بِئْسَ آؤُهُمْ قَالُوا لَوْ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ

جَاءَهُمْ بِأَمْنًا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَسْتَكُنَّ الَّذِينَ أُزِيلَ إِلَهُهُمْ وَلَنَسْتَنَـجِجَ
الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ [الأعراف: 1-6].

﴿المص﴾^(١) [الأعراف: 1] أيها الإنسان الكامل اللائق لتكميل الخلائق المكرم

(١) قال في عرائس البيان: ﴿المص﴾ كان الله سبحانه إذا أرد أن يتكلم مع نبيه محمد ﷺ بقصص الأنبياء، وما جرى عليهم في الدهور والإعصار، وشأنه معهم في الأسرار والحقائق والشرائع، وأراد أن يخصه ﷺ بشريعته، وما يكون من طريقته الخاصة إلى حضرته، وتحيره مما كان وما يكون إشارة إلى هذه الأشياء له بحروف التهجي، وأعلم سر ذلك محض الإشارة ولطيف الخطاب، وعلم تعالى أنه ﷺ يعرف بتلك الإشارة مراده من علم سابق ونبا طارق، وعلم تعالى أن عموم أمته لا تعرف تلك الإشارة فعبر عنها بسورة طويلة من القرآن؛ ليعرفوا مراده سبحانه من خطابه وخواص أمته، ربما يطلع على سر بعضها كالصحابة والتابعين والمتقدمين من الأولياء والعلماء. كانت حروف المقطعات رموز معاني سور القرآن لا يعرف تلك الرموز إلا الربانيون والأخبار من الصديقين، فهذا الألف إشارة إلى آدم ﷺ، ألا ترى أن أول اسم آدم ﷺ ألف إشارة، الألف إلى حاله وقصته وبدو أمره وخلقته، وعرضه على الملائكة ودخوله الجنة وخروجه منها، وكان هو أصل الفطرة، ومن تشعب منه فهو تابع له في الذكر، وإشارة الألف إلى علم الأسماء بقوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ﴾ التي فيها أبناء جميع الذات والصفات والنعوت والأفعال، وعلم ما كان وما سيكون عزف نبيه محمد ﷺ ما عرف آدم ﷺ بجميع الأسماء بحروف الألف؛ لأنه كان ﷺ ألطف الأولين والآخرين وأكرمهم على الله، وعلى قدر قربه إشارة اللف وأخفى وأخبر باللام، ها هنا تعالى حبيبه قصة تجلاء لموسى ﷺ والجبل، وعرف بها تلك الأحوال الماضية. ألا ترى إلى حرف اللام في التجلي، وعزف بحروف الميم شأن موسى ﷺ وقصته من أوله إلى آخره، ألا ترى إلى حرف الميم مراسم موسى ﷺ، وعرف بحرف صاد ها هنا قصص نوح وهود ﷺ وصالح ﷺ وشعيب ﷺ ولوط ﷺ وجميع ما جرى عليهم من بدئهم إلى آخر أعمارهم، وأخبر بحرف صاد صبرهم، وتحملهم في بلائه وصدق محبتهم بالوفاء والصدق بالأعمال والأقوال، وتصديق ذلك وهو أن تحت الحروف جميع الكتب مندرجة ما روي في الحديث عن قول النبي ﷺ: «إن الله سبحانه أعطى آدم ﷺ حروف التهجي، وكان كل حروف كتاباً من الله تعالى إليه». وأيضاً أخبر سبحانه بحرف الألف نبيه ﷺ عن عين القدم ووحداية نفسه المنزهة عن الاجتماع والافتراق، وإصدار جميع المخلوقات منه؛ لأنه تعالى مصدر جميع الوجود، كما أن الألف مصدر جميع الحروف، وأخبر بالألف سر الأسرار وحرف الأنوار، وما كان في جميع الحروف من علم الأولين والآخرين، وهذا أدق إشاراته إلى نبيه ﷺ ثم زاد وضوحه بحرف اللام لترقيه خاطره وزيادة إدراكه، ثم صرح الخطاب بحرف الميم ويين له بحرف الصاد ما كان في الأحرف الخاص، لأن بحرف الصاد صفا جميع علومها له، ثم عمّ العبارة للخلق بالسورة لقلة إدراكهم لعمز الأسرار ولطائف ضمائر الإضممار، وأيضاً أخبره بلام

المؤيد لإهدائهم إلى توحيد الذات والصفات والأفعال، الصادق الصفي في نفسه عن كدورات أهل الزيغ والضلال، هذه الآثار والآيات اللطيفة اللائحة اللائقة لأن يسترشد منها ويستكشف عنها أرباب الذوق والكمال، المنزهة عن شوائب الشكوك وظلمات الأوهام الصافية عن تخليطات العقول وتخمينات الأحلام الصالحة لأن يستبصر بها ويستشهد منها إلى توحيد العليم العلام المقدس السلام.

﴿كِتَابٌ﴾ جامع لجميع فوائد الكتب المنزلة وأحكامها وإشاراتها، ناطق بجميع الأحوال الواقعة في النشأة الأولى والأخرى ﴿أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ يا هادي المضلين تقوية لك وترويحاً لما أمرت به ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ ضيق وتعب حاصل ﴿مِنْهُ﴾ أي: من نشره وتبليغه مخافة الأعداء بل إنما أنزل إليك ﴿لِتُنْذِرَ بِهِ﴾ أي: بإنذاراته وتخويفاته

ألف سر أوليته، وما في بحار أزليته. ألا ترى كيف شقّ الألف من اللام لإخفاء الإشارة حتى لم يبق حديث العدم في القدم، وكيف يكون لها من لام وألف ومعناها العدم، فشقّ أحدهما عن الآخر حتى لا يكون حديث النفي؛ لأن النفي علّة يقع على الحدثين، وليس ذكر الحدثان في القدم أخبر بالألف عن أحدية الأوليّة، وباللام عن الأزلية السرمديّة، وبالميم عن محبته القدوميّة، وبالصاد عن صفاته القائمة بذاته الأبدي، أخبر بالألف عن الذات؛ لأنها عين الواحد، ثم أخبر باللام والميم والصاد عن شمول صفاته القديمة، الألف من الذات، واللام من صفة الأزل، والميم من صفة المحبة، والصاد خير جميع الصفات. قال محمد بن عيسى الهاشمي: سمعت من ابن عطاء أنه قال: لما خلق الله الأحرف جعل لها سراً، فلما خلق آدم ﷺ بث فيه ذلك السر ولم يثبه في الملائكة، فجرت الأحرف على لسان آدم ﷺ بفنون الجريان وفنون اللغات جعله الله صوره لها. وقال الحسين: الألف ألف المألوف، واللام لام الآلاء، والميم ميم الملك، والصاد صاد الصدق. وقال: في القرآن علم كل شيء، وعلم القرآن في الأحرف التي في أوائل السور، وعلم الحروف في لام ألف، وعلم لام تلك في الألف، وعلم الألف في النقطة، وعلم النقطة في المعرفة الأصلية، وعلم المعرفة الأصلية في الأزل، وعلم الأزل في المشيئة، وعلم المشيئة في غيب الهُو، وغيب الهُو ليس كمثله شيء. وقال أبو محمد الجريري: أن لكل لفظ وحرف من الحروف مشرب فهم غير الآخر. ومن شراح ذلك حين سمعه يقول: ﴿المص﴾ للألف عندهم فهم، وللفهم في محضرهم استماع إلى حسن مخرج وطعم عذب موجود نظر إلى المتكلم، وكذلك اللام حسن استماع ومخرج غير الألف وطعم فهم موجود، وكذلك للميم حسن استماع من مخرج غير اللام وطعم فهم موجود، والصاد حسن استماع إلى حسن مخرج وطعم فهم موجود غير الميم فممزوج ذلك كله بالملاحظة للمتكلم. وقال الحسين: الألف ألف الأزل، واللام لام الأبد، والميم ما بينهما، والصاد اتصال مَنْ اتصل به وانفصال مَنْ انفصل عنه، وفي الحقيقة الاتصال والانفصال، وهذه ألفاظ تجري على حسب العبارات ومعادن الحق مصونة عن الألفاظ والعبارات.

من ضل عن طريق الحق، وأعرض عنه جهلاً وعناداً ﴿و﴾ تذكر بمواعيده وتبشيراته من وفق بتذكر الموطن الأصلي والمنزل الحقيقي؛ إذ هو ﴿ذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 2] الموقنين بوحدة الحق المتوجهين نحوه بالعزيمة الصحيحة.

﴿اتَّبِعُوا﴾ أيها المؤمنون المتوجهون نحو التوحيد ﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ على لسان نبيكم ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا﴾ بعد بعثته ودعوته ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ سبحانه ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ توالونهم وترجعون إليهم في أموركم من الجن والإنس؛ إذ هو خاتم النبوة فعليكم أن تتبعوه، وإن كان منكم ﴿قَلِيلًا مَّا﴾ شردمة قليلة ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 3] وتتعظون بتذكيره وعظته لميلكم إلى أهوية نفوسكم من الجاه والمال والرئاسة المستلزمة للتفوق على القران والأقران.

﴿و﴾ عليكم ألا تغتروا بها بل تذكروا ﴿كَمْ﴾ كثير ﴿مِنْ﴾ أهل ﴿قَرْيَةٍ﴾ ذوي بطر ورفاهية ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ بإنزال قهرنا إليها حتى استحقوا الهلاك بسبب كفرهم وظلمهم ﴿فَجَاءَهَا بِأُسْنَا﴾ قهرنا ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ حال كونهم راقدين رقود البطر والغفلة ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ [الأعراف: 4] مستريحون وقت الضحوة الكبرى تنعماً وحضوراً.

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ﴾ أي: دعاؤهم وتضرعهم ﴿إِذْ جَاءَهُمْ بِأُسْنَا﴾ أي: حين ظهر عليهم قهرنا ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ متضرعين مقرين معترفين: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: 5] وبعدها اعترفوا بظلمهم ملجئين لا نبالي باعترافهم وإقرارهم.

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ﴾ ⁽¹⁾ لنستكشفن ونظهرن في النشأة الأخرى أحوالهم التي كانوا عليها في النشأة الأولى أولاً من ﴿الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ الرسل ما فعلوا بهم حين دعوهم إلى إطاعتنا وانقيادنا ﴿و﴾ بعدما ظهر منهم ما ظهر ﴿لَنَسْأَلَنَّ﴾ ثانياً عن أحوالهم من ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: 6] المبلغين لهم أوامرنا ونواهيها عن قبولهم وتكذيبهم وتصديقهم، وبعدها ظهر أيضاً منهم ما ظهر.

(1) سؤال تعذيب وتعنيف تسألون عن القبول، هل قبلتم الرسالة وعملتكم بما أمرتم أم لا؟ وفيه معنى آخر، أي: فلنسألن الذين كانوا مخصصين بالرسالة إليهم من المؤمنين قابلي الدعوة هل بقوله: هل بلغ إليكم رسلنا رسالتنا ومواعيدنا، ومن بينوا لكم حقائق ما أنزل إليكم، ووصفوا لكم ما أعدونا من المقامات والدرجات والكرامات لكم، ومن دعوكم إلى كمالات الدين وكشف الغطاء عن اليقين وهذا سؤال تقريب وتشريف. [التأويلات].

﴿ فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ (٧) وَالْوَزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ [الأعراف: 7-10].

﴿فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ﴾ جميع أحوالهم وأعمالهم التي صدرت عنهم على التفصيل ﴿بِعِلْمٍ﴾ لا يعزب عنه شيء من صنائعهم ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف: 7] عنهم بل حاضرين معهم شاهدين بجميع أحوالهم.

﴿وَالْوَزْنَ﴾ الموضوع لانتقاد أعمال العباد ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: وقت كشف السرائر وانكشاف الحجب ﴿الْحَقُّ﴾ (١) أي: الثابت المحقق؛ لئلا يبقى للعصاة مجادلة مع الله

(1) للحق سبحانه وتعالى موازين يزن بها الأحوال والأعمال، يزن بميزان الإخلاص المعاملات، ويزن بميزان الصدق الحالات، فكل عَمَلٍ عَمِلَ برؤية الأعواض ورؤية العمل والالتفاف فيه إلى غير الله، فهو ساقط عن محل القبول، وكل حالة صاحبها موجب بها فهي ساقطة عن درجة الوصول، فالنيات موازين المعاملات والصدق ميزان الحالات، فَمَنْ هَاهُنَا يَزِنُ نفسه بميزان الرياضات والمجاهدات، ويزن قلبه بميزان المراقبات، ويزن عقله بميزان الاعتبارات، ويزن روحه بميزان المقامات، ويزن سرّه بميزان المحاضرات ومطالعه الغيبات، ويزن صورته بميزان المعاملات، الذي كفتاه الحقيقة والطريقة ولسانه الشريعة وعموده العدل والإنصاف يوزن نفسه يوم القيامة بميزان الشرف، ويوزن قلبه بميزان اللطف، ويوزن عقله بميزان النور، ويوزن روحه بميزان السرور، ويوزن سرّه بميزان الوصول، ويوزن صورته بميزان القبول، فإذا ثَقُلَتْ موازينه بما ذكرنا فجزاء نفسه الأمن من الفراق، وجزاء قلبه مشاهدة مشوق في الأشواق، وجزاء عقله مطالعات الصفات، وجزاء روحه كشف أنوار الذات، وجزاء سرّه إدراك أسرار القديسات، وجزاء صورته الجلوس في مجالس وصال الأبديات. وأيضاً هَاهُنَا لأهل الحق موازين، ميزان الإرادة، وميزان المحبة، وميزان الشوق، وميزان العشق، وميزان المعرفة، وميزان اليقين، وميزان التوحيد، فهذه سبعة موازين فينبغي أن يزن المرید نفسه في كل نفس بميزان الإرادة، ويزن المُحِبُّ قلبه في كل نفس بميزان المحبة، ويزن المشتاقين عقله في كل نفس بميزان الشوق، ويزن العاشق روحه في كل نفس بميزان العشق، ويزن العارف سرّه في كل نفس بميزان المعرفة، ويزن الموقن أنفاسه في كل نفس بميزان اليقين، ويزن الموجد جميع وجوده بميزان التوحيد، فيستوفي المرید بميزان إرادته عن نفسه انقيادها للحق عند جريان القضاء والقدر عليها، ويستوفي المُحِبُّ بميزان محبته عن قلبه شهوده في الحضرة بلا خطرات المذمومة، والالتفاتات المشوبة

﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ بكثرة الطاعات ووفور الخيرات والمبرات ﴿فَأُولَئِكَ﴾ السعداء المبرورون ﴿هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 8] الفائزون بالمشوبة العظمى والمرتبة العليا.

بنعت النيات الصافية، ويستوفي المشتاق بميزان شوقه من عقله جولانه في الشواهدات لطلب عرفان المشاهدات بلا فترة ولا رعونة، ويستوفي العاشق بميزان عشقه من روحه طيرانها في الملكوت لطلب الجبروت، ويستوفي العارف بميزان معرفته من سره إصفاء بنعت الشهود؛ لكشوف أنوار الغيب، وغوصه في بحر الهموم لطلب جوهر الإلهام، ويستوفي الموقن بميزان اليقين من أنفاسه صعودها عند تنفسها إلى معارف القرب بلا هواجس اليقين وغبار الوسواس، ويستوفي الموحد بميزان توحيده من جميع وجوده اضمحلاله في أنوار كبريائه القديم، وفنائه في سبحات الأبد، فمن ثقلت هذه الموازين أفلح عن حجة الامتحانات، وتثقل موازين الحضرة غداً بفيض أنوار صفات الحق، ولطائف ذاته وكرامات قربته له، فيفلح هناك بالله عن غير الله وبصير أهلاً لله؛ لأنه خرج عن موازين صفاته وأنوار ذاته بنعت المعرفة والتوحيد والمحبة، فطوبى لهذا المحاسب طوبى له وحسن مأب. قال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي في تفسير هذه الآية: ومن وزن نفسه بميزان العدل كان من المحبين، ومن وزن خطراته وأنفاسه بميزان الحق اكتفى بمشاهدته، والموازين مختلفة، ميزان للنفس والروح، وميزان للقلب والعقل، وميزان للمعرفة والسر، فميزان النفس والروح الأمر والنهي وكفتاه الكتاب والثنية، وميزان القلب والعقل والثواب والعقاب وكفتاه الوعد والوعيد، وميزان المعرفة والسر الرضا والسخط وكفتاه الهرب والطلب. وقال الأستاذ: يوزن أعمالهم بميزان الإخلاص وأحوالهم بميزان الصدق، فمن كانت أعماله بالرياء مصحوبة لم يقبل أعماله، ومن كانت أحواله بالإعجاب مشوبة لم يرفع أحواله، وافهم يا صاحبي أن حكمة وزن الأعمال يوم القيامة للعباد أن الله يبين لهم ما كان مكتوباً في اللوح المحفوظ قبل الخلق مما يجري عليهم من القضاء والقدر، والرضا والسخط، والشقاوة والسعادة، مقابلة بما جرى عليهم في الدنيا الذي في أوراق الحساب التي في أيدي الملائكة ليزيدهم برهاناً وعياناً وعلمًا بعلمه المحيط على كل شيء، وليكون حجة عليهم، خرج أعمالهم على وفق ما كان مكتوباً عليهم، وافهم يا صاحبي أن الأعمال أعراض كيف تكون موزونة ليس هذا في علم الخلق أن ميزانه الحقيقي رده وقبوله، وهو قادر أن يخرج الأعراض بصور الجواهر فيزن بميزانه الذي يظهره لهم يوم القيامة، وذلك على لسان الشرع يوجب الإيمان به. قال ابن عباس: توزن الحسنات والسيئات في ميزان له لسان وكفتان، فأما المؤمن يؤتى بعمله في أحسن صورة فيوضع في كفة الميزان وهو الحق فيثقل حسناته على سيئاته، فيوضع عمله في الجنة، فيعرفها بعمله. فذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 8]، وهم أعرف بمنزلهم في الجنة إذا انصرفوا إليها من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم، وأما الكفار فيؤتى بأعمالهم في أقبح صورة فتوضع في كفة الميزان وهي الباطل؛ فيخف وزنه حتى تقع في النار، ثم يقال للكافر: الحق بعملك.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ بقلة الطاعة وكثرة المعاصي ﴿فَأُولَئِكَ﴾ الأشقياء المردودون هم ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ وما ربحوا لها في دار الابتلاء ﴿بِمَا كَانُوا﴾ أي: بسبب ما كانوا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على توحيدنا ﴿يُظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: 9] يكذبونها ظلماً وعدواناً.

﴿و﴾ من غاية جودنا ولطفنا إياكم يا بني آدم إنا ﴿لَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي﴾ مستقر ﴿الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ من الملائمات كي يعيشوا بها مترفحين متنعمين شاكرين لنعمنا، صارفين إلى ما خلقناها لأجله، ومع ذلك الفضل العظيم واللطف الجسيم ﴿قَلِيلًا مَّا﴾ أي: في غاية القلة منكم ﴿تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: 10] نعمنا بل تكفرونها وتصرفونها أكثركم إلى مقتضى أهويتكم الفاسدة.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُمْ مِنْ طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥) قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَا تَجِدُ فِيهِمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْهُورًا لِمَنْ يَبْعَثْ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨) ﴿[الأعراف: 11-18].

﴿و﴾ من عموم جودنا أيضاً أنا ﴿لَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ أي: قدرنا تعيناتكم وأظهرنا هوياتكم من كتم العدم ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أي: زيناكم بصورنا وخلقناكم بأخلاقنا ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ المهيمين المستغرقين بمطالعة جمالنا: ﴿اسْجُدُوا﴾ تذللوا، تواضعوا ﴿لِآدَمَ﴾ المصور على صورتنا تعظيماً لنا وتكريماً له؛ إذ هو مرآة مجلوة تحاكي جميع أوصافنا وأسمائنا، وترشدكم إلى وحدة ذاتنا، وبعدها شهدوا آثار جميع أوصافنا وأسمائنا منه ﴿فَسَجَدُوا﴾ جميعاً متذللين ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ الذي هو رأس جواسيس النفوس الخبيثة ﴿لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف: 11] مع كونه من زمريتهم حين أمروا، ثم لما امتنع إبليس عن السجود.

﴿قَالَ﴾ سبحانه إظهاراً لما تحقق في علمه وكنه في غيبه من خبث طينة إبليس:

﴿مَا مَنَعَكَ﴾ يا إبليس ﴿أَلَّا تَسْجُدَ﴾ لخليفتي ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ مع رفقاءك؟ ﴿قَالَ﴾ إبليس في الجواب بمقتضى هويته الباطلة وأهويته الفاسدة: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ وأفضل ﴿وَخَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ﴾ منير ﴿وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾⁽¹⁾ [الأعراف: 12] مظلم كدر، ولا يحسن تذلل الفاضل للمفضول.

لما امتنع عن مقتضى الأمر الوجوبي، ولم يتفطن بسرّه الذي هو التوحيد الذاتي، إذ الأمر سجود المظهر الجامع والظل الكامل، أمر بالتوجه نحو الذات الأحدية والمعبود الحقيقي المتجلي عليه، طرده سبحانه عن ساحة عز حضوره حيث ﴿قَالَ﴾ مبعداً: ﴿فَأَقْبِرْهُ﴾ أيها المطرود المعلنون ﴿مِنْهَا﴾ أي: من ساحة عز التوحيد المقتضية للتذلل والتخشع، ورفض الالتفات إلى الغير والسوى مطلقاً ﴿فَمَا يَكُونُ﴾ يجوز ويصح ﴿لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ بادعاء التفضل والتفوق المقتضي للإضافات الناشئة من أنايتك الباطلة ﴿فَاخْرِجْ﴾ منها مطروداً مخذولاً ﴿إِنَّكَ﴾ حيث كنت وأين كنت ﴿مِنْ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: 13] الذليلين المحرومين، بل أنت سبب صغار سائر الأذلاء.

ثم لما آيس إبليس عن القبول وحرّم عن ساحة عز الحضور بسبب إيائه عن

(1) قال في التأويلات: يعني: النار علوية نورانية لطيفة، والطين سفلي ظلماني كثيف فهي خير منه، فأخطأ اللعين في الجواب وفي الاستدلال والقياس من وجوه، وقد قلرنا خطاه في الجواب، فأما في القياس: فأحد الوجوه: إننا لو سلمنا أن النار أفضل ما شرف وأعلى من الطين من حيث الظاهر والصورة، ولكن من حيث الحقيقة والمعنى الطين أفضل وأشرف منها، لأن من صفات الطين وخواصه: الإثبات ومنه النشوء والنمو، ولهذا السر كان تعلق روح الإنسان به، ليصير قابلاً للترقي، فإن جوهره كان من قيل جواهر الملائكة في الروحانية والنورانية وقابل للترقي، والنار من خاصيتها الإحراق والإفناء.

وثانيها: إن في الطين لزوجة وإسكاً، فإذا استفاد الروح منه بالترابية هذه الخاصية يصير ممسكاً للفيض الإلهي، إذ لم يكن ممسكاً له في عالم الأرواح، ولهذا السر استحق آدم سجود الملائكة، وسيأتي شرحه - إن شاء الله تعالى - وفي النار خاصية الاختلاف وهو ضد الإسك.

والثالث: إن الطين مركّب من الماء والتراب، والماء مطية الحياة كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: 30]، والتراب مطية النفس النامية، فعند ازدواجهما تتولد النفس الحيوانية، وهو الروح الحيواني وهو مطية الروح الإنساني للمناسبة الزوجية بينهما، وفي النار ضد هذا من الإهلاك والإفساد، ثم تقول: شرف سجود آدم وفضله على الساجدين لم يكن لمجرد خواص الطبيعة، وإن شرف طبيعته لشرف التخمير من غير واسطة لقول: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيْ﴾ [ص: 75]، ولقوله: ﴿خَمْرَ طِينَةٍ﴾ آدم بيده أربعين صباحاً.

سجوده آدم، ﴿قَالَ﴾ متقماً من آدم متضرعاً إلى ربه: ﴿أَنْظِرْنِي﴾ أي: أمهلني يا ربي فيما بينهم لأضلهم وأغويهم ﴿إِلَى يَوْمٍ يَتَعُونُ﴾ [الأعراف: 14].

﴿قَالَ﴾ سبحانه إظهاراً للسر الذي أسلفناه في سورة البقرة: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ [الأعراف: 15] فيما بينهم لتمييز المحق منهم من المبطل والمهدي من الغوي.

﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ أي: فبسبب ما بعدتني وأطردتني لأجلهم ﴿لَأَقْعُدَنَّ﴾ وألزم البتة ﴿لَهُمْ﴾ لإغوائهم وإضلالهم ﴿صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: 16] أي: على دينك وطريقك الموصل لهم إلى توحيدك، أغويهم وأوسوسهم بأنواع الوسوسة بعضهم بالفسق والظلم، وبعضهم بالرياء والسمعة، وبعضهم بالمخائل الفاسدة من اللذات الوهمية والخيالية، وبالجمله: أوسوسهم وأخرجهم بأنواع الحيل عن جادة توحيدك.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما أرد وسوستي في نفوسهم ﴿لَأَتِيَنَّهُمْ مِنْ﴾ جميع جهاتهم ﴿بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: يضلهم بالمعاصي الحاصلة من قدامهم ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي: بالمعاصي الحاصلة منه ﴿وَرَوْحًا﴾ أيضاً ﴿عَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَ﴾ بالجمله: استسخرهم وأحيط عليهم بإغوائي ووسوستي إلى حيث ﴿لَا تَجِدُ﴾ يا معز كل ذليل، ومدل كل دليل ﴿أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: 17] بعد رجوعهم إليك شاكرين، صارفين ما آتيتهم من النعم إلى ما أمرتهم به.

ثم لما طرده الحق وأبعده وأنظره ابتلاء لعباده ﴿قَالَ﴾ سبحانه: ﴿أَخْرِجْ﴾ أيها المردود المطرود ﴿مِنْهَا﴾ أي: من عرصة أهل التوحيد ﴿مَذْءُومًا﴾ حاملاً للمذمة ﴿مَذْخُورًا﴾ مطروداً مستوجباً للعة وافعل بهم ما شئت، والله ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ بعدما أظهرتهم على صورتني، وكرمتهم بكرامتي على جميع خليقتي، ونفخت فيهم من روحي وتجلت عليهم بجميع أسمائي وأوصافي، وأرسلت إليهم أنبيائي ورسلي، وأنزلت عليهم كتيبي لتبين طريق توحيدي؛ لأطردنهم البتة عن عز حضوري، وأخرجتهم عن جنة سروري، واعلموا يا بني آدم ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان ﴿مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: 18] إن اتبعتم عدوي وعدوكم، فعليكم أن تجتنبوا عن غوائله.

﴿وَيَنَادِمُ أَتُكُنُّ أَتَ وَزَوْجَكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاَسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِحٍ ﴿٢١﴾ فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطُفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكَا ضَلُوفٌ ﴿٢٢﴾ [الأعراف: 19-22].

﴿و﴾ بعدما طرد سبحانه إبليس حين امتنع عن السجود قال لآدم اختباراً وابتلاءً وتوصية لحفظ مرتبته: ﴿يَا آدَمُ﴾ المكرم المسجود ﴿أَسْكُنْ أَتُ﴾ بمتابعة عقلك الموهوب لك من العقل الكلي ﴿وَزَوْجَكَ﴾ بمتابعة نفسها الفائضة عليها من النفس انكليه ﴿الْجَنَّةَ﴾ التي هي مقر أهل التوحيد، ومنزل أهل الولاء والتجريد من أرباب الوصول الفائزين بشرف القبول ﴿فَكُلَا﴾ منها، واحفظا من لذاتها الروحانية من حقائقها ومعارفها وشهوداتها وكشوفاتها رغداً ﴿مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ التي هي من أغذية نفوسكم وأهوية هوياتكم ﴿فَتَكُونَا﴾ بتقربها وتناولها ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: 19] الخارجين عن مقتضى أمرنا وحكمنا المستحقين لطردها ومقتنا.

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾⁽¹⁾ أي: أوقعهما في الدغدغة بأمر الشجرة، وإن كان وسوسة أيضاً عن مقتضيات الحكمة المتقنة الإلهية، بعدما وصاهما الحق سبحانه ونهاهما عنه، وليس غرضه إلا نزع لباس الصيانة والتقوى عنهما ﴿لِيُبْدِيَ﴾ أي: يظهر ﴿لَهُمَا مَا وُورِيَ﴾ أي: غطي وستر ﴿عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا﴾ التي هي من مقتضيات بشريتهما وهويتها الباطلة ﴿و﴾ بعدما أشر بهما الوسوسة ﴿قَالَ﴾ على وجه الشفقة والنصيحة وإرادة الخير: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ﴾ المباركة المزكية عنكم

(1) قال العارف النسري (154/1): الوسوسة ذكر الطبع، ثم النفس، ثم الهم والتدبير، ووسواس العدو على ثلاث مقامات: فالأول يدعوه ويوسوس له، والثاني يأمن إذا علم أنه يقبل، والثالث ليس له إلا الانتظار والطمع، وهو للصديقين.

لوث بشريتكم ﴿إِلَّا﴾ كراهة ﴿أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ﴾ بتناولهما ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: 20] فيها.

﴿وَ﴾ بعدما نصحهما وأشفقهما وسمعا منه ما سمعا ﴿قَاسَمَهُمَا﴾ أي: بادر إلى القسم تأكيداً وترويجاً لقوله إياهما قائلاً: ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: 21] المشفقين المریدین خیرکما.

﴿فَدَلَاهُمَا﴾ أي: أسقطهما عن معالي العز إلى مهاوي الذل ﴿بِغُرُورٍ﴾⁽¹⁾ غرهما به على وجه الانتقام ﴿فَلَمَّا﴾ سمعا قوله وقبلَا غروره ﴿ذَاقَا الشَّجَرَةَ﴾ مطمعين على ما أغراهما إليه من الشرف والخلود، وبعدهما ذاقا منها ﴿بَدَتْ﴾ ظهرت ﴿لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾ عوراتهما؛ إذ نزع عنهما لباس التقوى وثياب العصمة ﴿وَ﴾ بعدما نزع لباسهما ظهر سوءاتهما ﴿طَفِقَا﴾ أخذا ﴿يَخْصِفَانِ﴾ يلصقان ويلزقان ﴿عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقٍ﴾ أشجار ﴿الْجَنَّةِ﴾ قيل: هي التينة، وقيل: الكرمة ﴿وَ﴾ بعدما ما بدا منهما ما بدا ﴿نَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾ موبخاً مقررّاً: ﴿أَلَمْ أَنهَكُمَا﴾ أيها المعتديان المسرفان ﴿عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ﴾ وأقل لكم إن الشيطان لكم عدو مبين ﴿[الأعراف: 22] ظاهر العداوة، فلم تسمعا قوله، وتتبعاً أمره؟ فلما سمعا من ربهما ما سمعا.

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٢٣) قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَّعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥) يَبْقَىٰ ءَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ الْقَوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) يَبْقَىٰ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّمُ يَرِيكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧) ﴿[الأعراف: 23-27].

(1) أي: بسبب تغريبه إياهما باليمين بالله كاذبا وكان العين أول من حلف بالله كاذباً، وظن آدم أن أحدا لا يحلف بالله كاذباً فاغتربه، فإن شأن المؤمن أن يعتقد بصدق من حلف بالله لتمكن عظمة اسم الله تعالى في قلبه، تفسير حقي (121/4).

﴿قَالَ﴾ متضرعين متذللين معترفین علی زلتھما: ﴿رَبَّنَا﴾ یا من ربانا علی الکرامة لمقتضى فضلك وجودك ﴿ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ بمتابعة عدونا ﴿وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾ ولم تتجاوز عنا ﴿وَلَمْ تَرْحَمْنَا﴾ بفضلک ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الاعراف: 23] خسراناً عظيماً.

ثم لما صدر منهما ما صدر بوسوسة عدوھما، أمر سبحانه بإخراجھما عن دار السرور إلى دار الابتلاء والغرور؛ حيث ﴿قَالَ اهْبِطُوا﴾ انزلوا وانحطوا أيھا المتجاوزون عن حدودنا أصلاً وفرعاً، تابعاً ومتبوعاً عن مقر العز ومرتبة الإطلاق والتجريد الخالي عن جميع الإضافات، والتقييد إلى محل الكون والفساد، ومنزل البغي والعناد؛ إذ ﴿بَغَضُكُمْ﴾ في دار الدنيا التي هي نشأة الاختبار والابتلاء ﴿لِيَغْضِ عَدُوُّ﴾ أبداً لا يرتفع الخصومة عنكم أصلاً ﴿وَلَكُمْ﴾ أيھا المتخاصمون ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي: مرتع الطبيعة ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ موضع قرار ﴿وَمَتَاعٌ﴾ تمتع من لذاتها وشهواتها ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الاعراف: 24] أي: على انقضاء آجالكم وانقطاع مآلكم.

ثم لما تحيروا واضطربوا في أمرهما وفساد حالهما ﴿قَالَ﴾ سبحانه منبهاً عليهما: ﴿فِيهَا﴾ أي: في أرض الطبيعة ﴿تُخَيَّوْنَ﴾ بالحياة الطبيعية ﴿وَلَكُمْ﴾ أيضاً ﴿فِيهَا تُمَوْتُونَ﴾ بالموت الطبيعي ﴿وَمِنْهَا﴾ أيضاً ﴿تُخْرَجُونَ﴾ [الاعراف: 25] لجزاء ما كسبتم من الخير والشر، والتقرب والخير، والتباعد في حياتكم الطبيعية التي هي دار الابتلاء ومزرعة الأجر والجزاء، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

ثم قال سبحانه منادياً لكم في مقام الامتتان وتعدد النعم والإحسان؛ لتواظبوا شكر نعمه، وتداوموا على انقياده وإطاعته بعدما صدر عنكم الكفر والخروج عن مقتضى أمره ونهيه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ المجبولين على فطرة الخلافة والنيابة ﴿قَدْ أَنْزَلْنَا﴾ من مقام جودنا ﴿عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ عقلاً مدبراً ﴿يُؤَارِي﴾ ويستر بتدبيره ﴿سَوْءَ آبِكُمْ﴾ مقتضيات بشريتكم وبهيميتكم ﴿وَلَكُمْ﴾ أيضاً وهبنا لكم من غاية لطفنا ﴿رِيشًا﴾ معارف وحقائق نزينكم ونميزكم بها عن جميع المخلوقات، ونستخلفكم بسببها من بين سائر البريات ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾⁽¹⁾ عن محارم الله، والاجتناب عن منهياته خير لكم وحقيق.

(1) قال الشيخ نجم الدين: والتقوى: هو لباس القلب والروح والسر الخفي، فلباس القلب من التقوى: هو الصلوة في طلب المولى فيواري به سوء الطمع في الدنيا وما فيها، ولباس الروح من التقوى: هو محبة المولى فيواري به سوء التعلق بغير المولى، ولباس السر من التقوى: هو

لفطرتكم، فعليكم أن تلبسوها وتحفظوا بها عما لا يليق بمرتبتكم وفطرتكم ﴿ذَلِكَ﴾ أي: التقوى ﴿خَيْرٌ﴾ لكم إن أردتم أن تصلوا إلى مرتبة التوحيد التي جبلتم لأجلها ﴿ذَلِكَ﴾ أي: المذكور ﴿مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على استقلاله في ألوهيته وربوبيته، إنما أنزلها عليهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ [الأعراف: 26] رجاء أن يتذكروا نعمه فيعرفوا المنعم وينكشفوا بتوحيده.

ثم ناداهم وأوصاهم ثانيًا بقوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ مقتضى خلافتكم ونيابتكم أن ﴿لَا يَفْتِنَكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ أي: لا يوقعنكم في الغي والضلال بغته ووسوسة ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ﴾ بالفتنة والغرور ﴿مِنَ الْجَنَّةِ﴾ هي دار السرور، وأهبطهما بوسوسته إلى الأرض التي هي محل الفساد ومنشأ الشرور حين ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ أي: تسبب للنزع حين تغريهما وإغرائهما إلى تناول المنهي ﴿لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ انتقامًا منهما.

فعليكم أيها الأبناء أن تجتنبوا عن غوائله وتعودوا إلى الله عن جميع مخايله، وتتخذوه وقاية ووكيلًا حتى تتخلصوا عن وسوسة شياطين الأهواء المضلة، وعليكم ألا تغفلوا عنه؛ إذ ﴿إِنَّهُ﴾ دائمًا ﴿يَتَرَاكُمْ﴾ ويراقبكم ﴿هُوَ﴾ أي: الشيطان نفسه ﴿وَقِيلُهُ﴾ جنوده الأماره بالسوء رؤية صادرة عن محض العداوة ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ إذ هم مرتكزون في نفوسكم التي بين جنبيكم، يضلكم ويغويكم على صورة الهداية والإرشاد، فعليكم أن تخالفوا أهواء نفوسكم وتجانبوا مناها ومشتياتها، ومع ذلك تضرعوا نحونا وتعودوا بنا ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ مقتضى حكمتنا المتقنة ﴿الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ مسطين ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 27] بتوحيدهنا واستقلال استيلائنا.

﴿وَإِذَا قَالُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحِشَةِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ

رؤية المولى فيواري بها رؤية غير المولى، ولباس الخفي من التقوى: إيقاظه بهوية المولى فيواري بها هويته وهوية غير المولى؛ ولهذا قال: ذلك خير؛ لأن لباس البدن بالتقوى وهو شريعة لباس القلب بالتقوى وهو حقيقة.

مُهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ يَبْقَىٰ عَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ [الأعراف: 28-31].

﴿وَإِذَا فَعَلُوا﴾ أي: هؤلاء الكافرون بوسوسة الشياطين ﴿فَاجِشَةً﴾ فعلة ذميمة فيبحة متناهية في القبح ﴿قَالُوا﴾ في الجواب: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ وهم يقولون: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ فيما أنزل علينا على لسان نبينا ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ الهادي لعباده ﴿لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ﴾ أيها المفترون ﴿عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 28] لياقته بجنابه.

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي﴾ بمقتضى فضله وعدله على من أمر منه خلص عباده ﴿بِالْقِسْطِ﴾^(١) أي: العدل السوي في جميع مأموراته بلا ميل إلى جانبي الإفراط والتفريط ﴿وَعَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون أن ﴿أَقِيمُوا﴾ واستقيموا ﴿وَجُوهَكُمْ﴾ التي بها ميلكم وتوجهكم نحو الحق بلا ميل إلى ما سواه ﴿عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ ومقام تتدللون فيه وتتوجهون نحوه ﴿وَعَلَى الْجَمَلَةِ﴾ واذعوه ﴿وتوجهوا نحوه حال كونكم مستقيمين فيه﴾ ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: الطاعة والانقياد بلا شوب الغير والسوى مطلقاً، واعلموا أيها الأظلال ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ الله أي: أنشأكم وأظهركم من كتم العدم بمد ظله ورش نوره عليكم ﴿تَعْبُدُونَ﴾ [الأعراف: 29] إليه بقبض الظل وطيه في نشأتكم الأولى.

﴿فَرِيقًا﴾ منكم ﴿هَدَى﴾ بتوفيق الله إلى مبدئه ومعاده ﴿وَفَرِيقًا﴾ ضل وغوى لذلك ﴿حَقٌّ﴾ وثبت ﴿عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ في مكنن القضاء، وكيف لا يحيقهم ويحيط بهم الضلالة ﴿إِنَّهُمْ﴾ من غاية غفلتهم ﴿اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ آلهة ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ المتوحد بذاته ﴿وَيَخْسَبُونَ﴾ بسبب هذا الاتخاذ ﴿أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: 30] إلى طريق النجاة بل ضالون تائهون.

(١) القِسط العدل، ويقع ذلك في حق الله تعالى، وفي حق الخلق، وفي حق نفسك، فالعدل في حق الله الوقوف على حد الأمر من غير تقصير في المأمور به أو إقدام على المنهي عنه، ثم ألا تدخّر عنه شيئاً مما خولك، ثم لا تؤثر عليه شيئاً فيما أحل لك، وأما العدل مع الخلق - فعلى لسان العلم - بذل الإنصاف، وعلى موجب الفتوة ترك الانتصاف. وأما العدل في حق نفسك فإدخال العتق عليها، وسد أبواب الراحة بكل وجه عليها، والنهوض بخلافها على عموم الأحوال في كل نفس. تفسير القشيري (2/362).

﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ المجبولين على زي التقوى ولباس السلامة ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ التي زينكم الله بها من الحقائق والمعارف والمكاشفات والمشاهدات ﴿عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ ومقام تميلون فيه نحو الحق وجوهكم التي يلي الحق ﴿وَلَا تَهْمَلُوا أَمْرَ مَرَاكِبِكُمُ الَّتِي هِيَ نَفُوسُكُمْ وَهَوَايَاكُمْ﴾ لئلا تبطلوا صنع الله ولا تخربوا بيته، بل ﴿كُلُوا﴾ مقدار سد الجوعة ﴿وَاشْرَبُوا﴾ قدر دفع العطشة ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ فيهما إلى حيث يؤدي إلى تقوية القوى البهيمية ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: 31] ولا يرضى عن فعلهم لإخلالهم بإسراف الأكل والشرب على الميل الذي جبلوا لأجله؛ إذ الشبع يميت القلب وينقص الغريزة الإنسانية، ويزيد القوى البهيمية.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿وَلِكُلٍّ أَمْعَلٌ أَجَلٌ فَلَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿يَبْقَى مَا دَامَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ مَا يَنْتَقِي فَمَنْ أَنْتَقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ [الأعراف: 32-35].

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للمحجوبين من أهل الظاهر المحزومين عن الرزق المعنوي، المحزومين عن التوجه نحو التوحيد في هذه النشأة: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ﴾ وأظهر ﴿لِعِبَادِهِ﴾ الخلق من ذرائر الكائنات بتجليات الأسماء والصفات ﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ المعنوي والمستلذات الروحانية ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿هِيَ﴾ حاصلة ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالتوحيد الإلهي ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ والنشأة الأولى حال كونهم مشوبة بالقوى البشرية والكدورات البهيمية ﴿خَالِصَةً﴾ لهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بلا شوب كدورة حين انخلعوا من جلباب الهويات الباطلة والتعيينات العاطلة ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ الدالة على توحيدنا ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 32] يذعنون بالإيمان ويتوجهون نحو الكشف والعيان.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل المولي لتدبير مصالح العباد: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ﴾ القبايح الصادرة من أولي الأحلام السخيفة ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ من الظلم وشهادة الزور

ورمي المحصن والغيبة والنميمة، وغيرها من القبائح التي ظهرت من الألسنة والأيدي ﴿وَمَا بَطُنٌ﴾⁽¹⁾ من القبائح التي صدرت من الفروج ﴿وَو﴾ بالجملة: كل ما يوجب الإثم المستلزم للانتقام والعقاب ﴿وَالْبَغْي﴾ أي: الحروب على الولاة وجمهور المسلمين ﴿بِغْيِرِ الْحَقِّ﴾ بلا رخصة شرعية ﴿وَو﴾ أعظم المحرمات جرماً وأشدّها انتقاماً ﴿أَنْ تُشْرِكُوا بِاللّهِ﴾ المتوحد بذاته ﴿مَا﴾ أي: شيئاً من مصنوعات مع أنه ﴿لَمْ يُتْرَكْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ حجة وبرهاناً ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ﴾ افتراء ومراءء ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 33] ثبوته له، لا عقلاً ولا نقلاً.

﴿و﴾ اعلموا أن ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم العاصية الضالة ﴿أَجَلٌ﴾ مقدر من عند الله لمقتهم وملاكهم ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ المقدر المبرم ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: 34] أي: لا يسع لهم فيه طلب التأخير على مقتضى أهويتهم ولا طلب التقديم تخليصاً لنفوسهم من الأذى، بل أمره حتم نازل في وقته وحينه بلا تخلل تقدم وتأخر؛ لكمال قدرته ومثانة حكمته.

﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ المستكملين القابلين للإرشاد والتكميل المستعدين لفيضان كمال التوحيد ﴿إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ أي: أن يأتينكم ويرسلن إليكم ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ من جنسكم وبني نوعكم؛ إذ هم أدخل لنصحكم وإرشادكم وأنسب لجذب قلوبكم، وأشفق عليكم من الأجانب حال كونهم ﴿يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ المتزلة من عندي، الدالة على وحدة ذاتي فعليكم أن تصدقوهم وتؤمنوا لهم وبما جاءوا به من عندي من الأوامر والنواهي ﴿فَمَنْ أَتَى﴾ منكم عن محارم الله بواسطة رسله وآياته ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أي: أخلص أعماله لله بلا ترقب على الجزاء ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ لا في النشأة الأولى ولا في الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَخْزَنُونَ﴾ [الأعراف: 35] عن سوء المنقلب والمثوى.

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمُ الْعَذَابُ﴾

(1) ما أخذ أغير من الله، ولذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وما أخذ أحب إليه المدح من الله، ولذلك مدح نفسه، وما أخذ أحب إليه العلو من الله تعالى، ولذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب. البحر المديد (20/2).

إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا آئِنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا
عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ أَذْخُلُوا فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي
النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِيَهُمْ لِأُولَئِهِمْ رَبَّنَا
هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَتَنَاهُمْ عَذَابًا ضِعْفَيْنِ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ [الأعراف:
36-38].

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ المترلة على رسلنا ﴿وَأَمْتَكْبُرُوا عَنْهَا﴾ وعمن أنزلت
عليه عتوا وعنادا ﴿أُولَئِكَ﴾ المكذبون المستكبرون ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ المعدة لجزاء
المخذولين من أهل الضلال ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: 36] لا نجاه لهم منها
أصلاً.

نعوذ بك من سخطك يا ذا القوة المتين.

وبعدما أرسل الرسل وأنزل الكتب ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي:
نسب إليه ما لم يصدر عنه افتراء وكذباً ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ الصادرة عنه عناداً ومكابرة
﴿أُولَئِكَ﴾ المفترون المكذبون ﴿يَتَالَهُمْ نَصِيُّهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي: مما كتب في اللوح
وثبت فيه من العذاب والنكال لذوي الجرائم العظام ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ أي:
ملائكتنا الموكلون ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ لتوفية حساب العصاة ﴿قَالُوا﴾ أي: الملائكة لهم
توبيخاً وتقريعاً: ﴿آئِنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ﴾ وتعبدون ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الآلهة الباطلة
وتعتقدونهم شفعاء ﴿قَالُوا﴾ متضرعين مضطرين: ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي: غابوا عنا بعدما
أضلونا عن طريق الحق ﴿وَشَهِدُوا﴾ واعترفوا ﴿عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا﴾ في مدة
حياتهم ﴿كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: 37] ضالين.

﴿قَالَ﴾ سبحانه من وراء مرادقات العز والجلال على مقتضى عدله: ﴿أَذْخُلُوا﴾
أيها الضالون المكذبون ﴿فِي﴾ زمرة ﴿أُمَمٍ﴾ عاصية كافرة ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿مِنْ
قَبْلِكُمْ﴾ على الكفر والضلال أمثالكم ﴿مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ﴾ المعدة لجزاء
العصاة الغواة الكفرة، وبعد صدور الأمر الوجوبي منه سبحانه صاروا بحيث ﴿كُلَّمَا
دَخَلَتْ أُمَّةٌ﴾ في نار الخذلان ﴿لُعِنَتْ أُخْتَهَا﴾ التي أضلتها ﴿حَتَّىٰ إِذَا دَارَكُوا﴾
وتلاحقوا ﴿فِيهَا جَمِيعًا﴾ مجتمعين ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ﴾ أي: مستأخرهم ﴿لأُولَئِهِمْ﴾ أي:
لأجل مستقدميهم وفي حقهم، متضرعين إلى ربهم: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الضَّالُّونَ الْمَضِلُّونَ

﴿أَضَلُّونَا﴾ عن طريقك بوضع سنن الضلال بيننا فاقتدينا بهم، فضللنا ﴿فَاتَّبَعْنَاهُمْ﴾ الآن وأنزل عليهم ﴿عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾^(١) أي: مثل عذابنا؛ لأنهم ضالون مضلون ﴿قَالَ﴾ سبحانه على مقتضى عدله: ﴿لِكُلِّ﴾ منكم أيها الاتباع ومن متبوعيكم ﴿ضِعْفٌ﴾ من النار، أما المتبوعون فلضلالهم وإضلالهم، وأما التابعون فلضلالهم وتقليدهم بهؤلاء المضلين لا بالأنبياء ﴿وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 38] استحقاقكم واستحقاقهم.

﴿وَقَالَتْ أُولَئِكَ لَئِنْ كُنَّا مِن فَضْلِ قَدُورِ الْعَذَابِ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (٣٩) إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (٤١) [الأعراف: 39-41].

﴿و﴾ بعدما سمعت الأولى من الأخرى ما سمعت ﴿قَالَتْ أُولَئِكَ لَئِنْ كُنَّا مِن فَضْلِ قَدُورِ الْعَذَابِ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: 39] كما نذوق بما نكسب.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على توحيدنا ﴿وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ ولم يؤمنوا لها عتوا وعنادا ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ أي: الفيوضات والفتوحات من سماء الأسماء والصفات حتى ينكشفوا بوحدة الذات ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ أي: مقر التوحيد ﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ أي: دخولهم في مقر التوحيد في الاستبحالة كولوج الجمل في سم الخياط بل أشد استحالة، هذا مثل يضرب في الممتنعات والمستحيلات ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: 40] المخرجين عن ساحة عز التوحيد بجرائم أهوية هوياتهم الباطلة.

(١) قال في التأويلات: وإنما قدم الجن على الإنس؛ لتقدمهم عليهم في الخلقة، وذلك أن الله تعالى لما خلق الجن جعل منه حكمة؛ فمنهم: مؤمن، ومنهم: كافر، فلما استولى أهل الكفر منهم على أهل الإيمان وغلبوهم بالحرب والقتال حتى استأصلوهم بعث الله إليهم جنًا من الملائكة، قيل: كان رئيسهم إبليس، فسلطهم الله عليهم حتى أهلكوا جميعهم، ثم خلق الله تعالى آدم عليه السلام يعلمهم فخلق منه نريته فكان منهم كافرًا: كقاييل، ومنهم مؤمن: كهابيل إلى أن كان في كل زمان منهم أمة كافرة مستحقة لدخول النار، وأمة مؤمنة مستحقة لدخول الجنة حتى الآن وإلى انقراض العالم؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ [التغابن: 2].

﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ﴾ الإمكان ﴿مِهَادٌ﴾ فراش يحترقون عليه بنيران الأمنية والأهوية الفاسدة ﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أغطية من سكير الجاه والمال ودعوى الفضل والكمال ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: 41] المتجاوزين عن حدود الله بمقتضيات نفوسهم المنغمسة في اللذات الحسية والوهمية والخيالية.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ مِنَّا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ كُفْرُ الْبَنَةِ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ [الأعراف: 42-43].

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته من تعقيب الوعيد بالوعد: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيد الله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المقربة نحوه على مقتضى استعداداتهم وقابلياتهم ومقدار وسعهم وطاقاتهم؛ إذ ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ﴾ السعداء الباذلون جهدهم في سلوك طريق الفناء ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ المعدة لأرباب الولاء، المتمكنون في مقام الرضا بما جرى عليهم من القضاء ﴿هُم فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: 42] ما شاء الله؛ إذ لا حول ولا قوة فيها إلا بالله.

﴿و﴾ بعدما دخلوا جنة التوحيد ﴿نَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾ مشعر بالاثنية والانانية؛ إذ ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ أي: جداول المعارف والحقائق المترشحة من بحر الوحدة ﴿و﴾ بعدما كوشفوا بفناء تعيناتهم وفازوا بالبقاء السرمدى الإلهي ﴿قَالُوا﴾ بلسان استعداداتهم بإلقاء الله إياهم ليتحققوا بمقام الشكر: ﴿الْحَمْدُ﴾ والثناء المنبعث من محض التسليم والرضا ﴿لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ أي: أوصلنا بمقام الرضا وشرف البقاء واللقاء ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ﴾ بأنفسنا لو بقينا في مجلس هوياتنا ومضيق تعيناتنا ﴿لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ بلطفه وسعة جوده ورحمته، وحين تمكنوا في مقام الكشف والشهود أقسموا بالله ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ مِنَّا﴾ لإرشادنا ملتبسا ﴿بِالْحَقِّ﴾ المطابق للواقع في جميع ما جاءوا به ﴿و﴾ بعدما تحققوا بمقام الشكر واعترفوا بما اعترفوا ﴿نُودُوا﴾ من وراء مرادقات العز والجلال: ﴿أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ﴾ أي: التوحيد الذاتي ﴿أَوْرِثْتُمُوهَا﴾ أعطيتكم بها ومكنتم فيها ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 43] بمقتضى أوامر الله ونواهيه وإرشاد رسله وتذكير كتبه.

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُوتُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيُبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا جَبَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلِّمُوا عَلَيْنَا لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأعراف: 44-47].

﴿و﴾ بعدما تمكن أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار ﴿نَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾ ليفتضحوا على رؤوس الأشهاد: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾ من المواعيد والتبشيرات على السنة الرسل وكتبه ﴿حَقًّا﴾ يقينا بعدما تيقناه علما وحيثما فيما مضى ﴿فَهَلْ وَجَدْتُمْ﴾ أيها المحبوسون في سجن الإمكان ونار الحرمان ﴿مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾ من الوعيدات والإنذارات الشديدة الجارية على السنة الرسل والكتب ﴿حَقًّا﴾ مطابقا للواقع ﴿قَالُوا﴾ متحسرين بحالهم مضطرين عما هم عليهم: ﴿نَعَمْ﴾ قد أصبنا ما كذبنا وحققنا ما أبطلنا، وبعدهما جرى بينهم ما جرى من المقاوله ﴿فَأَذَّنَ﴾ صوت ﴿مُؤَذِّنٍ﴾ هاتف وراء سرادقات الجلال ﴿بَيْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ أي: طرده ومقته نازل ثابت ﴿عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: 44].

﴿الَّذِينَ يَصُوتُونَ﴾ ينصرفون وينصرفون ﴿عَنْ﴾ استقامة ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الموصل إلى توحيده ﴿وَيُبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: يطلبون منها زيفا وضلالا ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: 45] مكذبون منكرون.

﴿وَبَيْنَهُمَا﴾ أي: بين الموحدين المتمكنين في نعيم الجنان، المشرفين بشرف لقاء الرحمن، والمشركين المحبوسين في سجن الإمكان، المحترقين بنيران الخذلان والحرمان ﴿جَبَابٌ﴾ لا يدرك كنهه إلا العليم العلام ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ﴾ أي: البرزخ ﴿رِجَالٌ﴾ من الأبرار ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا﴾ من الفريقين ﴿بِسِيمَتِهِمْ﴾ ⁽¹⁾ أي: بوجوههم التي

(1) إن لله عبادا في الدنيا قلوبهم تطير في الملكوت، وأرواحهم تطير في أنوار الجبروت، وعقولهم تستشرق على الأسرار، وأسرارهم تطلع على الأنوار، فيرون بنور الله بالله من العرش إلى الثرى، ويعرفون جميع الخلائق بسماوات البعد والقرب التي تظهر من وجوههم، وهي متقوش خاتم السعادة والشقاوة الذي لا يقرأه إلا عارف رباني، ولهذا أشار ﷺ بقوله: «اتقوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ

يلي الحق والباطل وهم متقرون في البرزخ لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ﴿وَنَادَوْا﴾
 أهل البرزخ ﴿أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامَ عَلَيْكُمْ﴾ هنيئًا لكم، ما تتمتعون فيها وتتمتعون
 بها حال كونهم ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ [الأعراف: 46] دخولها من فضل الله
 وسعة رحمته وجوده.

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ﴾ أي: أبصروا بذلك البرزخ ﴿تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا﴾
 متضرعين متخشعين: ﴿رَبَّنَا﴾ وإن صدر عنا من التقصير ما صدر ﴿لَا تَجْعَلْنَا﴾ بلطفك
 ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: 47] الخارجين عن حدودك مطلقًا عنادًا وإصرارًا.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَحًا لَا يَعْرِفُونَهُمْ بِسْمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ
 تُسْتَكْبِرُونَ ٤٨﴾ اهتولوا الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمته أدخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا
 أنتم تحزنون ٤٩ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما
 رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين ٥٠ الذين اتخذوا دينهم لهُوَ
 لُوبًا وغررتهم الحياة الدنيا فاليوم ننسهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما
 كانوا بآياتنا يجمعون ٥١﴾ [الأعراف: 48-51].

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ﴾ على وجه التوبيخ والتقريع ﴿رَجُلًا﴾ من

فإنه ينظر بنور الله. وهؤلاء على أعراف ذروة شرفات الحضرة يوم القيامة، مطلعون على أحوال
 الدارين ينظر إليهم أهل الجحيم فيحتلمون برؤيتهم أثقال العذاب، وينظر إليهم أهل الجنة
 فيستزيدون من وجوههم سرور العيش، وهم يشفعون على كل مقصر، وينعمون على كل متوفر
 والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامَ عَلَيْكُمْ﴾ السلام منهم عليهم زيادة
 قربهم أهل الجنة وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ يعني أهل الأعراف من أعظم
 شأنهم عند الله في حضرته وقفوا شفاعاة الخلق، وهم يطمعون أن يدخلوا الجنة، ويعيشون مع
 عوام الجنة كالملوك يجلسون مع أهل الدناءة، لتطيب قلوبهم، والفرح بملكهم. روى أبو
 الحسن الفارسي عن سهل بن عبد الله يقول: أهل المعرفة هم أصحاب الأعراف قال الله:
 ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسْمَتِهِمْ﴾ أقاموهم لإشرافهم على الدارين وأهلها، يعرفهم الملكين كما أشرفهم
 على أسرار العباد في الدنيا وأحوالهم. ويقال: عرفوهم غداً بسماهم التي وجدوهم عليها في
 دنياهم، فأقوم موسومين بأنوار القرب وآخرون موسومون بآثار الرد والحجب.

صناديدهم كانوا ﴿يَغْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ بوجوههم الباطلة من المال والجاه والرئاسة والتفوق وغيرها ﴿قَالُوا﴾ لهم متحكمين: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ أي: ما أسقط جمعكم المال وجمعيتكم بسبب الجاه شيئاً من عذاب الله ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأعراف: 48] أي: ما يفيد لكم استكباركم على خلق الله وعن آياته اليوم ١٩

انظروا أيها الحمقى ﴿أَهْؤُلَاءِ﴾ المترفّهون المتنعمون في مقر العز والتمكن هم ﴿الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ﴾ في النشأة الأولى أنهم ﴿لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ في النشأة الأخرى، كيف قيل لهم من قبل الحق تفضلاً وامتناناً عليهم: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ التي هي دار الأمن والأمان ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ﴾ بعدما دخلتم فيها ﴿وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: 49] أصلاً من فوت شيء وتعويقه.

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ متمنين منهم متحسرين: ﴿أَن أَفِيضُوا﴾ صبوا ﴿عَلَيْنَا﴾ رشحة ﴿مِنَ الْمَاءِ﴾ الذي هو سبب حياتكم الحقيقي ويقائكم السرمدى ﴿أَوْ مِنَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ من الرزق المعنوي ﴿قَالُوا﴾ في جوابهم بإلهام الله إياهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ الْمَطْلَعُ لَاسْتِعْدَادَاتِ عِبَادِهِ﴾ ﴿حَزْمُهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: 50].

﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ﴾ الذي هو سبب الحياة الحقيقية في حياتهم الصورية ونشأتهم الدنيوية ﴿لَهُوَ وَلَعْبًا﴾ يلهون ويلعبون به ويكذبون من أرسل إليهم وأنزل عليهم الكتب لتبيينه ﴿وَمَا ذَلِكَ إِلَّا أَن﴾ ﴿عَزَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بمزخرفاتها من اللذات الجسمانية والشهوات النفسانية، وصاروا بسبب تغيراتها ناسين العهود والمواثيق التي جرت بيننا وبينهم في بدء فطرتهم ﴿قَالِيَوْمَ﴾ أي: حين كشف السرائر وارتفعت الحجب ﴿تَنسَاهُمْ﴾ ولم نلتفت نحوهم ﴿كَمَا نَسُوا﴾ في النشأة الأولى ﴿إِلْقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ في النشأة الأخرى مع ورود الإنذارات والتحذيرات الجارية على السنة الرسل والكتب ﴿وَمَا﴾ أي: وكما ﴿كَانُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على أمثال هذه الإنعامات ﴿يَتَجَحَّدُونَ﴾ [الأعراف: 51] ينكرون ويصرون كذلك يخلدون في النار وينسون.

﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ حِلِّهِ مُبِينًا لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِي نَسِئُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِن شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ خَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا

كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ [الأعراف: 52-53].

﴿و﴾ كيف لا يخلدون في النار ﴿لَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ﴾ مبين لجميع أحوال النشأتين ﴿فَصَلَّنَاهُ﴾ أي: أوضحنا معانيه وبيّنا ما فيه من العقائد والأحكام مفصلاً ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ حضوري منا متعلق بتفصيله بحيث لا يشذ عن علمنا شيء أصلاً، وإنما فصلناه وأوضحناه وجئنا به؛ ليكون ﴿هُدًى﴾ هادياً ومرشداً لهم إلى توحيدنا ﴿وَرَحْمَةً﴾ مخلصه لهم عن سجن الطبيعة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 52] به وبحقيقته.

وبعد ما آمنوا به وبما فيه من أحوال النشأة الأولى والأخرى ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ أي: ما ينتظرون هؤلاء المؤمنون ﴿إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ أي: ما يؤول إليه ويترتب عليه بعدما حصل لهم الإذعان بالتوقع ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ﴾ ونبذوه وراء ظهورهم ﴿مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا﴾ ملتبساً ﴿بِالْحَقِّ﴾ المطابق للواقع فكذبناهم مكابرة وعناداً ﴿فَهَلْ لَنَا﴾ اليوم ﴿مِنْ شَفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ ليخلصونا من نكال ما أجرمنا ﴿أَوْ نُزِدُ﴾ بشفاعتهم على أعقابنا ﴿فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ في أيام الغفلة، وهم ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالكفر والشرك وعبادة الغير ﴿و﴾ مع ذلك ﴿ضَلُّ﴾ غاب وخفي ﴿عَنْهُمْ﴾ لدى الحاجة ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: 53] لشركائهم من الشفاعة والمظاهرة.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُ وَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مَسْخَرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِلَّا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْمَلَكِينَ ﴿٥٤﴾ اذْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: 54-56].

وكيف لا تتبهنون وتنكشفون أيها المنجبولون على فطرة التوحيد ومن الذات المستجلي في الآفاق بالاستقلال ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ﴾ وأظهر وأوجد ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وما بينهما من كتم العدم بامتداد أظلال أوصافه وأسمائه عليها ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أوقات ودفعات ليشير إلى إحاطته بالجهات كلها ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾⁽¹⁾

(1) قال نجم الدين كبرى: يشير إلى أن الذي هو ربكم وسيدكم الذي تجب طاعته عليكم لربوبيته

أي: على عروش المظاهر والمكونات الكائنة والأقطار، مترها عن الجهات والاستواء والاستقرار والتمكن مطلقاً، ورتب أمور المكونات على حركات الأفلاك بحيث ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ أي: يغطي بالليل وجه النهار مع أن النهار ﴿يَطْلُبُهُ﴾ أي: يعقبه ﴿حَيْثًا﴾ سريعاً ﴿وَوَجَعَلَ﴾ جعل ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مَسْجُرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ يتحركن حيث أمرها الحق سبحانه ﴿أَلَّا﴾ تنبهوا أيها الأظلال الهالكة والعكوس المستهلكة أن ﴿لَهُ﴾ سبحانه وفي قبضة قدرته ﴿الْخَلْقُ﴾ والإيجاد والإظهار ﴿وَالْأَمْرُ﴾ أي: التدبير والتصرف بالاستقلال، وبالجمله: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 54] أي: تعظم

هو: الله المستحق للعبادة بالإلوهية، الذي خلق بالقادرية والخالقية السماوات والأرض بالمديونية والحكيمية خلقها في ستة أيام، وإنما حصر في ستة أيام؛ لأن أنواع المخلوقات ستة وهي: الأول: الأرواح المجردة. والثاني: الملكوتيات، فمنها: الملائكة، والجن، والشياطين، وملكوت السماوات، ومنها: العقول المفردات والمركبات. والثالث: النفوس: كنفوس الكواكب، ونفس الإنسان، ونفس الحيوان، ونفس النبات والمعادن. والرابع: الأجرام والبساط العلوية من الأجسام اللطيفة كالعرش، والكرسي، والسماوات، والجنة والنار. والخامس: الأجسام المفردة وهي: العناصر الأربعة. والسادس: الأجسام المركبة الكثيفة من العناصر فتصير عن خلق كل نوع منها يوم، وإلا فالأيام الزمانية كونها مستحيل قبل خلق السماوات والأرض؛ فلما أتم خلق المكونات من الأنواع الستة استوى على العرش بعد الفراغ من خلقها استواء التصرف في العالم وما فيه التدبير في أموره من العرش إلى تحت الثرى، وإنما اختص العرش بالاستواء؛ لأنه مبدأ الأجسام اللطيفة القابل للفيض الرحمانية. واعلم: أن الاستواء صفة من صفاته تعالى لا تشبه استواء المخلوقين، كالعلم صفة من صفاته تعالى لا يشبه علم المخلوقين؛ إذ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11]، ولو أعمت النظر في خصوصية خلافتك عن الحق تعالى لعرفت نفسك فعرفت ربك، وذلك إن الله تعالى لما أراد خلق شخصك من النطفة المودعة في الرحم استعمل روحك بخلافته؛ ليتصرف في النطفة أيام الحمل فيجعلها عالماً صغيراً مناسباً للعالم الكبير، فيكون بدنه بمثابة الأرض، ورأسه بمثابة السماء، وقلبه بمثابة العرش، وسره بمثابة الكرسي، وهذا كله بتدبير الروح وتصرفه خلافة عن ربه، ثم استوى الروح بعد استواء من الشخص الكامل على عرش القلب استواء لا مكائياً لاستواء مكائياً؛ ليتصرف في جميع أجزاء الشخص ويدبر أموره بإفاضة فيضه على القلب، فإن القلب هو: القابل لفيض الروح، ثم يفيض على سائر الأعضاء، كما أن من العرش ينصب الفيض الإلهي إلى سائر المخلوقات، فالعرش مقسم فيض الحق تعالى إلى المخلوقات كلها، كما أن القلب مقسم فيض الروح إلى القالب كله، فإذا تأملت في هذا المثال تأملاً شافياً وجلته في نفي التشبيه عن الصفات المتزهة المقدمة كافياً، وتحققت حقيقة من عرف نفسه فقد عرف ربه إن شاء الله تعالى.

في ألوهيته عن أن يدركه العقول والأفهام، وتعالى في ربوبيته عن المظاهرة والمشاركة والأمثال والأشباه.

﴿اذْعُوا﴾ أيها المجبولون على فطرة التوحيد ﴿رَبِّكُمْ﴾ المتفرد بتربيتكم وإظهاركم ﴿تَضَرُّعًا﴾ متضرعين ﴿وَخُفْيَةً﴾ كاتمين خائفين خاشعين عن ظهر القلب لا مقلقين على طرف اللسان عادين ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: 55] المجاوزين المجاهرين الملحّين في الدعاء؛ إذ علمه بحالهم يغني عن سؤالهم.

﴿وَعَلَيْكُمْ أَنْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ التي هي محل الكون والفساد ﴿بَعْدَ إِضْلَاحِهَا﴾ بإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿وَاذْعُوهُ﴾ سبحانه إن أردتم الالتجاء إليه والمناجاة معه ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾⁽¹⁾ أي: خائفين من رده بمقتضى قهره وانتقامه، راجين قبوله من فضله وإحسانه ﴿إِنْ رَحِمَهُ اللَّهُ﴾ المجيب للمضطرين عناية ولطفًا ﴿قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: 56] الذين يعبدون الله كأنهم يرونه، ويقومون بين يديه خائفًا مستحيًا من سطوة سلطته وقهره وجلاله، طامعًا راجيًا من طوله ونواله.

﴿هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتِ مَحَابِبًا ثَقَالًا سُقِّنَتْهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [57] ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَجَسًا كَذَٰلِكَ نَصْرِفُ الْأَيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [58-57].

﴿وَعَلَيْكُمْ﴾ كيف لا يكون رحمته قريبة من المؤمنين المحسنين ﴿هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ﴾ أي: يثيرها ﴿بُشْرًا﴾ مبشرات ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ قدام روحه ورحمته ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتِ﴾ حملت وأثقلت وجمعت من البخارات المتراكمة ﴿مَحَابِبًا﴾ غليظًا ﴿ثِقَالًا﴾ بالأجزاء المائية ﴿سُقِّنَتْهُ﴾ من غاية لطفنا ﴿لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ يابس لأجل إحيائه ونضارته ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ﴾ أي: بالبلد الميت ﴿الْمَاءَ﴾ المحيي ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ أي: بالماء ﴿مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي: أنواعها وأجناسها المختلفة بالألوان والطعوم ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل إخراجنا بالماء الصوري أنواع الثمرات من البلد الميت، نخرج بالماء المعنوي الذي هو

(1) مصلحان في موقع الحال أي خائفين من الرد لقصور أعمالكم وعدم استحقاقكم وطامعين في إجابته تفضلا وإحسانا لفرط رحمته. تفسير حقي (4/169).

العلم اللدني من أراضى القابليات واستعدادات الموتى المحجوبين بالحجاب الظلماني والجهل الجبلي الهولاني، بإرسال رياح أنفاس الأنبياء والأولياء المستنشقة من النفس الرحماني، مبشرات بالكشوف والمشاهدات حتى إذا اجتمعت صارت محاباً شرعياً ثقيلاً بمياه الحكمة والتقوى، سقناه من غاية جودنا إلى بلاد النفوس الميتة اليابسة، فأجرنا فيها أنهار المعارف والحقائق المنتشرة من قلوب الأنبياء والأولياء، فأخرجنا به ثمرات اليقين العلمي والعيني والحقي ﴿نُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ في النشأة الأخرى ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 57] فتعرفون قدرتنا على جميع مقدوراتنا ومراداتنا.

﴿و﴾ بعد سوقنا مياه جودنا إلى أموات ﴿الْبَلَدُ الطَّيِّبُ﴾ الذي هو نجيب المنبت، لطيف الطينة، قابل التربية ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أي: بتوفيقه سبحانه وتربيته جيداً نافعاً كثيراً على مقتضى استعداده الفطري ﴿و﴾ البلد ﴿الَّذِي خَبِثَ﴾ طيبته وقل قابليته كالحرارة والسبخة ﴿لَا يَخْرُجُ﴾ نباته بعد إجراء المياه اللطيفة عليه ﴿إِلَّا نَكْدًا﴾⁽¹⁾ قليلاً

(1) قال المحقق روزبهان: ألا يا أخي أرض القلوب تثبت أزهار المواجهيد ورياحين المواريد بقدر كشف أنوار الصفات والذات، فكل قلب بذرة المحبة فنباته المشاهدة، وكل قلب بذرة الشوق فنباته الأنس والوصال، وكل قلب بذرة العشق ونباته كشف الجلال والجمال، وكل قلب بذرة الهوى فنباته الشهوات؛ فالقلب المنور يظهر على الجوارح آثار المحبة وهي الموافقة، وكل قلب مظلم يظهر بالظواهر آثاره وهي المخالفة. ثم أشار تعالى إلى تبديل الأخلاق ونشر الأفضال وثبوت المقامات وطيران الأحوال بالإرادة السابقة والمشئة الأولية المنزهة عن التغاير في التدبير، بل هو موصوف بأصل التقدير بقوله: ﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ لقوم يعرفون المشكور قبل وجود الآلاء والنعماء، يجدونه شاكر أنعماءه بنفسه فيخجلون عن شكره بعرفانهم بعجزهم عن محل شكره. قال أبو عثمان: أسعد الطيب مثل قلب المؤمن الذي يخرج نباته بإذن ربه يظهر على الجوارح أنوار الطاعات والزينة بالإخلاص والذي حيث قلب الكافر لا يظهر منه إلا النكد والشوم والظلمات على الجوارح من إظهار المخالفات. وقال الواسطي: البلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه أي بتولييه، والذي خبيث لا يخرج إلا نكداً حجب عن التجلي والخطاب كذلك نصرف الآيات، كذلك تحرق الشمس طوائف من النبات وتنبثها وتغلي طوائف من النبات وتطيها، وذلك على قدر جوهرها، كما أن بإرادة واحدة ظهرت المخالفات والموافقات. قال بعضهم: البلد الطيب الذي طيبها بدوام الأمن وعدل السلطان. ويقال: النسيم الساطع يدل إلى الجوهر اللازم، إن خبيث الجوهر لم يطلب ما لم يحل منه وإن طاب العنصر، فالحر يحاكي أصله، والأسرة تدل على السريرة، فعن صفات ساكن قلبه زكي ظاهر فعله، ومن كان بالعكس فحال بالصد. وقال الأستاذ: وإذا زكى الأصل بماء الفرع. قال بعضهم: هو قلب المؤمن الذي طهره الله وطيبه طهر الله الروح بماء القرية، وطيبه بطيب الكرامة، وطهر القلب بماء

غير نافع، بل ضار كالنفوس المنهمكة في الغفلة والضلال إلى حيث لا يؤثر فيها مياه الحكم والمعارف الجارية على ألسنة الرسل؛ لخبائث طيبتها وقلة قابليتها ﴿كَذَلِكَ نُصْرِفُ﴾ نرد ونكرر ﴿الآيَاتِ﴾ الدالة على استقلالنا في ملكنا وملكوتنا ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: 58] نعمتنا ويتفكرون في آلائنا، ويعتبرون بها إلى أن يستغرقوا في مطالعة جمالنا:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٥٩) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَتَّقُوا لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ [الأعراف: 59-64].

ثم أشار سبحانه إلى تفاوت الاستعدادات واختلاف القابليات بتفصيل الأمم الهالكة بموت العناد والجهل لخبث طيبتهم، فقال مقسمًا: والله ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ رسولنا ﴿نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ بعدما انصرفوا وانحرفوا عن طريق الحق بالميل إلى الأهواء الباطلة والآراء الفاسدة ﴿فَقَالَ﴾ لهم نوح إحصا للنصح على وجه الشفقة: ﴿يَا قَوْمِ اغْبُدُوا﴾ أيها المنهمكون في الغفلة ﴿اللَّهُ﴾ المتوحد في الألوهية، المتفرد في الربوبية، المستحق للعبودية، واعلموا أنه ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ﴾ معبود بحق ﴿غَيْرُهُ﴾ ينقذكم من عذابه، وإن لم تعبدوه وتوحدوه ﴿إِنِّي﴾ بعدما أوحى إلي من عنده إهداءكم وتنبيهكم إلى توحيدهِ ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: 59] هو يوم الطوفان في النشأة الأولى ويوم القيامة في النشأة الأخرى.

وبعدما سمعوا مقالته ﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾ الأشراف ﴿مِنْ قَوْمِهِ﴾ يا نوح ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي

ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿[الأعراف: 60] ظاهر لائح، تأمرنا بترك عبادة الآلهة المحققة وتدعونا إلى إله واحد موهوم أبدعته من عند نفسك.

﴿قَالَ﴾ أيضًا على مقتضى شفقة النبوة لعلهم يتنبهوا: ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ كما تخيلتم من جهلكم ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ﴾ هادٍ لكم مرسل ﴿مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 61] الذي أوجدكم ورباكم بأنواع التربية؛ حتى تعترفوا بربوبيته وتقرؤا بتوحيده.

ولما جئت لكم ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ بآياته سبحانه؛ حتى تفوزوا من عنده بالمشوبة العظمى والمرتبة العليا بإهدائي وإرشادي ﴿وَلَا تَضَعُونِي﴾ لا تنسبوني إلى الجهل والسفه، إني ﴿أَخْلَصْتُ مِنَ اللَّهِ﴾ بتوفيقه وحبه وجذب من جانبه ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 62] منه، أكذبتموني وأنكرتموني.

﴿أَوْ عَجِبْتُمْ﴾ من ﴿أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ﴾ موعظة وتذكير لإرشادكم ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى﴾ لسان ﴿رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ به عن الكفر والمعاصي ووخامة عاقبتها ﴿وَلِتُذَكِّرُوا﴾ عن محارم الله بسبب إنذاره وتخويفه ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُزْحَمُونَ﴾ [الأعراف: 63] بإثبات مأموراته وترك منهياته؛ عناية وتفضلاً.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ بعدما ضعفوه ونسبوه إلى الضلال، فانتقمنا منهم وأخذناهم بالطوفان ﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾ المؤمنين ﴿الَّذِينَ مَعَهُ﴾ حال كونهم متمكنين ﴿فِي الْفُلِّ وَأَخْرَجْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ المنزلة على رسولنا ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَجِبِينَ﴾ [الأعراف: 64] غير مستبصرين بآيات الله الدالة على توحيده؛ لعمى قلوبهم وفسادهم وعمهم في الغفلة والضلال.

﴿وَلِلَّهِ عَادٌ لِّخَافِهِمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ خِیرٌ أَلَّا تَتَّقُونَ﴾
 قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّكَ لَنرَبُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٥﴾ قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾
 أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُم مِّنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٦٧﴾ [الأعراف: 65-68].

﴿وَلِلَّهِ عَادٌ﴾ أرسلنا أيضًا ﴿إِلَى﴾ قوم ﴿عَادٍ﴾ حين خرجوا عن رقة الإيمان وعزى التقوى ﴿أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أضافه إليهم بالأخوة؛ لكمال الشفقة ووفور الأعطاف ﴿قَالَ﴾

منادياً لهم مضيئاً لهم إلى نفسه؛ ليقبلوا قوله ويمثلوا بما جاء به من ربه: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ المظهر الموجد لكم من كتم العدم ورباكم بأنواع اللطف والكرم، واعتقدوا يقيناً أنه ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ﴾ موجد مرب ﴿غَيْرُهُ﴾ فعليكم أن تعبدوه إيماناً به وعملاً بما جاء عنده لأنبيائه حتى يتحققوا بمقر التوحيد، أتكفرون وحدة الحق وتعبدون غيره من الآلهة الباطلة ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: 65] عن بطشه وأخذه؟!

فلما سمعوا منه ما سمعوا ﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾ الأشراف ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ - إذ بعض الأشراف آمن به كمرثد بن سعد: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ عظيمة في دعوى الإرشاد والتكميل ﴿وَإِنَّا لَنَنْظُرُكَ﴾ في ادعاء الرسالة والنبوة ﴿مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: 66].

﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ لا تسفهوني؛ إذ ﴿لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ﴾ أرسل إليكم لإهدائكم ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 67].

جتكم ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾⁽¹⁾ [الأعراف: 68] فعليكم أن تتعظوا بنصحي وتتصفوا بما نصحت لكم بإلهام الله ووحيه لتكونوا من زمرة المؤمنين الموقنين.

﴿أَوْعَيْبُهُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْعَةً فَاذْكُرُوا ءَالَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ قالوا أحييتنا لنعبد الله وحده وننذر ما كان يعبد آباؤنا فأيننا بما نملأنا إن كنتم من الصّٰدِقيْنَ ﴿٧٠﴾ [الأعراف: 69-70].

﴿أ﴾ أنكرتم وكذبتم أمري وإهدائي ﴿وَرَعَيْبُهُمْ﴾ من انهماكم في الغي والضلال من ﴿أَن جَاءَكُمْ﴾ لإصلاح حالكم ﴿ذِكْرٌ﴾ عظة وتذكير ﴿مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ عما يضلكم ويغويكم تفضلاً وامتناناً عليكم؟ ﴿و﴾ لا تستبعدوا من الله أمثال هذا ولا تنكروها، بل ﴿أَذْكُرُوا﴾ نعمه عليكم ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ

(1) قال سهل: ومن لم ينصح الله في نفسه ولم ينصحه في خلقه هلك، ونصيحة الخلق أشد من النفس، وأدنى نصيحة النفس الشكر، وهو ألا يعصى الله تعالى بنعمه. وقال أيضاً: النصيحة ألا تدخل في شيء لا تملك صلاحه. تفسير التستري (1/162).

نُوحٍ ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾ ﴿ وَزَادَكُمْ ﴾ بسببها ﴿ فِي الْخَلْقِ بَضْعَةً ﴾ تفوقاً واستعلاء ﴿ فَادْكُرُوا ﴾ أيها المترفعون بنعم الله ﴿ آلاء الله ﴾ الفائضة عليكم واشكروا لها ﴿ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: 69] تفوزون من عنده بشرف الرضا والتسليم.

ثم لما بالغ في نصحتهم وإرشادهم وبذل جهده في أداء الرسالة والتبليغ ﴿ قَالُوا ﴾ في جوابه من غاية قسوتهم ونهاية حميتهم مستفهماً مفرعاً: ﴿ أَجِئْنَا ﴾ أيها الكذاب السفیه ﴿ لِنَعْبُدَ اللَّهَ ﴾ الذي ادعيت أنت أنه ﴿ وَخَدَّاهُ ﴾ لا شريك له ولا إله سواه ﴿ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ من الآلهة، فاذهب أنت وإلهك؛ إذ لا نؤمن بك وبه أصلاً، وإن شئت ﴿ فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ من العذاب والنكال ﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الأعراف: 70] في دعواك.

﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ مَا سَمَيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ (٧١) ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَمْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٧٢) [الأعراف: 71-72].

ثم لما آيس هو من هدايتهم وصلاحتهم ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ ﴾ وجب وحق ﴿ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ ﴾ عذاب شديد تضطربون به ﴿ وَغَضَبٌ ﴾ نازل من عنده بحيث يستأصلكم بالمرة ﴿ أَتُجَادِلُونَنِي ﴾ أيها المفضوبون بغضب الله ﴿ فِي أَسْمَاءِ ﴾ أشياء ﴿ سَمَيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ ﴾ من تلقاء أنفسكم آلهة تعبدونها بعبادة الله مع أنه ﴿ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ حجة وبرهان تستدلون بها على عبادة هؤلاء التماثيل العاطلة والمفتريات الباطلة، وبعدهما ظهر الحق فلم تقبلوا أيها المسرفون ﴿ فَانظُرُوا ﴾ نزول العذاب ﴿ إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ [الأعراف: 71].

روي أنهم كانوا يعبدون الأصنام، فلما بُعث إليهم هود كذبه وأصروا على ما هم عليه عتوا وعناداً التماثيل العاطلة، فأمسك الله القطر عنهم ثلاث سنين حتى جهدهم، وكان من عادتهم إذا نزل عليهم البلاء توجهوا نحو البيت الحرام، وتقربوا عندها وطلبوا من الله الفرج، فجهزوا إليه قيل بن عتر، ومرثد بن سعد في سبعين من أعيانهم، وكان إذ ذاك بمكة العمالة أولاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، وسيلهم معاوية بن بكر، فلما قدموا عليه وهو بظاهر مكة أنزلهم وأكرمهم، فلبثوا عنده شهراً، ثم قصدوا البيت ليدعوا.

قال مرثد: والله لا يسقون بدعائكم، ولكنكم إن أطعتم نبيكم وتبتم إلى الله لأسقيتم، فقالوا لمعاوية: احبس منا مرثدا لا يقدم معنا مكة، فإنه قد اتبع دين هود، وترك ديننا، فحبسه ثم دخلوا مكة.

فقال قيل: اللهم اسق ما كنت تسقيهم، فأنشأ الله سحابات ثلاث: بيضاء وحمراء وسوداء، ثم نادى مناد من جانب السماء: اختر يا قيل لنفسك ولقومك منها، فقال: اخترت السوداء؛ لأنها أكثرهن ماء، فخرجت على عاد من وادي المغيث، فاستبشروا بها واستعجلوا لنزولها، وقالوا: هذا عارض ممطرنا، بل ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم، فجاءتهم ريح عقيم فأهلكتهم.

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ﴾ أي: هودا ﴿وَالَّذِينَ﴾ آمنوا ﴿مَعَهُ بِرَحْمَةٍ﴾ نازلة ﴿مِنَّا﴾ لإيمانهم وانقيادهم ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا﴾ بأن استأصلناهم ﴿وَهُمْ﴾ ما كانوا ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 72] بنينا وكتابتنا، ولا من شأنهم التصديق.

﴿وَالِىَ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَ تَكْثُفٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ شُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف: 73-74].

﴿و﴾ أرسلنا أيضا ﴿إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَ تَكْثُفٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ معجزة ظاهرة الدلالة على صدقي في دعواي نازلة ﴿مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ أظهرها ﴿لَكُمْ آيَةٌ﴾ دالة على صدقي في قولي ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ حيث شئت ﴿و﴾ عليكم أن ﴿لَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ﴾ وإن أذيتموها بسوء ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ [الأعراف: 73] مؤلم مفضع مستأصل، فعليكم أن تحفظوها حتى لا ينزل عليكم العذاب.

﴿وَاذْكُرُوا﴾ أيها المتنعمون نعم الله عليكم، سيما ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ مكنكم ووطنكم وكثركم في الأرض التي هم فيها حال ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْ شُهُولِهَا﴾ لبنا وأجرا، وتبنون ﴿قُصُورًا﴾ عاليات تسكنون فيها مترفهي ﴿وَتَنْحِتُونَ﴾

تشقون بالمعاول ﴿الْجِبَالُ﴾ المتحجرة ﴿بَيُوتًا﴾ لحفظ أمتعتكم ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ المترادفة المتوالية عليكم، وقوموا بشكرها؛ ليزيد عليكم منبجانه ويديم لكم ﴿وَلَا تَفْشُوا﴾ أي: لا تظهروا ﴿فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: 74] بفرور الأموال والأولاد والأمتعة.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ ٧٥ ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ ٧٦ ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَصْلِحُ أَثْنَانَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنَّا مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ٧٧ ﴿فَلَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ﴾ ٧٨ ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنقُوه لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ التَّوْحِيدَ﴾ ٧٩ [الأعراف: 75-79].

ثم لما سمعوا منه ما سمعوا ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ عن الإيمان والاتباع له ﴿مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا﴾ إياهم واستذلهم ﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ على سبيل التهكم والاستهزاء ﴿أَتَعْلَمُونَ﴾ يقينا أيها الحمقى المصدقون له المؤمنون ﴿أَنْ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ الذي ادعى وحدته واستقلاله في الألوهية والربوبية ﴿قَالُوا﴾ أي: المؤمنون المخلصون من صفاء عقائدهم ونجاة طبيعتهم على سبيل التأكيد والمبالغة: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ﴾ أي: بجميع ما أرسل ﴿بِهِ﴾ من عند ربه ﴿مُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 75] مصدقون موقنون.

﴿قَالَ﴾ الملا ﴿الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ عنادا ومكابرة: ﴿إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ﴾ بمتابعة صالح ﴿كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: 76] منكرون مكذبون.

ثم لما كفروا وكذبوا مصرين ﴿فَعَقَرُوا﴾ أي: نحروا ﴿النَّاقَةَ﴾ التي هي آية الله عليهم ووديعه الله عندهم، قد أوصاهم سبحانه ألا تمسوها بسوء، وهم قد هلكوها عنادا ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾^(١) استكبارا ﴿وَقَالُوا﴾ لبيه؛ بطرا واستهزاء: ﴿يَا صَالِحُ﴾ الكذاب

(١) أي: استكبروا عن امتثاله وهو ما بلغهم صالح من الأمر بقوله فلنروها ومن النهي بقوله ولا تمسوها واستكبروا عن اتباع أمر الله وهو شرعه ودينه ويجوز أن يكون المعنى صدر عتوهم عن

المدعي ﴿إِنَّمَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من العذاب ﴿إِنْ كُنْتَ﴾ صدقت أنك ﴿مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: 77] فلما فعلوا ما فعلوا وقالوا ما قالوا استحقوا ما وعدوا وأوعدوا.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ الصيحة الهائلة ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِعِينَ﴾ [الأعراف: 78] أي: صار كل منهم جائعاً جامداً إلى حيث لا يتحرك منهم أحد.

روي أنهم كانوا في منازل عاد يعيشون فيها متنعمين مترفحين إلى أن كثرهم الله وعمرهم أعمازاً طوالاً، واقتضى طول أملهم أن نحتوا من الجبال بيوتاً يخزنون فيها أمتعتهم ويبنون قصوراً عاليات في السهول؛ إذ كانوا في خصب وسعة، فقرؤا على ما هم عليه وأفسدوا في الأرض بأنواع الفسادات، وبالفحشاء في عبادة الأصنام، فبعث الله إليهم صالحاً وهو من أشرافهم فدعاهم إلى الإيمان والتوحيد، فسألوا منه آية فقال: آية تريدون؟

قالوا: أخرج معنا إلى عيدنا، فادع إلهك وندعو إلهنا فمن استجيب اتباع، فخرج معهم فدعوا أصنامهم فلم يجابوا، ثم أشار سيدهم جندع بن عمرو إلى صخرة منفردة يقال لها: الكاثبة، وقال لصالح: أخرج من هذه الصخرة ناقة جوفاء وبراء، فإن خرجت صدقناك وآمنا بك.

فأخذ صالح ^{عليه السلام} عنهم الموائيق إن أخرجت لتؤمنوا له، فعهدوا، فصلى ودعا ربه فتمخضت الصخرة تمخض التوج بولدها، فانصدعت عنه ناقة عشراء جوفاء وبراء كما وصفوا وهم ينظرون، ثم أنتجت ولداً مثلها في الكبر، فأمن له جندع في جماعة ومنع الباقيين دوار بن عمرو، والخباب صاحب أوثانهم، ورباب بن صمغر كاهنهم، فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وترد الماء غباً، فما ترفع رأسها من البئر حتى تشرب كل ما فيها، ثم تتفجع فيحلبون ما شاءوا حتى تمتلئ أوانيهم ويدخرون، وكانت تصيف في ظهر الوادي فتهرب منها مواشيهم، وتشتو في بطنه فتهرب أنعامهم إلى ظهره، فشق ذلك عليهم فهموا بقتلها، وزينت لهم قتلها أم غنم وصدقها بنت المختار، فعقروها واقتسموا لحمها.

فرقى ولدها جبلاً اسمه قارة، فرغا ثلاثاً، فقال صالح ^{عليه السلام}: أدركوا الفصيل عسى

أمر ربهم كان أمر ربهم بترك الناقة كان هو السبب في عتوهم ونجوا من هذه كما في قوله وما فعلته عن أمري. انظر [تفسير حقي (4/ 195)].

أن يرفع عنكم العذاب، فلم يقدرُوا عليه، وانفتحت الصخرة بعد رغبته فدخلها.
 فقال صالح ^{عليه السلام}: تصبح وجوهكم غداً مصفرة وبعد غد محمرة، واليوم الثالث مسودة، ثم يصحبكم العذاب، فلما رأوا العلامات هموا أن يقتلوه، فأنجاه الله تعالى إلى أرض فلسطين، ولما كانت ضحوة اليوم الرابع وتكفؤوا بالانطاع، فأتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم، فهلكوا ﴿فَتَوَلَّى﴾ وأعرض صالح ^{عليه السلام} ﴿عَنْهُمْ﴾ بعدما ظهر عليهم أمارات عذاب الله وعلامات الانتقام ﴿وَقَالَ﴾ متحسراً متأسفاً حين تجانب عنهم: ﴿يَا قَوْمِ﴾ المبالغين في الإعراض عن الحق ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي﴾ وبذلت جهدي في إهدانكم ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ إشفافاً عليكم حتى لا يلحقكم العذاب الموعود ﴿وَلَكِنْ﴾ أنتم قوم مستكبرون في أنفسكم، مصرون معاندون ﴿لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: 79] فلحقكم ما أخاف عليكم بالإعراض عما أمرتم به.

﴿وَلَوْ طَا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٨٠)
 إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا
 كُنْتُمْ بِأَعْيُنِنَا إِنْ كُنْتُمْ مُّسْرِفِينَ ﴿٨٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٣﴾ [الأعراف: 80-84].

﴿و﴾ أرسلنا ﴿لَوْ طَا﴾ اذكروا ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ المبالغين في ارتكاب الفعلة القبيحة والديانة الشنيعة على وجه التوبيخ والتقريع: ﴿أَتَأْتُونَ﴾ وترتكبون ﴿الْفَاحِشَةَ﴾ المتناهية في القباحة والفضاحة مع أنها ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 80] بل أنتم اخترعتموها من خبائث نفوسكم ورداءة طباعكم.

﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها المتجاوزون عن حدود الله ومقتضى حكمته ﴿لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ أي: حال كونكم متلذذين مشتهين لإتيانهم ﴿مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ مع أن الحكمة تقتضي إتيانهم، وما هو من جهلكم بقبحها وخبائثها ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: 81] في الفساد والخروج عن مقتضى الحكمة الإلهية بمتابعة أهويتكم الباطلة.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ حين سمعوا منه ما سمعوا ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ مستكبرين مستكبرين منهمكين: ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ أي: لوطاً ومن آمن له ﴿وَأَنَّهُمْ أَنَا نَحْنُ﴾

يَطْهَرُونَ ﴿[الأعراف: 82] يدعون التطهر عن الخبائث ويجتنبون عن الفواحش، فلا يناسبهم الإقامة فيها.

ثم لما لم يمتنعوا بقوله، بل زادوا الإصرار والعداوة، أخذناهم بظلمهم وإسرافهم ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ أي: من آمن له مما أصابهم ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ لأنها تسر الكفر؛ لذلك ﴿كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [الأعراف: 83] الهالكين بقهر الله.

﴿وَ﴾ بعدما أخذناهم ﴿أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ أي: مطرًا وحجارة من سجيل فاستأصلناهم به ﴿فَانظُرْ﴾ أيها المعبر الرائي ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: 84] المصرين على الجرائم العظائم مع إرسال الرسل الهادين لهم إلى طريق النجاة، الزاجرين عما هم عليه من القبائح على أبلغ وجه وأكده.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَذَّبْتُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأعراف: 85-86].

﴿وَ﴾ أيضًا أرسلنا ﴿إِلَى﴾ قوم ﴿مَدْيَنَ﴾ وهم قرية شعيب عليه السلام ﴿أَخَاهُمْ﴾ وابن عمهم ﴿شُعَيْبًا﴾ حين أفرطوا في التطفيف والتخسير ﴿قَالَ﴾ لهم مناديا على وجه الشفقة والنصيحة: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ المتوحد المستقل في الألوهية، واعلموا أنه ﴿مَا لَكُمْ مِّن إِلَهٍ﴾ يعبد بالحق ﴿غَيْرُهُ﴾ وأنه ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ﴾ عظيمة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الذي رباكم بأنواع اللطف والكرم دالة على القسط والعدالة في المعاملات الصورية؛ ليفوزوا بها إلى الاعتدال المعنوي والقسط الإلهي ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ أي: وفوا حقه ﴿وَ﴾ أقيموا ﴿الْمِيزَانَ﴾ بالجملة: ﴿لَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أي: لا تنقصوا من حقوقهم شيئا ﴿وَ﴾ عليكم أن ﴿لَا تُفْسِدُوا﴾ مطلقا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ التي وضعت للعدالة والصلاح سيما ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ أي: بعد إصلاحنا أمرها بإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي: العدل والصلاح وأمثال الأوامر ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 85]

موقنين بعدل الله وصراطه المستقيم.

وعليكم أن تتوجهوا نحو طريق الحق بالعزيمة الصحيحة ﴿وَلَا تَقْعُدُوا﴾ أي: لا ترصدوا ﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ طريق ومذهب من الطرق الباطلة حال كونكم ﴿تُوعِدُونَ﴾ وتخوفون الناس عن سلوك طريق الحق ﴿وَتُضِدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ضعفاء ﴿مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ بإلقاء الشبه والرخص في قلوبهم ﴿و﴾ بالجملة: ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾⁽¹⁾ أي: تطلبون أن تنسبوا عوجًا وانحرافًا إلى سبيل الحق والطريق المستقيم؛ لينصرف الناس عنه، وعليكم ألا تميلوا عن مخالفة أمر الله ونهيه ﴿وَاذْكُرُوا﴾ نعمه عليكم ﴿إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا﴾ عددًا واعدًا ﴿فَكَثَرَكُمْ﴾ قواكم وأظهركم، واشكروا نعمه عليكم؛ ليدوم ويزيد ولا تكفروها ﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: 86] المكفرين لنعم الحق من الأمم الهالكة واعتبروا من حالهم ومآلهم.

﴿وَلِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، وَطَائِفَةٌ لَّا يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ ﴿٨٧﴾ ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشُعْبَبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْبِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي وَلَانَا قَالَ أُولَئِكَ أَكْرِهِينَ﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ جِئْنَا اللَّهَ مِنهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ ﴿٨٩﴾ [الأعراف: 87-89].

﴿وَلِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ من العدالة الصورية والمعنوية ﴿وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا﴾ عنادًا واستكبارًا ﴿فَاصْبِرُوا﴾ وانتظروا ﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ بمقتضى عدله ﴿بَيْنَنَا﴾ أي: بين الفريقين بالنصر على من آمن والقهر على من كفر واستكبر ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه في ذاته ﴿خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: 87] يحكم بمقتضى حكمته

(1) أي: تبغون سبيل الله تكون معوجة، وتميلونها اتباعا لأهوائكم، وقد كان الواجب عليكم وعلى غيركم الاحترام والتعظيم للسبيل التي نصبها الله لعباده ليلسكوها إلى مرضاته ودار كرامته، ورحمهم بها أعظم رحمة، وتصدون لنصرتها والدعوة إليها والذب عنها، لا أن تكونوا أتم قطاع طريقها، الصادقين الناس عنها، فإن هذا كفر لنعمة الله ومحادة لله، وجعل أقوم الطرق وأعدلها مائلة، وتشنعون على من سلكها. انظر [تفسير السعدي (1/ 296)].

المتقنة المتفرعة على العدالة الحقيقية.

وبعد ما سمعوا منه ما سمعوا ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ على وجه المبالغة والتأكيد وعدم المبالاة: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ﴾ البتة ﴿يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ﴾ وصدقوا قولك ﴿مِنْ قَوْمِنَا﴾ كرها وإجلاء ﴿أَوْ لَنُعُودَنَّ﴾ أنت ومن معك ﴿فِي مِلَّتِنَا﴾ التي كنتم عليها من قبل ﴿قَالَ﴾ ^{الطهارة} مستبعدا مستكبرا: ﴿أَوْ لَوْ كُنَّا﴾ في الأيام السالفة أيضا ﴿كَارِهِينَ﴾ [الأعراف: 88] منكرين ملتكم التي أنتم عليها، فتعيدوننا إليها، وكيف نعود؟!

﴿قَدْ افْتَرَيْنَا﴾ البتة ﴿عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا﴾ وصرنا ﴿فِي مِلَّتِكُمْ﴾ سيما ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ﴾ المنجي لعباده عن ظلمة الكفر ﴿مِنْهَا﴾ وألهمنا بطلان ما أنتم عليه ﴿وَوَ﴾ بالجملة: ﴿مَا يَكُونُ﴾ يجوز ويصح ﴿لَنَا أَنْ نَعُودَ﴾ ونرجع ﴿فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ عودنا ومصيرنا إليه؛ إذ هو ﴿رَبُّنَا﴾ يرينا بلطفه بما هو خير لنا، وإن كان فيها خيرا يعيدنا إليها؛ إذ ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ تحققًا وحضورًا لذلك ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ لا على غيره من الأسباب ﴿تَوَكَّلْنَا﴾ في جميع ما جرى علينا، واتخذناه وكيلًا لجميع أمورنا ﴿رَبُّنَا﴾ يا من ربانا بأنواع اللطف والكرم ﴿افْتَحْ﴾ واقض على ما جرى عليه حكمك وقضاؤك ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ المطابق للواقع والموافق لما ثبت في لوح القضاء ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: 89] الحاكمين بين ذوي الخصومات.

﴿وَقَالَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ﴾ ٩٠ ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الزَّجْفَةَ فَأَضْبَعُوا فِي دَائِرَتِمْ جَحِيمِينَ﴾ ٩١ ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا لَمْ يَشْعُرُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ٩٢ ﴿فَنُودِيَ عَنْهُمْ وَقَالَ يَ قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَاتِي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَامَنَ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ ٩٣ [الأعراف: 90-93].

ومن حسن محاوره شعيب ^{عليه السلام} مع أمته ومجاملته معه لقب بالخطيب بين الأنبياء.

﴿وَوَ﴾ بعدما سمعوا منه ما سمعوا ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ لمتابعيهم ترهيبًا وتهديدًا على وجه المبالغة والتأكيد: والله ﴿لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾ ^{الطهارة} وآمتهم له وسمعتهم قوله في ترك البخس والتطيف ﴿إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: 90] في بضاعتكم ومعاملتكم، ثم لما بالغوا في الضلال والإضلال استحقوا الانتقام والنكال.

﴿فَأَخَذْتَهُمُ الزَّجْفَةَ﴾ والزلزلة الشديدة فخر عليهم سقوف بيوتهم ﴿فَأَضْبَعُوا فِي

دارهم) التي يستترون فيها ﴿جَائِعِينَ﴾ [الأعراف: 91] جامدين ميتين.

وبالجملة: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْتًا كَأَن لَّمْ يَغْتَوْا فِيهَا﴾ أي: استوصلوا وانقرضوا إلى حيث صاروا كأن لم يسكنوا ولم يكونوا في تلك الديار أصلاً، بل الحق إن ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْتًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: 92] المقصورين على الخسران في النشأة الأولى والأخرى.

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ شبيب ^{عليه السلام} بعدما شاهد حالتهم واستحقاقهم للعذاب ﴿وَقَالَ﴾ متأسفاً متحزناً على مقتضى شفقتة، مضيفاً لهم إلى نفسه: ﴿يَا قَوْمِ﴾ المنهمكين في الغفلة المبالغين في الإصرار والاستكبار ﴿لَقَدْ أُنْزِلَتْكُمْ رِسَالَاتٍ مِنِّي﴾ حتى لا يلحق بكم ما لحق ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ بإذنه سبحانه وبالفيت في نصحي، فلم تقبلوا مني نصحي ولم تصدقوا قولي، ثم كذب هواجس نفسه وأنكر عليها؛ خوفاً من غضب الله، فقال: ﴿فَكَيْفَ آسَى﴾ أنحزن ﴿عَلَى قَوْمٍ﴾ كانوا ﴿كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: 93] لنعم الحق مكذبين لأوامره مستحقين لما نزل عليها بسوء معاملتهم مع الله بعد ورود ما ورد من الوعد والوعيد؟.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَاسِ وَالضَّرَّةِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾
 ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آلَاءُنا الضَّرَّةَ وَالسَّرَّةَ
 فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ
 مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن
 يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيِّنَاتٍ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ
 ﴿٩٨﴾ [الأعراف: 94-98].

ثم لما ذكر سبحانه من أحوال الأمم الماضية الهالكة وقبح صنيعهم مع الله وتكذيبهم كتبه ورسله، سجل عليهم بأن ما لحقهم إنما هو من سوء صنيعهم وشؤم نفوسهم، فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ﴾^(١) من القرى الهالكة ﴿مِّن نَّبِيٍّ﴾ من الأنبياء ﴿إِلَّا

(١) قال نجم الدين كبرى: يشير إلى أن سبب البأس والضراء ابتلاء لأوليائه وأعدائه، فالولي يتضرع إليه عند البلاء ويرجع إليه، ويتوكل عليه، ويتمسك بجبل الصبر والتسليم والرضا، ويتمسك

أَخَذْنَا أَوْلَىٰ ﴿أَهْلَهَا بِالنَّاصِيَةِ وَالضُّرَاءِ﴾ إِزَالَةَ لِقَسَاوَتِهِمْ وَتَلْيِينًا لِّقُلُوبِهِمْ ﴿لَعَلَّهُمْ يَضُرُّعُونَ﴾ [الأعراف: 94] رجاء أن يتضرعوا إلينا ويتوجهوا نحونا.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما ضيقنا عليهم كشفنا عنهم بأن ﴿بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ﴾ المصرة المؤلمة ﴿الْحَسَنَةَ﴾ النافعة المسرة ﴿حَتَّىٰ عَفَّوْا﴾ إلى أن كثروا وتكاثروا عُدَدًا وَعُدَدًا ﴿وَقَالُوا﴾ بعدما صاروا مترفعين في سعة ورخاء مكان شكر وإظهار المنة منّا: ﴿قَدْ مَسَّ﴾ ولحق ﴿آبَاءَنَا﴾ كما لحقنا ﴿الضُّرَاءَ وَالسُّرَاءَ﴾ ومن عادة الزمان وديانة الدهر تعاقب السراء بالضرراء والجذب بالرخاء، ومتى ظهر منهم كفران النعم وعدم الرجوع إلينا بالشكر ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ فجأة بلا سبق مقدمة وتقديم أمانة ﴿وَهُمْ﴾ حينئذ من غاية عمهم وسكرتهم ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: 95] نزول العذاب والنكال.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ﴾ الهالكة العاصية ﴿آمَنُوا﴾ بالله وبأنبيائه المبعوثين إليهم ﴿وَاتَّقَوْا﴾ عن محارم الله بمقتضى أوامره التي جاءت الأنبياء به ﴿لَفَتَحْنَا﴾ ووسعنا ﴿عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ﴾ نازلة ﴿مِّنَ السَّمَاءِ وَ﴾ نابتة من ﴿الْأَرْضِ وَلَكِن﴾ من خبث طينتهم ورداءة فطرتهم ﴿كَذَّبُوا﴾ بالله وبأنبيائه وكتبه ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾ بعدما أظهروا التكذيب والإنكار ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: 96] بأيديهم لأنفسهم، وبالجمله: ما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾ من انتقامنا وبطشنا إياهم ولم يخافوا ﴿أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا﴾ عذابنا وعقابنا ﴿يَتَاتَا﴾ في أثناء الليل ويحيط بهم ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ [الأعراف: 97] في مضاجعهم.

﴿أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾ ولم يترقبوا ﴿أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى﴾ في كمال إضاءة اليوم ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف: 98] بأمور دنياهم على مقتضى مخايلهم ومناهم.

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ﴿٩٩﴾ أَوْلَىٰ يَدُ لِلَّذِينَ يَرْتُوبُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ شَاءَ أَصَبْتَهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ

فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ [الأعراف: 99-102].

وبالجملة: ﴿أَفَأَمِنُوا﴾ أولئك المنهمكون في الغفلة ﴿مَكْرَ اللَّهِ﴾ المراقب لجميع أحوالهم، ولم يخافوا ولم يحزنوا من أخذه وانتقامه، ولم يتفطنوا أن من أمن عن مكره وأخذه فقد خسر خسرانا مينا ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ﴾ المتقم المقتدر ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: 99] المقصرون على الخسران الأبدي والشقاق السرمدي في أصل فطرتهم وقابلياتهم.

﴿أَوْ لَمْ يَهْدِ﴾ أي: ألم يذكروا ولم يبين الغيور أحوال الأمم الهالكة، وأخذنا إياهم بما صدر عنهم من تكذيب الأنبياء؟ وما جاءوا به من عندنا من الأوامر والنواهي ﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ﴾ خلفاء ﴿مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ الهالكين بالجرائم المذكورة ﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ﴾ بمقتضى قهرنا وجلالنا ﴿أَصْبَتْنَاهُمْ﴾ أي: الخلفاء أيضا ﴿يَلْدُوهُمْ﴾ التي صدرت عنهم مثل أسلافهم، بل بأضعافهم وآلافهم ﴿وَوَعَدْنَا﴾ من علامات أخذنا وانتقامنا عنهم: أنا ﴿نَطْبَعُ﴾ ونختم ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ كيلا يفهموا؛ ليعتبروا ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: 100] بسبب ذلك حتى يتعظوا به.

وبالجملة: ﴿تِلْكَ الْقُرَى﴾ الهالكة التي ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل في كتابنا هذا ﴿مِنْ﴾ بعض ﴿أَنْبَاءِهَا﴾ قصصها وأخبارها وجرائمها مع الله ورسله ﴿وَوَعَدْنَا﴾ الله ﴿لَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الواضحة والمعجزات القاطعة الساطعة، وهم من خبت طبيعتهم وشدة شكيمتهم وضميرتهم ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: قبل إرسال الرسل عليهم، بل أصروا على ما هم عليه ولم يؤمنوا أصلاً، ولم يقبلوا من الرسل جميع ما جاءوا به ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ﴾ ويختم سبحانه بمقتضى قهره ﴿عَلَى قُلُوبِ﴾ جميع ﴿الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: 101] فلا تعجبك يا أكمل الرسل حال أهل مكة وإصرارهم ولا تحزن عليهم، ولا تك في ضيق من مكالدهم؛ إذ هي من المدينة القديمة والخصلة الذميمة المستمرة بين الكفرة.

﴿وَوَعَدْنَا﴾ من جملة أخلاقهم الذميمة وخصلتهم القبيحة أيضاً: نقض العهد والمواثيق.

لذلك ﴿مَا وَجَدْنَا﴾ وصادفنا ﴿لَا أَكْثَرَهُمْ مِّنْ عَهْدٍ﴾ أيضاً على لسان رسلنا موفين له ﴿وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾⁽¹⁾ [الأعراف: 102] أي: بل ما وجدنا أكثرهم بعدما عهدناهم إلا فاسقين، ناقضين لعهودنا وموآثيقنا.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾^(١٠٣) وَقَالَ مُوسَىٰ يَفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَآتِ بِهَا إِنْ كُنتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَةٌ لِلنَّظِيرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَيرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ [الأعراف: 103-110].

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم﴾ أي: بعد انقراض الغواة الطغاة الهالكين بأنواع العذاب والنكال نبينا ﴿مُوسَى﴾ المخصوص بتشريف تكليمنا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على توحيدنا مع تأييدنا إياه بالمعجزات الباهرة ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ المبالغ في العتو والاستكبار إلى حيث يدعي الألوهية والربوبية لنفسه ﴿وَمَلَئِهِ﴾ معاونين له المصدقين لدعواه الكاذب، وبعدما ادعى النبوة وأظهر الآيات ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي: أنكروا بالآيات وكذبوا من جاء بها ﴿فَانظُرْ﴾ أيها المعتبر الرائي ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: 103] في أرض الله، الخارجين عن مقتضى أوامره ونواهيه.

(1) قال البقلي في «العرائس»: كان هذه الآية أنزلت في شأننا مع هؤلاء البطالين الذين سلكوا الطريقة وأخطأوا بما وجدوا فيها من الجاه والمال، ونقضوا عهد الإرادة واشتغلوا بالرياسة وخانوا في الطريقة وأنكروا على المشايخ، أصمى الله قلوبهم ما أشد إنكارهم على أهل الحق وما أشد خروجهم عن طريق الحق، جمعهم الله في الاستدراج وطردتهم عن أنوار المنهاج كأنه تعالى عاتب الجهور حيث لم يفوا عهد الأزل، حيث وقف الكل على ما وجدوا، وهكذا شأن ما ألفت في مشاهدة المحبوب إلى غير المحبوب، ولكن هم معذرون لأن الحدثان لا يستقل أثقال محامل الكبرياء ومطايا القدم، والبقاء في أودية الفناء. قال الجنيد: أحسن العباد حالاً من وقف مع الله على حفظ الحدود، والوفاء بالعهود.

﴿وَذَكَرَ يَا أَكْمَلَ الرُّسُلِ إِذْ﴾ ﴿قَالَ﴾ حين أراد دعوتهم ﴿مُوسَى يَا فِرْعَوْنَ﴾ المستكبر المتجاوز عن حدود الله، المفسد بين عباده بأنواع الفسادات، المفرط المسرف بدعوى الربوبية ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 104] اختارني الله واصطفاني لرسالته.

وبعد اختياره سبحانه واجتباؤه إياي من بين بريته أنا ﴿حَقِيقٌ﴾ جدير لائق ﴿عَلَى﴾ أن لا أقول ﴿وَأَسْنَدٌ﴾ ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ من الأقوال والأحكام المواعظ ﴿إِلَّا الْحَقُّ﴾ الذي علمني ربي وبعثني لأجله وتبليغه لعباده، واعلموا أيها البغاة الطغاة أنني ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بَيِّنَةً﴾ واضحة دالة على صدقي في دعواي، صادرة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الذي أظهركم وأوجدكم من كتم العدم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً ﴿فَأَرْسِلْ﴾ أيها الفرعون الطاغوي ﴿مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف: 105] المقهورين تحت استيلائك، المظلومين بيدك ليرجعوا معي إلى الأرض المقدسة التي هي وطن آبائهم وفكك رقابهم، وخلّ سبيلهم بعدما أمر الحق به وإلا قد نزل عليك وعلى قومك ما أوعدك الحق به من أنواع العذاب في العاجل والآجل.

﴿قَالَ﴾ فرعون في جوابه مستكبراً مكذباً، بل منهمكاً على سبيل الترفع والخيلاء: لا أفك رقابهم ولا أخلي سبيلهم، بل ﴿إِنْ كُنْتُ﴾ أيها المدعي الكاذب ﴿جِئْتُ بِآيَةٍ﴾ من عند ربك الذي ادعيت رسالته ﴿فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: 106] في الدعوى.

ثم لما سمع موسى قوله وشاهد عتوه واستكباره ﴿فَأَلْقَى﴾ بإلهام الله إياه ﴿عَصَاهُ﴾ من يده على الأرض بين أيديهم ﴿فَإِذَا هِيَ ثُغْبَانٌ﴾ بلا معالجة واستعمال أسباب كما يفعل السحرة ﴿مُتَّبِعِينَ﴾ [الأعراف: 107] عظيم ظاهر بأضعاف مقدار العصا. روي أنه لما ألقاها صارت ثعباناً أشقر، فاغراً فاه بين لحييه ثمانون ذراعاً، وضع لحاه الأسفل على الأرض والأعلى على سور القصر، ثم توجه نحو فرعون فهرب منه وأحدث، وانهزم الناس مزدحمين، فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً، فصاح فرعون: أنشدك بالذي أرسلك خذه وأنا أو من بك وأرسل معك بني إسرائيل، فأخذه فعاد عضاً.

﴿وَبَعْدَ ذَلِكَ﴾ ﴿نَزَعَ يَدَهُ﴾ أي: أدخل يده في جيبه، وكان لون بشرة موسى شديدة الأدمة، ثم نزع ﴿فَإِذَا هِيَ يَتَضَاءُ﴾ مشرقة مشعشة محيرة ﴿لِلنَّازِظِينَ﴾ [الأعراف: 108]

مفرقة لأبصارهم من غاية إنارتها وضوئها إلى حيث غلب ضوءها ضوء الشمس.
ثم لما شاهدوا من معجزاته وآياته ما شاهدوا ﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾ الأشراف ﴿مِنْ قَوْمِ
فِرْعَوْنَ﴾ متعجبين من أمره مشاورين مع فرعون، حائرين مضطربين، خائفين من
استيلائه: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: 109]. متناه في هذا العلم إلى أقصى غايته؛
لذلك ادعى الرسالة وعجز الغير عن إتيان مثله.

وبالجملة: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف: 110] أيها
المتأملون المتفكرون في ضبط المملكة وحفظ البلاد في دفع هذا العدو.

﴿قَالُوا أَزِجُهُ وَآخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾
﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ ﴿قَالَ نَعَمْ
وَإِن كُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ ﴿قَالُوا يَمْحُوسٌ إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ ﴿قَالَ
أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾
﴿[الأعراف: 111-116]﴾.

وبعدما تشاوروا وتأملوا كثيرا في أمر دفعه، استقر رأيهم واتفق أمرهم إلى أن
﴿قَالُوا﴾ مخاطبين لفرعون: ﴿أَزِجُهُ وَآخَاهُ﴾ أي: آخر وسوف قتلهما؛ لئلا يظهر عجزك
عنهما ولا يختل أمر ربوبيتك ﴿وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ﴾ التي اشتهرت السحر والسحرة
فيها شرطاء ﴿حَاشِرِينَ﴾ [الأعراف: 111] جامعين من فيها من السحرة.

وبعد جمعهم ﴿يَأْتُوكَ﴾ ويحضروا عندك ﴿بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [الأعراف: 112]
ماهر حاذق في هذا العلم؛ ليتمكنوا على مغالبتهم، فأرسلهم فحشروا وانتخبوا من
السحرة من انتخبوا.

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ﴾ المنتخبة ﴿فِرْعَوْنَ﴾ متظاهرين بطرين، جازمين على غلبتهما
لذلك سألوا أولاً الجعل حيث ﴿قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ [الأعراف:
113] وهم وإن كانوا جازمين في نفوسهم الغلبة أتوا بأن المفيدة للشك للمبالغة في
طلب الأجر.

﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿نَعَمْ﴾ إن لكم أجرا كثيرا ﴿وَوَ﴾ مع الأجر الكثير ﴿إِن كُمْ لَمِنَ
الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: 114] عندي، الحاضرين في مجلسي، المصاحبين معي دائما،

قاله تحريضاً وترغيباً.

وبعدما تقرر عندهم وفي نفوسهم الغلبة، وسمعوا منه ما سمعوا من الإنعام والتقرب ﴿قَالُوا يَا مُوسَى﴾ نادوه استحقاقاً له واستهزاء معه، ومسفهاً كيف أقدم مع ضعفه في مقابلتهم: ﴿إِنَّمَا أَنْ تُلْقِيَ﴾ أولاً ما جئت به ﴿وَلِئَلَّا أَنْ تُكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: 115] أوامره، فلك الخيار؛ إذ الأمر عندنا سواء.

﴿قَالَ﴾ موسى بإلهام الله إياه: بل ﴿الْقُوا﴾ ما جئتم بإلقائه أيها الساحرون المبطلون ﴿فَلَمَّا الْقُوا﴾ أي: أرادوا الإلقاء ﴿سَحَرُوا أَخِيْنَ النَّاسِ﴾ حتى لا يتخيلوا أنها أمور غير مطابقة للواقع، بل اعتقدوا مطابقتها ﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ أي: بني إسرائيل المنتظرين لغلبة موسى؛ ليخلصوا من يد العدو إرهاباً شديداً؛ لأنهم القوا حبلاً غلاظاً وخشباً طوالاً صارت الكل حيات متراكمة متراكبة بعضها فوق بعض ﴿وَوُ﴾ بالجملة: ﴿جَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: 116] متناه في فته أقصى غاية.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَّ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَبِيرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجُودِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمِنْتُ بِهِمْ قَبْلَ أَنْ مَآذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرُومٌ ﴿١٢٣﴾ فِي الْمَدِينَةِ لَخُفْرَةٌ مِنْهَا أَهْلُهَا فَسَوْفَ نَعْلَمُونَ ﴿١٢٤﴾ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأُسَيِّرَنَّكُمْ إِلَىٰ مَرْجُلَيْكُمْ ثُمَّ لَأُرْسِلَنَّكُمْ فِي تَفَجُّوتٍ ﴿١٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴿[الأعراف: 117-125].

﴿و﴾ بعدما جاءوا بسحرهم العظيم ﴿أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ فآلقاها فصارت ثعباناً عظيماً ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ أخذت ﴿تَلْقَفُ﴾ تبتلع وتلتقم ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف: 117] أي: ما يزورونه ويلبسونه سحراً وشعبذة.

وبالجملة: ﴿فَوَقَّ الْحَقُّ﴾ وتحقق الإعجاز ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 118] من السحر والشعبذة في مقابلته.

﴿فَغُلِبُوا﴾ أي: فرعون وملؤه ﴿هُنَالِكَ﴾ في المجمع ﴿وَانْقَلَبُوا﴾ أي: رجعوا منه ﴿صَاغِرِينَ﴾ [الأعراف: 119] ذليلين محزونين بعدما خرجوا متكبرين مستغلبين.

﴿و﴾ بعدما شاهد السحرة من أمر موسى ما شاهدوا، وانكشفوا بحقيقته وصدقه.

بجذب رقيق من جانب الحق، وإلهام تام منه سبحانه ﴿أَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾⁽¹⁾ [الأعراف: 120] متذللين، واضعين جباههم على تراب المذلة.

وحين سجدوا ﴿قَالُوا﴾ عن ظهر قلوبهم وكما قالوا: ﴿أَمَّا﴾ أيقنا وتحققنا ﴿بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 121].

﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: 122] أي: الذي ادعى الرسالة منه، ودعوا الناس إلى الإيمان به والإطاعة له والتوجه نحوه.

ثم لما رأى فرعون سجود السحرة وسمع إيمانهم ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ مغاضباً بهم مستغهماً على سبيل الإنكار والتهديد: ﴿أَمْسُ بِهِ﴾ أي: برب موسى وهارون ﴿قَبْلَ أَنْ أَذِّنَ لَكُمْ﴾ أي: قبل أن تشاوروا معي وتعترفوا عندي بغلبتهما عليكم، وقبل أن تستأذنوا مني بالإيمان، فظهر من صنيعكم هذا ﴿إِنْ هَذَا﴾ أي: أمر موسى وهارون وادعاؤهما النبوة والرسالة ﴿لَمَكْرٌ﴾ حيلة وخديعة ﴿مُكْرَتُمُوهُ﴾ أنتم وموسى ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾ أي: مصر ﴿لِخُرُوجِهَا مِنْهَا أَهْلُهَا﴾ يعني القبط، وتستولوا أنتم وبنو إسرائيل على ملك مصر بهذه الخديعة ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 123] عاقبة أمركم وخداعكم.

﴿لَأَقْطَعَنَّ﴾ اليوم أولاً على رموس الأشهاد ﴿أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ متبادلتين ﴿ثُمَّ لأَصْلِبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: 124] زماناً كما يصلب البغاة الذين خرجوا على أولي الأمر والإطاعة.

وبعد ما سمع السحرة تهديده ﴿قَالُوا﴾ حين كوشفوا بمآل الأمر وشوهدوا بحقيقة الحال، مستطيين مستنشطين فرحين: ﴿إِنَّا﴾ بعد خلاصنا عن ريقة ناسوتنا وسلسلة إمكاننا ﴿إِلَى رَبِّنَا﴾ حسب حصه لاهوتنا وحظ وجوبنا ﴿مُنْقَلِبُونَ﴾ [الأعراف: 125] صائرون، راجعون رجوع الظل إلى ذي الظل.

﴿وَمَا لَبِقُمْ مِّنَّا إِلَّا أَنْتَ أَمَّا يَأْتِي رَبِّنَا لَمَّا جَاءَ تَارَةً﴾ أفرغ علينا صبراً وتوفناً مسلولين ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنْقِيلُ أَبْنَاءَهُمْ وَسَنَكْتُمِبُ لِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَى

(1) أي: فسجدوا بسرعة عظيمة حتى كأن ملقباً القاهم بغير اختيارهم من قوة إسرائهم، علماً منهم بأن هذا من عند الله، فأمسوا أتقياء بررة، بعد ما جاءوا في صبح ذلك اليوم سحرة.

لِقَوْمِهِ اسْتَوْصِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا لِمَا نَكُ الْأَرْضُ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أَوْزَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَنِ
رَبِّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَذُوكُمْ وَيَسْتَخْلِفَ كُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ
﴿١٢٩﴾ [الاعراف: 126-129].

﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنْهَا﴾ أيها الطاغية المتجبر المتكبر وتنكر عليها ﴿إِلَّا أَنْ آمَنَّا﴾ أيقنا
وأدعنا ﴿بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ الذي أظهرنا من كتم العدم، وربانا بأنواع اللطف والكرم ﴿لَنَا﴾
أي: حين ﴿جَاءَتْنَا﴾ تلك الآيات، وانكشفنا بحقيقتها بتوفيق منه وجذب من جانبه، ولو
كوشفت أيضاً بما انكشفنا، ارتفع غطاء التعامي وغشاوة الغفلة عن بصرك وبصيرتك،
فتشهد بما شهدنا إلا أن الحق سبحانه ختم على قلبك وبصرك وسمعك بالغشاوة
الغليظة والحجب الكثيفة؛ لذلك استكبرت واستنكرت، وبالجمله: ﴿مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ
لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: 40].

ثم انصرفوا نحو الحق واشتغلوا بالمناجاة معه سبحانه، فقالوا متضرعين: ﴿رَبَّنَا﴾
يا من ربانا بلطفك وكرمك إلى أن جعلتنا من زمرة شهدائك الذين بذلوا مهجهم في
سبيلك طائعين راغبين ﴿أَفْرِغْ﴾ أفض واصبب ﴿عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ من عندك متواليًا متتابعًا
حين اشتغل هذا الطاغية على قضاء ما هددنا به بحيث لا يغيب عنا شوقك، ولا يغلب
على قلوبنا ألم ناسوتنا أصلاً ﴿وَوَ﴾ حين انقطعت أنفاسنا وخرجت أرواحنا ﴿تَوَفَّنَا
مُسْلِمِينَ﴾ [الاعراف: 126] مستقرين على الرضا والتسليم، ثابتين على جادة التوحيد
والعرفان بلا تزلزل وتمايل.

ثبت أقدامنا على دينك وتوحيدك يا خير الناصرين.

﴿وَوَ﴾ بعدما فعل فرعون بالسحرة أنار الله براهيمهم ما هددهم به ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ
قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَلْنُ مُوسَى وَقَوْمَهُ﴾ يعني: بني إسرائيل ﴿لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ سيما بعدما
انتشر في أقطار الأرض غلبتهما عليك، وبغروا طباع الناس عنك، ووقعوا الفتن بين
رعايا بلادك ﴿وَوَ﴾ بالجمله: أدى أمرهم وإيقاعهم إلى أن ﴿يَلْزَكَ﴾ أي: كل واحد منهم
عبادتك ﴿وَوَ﴾ عبادة ﴿إِلَهَتِكَ﴾ التي وضعتها لعبادة عبادك من الأصنام والتماثيل
لتتخذوها معبودات وتتوجهوا نحوها ﴿قَالَ﴾ فرعون: لا ندعهم بعد اليوم على ما كانوا
عليه من قبل، ولا نستأصلهم أيضاً؛ لئلا ينسب الظلم والعجز إلينا، بل نستضعفهم على

التدرّج ﴿سَنَقْتُلُ﴾ بعد اليوم ﴿أَبْنَاءَهُمْ﴾ أي: ذكور أولادهم؛ لثلاثا يتكثروا ﴿وَنَسْتَخِييُ نِسَاءَهُمْ﴾ أي: إناث أولادهم حتى نتزوجهن وينزجروا بلحوق العار، وإذا مضى زمان على هذا انقرضوا واستؤصلوا، وكيف لا نفعل بهم ما نقول ﴿وَأَنَا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: 127] قادرون غالبون.

وبالجملة: لما فعلنا بهم من قبل فيما مضى، هكذا أيضًا الآن حتى لا يتوهم أن موسى هو المولود الذي زعم الكهنة والمنجمون أن ذهاب ملكنا على يده.

ثم لما سمع بنو إسرائيل تهديد فرعون تفزعوا منه وتضجروا، وبثوا الشكوى إلى الله متضرعين ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ تسلية لهم وإزالة لضجرتهم: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ﴾ لدفع مضارهم ﴿وَاصْبِرُوا﴾ على أذاهم ولا تقنطوا من نصر الله وعونه واعلموا ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ إيجادًا وتملكًا وتصرفًا ﴿يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ﴾ بالجملة ﴿الْعَاقِبَةُ﴾ الحميدة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾⁽¹⁾ [الأعراف: 128] الذين يتقون عن محارم الله، ويصبرون على ما جاءهم من القضاء.

﴿قَالُوا﴾ يعني: بنو إسرائيل: ﴿أَوَذِينَا﴾ من أجلك يا موسى ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا﴾ بالرسالة بقتل الأبناء واستحياء النساء ﴿وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ أيضًا كذلك ﴿قَالَ﴾ موسى: لا تيأسوا من نصر الله وإنجاز وعده، بل ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ أي: قرب أمر ربكم وإنجاز وعده بإهلاك عدوكم ﴿وَ﴾ بعد إهلاكهم ﴿يَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ التي هم فيها ﴿فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 129] هل تشكرون نعمه أم تكفرونها أو تعملون من الصالحات أم تفسدون فيها مثلهم؟.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾

﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ. وَإِنْ تُصِيبِهِمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ. أَلَا

(1) انظر في هذه الآية إلى جميل أدب سيدنا موسى عليه السلام كيف علم قومه معاملة طريق الله أمرهم بالالتجاء إليه والاستعاذة به والاستغاثة به في تحمل مشقة الصبر ووجدان حسن الرضا في البلاء، وأخبرهم أن من كان بالله صبر يكون مظفرًا على جميع المراد ويكون خليفة الله في أرضه. قال أبو عثمان: من استعان بالله في أموره، وصبر على ما يلحقه في مسالك الاستعانة، أتاه الفرج من الله، قال الله استعينوا بالله واصبروا. قال سهل: أمروا أن يستغيثوا بالله على أمر الله، وأن يصبروا على أدب الله، ولما أمرهم بالاستعانة والصبر شكوا عن عقوبة الأعداء لهم. [العرائس].

إِنَّمَا ظَنَرَهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣٠﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِينَا آيَةٌ مِنْ رَبِّنَا نَحْنُ بِهَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجُرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْذَّمَ
آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٢﴾ [الاعراف: 130-133].

ثم أشار سبحانه إلى إهلاك عدوهم وإنجاز وعده على سبيل التدرج حيث قال: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ أي: بعدما تعلق إرادتنا بأخذهم وإهلاكهم أخذناهم أولاً بالفحط وقلة الأقوات والغلات ﴿وَنَقْصِ مِنَ الشُّمْرَاتِ﴾ التي يتفكهون بها ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ [الاعراف: 130] أي: يتذكرون أيام الرخاء ويتضرعون نحونا لإعادتها ويصدقون نبينا الذي أرسلنا إليهم لدعوتهم إلى توحيدنا.

وهم من شدة قسوتهم وعمهم لا يتعظون بأمثال هذا، بل ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ﴾ الخصب والرخاء وكل ما يسرهم ويفرح نفوسهم ﴿قَالُوا﴾ مغالين: ﴿لَنَا هَذِهِ﴾ أي: لأجلنا وسعادة طالعنا، ونحن مستحقون بها ﴿وَإِنْ تُصِيبْهُمْ﴾ أحياناً ﴿سَيِّئَةٌ﴾ مشقة وعناء ومما يشوشهم ويملهم ﴿يَعْطُوا﴾ أي: يتطيروا ويتشاهوا ﴿بِمُوسَى وَمَنْ﴾ آمن ﴿مَعَهُ﴾ وقالوا: إنما عرض علينا هذا البلاء بشؤم هؤلاء ﴿آلٍ﴾ أي: تنبها أيها المتنبهون المتوجهون نحو الحق في السراء والضراء ﴿إِنَّمَا ظَنَرَهُمْ﴾ أي: ما يتطيرون به ويتشاهمون بسببه ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ وفي قبضة قدرته ومشيته؛ إذ له التصرف بالاستقلال في ملكه والقبض والبسط من عنده ويده، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الاعراف: 131] فيرون الأسباب والوسائل في البين ويسندون الحوادث الكائنة إليها عناداً ومكابرة.

﴿و﴾ من شدة شكيمتهم وغيظهم وكمال قسوتهم وبغضهم ﴿قَالُوا﴾ مستهزئين منهمكين ﴿مَهْمَا تَأْتِينَا بِهِ مِنْ آيَةٍ﴾ أي: أي شيء تحضرنا به ليغلب علينا من محرك الذي سميت آية نازلة ﴿لِنَسْحَرَنَّ بِهَا﴾ فات سريعاً إن استطعت ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الاعراف: 132] أي: متى استبطأت وتأخرت.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ﴾ إمداداً لموسى وانتقاماً لهم ﴿الطُّوفَانَ﴾ أي: الماء الذي طاف حولهم ودخل بيوتهم ووصل إلى تراقيهم، ولم يدخل بيوت بني إسرائيل مع أنها متصلة بيوتهم ولم يضرروا - أي: بنو إسرائيل - من الماء أصلاً، ثم لما تضرروا واضطربوا وكادوا أن يغرقوا، تضرعوا إلى موسى وقالوا: ادع لنا ربك يكشف عنا فتؤمن بك، فدعا

فكشف عنهم ونبت من الزرع والكلأ ما لم يعهدوا، فنكثوا عهدهم، ونسبوا دعاءه إلى السحر ﴿و﴾ بعد أرسلنا عليهم ﴿الْجَرَادَ﴾ فأكلت زروعهم وثمارهم، وأخذت تأكل السقوف والأبواب والثياب، فتضرعوا إلى موسى، فدعا وانكشف وخرج إلى الصحراء مشيراً بعصاه نحو الجراد يمناً ويسرة، ففرقت إلى النواحي والأقطار فنكثوا.

﴿و﴾ أرسلنا بعدها ﴿الْقُمَّلَ﴾ دوداً أصفر من الجراد، قيل: إنها حدثت من الجراد، فأخذت أيضاً تأكل ما بقي من الجراد وتقع في الأطعمة وتتدخل بين أثوابهم فتمص دماءهم، ففرعوا إليه فكشف عنهم، فقالوا: علمنا الآن إنك ساحر عليم ﴿و﴾ بعد ذلك أرسلنا ﴿الضَّفَادِعَ﴾ بحيث لا يخلو مكان منها، وتبث إلى قدورهم وأوانيتهم وأفواههم حين تكلموا، ففرعوا نحوه معاهدين، فخلصوا بدعائه ثم نقضوا ﴿و﴾ بعد ذلك أرسلنا ﴿الدَّمَ﴾ حيث صار المياه كلها عليهم دماء حتى كان القبطي والإسرائيلي يجتمعان على إناء فيصير ما يلي القبطي دماً وما يلي السبطي ماء، ويمص القبطي ماء من فم السبطي فيصير دماً.

وإنما أرسلت عليهم هذه البليات لتكون ﴿آيَاتٍ﴾ أي: دلائل وعلامات دالة على كمال قدرتنا ﴿مُفَصِّلَاتٍ﴾ مبيئات واضحات مميزات بين الهداية والضلالة والحق والباطل والرشد والغي ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عنها مع وضوحها وسطوعها وأعرضوا عن مدلولاتها وأصروا على ما هم عليها ﴿وَكَاثَرُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: 133] مستحقين بالعذاب والعقاب، فلم ينفعهم الآيات والنذر؛ لخبث طبيعتهم ورداءة فطرتهم.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمْوَسَىٰ آدَعُ لَنَا رَبُّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٣٦﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلِّغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٣٧﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِآيَتِنَا كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا حَافِلِينَ ﴿١٣٨﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا أَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَنَمَتْ كُلَّمْتُ رَبِّكَ الْحُسَيْنِ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأعراف: 134-137].

﴿وَكَانُوا﴾ كانوا ﴿لَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾⁽¹⁾ أي: حين وقع ونزل عليهم البلاء والمصيبة ﴿قَالُوا﴾ متضرعين متفزعين: ﴿يَا مُوسَى﴾ الداعي للمخلوق إلى الحق ﴿إِذْغُ لَنَا رَبِّكَ﴾ الذي ربك بأنواع الكرامات ﴿بِمَا عَاهَدَ عِنْدَكَ﴾ من إجابة دعواتك وقبول حاجاتك، والله ﴿لَئِنْ كَشَفْتُ عَنَّْا الرِّجْزَ﴾ بدعائك ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ مصدقين رسالتك ونبوتك ﴿وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف: 134] بلا ممانعة ولا معاطلة.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ﴾ بدعائه ﴿إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْفُؤَةِ﴾ عينه لايمانهم وإرسالهم حتى يتأملوا ويتفكروا فيها ﴿إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ [الأعراف: 135] أي: بعدما وصل وقت الوفاء والإيفاء بالعهود والمواثيق، بادروا إلى النقض والنكث.

ثم لما بالغوا في أمر النقض والنكث وخالفوا أمرنا وكذبوا نبينا ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: أردنا انتقامهم وأخذهم ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ أي: البحر العميق لانهماكهم في بحر الغفلة والطغيان ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة الموصلة إلى توحيدنا الذاتي ﴿وَكَانُوا﴾ بسبب استغراقهم في بحر الغفلة والضلال ﴿عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: 136] محجوبين لا يهتدون بإهداء الرسل والأنبياء.

﴿وَكُلٌّ﴾ بعدما أغرقناهم في يمّ العدم واستأصلناهم عن فضاء الوجود ﴿أَوْزَرْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ﴾ بالقهر والغلبة بقتل الأبناء واستحياء النساء ﴿مَشَارِقِ الْأَرْضِ﴾ المعهود؛ أي: مصر ومشارقها الشام ونواحيها ﴿وَمَغَارِبِهَا﴾ الصعيد ونواحيها ﴿الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ أي: كثرنا فيها الخير والبركة وسعة الأرزاق وطيب العيش من جميع الجهات ﴿وَكُلٌّ﴾ بعدما أورثناهم ما أورثناهم ﴿ثُمَّتْ﴾ أي: كملت وحقت ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ الْخُسْفَى﴾ يا موسى بإنجاز الوعد والنصر والظفر وإيراث الديار والأموال، وغير ذلك ﴿عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: بسبب ما صبروا على أذياتهم المتجاوزة عن الحد ﴿وَوَدَّعَيْنَا﴾ أي: هدمنا وخربنا ﴿مَا كَانَ يَشْعُرُ فِزْعُونَ وَقَوْمُهُ﴾ من الأبنية الرفيعة

(1) في «تفسير الخازن» (85/3): يعني لما نزل بهم العذاب الذي ذكره في الآية المتقدمة هو الطوفان وما بعده وقال سعيد بن جبير الرجز الطاعون وهو العذاب السادس بعد الآيات الخمس التي تقدمت فنزل بهم الطاعون حتى مات منهم في يوم واحد سبعون ألفاً فأمسوا وهم لا يتلافون عن أبي أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «الطاعون رجز أرسل على طائفة من بين إسرائيل أو على من كان قبلكم فإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه».

والقصور المشيدة ﴿وَمَا كَانُوا يَغْرِشُونَ﴾ [الأعراف: 137] عليها متفوقين بطرين كمسرفي زماننا هذا، أحسن الله أحوالهم.

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُومَى أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَيَطِلُّ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأعراف: 138-140].

ثم أشار إلى قبح صنيع بني إسرائيل وخبث طبيعتهم وجهلهم المكون في جبلتهم وسخافة طبعهم، وركاكة فطنتهم؛ تشلية لرسول الله ﷺ وتذكيراً للمؤمنين ليحترزوا عن أمثال ما أتوا به، فقال: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي: عبرناهم سالمين غانمين ﴿الْبَحْرَ﴾ الذي أهلك عدوهم ﴿فَأَتَوْا﴾ أي: مروا في طريقهم ﴿عَلَى قَوْمٍ﴾ من بقية العمالة ﴿يَعْكُفُونَ﴾ يعبدون وقيمون ﴿عَلَى أَصْنَامٍ﴾ تماثيل كانت معبودات ﴿لَهُمْ﴾ من دون الله.

﴿قَالُوا﴾ من قسوة قلوبهم وضعف يقينهم بالله المنزه عن الأشباه والأمثال ﴿يَا مُوسَى﴾ المبعوث المرسل إلينا من الله الواحد الأحد ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا﴾ مثلاً واحداً مشابهاً لله نعبده ونتقرب نحوه ﴿كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ يعبدونها ويتقربون نحوها، ونحن كيف نعبد ونتقرب إلى إله موهوم لا نراه ولا نشاهده؟ وكيف نتضرع إليه ونتوجه نحوه ونستحي منه ونخاف عنه؟ ثم لما تفرس منهم موسى ما تفرس من الحجاب الكثيف والغشاوة الغليظة ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: 138] تستمرون على جهلكم الجبلي، لم يؤثر فيكم الآيات الكبرى والبراهين العظمى، ولم تتفطنوا بالتوحيد الذاتي مع وضوحه في ذاته سيما بعد الإيضاح بالآيات الظاهرة والمعجزات الباهرة.

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ العاكفين الضالين ﴿مُتَّبِعُونَ﴾ مهلك معدوم ﴿مَا هُمْ فِيهِ﴾ من عبادة التماثيل الباطلة العاطلة الهالكة في أنفسها، لا وجود لها أصلاً ﴿وَيَطِلُّ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأعراف: 139] لها ولأجلها من الإطاعة والانقياد؛ إذ هو إشرارك بالله الواجب الوجود، المستقل بالالوهية ما لا وجود له أصلاً.

ثم: ﴿قَالَ﴾ موسى متأسفاً مقررعا: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، الذي ليس كمثل شيء أصلاً ﴿أَبْغِيكُمْ﴾ وأطلب لكم أيها الحمقى العمي، الضالون في تيه الغفلة

﴿إِلَٰهَا﴾ من مصنوعات يعبد له بالحق ويتقرب إليه ﴿وَوَالْحَالُ إِنَّهُ﴾ ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿فَضْلُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 140] إذ لا مظهر له أكمل منكم، فكيف تعبدون المفضول المرذول، وما عرض عليكم أيها الجاهلون لم تعرفوا مرتبتكم الجامعة الكاملة، وعليكم أن تعدوا نعم الله التي أنعمها عليكم لعلكم تنبهون على توحيد المنعم.

﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَقُولُونَ أَبْنَاءُكُمْ وَمِيسَخِيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنٍ مِيقَتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأعراف: 141-142].

﴿وَوَاذْكُرُوا﴾ ﴿إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ حين ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي: يعلمونكم به، وذلك إنهم ﴿يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ حتى لا تستكثروا وتستظهروا بهم ﴿وَوَاذْكُرُوا﴾ أقبح منه أنهم ﴿يَمَسِّخُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ ليلحق العار عليكم بتزويجهن بلا نكاح ﴿وَوَاذْكُرُوا﴾ لكم ﴿فِي ذَلِكُمْ﴾ المذكور من العذاب ﴿بَلَاءٌ﴾ اختبار وابتلاء ﴿مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾⁽¹⁾ [الأعراف: 141] فأنجيناكم منه؛ لتقيموا بذكرنا وتواظبوا بشكر نعمنا وتفتنوا بتوحيدنا واستيلائنا، ومع ذلك لم تنبهوا.

﴿وَوَاذْكُرُوا﴾ إذ ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَى﴾ قبل إهلاكنا فرعون بأن أخلص لنا ﴿ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ من ذي القعدة بأن صام فيها وصلى بعد هلاك عدوه، نزل عليه من عندنا كتاباً نبين له فيه التدابير المتعلقة لأمر معاش بني إسرائيل ومعادهم، ثم لما أهلكنا العدو فذهب موسى إلى ميقاتنا إنجازاً لوعدنا ﴿وَوَاذْكُرُوا﴾ قبل ما تم المدة المذكورة أنكر خلوف فمه فتسوك قالت الملائكة: كنا نشم منك رائحة المسك فأفسدته بالسواك لذلك ﴿وَأَتَمَمْنَاهَا﴾ أي: مدة ميقاتها بأن أمر موسى كفارة لما فوت بالسواك ﴿بِعَشْرِ﴾ أي:

(1) قال في التأويلات: يعني: وكان في استخدام صفات القلب النفس وصفاتها بأن يعمل الصالحات رياء وسمعة؛ لجذب المنافع الدنيوية لحفظ النفس بلا تعظيم من ربكم، فخلصكم منه لثلاث تطلبوا غيره ولا تبعدوا سواه، فلا تركنوا إلى الروحانية ولا المعقولات؛ كي تظفروا بمراتب الوصول ودرجات الوصول.

بعشرة أيام من ذي الحجة ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ وبعدها أتمها فأنزلنا إنجازاً لوعدنا التوراة المبين لهم الأحكام الدنيوية والأخروية، وذلك من أعظم النعم.

﴿وَوَإِذْ أَوْفَىٰ بِوَعْدِهِ﴾ إِذْ ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي﴾ عني ﴿فِي قَوْمِي﴾ واذكر لهم مما يتعلق بأمور معاشهم ومعادهم نيابة عني ﴿وَأَصْلِحْ﴾ بينهم، واحفظ عن زيف أهل الضلال ﴿وَلَا تَتَّبِعْ﴾ أنت ومن معك ﴿سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: 142] الذين يفسدون عقائد ضعفاء الأنام بالتمويهات الباطلة، ومع ذلك اتبعتم السامري من خبث طبيعتكم.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ قَالَ لَنْ تَرِنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ بُتُّ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَمْوَسَّىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَاءً أَتَيْتُكَ وَكُنَ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ [الأعراف: 143-145].

﴿وَوَإِذْ أَوْفَىٰ بِوَعْدِهِ﴾ أي: حين ﴿جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا﴾ المبعوث إليكم لإصلاح حالكم ليناجي معنا ﴿وَوَإِذْ أَوْفَىٰ بِوَعْدِهِ﴾ من غاية اللطف والجود ﴿كَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾⁽¹⁾ أي: كلم معه مرتبته

(1) وفي قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ إشارة إلى تفضله لموسى عليه السلام لما جاء بنعت الشوق والهيمن والعشق والهيجان بخطرات الوالهيمن إلى موعد رب العالمين، وصار موسى عليه السلام فائتاً عن موسى عليه السلام ولم يبق في موسى عليه السلام إرادة موسى عليه السلام بنعت التحير في موقف الفناء على جناب القدم والبقاء، ولم يعلم من تحيره أين هو؟ وأين يطلب؟ وأين يفتر؟ حيث لا حيث علم سبحانه أنه في ذهاب اللهاب، فكلمه بالبداية فطار سر موسى عليه السلام في هواء الهوية، وطار روح موسى عليه السلام في سماء الديمومية، وطار عقل موسى عليه السلام في فقار الأحدية، وطار قلبه في أنوار الوحدانية، وكان كلا شيء الأول كلام التعظيم والهيبة والآخر كلام اللطف والبسط فقنا في الأول وبقي في الثاني، ولولا لطفه وكرمه بكليمه كان يتلاشى في أول خطاب، ولكن من عطفه ورحمته اسمع عجائب كلامه كليمه؛ ليعرفه بكلامه لأن كلامه مفاتيح لكنوز الصفات والذات. ولولا اصطفايته الأزلية لموسى عليه السلام واختياره بالتكليم معه، وأنه لم يخل في طول عمره عن كلامه ووحيه وإلهامه في كل نفس لم يبق في الميقات عند بداية خطابه أثره وبصفه لذة كلامه وحلاوة

التي حصل له وانكشف بها من الله؛ إذ لكل أحد بل لكل ذرة من ذرات المظاهر مرتبة خاصة وظن مخصوص بالنسبة إلى الله؛ لذلك قال سبحانه: «أنا عند ظن عبدي بي»⁽¹⁾.

وأعلى المراتب وأسانها مرتبة النبوة والرسالة على تفاوت طبقاتها، ثم الأمثل فالأمثل، كما انبسط موسى وانكشف من ربه بما انكشف، حيث سمع كلامه من جميع الجوانب بلا واسطة ووسيلة من ملك وغيرها، بلا تلمظ وتقطيع حروف، اضطرب ووله ومن غاية وله وسكره تسارعه إلى انكشاف أجلى منه ﴿قَالَ﴾ بعد سماع كلامه سبحانه: ﴿رَبِّ أَرِنِي﴾ يا ربي، فإنك تنزهت عن المقابلة والمحاذاة والمماثلة والمحاكاة، كما أسمعني كلامك المنزه عن الحروف والأصوات وتقطيع الكلمات ﴿أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ ببصري كما سمعت كلامك بسمعي.

﴿قَالَ﴾ سبحانه: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ يا موسى مادمت في جلاباب تعينك وغشاوة هويتك ﴿وَلَكِنْ﴾ إن أردت أن تعرف استعدادك لرؤيتي ﴿أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ حين تجليت عليه بهويتي المسقطة لهوياتها مطلقاً ﴿فَإِنْ اسْتَفَرَّ﴾ وثبت عندك ﴿مَكَانَهُ﴾ بعدما أتجلى عليه بذاتي، إن بقي على هويته التي هويته هو فيها قبل التجلي ﴿فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ أي: فيمكنك أن تراني لهويتك ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ مذكوكاً مفتشاً متلاشياً كان لم يكن أصلاً حيث اضمحلت جميع تعيناته الباطلة ﴿وَوَ﴾ بعدما رأى الكلیم ما رأى ﴿خَرَّ﴾ أي: سقط ﴿مُوسَى﴾ بعدما نظر نحوه فلم يره ﴿ضَعَقًا﴾ حائرًا هائمًا قلقًا مغشياً، كانه انفصل عن لوازم هويته ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ موسى عن وله وسكره

خطابه يا ليتني لو أن لي لساناً أزلياً من السنة القدم، لأصف به تلك الحلاوة؛ لكن لا يفهم من لم يذوق طعمه، ولما طاب ذقته من لذيذ خطابه سكر من شراب بحر وصاله، هاج شوقه إلى طلب مزيد القرية وكشف المشاهدة؛ فأطلق لسان البسط وخطا خطوات الانبساط وهتك ستر الحياء عن وجه المحبة، وغاص في بحر الجرأة، حتى كان حاله ما أخبر الله سبحانه عند بقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾. غلب عليه مواجيد الوصالية فخرج من مشيمة الأمر وأسقط في مقام العشق والسكر رسوم الأدب فسكره استنطقه بطلب دنو الدنو وشهوده عين العين؛ لأن نسيم برد المشاهدة يحويه بلطائف الوصلة، فلم يبق له قرار ولم يجد من ساكن السكر مفزاً، وكيف يكون السكون للعاشق عن طلب مشاهدة المعشوق في فئانه؟ حيث دنا الشائق من المعشوق. [العرائس].

(1) رواه مسلم (4/2067، رقم 2675)، والترمذي (4/596، رقم 2388) وقال: حسن صحيح، وأحمد (2/445، رقم 9748).

وانكشف من ربه بما انكشف أنه لا يرى الله إلا الله ﴿قَالَ﴾ مستحيًا منيبًا خائفًا مستترها: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أن يحيط بك أحد من مصنوعاتك ﴿تُبْتُ﴾ ورجعت ﴿إِلَيْكَ﴾ يا ربي بما اجترأت من سؤال ما ليس في وسعي وطاقتي ﴿وَوَ﴾ بعدما عرفتك الآن عرفانا أكمل وانكشفت منك يا ربي ما لم أنكشف له من قبل ﴿أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 143] الموقنين بعظمتك وجلالك؛ إذ لا اعتداد لإيماني من قبل.

ثم لما استحي موسى من الله وندم عن سؤاله بلا استئذان منه سبحانه، تغمم وتحزن من اجترائه بما ليس في وسعه، أزال الله سبحانه ما عرض عليه من الندم والخجل حيث ﴿قَالَ﴾ سبحانه مناديا: ﴿يَا مُوسَى﴾ المستخلف من عندي ﴿إِنِّي اضْطَفَيْتُكَ﴾ اخترتك ﴿عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي﴾ أي: بتحميل أحكامي وأوامري وتذكيري حتى توصلها إلى عبادي نيابة عني ﴿وَوَ﴾ خصصتك من بين الرسل ﴿بِكَلَامِي﴾ أي: سماعه بلا كيف ولا حرف، وبلا واسطة ملك وسفير ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾ تفضلاً عليك بقدر وسعك واستعدادك، ولا تبادر إلى سؤال ما لا طاقة لك ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: 144] لنعمه، واصرفها على الوجه الذي أمرناك به من المصارف ووقفناك عليه، ولا تكن من الكافرين لنعمنا، المنصرفين عن أوامرنا وأحكامنا؛ لتفوز منا بالرضا الذي هو أحسن أحوال أرباب الكشف والشهود.

﴿وَكُتِبْنَا﴾ من جملة اصطفتائنا وإنعامنا إياه إنا كتبنا ﴿لَهُ﴾ أي: أثبتنا لأجل تربيته وإرشاده ﴿فِي الْأَلْوَاكِ﴾ أي: ألواح التوراة ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يتعلق بتهديب الظاهر والباطن ﴿مُوعِظَةً﴾ تذكرة وتبياناً يتعظ بها هو ومن تبعه ﴿وَتَفْصِيلاً﴾ توضيحاً وتبييناً متعلقاً ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: لكل حكم من الأحكام المتعلقة بأمور معاشهم ﴿فَخُذْهَا﴾ أي: فقلنا له: خذها أيها الداعي للخلق إلى الحق ﴿بِقُوَّةٍ﴾ عزيمة صادقة وجزم خالص ﴿وَأَمْرُ قَوْمِكَ﴾ أيضاً ﴿يَأْخُذُوا بِأَخْسَنِهَا﴾ يعني: بعزائمها دون رخصها حتى تستعد نفوسهم لأن يفيض عليها من المعارف والحقائق والمكاشفات والمشاهدات التي هي عبارة عن الجنة المأوى والمرتبة العليا عند العارف، ولا تميلوا عنها وعن أحكامها حتى لا يلحقوا بزمرة الفساق المنحطين عن مرتبة الإنسانية ﴿مَسْأَرِكُمْ﴾ في النشأة الأخرى أيها المائلون عن مقتضى الأحكام الإلهية التي هي صراط الله الأقوم ﴿دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: 145] التي هي جهنم الحرمان وجحيم الخذلان.

﴿سَاصِرُفٌ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلاًّ آيَةٍ

لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أُعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ [الاعراف: 146-147].

ثم قال سبحانه: ﴿سَأَصْرِفُ﴾ أي: أميل وأغفل ﴿عَنْ آيَاتِي﴾ الظاهرة في الآفاق والأنفس الدالة على توحيدي واستقلالي في التصرفات الكائنة في الآفاق، القوم ﴿الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾ ويمشون خيلاً ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ ويظلمون فيها ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ لخبث طبيعتهم ورداءة فطرتهم ﴿وَرَوْ﴾ هم من نهاية جهلهم المركوز في جبلتهم ﴿إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ﴾ دالة على الصدق والصواب ﴿لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ عتوا وعنادا ﴿وَرَوْ﴾ بالجملة ﴿إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ﴾ الصدق والصواب ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ لعدم موافقة طباعهم ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ﴾ والضلال ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ لميل نفوسهم نحوه بالطبع، كل ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الصرف والانحراف والأهواء الباطلة والآراء الفاسدة ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ من غاية انهماكهم في الضلال ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على توحيدنا المنزلة على رسلنا ﴿وَكَانُوا﴾ من غاية جهلهم ﴿عَنْهَا﴾ وعن الامثال بها والعمل بمقتضاها والتدبير في معناها ﴿غَافِلِينَ﴾ [الاعراف: 146] غفلة لا تيقظ لهم منها أصلاً، نبهنا بلطفك عن نومة الغافلين.

﴿وَرَوْ﴾ بالجملة: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الظاهرة عن أوصافنا الذاتية في النشأة الأولى ﴿وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ أي: كذبوا برجوع الكل إلينا في النشأة الأخرى، أولئك الأشقياء المردودون هم الذين ﴿حَبِطَتْ أُعْمَالُهُمْ﴾ وضاعت وخسروا فيها في الأولى والأخرى ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ بإحباط الأعمال ﴿إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الاعراف: 147] أي: جزاء ما يفترون ويكتسبون لأنفسهم من تكذيب الآيات والرسل المنبهين لها المبينين لمقتضاها.

﴿وَأَتَّخَذَ قَوْمٌ مِمَّنْ بَعَدَ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خَوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِيَ آبُودَيْبٍ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَيْنَ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَذَرْنَا لِنَعْمُوكُنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَوْفًا قَالَ إِنَّمَا أَتَيْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ

أَعِجِّلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَالْقَى الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥٢﴾ [الأعراف: 148-151].

﴿و﴾ من جملة الأسباب الموجبة لإحباط أعمالهم: اتخاذهم العجل إلهاً، وذلك أنه ﴿اتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَغْدِهِ﴾ أي: من بعد ذهابه إلى الميقات عند ربه ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ التي ورثوها من القبط بتعليم السامري إياهم ﴿عِجْلًا﴾ صورة عجل، وبعدها أذابوا الحلي وصاغوها ألقي السامري عليها ما قبض من تراب حافر فرس جبريل فصارت ﴿جَسَدًا لَهُ خُورٌ﴾^(١) صوت كصوت البقر، فقال السامري: هذا إلهكم وإله موسى فاتخذوها إلهاً، مع أنهم صاغوها بأيديهم من حليهم، يأخذون العجل المصنوع إلهاً

(١) كان القوم في طلب الحق غلب عليهم رعونات الطبيعة من جهة ما شموا بعض روائح القرب، فصار في قلوبهم حلاوة فباشرت تلك الحلاوة قلوبهم، ولم يكن غالباً يفني صفات الإنسانية منها، فاختلط ذلك الحظ بحفظ البشرية، فلما هاجت حلاوة البشرية غابت حلاوة القرب، وعشقه في عشق الإنسانية وحظ البشرية، فطلبت القلوب المطلوب بعد ذلك في كل منظور من الحدثان على صورة المخايل، لأن حظوظ بشرتهم أورثت في قلوبهم الخيالات المختلفة فسقطوا عن رؤية التوحيد وإفراد القدم عن الحدوث، وبقوا في طلب الخيال وبحثه عن كل شيء، فكل متحرك يتحرك لهم قبلوه بالمعبود من قصورهم عن كمال العشق وحقائق التوحيد، فكسا الحق سبحانه العجل كسوة من قهر ربوبيته امتحاناً للقوم، فوقعوا في حسن اللباس واحتشموه، واحتجبوا من رؤية القهر والامتحان، ولو خرجوا من أوائل الالتباس لأحرقوه كما أحرقه موسى ﷺ وكذا حال من لم يبلغ إلى درجة التوحيد، وبقي في رعونة العشق حتى يؤول حلاله إلى حد غار عليه التوحيد والجاه إلى القتل؛ لأنه بقي في رؤية غير الله، والمشارك في التوحيد وجب قتله في طريق المعرفة، ألا ترى أن الله سبحانه أمرهم بقتل أنفسهم بقوله: ﴿فَتَوْبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾. قال سهل: عجل كل إنسان ما أقبل عليه وأعرض به عن الله من أهل وولد، ولا يتخلص من ذلك إلا بعد فناء جميع حظوظه من أسبابه، كما لم يتخلص عبدة العجل من عبادته إلا من بعد قتلهم أنفسهم. وقال الأستاذ: لم يظهر قلوبهم في ابتداء أحوالهم عن توهم الظنون، ولم يتحققوا بخصائص القدم وشروط الحدوث، فعثروا عن أقدام ذكرهم في وهاد المغاليط. ويقال: إن أقواماً رضوا بالعجل أن يكون معبودهم، شمت أسرارهم نسيم التوحيد، هيهات لا ولا من لاحظ جبرائيل أو ميكائيل أو العرش والشرى أو الخلق والورى.

أولئك الهالكون في تيه الغفلة والنسيان.

﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ أي: لم يعلموا ولم يتفطنوا ﴿أَنَّهُ لَا يَكْلَمُهُمْ﴾ أي: المصوغ المصنوع لا يكلمهم بكلام دال على إصلاح حالهم ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ﴾ ويرشدهم ﴿سَبِيلًا﴾ أي: الخير والصواب حتى يستحق للعبودية، بل ﴿اتَّخَذُوهُ﴾ معبودًا ظلمًا وزورًا ﴿وَكَانُوا﴾ في أنفسهم ﴿ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: 148] خارجين مجاوزين عن مقتضى العقل والنقل.

﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أي: ظهر ندمهم عن فعلهم، واشتد فيهم تجهيل نفوسهم وتخطئة عقولهم، ولاح عندهم قبح صنيعهم هذا ﴿وَرَوْا﴾ بالجملة: ﴿رَأَوْا﴾ وعلموا ﴿أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ بهذه الغفلة القبيحة عن مقتضى العقل والنقل ﴿قَالُوا﴾ متضرعين مسترجعين خائفين، خجلين: ﴿لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ بسعة رحمته وجوده ﴿وَرَوْا﴾ لم ﴿يَغْفِرْ لَنَا﴾ ما جئتنا به ولم يتجاوز عنا ما فرطنا فيه ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: 149] خسرانًا عظيمًا في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ﴾ بعدما وقع فيهم ما وقع، وسمع ما سمع صار ﴿غَضَبَانًا﴾ أي: استولى عليه غضبه حمية وغيرة ﴿أَسِفًا﴾ متأسفًا متحزنًا لضلال قومه ﴿قَالَ﴾ مغاضبًا: ﴿بَشْمًا﴾ أي: بش شينًا ﴿خَلَقْتُمُونِي﴾ أي: أبدعتم خلقي ﴿مِنْ بَغْدِي﴾ أي: من بعد ذهابي إلى ربي؛ لأزيد صلاحكم وإصلاحكم أيها المسرفون المفرطون فازددتم الضلال، واستوجبتم النكال ﴿أَعْجَلْتُمْ﴾ أيها الحمقى ﴿أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أي: عذابه وعقابه ﴿وَأَلْقَى﴾ من غضبه ﴿الْأَلْوَاخَ﴾ التي كانت بيده من التوراة فانكسر منها واضمحل ما يتعلق بتفصيل الأحكام، وبقي المواعظ ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ هارون؛ أي: من شعر رأسه؛ من غاية غضبه وغيظه ﴿يَجْرُهُ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى نفسه؛ زجرًا له وتشديدًا عليه كيف لا يحفظهم، ولا ينكر عليهم؛ حتى لا يضلوا ولا يكفروا باتخاذ العجل لها؟ ﴿قَالَ﴾ هارون معتذرًا متحزنًا: ﴿إِبْنُ أُمِّ﴾ أضافه إلى الأم استعطافًا ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَفُّونِي﴾ حين أظهرت الإنكار عليهم، وأردت أن أصرفهم عما هم عليه، وصاروا بآجمعهم أعدائي، بل ﴿وَكَاذُوا يَقُولُنِّي﴾ لشدة غيظهم علي وعداوتهم معي؛ وأنت أيضًا تغضب علي وتجر رأسي، وهم يفرحون ويضحكون بغيظك علي وزجرك لإيائي ﴿فَلَا تُشْمِتْ﴾ ولا تفرح يا أخي ﴿بِئِيَ الْأَعْدَاءِ وَلَا تَجْعَلْنِي﴾ شريكًا ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: 150] الخارجين عن مقتضى العقل والنقل.

ثم لما سمع موسى من هارون ما سمع ندم عن فعله وعن سوء الأدب مع أخيه؛

لأنه أكبر منه سنًا، واسترجع إلى الله حيث ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ عمًا صنعت مع أخي مع أنه بريء مما نسبت إليه ﴿و﴾ اغفر أيضًا ﴿لأخي﴾ فلم يتقاعد ويتقاصر في إنكار هؤلاء المضلين المتخذين لك شريكًا من أدنى مخلوقاتك ﴿وَأَدْخَلْنَا﴾ بفضلك وجودك ﴿فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: 151].

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ (١٥٢) ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٥٣) ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ (١٥٤) ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَلِئِنِّي أَتَّهِلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْإِسْقَاءُ مِنَّا إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ (١٥٥) [الأعراف: 152-155].

قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ المصوغ إلهاً بمجرد الخوار الذي صدر منه ﴿سَيَنَالُهُمْ﴾ وينزل عليهم في النشأة الأخرى ﴿غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يطردهم ويبعدهم عن ساحة عز حضوره ﴿وَذَلَّةٌ﴾ صغار وهوان ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ﴾ في النشأة الأولى والأخرى ﴿نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: 152] المشركين لنا غيرنا من مخلوقاتنا؛ افتراء ومراء.

ثم قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ قصداً وخطأ ﴿ثُمَّ تَابُوا﴾ ورجعوا نحونا نادمين ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي: من بعد توبتهم ﴿و﴾ الحال أنه قد كان توبتهم مقرونة بالإيمان بأن ﴿آمَنُوا﴾ بالله وملائكته وكتبه، ورسله ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي: من بعد ما جاءوا بالتوبة عن ظهر القلب ﴿لَغَفُورٌ﴾ لما صدر عنهم من الذنوب ﴿رَحِيمٌ﴾ [الأعراف: 153] يقبل توبتهم بعدما وفقهم بها.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ﴾ أي: سكن وذهب ﴿عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ الذي استولى عليه إلى حيث ألقى ألواح التوراة، وأخذ شعر أخيه يجره ﴿أَخَذَ الْأَلْوَاحَ﴾ المنكسرة المتلاشية ولأن انكسر ما فيها تفصيل كل شيء ﴿و﴾ قد بقي منها ما ﴿فِي نُسخَتِهَا﴾ أي: ما نسخ ورقم عنها سالمة عن الانكسار ﴿هُدًى﴾ أي: أوامر ونواهي توصلهم إلى توحيد الحق

إِنْ امْتَلَوْا بِهِ وَقَبِلُوا ﴿وَرَحْمَةً﴾ تَنْجِيهِمْ عَنِ الضَّلَالِ إِنْ اتَّصَفُوا بِهَا، كُلُّ ذَلِكَ حَاصِلُ
 ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِزَمَانِهِمْ يَرْجُونَ﴾ [الأعراف: 154] أَي: يَخَافُونَ مِنْ اللَّهِ طَلَبًا لِرِضَاهُ لَا
 لَغَرَضٍ آخَرَ مِنَ الرِّيَاءِ وَالسَّمْعَةِ، بَلْ مِنْ طَلَبِ الْجَنَّةِ وَخَوْفِ الْعَذَابِ أَيْضًا.

﴿وَاذْكُرْ يَا أَكْمَلُ الرُّسُلِ لَمَنْ تَبِعَكَ قِصَّةَ الْكَلِيمِ حِينَ ﴿اخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾⁽¹⁾

(1) الإِشَارَةُ فِيهَا: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى امْتَحَنَ مُوسَى ﷺ بِاخْتِيَارِ قَوْمِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا أِمِيقَاتِنَا﴾ لِيَعْلَمَ أَنَّ الْمُخْتَارَ مِنَ الْخَلْقِ مَنْ اخْتَارَهُ اللَّهُ الَّذِي اخْتَارَهُ الْخَلْقُ، وَإِنَّ اللَّهَ الْاخْتِيَارَ الْحَقِيقِي؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: 68] وَلَيْسَ لِلْخَلْقِ الْاخْتِيَارُ الْحَقِيقِي لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص: 68] ثُمَّ اسْتَخْرَجَ مِنَ الْقَوْمِ الْمُخْتَارَ مَا كَانَ مُوجِبًا لِلرَّجْفَةِ وَالصَّعْقَةِ وَالْمِهَالِكِ وَهُوَ: سُوءُ الْأَدَبِ فِي سُؤَالِ الرَّؤْيَةِ جَهَازًا، وَكَانَ ذَلِكَ مُسْتَوْرًا عَنْ نَظَرِ مُوسَى ﷺ مَتَمَكِّنًا فِي جَبَلَتِهِمْ وَكَانَ اللَّهُ الْمُتَوَلَّى لِلْسَّرَائِرِ، وَحَكَمَ مُوسَى بِظَاهِرِ صَلَاحِيَّتِهِمْ فَأَرَاهُ اللَّهُ تَعَالَى إِنْ الَّذِينَ اخْتَارَهُمْ يَكُونُ مِثْلَكَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ [طه: 13]، وَالَّذِي يَخْتَارُهُ يَكُونُ كَالْقَوْمِ، فَلَمَّا تَحَقَّقَ مُوسَى ﷺ أَنَّ الْمُخْتَارَ مِنْ اخْتَارِهِ اللَّهُ حَكَمَ بِسَفَاةِ الْقَوْمِ، وَأَظْهَرَ الْاسْتِكَانَةَ وَالتَّضَرُّعَ وَالْاعْتِذَارَ وَالتَّوْبَةَ وَالْإِنَابَةَ وَالِاسْتِغْفَارَ وَالِاسْتِرْحَامَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنِّي أَتُهْلِكُهُمْ بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ [الأعراف: 155] وَفِيهِ إِشَارَةٌ أُخْرَى: إِنَّ نَارَ شَوْقِ الرَّؤْيَةِ كَمَا كَانَتْ مَتَمَكِّنَةً فِي قَلْبِ مُوسَى ﷺ بِالْقُوَّةِ، وَإِنَّمَا ظَهَرَتْ بِالْفِعْلِ بَعْدَ أَنْ سَمِعَ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّ مِنْ اصْطِطكَكَ حَجَرِ الْقَلْبِ ظَهَرَتْ شَرَرُ نَارِ الشَّوْقِ فَاشْتَعَلَ مِنْهُ كَبِيرُتُ اللِّسَانِ الصَّدُوقِ وَصَعِدَتْ شَعْلَةُ السُّؤَالِ، ﴿قَالَ رَبِّ أَرْنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: 143]، كَذَلِكَ كَانَتْ نَارُ الشَّوْقِ مَتَمَكِّنَةً فِي أَحْجَارِهِ قُلُوبِ الْعَوَامِ فَبِاصْطِطكَكَ زَنَادِ سَمَاعِ الْكَلَامِ ظَهَرَ شَوْقُ الشَّرِّ فَاشْتَعَلَ مِنْهُ كَبِيرُتُ اللِّسَانِ، وَلَمَّا لَمْ يَكُنِ اللِّسَانُ لِسَانَ النُّبُوَّةِ صَعِدَ مِنْهُ دُخَانُ السُّؤَالِ الْمَوْجِبُ لِلصَّعْقَةِ وَالرَّجْفَةِ؛ وَالسَّرَفِ فِيهِ أَنْ يَعْلَمَ مُوسَى ﷺ وَغَيْرُهُ إِنْ قُلُوبُ الْعِبَادِ مُخْتَصَةٌ بِكَرَامَةِ إِيْلَاحِ الْمَحَبَّةِ فِيهَا، لِئَلَّا يَظُنَّ مُوسَى أَنَّهُ مُخْصَوصٌ بِهِ، وَيَعْتَذِرُهُ غَيْرُهُ عَنْ تِلْكَ الْمَسْأَلَةِ فَإِنَّهَا مِنْ غَلَبَاتِ الشَّوْقِ فَظَهَرَ عِنْدَ اسْتِمَاعِ كَلَامِ الْمَحْبُوبِ؛ وَلِهَذَا قَالَ ﷺ: «مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ بَشَرٍ إِلَّا وَقَلْبُهُ بَيْنَ أَصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ إِنْ شَاءَ أَقَامَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَزَاغَهُ» (1) وَيَبَالُصِبَعَيْنِ يَشِيرُ إِلَى: صِفَاتِ الْجَمَالِ وَالْجَلَالِ، وَلَيْسَ لِغَيْرِ الْإِنْسَانِ قَلْبٌ مُخْصَوصٌ بِهَذِهِ الْكَرَامَةِ، وَإِقَامَةُ الْقَلْبِ فِي أَنْ يَجْعَلَهُ مِرَآةَ صِفَاتِ الْجَمَالِ فَيَكُونُ الْغَالِبُ عَلَيْهِ الشَّوْقُ وَالْمَحَبَّةُ لَطْفًا وَرَحْمَةً، وَإِزَاغَتُهُ فِي أَنْ يَجْعَلَهُ مِرَآةَ صِفَاتِ الْجَلَالِ فَيَكُونُ الْغَالِبُ عَلَيْهِ الْحَرَصُ عَلَى الدُّنْيَا وَالشَّهْوَةِ قَهْرًا وَعِزَّةً، فَالْنِّكَّةُ فِيهِ أَنَّ قَلْبَ مُوسَى ﷺ لَمَّا كَانَ مُخْصَوصًا بِالْإِصْطِفَاءِ لِلرَّسَالَةِ وَالْكَلامِ دُونَ الْقَوْمِ كَانَ سُؤَالَهُ لِلرَّؤْيَةِ شَعْلَةً نَارِ الْمَحَبَّةِ مَقْرُونًا بِحِفْظِ الْأَدَبِ عَلَى بَسَاطَةِ الْقَرَبِ بِقَوْلِهِ: ﴿رَبِّ أَرْنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: 143] قَدَمَ عِزَّةِ الرَّبُّوبِيَّةِ وَأَظْهَرَ ذِلَّةَ الْعِبُودِيَّةِ وَكَانَ سُؤَالُ الْقَوْمِ مِنَ الْقُلُوبِ السَّاهِيَةِ الْإِلَهِيةِ، فَإِنَّ نَارَ الشَّوْقِ تَصَاعَدَتْ بِسُوءِ الْأَدَبِ، فَقَالُوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾

أي: اختار وانتخب موسى بإذن منا من قومه ﴿سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا﴾ فانتخب من كل سبط من الأسباط الاثني عشر ستة نفر فزاد على المبلغ اثنين، فأمر موسى بتقاعدتهما فتخاصموا وتشاجروا في تعيينهما، إلى أن قال موسى: إن أجر من قعد مثل أجر من صعد، بل أكثر فقعد كالب ويوشع، وذهب موسى معهم، فلما دخلوا شعب الجبل وأرادوا الصعود غشيتهم غمام كثيف مظلم، فدخلوا الغمام وخروا سجداً، فسمعوا يتكلم سبحانه مع موسى يأمره وينهاه، وهو يناجي مع ربه.

فلما تم الكلام وانكشف الغمام قالوا بعدما سمعوا كلامه سبحانه مستكشفين عن ذاته: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ظاهرة، منكشفة ذاته لأبصارنا، كما انكشف كلامه لأسماعنا، فأخذتهم الرجفة؛ بسبب سؤالهم هذا ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ الصاعقة النازلة من قهر الله وغضبه؛ لطلبهم ما ليس في وسعهم واستعدادهم ﴿قَالَ﴾ موسى مشتكين إلى الله: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمُ﴾ أي: لو تعلققت مشيئتك لإهلاكهم لم لم تهلكهم ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل إسماعهم كلامك؟ ﴿وَلِيَأَيَّ﴾ أيضاً؛ أي: لم لم تهلكني؛ حتى لا تنسب إلي إهلاكهم عند عوام بني إسرائيل وتشأمهم بي من غاية اضطرابه؟ ﴿أَتَهْلِكُنَا﴾ بالصاعقة الشديدة يا رب ﴿بِمَا فَعَلْ﴾ أي: بسبب سؤال سائل ﴿الشَّفَهَاءِ مِنَّا﴾ صدر عنهم هفوة بلا علم لهم بعظمتك وجلالك وحق قدرك وعزك.

بل ﴿إِنْ هِيَ﴾ أي: هل هي ﴿إِلَّا فِتْنَةٌ﴾ اختبارك، ابتلاؤك إياهم، بأن أسمعت لهم كلامك فأوقعتهم بهذه الفتنة؛ إذ أنت ﴿تُضِلُّ بِهَا﴾ أي: بفتنتك ﴿مَنْ تَشَاءُ﴾ من عبادك، بأن اجترعوا بعد انكشافك عليهم نوع انكشاف إلى انكشاف أعلى منه وأجلى فضلوا وكفروا بلا علم لهم إلى مقتضى استعداداتهم ﴿وَتَهْدِي﴾ بها ﴿مَنْ تَشَاءُ﴾ بأن سكتوا عن السؤال مطلقاً، وفوضوا أمورهم كلها إليك ولا يسألون عنك ما لم يستأذنوا منك، والكل بيدك ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا﴾ ومولي أمورنا، ومولى نعمنا ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾ ما جرى علينا من المعاصي والآثام ﴿وَازْحَمْنَا﴾ برحمتك الواسعة تفضلاً علينا وامتناناً، واعف عنا بفضلك وجودك

[البقرة: 55] قدموا الجحود والإنكار وأخروا طلب الرؤية جهازاً ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ [البقرة:

55] بظلمهم، فشيئان بين صعقة موسى ﷺ وبين صعقة قومه، وإن صعقته كانت صعقة اللطف

مع تجلي الربوبية، وإن صعقتهم كانت صعقة القهر عند إظهار العزة والعظمة، ولما كان موسى

ﷺ في مقام التوحيد ثابتاً كان ينظر بنور الوحدة فيرى الأشياء كلها من عند الله تعالى، فرأى

صفاته القوم وما صدر منهم من آثار صفات قهره فتنة واختباراً لهم. [التأويلات النجمية].

﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [الاعراف: 155] الساترين ذنوب العصاة المسرفين.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هَذَا إِلَيْكَ قَالِ عَذَابُ أَصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ أَمْنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الاعراف: 156-157].

﴿وَكَتَبْنَا لَنَا﴾ يا ربنا ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ لا توقعنا في فتنتك ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أيضًا حسنة توصلنا إلى رزق توحيدك ﴿إِنَّا﴾ بعدما تحققنا بعلو شأنك وسمو برهانك ﴿هَذَا﴾ أي: تبنا ورجعنا ﴿إِلَيْكَ﴾ من أن نسأل منك ما ليس لنا علم به، سيما بعدما يتعلق بذاتك ﴿قَالَ﴾ سبحانه متفردًا برداء العظمة والكبرياء: ﴿عَذَابِي﴾ ونكالي ﴿أَصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ من عصاة عبادي ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ من المطيعين والعاصين وغيرهم ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ وأثبتها حتمًا ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ عن المحارم مطلقًا؛ طلبًا لمرضاتي ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ تطهيرًا لنفوسهم عن الشح المطاع، الموجب للقسوة والغفلة ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا﴾ أي: بجميعها ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ [الاعراف: 156] يوقنون ويمثلون بمقتضاها.

وهم: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ﴾ المرسل بالتوحيد الذاتي ﴿النَّبِيَّ﴾ المتمم لمكارم الأخلاق ﴿الْأُمِّيَّ﴾^(١) المتحقق، المخصوص بالعلم اللدني الملقاة له من ربه بلا واسطة

(١) قال نجم الدين في «التأويلات»: إشارة إلى أن في أمته من يكون مستعدًا لإتباعه في هذه المقامات الثلاثة وهي: مقام الرسالة والنبوة: التي هي شركة بينه وبين الأنبياء والرسل، والمقام الأمي: الذي هو مخصص به ﷺ من بين الأنبياء - عليهم السلام - ومعنى الأمي: إنه كان أم الموجودات وأصلها سمي أمها، كما سميت مكة أم القرى؛ لأنها كانت مبدأ القرى وأصلها، وكما سمي أم الكتاب إما؛ لأنه مبدأ الكتب وأصلها، فأما إتباعه في مقام الرسالة فإنه يأخذ منه ما أتاه الرسول وينتهي عما نهاه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: 7]. فإن الرسالة تتعلق بأحكام الظاهر، والنبوة تتعلق بأحكام الباطن، فللعوام

كسب وتعليم من معلم، وهو ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ﴾ أي: جميع أهل الكتب ﴿مَكْتُوبًا﴾ في كتبهم بعثته ودينه، واسمه وحليته وجميع أوصافه ثابتًا ﴿عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ بأنه إذا بعث ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ التي يحرمونها على نفوسهم ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ التي يحللونها.

﴿و﴾ أيضًا ﴿يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ أي: ثقلهم الذي يترهبون ويتزهدون فيه فوق طاقتهم، كقطع الأغصاء والجوارح التي يخطئون بها، وقطع موضع النجاسة من الثياب وغير ذلك ﴿و﴾ يضع أيضًا ﴿الْأَغْلَالَ﴾ أي: التكاليف الشاقة ﴿الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ﴾ حين ظهوره ودعوته ﴿وَعَزَّزُوهُ﴾ أي: وقروه حق توقيره وتعظيمه ﴿وَنَصَّرُوهُ﴾ تقوية لدينه ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ﴾ أي: القرآن ﴿الَّذِي أَنْزَلَ مَعَهُ﴾ من عند الله تأييدًا له وتصديقًا ﴿أُولَئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله، الموفقون من عنده باتباعه ﴿هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 157] المقصرون من عنده على الفلاح والفوز بالنجاح.

﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لَكُمْ رَبِّي رَسُولٌ إِلَهُ لَيْسَ بِي رَسُولٌ لَكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ

شركة مع الخواص في الانتفاع من الرسالة، وللخواص اختصاص بالانتفاع من النبوة، فمن أدى حقوق أحكام الرسالة في الظاهر يفتح له أحوال النبوة في الباطن، من مقام الأنبياء تنبئة الحق تعالى بحيث يصير صاحب الإشارات والإلهامات الصادقة والرؤيا الصالحة والهواتف الملكية، وربما يؤل حاله إلى أن يكون صاحب المكالمة والمشاهدة والمكاشفة، ولعل ما يصير مأمورًا بدعوة الخلق إلى الحق في المتابعة لا بالاستقلال، كما قال ﷺ: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل» يشير إلى: هذا المقام، وذلك أن المتقدمين من بني إسرائيل في زمن الأنبياء - عليهم السلام - لما وصلوا إلى مقام الأنبياء أعطوا النبوة - والله أعلم - وكانوا مقررين لدين رسولهم، حاكمين بالكتب المنزلة على رسولهم، فكذاك هؤلاء القوم كما قال: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: 37]، وأما أتباعه في مقام أمته ﷺ فكذاك مخصص بأخص الخواص من متابعيه، وهو أنه ﷺ رجع بالسير من مقام بشريته إلى مقام روحانيته الأولى، ثم بجذبات الوحي أنزل في مقام التوحيد، ثم اختطف بأنوار الهوية عن أنانيته إلى مقام الوحدة كما قال: «أنا بشر مثلكم يوحى إلي إنما إلهكم إله واحد» [الكهف: 110] كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم: 8 - 9]، فقاب قوسين عبارة عن: مقام التوحيد، أو أدنى عن مقام الوحدة تفهم - إن شاء الله تعالى - فمن رجع بالسير في متابعته عن مقام البشرية إلى أن بلغ مقام الروحانية، ثم بجذبات النبوة في مقام التوحيد، ثم اختطف بأنوار المتابعة عن أنانيته إلى مقام الوحدة، فقد حظي بمقام أميته ﷺ.

وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْتِي بِحُكْمِيهِ وَأْتِيعُوا أَمْرًا مِمَّا يَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ [الاعراف: 158-159].

﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل الهادي لكل، المرسل إلى كافة البرايا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ المجبولون على الغفلة، الناسون عهد الله وميثاقه، المحتاجون إلى المرشد الهادي يهديكم إلى طريق الرشاد ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ﴾ أرسلني ﴿إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ لأهديكم إلى توحيد الذات واعلموا أيها المجبولون على فطرة التوحيد سبحانه، هو العليم القدير ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ﴾ وما فيها إيجابًا وتصرفًا بالاستقلال والاختيار ﴿وَالْأَرْضِ﴾ وما عليها كذلك وبالجملة: ﴿لَا إِلَهَ﴾ أي: لا متصرف في الشهود، ولا مالك في الوجود ﴿إِلَّا هُوَ﴾ المتصرف المستقل بالالوهية والوجود ﴿يُخَيِّبُ﴾ ويظهر بلطفه من يشاء من مظاهره ﴿وَيُمِيتُ﴾ يقهره من يشاء، ومتى عرفتم أن الملك كله لله والتصرف بيده ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ﴾ المتوحد المتفرد بالالوهية ﴿وَرَسُولِهِ﴾ المنزل من عنده؛ ليبين طريق توحيد.

﴿النَّبِيِّ﴾ المخبر لأحوال النشأة الأولى والأخرى ﴿الْأُمِّيِّ﴾ المكاشف ﴿الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ أي: يوقن ويدعن بتوحيد الله، ويصدق بجميع كلماته المفصلة المنزلة من عنده سبحانه من لدن نفسه القدسية بلا مدرس ومرشد، ومعلم منه ﴿وَإِذَا كَانَ شَأْنُهُ هَذَا﴾ أيها الطالبون لطريق الحق، القاصدون نحو توحيد ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الاعراف: 158] بمتابعته ﷺ ما تقصدون إليه من التوحيد الذاتي.

ثم قال سبحانه تنبيهًا على المؤمنين: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾ أي: من بني إسرائيل ﴿أُمَّةٌ﴾ جماعة مقتصدة ﴿يَهْتَدُونَ﴾ الناس إلى توحيد الحق، ملتبسين ﴿بِالْحَقِّ﴾ الصدق المطابق للواقع؛ لنجاة فطرتهم واستقامة عقيدتهم ﴿وَبِهِ يَهْتَدُونَ﴾ [الاعراف: 159] أي: بسبب الحق يقتصدون لا يفرطون، ولا يفرطون في الأحكام أصلاً.

﴿وَقَطَعْنَاهُمْ أَثْنَ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَنَهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْخَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَسَبًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَرَجَ وَالسَّلَوىٰ كُلُوا مِنْ كَيْبَرَتِ مَا رَزَقْنَاهُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الاعراف: 160].

ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ﴾ أَي: جَزَأْنَاهُمْ وَصَيَّرْنَاهُمْ ﴿اِثْنَيْ عَشَرَ﴾ أَضْرَابًا عَلَى عِدَدِ أَبْنَاءِ يَعْقُوبَ ﴿أَسْبَاطًا﴾ لَهُمْ كُلُّ حِزْبٍ سِبْطٌ لِّوَاحِدٍ مِنْهُمْ؛ لِذَلِكَ صَارُوا ﴿أُمَمًا﴾ مُخْتَلَفَةً، وَإِنْ كَانَ الْكُلُّ مَسْمًى بِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿وَو﴾ مِنْ جُمْلَةٍ نَعْمًا إِيَّاهُمْ: إِنَّا ﴿أَوْحَيْنَا﴾ مِنْ مَقَامِ جُودِنَا ﴿إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾ أَي: حِينَ صَارُوا تَائِهِينَ حَاطِرِينَ، عَطَاشًا هَائِمِينَ ﴿أَنْ اضْرِبْ﴾ يَا مُوسَى ﴿بِعَصَاكَ﴾ الَّتِي اسْتَعَنْتَ بِهَا فِي الْأُمُورِ ﴿الْحَجَرَ﴾ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكَ فَضْرِبْ ﴿فَانْبَجَسَتْ﴾ أَي: خَرَجَتْ وَجَرَتْ عَلَى الْفُورِ بِلَا تَرَاخٍ وَمَهْلَةٍ ﴿مِئَةَ اثْنَا عَشَرَ عَيْنًا﴾ جَارِيَةٌ بِضَرْبَةٍ وَاحِدَةٍ عَلَى عِدَدِ الْأَسْبَاطِ وَالْفُرُقِ؛ بَحِثْ ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ مِنْ كُلِّ سِبْطٍ ﴿مُشْرِبُهُمْ﴾ الْمَخْصُوصُ لَهُمْ؛ لِثَلَا يَقَعُ الْخُصُومَةُ وَالتَّرَاعُ بَيْنَهُمْ.

﴿وَو﴾ مِنْ جُمْلَةٍ نَعْمًا إِيَّاهُمْ: إِنَّا ﴿ظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ﴾ أَي: أَمَرْنَاهُ بِأَنْ يَظِلَّ عَلَيْهِمْ فِي النَّهْرِ؛ لِثَلَا يَتَضَرَّرُوا مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ فَيَسْتَرْيِحُوا ﴿وَو﴾ أَيْضًا ﴿أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنِّ﴾ التَّرَنُّجِينَ لِشَرِبِهِمْ؛ تَبْرِيدًا لِمَزَاجِهِمْ ﴿وَالسَّلْوَى﴾ السَّمَانِي؛ لَغَذَائِهِمْ، وَقَلْنَا لَهُمْ: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ لِتَقْوِيمِ مَزَاجِكُمْ ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ أُولَئِكَ الْخَارِجُونَ عَنْ أَوْامِرِنَا ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: 160] أَي: يَظْلِمُونَ أَنْفُسَهُمْ بِمَا اقْتَرَفُوا مِنَ الْمَعَاصِي وَالْآثَامِ وَيَلْقُونَهَا بِذَلِكَ فِي عَذَابِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَعَ قُبْحِ صَنِيعِهِمْ مَعَنَا رَاعَيْنَاهُمْ وَأَنَعَمْنَا عَلَيْهِمْ.

﴿وَلَا قِيلَ لَهُمْ أَسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَيْكُمْ سَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٣١﴾ ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: 161-162].

﴿وَو﴾ مِنْ جُمْلَةٍ ظَلَمَهُمْ عَلَى نَفْسِهِمْ: إِنَّهُمْ ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ﴾ وَأَوْصِي إِلَيْهِمْ إِصْلَاحًا لِحَالِهِمْ: ﴿أَسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ أَي: بَيْتَ الْمَقْدِسِ ﴿وَكُلُوا مِنْهَا﴾ أَي: مِنْ مَأْكُولَاتِهَا الْمَتَسَعَةِ ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ بِلَا مُوَافَقَةٍ وَمَنْعٍ ﴿وَقُولُوا﴾ مُتَضَرِّعِينَ إِلَيْنَا، مُتَوَجِّهِينَ نَحْنُ: ﴿حِطَّةٌ﴾ أَي: سَوَّلْنَا مِنْكَ يَا مُوَلَانَا: حِطَّ مَا صَدَرَ عَنَّا مِنَ الْآثَامِ وَجَرَى عَلَيْنَا مِنَ الْمَعَاصِي ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ﴾ سُجَّدًا؛ أَي: بَابَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ﴿سُجَّدًا﴾ مُتَذَلِّلِينَ وَاضْعِينَ جَبَاهَكُمْ عَلَى تَرَابِ الْمَذَلَّةِ وَالْهَوَانِ؛ تَأْدِيبًا وَتَعْظِيمًا ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَيْكُمْ﴾ أَي:

جميعها إن امثلتم ما أمرناكم بها، بل ﴿مَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: 161] منكم بالرضوان الأكبر منا.

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أنفسهم بالخروج عما أمرناهم ﴿قَوْلًا﴾ صادقًا صوابًا قلنا لهم؛ لإصلاح حالهم ﴿غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ على لسان رسلنا، بل حرفوها لفظًا ومعنى، كما مر بيانه في سورة البقرة ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ بسبب تبديلهم وتجريفهم ﴿رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: عذابًا نازلًا من جانب السماء ﴿بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: 162] أي: بشؤم خروجهم عن مقتضى أوامرنا وأحكامنا.

﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعْبُدُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْدَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّنَا وَلَعَلَّهُمْ يَنْفِقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ اتَّخَذْنَا لَ الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَدَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف: 163-166].

﴿و﴾ أيضًا من جملة ظلمهم على نفوسهم: حيلهم وخداعهم في نقض العهد، إن شئت أن تعرف ﴿سَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ أي: سل خداعهم وحيلهم عن أهل القرية ﴿الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ قرية منه، قيل: إيلة، وقيل: طبرية الشام، وقيل: مدين، وقت ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾ يتجاوزون عن حدودنا وعهودنا ﴿فِي السَّبْتِ﴾ أي: العهد الذي عهدوا معنا ألا يصطادوا، بل أخلصوا لعبادتنا والتوبة نحونا فابتليناهم بمحافضة العهد ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾ المعهود المحرم ﴿شُرَعًا﴾ متابعة متوالية.

﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ ولا يهدون فيه ﴿لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ﴾ أي: مثل سبتهم، فاحتالوا بتعليم شياطينهم حياضًا وأخاديد، فأرسلوا الماء عليها في يوم السبت، واجتمعت الحيتان فيها واصطادوها يوم الأحد والإثنين؛ ويسبب خداعهم معنا واختلاقهم الحيلة لنقض عهدنا ﴿تَبْلُوهُمْ﴾ ببلاء المسخ ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: 163] بسبب فسقهم وخروجهم عن مقتضى العهد.

﴿و﴾ اذكروا ﴿إِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ﴾ أي: جماعة من صلحائهم، حين قال الصلحاء

للمحتالين المناقضين على وجه العظة والتذكير: لِمَ تحتالون وتخدعون مع الله كأنكم لم تخافوا من بطشه وانتقامه ﴿لِمَ تَعْظُونَ﴾ أيها المذكرون المصلحون ﴿قَوْمًا﴾ منهمكين في الغفلة والضلال ﴿اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي: أراد الله إهلاكهم وتعذيبهم بأشد العذاب بشؤم حيلهم وخداعهم هذا ﴿قَالُوا﴾ أي: المذكرون المصلحون تذكيرنا ونصحنا إياهم: ﴿مَعْذِرَةٌ﴾ منَّا ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ الذي أمرنا بنهي المنكر على وجه المبالغة ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: 164] أي: ونرجو من كرم الله أن ينتهوا بتذكيرنا عما هم عليه من الغفلة.

﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾ وأعرضوا عن ﴿مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي: من العظة والتذكير ﴿أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ متعطين بما ذكروا به ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالإعراض عنه ﴿بِعَذَابٍ يَبِيسٍ﴾ شديد فظيع ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: 165] بسبب فسقهم وإعراضهم.

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ﴾ أي: فالحاصل أنهم لما تكبروا عن امتثال أوامرنا واجتناب نواهينا ﴿قُلْنَا لَهُمْ﴾ على لسان نبيهم داود: ﴿كُونُوا﴾ أيها المتكبرون المنهمكون في الغي والضلال ﴿قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾⁽¹⁾ [الأعراف: 166] صاغرين مهانين؛ لاستكباركم عن أوامر الله وتكليفاته، مع أنكم منجبولون على تحمل التكليف التي هي من أمارات الإنسان فلما امتنعوا أنفسهم عنها مُسخوا عن لوازم الإنسانية بالمرة، ولحقوا بأخس الحيوانات وأرذل الأعاجم.

﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رُءُوبُكَ يَبِيعَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ يَسُوءُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمْ الصَّالِحِينَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾

(1) يشير إلى أن القرية الجسد الحيواني على شاطئ بحر البشرية وأهل قرية الجسد الصفات الإنسانية، وهي على ثلاثة أصناف: منها: صنف روحاني: كصفات الروح. وصنف: ما قلبي: كصفات القلب. وصنف: نفساني: كصفات النفس الأمارة بالسوء، وكل قد نهوا عن صيد حيتان الدواعي البشرية في سبت محارم الله، فصنف أمسك عن الصيد ونهي عنه وهو: الصفات الروحانية، أو صنف أمسك ولم ينه وهو: الصفات القلبية، وصنف يحرمه وهو: الصفات النفسانية. [التاويلات].

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُ الَّذِي أَخْذَ عَلَيْهِمْ يَمِيتُوا الْكِتَابَ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَاللَّذَارِ الْأُخْرَى خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٧﴾ [الأعراف: 167-169].

﴿و﴾ اتل على من تبعك منهم، واذكر لهم يا أكمل الرسل: ويتنبهوا وقت ﴿إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ أي: عزم وكتب على نفسه، كأنه أقسم ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾ وليسلطن ﴿عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ مستمرا دائما ﴿مَنْ يَسْأَلُهُمْ﴾ يعلمهم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ لذلك ما ترى يهوديا في أقطار الأرض إلا عليه مذلة وهوان ﴿إِنْ رَبُّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿تَسْرِعُ الْعِقَابِ﴾ على من أراد عقابه ﴿وَرِثَتْهُ﴾ أيضا ﴿لَتَغْفُورَ﴾ لمن تاب وأخلص ﴿رُحِيمٍ﴾ [الأعراف: 167] يقبل توبته ويمحو معصيته.

﴿و﴾ من غاية إذلالنا إياهم ﴿قَطَعْنَاهُمْ﴾ أي: فرقناهم ﴿فِي الْأَرْضِ أَمْمًا﴾ فرقا فرقا ﴿مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ﴾ المؤمنون بالله ويملائكته وكتبه ورسله ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: الطالحون الخارجون عن مقتضى الإيمان ﴿و﴾ بالجملة: ﴿بَلَوْنَاهُمْ﴾ أي: اختبارناهم وجربناهم ﴿بِالْحَسَنَاتِ﴾ أي: بالعطاء والإنعام ﴿وَالسَّيِّئَاتِ﴾⁽¹⁾ بالأخذ والانتقام ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: 168] رجاء أن يتنبهوا بنا فيرجعوا إلينا.

وبعدما بلوناهم بما بلوناهم ﴿فَخَلَفَ﴾ واستخلف ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: بعد انقراضهم خلق ﴿خَلَفَ﴾ خلفاء منهم يدعون أنهم ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ أي: علم التوراة منهم، مع أنهم ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ أي: الدنيا مولعين بجمعها ﴿وَيَقُولُونَ

(1) قال نجم الدين كبرى: يعني: جعلنا الحسنات وهي: الطاعات والخيرات، والسيئات وهي: المعاصي والمظالم وسيلة الرجوع إلى الحق وقبول فيض النور، فأما الحسنات فبقدم الطاعات والخيرات يتقرب العبد إلى ربه، وأما السيئات فبقدم ترك المعاصي ورد المظالم يتقرب إليه، فقال تعالى: «من تقرب إلى شبرا تقربت إليه فراقا»، وقال: لن يتقرب إلى المتقربون بمثل أداء ما افترضت عليهم، وعن بعض المشايخ أنه قال: خطوات وقد وصلت، وفيه معنى آخر: ويلوناهم بالحسنات؛ ليرجعوا إلينا بالشكر والسيئات؛ ليرجعوا بقدم الصبر، فبقدمي الشكر والصبر يرجع إلينا الأرواح والقلوب، وأيضا: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ﴾ أي: بكثرة الطاعات ورؤيتها والعجب بها، كما كان حال إبليس، ﴿وَالسَّيِّئَاتِ﴾ أي: بالمعاصي ورؤيتها والندامة عليها والتوبة منها والخوف والخشية من ربه، كما كان حال آدم ﷺ فرجع إلى الله تعالى وقال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ [الأعراف: 23].

سَيَغْفِرُ لَنَا) لن ياخذنا الله أبداً باخذها وجمعها ﴿و﴾ من غاية حرصهم ﴿إِنْ يَأْتِيهِمْ عَرْضٌ مِثْلُهُ﴾ بل أضعافه وآلافه ﴿يَأْخُذُوهُ﴾ بلا مبالاة؛ اتكاء على مغفرة الله مع أنهم لم يستغفروا إليه ﴿أَلَمْ يُوْخِذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ﴾ الله المنزل في ﴿الْكِتَابِ﴾ الذي ادعوا علمه ووراثته، بل يؤخذ عليهم الميثاق في كتابهم ﴿أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ﴾ ولا ينسبوا إليه ﴿إِلَّا الْحَقَّ﴾ الصادق الثابت الذي ورد عليه الأمر من عنده.

﴿و﴾ كيف لم يعلموا أخذ الله ميثاقه مع أنهم ﴿دَرَسُوا﴾ من معلمهم ﴿مَا فِيهِ﴾ من الأحكام والمواعظ، والأوامر والنواهي؟ ﴿و﴾ بالجملة: ﴿الذَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ من حطام الدنيا، ويجتنبون عن آثامها ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف: 169] خيريتها، أولئك المنغمسون في قاذورات الدنيا ولذاتها وشهواتها مع أنها لا مدار لها، ولا قرار للذاتها ومشتياتها.

﴿وَالَّذِينَ يُمْسِكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ ﴿١٧٠﴾
وَإِذْ نَفَخْنَا فِيهِمُ رُوحَنَا وَكُنَّا فِيهِمْ ظُلُمًا وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ
أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ
تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾
وَكَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ [الأعراف: 170-174].

﴿وَالَّذِينَ يُمْسِكُونَ﴾ أي: يتمسكون منهم ﴿بِالْكِتَابِ﴾ أي: بما أمرناهم في التوراة ونهينا فيه ﴿و﴾ مع ذلك ﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: داوموا وواظبوا على الميل إلينا على ما بيناهم فيها فعلينا أجرهم ﴿إِنَّا لَا نَضِيعُ﴾ ولا نهمل ﴿أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: 170] الذين يصلحون ظواهرهم بالشرائع والأحكام المنزلة من عندنا، وبواطنهم بالإخلاص والتوحيد المسقط للإضافات مطلقاً.

﴿و﴾ اذكر وقت ﴿إِذْ نَفَخْنَا﴾ أي: قلعنا ﴿الْجِبْلَ﴾ من مكانه، ورفعنا ﴿فَوْقَهُمْ﴾ يظل عليهم ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ يسقف فوق رؤوسهم ﴿وَوَضَّيْنَاهُمْ﴾ من قبح صنيعهم ﴿أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ إلى أن قلنا لهم: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ من مأمورات التوراة ﴿بِقُوَّةٍ﴾ عزيمة صادقة وعزم خالص في أوامره وأحكامه ﴿وَاذْكُرُوا﴾ أي: اتعظوا وتذكروا ﴿مَا فِيهِ﴾ من

الموعظة والتذكيرات ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: 171] تنتهون عن قبائح أعمالكم ورذائل أخلاقكم.

﴿و﴾ نقض العهود والمواثيق، والإعراض عن التكاليف والمشايق ليس مما يختص هؤلاء المعرضين، بل من الديانة القديمة لبني آدم وقت ﴿إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ حين أخرجهم ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ من ظهور آبائهم وأصلابهم على التوالد المتعارف ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: أولادهم بطنًا بعد بطن ﴿وَأَشْهَدُهُمْ﴾ أي: أحضرهم وأطلعهم ﴿عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: أرواحهم الفائضة لهم، المنفوخة فيهم من روحنا، ثم قلنا لهم بعدما شهدوا منشأهم وعلموا أصلهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾⁽¹⁾ الذي أوجدكم وأظهركم من كتم العدم بنفخ روحي فيكم؟

﴿قَالُوا﴾ بالسنة استعداداتهم: ﴿بَلَى شَهِدْنَا﴾ بعدما أشهدتنا أنت ربنا، لا رب لنا سواك، ولا مظهر لنا غيرك فأخذ سبحانه منهم الميثاق حيثئذ، وإنما أخذ منهم الميثاق على هذا؛ كراهة ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ على سبيل المجادلة والمراء حين أخذهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بجرائمهم الصادرة عنهم، المقتضية لنقض العهد: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا﴾ أي: عن ربوبيتك واستقلالك فيها ﴿غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: 172] غير عالمين بها ولا منبهين عليها.

﴿أَوْ تَقُولُوا﴾ لو لم يأخذ سبحانه العهد من جميعهم: ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً﴾ ضعافًا ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ فنقلدهم ﴿أَفَتُهْلِكُنَا﴾ وتأخذنا يا ربنا ﴿بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: 173] أي: بفعل آبائنا الذين أشركوا بك، مع أننا لم نكن حيثئذ من أصحاب الرأي؟ وأخذك بجرائمهم ظلم علينا؛ لذلك أخذ سبحانه الميثاق من

(1) ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾: لأهل اللطف خطاب تعطف، ولأهل القهر خطاب تعظم، خاطب العارفين بتعريف المشاهدات، وخاطب الجاهلين بالقهر والامتحانات، فاعترفوا جميعًا بوحديته طوعًا وكرهًا، طوعًا لأهل العرفان، وكرهًا لأهل العماء والطفيان. ولولا خطابه وانطاقه بالقدرة الأزلية ما قالوا جميعهم بني إلا أهل شهود جماله، فلما خاطبهم فرح أهل محبته، فطاروا بأجنحة توحيده في هواء وحدانيته فرحًا وسرورًا بجماله، وتحير أهل الحجاب، فبهتوا وقاموا في أودية قهره، ثم عظم ميثاقه تعالى معهم بشهوده إيتاهم بقوله: ﴿شَهِدْنَا﴾: أخبر عن كشف نقاب الأزلية عن وجه السرمدية لأهل المعرفة؛ لئلا ينسوه طرفة عين إلى أبد الأبدين، وإن كانوا في حجب الامتحان؛ لأن العاشق يرى معشوقه في رؤية جميع البلاء، وكيف يحتجب المحب عن محبوبه، ومحبته محيطة بجميع وجوده.

جميع بني آدم؛ حتى لا يبقى لهم حجة عليه سبحانه.

﴿وَكَذَلِكَ نَقُصِّلُ﴾ نبيّن ونوضح على وجه الخصوص والعموم ﴿الآيات﴾ الدالة على توحيدنا على اليهود ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: 174] رجاء أن يتنبهوا فيرجعوا نحونا، ومع ذلك لم يرجعوا ولم يتنبهوا أصلاً.

﴿وَآتِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَرَكَهٗ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ [الأعراف: 175-178].

﴿وَ﴾ بعدما بالغوا في الإعراض والإنكار ﴿آتِلْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على اليهود يا أكمل الرسل ﴿نَبَأَ﴾ قصة الشخص ﴿الَّذِي آتَيْنَاهُ﴾ علم ﴿آيَاتِنَا﴾ العظام وأسمائنا الكرام حتى قدر وتمكن بسببها على أي شيء أراد، فأعرض عنا بمتابعة الهوى كهؤلاء الغواة ﴿فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ أي: تجرد وعري من شرائف الآيات انسلاخ الحية من جلدها ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ أي: تابعا ﴿فَكَانَ﴾ بمتابعته ﴿مِنَ الْغَاوِينَ﴾ ⁽¹⁾ [الأعراف: 175] المنهمكين في الضلال بحيث لا يرجى هدايته أصلاً كهؤلاء اليهود.

﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ أي: تعلق مشيئتنا؛ لإهدائه إلى أقصى غايات التوحيد وأعلى مراتبه ﴿لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ أي: بتلك الآيات ﴿وَلَكِنَّهُ﴾ لم يتعلق؛ لذلك ﴿أَخْلَدَ﴾ أي: انخفض ومال ﴿إِلَى الْأَرْضِ﴾ الأنزل الأرذل ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ لينزل عليها، ومع ذلك يتمسك بها وأراد أن يتشبث بمقتضاها ﴿فَمَثَلُهُ﴾ في هذا التمسك والتشبث ﴿كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَلَ عَلَيْهِ﴾ حملاً موجباً؛ لإلهائه واندلاع لسانه ﴿يَلْهَثُ﴾ يخرج لسانه بسببه ﴿أَوْ

(1) ذكر أنه تعالى أعطاه آياته، ولو أعطاه قرب مشاهدته ما انسلاخ منه، لأن من رآه أحبه، ومن أحب استأنس به واستوحش مما سواه، فمن ذلك تبين أنه كان مستدرجاً بوجدان آياته، وتصديق ذلك ما أخبر سبحانه من ارتداده عن دينه، واشتغاله بهواه وعداوة كلمه. البحر المديد (312/2).

تَزَكُّهُ ﴿ خَفِيفًا وَلَمْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ مَا يُوْجِبُ إِلَهَائِهِ ﴾ يُلْهَثُ ﴿ أَيضًا لِرُسُوحِ الدِّيدَنَةِ الْقَيْيْحَةِ فِي ذَاتِهِ ﴾ ذَلِكُ ﴿ الْكَلْبِ بَعِينِهِ ﴾ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ ﴿ يَا أَكْمَلَ الرُّسُلِ لِلْيَهُودِ ﴾ الْقَصَصِ ﴿ الْمَذْكُورَةِ ﴾ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿ [الأعراف: 176] وَيَتَأْمَلُونَ فِيمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْإِعْرَاضِ وَالْإِنْكَارِ فَيَتَّبِعُوهَا عَلَى قَبْحِ صَنِيعِهِمْ، وَسُوءِ فِعَالِهِمْ مَعَ اللَّهِ.

قيل: ذلك هو بلعام بن باعوراء، وقصته مشهورة، وقيل: أمية بن الصلت كان قد قرأ الكتب المنزلة ووجد فيها وصف النبي ﷺ، ورجا أن يكون هو، فلما بعث رسول الله ﷺ حسد وكفر وكان من الغاوين.

﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ﴾ أي: بس المثل مثل القوم ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ وأعرضوا عنها منكبين عليها ﴿وَأَنفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: 177] أي: وما يظلمون بالإعراض والإنكار إلا أنفسهم؛ إذ عاد عليهم وباله ونكاله، ولكن لا يشعرون؛ لفساد قلوبهم وخبث طبيعتهم.

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ﴾ بأن يوفقه على إسماع كلمة الحق ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾ إلى توحيده ﴿وَمَنْ يَضِلَّ﴾ بأن يضلّه عن سبيله بإنكار آياته وتكذيب رسله ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ البعداء والضالون ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: 178] المقصرون على الخسران، لا يرجي ربحهم ومدايتهم أصلاً.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَسْمَاءٌ مَّا كَانَتْ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَشْجَارِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْمُسَمَّى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِمْ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَسْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِالْحَقِّ وَيَذُوبُونَ بِهَا ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الأعراف: 179-182].

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ أوجدنا وأظهرنا ﴿لِجَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان ونيران الإمكان والحرمان ﴿كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ مع أن ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ﴾ هي مناط التكليف ومحال الإيمان والإيقان، وهم ﴿لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ ليحصل لهم مرتبة اليقين العلمي واللدني ﴿وَلَهُمْ﴾ أيضاً ﴿أَعْيُنٌ﴾ هي سبب مشاهدة الآثار والاستدلال منها على الأوصاف الموجدة لها، المرتبة على الذات الإلهي، وهم ﴿لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ ليحصل

لهم مرتبة اليقين العيني.

﴿وَلَهُمْ﴾ أيضًا ﴿أَذَانٌ﴾ وهي آلات؛ لسماع كلمة الحق ووسائل إلى اكتساب الفضائل المنبها على ما في نفوسهم من الأسرار المكنونة الإلهية، وهم ﴿لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ ليحصل لهم الترقى إلى مرتبة اليقين العيني إلى اليقين الحقي، وبالجمله: ﴿أُولَئِكَ﴾ الحمقاء الجهلاء، المتصفون بأوصاف العقلاء العرفاء ﴿كَالْأَنْعَامِ﴾⁽¹⁾ في عدم الشعور والتنبه ﴿بَلْ هُمْ﴾ بسبب تضييع استعداداتهم ﴿أَضَلُّ﴾ من الأنعام بمراتب، وبالجمله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: 179] المقصرون على الغفلة المؤبدة، المتناهون فيها أقصى الغاية.

﴿و﴾ اعلموا أيها الفضلاء العرفاء، الموحدون أن ﴿لِلَّهِ﴾ المتوحد المتفرد في ذاته ﴿الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ التي تترتب عليها الصفات العليا، المترتبة عليها الآثار الحادثة في عالم الكون والفساد، والشهادة والغيب، والنشأة الأولى والأخرى ﴿فَادْعُوهُ﴾ سبحانه أيها الموحدون ﴿بِهَا﴾ وأسندوا الحوادث الكائنة إليها أولاً وبالذات ﴿وَذَرُوا﴾ أي: دعوا واتركوا أقوال ﴿الَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ يميلون ويشركون ﴿فِي أَسْمَائِهِ﴾ بنسبة الحوادث إلى الأسباب أولاً وبالذات، واهجروا مذاهبهم، واعتزلوا عنهم وعن مجالستهم، واعلموا أن كل أحد ﴿سَيُجْزَوْنَ﴾ على مقتضى ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 180] إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

ثم قال سبحانه كلاماً كلياً، جملياً شاملاً على جميع الملل والأديان، فقال: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا﴾ أظهرناهم على صورتنا ﴿أُمَّةً﴾ مستخلفة عناهم ﴿يَهْدُونَ﴾ الناس إلينا، ملتبسين ﴿بِالْحَقِّ﴾ المطابق للواقع ﴿وَبِهِ﴾ أي: بالحق لا بغيره؛ إذ لا غير ﴿يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: 181] يقسطون وينصفون في الأحكام.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على توحيدنا، المتزلة على رسلنا ﴿سَنَسْخَرُهُمْ﴾ سنستضلهم ونستزلهم قليلاً قليلاً إلى أن نهلكهم بالمرّة، وندخلهم في جهنم البعد

(1) في عدم الفقه والإبصار للاعتبار والاستماع للتدبر أو في أن مشاعرهم وقواهم متوجهة إلى أسباب لتعيش مقصورة عليها. والأنعام جمع نعم بالتحريك وقد يسكن عينه وهي الإبل والشاة أو خاص بالإبل كذا في القاموس (بل هم أضل) بل للإضراب وليس إبطالا بل هو انتقال من حكم وهو التشبيه بالأنعام إلى حكم وهو كونهم أضل من الأنعام طريقاً فإنها تدرك ما يمكن لها أن تدرك من المنافع والمضار وتجهد في جلبها ودعها غاية جهدها وهو ليسوا كذلك وهي بمعزل من الخلود وهم يتركون النعيم المقيم ويقدمون على العذاب الخالد وقيل لأنها لا تعرف صاحبها وتذكره وتطيعه وهؤلاء لا يعرفون ربهم ولا يذكرونه ولا يطيعونه.

وسعير الإمكان ﴿مَنْ خِثُّ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 182] ولا يفهمون كيف وقعوا فيها.

﴿وَأَمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ (١٨٣) ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (١٨٤) ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَيْهِمْ هَازِلٌ فَجَاءَهُمْ فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٨٥) ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ هَادٍ إِلَهُ يُنذِرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١٨٦) [الأعراف: 183-186].

﴿وَأَمْلِي لَهُمْ﴾ أي: أمهلهم في بطرهم وغفلتهم إلى حيث ازدادوا على نفوسهم من العتو والفساد الموجب لشدة العذاب؛ مكرًا عليهم وكيدًا ﴿إِنَّ كَيْدِي﴾ أي: مكري وخداعي مع العصاة الفواة، الضالين عن منهج الرشاد ﴿مَتِينٌ﴾ [الأعراف: 183] محكم حيث لم يحسوا به أصلًا إلى أن أخذوا بأسوأ العذاب وأشد النكال.

ثم أشار سبحانه إلى توبيخ المسرفين المسفهين لرسول الله ﷺ عنادًا ومكابرة فقال: أما تستحيون من الله أولئك المسرفون، المفرطون في نسبه الجنون إلى من فاق على جميع العقلاء بالرشد والهداية؟ ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ ويتدبروا أنه ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ﴾ خفة عقل موجب للخط، وما لم يفهموا من كلامه إلى أن صدر عنهم هفوة لا عن قصد، ويسمونه مجنونًا لذلك ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: بل ما هو ﷺ عند التحقيق ﴿إِلَّا نَذِيرٌ﴾ ينذرهم بإذن الله وروحه، ويخوفهم بما يخوفهم الله به ﴿مُبِينٌ﴾ [الأعراف: 184] عظيم الشأن، ظاهر في أمر الإنذار.

رُوي أنه ﷺ صعد الصفا يومًا فدعاهم فخذًا فخذًا، يحذرهم عن بأس الله ويطشه فقال قائلهم: إن صاحبكم لمجنون، فترلت.

ثم قال سبحانه على سبيل التوبيخ والتقريع لهؤلاء المسرفين الذين ينسبون ما هو خارج عن مدركات عقولهم إلى الجنون: أينسبون جميع ما يخالف عقولهم إلى الجنون ويدعون استقلال العقل في العلوم المتعلقة في الأشياء كلها ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا﴾ ويتدبروا كيف تقصر وتدهش عقولهم ﴿فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ﴾ وكيفية نظمها وقصدها وترتيبها وتطبيقها، وما فيها من كواكبها وبروجها وحركاتها وأدوارها، وانقلاباتها صيفًا وشتاءً وربيعًا وخريفًا.

﴿وَالْأَرْضِ﴾ وما عليها من تلالها ووهادها، وأنهارها وبحارها، ورياضها وأزهارها، وغرائبها وبدائعها المكنونة المتكونة فيها، بل ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ﴾ وأظهره من كتم العدم إظهارًا إبداعيًا ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: مما يطلق عليه اسم الشيء،

تدهش وتتحير في ظهور فحول العقلاء إلى حيث لم يفهموا كيفية ظهور ذرة صغيرة من ذرات العالم، فكيف لميتها؛ لذلك قال ﷺ في دعائه: «اللهم أرنا الأشياء كما هي»⁽¹⁾، وقال أيضًا ﷺ: «رب زدني تحيرًا»⁽²⁾.

هذا في الآفاق الخارجة عنهم ﴿و﴾ أمّا في أنفسهم فلم ينظروا ﴿أَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ المقدر المسمى لهم، وهم لا يفهمونه، وإن اجتمع جميع العقلاء في تعيين أجل شخص واحد، ومع قصور نظرهم وسخافة عقلهم ينسبون الجنون إلى المكاشفين المناظرين بنور الله، المطالعين المشاهدين دائماً صفاء وجهه الكريم، وهم الذين اتخلعوا عن لوازم البشرية مطلقاً، وشقوا جلاباب الناسوت رأساً، وخرقوا الحجب المسدولة بالكلية وصاروا ما صاروا، لا إله إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه، وبعدما سقط العقل عن درجة الاعتبار، واضمحل مدركاته عن الاعتماد فلا تعويل إلا على الوحي والإلهام الملقى من عند العليم العلام ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ﴾ من الأحاديث المهمة والموحي به ﴿بَعْدَهُ﴾ أي: بعد نزول القرآن ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 185] أي: المؤمنون المصدقون بالوحي والإلهام.

وبالجملة: ﴿مَنْ يَضِلِ اللَّهُ﴾ الهادي إلى سبيل الرشاد ﴿فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ يرشده فعليك ألا تجتهد يا أكمل الرسل في إهدائهم، ولا تصغي أيضاً إلى أباطيلهم؛ إذ أمرهم مفوض إلى الله ﴿و﴾ كيف تجتهد وتسعى في إيمانهم؛ إذ هم قوم ﴿يَذَرُهُمْ﴾ ويتركهم الله باسمه المضل المذل ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ المتجاوز عن الحد ﴿يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: 186] يترددون ويتحIRON إلى أن يأخذهم بما يأخذهم، دعهم وأباطيلهم فيها يترددون، وفي سكراتهم يعمهون.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْعِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف: 187-188].

(1) ذكره ابن عادل في تفسيره اللباب (13/7).

(2) حديث ذكره السادة الصوفية في كتبهم.

﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عَنِ السَّاعَةِ﴾ التي تخوفهم منها ومن شدة أهوالها وأفزاعها: ﴿أَيَّانَ مُزَامَا﴾ أي: في أي آن من الآتات وزمان من الأزمنة قيامها ووقوعها حتى تؤمن لها قبل قيامها؟ ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل في جوابهم: ﴿إِنَّمَا عَلِمُهَا﴾ أي: علم قيامها ﴿عِنْدَ رَبِّي﴾ مما استأثر بها سبحانه لا يطلع عليها أحد؛ بحيث ﴿لَا يُجَلِّيَهَا﴾ أي: لا يظهرها ولا يكشف أمرها ﴿لِقَوْتِهَا﴾ الذي عَيْن ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إذ هو من الغيوب الخمسة التي خصصها سبحانه لنفسه في قوله: ﴿عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ...﴾⁽¹⁾ [لقمان: 34] وإنما أخفاها وأبهم وقتها، ولم يطلع أحدا عليها؛ لأن الحكمة تقتضي ذلك؛ لأن سبحانه لو أظهر أمرها على عباده ﴿ثَقُلْتُ﴾ عظمت وشقت أمرها، واشتدت هولها ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ على أهلها وساكنيها من الملائكة ﴿وَالْأَرْضِ﴾ عن من أسكنها وعاش عليها من الثقلين.

ولذلك ﴿لَا تَأْتِيكُمْ﴾ الساعة عند إتيانها ﴿إِلَّا بَغْثَةً﴾ فجاءة وعلى غفلة؛ بحيث لا يسع ترك ما كنتم فيه من الأمور، كما أخبر النبي ﷺ: «إن الساعة تهيج بالناس، والرجل يصلح حوضه، والرجل يسقي ماشيته، والرجل يقوم بسلعته في سوقه، والرجل يخفض ميزانه ويرفعه»⁽²⁾، وإنما ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ عن الساعة وقيامها لظنهم فيك؛ لتجابه طينتكم ﴿كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا﴾ خبير لوقتها، عليم بشأنها، مذكر لها دائما، مفتش عن أحوالها وأهوالها مستمرا ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿إِنَّمَا عَلِمُهَا﴾ وقت ظهورها ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ وفي خزانة قدره ولوح قضائه، وعالم سمائه وغيب ذاته ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 187].

(1) الساعة عبارة عن: الساعة التي يظهر الله تعالى فيها آثار الصفة القهارية؛ لإفناء عالم الصورة وهو الملك ظاهر الكون كقوله تعالى: ﴿لَيَمُنَّ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر: 16] حين تطوى السماوات وتبدل الأرض ولا يبقى من الملك وأهله داع ولا مجيب، فيجيب هو سبحانه ويقول: ﴿لِلَّهِ الْوَاجِدُ الْقَهَّارُ﴾ [غافر: 16]، وفي قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ أَيَّانَ مُزَامَا قُلْ إِنَّمَا عَلِمُهَا جِنْدُ رَبِّي لَا يُجَلِّيَهَا لِقَوْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلْتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ دليل على أن للساعة ثقلا من ظهور صفة القهر يضيق منها نطاق طاقة السماوات والأرض، وإنه مما استأثر الله به نفسه، وإنها هي الساعة التي يموت فيها الخلق؛ لأنه يقول ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْثَةً﴾. وفي قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا﴾ [الأعراف: 187] معنى آخر من الإخفاء: وهو المنع منعت علمها عنهم، ومنه في حديث خليفة كتب إلى ابن عباس أن يكتب إلي ويخفي عني؛ أي: يمسك عني بعض ما عنده مما لا أحتمله وعطس رجل عند النبي ﷺ فوق ثلاث فقال له: خفت؛ أي: منعتا أن نشتك بعد الثلاثة، والخفو: المنع. [التأويلات النجمية].

(2) أخرجه الطبري في التفسير (297/13).

[187] أنه سبحانه مختص بها، لا يُطلع أحدا عليها.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لمن ظن بك أنك حفي عليهم بسرائر الأمور ومخفياتها، خبير بحقائق الموجودات وماهياتها؛ اعترافا بالعبودية وسلبا للاختيار عن نفسك: ﴿لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا﴾ أي: جلب نفع ﴿وَلَا ضَرًّا﴾ أي: دفع ضرر ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ إيصاله إلي من النفع والضرر، ولا أعلم الغيب إلا ما أوحى الله إلي ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ﴾ يعني: لو تعلق علمي بعواقب أموري ﴿لَا سَتَكُنُّ مِنَ الْخَيْرِ وَ﴾ صرت إلى حيث ﴿مَا مَسَّنِيَ الشُّوْءُ﴾ أصلا ﴿إِنْ أَنَا﴾ أي: بل ما أنا ﴿إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أنذر بإذن ربي وعلى مقتضى وحيه إياي ﴿وَبَشِيرٌ﴾ أيضا أبشر على مقتضى الوحي ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 188] بوحى الله وإلهامه.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَبْلًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَبْلًا جَعَلَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيْشُرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾ [الأعراف: 189-192].

وكيف لا يكون الغيب مما استأثر الله به؛ إذ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ أي: أوجدكم وأظهركم ﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ هو أبونا آدم، وكان جسدا لا علم له، ثم علمه من الأسماء ما تعلق إرادته به سبحانه بتعليمه إياه، ولم يعلم حقائقها ولميتها؛ إذ هي من المغيبات التي لم يُطلع أحدا عليها ﴿وَ﴾ بعدما أظهرها ﴿جَعَلَ مِنْهَا﴾ أي: خلق من جنسها ﴿زَوْجَهَا﴾ حواء ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ويؤنس معها ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ أوقعها بإلهام الله إياه ﴿حَمَلَتْ﴾ وحملت ﴿حَمْلًا خَفِيًّا﴾ أي: أدركت حملا خفيا في بطنها ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ أي: مضت عليها مدة فأدركت ثقلها، وأخبرت زوجها بثقلها فآلهم بأنه ولد ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ إلى حيث اشتدت عليها حملها، وظهرت عندها أماره حياة ما في بطنها ﴿دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَبْلًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: 189] لنعمه دائما.

﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَابِلًا﴾ بعد صالح، وطالحا بعد طالح، بطنًا بعد بطن ﴿جَعَلًا﴾ موضع الشكر ﴿لَهُ شُرَكَاءَ﴾ بإغواء الشيطان إياهما ﴿فِيمَا آتَاهُمَا﴾ من الأولاد فسميهم بعبد الحارث وعبد العزى، وعبد المناة، بتعليم الشيطان إياهما ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ﴾ الممتزه

بذاته عن الشريك مطلقاً، سيما ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: 190] هما وغيرهما من المشركين.

ثم لما لم يكن شرهما عن قصد واختيار، بل وسوسة الشيطان وإغوائه وبيع سبحانه عليهم؛ لينزجروا، وقال: ﴿أَيْشُرِكُونَ﴾ جمعه باعتبار أولاده معنا ﴿مَا لَا يَخْلُقُ﴾ ويظهر ﴿شَيْئًا﴾ حقيراً قليلاً، بل ﴿وَهُمْ﴾ أي: الأصنام والشركاء في أنفسهم ﴿يُخْلُقُونَ﴾ [الأعراف: 191] مخلوقون كسائر المخلوقات.

﴿و﴾ كيف يشركون الأصنام معنا في الألوهية والربوبية، مع أنهم ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ﴾ أي: لعبدتهم ﴿نُصْرًا﴾ يدفع عنهم الأذى؛ لكونهم جمادات ﴿وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ [الأعراف: 192] أي: بل لا يقدر أن ينصروا أنفسهم بدفع ما يؤذيهم؛ لكونهم جمادات، ويكسرهم، فكيف لغيرهم؟.

﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْتَجِيبُوا سَوَاءً عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُوهُمْ آمَ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ (١٩٣) **إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ قَدْ دَعَوْهُمْ فَلَيْسَ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنَّكُمْ أَنْتُمْ صَادِقِينَ** (١٩٤) **أَلَمْ أَنْزِلْ بِمَشُونِ بِهَا أَنْ لَمْ أَيْدِي بِطُشُونِ بِهَا أَنْ لَمْ أَعَيْنُ بِبُصُورِ بِهَا أَنْ لَمْ أَذَاتُ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظَرُونَ** (١٩٥) [الأعراف: 193-195].

ثم قال سبحانه: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ﴾ أيها المؤمنون، الموحدون المشركين المصيرين على الشرك ﴿إِلَى الْهُدَى﴾ أي: الإسلام الموصل لهم إلى توحيد الحق ﴿لَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ لخبث طبيعتهم، بل ﴿سَوَاءً عَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون المريدون إهداء هؤلاء الغواة ﴿أَدَعَوْتُوهُمْ﴾ أي: دعوتكم إياهم إلى الإسلام ﴿أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ [الأعراف: 193] ساكتون عن الدعوة، بل عن الالتفات إليهم مطلقاً؛ لشدة قساوتهم وغلظة غشاوتهم.

ثم قال سبحانه تبييناً للمشركين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ وتعبدون أيها الضالون المشركون ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ المتفرد بالألوهية، المتوحد بالربوبية ﴿عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ﴾ أي: هم مخلوقون أمثالكم، بل أسوأ حالاً منكم؛ لكونهم جمادات لا شعور لها، كيف سميتوها معبودات تعبدونها كعبادة الله، وإن اعتقدتم إلهيتهم وتأثيرهم ﴿قَدْ دَعَوْهُمْ﴾ بأنزال العذاب على مخالفيكم ﴿فَلَيْسَ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ البتة؛ لكونكم عبادة لهم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأعراف: 194] في أنهم آلهة، فكيف تعتقدون أيها الحمقى إلهية هؤلاء الجمادات التي تنحتونها بأيديكم من الأحجار والأخشاب، والإله منزّه عنها متعال عن

أمثالها، وأيضاً كيف تعتقدون تأثير هؤلاء؟.

﴿الَّهُمَّ أَزْجَلْ يَمْشُونَ بِهَا﴾ فيؤثرون بسببها ﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَصِيرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ والتأثير مسبق بهذه القوى، كيف وشرط التأثير الحياة؟ ولا حياة لهم أصلاً، فكيف يؤثرون؟ وأنتم كيف تثبتون لهم التأثير، أفلا تعقلون؟ ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل تبكيئاً لهم وإلزاماً: ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ الذين تدعون مشاركتهم مع الله واستظهروا منهم ﴿ثُمَّ كِيدُوا﴾ وامكروني بمظاهرتهم؛ بحيث لا أطلع بمكركم أصلاً ﴿فَلَا تُنْظَرُونَ﴾ [الأعراف: 195] تمهلون مدة حتى أتأمل فيه وأطلع عليه، واشتغل لدفعه، وبالجمله: لا أبالي بولاية غير الله ونصره وحفظه إياي بكم وبمكركم، وبمكر شركائكم ومعاونيكم.

﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابُ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ (١٩٦) ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ (١٩٧) ﴿وَلَنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (١٩٨) ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (١٩٩) ﴿وَلَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٠٠) [الأعراف: 196-200].

﴿إِنَّ وَلِيََّ﴾ وحافظي، ومولي جميع أموري ﴿اللَّهُ﴾ القادر القيوم ﴿الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابُ﴾ أي: القرآن؛ لنصري وتأيدي ﴿وَوَ﴾ من غاية لطفه ﴿هُوَ﴾ سبحانه بنفسه ﴿يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: 196] من عباده ويحفظهم من مكر الماكرين، سيما الأنبياء الذين هم في كنف جواره وحوزة حفظه، يحفظهم عن جميع ما يؤذيهم.

﴿وَوَ﴾ كيف لا يحفظهم سبحانه عن تأثير هؤلاء الأصنام ﴿الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ أنتم أيها الضالون ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ سبحانه وتستنصرون منهم، وهم ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ [الأعراف: 197] أي: كيف ينصرونكم، وهم لا ينصرون أنفسهم لعدم استعدادهم وقابلياتهم.

﴿وَوَ﴾ من خبث طبيعتهم وشدة شكيمتهم وضعفيتهم ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ﴾ أيها المؤمنون أولئك المشركين الضالين ﴿إِلَى الْهُدَى﴾ ودين الإسلام ﴿لَا يَسْمَعُوا﴾ ولا يقبلوا مع ورود هذه الدلائل الواضحة ﴿وَتَرَاهُمْ﴾ أيها المعتبر الرائي ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ ويسمعون منك الأدلة القاطعة ﴿وَهُمْ﴾ من خبث طبيعتهم وجهل جبلتهم ﴿لَا يَبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 198] إلى أصنامهم، ولا يتأملون ولا يتفطنون أن ما ينسبون إلى هؤلاء من

الشفاعة والشركة وهم زائل وخيال باطل، وخروج عن مقتضى العقل الفطري، بل يصرون على ما هم عليه، عتوا وعنادا.

وإذا كان حالهم هذا وإصرارهم بهذه الغاية ﴿خُلِدِ الْعَفْوُ﴾ أي: اختر يا أكمل الرسل طريق العفو واللين، واترك الغضب والخشونة على مقتضى شفقة النبوة ﴿وَأَمُرُ بِالْعُرْفِ﴾ أي: ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة القوم الذين تفرست منهم الرشد بنور النبوة والولاية ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199] المصريين، وإن جادلوك جادلهم بالتي هي أحسن، إن ربك أعلم منهم بمن ضل عن سبيله، وهو أعلم أيضًا بالمهتدين منهم.

﴿وَأَمَّا يَتَزَعَّتْ﴾ ينخشك ويشوشك ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ المثير للقوى الغضبية والحمية الجاهلية ﴿تَزَعُّ﴾ وسوسة وإغراء يحملك على الغضب، ويخرجك عن مقتضى ما أمرت به من الحلم والملاينة ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ من غوائله، وارجع إليه من وسوسته وتحايله يكفيك سبحانه مؤنة شروره وإغوائه ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه بذاته ﴿سَمِيعٌ﴾ لمناجاتك ﴿عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: 200] بحاجاتك.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾
 ﴿٢٠١﴾ ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ ﴿٢٠٢﴾ ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتِيَ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَآئِرٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 201-203].

ثم قال سبحانه تذكيرًا لنيه وعظة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ من عبادنا كانوا ﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾ واستولى عليهم ﴿طَائِفٌ﴾ خاطر يطوف حول قلوبهم ﴿مِّنَ﴾ قبل ﴿الشَّيْطَانِ﴾ تذكروا ما أمروا به ونهوا عنه من عند الله ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ بتذكير المأمور والمنهي ﴿مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201] ميزون مواقع الخطأ فيحترزون منها، ويتعوذون إلى الله عما يغريهم إليه.

﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَتَّقُوا﴾ بل هم ﴿إِخْوَانُهُمْ﴾ أي: إخوان الشياطين، إذا مسهم ما مسهم لا يتأني بهم التذكر ولم يوقفوا عليه، بل ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ أي: الشياطين بالتزيين والتحسين، والوسوسة والإغراء إلى أن يوقعوا بهم ﴿فِي الْغَيِّ﴾ والضلال ﴿ثُمَّ﴾ بعد الإيقاع فيه ﴿لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 202] بل يبالغون في إغوائهم وإغرائهم إلى حيث يردونهم بحال لا يرجي لهم الفلاح أصلاً.

﴿وَمِنْ غَايَةِ انْهَمَاكِهِمْ فِي الْغِي وَالضَّلَالِ، وَنَهَايَةِ غِرَاقَتِهِمْ فِيهِ﴾ ﴿إِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ﴾
يا أكمل الرسل ﴿بِآيَةٍ﴾ اقترحوها منك؛ عنادًا ﴿قَالُوا﴾ على سبيل التهكم والاستهزاء:
﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ أي: هل انتخبتها من الأقوال وأنشأتها كسائر منشآتكَ، أعجزت فيها؟
فإن أعجزت لِمَ لَمْ تطلبها من ربك على مقتضى دعواكَ، كما طلبت غيرها منه؟
﴿قُلْ﴾ في جوابهم: ما أنا مختلق، بل رسول مبلغ ﴿إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾ الذي هو مرسلني ومبلغني، ما لي صنع في نظمه وتأليفه، وبلاغته وفصاحته
وإعجازه، بل ﴿هَذَا﴾ أي: القرآن وما فيه من الرموز والإشارات ﴿بِصَائِرٍ﴾ للمستبصرين
المستكشفين بمقتضى الودائع الفطرية التي أودعها الله في قلوب عباده، ومتى انكشفت
بودائعكم علمتم أنها ﴿مِنْ رَبِّكُمْ وَهَدَىٰ﴾ يوصلكم إلى ما جبلتم لأجله، وهو التوحيد
والعرفان ﴿وَرَحْمَةً﴾ نازلة لكم من الله يوقظكم عن نومة الغفلة والنسيان، كل ذلك
﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾⁽¹⁾ [الأعراف: 203] أي: يتحققون بمرتبة اليقين العلمي، ويطلبون
الترقي منها إلى العين والحق.

حققنا بلطفك بحقيقتك، وخلصنا من هويتنا الباطلة بفضلك وجودك يا أرحم

الراحمين.

(1) ذكر سبحانه امتنانه على المؤمنين بما خاطبهم بمجموع كلامه القديم الذي أبنا ما عنده لهم من
مدخور السعادات، وسني الكرامات، وعظيم الدرجات، ودعاهم به إلى أعمال ذكية، وأحوال
شريفة، ومقامات عزيزة، وعرفهم به أسمائه ونعوته وصفاته وذاته تعالى وأفعاله في انتظام
صنائه، وإعلام قدرته ويدلهم به إلى المعرفة كل صفة من صفاته القديمة التي معرفتها معرفة
ذاته تعالى، عرّف نفسه به للعارفين، وفتح بمفاتيحه كنوز غيبه للروحانيين، وكشف قناع الجهل
بأنواره عن قلوب الغافلين والعالمين، وجذب بلطائفه قلوب المحبين والمشتاقين والعاشقين إلى
مشاهدته ووصاله، ورّتب فيه مقامات العبودية ومعارف الربوبية، وذلك صدر منه بسابق علمه
وقديم حكمه، ويهدي به إلى نفسه قلوب المؤمنين به، وذلك منه رحمة كافية للعموم
والخصوص، وكان رحمته سبقت في الأزل لِمَنْ خاطبه سبحانه بنعمة هدايته به إليه، وأي نعمة
أعظم من إنزاله كلامه إلينا الذي يعتقنا من رق النفوسية، ويخلصنا من شهوات الشيطانية،
ويهدينا بنور إلى أنوار الربانية، والحمد لله الذي أمنن علينا بفواتح أنعامه ولطائف إكرامه
واصفافنا بخطابه، وجعل استماعنا محل استماع كلامه وقلوبنا أوطان بيانه وأسرارنا أوعية أنوار
سلطانه وأرواحنا خزائن عرفانه، وعقولنا مشاهد برهانه وأبداننا مساقط شرائعه من قرآنه. قال
بعضهم: أنزل الله كتابًا فيه هدى من الضلالة، ورحمة من العذاب، وفرقانًا بين العدو والولي، لا
يعلم معانيها إلا المؤمنون بمتشابهه والعاملون بأحكامه والتالون به أثناء الليل والنهار فيه الفلاح
لِمَنْ طلب الفلاح، والنجاة لِمَنْ رام النجاة، لا يهلك عليه إلا هالك ولا ينجوا به إلا ناجي.

الله إلى سواء سبيله، وأوصلك إلى مفرك من التوحيد - أن تتوجه إلى فضاء قلبك وتذكر ما فيه من ودائع ربك على وجه الخبرة والاستبصار، مجتنباً عما يشوشك من غبار الأغيار، معيِّراً بمعيار العبرة والاعتبار؛ بحيث لا يلهيك عنها وسوسة الشيطان المكار، وتعزيزات الدنيا الغرار الغدار، لا يتيسر لك هذا إلا بتذكر ما في كتاب الله من المواعظ والأخبار والآثار وامثال ما فيه من الأوامر والنواهي والتدبر في سرائرها، واستكشاف حكمها وأسرارها.

عليك أن تتوسل في استرشادك من كتاب الله إلى أحاديث رسوله ﷺ؛ إذ هي مبيّنة له، كاشفة عن سرائره ومرموزاته، موضحة لما فيه من الغوامض، متكفلة لحفظ عقيدتك عن التزلزل والانحراف عن جادة الهداية، موصلة لك بقدر قابليتك إلى مسالك مسائل التوحيد.

فلك أن تواظب على الاستفادة ناوياً في استفادتك استخلاص نفسك عن ربة التقليد، مستقبلاً في سلوكك إلى مقر المعرفة والتوحيد، مشمراً ذيلك عن جميع ما يعوقك ويمنعك من لوازم بشريتك، ملتجئاً نحو الحق في جميع حالاتك، مستمداً في سلوكك هذا عن أرباب الولاء الوالهيّن في مطالعة جمال الله، الواصلين إلى فضاء وحدته وبقائه منخلعين عن جلاباب ناسوتهم بالكلية؛ بحيث لا يلتفتون إلى مقتضيات بشريتهم أصلاً إلا البدلاء وهم الحائرون الحاضرون الوالهيون، الواصلون الفانون الباقون، المتبدلون المتحققون ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: 62].

ربنا اجعلنا بفضلك من خدامهم وتراب أقدامهم.

سورة الأنفال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الأنفال

لا يخفى على ذوي الألباب المستكشفين عن لب التوحيد، المستترهين عن قشوره إن من لم يترق ممن يتأنى منهم التكليف والسلوك في سبيل التوحيد عن المرتبة الحيوانية، ولم يصل إلى الدرجة العلية الإنسانية، ولم تثمر شجرة وجوده وظهوره ثمرة المعرفة التي غرست لأجلها، وظهرت لحصولها.

وبالجملة: لم يحي حياة العلم اللدني الأزلي الأبدي، بل بقي على الجهل الجبلي الهبولاني، فهو ميت حقيقة، وإن كان حياً صورة، ومع موتهم وجهلهم هذا لا يستشقون سمات الروح ونفحات الحياة الطيبة الطيبة من أنفاس الأنبياء المبعوثين؛ لإحيائهم بنفخ الروح الإلهي والنفس الرحماني المظهر لهوياتهم، المحيي لهياكلهم وماهياتهم من كتم العدم ولم يؤمنوا بهم، ولم يصدقوا فيما جاءوا به من عند ربهم، بل كذبوهم وقتلوا معهم وأصروا على جهلهم، واستكبروا بمقتضى حميتهم الحيوانية الجاهلية، الساقطة المسقطة، الضالة المضلة.

لذلك صار دماؤهم مباحاً، وأموالهم فيثاً عند العارف المتحقق وتوحيد الحق، وهي بالجملة: من جملة أرزاق الله التي لم يصف إلى أحد من خلقه، ولم يقسم بين عباده؛ لذلك أخبر سبحانه نبيه ﷺ كيفية تقسيم أموال الفيء والغنيمة مخاطباً له على وجه التعليم، فقال متيمناً: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المقسم لأرزاق عباده على العمل القويم ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لهم بإصلاح ما ظهر بينهم من المخالفة والنزاع بإغواء الشيطان الرجيم ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم يوفقهم على ازدياد الإيمان والتصديق، سيما بأحكام كتابه الكريم.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا فَاَتَ يَنْصَحُكُمْ

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ① إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَّت

قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ② الَّذِينَ يُقِيمُونَ

الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٢﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ
وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ [الأنفال: 1-4].

﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ أي: أصحابك لك أيها الرسول، المبعوث على الخلق العظيم ﴿عَنِ
الْأَنْفَالِ﴾⁽¹⁾ أي: عن قسمة الغنائم، عبّر سبحانه عنها بالنفل، وهو في اللغة: عطية زائدة
اشتراطها الإمام لمن اقتحم على محل الخطر زيادة على سهمه؛ لأنها زائدة على سهام
الغزاة المجاهدين، المقاتلين في سبيل الله؛ لإعلاء كلمة الحق طلباً لمرضاته، وما
يترتب عليه من أموال الدنيا بمنزلة النفل والعطية الزائدة على سهامهم التي هي المثوبة
العظمى والمرتبة العليا عند الله.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل: ﴿الْأَنْفَالُ﴾ كلها ﴿لِلَّهِ﴾ ومن مال الله، وقسمتها
مفوض إليه سبحانه ﴿وَوُكِّلَ﴾ إلى ﴿الرُّسُولِ﴾ المستخلف منه، النائب عنه بإذنه ﴿فَاتَّقُوا
اللَّهَ﴾ أيها المؤمنون عن مخالفة أمره وأمر رسوله ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي: الحالة
والعداوة التي وقعت بينكم بوسوسة الشيطان وإغوائه ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي:
انقادوا أمرهما ولا تتجاوزوا عن حكمهما ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: 1] موقنين
بتوحيد الله وتصديق رسوله ﷺ.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ الكاملون في الإيمان، المتحققون بمرتبة اليقين والعرفان،
المصدقون بالرسول المبين لهم طريق التوحيد، هم ﴿الَّذِينَ إِذَا دُكِرَ اللَّهُ﴾ الواحد الأحد،
المتفرد بالالوهية، المتوحد بالربوبية ﴿وَجِلَتْ﴾ أي: خافت وترهبت، واضطربت
﴿قُلُوبُهُمْ﴾ من سطوة سلطنة عظمت وجلاله ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ﴾ الدالة على
بسطته وكبريائه، النازلة على رسله وأنبيائه ﴿زَادَتْهُمْ﴾ تلك الآيات ﴿إِيمَانًا﴾ وتصديقاً
وإذعاناً، و يقيناً و عياناً و عرفاناً ﴿وَوُكِّلَ﴾ لهم من كمال يقينهم و عرفانهم ﴿عَلَى رَبِّهِمْ﴾ لا
على غيره من الأسباب الناقصة ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: 2] أي: يتوصلون ويستعينون في

(1) الأنفال هنا ما آل إلى المسلمين من أموال المشركين، وكان سؤالهم عن حكمها، فقال الله تعالى: قُلْ لَهُمْ إِنَّهَا لِلَّهِ مِلْكًا، ولرسوله ﷺ لِحُكْمٍ فيها بما يقضى به أمراً وشرعاً. قوله جل ذكره: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي: أجيئوا لأمر الله، ولا تطيعوا ذوا عي مناكم والحكم بمقتضى أحوالهم، وابتغوا لإثارة رضاء الحق على مراد النفس، وأصلحوا ذات بينكم، وذلك بالانسلاخ عن شح النفس، وإثارة حق الغير على مالكم من النصيب والحظ، وتنقية القلوب عن خبايا الحسد والحقد.

جميع الأمور لتحقيقهم وتمكنهم في مقام التوحيد المسقط للالتفات إلى غير الحق مطلقاً.

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أي: يديمون الميل إلى الله في جميع حالاتهم مراقبين لفيضه وجذب من جانبه ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ من كد يمينهم ﴿يُنْفِقُونَ﴾ [الأنفال: 3] في سبيله؛ طلباً لمرضاته.

﴿أُولَئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله ﴿هُمْ الْمُؤْمِنُونَ﴾ المتحققون بمرتبة الإذعان والإيقان ﴿حَقًّا﴾ ثابتاً مستقراً بلا اضطراب وتزلزل ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ﴾ عظيمة ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ من درجات العلم والعين والحق ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ ستر لأنانيتهم وتعيناتهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: 4] معنوي بدلها، يرزقون بها فرحين عناية من الله؛ لأن من توجه نحو الحق، ومال إلى جانبه ميلاً مسقطاً للتوجه إلى الغير مطلقاً، وخرج عن لوازم الإمكان إلى حيث ينفق ويبذل جميع ما نسب إليه من أموال الدنيا إعراضاً عنها، مخرجاً محبتها من قلبها أعطى له سبحانه بدل إخلاصه من الرزق المعنوي ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴿٥﴾﴾
يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ
إِذْ خَلَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهُمَا لَكُمْ وَقَدُودٌ أَنَّ خَيْرَ ذَاتِ الشُّوكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ
يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَائِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾﴾ لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيَبْطُلَ الْبَطْلُ وَلَوْ كَرِهَ
الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾ [الأنفال: 5-8].

﴿كَمَا﴾ أعطاك يا أكمل الرسل حين ﴿أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ﴾ حين أخبرك جبريل ﷺ من إقبال غير مكة من قبل الشام، وفيها أبو سفيان ملتبساً ﴿بِالْحَقِّ﴾ المطابق للواقع ﴿وَالْحَالِ﴾ ﴿إِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ [الأنفال: 5] خروجك.

ومن كمال كراحتهم ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ﴾ الصريح الذي هو الجهاد، سيما ﴿بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ وظهر لك بوحى الله إياك، ووعد النصر والظفر لك، وهم من غاية رعبهم حين خروجهم ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ﴾ مثل البهائم إلى المسلخ ﴿وَهُمْ﴾ حيثئذ ﴿يَنْظُرُونَ﴾ [الأنفال: 6] حيارى خائفين مرعوبين، مع أنهم كتب لهم الظفر

والغنيمة، والغلبة من عند ربهم.

وذلك أن عير قريش أقبلت من الشام، وفيهم أبو سفيان مع أربعين من الفرسان ومعهم تجارة عظيمة، فأخبر جبريل رسول الله ﷺ، فأخبر به الرسول للمؤمنين فخرجوا مسرعين بلا عدة استقلالاً لهم وميلاً إلى أموالهم، فلما خرجوا من المدينة بلغ خبر خروجهم إلى العير فانصرفوا إلى الطريق، وأرسلوا خبرهم إلى مكة فاستغاثوا، فخرج أبو جهل مع جمع كثير فمضوا إلى بدر، وكان رسول الله ﷺ بوادي دفران، فنزل جبريل عليه السلام ثانياً يعده إحدى الطائفتين؛ أي: العدو والعير، فاستشار رسول الله ﷺ أصحابه، وإن كان رأيه إلى المقاتلة مع العدو.

فقال بعضهم: هلاً ذكرت لنا القتال؛ حتى نتأهب له، إننا خرجنا للعير، فقال ﷺ: «إن العير مضت على ساحل البحر، وهذا أبو جهل قد أقبل»⁽¹⁾، فقالوا كارهين مرعوبين خائفين: يا رسول الله ﷺ عليك بالعير، ودع العدو فغضب ﷺ، فقال المقداد بن عمرو: يا رسول الله امض بما أمرك الله، فإننا معك حيثما أحببت، لا نقول لك ما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا؛ إننا هاهنا قاعدون، ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا، إننا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد - مدينة بأقصى الحبيشة - مضينا معك بلا تكاسل ومخالفة، فدعا ﷺ له خيراً.

ثم قال ﷺ: اجتمعوا علي أيها الناس، يريد الأنصار القائلين حين بايعوه على العقبة أنهم براء من ذمامه حتى يصل إلى ديارهم، فتخوف ألا يروا نصرته إلا على عدوهم بالمدينة، فقال له سعد بن معاذ: لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل، قال: قد آمنا لك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطينا على ذلك عهداً وميثاقاً على السمع والطاعة لما أمرت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت على البحر لخضنا معك بلا تخلف أتجسب أننا إذا لاقينا العدو نتكاسل ونتساهل، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك.

ففرح رسول الله ﷺ، ونشطه قول سعد، ثم قال: «سيروا على بركة الله، وأبشروا فإن الله سبحانه وعدني الآن إحدى الطائفتين، والله لكأنني الآن أنظر إلى مصارع القوم»⁽²⁾.

(1) رواه ابن أبي خاتم في التفسير (10366).

(2) رواه الطبراني في «الكبير» (488/8).

﴿وَذَكَرُوا أَيْهَا الْمُؤْمِنُونَ وَقْتُ ﴿إِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ﴾ بِالْوَحْيِ عَلَى رَسُولِهِ ﴿وَإِخْدَى الطَّائِفَتَيْنِ﴾ مَغْلُوبَةٌ مَقْهُورَةٌ ﴿أَنَّهَا لَكُمْ وَ﴾ أَنْتُمْ حِينَ سَمِعْتُمْ الْوَحْيَ ﴿تَوَدُّونَ﴾ وَتَحِبُّونَ ﴿أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ﴾ أَي: الْعَبِيرِ ﴿تَكُونُ لَكُمْ﴾⁽¹⁾ لِأَنَّ أَهْلَهَا قَلِيلٌ، وَمَالُهَا كَثِيرٌ لَا حَتَّاجَ لَكُمْ إِلَى الْمَقَاتِلَةِ مَعَهُمْ؛ لَقَلَّتْهُمْ وَعَدَمَ شُرَكَتِهِمْ ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ﴾ بِمَقْتَضَى قَهْرِهِ وَقُدْرَتِهِ ﴿أَنْ يُحَقِّقَ﴾ أَي: يَثْبِتَ وَيُظْهِرَ ﴿الْحَقَّ﴾ أَي: التَّوْحِيدَ الْمَطَابِقَ لِلْوَاقِعِ الَّذِي هُوَ الْإِسْلَامُ ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ الْمَلَقَاةَ مِنْ عِنْدِهِ لِمَلَائِكَتِهِ حِينَ أَمَرَهُمْ بِإِمْدَادِ حَبِيْبِهِ الَّذِي بَعَثَهُ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ تَوْحِيدِهِ ﴿وَيَقْطَعُ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: 7] أَي: يَسْتَأْصِلُهُمْ إِلَى حَيْثُ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَخْلِفُهُمْ، كُلُّ ذَلِكَ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ وَامْتِنَانٌ عَلَى رَسُولِهِ.

﴿لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ﴾ أَي: الْإِسْلَامَ الْمَحَقَّقَ الْمَطَابِقَ لِمَا عِنْدَ اللَّهِ ﴿وَيَبْطُلُ الْبَاطِلُ﴾ الْمَخَالَفُ لِلدِّينِ الْإِسْلَامِ ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: 8] الْمَصْرُونَ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ قَبْلَ نَزُولِ الْإِسْلَامِ، مَا أَرَادَ اللَّهُ مِنْ تَحْقِيقِ الْحَقِّ وَتَمْكِينِهِ، وَإِبْطَالِ الْبَاطِلِ وَتَخْذِيلِهِ.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾⁽¹⁾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرًا وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ⁽²⁾ إِذْ يُغَشِّبُكُمُ النَّعَاسَ أَمْنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْلَامَ⁽³⁾ [الأنفال: 9-11].

اذْكُرُوا أَيْهَا الْمُؤْمِنُونَ فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ حِينَ اقْتَحَمَ الْعَدُوُّ وَأَنْتُمْ عِزْلٌ قَلَائِلُ، وَهُمْ مُتَكَثِرُونَ ذُو عَدَدٍ وَعَدَدٌ ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ رَبُّكُمْ مَغِيثًا قَائِلًا لَكُمْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّكُمْ: ﴿أَنِّي﴾ بِحَوْلِي وَقُوَّتِي ﴿مُمِدُّكُمْ﴾ أَي: مُعِينُكُمْ وَمُغْنِيكُمْ ﴿بِآلِفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: 9] عَلَى عَدَدِكُمْ، يَضْرِبُونَهُمْ مِنْ وَرَائِهِمْ، وَأَنْتُمْ

(1) أَي: ذَاتِ الْحَرْبِ (تَكُونُ لَكُمْ) وَهِيَ الْعَبِيرُ، فَإِنَّهَا لَمْ يَكُنْ فِيهَا إِلَّا أَرْبَعُونَ رَجُلًا، وَتَكْرَهُونَ مَلَاقَاةَ النَّفِيرِ لِكَثْرَةِ عَدَدِهِمْ وَغُدْدِهِمْ، (وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ) أَي: يَظْهِرُ الْحَقَّ، وَهُوَ الْإِسْلَامُ، يَقْتُلُ الْكَافِرَ وَهَلاَكُهُمْ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ (بِكَلِمَاتِهِ) أَي: بِإِظْهَارِ كَلِمَاتِهِ الْعَلِيَا، أَوْ بِكَلِمَاتِهِ الَّتِي أَوْحَى بِهَا فِي هَذِهِ الْحَالِ، أَوْ بِأَوَامِرِهِ لِلْمَلَائِكَةِ بِالْإِمْدَادِ، أَوْ بِتَفْوِذِ كَلِمَاتِهِ الصَّادِقَةِ بِهَلاَكِهِمْ، (وَيَقْطَعُ دَابِرَ الْكَافِرِينَ) أَي: يَسْتَأْصِلُهُمْ وَيَقْطَعُ شَوْكَتَهُمْ. انْظُرْ [البحر المديد (2/336)].

من قدامهم.

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ أي: إمدادكم أيها المؤمنون بملائكة السماء ﴿إِلَّا بُشْرَى﴾ لكم بفضلكم وكرامتكم عليهم ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ في جميع ما وعدكم الله به ﴿وَو﴾ اعلموا أيها المتحققون بمقام التوحيد ﴿وَمَا النُّصْرُ﴾ والغلبة والظفر ﴿إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ القادر المقتدر على كل ما أراد واختار ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والجلال ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب على جميع مقدوراته ومراداته ﴿حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: 10] متقن في جميع أحكامه ومأموراته يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

اذكروا أيها المؤمنون فضل الله عليكم وامتنانه ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمْ﴾ ويغلب عليكم بلطفه ﴿الثَّغَامَ﴾ أي: النوم؛ إزالة لرعبكم حين كنتم في سهر من خوف العدو؛ لتكون ﴿أَمْنَةً﴾ نازلة ﴿مِنَّةً﴾ لتستريحوا وتطمئن قلوبكم ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ حين كنتم مجنين باغواء الشيطان وعدوكم على الماء، والشيطان يعيركم بجنابتكم، ويومس عليكم بأنكم تدعون الإمامة والولاية؟ كيف تخرجون غداً تجاه العدو وأنتم مجنين ودعواكم أن القتال والجهاد من أشرف العبادات؟ وبأمثال هذه الهذيان يوقع بينكم الفتنة؛ لتقعوا عن القتال، وأنتم أيضاً مضطربون بما معكم عليه من الجنابة، أنزل الله عليكم المطر ﴿لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ أي: بالماء، أبدانكم عن الجنابة الصورية، كما طهر قلوبكم بماء العلم اللدني ورشحات التوحيد من الجنابة المعنوية التي هي الكفر والنفاق.

﴿و﴾ بالجملة: ﴿يُذْهِبْ عَنْكُمْ﴾ بإنزال المطر ﴿رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ أي: وسوسته وإيقاعه، وتخويفه من العطش وغيرها ﴿وَلِيُزِيلَ عَنْ قُلُوبِكُمْ﴾ بإنزاله، إنه سبحانه يعين عليكم وينصركم حين اضطراركم؛ ليزداد وثوقكم به وينصره، وعونه وإنجاز وعده ﴿وَيُخَيِّتْ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: 11] أي: بهذا الربط، أقدامكم على جادة التوحيد والتوكل إلى الله، والتفويض نحوه في جميع الأمور.

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَلِكَ بِمَا كَفَرْتُمْ فَنُفِقُوا وَتَرَكْتُمْ أَقْدَامَكُمْ وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ ﴿١٤﴾ [الأنفال: 12-14].

اذكر يا أكمل الرسل، وذكر من تبعك فضل الله عليك وعلى أصحابك وقت ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ المأمورين؛ لعونك وإمدادك حين ازداد رعب أصحابك من اقتحام القتال، قائلاً لهم: ﴿أَنِّي﴾ بكمال حولي وقوتي ﴿مَعَكُمْ﴾ حاضر عندكم، شهيد عليكم ﴿فَتَبَيَّنُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في مكانهم تجاه العدو حتى يستدبروا؛ إذ ﴿سَأَلْتَنِي﴾ من كمال نصري وعوني للمؤمنين ﴿فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: قلوب العدو ﴿الرَّغْبَ﴾ من المؤمنين فاستكثروهم واستدبروا منهم، ومتى استدبر العدو ﴿فَاضْرِبُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿فَوْقَ الْأَغْنَاقِ﴾ أي: أعاليها ﴿وَوَ﴾ إن وضعوا جنتهم وأيديهم على أعناقهم؛ حفظاً لها ﴿اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: 12] أي: جميع أصابعهم؛ لئلا يبقى لهم استعداد للقتال أصلاً؛ حتى لا يكرروا عليكم.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: انهزامهم وانخذالهم ﴿بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: خاصموا وخالفوا مع الله ورسوله ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ﴾ القادر المقتدر على كل ما أراد من القهر والانتقام ﴿وَوَ﴾ يخاصم ﴿رَسُولَهُ﴾ المؤيد من عنده؛ لتبليغ الأحكام استحق أنواع العقوبة والنكال من عنده ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والجلال ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: 13] صعب الانتقام سريع الحساب على من خالف أمره وعادى رسوله.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: أنواع العقوبة والعقاب نازل على من تعدى حدود الله وكذب رسوله ﴿فَذُوقُوا﴾ أيها المخالفون المصرون ما أعد لكم من العذاب ﴿وَوَ﴾ اعلموا ﴿أَنَّ لِلْكَافِرِينَ﴾ المصيرين المتمردين ﴿عَذَابَ النَّارِ﴾ [الأنفال: 14] يخلدون فيها أبد الأبد.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ۝١٥﴾
 وَمَنْ يُولِهِمْ يُوزِدْ دُبْرَهُمْ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَكَءٌ بِخَصْبٍ مِنْ
 اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبَلَسَ الْمَصِيرُ ۝١٦ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ
 رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنَاتٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٧
 ذَالِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ۝١٨﴾ [الأنفال: 15-18].

ثم قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم: إعلاء كلمة الحق وانتصار دينه، فعليكم ﴿إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أن تقاتلوا معهم، وإن كانوا ﴿زَحَفًا﴾

متكثرين بأضعافكم ﴿فَلَا تُؤْلَوْهُمُ الْأَذْبَارُ﴾⁽¹⁾ [الأنفال: 15] أي: لا ترجعوا منهم حين الالتقاء إلى أديباركم خائفين منهزمين حال كونهم بأضعافكم، فكيف إن كانوا مثلكم أو أقل منكم ١٩.

﴿وَمَنْ يُؤْلِهِمْ مِنْكُمْ﴾ [يَوْمَئِذٍ] إلى يوم ملاقات العدو ﴿دُبْرُهُ﴾ أي: مدبراً خائفاً ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا﴾ أي: قاصداً بالاستدبار التحيز واللاحق. ﴿إِلَى فِتْنَةٍ﴾ ثابتة من المؤمنين؛ ليستعين بهم ﴿فَقَدْ بَاءَ﴾ أي: رجع ولحق ﴿بِغَضَبٍ﴾ نازل ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ لمخالفة أمره وحكمه، وحكمته ﴿وَمَا وَاهُ﴾ في النشأة الأخرى ﴿جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان ﴿وَيُنْسِ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: 16] مرجعه ومصيره.

وعليكم أيها المؤمنون ألا تنسبوا القتل، بل جميع ما صدر منكم إلى نفوسكم مفاخرة ومباهاة، بل إن قتلتموهم صورة ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ حقيقة ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ لأن جميع الأمور الكائنة في الآفاق صادرة من الله أولاً وبالذات، ومن آثار أوصافه وأسمائه ﴿وَوَالْجَمَلَةُ﴾ ﴿مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ أيها النبي المأمور برمي الحصا حين هجوم الأعداء على أصحابك ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ أي: أوجد سبحانه الرمي بيدك التي هي ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: 10]؛ لذلك ترتب على رميك انهزامهم الذي يستبعدونه أنتم وهؤلاء أيضاً.

﴿وَوَالْجَمَلَةُ﴾ إنما رماهم سبحانه بما رمى ﴿لِيُبْلِيَ﴾ ويجرب ﴿الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾ أي: بنعمة الغنيمة والظفر، هل يرجعون ويواظبون على شكر نعمه أم لا؟ ﴿إِنَّ اللَّهَ الْمُصْلِحُ لِأَحْوَالِ عِبَادِهِ﴾ ﴿مَسْمُوعٌ﴾ يسمع مناجاتهم الصادرة منهم على وجه الخلوص ﴿عَلَيْهِمْ﴾ [الأنفال: 17] بحاجاتهم التي يحتاجون إليها في معاشهم ومعادهم.

﴿ذَلِكُمْ﴾ أي: ابتلاء الله بالبلاء الحسن، مختص بالمؤمنين ﴿وَوَالْجَمَلَةُ﴾ اعلموا أيها المؤمنون ﴿أَنَّ اللَّهَ الْمَوْلَى لِمُؤْمِنِيهِ﴾ ﴿مُؤْمِنٌ﴾ مضعف ومبطل ﴿كَتِيدَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: 18] ومكرهم وحيلهم التي يقصدون بها إهلاككم وإذلالكم.

﴿إِنْ تَسْتَفْرِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ

(1) أي: لا تنهزموا من سطوات النفوس وغلبات صفاتها فتقعوا عن صراط مستقيم الطلب، وتستولي النفوس؛ وتنكسر القلوب وتضمحل صفاتها عند استيلاء صفات النفوس فتهلك القلوب، بل اثبتوا بالصبر عند صدمات النفوس فإن الصبر عند الصدمة الأولى. [التأويلات].

وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ * إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضَّمُّ الَّذِينَ لَا يَحْكُمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ [الأنفال: 19-23].

ثم قال سبحانه على سبيل التهكم للكافرين الذين كانوا إذا أقبل عليهم المؤمنون للقتال يطوفون حول الكعبة متشبثين بأستارها، متضرعين مستفتحين من الله، قائلين: اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفتيين، وأكرم الحزبين ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا﴾ أيها الهالكون في تيه الضلال؛ لمقاتلة نبينا ومن تبعه من المؤمنين ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ بقتلكم وسيبكم؛ أي: غلبة المؤمنين عليكم ﴿وَإِنْ تَشْهَوْا﴾ عن مقاتلتهم ومعاداتهم، وعن الاستفتاح لها، بل آمنوا كما آمن هؤلاء لنبينا عن ظهر القلب ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ في أولاكم وأخراكم ﴿وَإِنْ﴾ صالحوا معهم وآمنوا نفاقاً، ثم ارتدوا، بأن ﴿تَعُودُوا﴾ إلى مقاتلتهم ومعاداتهم ﴿نَعُذْ﴾ إلى نصرهم وتأيدهم إلى أن يستأصلوكم ويخرجوكم من دياركم.

﴿وَلَا تَغْتَر بِكَثْرَةِ عِدَدِكُمْ وَعِدَدِكُمْ﴾ إذ ﴿لَنْ تُغْنِيَ﴾ وترفع ﴿عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ﴾ التي تستظهرون بها ﴿شَيْئًا﴾ من غلبة المؤمنين وظفرهم ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ فتكم ﴿وَلَا كَيْفَ تُغْنِي فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا مِنْهُمْ﴾ ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ القادر المقتدر بالقدرة الكاملة ﴿مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: 19] المجاهدين في سبيله؛ لإعلاء كلمة توحيده، ونصر دينه ونبيه ينصرهم ويعين عليهم.

ثم قال سبحانه منادياً للمؤمنين توصية: وتذكروا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ إطاعة الله ﴿وَرَسُولَهُ﴾ إطاعة ﴿رَسُولِهِ﴾ المبلغ لكم أحكام الحق وشعائر دينه وتوحيده ﴿وَلَا تَوَلَّوْا﴾ أي: لا تتولوا معرضين ﴿عَنْهُ﴾ عن رسوله حتى لا تنحطوا عن رتبة الخلافة، وكيف لا تطيعون رسوله ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: 20] كلمة الحق منه سمعاً وطاعة ١٢.

﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ في عدم الإطاعة والانقياد له ﴿كَالَّذِينَ قَالُوا﴾ كفراً ونفاقاً: ﴿سَمِعْنَا﴾ ما تلوت علينا ﴿وَهُمْ﴾ من غاية بغضهم ونفاقهم ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: 20].

[21] سَمِعَ إِطَاعَةً وَتَسْلِيمًا، فَكَانَهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا أَصْلًا، بَلْ لَا يَتَأْتِي مِنْهُمْ السَّمْعُ لَانْحِطَاطِهِمْ عَنْ رَتَبَةِ الْعُقُلَاءِ، وَلِحَقْوِهِمْ بِالْبَهَائِمِ فِي عَدَمِ الْفُطْنَةِ، بَلْ أَسْوَأَ حَالًا مِنْهَا.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ﴾ عَنْ اسْتِمَاعِ كَلِمَةِ الْحَقِّ عَنْ أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ وَالْإِطَاعَةَ بِهَا ﴿الْبُكْمُ﴾ عَنِ التَّكَلُّمِ بِهَا بَعْدَمَا فَهَمُوهُ، وَلاَحْتِ عِنْدَهُمْ حَقِيقَتَهَا، وَبِالْجُمْلَةِ: هَؤُلَاءِ هُمْ ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: 22] أَي: لَيْسُوا مِنْ زَمْرَةِ الْعُقُلَاءِ وَإِنْ ظَهَرُوا عَلَى صُورَتِهِمْ وَشَكْلِهِمْ⁽¹⁾. ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ﴾ أَي: فِي اسْتِعْدَادِ هَؤُلَاءِ السُّفَهَاءِ الْمُنْحَطِّينَ عَنْ مَرْتَبَةِ الْعُقُلَاءِ ﴿خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ كَلِمَةَ الْحَقِّ سَمْعَ طَاعَةٍ ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ مَعَ أَنَّهُمْ لَيْسُوا مُسْتَعِدِّينَ لَهُ ﴿لَتَوَلَّوْا﴾ وَانصَرَفُوا؛ مِنْ خَبَثِ طَبِئَتِهِمْ عَنْهَا ﴿وَهُمْ﴾ فِي أَصْلِ فِطْرَتِهِمْ ﴿مُغْرَضُونَ﴾ [الأنفال: 23] مُجْبُولُونَ عَلَى الْأَعْرَاضِ، لَا يَرْجَى مِنْهُمْ الْإِطَاعَةُ أَصْلًا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهٌُ مُنْحَشَرٌ﴾ ﴿٢٤﴾ وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُتَضَاعِفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَخَطَفَكُمْ الْإِنْسَانُ فَتَاوَنَكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِبَصَرِهِ وَرِزْقِكُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَمَّا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: 24-26].

ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ مُنَادِيًا لِلْمُؤْمِنِينَ تَذَكِيرًا لَهُمْ وَتَعْلِيمًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مُقْتَضَى إِيْمَانِكُمْ: إِجَابَةُ اللَّهِ وَإِجَابَةُ رَسُولِهِ ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ﴾ بِأَمْثَالِ مَأْمُورَاتِهِ وَأَحْكَامِهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ سُنَّتِهِ وَأَدَابِهِ وَأَخْلَاقِهِ ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ وَحْدَهُ، بِاعْتِبَارِ أَنَّ دَعْوَةَ الرَّسُولِ هِيَ بَعِينُهَا دَعْوَةُ الْحَقِّ ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ مِنَ الْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ وَالْمَعَارِفِ الْحَقِيقِيَّةِ الْمُثْمَرَةِ لِلْمُكَاشَفَاتِ وَالْمُشَاهَدَاتِ الَّتِي أَضْمَحَلَتْ دُونَهَا نَفُوسَ السَّوَى

(1) أَي: لَا يَعْلَمُونَ لِمَاذَا خَلَقُوا وَمَا لَهُمْ مِنَ الْاسْتِعْدَادِ فِي طَلَبِ الْكَمَالِ وَانصِرَافِهِمْ فِي إِفْسَادِ الْاسْتِعْدَادِ، فَاعْلَمُوا أَنَّ الْإِنْسَانَ خَلَقَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ قَابِلًا لِلتَّرْبِيَةِ وَالتَّرْقِيِ مُسْتَعِدًّا لِلْكَمَالِ لَا يَبْلُغُهُ الْمَلِكُ وَالْقَرَبُ فِي بَدَأِ الْخَلْقَةِ دُونَ الْمَلِكِ وَفَوْقَ الْحَيَوَانِ، فَبِتَرْبِيَتِهِ الشَّرِيعَةِ يَصِيرُ فَوْقَ الْمَلِكِ فَيَكُونُ خَيْرَ الْبَرِيَّةِ وَيُخَالِفُ الشَّرِيعَةَ وَمُتَابِعَةُ الْهَوَى يَصِيرُ دُونَ الْحَيَوَانِ فَيَكُونُ شَرَّ الْبَرِيَّةِ فَيُؤَوَّلُ حَالُ مَنْ يَكُونُ خَيْرًا مِنَ الْمَلِكِ إِلَى أَنْ يَكُونَ شَرَّ الدَّوَابِّ.

والأغيار مطلقاً، المورثة للحياة الأزلية والبقاء السرمدي التي لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى التي هي الانخلاع عن لوازم البشرية، ومقتضيات القوى البهيمية، ولا بد أن تكون إجابتكم وقولكم على وجه الخلوص والتسليم.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿يَحُولُ﴾ ويحجب ﴿بَيْنَ الْمَرْءِ﴾ المشخص بالهوية الشخصية، المتعين بالتعين العدلي ﴿وَقَلْبِهِ﴾ الذي يسع فيه الحق المنزه عن الإطلاق والتقييد، المبرئ عن الإحاطة والتحديد بالحجب الكثيرة فمادامت الحجب والأستار مسدولة بين المرء وقلبه لم يشم رائحة المحبة والولاء المؤدي إلى الفناء، المثمر للبقاء.

وانفتاح أبواب المحبة والولاء إنما يحصل بالإخلاص والتسليم والتفويض والتوكل والتبتل، والتوحيد المسقط للإضافات مطلقاً ﴿وَرَبِّهِ﴾ بالجملة: ﴿أَنَّهُ﴾ أي: الشأن ﴿إِلَيْهِ﴾ سبحانه لا إلى غيره بعد رفع الأظلال الهالكة والتعينات الباطلة ﴿تُخْشَرُونَ﴾ [الأنفال: 24] ترجعون رجوع الظل إلى ذي الظل.

﴿وَاتَّقُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿فِتْنَةً﴾ أي: معصية مسقطة للعدالة، مزيجة للمروءة مورثة للمصيبة الشاملة إثرها لعباد الله، مثل الطاعون المترتب على الزنا واللواط، والقحط المترتب على التخسير والتطفيف والاحتكار وغيرها من طرق الربا، مع أن أثرها ﴿لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: أتوا بها ﴿مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ بل يعم الظالمين وغيرهم بشؤمهم؛ لأن غيرهم يداهنون معهم كأنهم راضون بفعلهم ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ﴾ المتمرز برداء العظمة ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: 25] صعب الانتقام، سريع الحساب على من خرج من مقتضى أمره ونهيه.

﴿وَاذْكُرُوا﴾ أيها المؤمنون نعمنا إياكم، وداوموا بشكرها وقت ﴿إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ﴾ يستضعفكم من ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: أرض مكة - شرفها الله - ومن غاية ضعفكم وقلتكم ﴿تَخَافُونَ أَنْ يَخْطِفَكُمْ﴾ ويلتقطكم ﴿النَّاسُ﴾ عن وجه الأرض إلى حيث يستأصلكم بالمرّة؛ من غاية ضعفكم وقلتكم ﴿فَأَوَّاكُمْ﴾ الله بحوله وقوته، وأعادكم إليها بعدما أخرجكم العدو منها ظلمًا وزورًا ﴿وَأَيَّدَكُمْ بِنُصْرِهِ﴾ بأن تغلبوا وتظفروا على عدوكم، وتخرجوهم منها مهانين مغلوبين مستضعفين ﴿وَرَبِّهِ﴾ بعدما أيدكم وأظفركم سبحانه ﴿رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ التي غنمتم منها ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: 26] رجاء أن تواظبوا شكر هذه النعم الجسام.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٧)
 وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا
 الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ
 وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ
 وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٣٠﴾ [الأنفال: 27-30].

ثم قال سبحانه على وجه العظة والتذكير تعليمًا للمؤمنين، منادياً لهم؛ ليقبلوا بما
 أمروا ونهوا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم: أن ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ﴾ في أمثال
 أوامره واجتناب نواهيه ﴿وَالرَّسُولَ﴾ في سنته وأخلاقه وآدابه التي وضعها فيما بينكم؛
 لإصلاح حالكم ﴿وَو﴾ بالجملة: ﴿تَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾^(١) التي ائتمتم فيها اعتماداً وثقةً
 ﴿وَو﴾ الحال أنه ﴿أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: 27] قبح الخيانة من أنفسكم بلا احتياج إلى
 إنذار منذر، وإخبار مخبر، والخيانة في الأمانات إنما تنشأ من جلب المنفعة والحرص
 المفرط، وتكثير الميل إلى المال الصالح للعيال.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ اختبار وابتلاء لكم من ربكم يجربكم
 هل تضطربون في أمر المال والعيال، وتوقعون لأجلها في الممالك وإباحة المحرمات،
 وارتكاب الخيانات المسقطة للمروءات مطلقاً؟ أم تفوضون الأمور كلها إلى الله
 وترضون بما قضى عليكم، وقدر لكم في سابق علمه ولوح قضائه؟ ﴿وَو﴾ اعلموا ﴿أَنَّ
 اللَّهَ﴾ المطلع لجميع حالاتكم ﴿عِنْدَهُ﴾ وفي كنف حفظه وجواره ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾
 [الأنفال: 28] للمفوضين الذين رضوا بقسمة الله في جميع حالاتهم، ووفوا بما ائتمنوا
 من الأمانات مجتنبين عن الخيانة فيها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ﴾ وتحذروا عن محارمه ومحظوراته مطلقاً،

(١) قال في «التأويلات»: الأمانة: هي محبة الله تعالى، وخيانتها بتبديلها بمحبة المخلوقات، يشير إلى
 إن أرياب القلوب وأصحاب السلوك إذا بلغوا إلى أعلى مراتب المقامات والقربات ثم التفتوا
 إلى شيء من الدنيا وزينتها، وخانوا الله بنوع من التصنع، وخانوا الرسول بالتبذع وترك التبذع،
 وتتعدى الخيانة وآفاتها إلى الأمانة التي هي المحبة، فتسلب عنهم بالتدريج فيكون ركونهم إلى
 الدنيا وسكونهم إلى جمع المال حرصاً على الأولاد.

وتؤدوا الأمانات التي ائتمتم بها من الأموال والشهادات بلا خيانة فيها، وتفوضوا أموركم كلها إليه مجتنبين ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ﴾ وينزل على قلوبكم تفضلاً وامتناناً ﴿فُزَقَانًا﴾ ينور به قلوبكم إلى حيث تميزون الحق من الباطل، والصواب من الخطأ، والإلهام الإلهي من إغواء الشيطان وتقريره ﴿وَيُكَفِّرْ﴾ به ويمحو به ﴿عَنْكُمْ مَسِيئَاتِكُمْ﴾ أي: جرائمكم اللاتي مضت عليكم بالمرّة ﴿وُ﴾ بالجملة: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ويستر عنكم ذنوبكم مطلقاً؛ تفضلاً وامتناناً ﴿وُ﴾ لا تتعجبوا من أفضاله هذا، ولا تستبعدوا منه سبحانه أمثاله، إن ﴿الله﴾ المراقب لأحوال عباده ﴿ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: 29] واللفظ الجسيم على من توكل عليه، والتجأ نحوه في جميع حالاته على وجه الخضوع والخشوع.

﴿وُ﴾ اذكر يا أكمل الرسل إنجاءنا وخلصنا إياك وقت ﴿إِذْ يَمْكُرُ﴾ ويخدع ﴿بِكَ﴾ إهلاكك ومقتك ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: قريشاً شاوروا لأمرك في دار الندوة ﴿لِيُشْجُوكَ﴾ ويحبسوك في دار ليس فيها منفذ ولا كوة يلقون منها طعامكم أحياناً ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ مزدحمين؛ بحيث لم ينسب قتلك إلى معين منهم ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ من مكة محمولاً على عجل؛ ليقتلك القطاع ﴿وُ﴾ بالجملة: ﴿يَمْكُرُونَ﴾ أولئك الكفرة العصاة الطغاة لمقتك ﴿وَيَمْكُرُ اللهُ﴾ الرقيب عليك؛ لإنجائك وخلصك من أيديهم فغلب مكره سبحانه على مكرهم، وأخرجك من بينهم سالماً ﴿وَالله﴾ المطلع لجميع محاييلهم ﴿خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: 30] أي: أشدهم وأقواهم تأثيراً وقوة.

وذلك أنهم حين سمعوا إيمان الأنصار تشاوروا على أظهرهم في أمره ﷺ، وارتفاع شأنه، وسطوع برهانه فدخل عليهم إبليس في صورة شيخ، وقال: أنا من نجد، سمعت اجتماعكم فأحضركم؛ لأعلم كيف تدبرون في أمر هذا الشخص الذي لو بقي زماناً على هذا يخاف عليكم من شره؟.

فقال أبو البحتري: رأيي أن تحبسوه في بيت، وتسدوا منافذه غير كوة يلقون إليه طعامه وشرابه حتى يموت، فقال الشيخ النجدي: بش هذا الرأي، يأتاكم من يقاتلكم من قومه يخلصونه من أيديكم، فقال هشام بن عمرو: رأيي أن يحملوه على جمل فيخرجوه من أرضكم، ولا يلحقكم ضرر بني هاشم، فقال الشيخ: يفسد قومًا آخر ويقاتلكم بهم أما رأيتم طلاقة لسانه وحلاوة كلامه، ووجاهة نظره؟.

فقال أبو جهل: أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاماً وتعطوه سيفاً، فيضربون دفعة واحدة فيفترق دمه في القبائل، فلا يقوى بنو هاشم على حروب قريش كلهم، فإن

طلبوا العقل عقلناه، فقال الشيخ: صدق هذا الفتى، واتفقوا على رأيه.
فأتى جبريل النبي - عليهما السلام - وأخبره الخبر وأمره بالهجرة فبيّت ﷺ علياً - كرم الله وجهه - على مضجعه متسجياً ببرده، وخرج ﷺ مع أبي بكر ﷺ ومضيا إلى الغار ويات المشركون يحرسون علياً - كرم الله وجهه - يحسبون النبي ﷺ، فلما أصبحوا ساروا ليقتلوه فأروا علياً، فقالوا: أين صاحبكم؟ فقال: ما أدري فاتبعوا أثره، فلما بلغوا الغار رأوا نسج العنكبوت على بابه، فقالوا: لو دخله لم يبق لنسج العنكبوت أثر، فمكث فيه ﷺ ثلاثة ثم خرج نحو المدينة.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا ۖ إِنَّا هَٰذَا بِآيَاتِنَا لَا أُسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ ۚ﴾ (٣١) ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ ۖ أَوِ اثْقِنَا بِعَذَابِ أَلِيمٍ ۚ﴾ (٣٢) ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِّعَذَابِهِمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِّعَذَابِهِمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۚ﴾ (٣٣) [الأنفال: 31-33].

﴿و﴾ من مكرنا إياهم أنا ختمنا على قلوبهم وسمعهم بختم القساوة والغفلة بحيث ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ مع أنهم عارضوا زماناً، ثم عجزوا مع وفوره دواعيهم، فلما عجزوا عن إتيان مثله ﴿قَالُوا﴾ مكابرة وعناداً: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا ۖ إِنَّا هَٰذَا بِآيَاتِنَا لَا أُسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: 31] أي: أكاذيبهم التي سطروها في دواوينهم؛ لتعزيز السفهاء.

﴿و﴾ اذكر يا أكمل الرمل وقت ﴿إِذْ قَالُوا﴾ من غاية عتوهم وفرط انهماكهم في الغفلة والضلال، وإصرارهم على تكذيب القرآن والرسول: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا﴾ المفترى ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ الثابت النازل ﴿مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا﴾ بسبب تكذیبنا إياه ﴿حِجَابًا مِنْ﴾ جانب ﴿السَّمَاءِ﴾ واستأصلنا بها ﴿أَوْ اثْقِنَا بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: 32] مؤلم مفزع، وما هذا إلا مبالغة في تكذيب القرآن والرسول على سبيل التهكم. ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِّعَذَابِهِمْ﴾^(١) وإن استحقوا أشد العذاب والنكال والهلاك الكلي؛

(١) انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِّعَذَابِهِمْ﴾ إلخ، كيف جعل الوجود النبوي، وحصول الاستغفار سبباً لارتفاع العذاب، وياً على الأمان؟ فالأول: من الأسباب الأفقية، والثاني: من الأسباب الأنفسية، فكما أن الورثة خلفاء الرسول ﷺ ونوابه، وبهم يحصل من الأمان ما يحصل به، وإن

بسبب تكذيبك وتكذيب كتابك ﴿وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ يعني: مادت فيهم وفي ديارهم ومكانهم، فإن عذبهم الله فقد أصابك مما أصابهم ﴿وَ﴾ إن أمكن تخليصك وإنقاذك حين تعذيبهم ﴿مَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ﴾ وما أراد تعذيبهم واستئصالهم ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: 33] أي: يتوقع منهم، من أخلافهم الإيمان والاستغفار في الاستقبال بخلاف الأمم الهالكة من قبل.

﴿وَمَا لَهُمْ آلًا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُتَفَقِّهُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنفال: 34-35].

﴿وَمَا لَهُمْ آلًا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ﴾ أي: أي شيء يمنع تعذيب الله إياهم مع أنهم مستحقون للعذاب؟ وكيف لا يعذبون هؤلاء المستكبرون المعاندون ﴿وَهُمْ﴾ من شدة عتوهم وعنادهم ﴿يَصُدُّونَ﴾ ويصرفون المؤمنين ﴿عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ والطواف نحو البيت مدعين ولايته؟ ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿مَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ أي: ليس لهم صلاحية الولاية في بيت الله؛ لخبائث كفرهم وفسقهم، وعدم لياقتهم ﴿إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُتَفَقِّهُونَ﴾ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، ويتطهرون عن المعاصي والآثام مطلقاً ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: 34] عدم ولايتهم ولياقتهم لها، ومع ذلك يدعونها مكابرة واستكباراً وإن كان بعضهم يعلم ولكن يعاند.

﴿وَ﴾ بعدما لم يصلحوا لولاية البيت ﴿مَا كَانَ صَلَاتُهُمْ﴾ ودعائهم ﴿عِنْدَ الْبَيْتِ﴾ المعد للتوجه والتقرب نحو الحق على وجه الخضوع والانكسار، والتدلل والافتقار ﴿إِلَّا مُكَاءً﴾ صفيراً وصداء ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ تصفيقاً وتبختراً، مع أنهم يدعون ولايته ورعاية حرمة، وما ذلك إلا من أمارات الاستهانة والاستخفاف المستلزم للكفر

كان دونه؛ فكذا القلب بمنزلة الوجود المحمدي في عالم الوجود بشرط أن يظهر على الصفة النبوية من التوجه إلى الله تعالى، والتبذل إليه، فإذا بالإنسان الكامل ويظايره يحصل الأمان لظاهر العالم وصورته، ويقلب الإنسان الكامل ونفسه؛ يحصل الأمان لنفسه، فهو أمان مطلق من الله تعالى في حق نفسه، وفي حق غيره.

﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ أيها المنهمكون في الضلال ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنفال: 35] في
النشأة الأولى والأخرى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ
تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ
اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي
جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنفال: 36-37].

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ سترُوا الحق، وأصروا على الباطل عنادًا
واستكبارًا إلى حيث ﴿يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ على وجه الصدقة للمتجيشين ﴿لِيَصُدُّوا﴾
ويمنعوا أهل الحق ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إعلاء للباطل على الحق، وترويجًا للضلالة على
الهداية، وذلك يوم بدر ﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا﴾ كثيرًا أيضًا على هذه النية؛ تميمًا لغرضهم
الفاسد ورأيهم الكاسد، فلا يصلون إلى مبتغاهم أصلاً وإن بالغوا في الإنفاق.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما تنبهوا بعدم إفادتها ﴿تَكُونُ﴾ وتصير تلك الصدقة والإنفاق ﴿عَلَيْهِمْ
حَسْرَةً﴾ متمكنة راسخة في قلوبهم، مورثة لحزن طويل؛ لتضييع المال بلا ترتب فائدة
تبغونها ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ وهذا أعظم ﴿و﴾ بالجملة: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، وأعرضوا عن
دينه ونبيه وكتابه ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان، وسعير الطرد والحرمان ﴿يُخْشَرُونَ﴾
[الأنفال: 36] يساقون سوق البهائم والمسوخ.

وإنما يفعل بهم سبحانه هذا ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ﴾ الناقد البصير لأعمال عباده ﴿الْخَبِيثَ﴾
المنغمس في الكفر والضلال ﴿مِنَ الطَّيِّبِ﴾ الصافي عن شوب الكدر مطلقًا ﴿و﴾ بعد
فصله وتمييزه ﴿يَجْعَلُ الْخَبِيثَ﴾ جملة واحدة، بأن يضم ﴿بَغْضَهُ عَلَىٰ بَغْضِ فِرْكَمِهِ﴾
ويجمعه ﴿جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ﴾ ويطرحه بعد جمعه وتركيمه ﴿فِي جَهَنَّمَ﴾ الإمكان وجحيم
الخذلان، وبالجملة: ﴿أُولَئِكَ﴾ البعداء المنغمسون في خبائة الكفر والطغيان ﴿هُمُ
الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال: 37] المقصورون على الخسران الأبدي، المجبولون على
الحرمان السرمدى، ليس لهم نصيب من مستلذات الجنان، وحظ من لقاء الرحيم
الرحمن الكريم المثلان.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ

سُنَّتِ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٨﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ
فَإِنْ أَنْتَهُوا فَلَا تَكُ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ
يَغْنِمُ الْمَرْكَاتُ وَيَغْنِمُ النَّصِيرُ ﴿٣٠﴾ [الأنفال: 38-40].

﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تبشيرا لهم ووعدا: لا يئأس من روح الله
وسعة جوده ورحمته عما هم عليه من الكفر والضلال، بل ﴿إِنْ يَتَّهَوْا﴾ ويعرضوا عن
الكفر والإلحاد نحو الباطل الزائغ، والميل إلى البدع والأهواء الفاسدة الكاسدة من
تكذيب الكتب والرسل بالإيمان الخالص عن ظهر القلب، ورفع المنازعة والمخاصمة
مع رسول الله ﷺ ومن تابعه ﴿يُغْفَرْ لَهُمْ﴾ ويعفى عنهم ﴿مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ من الجرائم
مطلقا ﴿وَإِنْ يَعُودُوا﴾ على كفرهم ونزاعهم، ويرتدوا بعد إيمانهم وصلاحهم ﴿فَقَدْ
مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: 38] أي: الأمم الهالكة الذين كفروا بالله، وخرجوا على
رسله فأصابهم ما أصابهم، كذلك يصيبهم مثل ما أصابهم فليتوقعوا.

﴿و﴾ بعدما خرجوا من عهدهم ونقضوا ميثاقهم، وارتدوا على أدبارهم
﴿قَاتِلُوهُمْ﴾ أيها المؤمنون؛ أي: المرتدين، واستأصلوهم ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ﴾ أي: توجد
وتبقى ﴿فِتْنَةٌ﴾^(١) بقية من شركهم مضلة لضعفاء الأنام ﴿و﴾ بعد استئصالهم وانقطاع
شركهم وعرقهم ﴿يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ الواحد الأحد الذي لا شريك له ﴿فَإِنْ اتَّهَوْا﴾
بالمقاتلة عن شركهم وكفرهم، وأقروا بالإيمان والإطاعة فخلوا سبيلهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾
المطلع بضمائرهم ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ في بواطنهم من الوفاق والنفاق ﴿بَصِيرٌ﴾ [الأنفال:
39] يجازيهم على مقتضى بصارته وخبرته.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا﴾ أي: لم يتهوا بالمقاتلة عن كفرهم، بل أصرروا عليه وأخذوا
أولياء من إخوانهم وشياطينهم، واستعانوا منهم بمقاتلتكم أيها المؤمنون لا تبالوا بهم

(١) الإشارة إلى كفرة النفوس الأقارة بسوء أي: جاهلونها، وأميتوها حتى تنقش مزارع أنوار اليقين،
ومرا بع سنا الإسلام والدين، ويضرد القلب بنور الموحّد والتوحيد من كلّ خاطر غير خاطر
الحق، ويكون القلب كله مستغرقا في بحار محبته، والروح هائمة في أودية هويته، والعقل تائها
في صحاري أزله وأبد، ولا يكون منها جميعا نظرا إلى غيره. فإن النفس حجاب القهر بينها وبين
بارئها، الذي هو منعم عليها بإلقاء محبة وجهه فيها، ونصرها على نفوسها وهواها. [حرائر
البيان].

ويعاونيهم ومظاهريهم ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ القادر المقتدر على وجوه الانتقام ﴿مَوْلَاكُمْ﴾ معينكم ومولي أموركم ﴿نِعْمَ الْمَوْلَى﴾ مولاكم ﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الأنفال: 40] نصيركم وظهيركم.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ
الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ أَجْمَعِينَ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾ إِذْ أَنتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا
وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ
وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ
عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنفال: 41-42].

﴿و﴾ بعدما انتصرتكم وظفرتهم عليهم ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾ منهم وأخذتم ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: مما يطلق عليه اسم الشيء حتى الخيط ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ أي: فاعلموا أن خمسة ثابت لله ﴿و﴾ يصرف من مال الله خمسة ﴿لِلرَّسُولِ﴾ المستخلف منه، النائب عنه ﴿و﴾ بعد انقراضه يصرف إلى الولاية المقيمين لحدود الله، وسهم آخر منه ﴿لِلَّذِي الْقُرْبَىٰ﴾ المتضمن إلى رسول الله ﷺ من بني هاشم وعبد المطلب.

﴿و﴾ آخر حق ﴿الْيَتَامَىٰ﴾ الذين لا مال لهم ولا متعهد ﴿و﴾ آخر حق ﴿الْمَسْكِينِ﴾ الذين أسكنهم الفقر والفاقة في زاوية الهوان والمذلة ﴿و﴾ آخر حق ﴿السَّبِيلِ﴾ المنقطعين عن الأوطان لمصلحة شرعية، فعليكم أيها الحكام أن تحافظوا على هذه القسمة ولا تتجاوزوا عنها ﴿إِن كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ﴾ المستوي على العدل القويم.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا أُنْزِلْنَا﴾ بمقتضى جودنا ولطفنا من النصر والظفر على الأعداء والإمداد بالملائكة ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ وحيينا ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ الفارق بين الحق والباطل والمحق والمبطل، وذلك ﴿يَوْمَ التَّقَىٰ أَجْمَعِينَ﴾ أي: الصنفان من الطرفين في بدر مع ضعف أهل الحق وقوة الكفار ﴿وَاللَّهُ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من نصر ضعفاء الأولياء وانهزام أقوياء الأعداء ﴿قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: 41].

اذكروا أيها المؤمنون ضعفكم ورثاة حالكم وقت ﴿إِذْ أَنتُمْ﴾ مترددون ﴿بِالْعُدُوِّ

الدُّنْيَا) أَي: على شفير الوادي التي هي أقرب إلى المدينة ولا ماء فيها، ورمالها تسوخ أرجلكم وأنتم راحلون ﴿وَهُمْ﴾ متمكنون ﴿بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ أَي: على شفير الوادي الأبعد من المدينة والماء عندهم ﴿وَالزُّكْبُ﴾ أَي: العير التي قصدتم نحوه قد كان بمكان ﴿أَسْفَلَ﴾ وأبعد ﴿مِنْكُمْ﴾ على ساحل البحر مقدار ثلاثة أميال، وأنتم حيارى بين الإقدام والإحجام.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَوْ تَوَاعَدْتُمْ﴾ أنتم وهم القتال في وقت معين بلا وحي من الله ووعد من جانبه ﴿لَا خِتْلَفَ لَكُمْ﴾ أنتم ألبتة؛ لضعفكم وقوتهم وهيبتهم ﴿فِي الْمِيقَادِ﴾ الذي وعدتم معهم؛ لرعبكم ورهبتكم منهم ﴿وَلَكِنْ﴾ جمع سبحانه بلطفه شملكم ومكنكم في مكانكم، وأمطر عليكم في ليلتكم ﴿لَيَقْضِيَ اللَّهُ﴾ المولي لنصركم وغلبتكم ﴿أَمْرًا﴾ حكمًا مبرمًا ﴿كَانَ مَفْعُولًا﴾ عنده وإن لم يفعل بعد، وإنما فعل سبحانه بكم ما فعل من النصر والظفر بهم من القهر والقمع ﴿لَيَهْلِكَنَّ﴾ من الكفار ﴿مَنْ هَلَكَ﴾ أَي: مات وانخزل غيظًا ﴿عَنْ بَيْتَةٍ﴾ واضحة شاهدها ﴿وَيَخَيَّ﴾ أيضًا من المسلمين ﴿مَنْ خَيَّ﴾ فرحًا ﴿عَنْ بَيْتَةٍ﴾ واضحة لائحة انكشف بها ﴿وَ﴾ اعلموا ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿لَسَمِيعٌ﴾ لمناجاة كلا الفريقين ﴿عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: 42] بنياتهم، يفعل من كل منهم على مقتضى علمه.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَادَكُمُ كَثِيرًا لَفُتِلْتُمْ وَلَتَنَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [43] ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [44] [الأنفال: 43-44].

اذكر يا أكمل الرسل وقت ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ أَي: أعداءك ﴿فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ مما كانوا عليه؛ تشجيعًا لك ولأصحابك ﴿وَلَوْ أَرَادَكُمُ كَثِيرًا﴾ وعلى شوكتهم التي هم فيها ﴿لَفُتِلْتُمْ﴾ وخيبت ألبتة رهبة وهيبة ﴿وَ﴾ بعدما خيبت ﴿لَتَنَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أَي: أمر القتال بعدما عرفتكم كثرتهم وشوكتهم، بل تشرفون على الاستدبار والانهازام ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ أَي: أنعم عليكم بالسلامة من الفشل والتنازع بإنزال السكينة والوقار على قلوبكم؛ بسبب تليس التقليل ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الأنفال: 43] يعلم مآل أمركم وعاقبته، لذلك لبس عليكم؛ ليجرئكم على القتال لإعلاء كلمة توحيده ونصر دينه.

﴿وَ﴾ اذكروا أيضا إمداد الله إياكم بتليس الأمر عليكم ﴿إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ﴾ أي: أعداءكم ﴿إِذْ التَقَيْتُمْ﴾ صافين من الطرفين ﴿فِي أَغْيَيْنِكُمْ﴾ كما في منامكم ﴿قَلِيلًا﴾ لتستقلوهم وتجتروا عليهم ﴿وَ﴾ يلبس أمركم عليهم أيضا تغريزا لهم ومكرًا؛ إذ ﴿يَقْلِلُكُمْ فِي أَغْيَيْنِهِمْ﴾ حتى لا يبالوا بكم ويجمعكم؛ ولذلك قال أبو جهل حين تراءت الفتان: إن محمدًا وأصحابه أكلة جذور، وإنما فعل سبحانه ما فعل من التليس على كلا الفريقين ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ﴾ عنده ﴿مَفْعُولًا﴾ حتمًا ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ لا إلى غيره ﴿تَرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [الأنفال: 44] كلها؛ إذ منه بدأ وإليه يعود.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِشَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ [الأنفال: 45-47].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم: الاعتصام بحول الله وقوته عليكم ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ من الكفار ﴿فَاثْبُتُوا﴾ وتمكنوا تجاه العدو ولا تضطربوا، ولا تستدبروا ﴿وَ﴾ بعد استقراركم وثباتكم ﴿اُذْكُرُوا اللَّهَ﴾ ذكرًا ﴿كَثِيرًا﴾ واستعينوا منه وتوكلوا عليه ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: 45] تفوزون بالنصر والظفر، والغلبة والغنيمة إن أخلصتم النية.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في جميع حالاتكم، سيما عند المقاتلة ومقاتلة العدو ﴿وَلَا تَنَازَعُوا﴾ باختلاف الآراء والأهواء، بل فوضوا أموركم إلى الله ورسوله، وإن وقع النزاع والمخالفة بينكم ﴿فَتَفْشَلُوا﴾ وتضعفوا فيفتر عزمكم ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي: دولتكم وهيبتكم التي ظهرت عليكم من نور الإسلام ﴿وَ﴾ بعدما سمعتم ما سمعتم ﴿وَاصْبِرُوا﴾ على مشاق الجهاد، ورابطوا قلوبكم إلى الله ورسوله ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: 46] المرابطين المتمكنين، يعين عليهم وينصرهم.

﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ أيها المؤمنون القاصدون نحو الجهاد ﴿كَالَّذِينَ﴾ أي: كالكفار الذين ﴿خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ يعني: مكة للقتال ﴿بَطَرًا﴾ مفاخرين مباهين بعددهم وعددهم ﴿وَ﴾ يقصدون بذلك الخروج ﴿رِثَاءَ النَّاسِ﴾ ليثنوا بالشجاعة والسماحة ﴿وَ﴾ هم بمجرد هذا القصد الفاسد والنية الكاسدة ﴿يَصُدُّونَ﴾ أي: ينصرفون ويحرفون ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الموضوع على العدل القويم، المسمى بالصراط المستقيم ﴿وَاللَّهُ الْمَطَّلِعُ

بجميع أحوالهم ﴿بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ ويؤملون من المخايل الفاسدة ﴿مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: 47] بعلمه الحضورى، يجازيهم عليها بمقتضى علمه وخبرته.

﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ إِذْ يَسْقُوقُ الْمُتَوَفُّونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنفال: 48-49].

﴿و﴾ من جملة ما يعين عليكم ويمد لنصركم: تغير الشيطان وإغراؤه على أعدائكم إمداداً لكم فيصير وبالأعلى عليهم، اذكروا ﴿إِذْ زَيْنَ﴾ أي: حسن وحبب ﴿لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: عداوتهم وقاتلهم معكم ﴿وَقَالَ﴾ الشيطان تحريضا لهم على القتال ملقيا في روعهم على سبيل الوسوسة، حتى خيلوا أنهم لا يغلبون أصلاً اعتماداً على كثرة عددهم وعددهم: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾ فلكم اليد والغلبة ﴿وَلِئِنْ جَارَ لَكُمْ﴾ مجبر لكم ﴿فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ﴾ أي: تلاقيا وتلاحقا فرأى اللعين من صفوف الملائكة ما رأى ﴿نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ﴾⁽¹⁾ أي: رجع فهوى ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ﴾ ومن

(1) قال نجم الدين في «التأويلات»: فيه إشارة إلى أن الشيطان عند استيلاء النفس وغلبات أوصافها وهواها يزين الدنيا وشهواتها وزخارفها للنفوس، ويعينها على طلبها واستيفاء لذاتها ليضلها عن سبيل الله، فلما استولت القلوب والأرواح على النفوس، وانقادت النفوس لحزب الله انكسرت أوصافها وهواها، واطمأنت بذكر الله وطاعته يكون الشيطان مخالفاً لها بعد أن كان موافقاً ومحباً ومعاوناً لها، فيفر منها ويهرب منها، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ [الأنفال: 48] فلا يبقى له مدخل يدخل بها في النفوس ويوسوسها، لأنه يرى بنظر الروحاني على النفوس من القلوب أنوار الرياني ولو وقع على الشيطان منها تلالو يحرقه في الحال ولهذا قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: 48] وقد صدق الكنوب أنه يخاف من شدة عقاب الله تعالى، فإن عقابه ومضاه بروق ضفة قهره لو وقع عليه لتلاشى، ولذلك كان من يفر من ظل عمر و«ما سلك عمر» فجاً إلا وسلك الشيطان فجاً آخره؛ لئلا يقع عليه عكس نور ولاية عمر فيحرقه، وقد علم الشيطان أنه من المعطين المعاقين، وإنما خوفه من الله من شدة عقابه؛ لأنه يعلم أن لا نهاية لشدة عقابه والله قادر على أن يعاقبه بعقوبة أشد من الأخرى، وفيه إشارة أخرى إلى أن خوفه من الله تعالى يدل على أنه غير منقطع الرجاء.

جواركم ﴿إِنِّي أَرَى﴾ من جنود السماء ﴿مِمَّا لَا تَرَوْنَ﴾ ينزلون منها؛ لإمداد هؤلاء بإذن الله ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ من قهره وغضبه ﴿وَاللَّهُ﴾ القادر على جميع وجوه الانتقام ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: 48] أليم العذاب، لا نجاة للعصاة الغواة من عذابه وعقابه.

اذكروا ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ أي: الذين لم يصفوا عن شوب الشبهة، ولم يصلوا إلى مرتبة الاطمئنان في الإيمان، حين خرجتم نحو العدو مجترئين مع قلتكم وكثرة عددكم: ﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ فألقوا أنفسهم إلى التهلكة بأيديهم بخروج ثلاثمائة عزل بلا عدة إلى زهاء ألف مستعدين، لا تبالوا أيها المطمئنون بالإيمان بهم ويقولهم، لا تفتروا وتضعفوا من هذياناتهم، بل توكلوا على ربكم وفوضوا الأمر إليه ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ فهو حسبه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب في ذاته، قادر على إعانة من استعان منه ﴿حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: 49] متقن في فعله وأمره، ويأمر ما تستبعده العقول وتدهش فيه الأحلام.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ٥٠ ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ ٥١ ﴿كَذَابَ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ٥٢ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغْتِرًا نِعْمَةً أَنْفَاسًا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ٥٣ [الأنفال: 50-53].

﴿وَلَوْ تَرَى﴾ أيها الراي وقت ﴿إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: يتوفاهم الملائكة، ويقتلهم يوم بدر حال كونهم ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾ من يأتي منهم من أمامهم ﴿وَأَذْبَرَهُمْ﴾ أي: يضربون من خلفهم من يأتي من ورائهم ﴿وَقُلُوبَهُمْ﴾ يقولون حين ضربهم وقتلهم تقريبًا وتوبيخًا: ﴿ذُوقُوا﴾ أيها المعاندون المعادون مع الله ورسوله ﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: 50] أي: أنموذج عذاب النار حتى تصلوا إليها، ولو رأيت حالهم حيثئذ أيها الراي لرأيت أمرًا فظيماً فجيئاً.

﴿ذَلِكَ﴾ العذاب والنكال في النشأة الأولى والآخرة إنما عرض عليكم أيها المسرفون ﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: بشؤم ما كسبتم لأنفسكم من الكفر والشرك ومعاداة الرسول والمؤمنين، وبمقدار ما اقترفتكم بلا ظلم عليكم ﴿وَقُلُوبَهُمْ﴾ اعلموا ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾

المستوي على العدل القويم ﴿لَيْسَ بِظَلَّامٍ﴾ أي: ظالم ﴿لِلْعَيْدِ﴾ [الأنفال: 51] الذين يظلمون أنفسهم باقتراف المعاصي والآثام، بل يجازيهم على مقتضى جرائمهم عدلاً منه سبحانه.

إذ دأب هؤلاء المصريين المعاندين ﴿كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: سنتهم وعملهم كعمل آل فرعون وسنتهم ﴿وَوَ﴾ كذاب القوم ﴿الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كعاد وثمود ﴿كَفَرُوا﴾ أولئك البعداء الخارجون عن طريق الحق ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ المنزلة على رسله عتوا وعنادا كهؤلاء المصريين المستكبرين ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ المتقم منهم ﴿يَذْنُوبِهِمْ﴾ التي كسبوها لنفوسهم كهؤلاء ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والجلال ﴿قَوِيٌّ﴾ على الانتقام ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: 52] على من خرج عن مقتضى أمره، بحيث لا يرفع عقابه شيء.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: حلول الغضب والنكال عليهم ﴿بِأَنَّ اللَّهَ﴾ المبنع المفضل ﴿لَمْ يَكْ مُغْتَبِراً﴾ مبدلاً محولاً ﴿نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ﴾ تفضلاً وامتناناً ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا﴾ ويبدلوا ﴿مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ من مقتضيات العبودية والانقياد بالخروج عن حدود الله، ونقض عهوده وارتكاب نواهيه ومحظوراته، وتكذيب آياته ورسله كما غيرها قريش ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لأحوال عباده ﴿سَمِيعٌ﴾ لما يقولون على الله وعلى رسوله حين بطرهم وغفلتهم ﴿عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: 53] بما يخفون في نفوسهم من الأباطيل.

﴿كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ يَذْنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ ٥٤ ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ٥٥ ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرْوَةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ ٥٦ [الأنفال: 54-56].

إذ دأب هؤلاء المسرفين المغيرين على ما هم عليه من المظاهرة والوفاق، والأخوة والقراية ﴿كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ خلوا ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ على ديدنتهم وسنتهم ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ كهؤلاء المكذبين ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ واستأصلناهم ﴿يَذْنُوبِهِمْ﴾ أي: بشؤم ذنوبهم بأنواع العذاب بالطوفان والريح، والخسف والكسف ﴿وَوَ﴾ لا سيما ﴿أَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ المسرفين المبالغين في العتو والاستكبار في اليم؛ لاستغراقهم في بحر الغفلة والضلال ﴿وَكُلٌّ﴾ من أولئك الطغاة وهؤلاء الغواة ﴿كَانُوا ظَالِمِينَ﴾

[الأنفال: 54] أنفسهم بالخروج عن ربة العبودية ورق الإطاعة والانقياد؛ لذلك جزيناهم بما جزيناهم وهل نجازي إلا الكفور؟!

ثم قال سبحانه تسجيلاً عليهم بالكفر والضلال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ﴾ الحكيم المظهر المتقن في إظهارها ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله وآياته ورسله، وأصروا عليه بلا تمايل منهم إلى الإيمان؛ لرسوخهم فيه ﴿فَهُمْ﴾ من خبث طينتهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنفال: 55] أي: لا يرجى منهم الإيمان أصلاً.

عبر سبحانه عنهم بلفظ الدواب؛ لانخلاعهم عن مقتضى الإنسانية الذي هو الإيمان والمعرفة مطلقاً فلحقوا بالبهايم، بل أسوأ حالاً منها، لذلك قال سبحانه: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ [الأنفال: 22، 55].

وإنما صاروا من شر الدواب؛ لأنهم ﴿الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ﴾ يا أكمل الرسل وأخذت مواعيقهم مراراً ﴿ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ وما هي إلا من شدادتهم وخبائث طينتهم، وعدم فطنتهم لحكمة المعاهدة والموائق ﴿وَهُمْ﴾ من تركب جهلهم ﴿لَا يَتَّقُونَ﴾ [الأنفال: 56] ولا يتركون الغدر والنفاق، ولا يوفون بالعهد والميثاق.

﴿فَإِذَا تَشَفَّعْتُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِدَ بِهِمْ مَن خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ وَإِنَّمَا تَخَافُكَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ [الأنفال: 57-59].

﴿فَإِذَا تَشَفَّعْتُمْ﴾ وتظفرون عليهم ﴿فِي الْحَرْبِ فَشَرِدَ بِهِمْ﴾ وفرق جمعهم، وشتت شملهم بحيث ينقطع منهم ﴿مَنْ﴾ يأتي ﴿خَلْفَهُمْ﴾ من مظاهرهم ومعاونيهم ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ بتشتيتك وتفريقك إياهم ﴿يَدْكُرُونَ﴾ [الأنفال: 57] يتعظون ويتنبهون من أمرك وتأيدك فيؤمنوا بك وبما جئت به.

﴿وَإِنَّمَا تَخَافُكَ مِنْ قَوْمٍ﴾ عاهدت معهم، وأخذت الميثاق عنهم ﴿خِيَانَةٌ﴾ ونقضاً من إمارات لاحت منهم وظهر عليهم ﴿فَانْبِذْ﴾ واطرح ﴿إِلَيْهِمْ﴾ أولاً عهدهم ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ بلا عذر وخداع، وأظهر العداوة، وارفع المعاهدة على رؤوس الملأ، ثم اخرج عليهم بالقتال؛ لئلا يؤدي إلى الخيانة والغدر ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتصف بالعدل القويم ﴿لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: 58] المخادعين الغادرين، سيما من المؤمنين الموحدين.

﴿وَلَا يَخْسِبَنَّ﴾ يا أكمل الرسل ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله وبك ﴿سَبَقُوا﴾ مضوا وانقضوا على ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ [الأنفال: 59] المؤمنين، ولا يضطرونهم إلى القتال فعليكم جمع العدة والتهيئة.

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ ﴿٦٠﴾ ﴿وَلِنْ جَنْحُوا لِلْسَّلَامِ فَلَجَنَحَ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٦١﴾ ﴿وَلِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٦٢﴾ ﴿وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبُهُمْ وَلَعَنَّ اللَّهُ أَلْفَ بَيْتِهِمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: 60-63].

﴿وَأَعِدُّوا﴾ أيها المؤمنون ﴿لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾^(١) أي: هيثوا لقتالهم من الآلات والأسباب ما يحتاجون في حراهم، سيما آلات الرمي ﴿وَمِنْ﴾ جملة العدة: ﴿رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ أي: شد الفرس وارتياضه ليوم الحرب ما يفعله ويشده الأبطال المشوقون إلى القتال ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ﴾ أي: بالأعداد والشدة ﴿عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وهم الذين في حوالبكم يقاتلونكم، ويخاصمون معكم جهرةً وعلانيةً، يعني: كفار مكة.

(١) قال البقلي: أعلم الله المؤمنين والعارفين الاستعداد لقتال أعداء الله، وسعى آلة القتال القوة، وتلك القوة قوة الإلهية، التي لا ينالها العارف من الله إلا بخضوعه بين يديه بنعت الفناء في جلاله، فإذا كان كذلك يلبسه الله لباساً من الله بخضوعه بين يديه بنعت الفناء في جلاله، فإذا كان كذلك يلبسه الله لباس عظمته، ونور كبريائه وهيبته، ويغريه إلى الدعاء عليهم، ويجعله منبسطاً حتى يقول في همته وسره: إلهي خذهم، فياخذهم بلحظة، ويسقطهم صرعى بين يديه بعونه وكرمه، ويسلي قلب وليه، ويربحه من شرور معارضة ومنكره، وذلك سهم رمي بقوس الهمة عن كنانة الغيرة، كما رمى نبي الله ﷺ إلى منكره، حين قال: «شامت الوجوه». وهذا الوحي من الله بقوله تعالى: ﴿وَمَا زَمَيْتَ إِذْ زَمَيْتَ وَلَيْكِنْ اللَّهُ زَمَى﴾ سمعت أن ذا النون كان في غزو، وغلب المشركون على المؤمنين، فقيل له: لو دعوت الله، فنزله عن دابته ومسجد، فهزم الكفار في لحظة، وأخذوا جميعاً، وأسروا وقتلوا. وأيضاً اقتبسوا من الله قوة عن قوى صفاته لنفوسكم؛ حتى تقويكم في محاربتها وجهادها. قال أبو علي الروضباري: «القوة»: هي الثقة بالله. قيل: ظاهر الآية أنه الرمي بسهام القسي، وفي الحقيقة رمي سهام الليالي في الغيب بالخضوع والاستكانة، ورمي القلب إلى الحق، معتمداً عليه، راجعاً عما سواه.

﴿و﴾ ترهبون به أيضا ﴿آخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ يعني: الذين ينافقون معكم ويظهرون إطاعتكم وإخاءكم ظاهراً، ويريدون إهلاككم ومقتكم في بواطنهم ﴿لَا تَغْلُمُونَهُمْ﴾ أي: عداوتهم؛ لإخفائهم وإظهارهم صداقتكم ﴿اللَّهُ﴾ المطلع لضمائرهم ﴿يَغْلُمُهُمْ﴾ ويعلم عداوتهم ونفاقهم، ويجازيهم عليها ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ﴾ للأعداء والتجهيز ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ونصر دينه، وإعلاء كلمة توحيده ﴿يُؤَفِّ إِلَيْكُمْ﴾ جزاؤه بأضعاف ما تصرفون وآلافه ﴿وَأَنْتُمْ﴾ في إنفاقكم وإعدادكم ﴿لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: 60] أي: لا تنقصون من جزائه ولا تخسرون، بل تربحون وتفوزون بما ترضى به نفوسكم، وبما لا تدركه عقولكم من الكرامة تفضلاً وامتناناً.

﴿و﴾ بعدما أعددتكم عددكم، وهياكم أسباب الحرب ﴿إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ﴾ أي: مال أعداؤكم للمصالحة والمعاهدة ﴿فَاجْنَحْ لَهَا﴾ ⁽¹⁾ أي: مل وارض أيها الداعي للخلق إلى الحق تلييناً لهم وتلطيفاً معهم على مقتضى مرتبة النبوة والتكميل ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ في جميع أمورك وثق به سبحانه، ولا تخف من مكرهم وخداعهم، فإن الله حسبك وظهيرك يحفظك من مكرهم وغدرهم ﴿إِنَّهُ﴾ بذاته ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: 61] بنياتهم وأعمالهم.

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا﴾ بعدما صالحوا وعاهدوا ﴿أَنْ يَخْدَعُوكَ﴾ ويمكروا بك وبأصحابك فلا تبالوا بهم وبغدرهم وخداعهم ﴿فَإِنْ حَسِبَكَ﴾ أي: كافيك وظهيرك، ومولى جميع أمورك ﴿اللَّهُ﴾ الرقيب عليك في جميع حالاتك، كيف لا يرقبك من مكرهم ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ﴾ وقواك، وأظفرك عليهم ﴿بِنَصْرِهِ﴾ بلا أعداء ورباط خيل ﴿و﴾ بعد تأييدك بنصره أيدك أيضاً ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: 62] بإيمانهم وإطاعتهم لك، وبذل مالهم ومهجهم لتقويتك وإعلاء دينك.

(1) وذلك إن النفس لما رأت صدق الطالب الصادق في الصديق شاهدت جده في الاجتهاد، وتحقق عندها ثباتها على مخالفتها، ومواظبته في العبودية، وتألفت مع الطاعات والعبادات، فتور بأنوارها وتنقاد لأحكام الشريعة، وتزكى بتزكية الطريقة، وتنسم روائح الحقيقة، وتطمئن إلى ذكر الله تعالى، فحينئذ يجوز مصالحتها على القيام بأداء الأوامر والنواهي والفرائض والسنن وترك الدنيا وزيتها وشهواتها على تبديل الصفات النفسانية الحيوانية بالأخلاق الروحانية الربانية، وألا يحمل عليها إصرًا من دوام المجاهدة والرياضة البدنية ولكن مع هذا لا يعتمد على النفس وصلحها، بل يكون الطالب متيقظًا محتاجًا متوكلاً على الله تعالى في مراقبتها؛ لئلا تخدعه وتمكر به. [التأويلات النجمية].

﴿وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ بحيث ارتفع غشاوة الحمية وحجب التعصب عن ضمائرهم مطلقاً، وصاروا في محبتك ومودتك مستوية الأقدام، متحابين لله، منخلعين عن لوازم البشرية مطلقاً، مع كونهم في جاهليتهم على التغالب والتهالك بمقتضى الحمية الجاهلية والغيرة البشرية بحيث ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ﴾ وصرفت ﴿مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ لاثلافهم واجتماعهم ﴿مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ لشدة بغضهم ونفاقهم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ﴾ المحول لأحوال عباده ﴿أَلْفَ بَيْنَهُمْ﴾ بمقتضى لطفه وجماله؛ لينصروك ويقبلوا دينك، ويصلوا إلى مرتبة اليقين والعرفان، ويتحققوا في مقر التوحيد ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب على جميع مراداته ومقدوراته ﴿حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: 63] متقن في جميع أفعاله، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٦٤﴾ ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرْصُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿٦٥﴾ ﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: 64-66].

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ المؤيد من عند الله بالنصر والظفر على الأعداء ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ المولي لأمرورك ﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ﴾ بإذن الله ومشيته ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: 64] المؤمنين بتوحيد الله، الموفين بعهوده، الباذلين مهجهم في سبيله.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ المظفر المنصور بنصر الله ﴿حَرْصُ﴾ ورجب ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ الموحدين ﴿عَلَى الْقِتَالِ﴾ في سبيل الله؛ لترويج توحيده، وقل لهم نيابة عنا ووعداً منا: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿عِشْرُونَ صَابِرُونَ﴾ مستقرون ثابتون تجاه العدو ﴿يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ منهم بتأييد منا وعون ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ﴾ صابرة راسخة، متمكنة ﴿يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بإمدادنا إياكم إلى حيث يقاوم واحد منكم عشرة منهم، ذلك المغلوبة والانهزام إنما عرض عليهم ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: 65] أي: لا يصلون إلى مرتبة العلم اليقيني بالله وكتبه ورسله؛ حتى يترقوا منه إلى مرتبة العين والحق، بل يبقون على مرتبة الحيوانية مهاتين مغلوبين مخذولين.

هذا في بدء الإسلام وضعف المسلمين وقتلهم، وبعدما ارتفع قدره وعلا رتبته

وكثر أهله، وانتشر في الآفاق قال سبحانه: ﴿الآن﴾ أي: حين كثر عددكم وغددكم، وثقل عليكم ما أمرتم ﴿خَفَّفَ اللَّهُ﴾ الميسر لأموركم أثقالكم ﴿عَنكُمْ وَعَلِمَ﴾ بعلمه الحضوري ﴿أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ تستثقلون بتحمل المأمور به، أمركم ثانيًا بقوله: ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِّائَةٌ صَابِرَةٌ﴾ ثابتة ﴿يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ منهم ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾⁽¹⁾ ونصره وتأيدته ﴿وَاللَّهُ﴾ المراقب لأحوال عباده ﴿مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: 66] المتجملين في متاعب أمور الدين.

﴿مَا كَانَتْ لِيَنْبِيَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ أَسْرَى حَتَّى يُشْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلَا كَتَبْتُ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَأَنفِقُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنفال: 67-69].

ثم أشار سبحانه إلى سر جواز أخذ الفدية والجزية للرسول والأنبياء، ووقته وسببه فقال: ﴿مَا كَانَ﴾ أي: ما صح وجاز ﴿لِنَبِيِّ﴾ من الأنبياء ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُ﴾ وفي يده ﴿أَسْرَى﴾ من الكفار يفديهم على المال، ويخلي سبيلهم ﴿حَتَّى يُشْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا يجوز لهم أخذ الفدية إلى أن يكثر القتل ويذل الكفار، ويعز الدين ويغلب أهله إلى حيث اضطر المخالفون لتخليص نفوسهم إلى الفدية، مع أنه لا يتوقع منهم المنازعة والمخاصمة أصلاً، وصاروا مهانين مقهورين، ومتى لم يصلوا إلى هذه المرتبة لم يصح أخذ الفدية، وإذا كان أمر الفدية هكذا، كيف ﴿تُرِيدُونَ﴾ أيها المؤمنون بأخذها ﴿عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ ومتاعها وحطامها ﴿وَاللَّهُ﴾ المصلح لأحوالكم، المدبر لأموركم ﴿تُرِيدُ﴾ لكم ﴿الْآخِرَةَ﴾ وثوابها بأخذها، وما يترتب عليها من اللذات الروحانية، وأنتم

(1) قال في «التأويلات»: يعني: الغلبة والظفر ليس من قوتكم؛ لأنكم ضعفاء، وإنما هو بحكم الله الأزلي ونصره، وإلى الأقوياء وهم محمد ﷺ والذين معه أشداء على الكفار؛ لقوة توكلهم وبقينهم وفقه قلوبهم لا يفر واحد منهم من مائة من العدو كما كان حال النبي ﷺ ومن معه من أهل القوة، ما قال عباس بن عبد المطلب ﷺ: شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فلم أفارقه ورسول الله ﷺ على بغلة بيضاء أهداها له فرقة بن بغامة المذامي، فلما التقى المسلمون بالكفار ولى المسلمون مدبرين فطلق النبي ﷺ يركض بغلته قبل الكفار، قال عباس ﷺ: وأنا أخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ إرادة ألا تسرع، وأبو سفيان أخذ ركاب رسول الله ﷺ، فلما كان رسول الله ﷺ ومن معه صابرين أولى قوة لم يفروا مع القوم.

تقصدون أن تستلذوا بحطام الدنيا ومزخرفاتها ﴿وَاللَّهُ﴾ المراقب لحالاتكم ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب فيما أراد لأجلكم ﴿حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: 67] يريد لكم ما يليق بحالكم ١٩.

﴿لَوْ لَا كِتَابٌ﴾ حكم وأمر ثابت نازل ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ المتقمم الغيور ﴿مَسْبُوقٌ﴾ في سابق علمه بالآلا يأخذ المجتهد المخطئ بخطئه ﴿لَمَسْكُكُمْ﴾ أصابكم ونزل عليكم ﴿فِيْمَا أَخَذْتُمْ﴾ وافتديتم من أسارى بدر ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: 68] مقدار ما فوتتم من حكمة الله وأبطلتم حكمه.

روي أنه ﷺ أتى يوم بدر بسبعين أسيرًا فيهم العباس وعقيل بن أبي طالب، فاستشار رسول الله ﷺ فيهم، فقال أبو بكر ﷺ: قومك وأهلك استبقهم لعل الله يتوب عليهم، وخذ منهم فدية يقوى بها أصحابك، وقال عمر ﷺ: اضرب أعناقهم فإنهم أئمة الكفر، فإن الله أغناك من الفداء فمكني من فلان؛ لنسب له، ومكن عليًا وحمزة من أخويهما، فلنضرب أعناقهم.

فقال رسول الله ﷺ: «مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم ﷺ حيث قال: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ كَافِرٌ بَعْزٌ﴾ [إبراهيم: 36]، ومثلك يا عمر مثل نوح حيث قال: ﴿رَبِّ لَا تَلْزِ عَلَيَّ الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: 26]»^(١) فخير أصحابه فأخذوا الفداء، فنزلت.

فدخل عمر على رسول الله ﷺ فإذا هو وأبو بكر يكيان، فقال: يا رسول الله ﷺ أخبرني، فإن أجد بكاء بكيت وإلا تباكيت، فقال: «أبكي على أصحابك في أخذهم الفداء ولقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه» لشجرة قريبة عنده، فقال ﷺ: «لو نزل العذاب لما برئ منه غير عمر وسعد بن معاذ»^(٢).

ومنى اجتهدتم في أخذ الفدية من الأسرى فأخذتم الفدية، وإن كان اجتهدكم خطأ ﴿فَكُلُّوا مِمَّا حَنَنْتُمْ﴾ بعد إخراج الخمس وافتديتم من الأسرى؛ إذ هي من جملة الغنيمة

(1) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (476/8).

(2) أخرجه الطبري: 14 / 71. قال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشاف» ص (71): «ورواه الواقدي في المغازي من وجه آخر منقطع، بمعناه، وروى ابن مردويه من حديث ابن عمر رفعه: "لو نزل العذاب ما أفلت منه إلا ابن الخطاب"، وانظر: الأموال لأبي عبيد ص (136 - 137)، وتفسير البغوي - (ج 3 / ص 377).

﴿خَلَّالًا﴾ مستحلين مستباحين ﴿طَيِّبًا﴾ خاليًا عن وصمة الشبهة؛ لاجتهادكم في أخذها ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ من المبادرة في الأمور، واحتاطوا فيها ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المدبر لأموركم ﴿عَفُورٌ﴾ لما صدر عنكم من المبادرة إلى الفدية ﴿رَحِيمٌ﴾ [الأنفال: 69] أباح لكم ما أخذتم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنَّ يَسْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُوْتِيكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنفال: 70-71].

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ المبعوث لتكميل الخلائق ﴿قُلْ﴾ على وجه العظة والتذكير بمقتضى شفقة النبوة والإرشاد ﴿لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى﴾ إن يعلم الله المطلع لضمائرهم واستعداداتهم ﴿فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ إيمانًا وإيقانًا، واطمئنانًا وعرفانًا ﴿يُوْتِيكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾ من حطام الدنيا، وهي اللذات الروحانية والكشوف والمشاهدات التي لا مقدار للذات الجسمانية دونها ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ما صدر عنكم من الكفر والعصيان ﴿وَاللَّهُ﴾ الهادي لعباده نحو توحيده ﴿عَفُورٌ﴾ لذنوبهم بعدما وفقهم للإيمان والإطاعة ﴿رَحِيمٌ﴾ [الأنفال: 70] يرحمهم بعدما رجعوا نحوه وأنابوا.

رُوي أنها نزلت في العباس ؑ كلفه رسول الله ﷺ أن يفدي نفسه وابني أخويه: عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث، فقال: يا محمد تركتني أتكفف قريشًا ما بقيت فقال ﷺ: «فأين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك فقلت لها: إني لا أدري ما يصيبي في وجهي هذا، فإن حدث لي حدث فهو لك ولعبد الله وعبيد الله والفضل وقسم»، وقال العباس: وما يدريك؟ قال ﷺ: «أخبرني ربي»⁽¹⁾.

قال: أشهد أنك صادق، وأن لا إله إلا الله وأنت رسول الله، والله لم يطلع عليه أحد إلا الله، ولقد دفعته إليها في سواد الليل، فقال العباس ؑ: فأبدلني الله خيرًا من ذلك إلى الآن عشرين عبدًا، إن أدناهم ليضرب عشرين ألفًا، وأعطاني زمزم ما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة، وأنا أنتظر المغفرة من ربكم؛ يعني: الموعود بقوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنفال: 70].

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا﴾ أولئك الأسارى ﴿خِيَانَتَكَ﴾ بعدما عاهدت معهم وتلطفت بهم فلا

(1) ذكره الثعلبي في الكشف والبيان (75/6).

تتعجب من خيائته ونقضهم ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ﴾ بالكفر والشرك، ونقض العهد والمخرج عن مقتضى الأمور ﴿مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَّ﴾ أي: أمكنك ومكنك أولاً عليهم حتى انتقمتم ﴿مِنْهُمْ﴾ يوم بدر بالقتل والأسر، فإن عادوا ورجعوا بالخيانة أمكنكم ثانياً وثالثاً فلا تبال بهم وبخيائنتهم فإن الله معينك وناصرك، يعصمك من مكائدهم ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لمخايلهم ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بنياتهم ﴿حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: 71] بمجازاتهم يجازيهم على مقتضى علمه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّنْ وَلِيَّتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: 72].

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وأيقنوا بتوحيد الله ووجوب وجوده ﴿وَهَاجَرُوا﴾ عن بقعة الإمكان طالين الترقى إلى المراتب العلية ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ﴾ منفقين لها؛ ليتجردوا عنها ويطهروا نفوسهم عن الميل والمحبة إليها ﴿وَأَنْفُسِهِمْ﴾ ممسكين لها عن مقتضياتها ومشتهاياتها، باذلين ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ليتحققوا بمرتبة الفناء فيه؛ ليفوزوا ببقائه.

﴿وَالَّذِينَ﴾ تحققوا بمرتبة التوحيد وتمكنوا فيها ﴿آوَوْا﴾ أي: مكنوا ووطنوا من يرجع إليهم، ويسترشد منهم من أهل الطلب والإرادة ﴿وَو﴾ بعد تمكينهم وتوطئتهم ﴿نَصَرُوا﴾ وأعانوا عليهم بالتنبيهات اللائقة إمداداً لهم، وبالواردات الغيبة والإلهامات القلبية والمكاشفات العينية ﴿أُولَئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله، الوالهيون في بيداء الوهية ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ يتناصرون ويتعاونون إلى أن يرتفع تعددهم وتضمحل كثرتهم، وسقط الافتراق والاجتماع عنهم، وانقطع السلوك والطلب، وفني السالك والسلوك والمسلك، وبقي ما بقي، لا إله إلا هو لا شيء سواه، وكل شيء هالك إلا وجهه.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ﴿وَلَمْ يُهَاجِرُوا﴾ إلى الفناء فيه ﴿مَا لَكُمْ﴾ أيها الواصلون ﴿مِنْ وَلَا يَتِيهِمْ مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ ويشمروا السلوك مسلك الفناء ﴿وَو﴾ بعدما دخلوا باب الطلب ﴿إِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ﴾ واستعانوا منكم ﴿فِي الدِّينِ﴾ أي: في سلوك طريق التفويض والانقياد ﴿فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ أي: لزم عليكم أن تنصروهم وتعينوا

عليهم؛ ليغلبوا على جنود القوى البهيمية، والشياطين الشهوية والغضبية ﴿إِلَّا عَلَى قَوْمٍ يَتَيْنَكُم وَيَتَيْنُهُمْ مِّيثَاقٌ﴾ من جنود النفس اللوامة المطلعة لغوائل الأمانة الخبيثة ووخامة عاقبتها ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لجميع حالاتكم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من النصر والإعانة ﴿بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: 72] يجازيكم على مقتضى بصارته وخبرته.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَثِيرٌ﴾ (٧٣) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَّهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (٧٤) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَّهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٥) [الأنفال: 73-75].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، ولم يتفطنوا سر سريان وحدته الذاتية السارية في جميع الأكوان، ولم يتنبهوا للفناء في ذاته، ومع ذلك كذبوا الرسل المنبهين، المبشرين المنذرين إصلاحاً لهم وإرشاداً، أولئك الأشقياء المردودون ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ يتعاونون ويتعاضدون في كفرهم وجهلهم ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ أي: ألا تفعلوا ما أمرتم به من الموالاة والمواصلة، والنصر والمعاونة ﴿تَكُنْ فِتْنَةٌ﴾ سارية ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي: طبيعة العلم ﴿وَوَ﴾ حدث فيها ﴿فَسَادٌ كَثِيرٌ﴾ [الأنفال: 73] هو غفلة الأظلال عن الذات، والظل والصور عن ذي الصورة، والعكوس عما انعكس فيها.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ أي: سلكوا وسافروا، وبعدما تحققوا باليقين العلمي ﴿وَجَاهَدُوا﴾ أي: ارتاضوا؛ أي: انخلعوا عن جلباب التعين ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الذي هو الفناء فيه؛ ليتحققوا باليقين العيني ﴿وَالَّذِينَ آوَوْا﴾ ووالوا أولياء الإرادة ﴿وَوَنَصَرُوا﴾ أرباب الطلب ﴿أُولَئِكَ﴾ الواصلون المبرزون ﴿هُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ المتحققون، المثبتون في مرتبة اليقين الحقي ﴿حَقًّا﴾ ثابتاً بلا دغدغة استكمال وانتظار، متقررًا في مقر التوحيد ومقعد الصدق عند ملك مقتدر ﴿لَهُمْ﴾ بعد وصولهم إلى مقرهم ﴿مَغْفِرَةٌ﴾ ستر لأنانيهم التي كانوا عليها على مقتضى تعيناتهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: 74] من الكشف والشهود، نزلاً من عند العزيز العليم.

ثم بشر سبحانه بما بشر به من اقتفى أثرهم أيها المكاشفون الواصلون، وسلك

سبيلكم من أصحاب الإرادة والطلب، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا﴾ كما هاجرتم أيها الفائزون الواصلون ﴿وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ﴾ في سبيل الله وترويج دينه ومستته بأنفسهم وأموالهم كما جاهدتم أنتم ﴿فَأُولَئِكَ﴾ المجاهدون الباذلون ﴿مِنْكُمْ﴾ أي: من جملتكم وعدادكم، وأجرهم عند الله مثل أجركم، وهم إخوانكم وأرحامكم في الدين ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ وذووا المناسبات والقربابات في الدين والعرفان ﴿بِغَضِّهِمْ أُولَىٰ يَبْغِضُ﴾ في الولاية والنصر، والمصاحبة والمؤاخاة ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾⁽¹⁾ أي: في حضرة علمه ولوح قضائه ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتجلي على ذرائر الآفاق ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من رقائق المناسبات ودقائقها ﴿عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: 75] بعلمه الحضورى، لا يعزب عن حضوره شيء.

(1) بين سبحانه أن ميراث الأولياء والصديقين من العلوم الغيبيّة، والحكم الغريبة، والأنباء المعجبة، وبيان المكاشفات والمشاهدات، وأسرار الجذبات، وأحكام المواجيد والواردات، ولطائف المقامات، والسير في المجاهدات لا يصل إلا إلى المريدين الصادقين، والطلابين الموقنين، والقاصدين المودين، والمحبتين، والمستغرقين في أنوار الأذكار، والطارئين من المشتاقين بأجنحة الأفكار؛ لأنهم في محاضر الولايات خرجوا برسم الأرواح جميعاً من معادن الأفراح، وأظهروا من أرحام العدم بتجلي القدم، ومن لم يكن عنهم من أهل الدعاوي والمترسمين، لم يصل إليه ميراث بلابل بساتين الملكوت، وعنادل رياض الجبروت. ولا يعرف ألحان تلك الأطيّار إلا طير يطير بجناح الرسالة والمحبة، والنبوة، والولاية الأذى كيف وصف الله سبحانه خليفة ملكه سليمان صلوات الله عليه، حيث نشر فضائل ما من الله عليه، بقوله: ﴿عَلَّمْنَا مَطَلَقَ الطُّمْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: 16]. نُسب إليهم بطريق من هذه الطرق، فهو نسبهم في الولاية، وله منهم ميراث علوم الحقيقة، وأن الله سبحانه بين في كتاب الأزل، بقوله في كتاب الله قُتِمَتْ أَرْيَابُ هَذِهِ الْمَوَارِيثِ. قال رحمه الله في هذه الإشارة: «العلماء ورثة الأنبياء» ورثوا علومهم بقدر حواصلهم وفهومهم وأحوالهم، وسرعة سيرهم في الملكوت، واقتباسهم أنوار الجبروت، أولئك هم إلهيون، ورثوا نعيم مشاهدته، وهم فيها خالدون، ثم أتى على نفسه أنه كان عالمًا في الأزل باختياره هؤلاء الصديقين بهذه الكرامات، محيطًا بعلمه على اصطلاحهم بعد إيجاده إيتامهم بوصف قبولهم هذه الكرامات، بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آخَرْتَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْأَعْيُنِ﴾ [الدخان: 32]، ويقول في تمام السورة: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: «عليم»: بما أبدى لهم من الاصطفائية الأزلية، وما يبدو منهم من سيات طاعته، والزفرات في شوقهم إلى لقائه إلى الأبد، والله أعلم.

خاتمة السورة

عليك أيها المتوجه نحو الفناء، المهاجر عن ورطة الغفلة والغرور، أن تقتفي في سلوكك هذا أثر أهل الهجرة والنصرة المرابطين قلوبهم لتوحيد الحق، الباذلين مهجهم في تقوية من ظهر عليه ﷺ وترويج دينه وسنته، المتخلقين بأخلاقه، المتعطشين بزلال مشربه المستظلين بظل روائه، المستمسكين بعروة ولايته، ولا يحصل لك هذا إلا بالركون والإعراض التام عن مقتضيات القوى البشرية ولوازم الطبيعة مطلقاً، كهؤلاء الكرام المنخلعين عن جميع ما يشوشهم من لوازم هوياتهم في معاشهم حتى عن الأهل والأوطان.

لذلك انكشف لهم من الحقائق والمعارف والمكاشفات والمشاهدات إلى حيث اضمحلت عن عيون بصائرهم ما سوى الحق مطلقاً، وصاروا فانيين في الله، متحققين بمقام «ويي يسمع ويي يبصر ويي يبطش...»⁽¹⁾، ولك في عزيمتك هذا التثبيت بكتاب الله الذي هو المرشد الحقيقي، وبأحاديث الرسول ﷺ وبكلمات المشايخ العظام - قدس الله أرواحهم - ولا سيما ذلك الاستمداد من قلوب البلاء الوالهي، الحائرين بمطالعة وجه الله الكريم؛ إذ هم لاستغراقهم في بحر الشهود انخلعوا عن لوازم هوياتهم، وما لنا من حالاتهم إلا الحسرة والعبرة إن كنا من أهل الاعتبار والاستبصار.

ربنا اهدنا إليك بأي طريق شئت، إنك بفضلك وجودك تهدي من تشاء من عبادك وإنك على ما تشاء قدير.

(1) رواه البخاري (2384/5، رقم 6137)، وابن حبان (58/2، رقم 347)، والبيهقي (219/10، رقم 20769)، وأبو نعيم في «الحلية» (4/1).

سورة التوبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة التوبة

لا يخفى على من تمكن في مقر التوحيد وتوطن في مكنم الفناء والتجريد، خالصاً عن توهمات التخمين والتقليد، مستوياً على جادة اليقين والتحقيق، معرضاً عن كلا طرفي الإفراط والتفريط أن من لم يترق عن مرتبة الحيوانية ولم تثمر شجرة هويته ثمرة الإنسانية التي هي المعرفة والتوحيد، فهي والحيوانات العجم سواء في الرتبة بل أسوأ حالاً منها، ومنى لم يطع حكم المربي ولم ينقد لأمره لينقذه من جهله ويوصله إلى ما خلق لأجله، سيما إذا تعنت وتجبر واستكبر على من بُعث لتربيته، وأمر لإرشاده وتكميله، بل كذبه وأنكر عليه وطفى على أمره، وأشرك به غيره - العياذ بالله - فقد حل قتله واستباح دمه على الموحدين المتمكنين الذين يبذلون أرواحهم في ترويح كلمة التوحيد ونصرة الدين القويم والشرع المستقيم.

لذلك فرض الجهاد والغزاء على أرباب الولاء المستمسكين بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها؛ ليكون غزاتهم مع الله في جميع حالاتهم وشهادتهم أحياء عند ربهم يرزقون من موائد أفضاله ما لم تره عيونهم ولم تشهد نفوسهم؛ ولهذا ما خلا نبي من الأنبياء من لدن آدم إلى نبينا - صلوات الله عليه وعليهم أجمعين - على القتال والجهاد.

وكما فصل سبحانه بقص قصصهم وسيرهم في كتابه وأجمل البعض، وقال مخاطباً لنبيه: ﴿مِنْهُمْ مَنْ قَضَضْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْضُضْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: 78] والسر في وجوب القتال للأنبياء، والله أعلم أن بعثة الرسل والأنبياء؛ إنما هو لإصلاح أحوال العباد وإرشادهم إلى الخير والصواب في معادهم ومعاشهم.

وذلك لا يتصور إلا بعد ظهور الآراء الباطلة المتخالفة، المتداعية إلى أنواع الإخلال وتزاحم الأهواء الفاسدة المستلزمة للضلال والإضلال، وانتشار أنواع البدع والجدال ورفع هذه المفسدة وقمع أهلها، وقلع غرقها وأصلها، إنما هو باستئصال من تمسك بها وظهر عليها، ولا يتيسر ذلك إلا بالمقاتلة والمشاجرة؛ لذلك جرت مسته

سبحانه عليها وعدّها من أفضل العبادات.

﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١﴾ فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ
أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ۝٢﴾ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ
وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتِغُوا فَهَوْا
خَيْرٌ لَّكُمْ وَلَئِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَنَشِرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ آلِيمٍ
﴿التوبة: 1-3﴾.

ثم لما كان المشركون المصرون على شركهم من أعدى الأعداء، وأشدّهم غيظاً
مع الله ورسوله، وكان عهودهم ومواثيقهم غير معول عليها في علم الله، تبرأ سبحانه منهم
وأمر رسوله أيضاً بالتبري عنهم وعن عهودهم ومواثيقهم، فقال: ﴿بَرَاءَةٌ﴾ أي: هذه براءة
ونقض عهد وإسقاط ذمة، ورفع أمان كان بينكم أيها المؤمنون وبين المشركين، نزلت
إليكم ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ المطلع على مخايل أهل الشرك أصالة ﴿و﴾ من ﴿رَسُولِهِ﴾ لتنبذوا
وتطرحوا عهودكم ومواثيقكم ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ⁽¹⁾ [التوبة: 1].

(1) قال الشيخ نجم الدين كبرى في «التأويلات»: اعلم أن الحكمة من ترك كتابة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ
الرَّحِيمِ﴾ في أول السورة براءة، وكتابتها في سورة النمل؛ ليعلم أنها آية مكررة في القرآن، وأنها
أكثر مما أنزلت في أوائل السور؛ لتكون فاصلة بين الصورتين، ولتكون كل سورة متوجة بتاج
اسم الله تعالى وصفة جماله وجلاله، فحيث نزلت كتبت، وحيث لم تنزل لم تكتب، فلما لم
تنزل في أول براءة ما كتبت في أولها ونزلت في أول النمل وفي أثنائها كتبت في الموضعين
جميعاً ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ يشير إلى أن النفوس المتمردة
المشركة التي اتخذت الهوى إلهاً وتعبدت صنم الدنيا فهادها الروح والقلب في أوان الطفولية،
وعاهدها على ألا يجاهدها ولا يقاتلها إلى حد البلوغ، وهي أيضاً لا تتعرض لهما لاستكمال
القلب واستواء القوى البشرية التي بها يتحمل حمل الأمانة، واعياً بأركان الشريعة وظهور كمال
العقل الذي يستعد لقبول الدعوة وإجابتها، وبه يعرف الرسل ومعجزاتهم، وبه يثبت الصانع
ويرى تعبدته واجباً لأداء شكر نعمه، وإن الله ورسوله بريء من تلك المعاهدة بعد البلوغ، فإنه
إن نقض عهد النفوس مع القلوب والأرواح؛ لأن النفس قبل البلوغ كانت تتصرف في المأكول
والمشروب والملبوس؛ لتربية القلب ودفع الحاجة الماسة غالباً وذلك لم يكن فقراً جداً للقلب
والروح، فأما البلوغ فزاد في تلك التربية بالمأكول والمشروب والملبوس الضروري الشهوة،
ولما ظهرت الشهوة شملت أفتها المأكول والمشروب والنكوح واشتعلت نيرانها وأشعلت يوماً
بيوم وفيها مرض القلب والروح وبعثت الأنبياء ولدفع هذا المرض وعلاجه، كما قال ﷺ: «بعثت

وعليكم ألا تبادروا ولا تفاجثوا إلى المقاتلة بعد نبد العهد، بل أمهلوهم وقولوا لهم: ﴿فَسِيحُوا﴾ أي: سيروا أيها المسرفون ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي: في أرضنا هذه آمين بلا خوف ﴿أَزِنَةَ أَشْهُرٍ﴾ قيل: هي عشرون من ذي الحجة وتمام المحرم والصفرة، وربيع الأول وعشر من ربيع الآخر، واستعدوا في تلك المدة وهيئوا أسباب القتال فيها ﴿وَاعْلَمُوا﴾ أيها المصريون على الشرك يقينًا، وإن زعمتم غلبتكم علينا بمظاهرة إخوانكم واستعانة قبائلكم وعشائركم ﴿أَنْتُمْ خَيْرٌ مُّغْزِي اللَّهِ﴾ أي: لستم غالبين على الله المتعزز برداء العظمة والكبرياء، المتفرد بالمجد والبهاء ﴿وَواعلموا أيضًا﴾ ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المنتقم من عصاة عباده ﴿مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: 2] أي: مهينهم ومذلهم وإن أمهلهم زمانًا بطريق على تجبرهم وتكبرهم.

﴿وَواعلموا أيضًا﴾ ﴿أَذَانٌ﴾ إعلام وتشيع، ونداء صدر عنه ﴿مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ بإذنه ﴿إِلَى النَّاسِ﴾ المجتمعين من أقصى البلاد ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ لأن وقوف يوم حرفة كان يوم الجمعة؛ لذلك سمي به ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ أي: بأن الله المتعزز بالعظمة والكبرياء ﴿بِرِيَّةٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: من عهودهم ومواثيقهم، لا يؤمنهم بعد عامكم هذا ﴿وَرَسُولُهُ﴾ أيضًا مأمور من عنده بالبراءة ونقض العهد وإسقاط الذمة، وبعد اليوم ارتفعت الهدنة وصار الأمر إما السيف وإما الإسلام.

﴿فَإِنْ تَبَيَّنَ﴾ ورجعتم عما أنتم عليه من الكفر والشرك إلى الإيمان والتوحيد ﴿فَهُوَ﴾ أي: إيمانكم ورجوعكم ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في أولاكم وأخراكم ﴿وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ وأعرضتم عن الإسلام والإيمان، وأصررتكم على الشرك والطغيان ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ خَيْرٌ مُّغْزِي اللَّهِ﴾ أي: لستم غالبين على جنوده ﴿وَواعلموا أيضًا﴾ ﴿بِشَرِّ﴾ يا أكمل الرسل ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله وأصروا عليه، ولم يرجعوا عنه مع ورود الزواجر والخوارق ﴿بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: 3] في النشأة الأولى بالقتل والسبي والإجلاء، وفي الآخرة بالحرمان عن رتبة الإنسان.

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَهْدُهُمْ لَأَنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١﴾ إِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ

فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَخْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ
 فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾
 [التوبة: 4-5].

ثم لما لم يصدر عن بعض المشركين شيء من أمارات النقص والإتيان،
 وعلامات المخالفة والمخادعة استبناهم الله سبحانه، وأمر المؤمنين بمحافظة عهودهم
 إلى انقضاء المدة المعلومة، فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ﴾ بعد المعاهدة
 ﴿لَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَهُمْ شَيْئًا﴾ مما عاهدوا عليه والتزموا حفظه، بل داوموا على حفظها ﴿و﴾ مع
 ذلك ﴿لَمْ يَظَاهِرُوا﴾ ولم يعانوا ﴿عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ من أعدائكم حفظاً لعهدكم وميثاقكم
 ﴿فَاتَّبِعُوا إِلَهُمُ﴾ أي: أنتم أولى بإيفاء العهد وإتمام مدته ﴿إِلَى﴾ انقضاء
 ﴿مُدَّتِهِمْ﴾ التي عاهدوا عليها ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المستوي على العدل القويم ﴿يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾
 [التوبة: 4] الذين يواظبون على إيفاء العهود وحفظ المواثيق؛ حذراً عن تجاوز حدود
 الله وعهوده.

﴿فَإِذَا انْسَلَخَ﴾ أي: انقضى ومضى ﴿الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ المأمورة فيها السياحة
 والأمن ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ المصرين على الشرك، الناقضين للعهد والميثاق ﴿حَيْثُ
 وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ في حل أو حرم مستأمنين أم لا ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أي: ائسروهم واسترقوهم،
 واستولوا عليهم ﴿و﴾ إن استحفظوا واستحصنوا ﴿أَخْصِرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ﴾ لأخذهم
 وقتلهم ﴿كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ وممر من شعاب الجبال وشفار الوادي ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ ورجعوا عن
 الشرك، ومالوا إلى الإيمان ﴿و﴾ بعد إيمانهم ﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ التي هي علامة إيمانهم
 وتصديقهم.

﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ التي تطهر قلوبهم عن أمارات النفاق ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ كسائر
 المسلمين تتذكروا، وتلفتوا بما صدر عنهم من المخالفة والمقاتلة والشقاق فيما مضى
 ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿غَفُورٌ﴾ لما صدر عنهم من المعاصي والآثام
 ﴿رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 5] لهم يوصلهم إلى دار السلام بعدما أخلصوا الإنابة والرجوع.

﴿وَلَنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتْلِفْهُ مَأْمَنَهُ
 ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ٦ ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ

رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتَضَا لَكُمْ فَأَسْتَقِيمُوا لَهُمْ
 إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ [التوبة: 6-7].

﴿وَأِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ المناقضين الذين أمرت بقتلهم وأسرهم ﴿اِسْتَجَارَكَ﴾
 وطلب منك جوارك؛ ليأمنه عما يؤذيه ﴿فَأَجِزْهُ﴾ أي: فعليك يا أكمل الرسل على
 مقتضى شفقة النبوة والرسالة أن تجيره وتؤمنه في جوارك ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾
 الهادي لعباده ويفهم سرائر دينك وشعائر شريعتك كأنه يطلع على حقيقته؛ لأن أصل
 فطرة كل أحد وجبلته على الإسلام.
 ﴿ثُمَّ﴾ بعد حصول اليأس عن الإيمان من إيمانه وتنبه ﴿أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾^(١) أي:

(1) قال العلامة البحر المحقق سيدي البيطار: اعلم - رحمك الله تعالى - أنه لم يكن بين الله تعالى
 وبين محمد ﷺ تشبيه البتة، بل الأمر واحد، وذلك أن الحقيقة الإلهية باطن الحقيقة المحمدية،
 والحقيقة المحمدية ظاهر الحقيقة الإلهية، وإلى ذلك الإشارة بقوله ﷺ «أنا من الله والعالم مني»
 فالله تعالى واحد الذي منه محمد ﷺ فهو أوله وباطنه؛ إذ لا أصل للحقيقة المحمدية النورانية إلا
 الواحد تعالى وتقدس، وقد تجلى الواحد باسمه المحب فأحب نفس أن يعرف لنفسه، فأفاض
 من ذاته مرآة واحدة، فكانت المرآة حقيقة محمد ﷺ، فرأى نفسه بتلك المرآة المحمدية، ففي
 الرتبة الأولى التي هي الكثر المخفي كان الواحد أولاً باطناً، ولما ظهرت له حقيقة نفس في مرآة
 محمد ﷺ، التي هي من قبض ذاته صار الواحد آخرًا ظاهرًا، والواحد أولاً هو الواحد آخرًا لأنه
 لم يظهر في تلك المرآة إلا نفسه، كما أنك إذا ضربت الواحد في الواحد لم يخرج إلا واحد
 بعينه، ولهذا السر قال تعالى في محمد ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾
 [الفتح: 10]. وقال تعالى ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِمْ وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أي تعظموا الرسول، ﴿وَتُوَلِّوهُ﴾ أي:
 الرسول ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أي: تسبحوا الرسول ﴿بُحُورَةً وَأَصْبَحًا﴾، وشاهد هذا التوحيد أيضًا قوله
 تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ [التوبة: 62] ولو كان بينهما تشبيه لقل: أحق أن
 يرضوهما وقال تعالى: ﴿يُبَايِعُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَسْتَحْجِبُونَ إِلَهُ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾
 [الأنفال: 24] ولم يقل دعواكم بالتشبيه، فصح قوله ﷺ: «ومن رأي فقد رأى الحق»، فإن قلت:
 إنه قال: «لا تقولوا سيدنا إنما السيد الله» فلم يرض إلا باسم العبد قلت: إنما النهي عن إطلاق
 اسم السيد على غير الله ولا غير، ألا ترى قوله: «أنا سيد الناس» وكيف لا، وقد قال الله تعالى:
 ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: 80]، ولما بايعوه على الأنفس والأموال نزل قوله
 تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة:
 111]، فهذا الشراء ليس شراء غالب من حاضر، بل هو شراء حاضر من حاضر. ومما قرأناه

تترك معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 56] فالمعنى أن النبي قبله لرؤية الله نفسه فيه؛ لأنه ما رأى واحدته إلا في مظهر محمد ﷺ الذي هو مرآة ظهور واحدته، فما رأى في محمد ﷺ سواه، وكذا الملائكة؛ لأنه أصلهم وهم جميعًا فرعه، فهو حقيقتهم لا السراج المنير لهم، وهذا معنى ما ورد أن الملائكة خلُقوا من النور، ولا نور في الوجود إلا محمد ﷺ فهو نور السموات والأرض أي: حقيقة وجودهما، ثم أن الله تعالى نبهنا أن نصلي عليه فنقول: «اللهم صلي على محمد» ونداب على ذلك ليحصل لنا هذا الكشف، ويفتح لنا هذا السر فترى نفوسنا هو ﷺ كما قال: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: 6] أي: ليس للمؤمنين أنفس، بل أنفسهم هو ﷺ ثم قال: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: 6] والأزواج بلسان الإشارة جميع أسماء الله التي يظهر ﷺ بمعانيها من الحياة والعلم والقدرة، والسمع والبصر، والإرادة والكلام، في قراءة (وهو أبوهم) أي: الذات المطلقة، ومن الذات والأسماء تولد العالم الصوري، فافهم.

وقال تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ [الأحزاب: 5] وهو أبونا عمومًا على الإطلاق، لا على الخصوص، ولهذا سلب الله عنه الأبوة المقيدة فقال: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: 40].

إذا فهمت ذلك فهمت قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: 33]، وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ [الحجرات: 7]. فصلاتنا عليه أن نترك وجودنا إليه ونسلم الأمر إليه تسليمًا فلا نرى في جميع الوجود إلا محمدًا ﷺ، وهذا مشهد صديقي، لذلك قال لابنته أم المؤمنين «عائشة» في شأن براءتها: «قومي فاشكري رسول الله»، لأنه أدرك معنى الصلاة والسلام عليه، ولم يكن هذا التحقق في ذلك الحال لبنته، فقالت: «لا أشكر إلا الله»، فإذا علمنا أننا هو عادت صلاة الله وملائكته، بل وصلاتنا عليه وتسليمنا عليه علينا، فعند ذلك ندرك ما أخبرنا الله به من قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ﴾ أي: ظلمات الشرك الخفي ﴿إِلَى النُّورِ﴾ [الأحزاب: 43] وهو محمد ﷺ، فقد علمت أن معنى الصلاة والسلام على محمد ﷺ الوصلة التامة به والتحقق الذاتي من الله، ومن الملائكة وسأ حتى نراه فرد الوجود وعين الشاهد والمشهود. إذا تقرر ذلك، وعلمت سر الواحدية التي أشرنا إليها أدركت سر قول الله: ﴿فَلْيَجْزِهِ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: 6]، ولم يقل في حقه كما قال في حق موسى ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَحْكِيمًا﴾ [النساء: 164] إذ ليس بين الله ومحمد مكلم وكليم.

ألا ترى قوله تعالى في حق القرآن العظيم: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: 40] فثبت أن القرآن قوله، كما أن المنزل حقيقة ذاته وعينه، وذلك ثمرة قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ

[الجاثية: 14] أي: من أمتك بالتحقق بمقامك .

فمن هذا المعنى ما جرى للغوث الجيلي ﷺ حيث قال: رأيت امرأة كانت أرضعتني وقد أسود وجهها من العذاب فألبست لها النار صورة الجنة، ومن نور الله بصيرته وشرح الله صدره في فهم قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 17]، وفي قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199] علم أنه صاحب العطاء المطلق لكل سائل، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَ﴾ [الضحى: 10]، فافهم إن كنت من أهل الفهم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

نكتة لطيفة وحكمة شريفة: أمر الله محمداً ﷺ بقوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: 6] فقوله: ﴿فَأَجِرْهُ﴾ أي: من الشرك؛ لأن ﴿الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13]، فيحتمل أنه ظلم للشريك، حيث جعله غير الحق، ولا غير، فالمشرك ظلم مرتبة الوجود المطلق؛ لأن مرتبة التوحيد وزعم الغيرية محال، ويحتمل أن الشرك ظلم عظيم من المشرك لنفسه حيث أنزلها منزلة الجهل، فزعم أنه يعبد غير الله ليقربه إلى الله زلفى، والحال أنه ما عبد إلا الله؛ لأن الله هو الظاهر في كل شيء، فكفره أي: ستره وهو الوجود المطلق بالحكم العدمي الذي هو الشرك، وذلك محال، فلذلك السر قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: 48] والمغفرة: هي الستر، والشرك عدم محص لا وجود له حتى يستره الله بل هو تخيل وهمي لا وجود له إلا في نفس المشرك لا في الخارج؛ لأن الله قضى ألا يُعبد إلا إياه، ففي الحقيقة لا شرك في الوجود حتى يغفر؛ أي: حتى يستر؛ لأن السر لا يكون إلا لأمر وجودي، والذي هو من أصله عدم كيف يستر؟ فالأمر الإلهي بقوله تعالى: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: 6] يقتضي أن المصطفى ﷺ أمر بالتوجه إلى المشركين المحجوبين حتى يجيرهم من شركهم، فيسمعون كلام من جميع مظاهر الله، وإذا كان أبو العباس المرسى ﷺ يأتيه الأعرابي يبول على ساقية فيوصله بالتوجه والهمة الجاذبة إلى الله، فلا عجب أن السيد المطلق يُوصل من استجار به إلى الله، ويسمعه كلام الله، ولهذه النكتة قال تعالى: ﴿ثُمَّ أُبْلِغَهُ مَأْمَتَهُ﴾ [التوبة: 6] ولا مامن له إلا حضرة السلام، وهو معرفة نفسه بأنه سالم من وجود سوى. فلذا قال: ﴿فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ﴾ [الزخرف: 89]، أي: أوصلهم إلى الحضرة السلامية، فكان يقول: «اللهم أنت السلام ومنك السلام وإليك يرجع السلام» ومن أراد أن يحقق ما قلناه فليتبصر بقوله ﷺ: «اللهم اهد قومي لأنهم لا يعلمون» فليت شعري هل يجاب دعاؤه أو لا؟ نعم والله يجاب دعاؤه ﴿وَسَمِعَ قَوْمٌ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيْ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: 227]، والمراد بالظلم هنا: الشرك لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13]، فإذا أقر الله

موضع أمانه ومحل قرانه تميمًا للشفقة والبروة ﴿ذَلِكَ﴾ الأمن والمواساة والتلين المأمور ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ﴾ في غاية البعد عن الإيمان وما يترتب عليه من المواخاة والمواساة، وأنواع الخيرات والمبرات ﴿لَا يَفْلَحُونَ﴾ [التوبة: 6] أي: لا يطمعون ولا يتوقعون صدورها من أهل الإيمان، فمتى صدر منكم أمثال هذا عسى أن يتحايبوا ويتقربوا إليكم.

ثم قال سبحانه: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ المصرين على الشرك والعناد، المبالغين في العتو والاستكبار ﴿عَهْدٌ﴾ مقبول ﴿عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾ إذ هم من غاية انهماكهم في كفرهم وضلالهم لا يلتفتون إلى الله ورسوله؛ لذلك لا يقبل منهم العهد والميثاق، بل أمرهم إما السيف وإما الإسلام.

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ معهم ﴿عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ فإنهم وإن كانوا أيضًا من المشركين المصرين، إلا أن حرمة المسجد الحرام توجب إيفاء عهودهم ماداموا موقنين بها ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا﴾ واستحفظوا ﴿لَكُمْ﴾ عهدكم ﴿فَأَسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ بل أنتم أولى لرعاية حرمة المسجد الحرام ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 7] الذين يحفظون نفوسهم عن سوء الأدب مع الله في جميع أحوالهم، سيما رعاية حرمة بيته الحرام.

﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا ذِمَّةً يَرْضَوْنَكُمْ بِأَقْوَمِهِمْ﴾

عين المصطفى ﷺ بإجابة دعائه لهم بالهداية، سواء كان في الدنيا أو في الآخرة يعلمون أي منقلب ينقلبون، وما ينقلبون إلا إلى الوجود الإلهي المطلق السالم من السوى وهو المآل من الذي أمر ﷺ بالإبلاغ إليه، فهو ﷺ مظهر هداية الله على الإطلاق ومدلول اسم الله الهادي.

ألا ترى أنه لما قيل له: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: 13] قبل من أهل الكتاب الجزية والخراج وأدخلهم كعبة أمانه المطلق، وحول شقاء من قال: ﴿وَمَا يَلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: 24] إلى السعادة بقوله: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر» وذلك تقرير لسعادتهم حين ولوج الجمل في سم الخياط ﴿فَيُؤْمِنُوا لَا يُقْتَلُ عَنْ دَنِيَّةٍ إِنْسٌ وَلَا حَيَّانٌ﴾ [الرحمن: 39] ﴿تَهْرَكَ أَمَّ رَبِّكَ ذِي الْكُلْبُلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: 78].

وَتَأْتِي قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ [التوبة: 8-10].

﴿كَيْفَ﴾ يكون للمشركين معكم عهد أيها المؤمنون؟ وكيف تعتمدون على ميثاقهم ﴿وَوَ﴾ هم من غاية بغضهم وشدة شكيمتهم ﴿إِنْ يَظْهَرُوا﴾ ويظفروا ﴿عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ﴾ أي: لا يحافظوا ولا يراعوا في حقكم ﴿إِلَّا﴾ أي: عهدًا وميثاقًا ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾ حقًا لازمًا يلتزمون رعايتها؛ كالحقوق التي جرت بين المتعاهدين، بل حالهم أنهم ﴿يُزْضُونَكُمْ﴾ ويعاهدون معكم ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ خداعًا ومداينة ﴿وَتَأْتِي قُلُوبُهُمْ﴾ عما صدرت على ألسنتهم من المعاهدة، بل ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة: 8] خارجون متمردون عن العهد مطلقًا، لا يتفوهون به أصلًا، فكيف أن يعهدوا؟!.

ومن غاية فسقهم وتمردهم، ونهاية توغلهم في الضلال ﴿اشْتَرَوْا﴾ واستبدلوا ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ المتزلة على رسوله، الدالة على توحيده مع وضوحها وسطوعها ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: بدلًا حقيرًا، مبتدلاً مردوئًا، وهو اتباع الأهوية الباطلة والآراء الفاسدة التي ابتدعها المبتدعون بتسويلات شياطينهم ﴿فَصَدُّوا﴾ أي: أعرضوا وانصرفوا نفوسهم واتباعهم؛ بسبب تلك الآراء ﴿عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي: عن دين الله الموصل إلى توحيده ﴿إِنَّهُمْ﴾ من غاية ضلالهم وإضلالهم ﴿سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 9] هذا العمل.

ومن سوء عملهم أيضًا وقبح صنيعهم أنهم من غاية بغضهم مع المؤمنين ﴿وَلَا يَرْقُبُونَ﴾ ولا يراعون ﴿فِي﴾ حق ﴿مُؤْمِنٍ﴾ أي: واحد من أهل الإيمان وإن بالغ في ودادهم وإخائهم، ومحافظة عهودهم وذممهم ﴿إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ أصلًا؛ لشدة شكيمتهم وقوة بغضهم وضيغيتهم ﴿وَوَ﴾ بالجملة: ﴿أُولَئِكَ﴾ الأشقياء المردودون المطرودون ﴿هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة: 10] المقصرون على التجاوز عن حدود الله ومقتضى المروءة اللازمة للمرتبة الإنسانية؛ لخبث طبيعتهم ورداءة فطرتهم.

﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَلِإِيَّائِكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١١﴾ وَإِنْ لَكُنَّ لَا تَعْلَمُونَ لَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تَقِيلُونَ قَوْمًا

نَكُتُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَكُمُوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَكَدْهُوْكُمْ أُولَئِكَ مَرَّةٌ
أَتَخَشَوْنَهُمْ فَأَلَّاهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ [التوبة: 11-13].

﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ ورجعوا إلى الإيمان بعدما بالغوا في العناد والاستكبار ﴿و﴾ بعد رجوعهم ﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ المصطفية لبواطنهم عن الميل إلى غير الحق ﴿وَأَتَوْا الزَّكَاةَ﴾ المطهرة لظواهرهم عما يشغلهم عن الحق ﴿فَإِخْرَاجُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ أنتم وهم سواء في سلوك طريق الحق والرجوع إليه ﴿و﴾ إنما ﴿تَفْصِلُ﴾ ونوضح ﴿الآيَاتِ﴾ الدالة على توحيدنا ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: 11] ويصلون إلى مرتبة اليقين العلمي، ويريدون الترفي منها إلى اليقين العيني والحقي.

﴿وَإِنْ نَكُتُوا﴾ ونقضوا ﴿أَيْمَانَهُمْ﴾ ونبذوا عهودهم ﴿مَنْ بَغَدَ عَهْدِهِمْ﴾ وراء ظهورهم ﴿و﴾ مع ذلك ﴿طَقُّوا فِي دِينِكُمْ﴾ بتصریح التكذيب والتقييع في الأحكام والمعتقدات، والطاعات والعبادات ﴿تَقَاتِلُوا﴾ أيها الغزاة المرابطون قلوبكم مع الله ورسوله ﴿أَيُّمَةُ الْكُفْرِ﴾ أي: صناديدهم ورؤساءهم؛ لأنهم ضالون مضلون، وإن تفوهوا بالعهد والميثاق لا تبالوا بهم ويعهودهم ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ أصلاً؛ لتخمير طيبتهم على الشرك والشقاق ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: 12] ويتنبهون؛ أي: سفلتهم الضالون عما عليه رؤساؤهم المضلون بعد انقراضهم.

ثم قال سبحانه تحريضاً للمؤمنين على القتال على وجه المبالغة: ﴿أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَتُوا أَيْمَانَهُمْ وَ﴾ بعد نقضهم الأيمان والعهود ﴿هَكُمُوا﴾ أي: قصدوا واهتموا ﴿بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ من مكة ﴿و﴾ الحال أنه ﴿هُمْ﴾ قوم ﴿بَدَّوْكُمْ﴾ بالمعاداة والمخاصمة ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ في بدء الإسلام حين تحدوا مع رسول الله بالمعارضة فأفحموا، والتجأوا إلى المقارعة والمشاجرة ﴿أَتَخَشَوْنَهُمْ﴾ منهم أيها المؤمنون في مقاتلتهم أن يلحقكم مكروه من جانبهم أم تداهنون معهم وتضعفون عنهم؟ وإن خشيتهم عن لحوق المكروه وعروض المنكر ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾ لأنه قادر على وجوه الانتقامات، فعليكم أن تخشوا من الله ومخالفة أمره وحكمه ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: 13] بالله وبأوامره ونواهيه.

﴿قَتَلَوْهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَنْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَصْمُرُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَظْهَرُ

صُدُورُ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيَذْهَبُ غَيْظُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ

عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ
وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ

﴿١٦﴾ [التوبة: 14-16].

وبالجملة: ﴿قَاتِلُوهُمْ﴾ حيث وجدتموهم، فإنكم منصورون عليهم ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ بأنواع العذاب من الأسر والقتل والإجلاء ﴿وَيُخْزِيهِمْ﴾ أي: يذلهم ويهينهم ما بقي منهم من ذرياتهم ﴿وَيَتَضَرَّكُمُ﴾ دائماً ﴿عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ﴾ بقهرهم وإذلالهم ﴿ضُجُورَ قَوْمٍ﴾ غرباء ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: 14] حيث صارت قلوبهم مرضى من وعيدات أولئك الطغاة الفجاة، المتجبرين المستكبرين.

﴿وَيُذْهِبُ﴾ بقتل أولئك الكفرة، وقمعهم واستئصالهم ﴿غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ أيما حدث وخذش في قلوب هؤلاء الغرباء المؤمنين الذين تركوا أوطانهم؛ لحب دين الإسلام من استيلاء الكفار وكثرة عددهم وعددهم، وجاههم ومالهم ﴿وَيَثُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يصرف ويرجع من الباطل؛ بسبب قلعهم وقمعهم من في قلوبهم مرض من الأفاصي والأداني ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿عَلِيمٌ﴾ بمخايلهم وأمراض قلوبهم ﴿حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 15] في علاجها ودفعها.

ثم قال سبحانه على وجه التشنيع للمؤمنين؛ تحريكا لحمية الإيمان: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ ، ظننتم أيها المؤمنون الكارهون للقتال، المتقاعدون عن أمثال الأوامر الواقعة فيه ﴿أَنْ تُتْرَكُوا﴾ على ما أنتم عليه، ولا تؤمروا بالقتال من بعد ﴿وَوَ﴾ زعمتم زعما فاسدا ﴿لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ ولما يفصل ويميز بعلمه الحضورى ﴿الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ في سبيله مخلصين خالصا لرضاه.

﴿وَوَ﴾ مع ذلك ﴿لَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ﴿وَلَا﴾ من دون ﴿رَسُولِهِ﴾ المستخلف منه، النائب عنه ﴿وَلَا﴾ من دون ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ المرابطين قلوبهم مع الله ورسوله ﴿وَلِجَنَّةٍ﴾^(١) أي: بطانة ومرجعا يوالونهم ويفشون إليهم سرائرهم، بلى إن الله عليم

(١) بطانة، أي: جاهدوا وأفردوا محبتهم لله ولرسوله وللمؤمنين، ولم يتخذوا من دونهم بطانة، أي: أصحاب سر يوالونهم ويفشون إليهم أسرارهم، بل اكتفوا بمحبة الله ومودة رسول الله والمؤمنين، دون موالاة من عاداهم. البحر المديد (388/2).

بجميع ما صدر عنكم من علامات الإخلاص وأمارات النفاق ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لجميع أحوالكم ﴿خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 16] أي: تتخللون وتحضرون من التكاسل والتواني والإلجاء إلى الأعداء والرجوع إليهم في خلواتكم وأسراركم.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (١٧) ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (١٨) [التوبة: 17-18].

ثم قال سبحانه: ﴿مَا كَانَ﴾ أي: ما صحَّ وجاز ﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾ المصرين على الشرك والعناد ﴿أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ المعدة لأهل الإيمان؛ ليعبدوا فيها حتى يتحققوا بمقام المعرفة والتوحيد حال كونهم ﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ﴾ والشرك قولاً وفعلاً وشركهم منافٍ لتعميرها؛ إذ ﴿أُولَئِكَ﴾ البعداء الهالكون في تيه الضلال ﴿حَبِطَتْ﴾ أي: سقطت عن درجة الاعتبار ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ الصالحة عند الله بحيث لا ينفعهم أصلاً؛ لمقارنتها بالشرك، بل ﴿وَمَالِ أَمْوَالِهِمْ﴾ المعددة لأهل الشرك والضلال ﴿هُمْ خَالِدُونَ﴾ [التوبة: 17] لا نجاة لهم أصلاً، سواء صدر عنهم الأعمال الصالحة أم لا.

بل ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ المعدة لخلاء العبادة والتوجه نحو الحق والمناجاة معه ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ وتحقق بمرتبة اليقين العلمي في توحيده ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الذي يصير الكل إليه ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ أي: أدام الميل والرجوع نحو الحق دائماً ﴿وَأَتَى الزَّكَاةَ﴾ تخفيفاً وتطهيراً لنفسها عن العلائق العائقة عن التوجه الحقيقي الحقي ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: لم يكن في قلبه خشية من فوات شيء أصلاً إلا من عدم قبول الله أعماله، ومن عدم رضاه سبحانه منه ﴿فَعَسَى﴾ وقرب ﴿أُولَئِكَ﴾ السعداء الأمناء، الباذلون جهدهم في طريق التوحيد، المشتاقون إلى فضاء الفناء ﴿أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: 18] المتحققين في مقام الرضا والتسليم وإن وفقوا بالإخلاص من عنده.

اصنع بنا ما تحب أنت وترضى يا دليل الجائرين.

﴿ لَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللّٰهِ وَاللّٰهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٩) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللّٰهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَعَلَتْ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللّٰهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ [التوبة: 19-22].

﴿أَجَعَلْتُمْ﴾ أي: صيّرتم وسوّيتم أيها المشركون المعاندون المكابرون ﴿سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ مع كونهما صادرتين عنكم، وأنتم على شرككم وضلالكم ﴿كَمَنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ﴾ أي: كإيمان من آمن بتوحيد الله ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ المعدّ لجزاء الأعمال ﴿وَجَاهَدَ﴾ بماله ونفسه ﴿فِي سَبِيلِ اللّٰهِ﴾ لإعلاء دينه وكلمة توحيده؟! كلا وحاشا ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللّٰهِ﴾ عملة السقاية وعمارة المساجد مع المؤمنين الموقنين بتوحيد الله المجاهدين في سبيله لنصرة دينه ﴿وَاللّٰهُ﴾ الهادي لعباده إلى توحيده ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: 19] الخارجين عن مقتضى أوامره ونواهيه المنزلة على رسله وأنبيائه.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: تحققوا بمرتبة اليقين العلمي بتوحيد الله ﴿وَهَاجَرُوا﴾ عن بقعة الإمكان طالبين مرتبة أعلى منها ﴿وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ﴾ وطريق توحيده ﴿بِأَمْوَالِهِمْ﴾ أي: يبذل ما نسب إليهم من أمتعة الدنيا العائقة عن الوصول إلى فضاء الوحدة ﴿وَأَنْفُسِهِمْ﴾ بمنعها عن مشتبهاتها ومقتضياتها، طالبين إفناء أنانياتهم وهوياتهم في هوية الحق ﴿أَكْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللّٰهِ﴾ وأعلى منزلة ومرتبة ماداموا سالكين سائرين ﴿وَو﴾ بعد وصولهم وانقطاع سلوككم ﴿أُولَٰئِكَ﴾ السعداء الواصلون ﴿هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [التوبة: 20] بما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

لذلك ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: باستعداداتهم الكامنة في عالم الأسماء والصفات ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ غير منقطعة، نازلة ﴿مِّنْهُ﴾ سبحانه ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ كُلت الألسن عن تفسيره وانحصرت العقول عن التعبير عنه ﴿وَجَنَّاتٍ﴾ مترهات متجددات حسب تجددات التجليات الحية ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ أي: في تلك الجنات المتجددات ﴿نَعِيمٌ﴾ أي: إمداد وفواتح ﴿مُقيمٌ﴾ [التوبة: 21] دائم غير منقطع.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ مؤبدًا لا تأييد أمد وزمان، وبالجمله: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتجلي على قلوب خلص عباده ﴿عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة: 22] لهم، بحسب استعداداتهم وقابلياتهم بعدما انكشفوا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَاُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٣) قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٤) [التوبة: 23-24].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم: الاجتناب عن أهل الغفلة والغرور؛ حتى لا يسري ضلالهم إليكم، سيما أقرباؤكم النسبية ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾ أيها المهاجرون ﴿ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا﴾ واختاروا ﴿الْكُفْرَ﴾ والشرك ﴿عَلَى الْإِيمَانِ﴾ والتوحيد ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ﴾ بعد ورود النهي ﴿فَاُولَئِكَ﴾ المتخذون المضلون الضالون ﴿هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة: 23] المتجاوزون عن مقتضى حكم الله ونهيه.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للمؤمنين الذين يقصدون موالاة أنسابهم: ﴿إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾⁽¹⁾ أي: أقاريكم وذووا أرحامكم

(1) قال في التأويلات: أي: النفوس، فإن بازدواج الأرواح والأشباح تولدت القلوب والنفوس منها، فالأرواح للقلوب بمثابة الآباء والنفوس بالإخوان؛ ثم اعلم أن لكل واحد من الروح والقلب والنفس كفرًا وإيمانًا مناسبًا لحاله، والكفر: هو السر والحجاب، والإيمان: هو الشهود والكشف، فكفر بالروح من حجاب الأنانية الروحانية والبقاء مع الله تعالى، وإيمانه بالفناء عن أنانيته في الله وبقائه بالله، وكفر القلب: موته ومرضه وصممه ويكمه وعماه وهو الكفر الحقيقي، وإيمانه: سلامته عن هذه والعلل والآفات وإحيائه بالنور الساطع الرباني من كتابة الله فيه بقلم الكرم، به يشاهد الحق تعالى ويكشف بصفاته وهو الإيمان الحقيقي ومعدنه القلب، وكفر النفس: انهماكها في شهوات الدنيا واستغراقها باستيفاء لذاتها وبقاء صفاتها الحيوانية والشيطانية، وإيمانها: بخروجها عن صفاتها الطبيعية الظلمانية إلى الأخلاق الروحانية الشرعية النورانية واطمئنانها بالذكر وأنسها مع الله، فربما تكون بعض هذه الخلقة مؤمنًا وبعضها كافرًا، فمعنى

﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي: اكتسبتموها بأيديكم ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ لمضي وقت ربحها ونمائها ﴿وَمَسَاكِينُ﴾ طيبة ﴿تَرْضَوْنَهَا﴾ أي: ترضى بها نفوسكم، وتطيب بها قلوبكم ﴿أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ المحبوب في قلوب أوليائه ﴿وَرَسُولِهِ﴾ الذي هو حبيبه وخليله ﴿وَمِنْ﴾ من ﴿جِهَادٍ﴾ هو عبارة عن الاجتهاد ﴿وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾ لتفوزوا بشرف الوصول والشهود ﴿فَتَرْبُضُوا﴾ أي: فعليكم أن تربصوا وتنتظروا ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ﴾ المنتقم من المتخذين لغيره أولياءه ﴿بِأَمْرِهِ﴾ الموجب لعذابه ﴿وَاللَّهُ﴾ الهادي لعباده ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: 24] الخارجين عن مقتضى ولائه وولايته.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدِيرِينَ﴾ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٧) [التوبة: 25-27].

اذكروا أيها المؤمنون ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ﴾ الحفيظ الرقيب عليكم ﴿فِي مَوَاطِنَ﴾ ومواقع ﴿كَثِيرَةٍ﴾ حين لا ينفعكم أحسابكم وأنسابكم شيئاً، لاسيما في حرايبكم مع هوازن وثقيف ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ هو واد بين مكة والطائف ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ أن تكونوا مغلوبين؛ إذ أنتم اثنا عشر ألفاً، وعدوكم أربعة آلاف ﴿فَلَمْ تُغْنِ﴾ حيث كثرتكم ﴿عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ من غلبة العدو مع قلتهم ﴿وَمِنْ﴾ صرتم من غاية رعبكم وخوفكم إلى حيث ﴿ضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي: مع وسعتها فلم تجدوا فيها مقراً تمكنون عليها من غاية رهبتكم ﴿ثُمَّ﴾ أدى أمركم وخوفكم إلى أن ﴿وَلَّيْتُمْ﴾ ورجعتم ﴿مُدِيرِينَ﴾ (١) [التوبة: 25] صائرين ظهركم على العدو.

الآية يشير إلى أن القلوب المؤمنة لا ينبغي أن يتخذوا آباءهم الأرواح وإخوانهم النفوس أولياء، ولا يتركوا عداوتهم بترك الجهاد معهم.

(1) قال القشيري: يعني نصركم يوم حنين حين تفرق أكثر الأصحاب، واقتربت أنياب الكثرة عن نقاب القهر فاضطربت القلوب، وخانت القوى أصحابها، ولم تغن عنكم كثرتكم، فاستخلص الله أسراركم - عند صدق الرجوع إليه - بخسن السكينة النازلة عليكم، فقلب الله الأمر على

﴿ثُمَّ﴾ بعد انهزامكم وإدباركم ﴿أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ المولى لأمركم ﴿سَكِينَةً﴾ أي: رحمته الموجبة للقرار والوقار، والطمأنينة ﴿عَلَى﴾ قلب ﴿رَسُولِهِ وَعَلَى﴾ قلوب ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين تمكنوا معه، واستقروا حوله؛ اتكالا على الله واتفاقا مع رسوله ﷺ ﴿و﴾ تثبت الرسول وتقرير من تبعه ﴿أَنْزَلَ﴾ سبحانه نصرةً لنبه من الملائكة ﴿جُنُودًا﴾ مجندة ﴿لَمْ تَرَوْهَا﴾ عيونكم ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بنزولها عذابا شديدا من القتل والأسر والإذلال في النشأة الأولى والأخرى بأضعافها ﴿وَذَلِكَ﴾ أي: ما لحقهم من أنواع الإذلال ﴿جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: 26] المحاربين مع الله ورسوله.

رُوي أن رسول الله ﷺ خرج بعد فتح مكة، ثم توجه نحو حنين؛ لقتال هوازن وثقيف مع عشرة آلاف من المهاجرين وألفين من الطلقاء، وكان العدو أربعة آلاف فأعجب المسلمين كثرتهم، فلما التقوا، فقالوا: لن نُغلب اليوم؛ لأن العدو في غاية القلة فكره الله قولهم وإعجابهم هذا، فاقتلوا قتالا عظيما فغلب العدو عليهم، فولوا منهزمين فبقي رسول الله ﷺ مع شردمة قليلة فأراد أن يقتحم على العدو، فأخذ عمه العباس بعنانه فنزل ﷺ وقبض قبضة من التراب ورمى نحو العدو، وذلك عند نزول الملائكة، فقال: «أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، الْآنَ حِمِّي الْوُطَيْسُ»⁽¹⁾ أي: التنور.

فأمر العباس أن يصيح على الناس المنهزمين فصاح: يا عبد الله، يا أصحاب الشجرة، يا أصحاب سورة البقرة، فكروا عنقا واحدا، فاستقبلوا قائلين: لبيك لبيك فصفوا خلف الملائكة وازدحموا، وهجموا على العدو، والريح من خلفهم ومن أمام عدوهم فانهزم العدو بنصر الله وتأيده ﴿ثُمَّ يَثُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ عليهم ويوفق منهم ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ إيمانه من أولئك المنهزمين، فأتوا رسول الله ﷺ وآمنوا فأعطى ﷺ من سبي منهم بلا فدية ﴿وَاللَّهُ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿غَفُورٌ﴾ يغفر لمن تاب وآمن ﴿رُحِيمٌ﴾ [التوبة: 27] يقبل توبته، ويرحم عليه إن أخلص.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ

الاعداء، وخَفَقَتْ راياتُ النصر، ووقعت الدائرة على الكفار، وارتدَّت الهزيمة عليهم فرجعوا صاغرين.

(1) رواه الطبراني في «الكبير» (457/6).

بَعْدَ عَامِهِمْ هَكَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ [التوبة: 28-29].

ثم قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم: أن تدبوا وتدفعوا أهل الشرك عن الحرم ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ﴾ المنغمسون في خبائث الشرك والضلال ﴿نَجَسٌ﴾ يجب أن يُطهر بيت الله منهم ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ أي: سنة حجة الوداع ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أيها المؤمنون؛ بسبب إخراجهم ومنعهم عن الحرم ﴿عَيْلَةً﴾⁽¹⁾ فقرا وقلة زاد ومكتسب ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وسعة رزقه ﴿إِنْ شَاءَ﴾ ترفهكم واتساعكم ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المدبر لأمر عباده ﴿عَلِيمٌ﴾ بمصالحهم ﴿حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 28] في إتيانها عند الحاجة ومقدارها.

وبالجملة: ﴿قَاتِلُوا﴾ أيها الغزاة الحماة لدين الله المشركين ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ وتوحيده ﴿وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ المعدّ لجزاء الأعمال، وإن تفوهوا بالإيمان مداهنة ونفاقا لا تبالوا بإيمانهم ﴿و﴾ هم ليسوا مراعين مقتضى الإيمان؛ إذ ﴿لَا يُحَرِّمُونَ﴾ من المحرمات ﴿مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ بإذنه سبحانه ﴿و﴾ بالجملة: ﴿لَا يَدِينُونَ﴾ ولا ينقادون ﴿دِينَ الْحَقِّ﴾ المنزل على الحق؛ ليصلوا إلى مقر التوحيد، وإن كانوا يدعون أنهم ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي: يدعون إتيانه إياهم؛ إذ هم ليسوا على مقتضى الكتاب، وإن ادعوا بهم وبادعائهم، بل قاتلوهم إلى أن تذلوهم وتضاغروهم ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ هي التي تجزى بها دينهم حماية له ﴿عَنْ يَدٍ﴾ أي: حال كون إعطائهم

(1) أي: فقراء بسبب منع المشركين من الحرم، وكانوا يجلبون لها الطعام، فخاف الناس قلة القوات منها، إذا انقطع المشركون عنهم، فوعدهم الله بالغنى بقوله: (فسوف يغنيكم الله من فضله) من عطائه وتفضله بوجه آخر، وقد أنجز وعده بأن أرسل السماء عليهم مدرارا، وأسلمت العرب كلها، وتمادى جلب الطعام إلى مكة، ثم فتح عليهم البلاد، وجلبت لهم الغنائم، وتوجه الناس إليهم من أقطار الأرض، وما زال كذلك إلى الآن، وقبده بالمشيئة؛ لتقطع الآمال إلى الله، ولينبه على أنه متفضل في ذلك وإن الغنى الموعود يكون لبعض دون بعض، وفي عام دون عام. انظر [البحر المديد (2/394)].

صادرة منهم عن يد قاهرة غالبة عليهم ﴿وَمَنْ﴾ في حين الإعطاء ﴿صَاحِرُونَ﴾ [التوبة: 29] ذليلون مهانون، يؤخذ من لحاهم، ويضرب في لهازمهم.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ أَنْ يُوَفَّكَوت ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرَهْبَنَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا إِلَّا إِلَهُ لَا هُوَ مُشْبِهُكُمْ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: 30-31].

﴿و﴾ بالجملة: خذوا الجزية منهم على وجه تضطروهم وتلجئوهم إلى الإيمان وكيف لا يقتل هؤلاء الكفرة المشركون؟ ﴿قَالَتِ الْيَهُودُ﴾ منهم: ﴿عُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ﴾^(١) المنزه عن الزوج والازدواج، والأبوة والبنوة؛ إذ هي من لوازم البشر ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى﴾ أيضًا: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً ﴿ذَلِكَ﴾ القول المهمل ﴿قَوْلُهُمْ﴾ دائماً جارياً ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ وأن فرض مخالفة اعتقادهم قولهم فلا أقل: إنهم ﴿يُضَاهِئُونَ﴾ ويشابهون قولهم هذا ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأشركوا ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ بأمثال هذه المهملات، حيث قالوا: الملائكة بنات الله؛ لذلك ﴿قَاتَلْنَاهُمْ اللَّهُ﴾ وأهلكهم بأمثال هذه المقالات المهمة ﴿أَنْ يُوَفَّكَوت﴾ [التوبة: 30] أي: كيف يصرفون أيها الناكبون عن الطريق الحق الصريح إلى الباطل الزائف الزائل؟.

وبالجملة: ﴿اتَّخَذُوا﴾ من فرط جهلهم وخبث طبيعتهم ﴿أَخْبَارَهُمْ وَرَهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا﴾ مستقلين في الوجود، ومتأصلين فيه ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ المنزه عن الشريك مطلقاً،

(١) قال في التاويلات: يشير إلى تهود النفس، وعزير القلب، وذلك لأن النفس خلقت من ملكوت العناصر الأربعة، وهي ظلمانية سفلية محجوبة عن الله تعالى، وهي ظلومة جهولة، والقلب خلق من الملكوت الأعلى، ولهذا السر هو بين أصبعين من أصابع الرحمن أي: بين صفتي اللطف والقهر والجمال والجلال، وهو نوراني علوي ومهيبط أنوار الحق ومورد الواردات والمواهب الربانية ومعدن العلوم اللدنية ومظهر صفات اللطف والقهر ومنع علم ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: 31] انعكس من مرآة القلب آثار أنوار الواردات والمعارف الصادرة عن الحضرة على النفس المظلمة نورت وألهمت عن القلب بتلك المعارف والعلوم التي هي بمعزل عنها تقول القلب ابن الله كما قالت اليهود لما سمعت، والعلوم التي هي بمعزل عنها عزير ابن الله.

المستقل في الوجود، المتفرد فيه بلا وجود لغيره أصلاً، يعبدونهم كعبادة الله ﴿و﴾ خصوصاً ﴿الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ﴾ الحال أنهم ﴿مِمَّا أُمِرُوا﴾ في كتبهم التي يدعون بمقتضاها ﴿إِلَّا لِيُعْبَدُوا إِلَٰهَا وَاحِدًا﴾ أحداً صمداً، فرداً وتراً، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً؛ إذ ﴿لَا إِلَٰهَ﴾ ولا موجود ﴿إِلَّا هُوَ مُبْحَاثُهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: 31] له من مصنوعاته وأظلاله.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: 32-33].

﴿يُرِيدُونَ﴾ بأمثال هذه المفتريات الباطلة ﴿أَن يُطْفِئُوا﴾ أي: يخمدوا ويستروا ﴿نُورَ اللَّهِ﴾ المتجلي في الآفاق، المتشعشع في الكائنات ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: بشركهم الناشئ من أفواههم بلا سند من عقل أو نقل، أو كشف وشهود ﴿وَيَأْبَى﴾ أي: يمنع ﴿اللَّهُ﴾ المنزه عن التعدد مطلقاً أن يكون له شريك في الوجود ﴿إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾ أي: سوى أن يتجلى بجميع أوصافه وأسمائه على من استخلفه من خلقه، فيترأى منه جميع آثار أسمائه وأوصافه وأخلاقه، ألا وهو المظهر الكامل، الجامع المحمدي الذي اتحد دون مرتبته ﷺ قوساً الوجوب والإمكان، ودائرتا الغيب والشهادة.

لذلك قال ﷺ: «أنا أتمم مكارم الأخلاق»⁽¹⁾، وقال أيضاً: «أنا سيد ولد آدم»⁽²⁾، وقال أيضاً: «آدم ومن دونه تحت لوائي»⁽³⁾، وقال أيضاً: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن رآني فقد رأى الحق»⁽⁴⁾.

ونزل في شأنه: ﴿الْيَوْمَ اكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: 3] إلى غير ذلك مما دل وحدة مرتبته وإحاطتها على جميع المراتب؛ لذلك ختم به ﷺ أمر الرسالة والتشريع ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: 32] الساترون ظهور الحق، المريدون إطفاء نور الوجود

(1) تقدم تخريجه.

(2) رواه مسلم (176/15)، وأبو داود (401/13).

(3) رواه أبو يعلى في «مسنده» (213/4)، والطيالسي (353/1).

(4) رواه البخاري (458/10)، ومسلم (236/12).

في المشكاة المحمدية، وكيف يريدون إطفاء نوره اللامع من المظهر الجامع المحمدي؟.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ الهادي ﴿بِالْهُدَى﴾ العام الشامل لكافة البرايا ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ وهو الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ أي: الرسول ودينه ﴿عَلَى الَّذِينَ كَلَّمَهُ﴾ أي: على كل الأديان، وينسخ جميعها به؛ لابتناء دينه على التوحيد الصرف، الخالي عن شوب التنويه وشين الكثرة مطلقاً ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: 33] ظهوره بالهداية العامة، ونسخ دينه جميع الأديان؛ لخبث باطنهم.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْيَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُخْمَلُ عَلَيْهِمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكْرَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: 34-35].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسوله، وتحققوا وتيقنوا ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْيَارِ وَالرُّهْبَانِ﴾ الموسوسين لضعفاء العوام، الملبسين لهم طريق الحق بالتغديرات المبتدعة من تلقاء نفوسهم، كالشيخوخة التي ظهرت في زماننا هذا، إنما غرضهم ومنعظم مآولهم ﴿لِيَأْكُلُونَ﴾ ويأخذون ﴿أَمْوَالَ النَّاسِ﴾ المنحطين عن زمرة أهل التحقيق ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ أي: بترويج الباطل الزائف الذي ابتدعوها بلا مستند لهم.

﴿وَيَصُدُّونَ﴾ أي: يصرفون ويضلون أباطيلهم وتليساتهم ضعفاء الأنام ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الذي هو الإسلام تليسا عليهم وتغريزا لهم؛ ليأخذوا الرشى منهم ويكثروها ﴿وَلَمْ يَعْلَمُوا أَن﴾ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ﴿أَي: يجعلونها مخزونا محفوظا من أي ملة كانوا﴾ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿طَلَبًا لِّمَرْضَاتِهِ﴾ ﴿فَبَشِّرْهُمْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: 34] مؤلم مفرع.

اذكر لهم ﴿يَوْمَ يُخْمَلُ﴾ أي: حين توقدون وتحرقون ﴿عَلَيْهَا﴾ أي: على تلك الذهب والفضة المخزونة المحفوظة نار، مع أنها موضوعة ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ وهذا مبالغة لشدة حماته، وبعدما حميت إلى أن صارت جذوة نار ﴿فَيُكْرَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ﴾

ليوسموا بها ويعلموا على رءوس الأشهاد جزاء ما افتخروا بها في النشأة الأولى ﴿وَجُنُودُهُمْ﴾ ليتألموا بها أشد تألم، بدل ما يتلذذون بها أشد تلذذ ﴿وَيُظْهِرُهُمْ﴾ بدل ما يستظهرون بها ويتعاونون بسببها، ويقال حين كيهم وتعذيبهم: ﴿هَذَا مَا كُنْتُمْ﴾ وخزنتم ﴿لَأَنْفُسِكُمْ﴾ لتنعموا بها وتسروا بجمعها وادخارها ﴿فَذُوقُوا﴾ اليوم وبال ﴿مَا كُنْتُمْ تَكْتَبُونَ﴾ [التوبة: 35] بدل ما تتلذذون بها.

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقِيَمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتْلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُتَاطَفُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [التوبة: 36-37].

ثم قال سبحانه تعليةً للمؤمنين على ما ثبت عنده من الأيام والشهور؛ لتتميم مصالحهم ومعاملاتهم: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ﴾ على ما ثبت ﴿عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: في حضرة علمه ولوح قضائه ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: حين أظهر سبحانه عالم الكون والفساد المقدر بمكيال الأيام والليالي المنقسمتين إلى الشهور والأعوام والأسبوع والساعات؛ إذ في أزل الذات لا صباح ولا مساء، ولا صيف ولا شتاء، ولا الشهور ولا السنون، فسبحان من تنزه عن التبديل والتحويل، وتقدس عن الظهور والبطون.

﴿مِنْهَا﴾ من تلك الشهور في كتاب الله ﴿أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ هي رجب وذو القعدة وذو الحجة ومحرم، سميت بها؛ لأن الله سبحانه حرم فيها لعباده بعض ما أباح في الشهور الأخر كرامةً لها واحترامًا، فعليكم أيها المكلفون أن تواظبوا فيها على الطاعات، وتداوموا على الخيرات والمبرات، واجتنبوا عن الآثام والجهالات، وأكثروا فيها الأعمال الصالحات وتوجهوا نحو الحق في جميع الحالات، سيما في تلك الشهور المعدة للتوجه من عنده ﴿ذَلِكَ﴾ أي: تحريم الشهور الأربعة ﴿الَّذِينَ الْقِيَمُ﴾ المستقيم الموروث لكم من ملة إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ﴾

أَنْفُسَكُمْ ﴿ بِالْخُرُوجِ عَنْ مَقْتَضَىٰ تَحْرِيمِهَا وَهَتْكَ حَرَمَتَهَا حَتَّى لَا تَسْتَحِقُوا عَذَابَ اللَّهِ وَنِكَالَهُ.

﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ فيها إن قاتلوكم، ولا تبادروا وتسبقوا إلى قتالهم فيها وفي غيرها، بل إن بادروا على قتالكم قاتلوكم، واقتلوهم ﴿كَافَّةً﴾ أي: جميعاً ﴿كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ بلا ترحم وتوقيت ﴿وَاعْلَمُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المستوي على العدل القويم ﴿مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 36] الذين يحفظون نفوسهم عن هتك حرمة الله، قد حرمها الله لحكمة ومصلحة لم يطلعكم عليها.

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ﴾ أي: تأخير حرمة الشهر المحرم إلى شهر آخر بدله من غير المحرمات ﴿زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ لأن خصوصية هذه الأشهر معتبرة في الحرمة، واستبدالها ازدياد في الكفر؛ لأن هتك الحرمة كفر، وتبديلها كفر آخر ﴿يُضِلُّ بِهِ الدِّينَ كَفَرُوا﴾ أي: بسبب تبديلهم إضلالاً زائداً على ضلالهم الأصلي؛ إذ ﴿يُجِلُّونَهُ﴾ أي: النسِيء الذي يؤخرونه ﴿عَامًّا﴾ سنة ﴿وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًّا﴾ آخر بلا رعاية خصوصية في التحريم، وليس غرضهم من هذا التحليل والتحريم إلا ﴿لِيُؤَاطِفُوا﴾ ويوافقوا ﴿عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ وهي الأربعة من غير التفات إلى خصوصية ﴿فَيُجِلُّوا﴾ بفعلهم وتبديلهم ﴿مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ بخصوصه، وما ذلك إلا أن ﴿زَيْنَ﴾ أي: حسن وحب لهم ﴿لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾ أي: تحليلهم وتبديلهم القبيح ﴿وَاللَّهُ﴾ الهادي لعباده إلى صوب جنابه ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: 37] الخارجين عن مقتضى مأموراته.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَالُكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْقِلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبْكُمْ مَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا خَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [التوبة: 38-39].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا﴾ ذا عرض ولحق ﴿لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لنصرة دينه وإعلاء كلمة توحيده ﴿أَتَأْقِلْتُمْ﴾ أي: تتأقلم وتعاللتم وتباطأتم، وصرتم من غاية ثقلكم وتكاسلكم كأنكم تلزقون ﴿إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ﴾ أيها المستبطون ﴿بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الدنية الحقيرة ومزخرفاتها الفانية بدلاً ﴿مِنَ الْآخِرَةِ﴾ ولذاتها الباقية ﴿فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ والاستمتاع بها، والتلذذ بمستلذاتها ومشتهياتها ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾

أي: جنب لذاتها ودرجاتها ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: 38] مستحق مسترذل، بل فإن مطلقاً، لا وجود لها أصلاً عند من كحل الله عين بصيرته، وأذهب عمي قلبه.

﴿إِلَّا تَنْفِرُوا﴾ بعدما أمرتم به ﴿يُعَذِّبُكُمْ﴾ الله المنتقم منكم ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ باستيلاء عدوكم عليكم، واستئصالكم بأفطع الوجوه وأفزعها ﴿وَوَ﴾ بعد إهلاكهم ﴿يَسْتَبْدِلُ﴾ منكم ﴿قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ مطيعين لأمره، متقادين لحكمه؛ لينفروا في سبيله، كأهل اليمن والفرس ﴿وَوَ﴾ اعلّموا أنكم بتكاسلكم وتقاعدكم عن القتال المأمور ﴿لَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ إذ هو منزّه عن تقويّتكم وإضراركم، وكفركم وإيمانكم ﴿وَاللَّهُ﴾ المنتقم على من خرج عن مقتضى أمره ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من صور الانتقام ﴿قَدِيرٌ﴾ [التوبة: 39] لا يخرج عن حيطه قدرته شيء.

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 40].

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ﴾ أي: إن لم تنصروا نبيه المؤيد من عنده ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ الرقيب عليه، اذكروا نصر الله إياه وقت ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: أهل مكة من مكة حال كونه ﴿ثَانِي اثْنَيْنِ﴾⁽¹⁾ أي: ليس معه إلا رجل واحد، وهو أبو بكر ؓ فذهبا نحو الجبل

(1) الوحدة الأزلية والخلوة الحبيبية، إذ لا يسهه ملك مقرب ولا نبي مرسل حين لا حين، وكان الله ولم يكن معه شيء فخلق ببدیع فطرته أول ما خلق الله نور وجود حبيبه، فكان ثاني اثنين في غار الغيرة ومقام المعية، وله ؑ مع الله وقت لا يسهه فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل إلى أن شرف الله تعالى أبا بكر ؓ باختصاص هذين القائلين بتبعيته ؑ؛ أعني: مقام ثاني اثنين ومقام العندية كما قال تعالى: ﴿ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: 40]، وأنه تعالى متكلم به من الأزل إلى الأبد فدل على أن أبا بكر ؓ كان مكرماً في الأزل بهذه الكرامة وهو ثاني رسول الله ؑ في جميع الأحوال، فكما أخرج رسول الله ؑ من مكة مهاجراً كان أبا بكر ثانياً فقط، فكذلك لما خرج من العدم كان أبو بكر ثانياً في عالم الأرواح، بل كان ثانياً في خار العدم، ولم يكن لأحد من الخلق هذا الاختصاص من معه غير أبي بكر ؓ والذي يدل قوله ؑ: «ما ظنك بالثنين الله ثالثهما»، وكان أبو بكر ؓ ثانياً في سباق الطلب والسير إلى الله

تعالى في الجاهلية، والذي يؤكد هذا المعنى قوله ﷺ: «كنت أنا وأبو بكر كفرنسي رهان فسبته فتبعني، ولو سبقتني لبعته» وكان ثانيه في الإسلام دل عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ [المر: 3] وكان ثانيه في إمامة المسلمين يدل عليه قوله ﷺ في مرضه الذي توفي فيه: «مروا أبا بكر فليصل بالناس» فلما كان أبو بكر ﷺ ثاني رسول الله ﷺ على الإطلاق في بدء الخلق وفي خلال حياته في مقامات وأحوال كثيرة، فقد تعين أن يكون ثانيه بعد وفاته في الخلافة كما قاله ﷺ: «يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر» والذي يؤكد قولنا في أن أبا بكر كان ثاني رسول الله ﷺ على الإطلاق، وأنه كان متعيناً للخلافة بعدما أورده الشيخ الفضل بن سهل في تصديق خلافة أبي بكر ﷺ فقال: إنه خير الناس بعد وفاة رسول الله ﷺ، وإن خلافته حق واجب من الله تعالى، قال الله ﷻ: ﴿ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ حصل له في كل أمور رسول الله ﷺ أنه ثانيه فأطلق القول أنه ثاني اثنين، ولم يعلقه بأنه ثاني اثنين في الغار فيكون ثانيه بحضوره معه في الغار فيكون مخصوصاً بثانيه في الغار فقط، فلما قال: ﴿إِذْ هُمَا﴾ دل على عموم الحال حتى يقول دليل بأنه مخصوص بثانيه في الغار فقال ومن النبي ﷺ واجب في عظم الدين وهو بأصحابه في مقام رسول الله ﷺ مستخلف، وذكر فيه بإسناده إلى عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله ﷺ قال في مرضه: «ليوم الناس أبو بكر» فقالت عائشة لحفصة: قولي له إن أبا بكر رجل رقيق، وإنه إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء، فمر عمر: فليصل بالناس، فقالت حفصة: يا رسول الله إن أبا بكر رقيق، وإنه إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء، فقال: «يوم الناس أبو بكر» وقالت: فأعدت ذلك، فقال: «مه إنكن لأتن صراحب يوسف ليوم الناس أبو بكر» وقال لما عورض رسول الله ﷺ وهو سهل الخلق لين الجانب أجل وأغلظ لحضور الحق الذي لا يجوز غيره وهذا بين لا خفاء فيه، وقال دليل آخر أن خلافته حق لا يجوز غيره ما أخبرنا محمد بن بكر، وذكر إسناده إلى عبد الله بن زمعة قال: لما استعمر بالنبي ﷺ وسلم وأنا عنده في نفر من الناس دعاه بلال إلى الصلاة، فقال رسول الله ﷺ: «مروا أبا بكر يُصلي بالناس»، قال: فخرجنا، فإذا عمر في الناس، وكان أبو بكر غائباً، فقلت: يا عمر، قم فصل للناس، فتقدم فكبر، فلما سمع النبي ﷺ صوته - وكان عمر رجلاً منجهاً - قال: فأين أبو بكر؟ يأبى الله والمسلمون إلا أبا بكر، فبعث إلى أبي بكر، فجاء بعد أن صلى عمر تلك الصلاة، فصلى بالناس»، قال: لولا أنه حق لا يجوز غيره ما أصدت تلك الصلاة ولولا أنه حق واجب ينظر بأبي بكر لكان في الناس غير عمر حضور وغيب، وبعث إلى أبي بكر وهو غائب وتنادى الصلاة؛ لأنه حضر وأمره رسول الله ﷺ وكانت الصلاة في ذلك الوقت خلافة رسول الله ﷺ ولو كان غير ذلك لم تجب الإعادة، فقد صلى رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر والصحابه بأجمعهم خلف عبد الرحمن بن عوف وهم في مسيرهم إلى تبوك فجاز ولم يوجب إعادة، ولو لم يعد تلك الصلاة كانت الخلافة شرعاً لمن كان، فلما أصدت تأكدت الخلافة، ثم ذكر دليلاً وكيناً آخر بإسناده عن حذيفة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «اقتدوا بالذين من بعدي أبا بكر وعمر» فلما قال «من بعدي» دل على أن الخلافة لهما حق، فأمره بالاعتداء بهما حق واجب، وقال: دليل وكيد آخر ثم ذكر بإسناده عن أنس بن مالك ﷺ قال: «خرج رسول الله ﷺ ذات يوم فخرجت معه

فدخلوا الغار، واقتفى العدو أثرهما فوصلوا الغار ﴿إِذْ هُمَا﴾ خبيثين ﴿فِي الْغَارِ﴾ فتحزن صاحبه من إدراك العدو، اذكروا ﴿إِذْ يَقُولُ﴾ ﷺ في تلك الحالة ﴿لِصَاحِبِهِ لَا تُخْزَنُ﴾ عن إدراكهم، ولا تيأس عن نصر الله وحفظه ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ الرقيب علينا حاضر ﴿مَعَنَا﴾ يكفينا مؤونة ضررهم.

﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ﴾ سبحانه بقوله ﷺ ﴿سَكِينَةً﴾ أي: اطمئنانه وقراره ﴿عَلَيْهِ﴾ أي: على صاحبه ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ﴾ أي: ملائكة مستحفظين مستحصنين، حارسين له ﴿لَمْ تَرَوْهَا﴾ عيونكم، مثل أولئك الجنود ﴿وَجَعَلَ﴾ سبحانه بنصره وتأيده إياه ﷺ ﴿كَلِمَةً الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ما يدعون ويخاصمون معه لأجله وترويعه ﴿الشُّفْلَى﴾ أي: الأدنى الأنزل، لا يؤبه ولا يبالي بها أصلاً ﴿وَكَلِمَةً اللَّهُ﴾ أي: كلمة توحيده التي ظهر بها حبيبه ﷺ ﴿هِيَ الْعُلْيَا﴾ إذ الحق يعلو ولا يعلو ﴿وَاللَّهُ﴾ القادر المقتدر على كل ما يشاء ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب في نصر أوليائه على أعدائه ﴿حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 40] في جميع أفعاله وتدبيراته.

﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَُمْ

فدخل حائطاً من حيطان الأنصار فدخلت معه فقال: يا أنس أغلق الباب فأغلقت، فإذا برجل يقرع الباب فقال: يا أنس افتح له وبشره بالجنة، وأخبره أنه يلي أمتي من بعدي فذهبت افتح له لا أدري من هو فإذا هو أبو بكر فأخبرته بما قال النبي ﷺ، وقال: دليل وكيد آخر ثم ذكر بإسناده عن سفينة قال: «بنى النبي ﷺ المسجد ووضع حجراً، ثم قال لأبي بكر: ضع حجرك إلى جنب حجري، ثم قال لعمر: ضع حجرك إلى جنب حجر أبي بكر، ثم قال لعثمان: ضع حجرك إلى جنب حجر عمر، ثم قال: هؤلاء الخلفاء من بعدي»، ثم روى عن زيد بن وهب بإسناده قال علي ﷺ: استخلف رسول الله ﷺ أبا بكر في صلاتنا، واختاره لنا فرضينا لدنيانا من استخلفه رسول الله ﷺ لصلاتنا، ثم ذكر دلائل خلافته كثيرة يطول ذكرها، فتحقق أن أبا بكر ﷺ كان ثاني رسول الله ﷺ على الإطلاق في بدء الخلقة إلى أن كان ثانيه في القبر بعد وفاته، وثانيه فيما صب الله في صدره من أسرار النبوة كما قال ﷺ: «ما صب الله في صدري شيئاً إلا وصبته في صدر أبي بكر» وبذلك استحق أن يكون ثانيه في الخلافة من بعده، والذي يؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَةً عَلَيْهِ﴾ [التوبة: 40] يعني: على أبي بكر في الغار، ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: 40] وهي حقائق الإيمان، ودقائق العرفان، ودقائق الإيقان من سوابق الإحسان ولواحق العيان ولا يبعد أن إنزال السكينة كان على قلب النبي ﷺ والتأييد بالجنود له، ثم صب النبي ﷺ ما صب الله تعالى في صدره من حقائق السكينة والتأييد في صدر أبي بكر ﷺ بتصرف قوله: ﴿لَا تُخْزَنُ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا﴾ فنزلت السكينة على أبي بكر وحصل له التأيد بقوله ﷺ: ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما ليستحق بذلك كله أن يكون ثانيه في الخلافة. [التأويلات النجمية].

خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبْغُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكِ الْغَيْبُ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ [التوبة: 41-43].

﴿انْفِرُوا﴾ أيها الغزاة المجاهدون في سبيل الله ﴿خِفَافًا﴾ نشطًا فرحانًا، منبسطين لمرتبة الشهادة ﴿وَثِقَالًا﴾ قاصدًا لأخذ الغنيمة والأحمال والأثقال من عدوكم، أو مشاة وركبانًا ﴿وَو﴾ بالجملة: ﴿جَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ﴾ لتهيئة الأسباب وإعداد السفر ﴿وَأَنْفُسِكُمْ﴾ بتحمل المشاق والمتاعب ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لتفوزوا من عنده بالمشوة العظمى والدرجة العليا التي لا درجة أعلى منها ﴿ذَلِكَ﴾ أي: ما أمرتم به من عند ربكم ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في أولاكم وآخراكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: 41] الخير وتميزونه من الشر.

ثم قال سبحانه في حق المستخلفين عن القتال المأمور به، المستأذنين عن رسول الله ﷺ، المعتذرين له بالعدر الكاذب تويخًا لهم وتقريعًا: ﴿لَوْ كَانَ﴾ ما تدعوهم إليه يا أكمل الرسل ﴿عَرَضًا﴾ أي: متاعًا دنيويًا مما يشتهي نفوسهم ﴿قَرِيبًا﴾ سهل الحصول ﴿وَو﴾ كان السعي في حصوله ﴿سَفَرًا قَاصِدًا﴾ متوسطًا، أي: مساويًا نفعه لمشقة تحصيله ﴿لَا تَبْغُوكَ﴾ ألبتة طامعين لمصلحة ما يؤملونه من جلب النفع، لا لغرض ديني ونفع أخروي ﴿وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسَافَةُ﴾ واشتدت ﴿الشُّقَّةُ﴾ أي: المشقة فيها، مع جزمهم بعدم الفائدة فيها بزعمهم الفاسد واعتقادهم الكاسد.

﴿وَو﴾ مع ذلك ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ﴾ معتذرين متمنين بلا موافقة قلوبهم بأنفسهم بعدما رجعت من غزوة تبوك: ﴿لَوْ اسْتَطَعْنَا﴾ بالخروج استطاعة مالية أو بدنية ﴿لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ ألبتة، مع أنهم قادرون مستطيعون بكلتا الاستطاعتين، وهم لخبث باطنهم ﴿يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ بهذا الحلف الكاذب، ويعرضونها على عذاب الله ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لمخايل هؤلاء المنافقين ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضورى ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: 42] في حلفهم وعذرهم هذا.

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ ما جئت به من ترك الأولى ﴿لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾^(١) استأذنتك

(١) قال روزبهان: إن من سنة الله سبحانه إذا أراد أن يفتح كنزًا من كنوز خرائب علمه، ونوال قربه،

بالقعود؛ أي: هؤلاء المثاققين المتخلفين، المعتذرين بالأعذار الكاذبة ﴿حَتَّى يَبَيِّنَ﴾
ويظهر ﴿لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في الاعتذار والاعتدال ﴿وَتَعْلَمَ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: 43]
فيها على مقتضى نفاقهم الكامنة في نفوسهم.

﴿لَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ
وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَأَزَقَاتِ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ
لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ
الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ [التوبة: 44-46].

﴿لَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: ليس من عادة المؤمنين
الاستئذان منك إلى الخروج نحو القتال مطلقاً، بل هم منتظرون دائماً، متهيئون دائماً
أسبابهم، مترصدون إلى ﴿أَنْ يُجَاهِدُوا﴾ في سبيل الله ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ ويتجهزون
الفرصة بالمسابقة حين أمروا، فكيف أن يتأذنوا بالقعود وعدم الخروج، والمعدورون
متألمون متحسرون يكونون في زاوية الحرمان، محزونون ملهوفون متأسفون؛ لذلك وعد
لهم سبحانه من فضله درجة عظيمة ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لضمائر عبادته ﴿عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾
[التوبة: 44] الذين يحفظون نفوسهم من مخالفة أمر الله وأمر رسوله بلا عذر شرعي.

ولطائف وصلته على أحد من أحبائه وأصفيائه وأنبيائه، أوقعهم في محل الامتحان، وأجرى عليه
زلة من زلل الحدثان؛ حتى يضيق صدره بالغيبة، ويذوق قلبه مرارة الفُرقة، وتذوق روحه من
الندامة، ويطبع عقله من حشمة العتاب، ويذوق شبحه من دار الاحتجاب، فيطلع الله شمس عزة
جلاله من مطلع قلبه، ويتنسم صبح الوصال من مشرق روحه، وتبدو أنوار الصفات من روازن
أسراره، وتشرق سبحات الذات في أرض فؤاده، وتنور مجامع عقله بظهور سنا أفعاله، فيرى
العبد في البسط بعد القبض مشاهدة بديهية، ووصلة أبدية، وخطاباً سرمدياً يطير بأنوارها في
الأزال والأباد، وتصير ذلته زلفى، وذنبه كشف وصلة، ويقابل الله من ذنبه لجميع حسنات
العالمين؛ لأنه مصطفى في الأزل بمحبته، ومجتبى بنوال قربه في القدم، وتكون سيئاته حسنات،
وزلاته زلفات؛ لأنه مختار الله في أرضه، وعروسه بين عبادته، جميع حركاته تقع حسنة، وأفعاله
تكون عند الله مستحسنة، وهكذا شأن الأحباب، المحب يعتذر لزلة حبيبه، ويعشق على غير
معشوقه؛ لأن من كان حسناً، فما يبدو منه أيضاً يكون حسناً.

بل: ﴿إِنَّمَا يَشْتَدُّكَ﴾ بالقعود والتخلف ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ وتوحيده
﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ المعدّ لجزاء الأعمال ﴿وَأَزْثَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ لعدم اطمئنانها ورسوخها
بالإيمان والتوحيد ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ﴾ المركوز في جبلتهم ﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: 45]
يتحIRON، ويتذبذبون لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ وقصدوا الوفاق مع المؤمنين كما أظهروا ﴿لَأَعْدُوا﴾
وهيأوا ﴿لَهُ عُدَّةٌ﴾ أهبة وأسبابا ﴿وَلَكِنْ﴾ لخبث باطنهم وانهماكهم في الضلال ﴿كَرَّةُ﴾
الله المطلع على قساوة قلوبهم ﴿انْبِعَاثُهُمْ﴾ أي: اهتزازهم وتحركهم نحو القتال
﴿فَتَبْطِئُهُمْ﴾ لذلك وجسهم، وأقعدهم في مكانهم بإلقاء الرعب والكسل في قلوبهم
﴿وَوَ﴾ كانه ﴿قِيلَ﴾ لإسماعهم تضليلاً لهم وتغريزاً: ﴿اقْعُدُوا﴾ أيها المنهمكرون في
الغفلة ﴿مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: 46] من النساء والصبيان، والمرضى والزمناء.

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خِلَالَكُمْ يَفْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ﴾
وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴿لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا﴾
لَكَ الْأُمُورَ حَقَّ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَكُرْهُوتِ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ
يَقُولُ أَتَذَن لِي وَلَا تَقْتِيْ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ
بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ [التوبة: 47-49].

وإنما تبطئهم سبحانه وكره نهوضهم؛ لأنه سبحانه علم منهم أنهم ﴿لَوْ خَرَجُوا﴾
معكم، وكانوا ﴿فِيكُمْ﴾ ما زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴿فَسَادًا بِالْغِيَةِ وَالنَّمِيمَةِ، وَإِيقَاعَ الْفِتْنَةِ بَيْنَكُمْ﴾
﴿وَلَا أُضْعِفُوا﴾ أي: أسرعوا وأدخلوا ركائبهم ﴿خِلَالَكُمْ﴾ ليتخللوا فيكم وليفرقوا
جمعكم؛ حتى يشتغلوا بالنميمة، وإذا ازدحم العدو هزموكم بتفريق جمعكم وتشيت
شملككم، وبالجمله: إنما ﴿يَفْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ﴾ أي: يطلبون إيقاع الفتنة بينكم بأي وجه كان
﴿وَوَ﴾ الحال أن ﴿فِيكُمْ﴾ وبيّنكم ﴿سَمَاعُونَ لَهُمْ﴾ أي: ضعفة يسمعون قولهم ويقبلون
نصحهم، ويرغبون إليهم ويطيعون أمرهم ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لأحوال عباده ﴿عَلِيمٌ﴾
بِالظَّالِمِينَ [التوبة: 47] الخارجين عن مقتضى أوامره سرّاً وعلانية.

﴿لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ﴾ أي: ليس هذا أول ابتغائهم وإيقاعهم، بل أوقعوا الفتنة ﴿مِنْ﴾
قَبْلُ ﴿وَارْجَفُوا بِهَلَاكِكْ، وَشَتَوْا شَمْلَ أَصْحَابِكَ﴾ ﴿وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ﴾

أي: النصر والتأييد الثابت عنده، المقرر دونه سبحانه من نصر دينك وإعلائه، ونسخ الأديان كلها ﴿وَوَظَّهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وإعلاء كلمته ﴿وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة: 48] من خبث باطنهم ظهور دينك وارتفاع شأنك، وسمو برهانك.

﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي: من المستأذنين المتخلفين ﴿مَنْ يَقُولُ﴾ لك حين استأذنتك بالعود: ﴿إِذْ لَيْسَ لِي قُوَّةُ الْخُرُوجِ﴾ ﴿وَلَا تَفْتِنِّي﴾ أي: لا توقعني في الفتنة بالخروج؛ إذ إني أخاف على نفسي من الفتنة والعصيان لو خرجت، قل لهم يا أكمل الرسل توبيخاً وتقريعاً: ﴿إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أي: وقعوا في فتنة التخلف وظهور النفاق والشقاق باستئذانهم وقولهم هذا ﴿وَوَاسْتَحَقُّوا الْعَذَابَ وَالنَّكَالَ﴾ ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان ﴿لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: 49] في الدنيا والآخرة، ومن شدة شكيمتهم وغيظ قلوبهم معك يا أكمل الرسل.

﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فُسْوِهِمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَكَتَلُوا أَوْهَمَ فَرِحُوا﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥١﴾ ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَتَحْنُنَ تَرَبَّصْ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: 50-52].

﴿إِنْ تُصِيبَكَ﴾ في بعض أسفارك وغزواتك ﴿حَسَنَةٌ﴾ ظفرة وغنيمة ﴿فُسْوِهِمْ﴾ وتزيد غيظهم ونفاقهم ﴿وَإِنْ تُصِيبَكَ﴾ في بعضها ﴿مُصِيبَةٌ﴾ كسر وهزيمة ﴿يَقُولُوا﴾ تصحيحاً وتحسيناً لرأيهم الفاسد: ﴿قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا﴾ وأصبنا فيه ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي: حين تخلفنا ﴿وَيَتَوَلَّوْا﴾ عن مجتمعهم الذي يتشامتون فيه بالمؤمنين تبجحاً ﴿وَهُمْ﴾ في رجوعهم وتفرقهم ﴿فَرِحُوا﴾ [التوبة: 50] مسرورون.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للمتشامتين المنافقين على مقتضى كشفك وشهودك بربك: ﴿لَنْ يُصِيبَنَا﴾ من الحوادث ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ﴾ المقدر للأجال والأرزاق، وجميع الأفعال والأحوال، والحوادث الجارية في عالم الغيب والشهادة ﴿لَنَا﴾ وخصصنا بها في حضرة علمه؛ إذ ﴿هُوَ﴾ بذاته ﴿مَوْلَانَا﴾ ومولي جميع أمورنا يصنع بنا على مقتضى ما ثبت في حضرة علمه بلا تبديل ولا تغيير ﴿وَوَاسْتَحَقُّوا الْعَذَابَ وَالنَّكَالَ﴾ ما لنا إلا الرضا بما جرى علينا

وسيجري من القضاء؛ لذلك ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ لا على غيره من الأسباب والوسائل؛ إذ مرجع الكل إليه، كما أن مبدأه منه أولاً بالذات ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: 51] بتوحيد الذات، وسريان سر الوحدة على صفائح المكونات.

﴿قُلْ﴾ لهم أيضاً: ﴿هَلْ تَرْتَضُونَ﴾ أي: تترقبون وتنتظرون ﴿بِنَا إِلَّا إِخْدَى الْحُسْنَيْنِ﴾ أي: العاقبتين الحميدتين اللتين كل منهما محض خير، إما النصره وإما الشهادة إذ وعدنا الله من فضله بهما ﴿وَنَحْنُ﴾ أيضاً ﴿نَتَرْتَضُ بِكُمْ﴾ على مقتضى وحي الله وإلهامه ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ﴾ نازل ﴿مِنْ عِنْدِهِ﴾ بلا دخل منا وصنع من كسف أو خسف وزلزلة وغيرها ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ من القتل والأسر، والإجلاء والإذلال ﴿فَتَرْتَضُوا﴾ وانتظروا لما وعد لنا ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرْتَضُونَ﴾ [التوبة: 52] أيضاً لما أوعدتم به؛ حتى ننظر كيف يجري حكم الله ومشيته؟.

﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾^(٣)
وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ^(٤) فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ^(٥) ﴿[التوبة: 53-55].

﴿قُلْ﴾ للمنافقين المتخلفين الذين يريدون إعانتك بالمال بدل الخروج إلى الجهاد: لن ينفعكم إنفاقكم عند الله سواء ﴿أَنْفِقُوا طَوْعًا﴾ طائعين ﴿أَوْ كَرْهًا﴾ كارهين ﴿لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ﴾ لأن الإنفاق إنما يقبل من المؤمنين الصالحين المخلصين ﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾ بسبب كفركم ونفاقكم مع الله ورسوله ﴿كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [التوبة: 53] لا يقبل منكم الصدقات مطلقاً؛ لعدم مقارنتها بالإيمان.

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ﴾ أي: ليس عدم قبول نفقاتهم وصدقاتهم عند الله ﴿إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ المتوحد بذاته، وأشركوا له ما هو من مصنوعاته ﴿وَرَسُولِهِ﴾ بتكذيبه، وعدم إطاعته واتباعه ﴿وَر﴾ علامة كفرهم ونفاقهم: إنهم ﴿لَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ﴾ الفاصلة الفارقة بين الكفر والإيمان ﴿إِلَّا﴾ يأتونها مداعنة ﴿وَهُمْ كُسَالَى﴾ سبطنون مؤخرون بلا انبيات قلبي وداعية شوقية ﴿وَر﴾ أيضاً ﴿لَا يُنْفِقُونَ﴾ ما ينفقون ﴿إِلَّا وَهُمْ

كَارِهِونَ ﴿التوبة: 54﴾ كراهة قلبية؛ لأنهم لا يتوقعون ترتب الثواب عليها؛ لعدم إيمانهم بيوم الجزاء والثواب والعقاب.

ومتى تحقق كفرهم ونفاقهم ﴿فَلَا تُغْنِيكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ أي: كثرتها وتفاخرهم بها؛ لأنها من أسباب العذاب والنكال عليهم ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ﴾ المنتقم منهم ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بجمعها وحفظها ونمائها، وارتكاب المحن والشدائد في تحصيلها ﴿وَوَ﴾ من كثرة محبتهم لها وحرصهم عليها ﴿تَزْهَقَ﴾ وتزول ﴿أَنْفُسُهُمْ﴾ وقت حلول الأجل ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: 55] محجوبون عن توحيد الله والإيمان.

﴿وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ بِمِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلَجًا أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مُدْخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسَخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: 56-59].

﴿وَوَ﴾ من جملة نفاقهم: إنهم ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ بالحلف الكاذب ﴿إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ﴾ أي: من جملتكم وزمرتكم يفرحون بفرحكم وسروركم، ويتغممون بحزنكم ومصيبتكم ﴿وَوَ﴾ الحال أنهم ﴿مَا هُمْ بِمِنْكُمْ﴾ لكفرهم وشركهم المركوز في قلوبهم ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾⁽¹⁾ [التوبة: 56] يخافون أن تفعلوا بهم فعلكم مع المشركين، فاضطروا إلى المداينة والنفاق فأظهروا الإسلام؛ حفظاً لدمائهم وأموالهم، وهم مضطرون على إظهار الإيمان، ومن غاية تذللهم واضطرارهم.

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلَجًا﴾ منيعة من الحصون والقلاع ﴿أَوْ مَغَارَاتٍ﴾ في شعاب

(1) قال في التأويلات: فهم كذلك من سطوات قهرهم عند غلبات الأنوار الروحانية، فإن النفس وصفاتها لما انعكست عليها أنوار الفيض الرباني عن مرآة القلب انكسرت ظلمة طبيعتها وانخمدت نار شهواتها، فتفرع من فنائها وهلاكها بالكلية، فتلتجئ إلى الروح والقلب والسر وتخدعهم بالحلف كما خدع إبليس آدم وحواء بالحلف كقوله تعالى: ﴿وَقَاسَمُهُمَا إِنْني لَأَكُونُ لَكُمْ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: 21] ﴿فَقَدْ لَأُتْمَا يُغْزَوِرَ﴾ [الأعراف: 22]، فتريد النفس أن تدلي الروح والقلب بغرور.

الجبال ﴿أَوْ مَدْخَلًا﴾ جحرًا يمكنهم الإنجحر والاستتار فيه ﴿لَوْلَا﴾ وانصرفوا-البتة ﴿إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة: 57] يسرعون، كالفرس الجموح ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ﴾ يعينك وينصرك ﴿فِي الصَّدَقَاتِ﴾ أي: قسمة الغنائم، ويتردد حولك حين القسمة طامعًا ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا﴾ بينهما أو شيئًا يعتد به ﴿رَضُوا﴾ منك، وأثنوا عليك شكرًا لإعطائك ﴿وَإِنْ لَّمْ يُعْطُوا مِنْهَا﴾ لعدم استحقاقهم؛ ويسبب تخلفهم ونفاقهم ﴿إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة: 58] يفاجئون بالغبط والسخط إظهارًا لما في قلوبهم من الأكمة.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ كانوا مؤمنين كما ادعوا ﴿رَضُوا﴾ في تقاسيم الغنائم وغيرها على ﴿مَا آتَاهُمُ اللَّهُ﴾ وأعطاهم من فضله؛ إذ هو الحكيم في قسمة أرزاق عباده على تفاوت درجاتهم ﴿وَرَسُولُهُ﴾ المستخلف له، الملهم من عنده ﴿وَقَالُوا﴾ من كمال إخلاصهم وتفويضهم كسائر المؤمنين: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ المدير الكافي لأمرنا يكفيننا علمه بنا ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ﴾ المكفل لأرزاقنا ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ وسعة لطفه وجوده ما يكفيننا ﴿وَرَسُولُهُ﴾ النائب عنه بإذنه من الغنائم والصدقات ما يشبعنا ويغنيننا ﴿إِنَّا﴾ بعدما آمنا بالله، وتحققنا بتوحيده بإرشاد رسله ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ الباقي بالبقاء الأزلي السرمدى لا إلى غيره من الأظلال والأموال والمزخرفات الفانية ﴿رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: 59] ليرزقنا من فوائد رزقه المعنوي، وفوائد توحيده الذاتي؛ أي: هم لو رضوا كما رضي المؤمنون الموقنون، واعترفوا كما اعترفوا لكان خيرًا لهم وأشد تيسيرًا وتقريبًا في قلوبهم.

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَمَّنَ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٦٠ ﴾ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُوْذُونَ النَّاسَ وَيَقُولُونَ هُوَ أَذْنُ قُلٍّ أَذْنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يَوْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦١ ﴾ [التوبة: 60-61].

ثم بين سبحانه مصارف الصدقات فقال: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ﴾ أي: الزكوات يصرف ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ وهم الذين لا مال لهم ولا مكسب لهم من الحرث وغيره، كأنه يكسر فقار ظهرهم الفاقة والاحتياج ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾ الذين لهم مكسب وصنعة، لكن لا تفي لعيالهم

كان الاحتياج أسكنهم في زاوية المسكن والهوان ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ أي: الساعين لجمعها وإيصالها إلى مصارفها ﴿وَالْمَوْلَةَ قُلُوبُهُمْ﴾ وهم الذين قرب عهد إسلامهم، يجب على المسلمين مؤانستهم ومواساتهم؛ ليقروا على الإيمان ﴿وَو﴾ يصرف منها أيضا ﴿فِي الرِّقَابِ﴾ أي: فكها من الرق وتحريرها، وهو من أهم مهمات الإسلام ﴿وَالْغَارِمِينَ﴾ الذين استغرق أموالهم في ديونهم ولم تف لأدائها، يُصرف إليهم منها؛ ليؤديها.

﴿وَو﴾ يُصرف منها سهم ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لتجهيز جيوش أهل الجهاد وتهيئة أسبابهم وغددهم؛ إذ هو من أهم مهمات هذا الدين ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ الذي انقطع عن الأهل والمال لمصلحة شرعية، إنما جرى هذه القسمة لهؤلاء المستحقين ﴿فَرِيضَةً﴾ صادرة ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ مقدرة من عنده؛ ليحافظ المؤمنون عليها ﴿وَاللَّهُ﴾ المدبر لأمر عباده ﴿عَلِيمٌ﴾ بمصارف الصدقات ﴿حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 60] في صرفها إياهم تقوية لهم وإمدادا.

﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ ويسيتون الأدب معه ﴿وَيَقُولُونَ﴾ في حقه افتراء واستهانة: ﴿هُوَ أَعْدُوٌّ﴾ أي: سمع كله ليس له دربة ودراية وتعمق في المعارف والحقائق، بل يسمع منا ويجري على ما سمع بلا تفتيش وتدبر ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل: إنما أذن لكم لا أذن شر وفتنة، بل ﴿أَذُنْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ إن صدر عنكم ما يتعلق بأمور دينكم، موافقا لما أمر الله به يقبله منكم؛ لأنه ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ أي: يقر ويصدق بوحدانيته ﴿وَيُؤْمِنُ﴾ أيضا ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ المخلصين فيما أتوا به من الأعمال والأقوال الصادرة عن الإخلاص ﴿وَو﴾ كيف لا يكون الرسول أذن خير؛ إذ هو كله ﴿رَحْمَةٌ﴾ أي: شفقة وعطف ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ وأخلصوا في إيمانهم؟ ﴿وَو﴾ بالجملة: ﴿الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ بأي وجه كان ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: 61] في النشأة الأخرى؛ جزاء لما أتوا به من إيذاء رسوله.

﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ يُحَادِدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَبْدُوا لَهُمُ أَجْزَاءَ خِلْدٍ فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ يَحْذَرُ الْمُتَّقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزَيُّوْا لَكَ اللَّهُ مَخْرُجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿١٤﴾ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ

إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِإِلَهِهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْدِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفَ عَنْ مَا يَفْرِغُ مِنْكُمْ نَعَلْتَ مَأْفَقًا إِنَّهُمْ كَانُوا يُجْرِمُونَ ﴿٦٦﴾ [التوبة: 62-66].

ومن جملة نفاق المنافقين وشقاقهم: إنهم ﴿يَخْلِفُونَ بِإِلَهِ لَكُمْ﴾ لتسليتهم وتلبيسكم أيها المؤمنون على ما صدر عنهم من التخلف والتقول على سبيل العذر ﴿لِيُزْضَوْكُمْ﴾ أي: لترضوا عنهم وتقبلوا عذرهم ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لضمائرهم ﴿وَرَسُولُهُ﴾ الملمهم من عنده بمخايلهم وأباطيلهم ﴿أَخَقُّ﴾ وأليق ﴿أَنْ يُزْضَوْهُ﴾ أي: رسوله أحق بالإرضاء والمرضاة، وحد الضمير؛ لأن إرضاء الرسول مستلزم لإرضاء الله، بل هو عين إرضائه سبحانه عند من ارتفع سبل التعدد عن عينه، وغشاوة الكثرة عن بصره ﴿إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: 62] بالله وبحقية رسوله.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ ويفهموا أولئك المتخلفون، المؤذون لله ورسوله ﴿أَنَّهُ﴾ أي: الشأن ﴿مَنْ يُحَادِدِ﴾ ويشاقق ﴿اللَّهُ وَرَسُولَهُ﴾ ويتعد حدود الله ويخالف أمر رسوله ﴿فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ جزاء لما اقترف من المعادة، فيكون ﴿خَالِدًا فِيهَا﴾ لا ينجو منها أصلاً ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الخلود في جهنم الحرمان ﴿الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 63] والهلاك الدائم.

ومن شدة نفاقهم وشقاقهم ﴿يَخْلَرُ الْمُنَافِقُونَ﴾ المصرون على الكفر الكامن في قلوبهم، المظهرون للإيمان استهزاء ومداهنة ﴿أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على المؤمنين ﴿سُورَةٌ﴾ طائفة من الكلام ﴿تُنَبِّئُهُمْ﴾ وتخبرهم ﴿بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الكفر والنفاق فحينئذ فعلوا ما فعلوا بالمشركين المجاهرين ﴿قُلْ﴾ لهم تهديداً وتقريراً: ﴿اسْتَهْزِئُوا﴾ بالمؤمنين، وامضوا على ما أنتم عليه من الكفر والنفاق ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المنتقم منكم ﴿مُخْرِجٌ﴾ مظهر ﴿مَا﴾ كنتم ﴿تَخْلَرُونَ﴾ [التوبة: 64] منه، وهو إنزال السورة؛ لإقضاء حالكم.

﴿وَ﴾ كيف لا ينتقم الله عنهم ﴿لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ﴾ أي: لئن سألتهم وأخذتهم حين استهزؤا بك وبأصحابك وقت مرورهم عليك في غزوة تبوك قائلين: انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام وحصونه ميهات ميهات، فآلهمت به فدعوتهم، وقلت لهم: قلتم كذا وكذا؟ فقالوا: لا والله ما كنا في أمرك وأصحابك في شيء، بل ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ بالأراجيف مزاحاً؛ ليهون السفر علينا ﴿قُلْ﴾ لهم بمقتضى

علمك إياهم، بوحى الله وإلهامه توبيخاً وتقريعاً: ﴿أَبَايَاهُ﴾ المنزه ذاته عن أن يستهزئوا ﴿وَأَيَاتِهِ﴾ البريئة عن النقص ﴿وَرَسُولِهِ﴾ المطهر عن شوب الكذب ﴿كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة: 65] أيها الحمقى فتربصوا، وانتظروا حتى يستهزئ الله بكم.

﴿لَا تَعْتَلِرُوا﴾ بالأعذار الفاسدة، ولا تحلفوا بالحلف الكاذب، إنكم ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ﴾ وأظهرتم بإيذاء الرسول والطعن في دينه ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ بعدما أظهرتم الإيمان فارتفع الأمان عنكم بفعلكم هذا فلحقتم بالمشركين، فنفع بكم ما نفع بهم ﴿إِنْ نَعَفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ﴾ بعدما تابوا عما صدر عنهم، ورجعوا إلى الله نادمين خاشعين عن ظهر القلب ﴿نُعَذِّبُ﴾ بالقتل والأسر، والإجلاء والإذلال ﴿طَائِفَةٍ﴾ أخرى منكم ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة: 66] مصرين على ما هم عليه من الكفر والنفاق، وإيذاء الرسول والتخلف عن أمره بلا توبة وندامة.

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٦٧) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ لَالَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٦٨) كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٩) [التوبة: 67-69].

فعلیکم ایها المؤمنون أن تعذبوهم ذکراً أو أنثى؛ إذ ﴿الْمُنَافِقُونَ﴾ المصرون على النفاق أصالة ﴿وَالْمُنَافِقَاتُ﴾ المصبرات علیه تبعاً ﴿بَعْضُهُمْ﴾ ناشئ ﴿مِّنْ بَعْضٍ﴾^(١) يتظاهرون ويتعاونون في نفاقهم ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ على عکس المؤمنین ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ عن الخیرات والمبرات کلها، وما ذلک إلا أنهم ﴿نَسُوا﴾

(١) یعنی: طينة نفوسهم وجيلة قلوبهم من جنس واحد وأرواحهم متقاربة في صف واحد من صفوف الأرواح؛ إذ هي جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف، فمعاملاتهم من نتائج خصوصية أرواحهم السفلية بالنسبة إلى الأرواح العلوية فمن نتائج خصوصيتها.

الله ﴿المظهر الموجد لهم بالإعراض عن حكمه وإيذاء رسوله المبين لأحكامه﴾ ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ الله أيضاً، ولم ينظر إليهم بنظر الرحمة ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ المصريين على النفاق، المتمردين عن الوفاق ﴿هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: 67] المقصرون على الخروج عن مقتضى أمر الله وحكمه.

لذلك ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ المنتقم القادر على أنواع الانتقام ﴿الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ﴾ المجاهرين بلا تفاوت ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾ لا نجاة لهم منها أصلاً، بل ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبداً ﴿هِيَ﴾ أي: النار ﴿حَسْبُهُمْ﴾ أي: محسبهم وقرينهم ﴿وَمَعَ﴾ مع ذلك ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: طردهم وأبعدهم عن سعة رحمته ﴿وَلَهُمْ﴾ بسبب طرد الله إياهم ولعنه ﴿عَذَابٌ﴾ عظيم فوق عذاب جهنم ﴿مُقِيمٌ﴾ [التوبة: 68] دائم غير منقطع، يتألمون طرد الله إياهم ويتعذبون، ولا عذاب أعظم من حرمان الوصول إلى جنة الحضور. وأعوذ بك منك، لا ملجأ لنا غيرك.

وبالجملة: مثلكم أيها المتمردون المنهمكون في الكفر والضلال، المصريون على النفاق والعناد، المعادون مع الله ورسوله ﴿كَالَّذِينَ﴾ أي: كمثل الكفرة الذين مضوا ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ بطرين مفتخرين بما عندهم من حطام الدنيا ومزخرفاتها، بل هم ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً﴾ وقدره ﴿وَأَكْثَرُ﴾ منكم ﴿أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ﴾ أي: نصيبهم وحظهم مما قدر لهم من لذات الدنيا وشهواتها، واستكبروا على من أرسل عليهم لتكميلهم وإرشادهم.

﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ﴾ أيضاً ﴿بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضِعْتُمْ﴾ أي: أخذتم وشرعتم في الأباطيل وتكذيب الرسول والمعاداة معه، وقصد إيذاؤه وقتله وقتل من آمن له ﴿كَالَّذِي خَاضُوا﴾ وشرعوا في حق أنبيائهم ورسولهم، انظروا إلى وخامة عاقبتهم، كيف استؤصلوا فانتظروا لمثله، بل بأشد منها؟ وبالجملة: ﴿أُولَئِكَ﴾ البعداء المردودون عن منهج الرشاد والسداد ﴿خَبِطَتْ﴾ أي: هلكت واضمحلت، وبطلت ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ التي عملوها؛ لتفيدهم وتنفعهم ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ فلم ينفعهم أصلاً لا في الأولى ولا في الآخرة؛ لعدم مقارنتها بالإيمان. وتصديق الرسول ﴿وَأُولَئِكَ﴾ الضالون عن طريق الحق ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [التوبة: 69] المقصرون على الخسران، المقضيون بالحرمان والخذلان.

وبالجملة: مثلكم أيها المنافقون كمثلمهم، بل أنتم أسوأ حالاً منهم؛ إذ نبيكم الذي

كذبت به أعلى رتبة من جميع الأنبياء.

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة: 70-71].

﴿أ﴾ يصر المنافقون على النفاق والشقاق و﴿لَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ﴾ أي: خبر إهلاك القوم ﴿الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كيف يهلكهم الله بظلمهم وذنوبهم مثل ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ كيف استوصلوا بالطوفان ﴿وَعَادٍ﴾ بالريح ﴿وَتَمُودَ﴾ بالرجفة ﴿وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ﴾ بالبعوض ﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ أي: قوم شعيب أهلكوا بالنار النازلة عليهم من السماء يوم الظلة ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ قرى قوم لوط هلكوا بالزلزلة وإمطار الأحجار إلى حيث يجعل عاليها سافلها، كل من أولئك الهالكين ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الواضحة الدالة على صدقهم ودعواهم فكذبوهم؛ عنادًا ومكابرة، فلحقهم ما لحقهم بشؤم تكذيبهم ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي: لم تكن من سته سبحانه الانحراف عن القسط إلى حيث يؤدي إلى الظلم؛ إذ هو سبحانه مستوٍ على العدل القويم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: 70] بالخروج عن مقتضى العدل الإلهي الموضوع، فيهم من قبل الحق بنبأ رسله.

ثم لما ذكر سبحانه أحوال المنافقين والمنافقات، ومظاهرتهم ومعاونتهم عقب أحوالهم بأحوال المؤمنين جريًا على السنة المستمرة، فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ الموقنون بتوحيد الله، المصدقون لرسله ﴿وَالْمُؤْمِنَاتُ﴾ الملحقات بهم، المتفرعات عليهم ﴿بَعْضُهُمْ﴾ في الأمور الدينية ﴿أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالمظاهرة والموالة ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ على مقتضى ما وصل إليه من رسلهم ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ المفروضة المصفية لبواطنهم عن الميل إلى غير الحق ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ المطهرة لظواهرهم عن الاشتغال بما سواه سبحانه ﴿وَهُ﴾ بالجملة: ﴿يُطِيعُونَ اللَّهَ﴾ في جميع

حالاتهم إطاعة تفويض وتسليم ﴿وَ﴾ ينقادون ﴿رَسُولُهُ﴾ في جميع ما جاء به ودعا إليه ﴿أُولَئِكَ﴾ السعداء المفوضون أمورهم إلى الله، المنقادون لرسوله ﴿سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ الرقيب عليهم من فضله ولطفه ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المدبر لأمور عباده ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب قادر على جميع ما أراد بهم ﴿حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 71] متقن في جزائهم حسب أعمالهم واستعدادهم لذلك.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾
 ﴿٧٣﴾ يَأْتِيهَا النَّارُ جَهْدُ الْكُفَّارِ وَالْمُتَفَقِّينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَتُوا بِمَا لَدَيْنَا لَئِن نَّبَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ [التوبة: 72-74].

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾ مستزهات من العلم والعين والحق ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: أنهار المعارف والمكاشفات المتجددة حسب تجددات التجليات الإلهية ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبدًا، لا يتحولون عنها أصلاً ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ أي: مقرًا في مقام التوحيد، خاليًا عن وصمة الكثرة، طاهرًا عن لوث السوى والأغيار مطلقًا ﴿فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَ﴾ بالجملة: ﴿رِضْوَانٌ﴾ وقبول ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ المستوي على العدل القويم، بحيث لا يسخط لهم أصلاً؛ لتحقيقهم بمقام التخلق بأخلاقه سبحانه، بحيث لا يبقى لهم شائبة انحراف عن صراطه المستقيم الذي هو صراط الله الأقوم الأعدل ﴿أَكْبَرُ﴾ من جميع ما ذكر من قبل من الدرجات العلية ﴿ذَلِكَ﴾ الرضا من الله، والقبول من جانبه ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 72] واللفظ الجسيم لأرياب الولاء، الواصلين إلى مرتبة الفناء فيه سبحانه والبقاء ببقائه، لذلك وعدوا من عنده بما لا يمكن التعبير عن كنهه إلا كوشف به وشوهد.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ الهادي لعباد الله إلى تلك المرتبة بإذن الله ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ﴾⁽¹⁾ المتمردين على الإطاعة والانقياد لإرشادك وتكميلك ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ الذين يحيلون ويخدعون معك في إظهار الإيمان، وهم في سرهم وباطنهم على شركهم وكفرهم الأصلي متقرون ثابتون ﴿وَوَعَدَا أَصْرًا﴾ بعدما أصروا على نفاقهم وشقاقهم ﴿اغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ حسب إصرارهم وإعراضهم ﴿وَلَا تَبَالٍ بِهِمْ﴾ إذ ﴿مَأْوَاهُمْ﴾ ومنقلبهم ﴿جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان في الدنيا والآخرة ﴿وَيُشْسِ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: 73] مصير أولئك المحرومين المطرودين عن ساحة عز القبول.

ومن جملة نفاقهم وكفرهم: إنهم ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ كذبًا ومينًا، إنهم ﴿مَا قَالُوا﴾ من الطعن في كتاب الله وتكذيب رسوله ﷺ ﴿وَوَعَدَا أَصْرًا﴾ الحال أنهم ﴿لَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ أي: كلمة الطعن والتكذيب المستلزم للكفر، فحلفوا على عدم القول كذبًا ﴿وَوَعَدَا أَصْرًا﴾ هم في أنفسهم ﴿كَفَرُوا﴾ بالحق وأعرضوا عنه ﴿بَغْدًا إِسْلَامِيَهُمْ﴾ أي: انقيادهم وتسليمهم؛ أي: اختاروا الكفر بعدما أظهروا الإسلام ﴿وَوَعَدَا أَصْرًا﴾ لا يقتصرون على إظهار الكفر فقط، بل ﴿هَمُّوا﴾ وقصدوا ﴿بِمَا لَمْ يَتَّأَلَوْا﴾ من قتل الرسول ﷺ والاعتحام عليه بغتة في الليل بلا علم من أصحابه، أو هموا بإخراجه ومن معه من أصحابه من المدينة ﴿وَمَا نَقَمُوا﴾ وقصدوا إهلاك رسول الله ﷺ وإخراجه ﴿إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمْ اللَّهُ﴾ أي: أصحاب رسول الله ﷺ بفتح أبواب الرزق والمكاسب ﴿وَرَسُولُهُ﴾ بإعطاء الغنائم ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ ففي مقام الشكر وإظهار المنّة ينكرون له، ويكفرون نعمه وبعدها وقع ما وقع.

(1) قال نجم الدين كبرى: يشير إلى القلب الذي له بناء من مقام الأنبياء، ويأمره بالجهاد مع كفر النفس وصفاتها، وهذا مقام المشايخ أن يجاهدوا مع نفوسهم أو نفوس مريديهم كما قال ﷺ: «الشيخ في قومه كالنبي في أمته» فأمر بالجهاد مع كافر النفس وصفاتها بسيف الصدق، فجهاد النفوس بمنعها عن شهواتها واستعمالها في حمل الشريعة على خلاف الطبيعة، فالنفوس بعضهما كفر لم تسلم أي: لم يستسلموا للمشايخ في تربيتها في هداها بالدعوى إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وبعضها المنافقون وهم الذين أدعوا الإرادة والاستسلام إلى المشايخ في الظاهر، ولم يوفوا بما عاهدوا عليه فجهادها بإلزامها مقاساة شدائد الرياضات في التزكية على متعلل أمر الشيخ ونواحيه ولو يرى عليها الإباء والامتناع فلا يتفيتها إلا التشديد والغلظة.

وقال التستري: جاهد نفسك بسيف المخالفة وحملها حمولات الندم، وسيرها في مفاوز الخوف، لعلك تردّها إلى طريق التوبة والإنابة، ولا تصح التوبة إلا من متحير في أمره، مبهور في شأنه، واله القلب مما جرى عليه.

﴿فَإِنْ يَتُوبُوا﴾ عما صدر عنهم توبة صادرة عن محض الندامة والإخلاص ﴿بِكَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ عند الله، يغفر لهم ويعفو عن زلتهم ﴿وَإِنْ يَتَوَلَّوْا﴾⁽¹⁾ ويعرضوا عن التوبة، ويصرروا على ما هم عليه من الكفر والنفاق ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ﴾ المنتقم منهم ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ مؤلماً فجيئاً ﴿فِي الدُّنْيَا وَ﴾ بالقتل والسبي والإجلاء والإذلال، وأنواع العقوبات في ﴿الْآخِرَةِ﴾ بأضعاف ما في الدنيا وآلافها، لانحطاطهم عن المرتبة الإنسانية، وقبول التكليفات الإلهية المقتضية لإظهار الحكمة والكرامة المودعة في هياكلهم ﴿و﴾ إن استظهروا واستنصروا من أوليائهم ﴿مَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ بعد انتشار دين الإسلام في أقطارها ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾ يعينهم ويولي أمورهم ﴿وَلَا نَصِيرٌ﴾ [التوبة: 74] ينصرهم من بأس الله وعذابه.

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾^(٧٥) فَلَمَّا آتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ اسْتَغْفِرَ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾ [التوبة: 75-80].

﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي: من المنافقين ﴿مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ﴾ مالا، وأعطانا رزقا كثيرا ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ منها للفقراء المستحقين ﴿وَلَنَكُونَنَّ﴾ بالبذل والإنفاق، وأداء

(1) قال الجنيد رحمه الله: لو أقبل صديق على الله ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة فإن ما فاتته أكثر مما ناله، فأما عذابه في الدنيا فيسلب الصديق والرد على باب الطلب وإرخاء الحجاب وذلة وتقوية الهوى وتبديل الإخلاص بالرياء، والحرص على الدنيا وطلب الرفعة والجاء، وأما عذابه في الآخرة فباشتعال نيران الحسرة والندامة على قلبه المعذب بنار القطيعة وهي نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة.

الشكر ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [التوبة: 75] الشاكرين المنفقين؛ طلبًا لمرضاة الله.

﴿فَلَمَّا آتَاهُم﴾ الله ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ ما طلبوا منه ﴿بِخُلُوءٍ بِهِ﴾ ومنعوا حق الله منه ﴿وَتَوَلَّوْا﴾ عن امتثال أمر الله وإطاعة رسوله ﴿وَهُمْ﴾ قوم ﴿مُفْرِضُونَ﴾ [التوبة: 76] عادتهم الإعراض عن إطاعة الله ورسوله؛ لخبث طبيعتهم.

﴿فَأَغْضَبَهُمْ﴾ الله بسبب فعلهم هذا ﴿نِفَاقًا﴾ راسخًا متمكنًا ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾ مستمرًا ﴿إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ﴾ أي: الله سبحانه في يوم الجزاء، فيجازيهم على مقتضى نفاقهم وشقاقهم أسوأ الجزاء؛ ذلك ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ من الصدق والصلاح، والشكر والفلاح، ونقضوا عهده ﴿وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: 77] أي: وبكذبهم حين العهد والميثاق بلا موافقة من قبلهم.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ حين همُّوا إلى القول الكذب مع الله ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لضمائرهم ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضورى ﴿سِرَّهُمْ﴾ أي: إخلافهم الوعد من حصول المطلوب ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ أي: مناجاتهم معه لا عن إخلاص ناشئ من محض المعرفة والإيمان بالله، والإقرار بربوبيته؛ لرسوخ الكفر والشرك في جبلتهم ﴿وَلَمْ يَعْلَمُوا أَيْضًا﴾ ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ ﴿عَلَامُ الْغُيُوبِ﴾ [التوبة: 78] لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، فمن آمن بتوحيده وإحاطة علمه وقدرته، كيف خرج عن أمره وإطاعته؟.

ومن المنافقين المصرين على النفاق والشقاق مع المؤمنين، هم ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ ويستهزئون ﴿الْمُطَّوِّعِينَ﴾ المتطوعين ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي﴾ إعطاء ﴿الْصَّدَقَاتِ﴾ خصوصًا المؤمنين ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ﴾ من الصدقة ﴿إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ أي: يبذلون مقدار طاقتهم؛ طلبًا لمرضاة الله ﴿فَيَسْخَرُونَ﴾ أولئك اللامزون المستهزئون ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من الذين بذلوا جهدهم في أمر الصدقة ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ في الآخرة؛ مجازاة على سخريتهم هذه ﴿وَلَهُمْ﴾ فيها ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: 79] بدل لذتهم بسخريتهم.

وذلك أنه ﷺ حث المؤمنين يومًا على الصدقة، فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف دينار وقال: لي ثمانية آلاف فأقرضت ربي أربعة آلاف، وأمست لعيالي أربعة، فقال ﷺ: «بارك الله لك فيما أعطيت، وفيما أمست»⁽¹⁾.

(1) رواه ابن أبي عاصم (592/2)، رقم (1301).

وأتى عاصم بن عدي بمائة وسق من تمر، وجاء عقيل الأنصاري بصاع تمر، فقال: بت ليلتي أجر بالجرب الماء حتى نلت صاعين من تمر، وتركت صاعاً لعيالي، وأتيت بالآخر، فأمره ﷺ أن ينثره على الصدقات تبركاً، فلمزهم المنافقون، فقالوا: ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء، ولقد كان الله ورسوله غنيين عن صاع عقيل، ولكنه أحب أن يعد نفسه مع المتصدقين فنزلت.

﴿اَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ يا أكمل الرسل لهؤلاء اللامزين المستهزين، المستسخرين من المؤمنين بإنقاذهم من العذاب أو تخفيفه ﴿أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ سواء عند الله في انتقامهم وعذابهم، بل ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ لا مرة ولا مرتين، بل ﴿سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ البتة؛ لعظم جرمهم وفسقهم ﴿ذَلِكَ﴾ أي: عدم غفرانهم ﴿بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ وأشركوا معه غيره في الألوهية، مع أنه منزّه عن الشريك مطلقاً ﴿وَرَسُولِهِ﴾ أي: كذبوا برسوله، وبما جاء به من عند ربه، واستهزءوا بالمؤمنين المصدقين له، المتصفين في سبيل الله ﴿وَاللَّهُ﴾ الهادي لعباده ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: 80] عن مقتضى أوامر الله ونواهيه المسيئين الأدب مع الله ورسوله والمؤمنين.

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ (٨١) ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨٢) ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَعَذُّوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخُلَفَاءِ﴾ (٨٣) ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ﴾ (٨٤) ﴿وَلَا تَعْجَبْ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُغْنِيَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (٨٥) [التوبة: 81-85].

ثم قال سبحانه: ﴿فَرِحَ﴾ المنافقون ﴿الْمُخَلَّفُونَ﴾ عن رسول الله، المتخلفون لأمره، المتمكنون ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ أي: بمكان قعودهم ﴿خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ حين خرج إلى غزوة تبوك ﴿وَقَالُوا﴾ ما ذلك؛ أي: قعودهم واستقرارهم بعد رسول الله ﷺ في مكانهم، إلا أنهم ﴿كَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لخبث باطنهم وقسوة قلوبهم ﴿وَقَالُوا﴾ أيضاً للمؤمنين تقيزاً وتكسلاً: ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ أي: لا

تجاهدوا ولا تقاتلوا في الصيف حتى لا تضعفوا أنتم ومواشيكم ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل: ﴿تَارُ جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان التي استوجبتم بها بتخلفكم وعودكم عن الجهاد ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾⁽¹⁾ وأبلغ إحراقاً وإيلاماً ﴿لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: 81] ويفهمون ما هي وكيف هي لم يختاروها على حر الدنيا.

﴿فَلْيَضْحَكُوا﴾ أولئك المتخلفون، الهالكون في العذاب المؤبد، والوبال المخلد ﴿قَلِيلًا﴾ في الدنيا ﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ لما لحقهم بعد خروجهم منها من أنواع العذاب والنكال ﴿جَزَاءَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: 82] فيها من الجرائم العظام والمعاصي والآثام.

﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ﴾ وردك من غزوتك هذه؛ أي: غزوة تبوك ﴿إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: من المستخلفين، المستأذنين الذين قعدوا في المدينة بلا عذر، وبعدما قصدت غزوة أخرى ﴿فَاسْتَشْذَبُواكَ لِلْخُرُوجِ﴾ تلافياً لما مضى ﴿فَقُلْ﴾ لهم: ﴿لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ﴾ إلى الجهاد ﴿أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ أصلاً ﴿إِنَّكُمْ﴾ قوم ﴿رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ﴾ والتخلف ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بلا عذر بل عن عذر وخديعة ﴿فَاقْعُدُوا﴾ دائماً ﴿مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ [التوبة: 83] المعذورين من النساء والصبيان، والزمنى والمرضى.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ فِي الْحَرْبِ حَافِظٌ﴾ متى ظهر لك حال أولئك الغواة، الطغاة الهالكين في البغض والنفاق ﴿لَا تُصَلِّ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا تَقُمْ لِحَقْبِهِمْ﴾ ولا تدع لـ ﴿أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتًى أَبَدًا﴾ أي: بعد ورود النهي أصلاً ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ لتستغفر له ﴿إِنَّهُمْ﴾ من خبت بواطنهم ﴿كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ في حال حياتهم ﴿وَمَاتُوا﴾ على الكفر أيضاً ﴿وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة: 84] مجبولون على الفسق في أصل فطرتهم.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ فِي الْحَرْبِ حَافِظٌ﴾ بعدما تحقق عندك، وظهر كفرهم وفسقهم ﴿لَا تُغْنِيكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ﴾ التي هي وبال عليهم ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ﴾ المضل المذل لعصاة عباده ﴿أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾ بأنواع الحوادث والمصيبات ﴿وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ﴾ وميلهم ومحبتهم منوطة بها ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: 85] بالله، غير معتبرين معترفين بالوحيته وربوبيته.

(1) قاله بعضهم لبعض، أو قالوه للمؤمنين تشبيهاً لهم. قال ابن جزى: قاتل هذه المقالة رجل من بني سليم، ممن صعب عليه السفر إلى تبوك في الحر. البحر المديد (2/ 431).

﴿وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنُوا أُولُوا الطُّلُوعِ مِنْهُمْ
وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ
فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ
وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ
لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
﴿٩٠﴾﴾ [التوبة: 86-90].

﴿و﴾ من شدة نفاقهم وبغضهم مع الله ورسوله ﴿إِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ﴾ من القرآن
ناطقه ﴿أَنْ آمِنُوا﴾ أيها المكلفون ﴿بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ﴾ في سبيله ﴿اسْتَأْذَنُوا﴾
أولوا الطُّلُوعِ والسعة ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: صناديدهم وعظماؤهم؛ خوفاً من أموالهم وأنفسهم
﴿وَقَالُوا ذَرْنَا﴾ ودعنا ﴿نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: 86] المعذورين الغير القادرين.

وبالجملة: ﴿رَضُوا﴾ أولئك الغواة مع قوتهم وسعتهم ﴿بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ
الْخَوَالِفِ﴾ أي: الضعفاء الفاقدين للقوة والسعة ﴿و﴾ ما ذلك إلا أن ﴿طُبِعَ﴾ وختم
﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ بالكفر والضلال ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: 87] قبح ما جاءوا به من
المخالفة والبقود مع أولئك المعذورين، ولذلك لم يأتوا بالمأمور، ولم يتمثلوا به.

﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ امثلوا لأمر الله، وانقادوا لحكمه سمعاً
وطاعة، لذلك ﴿جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ في سبيل الله؛ ابتغاء لمرضاته وتثبيتاً في
دينه ﴿وَأُولَئِكَ﴾ المؤمنون المجاهدون ﴿لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾^(١) والمثوبات العظمى،
والدرجات العليا عند الله ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التوبة: 88] الفائزون من عنده بما
لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وبالجملة: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ﴾ المجازي لخلص عباده ﴿لَهُمْ﴾ أي: لهؤلاء المجاهدين،

(١) قال في التاويلات: وهذه الخيرات على نوعين: خيرات تتعلق بالعبد وأعماله وهي الحسنات
أخرى مع أنهم جاهدوا بأموالهم وأنفسهم، وخيرات تتعلق بمواهب الحق؛ يعني: لمساخي
العبودية نالوا خيرات الربوبية.

المرابطين قلوبهم مع الله ورسوله، الباذلين مهجهم في سبيله ﴿جَنَّاتٍ﴾ منتزهات علمية وعينية وحقيقية ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أنهار الشهود والكشوف والواردات والإلهامات، لا دفعة ولا دفعات، بل ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبداً ﴿ذَلِكَ الْقَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 89] واللفظ العميم لهؤلاء المختصين بالعناية الأزلية والسعادة السرمدية.

﴿وَ﴾ متى جاءت ونزلت سورة ناطقة بالقتال والجهاد ﴿جَاءَ الْمُعَذِّرُونَ﴾ بالأعذار الكاذبة وَمَنْ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴿مِنَ الْأَغْرَابِ﴾ الذين لا اطمئنان لهم في الإيمان ﴿لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ بالقيود وعدم الخروج إلى الجهاد ﴿وَقَعْدَ﴾ المصرون ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ من غير مبالاة بأمر الله وإطاعة رسوله، لا تبال بهم ويمخالفتهم وكذبهم؛ إذ ﴿سَيَصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ بعد افتضاحهم وظهور نفاقهم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: 90] في الدنيا والآخرة، لا نجاة لهم أصلاً.

﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ٩١ ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيَيْنُهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ ٩٢ ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُوكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ٩٣ [التوبة: 91-93].

ثم قال سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ﴾ الفاقدين استطاعة الحرب، ولو كانوا أصحاباً، كالنسوان والصبيان والشيوخ ﴿وَلَا عَلَى الْمَرْضَى﴾ الفاقدين الاستطاعة بعروض العوارض، كالعمى والعرج والزمانة وغيرها ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ﴾ للزاد والسلاح والمركب وغيرها ﴿حَرَجٌ﴾ أي: إثم ومنعصية في قعودهم وتخلفهم ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: أخلصوا في الإيمان والإطاعة بالله ورسوله بلا مرض في قلوبهم، ودعوا للمجاهدين والغزاة خيراً، وأحسنوا مع أهل بيته وأطفالهم وفعلوا معهم خيراً إن استطاعوا ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ القاعدين المعذورين مع الله ورسوله، والمؤمنين ﴿مِنَ السَّبِيلِ﴾ في المعاتبة والخرج، فضلاً عن العقاب الأخروي؛ إذ هم من جملتهم وزمرتهم ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لضمائرهم ﴿غَفُورٌ﴾ لذنوبهم ﴿رَحِيمٌ﴾

[التوبة: 91] يجازيهم على قعودهم هذا خيرًا؛ لكونهم معذوزين فيه.

﴿وَلَا﴾ حرج ولا عقاب أيضًا ﴿عَلَى﴾ المؤمنين المخلصين ﴿الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ﴾ حين صمم عزمك إلى الخروج ﴿لِتُخْبِلَهُمْ﴾ على الخفاف المرفوعة، والنعال المخصوصة، كمعقل بن يسار وصخر بن خنساء وسالم بن عمير وثعلبة بن غنمة وعبد الله بن زيد وعبد الله بن مغفل، وهم البكاؤون، وعبد الله بن كعب الأنصاري وغيرهم، حتى يبلغوا مكان العدو ﴿قُلْتَ﴾ لهم: ﴿لَا أَجِدُ مَا أَخْبِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا﴾ وانصرفوا من عندك آيسين ﴿وَأَغْيَيْتُهُمْ﴾ حين توليهم ﴿تَفِيضٌ﴾ وتسيل ﴿مِنَ الدَّفْعِ خَزَنًا﴾ وأسفًا ﴿أَلَا يَجِدُوا﴾ لئلا يجدوا ﴿مَا يَنْفِقُونَ﴾ [التوبة: 92] حتى يبلغوا المعركة ويحضروا الوغى، فهؤلاء أيضًا لا عتاب لهم ولا عقاب، بل يرجى لهم الأجر الجزيل من الله؛ لإخلاصهم وأسفهم.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ بالمعاتبة والمعاقبة، وأنواع العذاب ﴿عَلَى الَّذِينَ يَشْتَأِدُّونَكَ﴾ بالقعود معذرين ﴿وَوُ﴾ الحال أنه ﴿هُم أَغْيَاءُ﴾ مستطيعون قادرون بالجسد والمال، غاية ما في الباب أنهم ﴿رَضُوا﴾ من خبت باطنهم ومرض قلوبهم ﴿بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾. المعذورين الغير المستطيعين ﴿وَوُ﴾ ما ذلك إلا أن ﴿طَبَعَ اللَّهُ﴾ المذل المضل لأهل الغفلة والعناد ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ بالجهل والضلال ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: 93] جهلهم وضلالهم حتى يتسبوا لإزاحتها وإزالتها.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ خَبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَعْلَمُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِرِضْوَانِهِمْ فَلَمَّا تَرْضَوْنَهُمْ فَلَمَّا لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التوبة: 94-96].

ومع ذلك ﴿يَعْتَلِزُونَ﴾ أولئك المستأذنون، المستطيعون ﴿إِلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ من غزوتكم هذه ﴿إِلَيْهِمْ﴾ بالأعذار الكاذبة، الغير المطابقة للواقع تسليًا لكم وتغريزًا؛ بتميماً لثقاتهم ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل تعليمًا للمؤمنين في مقابلة

أَعذارهم: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ مرء ومداهنة، إنا ﴿لَنْ نُؤْمِنَ﴾ ونصدق ﴿لَكُمْ﴾ سيما ﴿قَدْ تَبَيَّنَا اللَّهُ﴾ المطلع لضماثركم، وما يجري في صدوركم بالوحي على رسوله ﴿مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ التي تكتمونها في نفوسكم من الشر والفساد، وبالنسبة إلينا وإلى نبينا ﴿وَوَ﴾ كيف تعتذرون عن جرائمكم وتلبسونها ﴿سَيَرَى اللَّهُ﴾ الناقد البصير ﴿عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ فتفضحون على رءوس الأشهاد ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾ في النشأة الأخرى ﴿إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ وثحابسون عنده عليها ﴿فَيَنْبِتْكُمْ﴾ ويظهر عليكم مفصلاً ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 94] في النشأة الأولى، فيجازيكم على مقتضى علمه.

ومن جملة نفاقهم وتلييسهم: إنهم ﴿سَيَخْلِفُونَ﴾ يقسمون ﴿بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ﴾ ورجعتم مشتكين فعاتبا ﴿إِلَيْهِمْ﴾ عن قعودهم وتخلفهم، إنما عرضهم من الحلف الكاذب تغريركم وتلييسكم ﴿لَتُغْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ وعن عتابهم، ولا تسألوا عن مخالفتهم وقعودهم ﴿فَأُغْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ وعن عتابهم قبل حلفهم وتلييسهم، ولا تلتفتوا إليهم ﴿إِنَّهُمْ﴾ في أنفسهم ﴿رَجَسٌ﴾ جبلتهم على الخبائث والنجاسة لا تقبل التطهير بالتأديب أصلاً ﴿وَمَا وَاهُمْ﴾ أي: مرجعهم ومنقلبهم في النشأة الأخرى ﴿جَهَنَّمَ﴾ الطرد والخذلان ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: 95] في النشأة الأولى من الكفر والنفاق، والإصرار على الشرك والشقاق.

وإنما ﴿يَخْلِفُونَ لَكُمْ﴾ حين شكواكم وعتابكم ﴿لَتُغْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ وتقبلوا إخلاصهم ومودتهم وتكونوا معهم كما كنتم ﴿فَإِنْ تَرْضُوا عَنْهُمْ﴾ بمجرد حلفهم الكاذب، وتغريركم الفاسد، لا يغني رضاكم عنهم شيئاً من سخط الله عليهم ﴿فَإِنْ اللَّهُ﴾ المطلع لما في ضمائرهم من الأكنة والنفاق ﴿لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: 96] الخارجين عن مقتضى الأوامر والتواهي الوازدة؛ لتطهير النفوس الخبيثة عن أرجاس الطبيعة، وتصفيتها عن أدناس الأخلاق الذميمة، العائقة عن الوصول إلى مقر التوحيد.

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمْ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَّا يَأْتِيَ قُرْبَةً لَهُمُ

سَيَدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ
وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ
تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ [التوبة: 97-100].

ثم قال سبحانه: ﴿الْأَعْرَابُ﴾ أي: أهل الوبر المترددون في البوادي، المنهمكون
في الغي والضلال والعتو والفساد ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ من أهل المدر المستأنسين مع
العقلاء، المستفيدين منهم ﴿وَ﴾ لشدة شكيمة أولئك الأعراب وجهلهم، وعدم قابليتهم
﴿أَجْدَرُ﴾ أي: أحق وأليق ﴿أَلَّا يَعْلَمُوا﴾ أي: بالآ يعلموا ﴿خُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ المبدبر
المصلح لأحوال عباده ﴿عَلَى رَسُولِهِ﴾ النائب عنه، المتكلف لإرشاد عباده بإقامة
حدوده المنزلة من الأوامر والنواهي المستلزمة؛ لتأديبهم في معاشهم ومعادهم؛ إذ هم
في غاية البعد عن الهداية والصلاح وتحمل التكاليف الإلهية ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لسرائر
عباده ﴿عَلِيمٌ﴾ باستعداداتهم الكامنة فيهم ﴿حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 97] في إلزام التكليف
عليهم.

﴿وَمِنْ﴾ منافقي ﴿الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ﴾ أي: يعد ويحسب ﴿مَا يَنْفِقُ﴾ بأمر الله في
سبيله ﴿مَغْرَمًا﴾ أي: غرامة وخسراناً؛ لعدم إيمانه واعتقاده بترتب الثواب عليه، بل إنما
ينفق رياءً وتقيةً ﴿وَ﴾ من خبائه باطنه ﴿يَتَرَبَّصُّ﴾ أي: يترقب ويتظر ﴿بِكُمْ الدَّوَائِرُ﴾
أي: نوائب الزمان الدائرة عليكم؛ لينقلب الأمر ويتحول الحال، ويخلص من الإنفاق
بالنفاق، بل يدور ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ﴾ على عكس مرامهم دائماً متجدداً، مستمراً
﴿وَاللَّهُ﴾ الرقيب عليهم ﴿سَمِيعٌ﴾ لمناجاتهم ﴿عَلِيمٌ﴾ [التوبة: 98] بنياتهم وحاجاتهم
تدير عليهم ما يترصدون بكم من الدوائر.

﴿وَمِنْ﴾ مخلصي ﴿الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ أي: يوقن ويدعن بتوحيده ﴿وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ﴾ أي: يصدق باليوم الآخر المعد لجزاء الأعمال، وترتب المثوبات بالقربات
والصدقات ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يَنْفِقُ﴾ في سبيل الله ﴿قُرْبَاتٍ﴾ ونيل مثوبات ورفع درجات
﴿عِنْدَ اللَّهِ وَضَلَوَاتِ الرُّسُولِ﴾ أي: بسبب استغفاره ودعائه له ﴿أَلَا إِنَّهَا﴾ أي: ما
يتصدقون بها أولئك المؤمنون، المخلصون، المتقربون ﴿قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾ وسبب وصولهم
إليه ﴿سَيَدْخِلُهُمُ اللَّهُ﴾ الموفق لهم، الرقيب عليهم ﴿فِي﴾ سعة ﴿رَحْمَتِهِ﴾ وجوده بعد
انقضاء النشأة الأولى ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المصلح لأحوالهم ﴿غَفُورٌ﴾ لما صدر عنه من

المعاصي قبل إيمانهم ﴿رَجِيمٌ﴾ [التوبة: 99] لهم، يقبل منهم بعد إيمانهم وإخلاصهم ما يتقربون به لمرضاته.

﴿وَالسَّابِقُونَ﴾ في الإيمان، المبادرون إلى التصديق وقبول الأحكام ﴿الْأُولُونَ﴾⁽¹⁾ الأقدمون بمتابعة الرسول ﴿مِنَ الْمُهَاجِرِينَ﴾ الذين هاجروا من مألوفات نفوسهم ومتشبهات طباعهم إلى الفناء في الله ﴿وَالْأَنْصَارِ﴾ الأبرار الذين سلكوا نحو الحق بالرياضات والمجاهدات الشاقة المزيحة لدرن التعلقات ورين الإضافات، المانعة من التوجه الحقيقي.

﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ﴾ واقتفوا أثرهم من أهل الطلب والإرادة ﴿بِإِحْسَانٍ﴾ أي: بلا تمايل إلى الرياء والسمعة والعجب، أولئك المبرورون، المقبولون ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ لتحقيقهم بمرتبة الإخلاص والتسلم ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ لإيصالهم إلى مقر التوحيد وفضاء الفناء المثمر للبقاء الأبدى والحياة السرمدية ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ سبحانه في حوزة حمايته وروضة بقاءه ﴿جَنَّاتٍ﴾ متزهات ﴿تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾ من العلوم والمعارف ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ لا يتحولون عنها أصلاً ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 100] واللفظ الجسيم لأهل العناية من أرباب الولاية والمحبة، المنخلعين عن جلباب ناسوتهم مطلقاً.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا يَكُنْ لَّكَ دُونَهُمْ حَسَنَةٌ سَعْدِيَّتُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يَردُّوكَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ (١٠١) ﴿وَأَخْرُونَ أَعْرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٠٢) ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

(1) قال البقلي: أي: السابقون بالأرواح قبل الكون إلى مشاهدة الأزل، بنعت المحبة والمعرفة والشوق حين أوجدها الحق من مكنن الغيب، وأحضرها لديه على جزائر النور، ومجالس السرور، فلا يزال طائرات بأجنحة الرضا في قضاء البقاء بنعت الفرح بالمعنى. فإذا تلبست بأشباحها، طلبت أماكنها ومعادنها، فأبصرت بنورها مراد تجلي القدم، فسبقت إليها، وسكنت بسبيل الاستقامة في طريق المعرفة بطلب زيادة الزلفات، وحقائق الوصلات.

قال ابن عطاء: «السابق»: من سبق له في الأزل حُسن عنايته، فيظهر عليه في وقت إيجاده أنوار تلك السابقة، فإنه ما وصل إليه أحد، إلا بعد أن سبق له في الأول منه لطف وعناية.

﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ
الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ [التوبة: 101-104].

﴿وَمِمَّنْ خَوْلَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿مِمَّنَ الْأَغْرَابِ﴾ الساكنين في البوادي قوم، هم ﴿مُنافِقُونَ﴾ معكم، وإن أظهروا المودة والإخاء، والإيمان على طرف اللسان، لا تبالوا بإيمانهم، ولا تغفلوا عن خدعهم ﴿وَمِمَّنْ أَهْلُ الْمَدِينَةِ﴾ أيضاً قوم ﴿مَرْدُوا﴾ أي: رسخوا ﴿عَلَى النِّفَاقِ﴾ ومن شدة نفاقهم وتمرنهم عليه صاروا بحيث ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ أيها المتصف بالفراصة الكاملة من غاية تليسهم وإخفائهم، بل ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ ونعلم ما في ضمائرهم من الخيالات الفاسدة ﴿سَتَعْلِبُهُمْ﴾ في الدنيا ﴿مُرَّتَيْنِ﴾ مرة بتفويضهم وإظهار ما في قلوبهم من الأكنة والشقاق، ومرة بقتلهم وسبيهم وإجلالهم ﴿ثُمَّ يَرْذُونَ﴾ بعد انقضاء النشأة الأولى ﴿إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: 101] هو حرمانهم وانحطاطهم عن المرتبة الكاملة الإنسانية التي هي مرتبة الخلافة والنيابة الجامعة لجميع المراتب الكونية والكيانية.

﴿وَمِمَّنْ أَهْلُ الْمَدِينَةِ﴾ قوم ﴿آخِزُونَ﴾ ليسوا من المصرين على النفاق، المتمرّنين فيه، بل ﴿اغْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ التي صدرت عنهم من المخالفة والبغض والطعن والاستخفاف، والغيبة حين خلوا مع المنافقين المتمرّنين، وهم وإن صدر عنهم الإيمان والإخلاص، لكنهم ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا﴾ من الإخلاص والرضا، والتسليم ﴿وَمِمَّنْ أَهْلُ الْمَدِينَةِ﴾ وهو اتفاقهم مع المنافقين في خوضهم وطعنهم، وبذلك انحطوا عن رتبة المخلصين في جميع حالاتهم ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يوفقهم على التوبة والندامة، ويقبل منهم توبتهم بعدما أخلصوا فيها ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿عَفُورٌ﴾ لمن تاب وندم عن ظهر القلب ﴿رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 102] يقبل توبتهم إن أفرطوا.

﴿خُذْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مِمَّنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ أي: من أموال هؤلاء المذنبين التائبين، النادمين عما صدر عنهم من المخالفة حين أذنوا لك أن تخرج منها ﴿صَدَقَةٌ تُطَهِّرُهُمْ﴾ عن أدناس الطبيعة المولعة بحب المال والحرص في جمعها ونمائها ﴿وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ أي: تصفي بواطنهم عن الشواغل العاتقة عن اللذات الروحانية ﴿وَضَلَّ عَلَيْهِمْ﴾ واستغفر لذنوبهم، وادع لهم بالدعاء الخير ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ﴾ والتفاتك بحالهم ﴿عَمَلٌ لَّهُمْ﴾ أي: سكونة لقلوبهم ووقار وطمأنينة، وسبب لتقرّرهم وتثبيتهم على سبادة التوحيد

والإيمان ﴿وَاللَّهُ﴾ المراقب عليهم في حالاتهم ﴿سَمِيعٌ﴾ لإخلاصهم ومناجاتهم ﴿عَلِيمٌ﴾ [التوبة: 103] بتياتهم وحاجاتهم.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ أولئك التائبون، النادمون، المخلصون، المتضرعون نحو الحق على عفو زلاتهم وتقصيراتهم ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المصلح لأحوالهم ﴿هُوَ﴾ بلطفه وفضله ﴿يَقْبَلُ﴾ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴿بَعْدَ مَا وَفَّقْتَهُمْ عَلَيْهَا﴾، ويتجاوز عن سيئاتهم ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ ⁽¹⁾ من أموالهم؛ أي: يقبلها منهم تطهيراً لقلوبهم عما يشوشهم من رذائل هوياتهم وتعيناتهم؛ ليتشمروا نحو الحق مخفين ﴿وَو﴾ لم يعلموا ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المتفضل لعباده ﴿هُوَ التَّوَّابُ﴾ الرجاء لهم عن مقتضيات نفوسهم نحو جنابه ﴿الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: 104] عليهم يوصلهم إلى بابه إن أخلصوا في سلوكهم وتوجههم.

﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِرِّي اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ وَآخِرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدُ أُسُسٍ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة: 105-108].

﴿وَقُلْ﴾ يا أكمل الرسل للمخلفين من الأعراب: ﴿اعْمَلُوا﴾ ما شتم من الكفر والنفاق ﴿فَسِرِّي اللَّهِ﴾ الرقيب عليكم ﴿عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ بوحيه سبحانه وإلهامه ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ بتبليغه ﴿وَو﴾ اعلموا أيها الغواة المجرمون ﴿سَتُرَدُّونَ﴾ للحساب والجزاء ﴿إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ أي: السرائر والخفيات التي تسترونها من الكفر والمعاصي ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: التي تعلنون بها ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ﴾ سبحانه على التفصيل ﴿بِمَا كُنْتُمْ

(1) أي: خُذ ما يتعلق بحفظ أنفسهم، حتى لم يبق بينهم وبين الله حظ النفس، وأيضاً أي: باشر أموالهم بأخذ الصدقات للفقراء؛ حتى تصل بركة تلك إلى أموالهم، وتطهر بلطف يدك نفوسهم من المعاصي وجميع العذاب، وتطهر قلوبهم من حب ما سوى الله.

تَعْمَلُونَ ﴿التوبة: 105﴾ من طغيان نفوسكم، ويجازيكم عليها.

﴿وَآخِرُونَ﴾ من المتخلفين بعدما تنبهوا بقبح صنيعهم ﴿مُزَجَّوْنَ﴾ مؤخرون، منتظرون ﴿لَأَمْرِ اللَّهِ﴾ وحكمه، وصاروا مترددين بين الخوف والرجاء فيما فعل الله معهم ﴿إِنَّمَا يُغَذِّبُهُمْ﴾ أخذًا على ما صدر عنهم بمقتضى عدله ﴿وَإِنَّمَا يَثُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ ويوفقههم على التوبة بمقتضى فضله وسعة رحمته، وجوده ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لخفيات صدورهم ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بإخلاصهم ونياتهم ﴿حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 106] في فعله بهم بعد علمه بحالهم.

﴿وَ﴾ من أشدهم كفرًا ونفاقًا، وأغلظهم بغضًا وشقاقًا، هم ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ تلييسًا وتغريزًا ﴿مَسْجِدًا﴾ قاصدين في بنائه ﴿ضِرَازًا﴾ مضرّة وسوءًا لرسول الله ﷺ وللمؤمنين ﴿وَكُفْرًا﴾ أي: اشتدادًا وزيادة فيه؛ لأنهم يقصدون بإنشائه وبنائه قتل رسول الله والمؤمنين فيه ﴿وَ﴾ قصدوا أيضًا ﴿تَفْرِيقًا﴾ وتشيتًا ﴿بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ المجتمعين في مسجد قباء ﴿وَ﴾ بالجملة: إنما ينونه ﴿إِزْضَادًا﴾ أي: ترقبًا وانتظارًا ﴿لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وهو أبو عامر، الراهب الذي حارب مع المؤمنين ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ يوم حنين فانهزم، فهرب إلى الشام؛ ليذهب إلى قيصر، فيأتي بجنوده، وهم منتظرون لمجيئه.

﴿وَ﴾ بعدما ظهر نفاقهم وخداعهم بوحى الله وإلهامه على رسوله ﴿لِيَخْلِفُنَّ﴾ وليقسمن بالإيمان الغليظة ﴿إِنْ أَرَدْنَا﴾ أي: ما قصدنا بينائه ﴿إِلَّا الْخُسْفَى﴾ والخير، وهي الصلاة المقربة نحو الحق والذكر والتسبيح والتوسعة على المؤمنين، وازدياد شعائر الإسلام ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لضمائرهم ومحاييلهم ﴿يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: 107] في حلفهم.

وإذا عرفت يا أكمل الرسل حالهم وحلفهم، وسوء قصدهم وفعالهم ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ للتوجه والصلاة؛ لكونه مبتلى على الخداع والتزوير ﴿لَمَسْجِدَ أُتَسِّسَ﴾ وبني ﴿عَلَى الثَّقَوَى﴾ عن محارم الله وخالصًا لرضاه ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ بني، وهو مسجد قباء ﴿أَخَوُ﴾ أي: أليق وأولى ﴿أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ للصلاة والميل نحو الحق؛ إذ ﴿فِيهِ رِجَالٌ﴾ مؤمنون كاملون في الإيمان ﴿يُحِبُّونَ﴾ دائمًا ﴿أَنْ يَظْهَرُوا﴾ عن المعاصي والآثام، ويتوجهوا نحو الحق برفض الشواغل ونقض العوائق والعلائق ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع بنياتهم ﴿يُحِبُّ

﴿الْمُطَهِّرِينَ﴾⁽¹⁾ [التوبة: 108] القاصدين تطهير ذواتهم عن التوجه إلى ما سوى الحق المطلق، بل عن هوياتهم وتعيناتهم الباطلة.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَرَّبُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقٌّ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِنِعْمِ اللَّهِ الَّذِي بَايَعَكُمْ بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ [التوبة: 109-111].

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ﴾ ووضع ﴿بُنْيَانَهُ عَلَىٰ﴾ قاعدة محكمة وركن شديد، هي ﴿تَقْوَىٰ﴾ أي: تحفظ وتحصن ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ أي: غضبه وسخطه ﴿و﴾ طلب ﴿رِضْوَانٍ﴾ ومثوبة عظيمة، ومنزلة رفيعة منه ﴿خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ أي: على طرف واد جوفه السيول والأمطار فسقط البعض، وأشرف على السقوط والانهدام البعض الآخر، فوضع عليه بناءه ﴿فَانْهَارَ بِهِ﴾ وسقط معه ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي: الوادي الغائر، الهائر، المملوءة من نار الحرمان والخذلان ﴿وَاللَّهُ﴾ الهادي لخلص عباده ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: 109] الخارجين عن مقتضى أوامره ونواهيه.

ومن شدة غيظهم وخبت باطنهم ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا﴾ يورث ويزيد ﴿رِيبَةً﴾ شكًا وريبًا متزايدًا ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾ مترشحًا فيها ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ بنيران الحسرة، وتفتت وتلاشت بأحوال العذاب إلى حيث لا يتأتى منها الإدراك ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمخايلهم الكامنة في صدورهم ﴿حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 110] في جزائها وانتقامها.

(1) «الطهارة»: طهارة الأسرار من الخطرات، وطهارة الأرواح من الغفلات، وطهارة القلوب من الشهوات، وطهارة العقول من الجهلات، وطهارة النفوس من الكفریات، وطهارة الأبدان من الزلات، ومن أحبه الله في الأزل، يُطَهِّرُهُ في الدنيا مما يشغله عن الله طرفة عين، فإن المحب لا يترك حبيبه في شيء يُضُرُّ به، قال سهل: الطهارة على ثلاثة أوجه: طهارة العلم من الجهل، وطهارة الذكر من النسيان، وطهارة الطاعة من المعصية.

ودعاء ﴿الْأَمِزُونَ بِالْمَغْرُوفِ﴾ المستحسن عقلاً وشرعاً بالقلب واللسان، وجميع الجوارح ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ المستقبح عقلاً وشرعاً لجميع ما ورد النهي به ﴿وَو﴾ بالجملة: هم ﴿الْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ الموضوعات بين أرباب التكليف القابلين، المستعدين لسلوك طريق التوحيد ﴿وَبَشِّرِ﴾ يا أكمل الرسل ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: 112] الموصوفين بهذه الصفات الجميلة بالذات التي لا يمكن وصفها بلسان التعبير من لدن حكيم خبير.

ثم قال سبحانه على طريق النهي عمومًا: ﴿مَا كَانَ﴾ أي: ما صحَّ وجاز ﴿لِلنَّبِيِّ﴾ الأمي الهاشمي ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ معه، وأخلصوا فيه ﴿أَنْ يَسْتَغْفِرُوا﴾ ويشفعوا ﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾ بتخفيف العذاب ودخول الجنة ﴿وَلَوْ كَانُوا أَزْوَاجًا﴾ من النسب؛ إذ لا عبرة لقربة النسب، بل القرابة المعتبرة هي قرابة الحسب والإيمان، سيما ﴿مَنْ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ﴾ موتهم على الكفر والجاهلية ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: 113] أي: ملازموها وملاصقوها، لا نجاة لهم منها؛ لإصرارهم على موجبها.

﴿وَو﴾ لا يرد على هذا استغفار إبراهيم لأبيه؛ إذ ﴿مَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ على سبيل الشفاعة والشفقة، والعطف الموجب لها، بل ما هو ﴿إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ﴾ وعهد ﴿وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ حين أراد أن يخرج من الكفر والشرك، بأن يستغفر له ما تقدم من ذنبه إن آمن فاستغفر قبل الإيمان إنجازاً لوعده ليلين قلبه ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ وظهر عنده ﴿أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ﴾ مصر على كفره، مطبوع على قلبه ﴿تَبَيَّرَ مِنْهُ﴾ واسترجع إلى الله منيئاً؛ لاجترائه واستغفاره في حق أبيه، مع عدم العلم باستعداده وتوفيق الله إياه ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ﴾ مع كونه متحققاً بمقام الخلقة مع الله ﴿لَأَوَّاهٌ﴾⁽¹⁾ كثير التأوه والتحزن عن أمثال هذه الجراءة ﴿خَلِيمٌ﴾ [التوبة: 114] كثير الشفقة والمرحمة على أهل الخلقة؛ لظهوره على مقتضى اللطف والجمال.

(1) قال في التأويلات: الأَوَّاهُ المتبرئ من المخلوقات؛ لكثرة نيل المواجهات والكرامات، فيكون لضيق البشرية تولاه مولاه، فمهما ورد له وارد الحق ضاق عليه نطاق الخلق فيتأوه عند تنفس القلب المضطرب من الخلق إلى الحق ويفر من الخلق ويفر إلى الحق ملجأ من جلدة الإنسانية منفرداً للفردانية متوحدًا للوحدانية، حلیم عما أصابه من الخلق للحق، فلا رجوع من الحق إلى الخلق بحال من الأحوال، كما قال لجبريل عليه السلام: ابتلاه الله به في الهوى، لما ألقى بالمنجنيق إلى النار عند قوله: «ألك حاجة» كيف أرجع من الحق في تلك الحالة لمقال: أما إليك فلا.

﴿و﴾ اعلموا أيها المؤمنون ﴿مَا كَانَ اللَّهُ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿لِيُضِلَّ قَوْمًا﴾
 ويسميهم ضلالاً وفساقاً ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ﴾ للإيمان والإسلام ﴿حَتَّىٰ يُتَيَّنَ لَهُمْ﴾ وينبه
 عليهم ﴿مَّا يَتَّقُونَ﴾ ويحذرون من المحارم والمعاصي؛ لامتناع تكليف الغافل، ثم بعد
 ارتكاب المحذور به يسميهم ما يسميهم، ويأخذهم منتقمًا عليهم ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المدير
 لأمور عباده ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ مما يتعلق بصلاحهم وإصلاحهم ﴿عَلِيمٌ﴾ [التوبة: 115] لا
 يعزب عن علمه شيء، فعليكم أيها المؤمنون أن تفوضوا أموركم كلها إلى الله.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ﴿١١٦﴾ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ
 اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فِرْقَتَيْنِهِمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ
 إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا
 رَحَبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَا مَلْجَأَ مِّنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ
 لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ [التوبة: 116-118].

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المستقل بالالوهية والوجود ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ﴾ وما فيها من
 الكواكب والنجوم ﴿وَالْأَرْضِ﴾ وما عليها، وكذا ما بينهما ﴿يُحْيِي﴾ ويظهر بلفظه متى
 تعلق إرادته ﴿وَيُمِيتُ﴾ يعدم ويخفي بقهره متى شاء ﴿وَمَا لَكُم﴾ أيها المؤمنون
 الموقنون بتوحيد الله ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الواحد، الأحد، الصمد الذي ليس معه شيء، ولا
 دونه حي ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يولي أموركم ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة: 116] ينصركم عليها.

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾ أي: وفقه على التوبة بعدما صدر عنه إذن المخالفين،
 المستأذنين المعتذرين بالأعذار الكاذبة؛ تفريرًا له وتلييسًا عليه، مع عدم علمه بحالهم
 ﴿و﴾ تاب أيضًا على ﴿الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ نحو تبوك حين خرج إليها
 ﴿فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ وأيام القحط؛ إذ ليس لهم في تلك السفر زاد ولا راحلة ولا ماء،
 حيث يتعاقب عشرة على بعير، وقسيم تمر بين اثنين في يوم، وشرب الفظ والفرث من
 شدة العطش، لذلك تمايل على المخالفة ﴿مِن بَعْدِ مَا كَادَ﴾ وقرب ﴿يَزِيغُ﴾ ويميل عن
 المتابعة ﴿قُلُوبُ فِرْقَتَيْنِهِمْ﴾ من قلة الصبر، وكثرة المقاساة والأحزان ﴿ثُمَّ تَابَ﴾ الله
 ﴿عَلَيْهِمْ﴾ ووفقهم على التوبة مما أخطروا ببالهم، وتخللوا في خيالهم ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه

﴿بِهِمْ﴾ بعدما علم استعداداتهم وقابلياتهم ﴿رَءُوفٌ﴾ عطوف، يعفو عما صدر عنهم وقت الاضطرار ﴿رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 117] يقبل عنهم ما جاءوا به من الإنابة والاستغفار.

﴿وَ﴾ أيضًا تاب سبحانه ﴿عَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا﴾ عن غزوة تبوك بلا عذر؛ هم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، وصاروا من عدم التفات رسول الله والمؤمنين إليهم بعدما أمرهم الرسول ألا يتكلموا معهم خمسين ليلة ﴿حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي: مع وسعتها وفسحتها ﴿وَ﴾ صاروا من الأعراض إلى أن ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ أَنْفُسُهُمْ﴾ واشتد عليهم الأمر، وانسد أبواب التدابير مطلقًا، فاضطروا في أمرهم، والتجأوا نحو الحق مخلصين ﴿وَوَظَّنُوا﴾ بل كوشفوا ﴿أَنْ لَا مَلْجَأَ﴾ ولا مفر ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ أي: من غضبه وسخطه ﴿إِلَّا إِلَيْهِ﴾ إذ ليس بغيره وجود حتى يلجأ إليه، لذلك قال ﷺ في أمثال هذه المضائق: «أعوذ بك منك»⁽¹⁾.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما أخلصوا في الإنابة والرجوع وفوضوا أمورهم إليه سبحانه ﴿تَابَ﴾ الله ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي: أقدرهم ووفقهم على التوبة ﴿لِيُثْبِتُوا﴾ ويرجعوا إلى الله نادمين على ما صدر عنهم من المخالفة، فيغفر لهم ويعفو عن زلاتهم ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المصلح الموفق ﴿هُوَ الثَّوَابُ﴾ الرجاء لعباده نحو جنابه حين صدر عنهم المعاصي ﴿الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: 118] لهم يرحمهم، ويقبل توبتهم عند رجوعهم متضرعين مخلصين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَعْمَالَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ [التوبة: 119-121].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم التقوى عن محارم الله ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ عن

(1) رواه النسائي في «الكبرى» (499/1)، وابن خزيمة (101/3).

مخالفة أمره ﴿وَكُونُوا﴾ في السراء والضراء ﴿مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: 119] المصدقين لرسوله، المتابعين له في جميع أموره.

واعلموا أنه ﴿مَا كَانَ﴾ أي: ما صحَّ وجاز ﴿لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ﴾ يسكن ﴿حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ المترددين في بواديها ﴿أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ حين خرج إلى القتال، واقتحم على الأعداء ﴿وَلَا﴾ يصح لهم أن ﴿يَزْغَبُوا﴾ ويميلوا ﴿بِأَنْفُسِهِمْ﴾ لحفظها وصيانتها ﴿عَنْ نَفْسِهِ﴾ بل يجب عليهم أن يقدوا نفوسهم، ويكفلوا في صيانتها وحفظه ﷺ، وحيث اقتحم ﷺ فلهم المبادرة والمسابقة ﴿ذَلِكَ﴾ أي: ما وجب عليهم من تحمل المشاق والمتاعب، والإسراع إلى الاقتحام، والإقدام عليها ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنهم متى خرج ﷺ ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ أي: عطش ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ ألم من أنواع الآلام ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ أي: مجاعة ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لإعلاء دينه وكلمة توحيده.

﴿وَلَا يَكْفُرُونَ﴾ كذا ﴿لَا يَطْشُونَ مَوْطِئًا﴾ ولا يدوسون مكانًا ﴿يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ مرورهم عنه ﴿وَلَا يَتَّالُونَ مِنْ عَدُوٍّ ثِيلاً﴾ من القتل والأسر، والغلب والنهب ﴿إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ بِهِ﴾ عند الله ﴿عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ موجب للمثوبة العظمى والدرجة العليا، وبالجملة: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المحسن المتفضل لخواص عباده ﴿لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: 120] الذين يحسنون الأدب مع الله، ويعبدونه كأنهم يرونه ومع رسوله، المستخلف منه، النائب عنه.

﴿وَلَا يُنْفِقُونَ﴾ هؤلاء المحسنون ﴿نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ في سبيل الله طلبًا لمرضاته ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ تجاه العدو حين أمرهم الله ورسوله ﴿إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ﴾ في ديوان حسناتهم ﴿لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ﴾ بها جزاء ﴿أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 121] أي: مثل جزاء أحسن أعمالهم.

﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَسْفَرُوا كَأَنَّهُمْ قُلُوبٌ لَا نَفْسَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ هَذِهِ هَيِّئْنَا فَمَّا الْوَيْلُ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَمَضٌ فَرَادَتْهُمْ

رَجَسَالِي رَجِسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ [التوبة: 122-125].

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: وما استقام لهم وناسب بحالهم ﴿لِيَنْفِرُوا﴾ عن أماكنهم وبلادهم ﴿كَافَّةً﴾ بحيث تخلو بلدانهم عن الحفظ والحراس ﴿فَلَوْلَا﴾ وهلا ﴿نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ إلى الرسول ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾⁽¹⁾ ويتعلموا شعائره وما يتعلق به من الأدب ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ بذلك ﴿إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ وقيموا لهم ما يتعلمون من شعائر الإسلام ومناسك الدين القويم ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: 122] عن منهيات الدين، ويتصفون بمأموراته، ويصلحون عقائدهم بها فيؤمنوا ويوقنوا بالله، ويتدينوا بدينه.

ومن معظم شعائر الإسلام: القتال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ﴾ ويقرب منكم في حواليكم وخواشيكم ﴿مِنَ الْكُفَّارِ﴾ وليضيقوا ويشددوا عليهم ﴿وَلِيَجِدُوا﴾ ويشاهدوا ﴿فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ تشددًا وتصبرًا على القتال، وجرأة وتهورًا عليها فيخافوا منكم، فيتركوا عنادهم، ولا تبالوا بكثرة عددهم وعددهم، واجترثوا عليهم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ﴾ القادر المقتدر بالقدرة التامة الكاملة ﴿مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 123] الذين يحفظون حدود ما أنزل الله عليهم فتوكلوا عليه، وامثلوا بمأموره إن كنتم موقنين.

﴿و﴾ كيف لا تقاتلون ولا تشددون أيها المؤمنون على الغواة المستهزئين الذين ﴿إِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ من عندنا مشتملة على تكميل دينكم، وزيادة إيمانكم ويقينكم ﴿فَمِنْهُمْ﴾ أي: من المنافقين ﴿مَنْ يَقُولُ﴾ لأصحابه ورفقائه له من خبث باطنه وركاكة فطته؛ استهزاء وسخرية: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَلِيلٌ﴾ استحقارًا لها ﴿إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾

(1) قال نجم الدين: ليتفقوا في السير إلى الله تعالى، والسير بالله، والسير في الله، وأما رحلة المعنى فلما كان حال إبراهيم عليه السلام قال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾، فهو السير من القلب وصافته إلى القلب وصفاته، ومن القلب وصفاته إلى الروح إلى التخلق بأخلاق الله بقدّم فناء أوصافه، وهو السير إلى الله، ومن أخلاق الله إلى ذات الله بقدّم فناء ذاته بتجلي صفات الله وهو السير بالله، ومن أنانيته إلى هويته ومن هويته في ألوهيته إلى أبد الآباد وهو السير في الله بالله من الله، وتقدس فقال: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ﴾ أي: فهلا نفر من كل قوم وقبيلة وبلدة وقرية، ﴿مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ من خواصهم ومستعديهم للطلب، ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ أي: ليتعلموا السير إلى الله من السائرين الواصلين إليه.

بالله وبجميع ما نزل من عنده؛ لإصلاح أحوال عباده ﴿فَرَادَتْهُمْ﴾ بعدما تأملوا فيها، وتدبروا في مرموزاتها ﴿إِيمَانًا﴾ يقينًا واطمئنانًا ﴿وَهُمْ﴾ بعدما أطلعوا على مطلقها ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: 124] بنزولها.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ هو التعامي عن آيات الله ومقتضى إشاراته، ورموزه ﴿فَرَادَتْهُمْ﴾ هذه ﴿رِجْسًا﴾ كفرًا وشرًا متضمنًا ﴿إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ الأصلي وكفرهم الجبلي، وصاروا منغمسين منهمكين بالكفر والضلال ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: 125] مصرون على كفرهم فلهقوا بشياطينهم الذين مضوا قبلهم، خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين.

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ (١٢٦) ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (١٢٧) ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١٢٨) ﴿إِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (١٢٩) [التوبة: 126-129].

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ﴾ من خباثة بواطنهم ورجاسة نفوسهم ﴿يُفْتَنُونَ﴾ يقتلون ويصابون ﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً﴾ بلية ﴿أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ بليتين؛ لتلين قلوبهم بها، ويتنبهوا فيتوبوا ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ إلى الله من كفرهم، ولا يرجعون نحوه بالإيمان؛ ليقبل عنهم ﴿وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ [التوبة: 126] بها؛ أي: يتذكرون ويتفطنون بها، بل يصرون ويعاندون.

﴿وَ﴾ من جملة إصرارهم وعنادهم: إنهم ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ﴾ مفضحة لهم، مفضحة بما عليهم من النفاق والشقاق، ونقض العهود والميثاق ﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ يتغامزون بعيونهم، ويقولون استهزاء وتهكمًا: ﴿هَلْ يَرَأِيكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ من هؤلاء المؤمنين ﴿ثُمَّ انْصَرَفُوا﴾ من عنده مريدين النفاق والشقاق بأضعاف ما كانوا عليه؛ بسبب تفضيحهم بهذه السورة، لذلك ﴿صَرَفَ اللَّهُ﴾ الهادي لعباده ﴿قُلُوبَهُمْ﴾ عن الإيمان وجادة التوحيد ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: 127] أي: لا يفهمون لذة الإيمان، ولا يتخلقون على نشأة التوحيد والعرفان، مثل الموحدين.

لذلك ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ أيها الأعراب ﴿رَسُولٌ﴾ بالمعجزات الظاهرة والآيات الباهرة، متشئى ﴿مَنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ وجنسكم، ومن غاية شفقتة ورحمته لكم ﴿عَزِيزٌ﴾ شاق شديد ﴿عَلَيْهِ﴾ ﴿مَا عَشْتُمْ﴾ أي: عنتكم ولقاءكم المكروه؛ إذ هي من أمارات الكفر والشرك، وعدم الإطاعة والانقياد بأوامر الله ونواهيه، مع أنه ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: على إيمانكم وإسلامكم وإصلاح حالكم؛ إذ هو ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ الموقنين، الموحدين، المخلصين ﴿رَءُوفٌ﴾ عطوف، مشفق ﴿رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 128] يرحمهم ويرضى عنهم؛ لخروجهم عن ظلمة الكفر بنور الإيمان.

وكن في نفسك يا أكمل الرسل على الوجه المذكور ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ وأعرضوا، وانصرفوا عنك وعن الإيمان بك وبدينك وكتابك ﴿فَقُلْ﴾ في نفسك ملتجئاً إلى ربك: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ الرقيب علي، يكفيني مؤنة خصومتهم عني؛ إذ ﴿لَا إِلَهَ﴾ يُرجع إليه في الوقائع، ويُلجأ نحوه في الخطوب ﴿إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ﴾ لا على غيره؛ إذ لا غيره حق في الوجود ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ فلا أرجو ولا أخاف إلا منه ﴿وَوَكَّلْتُ﴾ كيف لا أتوكل عليه وأرجع إليه؛ إذ ﴿هُوَ﴾ بذاته ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: 129] أي: مربيه، والمستوي عليه بالاستقلال والإحاطة، والاستيلاء التام؛ إذ لا شيء في الوجود سواه، وكل شيء هالك إلا وجهه.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب المشمر لسلوك طريق الفناء، كي تصل إلى فضاء البقاء - شكر الله سعيك وهداك إلى غاية مبتغاك - أن تقتفي في تشمرك هذا أثر من نبهك عليها وهداك إليها، وهو الذي اختاره الله واصطفاه من بين خليقته؛ لتكميل بريته، وأظهره على صورته، وخلقه بجميع أخلاقه، لذلك اتخذته حبيباً وجعله على سائر الأنبياء إماماً ونقيباً.

وتشبت بأذيال لطفه فعلاً وقولاً وشيمةً، صارفاً عنان عزمك إلى سرائر جميع ما جاء به من عند ربه؛ لإرشاد عباد الله، وما سمح به من تلقاء نفسه - صلوات الله عليه وسلامه - من الرموز والإشارات التي استنبطها من كلامه، وفاضت عليه بوحى الله وإلهامه؛ لصفاية استعداده الذي صار به مرآة لتجليات الحق وشئونه وتطوراته، وخليفة الله في أرضه وسماؤه، وما التقط من كلماته وإشاراته الأولياء الوارثون منه، المقتفون أثره - قدم الله أرواحهم - وما ورد عليهم من تفاوت طبقاتهم في طريق التوحيد من

المواجيد والملهمات الغيبية، المنتشئة من النفحات الإلهية والنفسات الرحمانية، الناشئة من التجليات الجمالية والجلالية، المتفرعة على الشئون والتطورات الكمالية.

وبالجمامة: لا بد لك أن تفرغ همتك عما سوى الحق مطلقاً، ولا يتيسر لك هذا إلا بمتابعة المحققين بمقام الكشف والشهود، الواصلين إلى مقام المراقبة والمشاهدة، والاستفادة منهم ومن ملتقطاتهم ووارداتهم حتى يمكن لك التمكن في مكنم الفناء، والتقرب في مقر البقاء، وحينئذ يصح لك أن تقول بلسان حالك ومقالك: حسبي الله، لا إله إلا هو، عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم.

جعلنا الله من عباده المفوضين، المتوكلين الذين يتخذون الله وقايةً ووكيلاً، ويجدون له ولياً وحسيباً.

سورة يونس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة يونس الطه

لا يخفى على المنجذيين نحو التوحيد الإلهي من طريق السلوك والمجاهدة، ورفض الشواغل وقطع العلائق، ونفي الخواطر والوساوس، وإسقاط الأوهام والخيالات المستندة إلى الهويات الجزئية، المستلزمة للغيرية والامتياز والاستقلال في الوجود، وما يترتب عليه من الآثار والإضافات أن السلوك من هذا الطريق لا يتم إلا بالاستعداد والاسترشاد من أهل الخبرة والاستبصار، وأرباب الكشف والاعتبار الواصلين إلى مقر التوحيد من جادة المجاهدة ومحجة الفناء، المقتضية للموت الإرادي عن لوازم الهوية البشرية مطلقاً.

وبالجملة: إن الكاملين المكملين، العارفين بأمارات الطريق وموانعه، وأن قضية الحكمة وأمر المناسبة الإلهية الواقعة بين الأوصاف الذاتية تقتضي أن يكون بين المفيد والمستفيد علاقة وارتباط؛ إذ لا يمكن الاستفادة من أي شخص كان، لا بد من المناسبة والعلاقة المصححة للإفادة والاستفادة في هذا الطريق الآمن، جذبه الحق بنفسه، وأخلع عنه جلباب ناسوته مطلقاً، وصار هو هو، بل ارتفعت الهوية واضمحلت الموضوعية والمحمولية أيضاً عن بصر شهوده ونظر بصيرته، فهم تحت قباب العز ولواء العظمة والكبرياء، وسراقات المجد والبهاء، وليس عندهم سلوك وسالك ومسلك، وقصد ومقصودهم لا يصرفون سوى الحق، ولا يعرفهم أيضاً سوى الحق، كما نطق به الحديث القدسي، لذلك ما يرى هؤلاء إلا به وفيه.

وأما أهل الطلب والإرادة، المندرجون في سلوك طريق الفناء، المتعطشون بزالل التوحيد والبقاء فلا بد لهم أن يتشبهوا ويتوسلوا بذيل من أيده الحق؛ لتكميل العباد وإرشادهم إلى مبدئهم ومعادهم، وهم الأنبياء الذين جبلوا على النفوس القدسية، المطهرة عن الكدورات الأنسية والعلائق البشرية، العائقة عن الفناء في هوية الحق، ثم الأولياء الوارثون منهم، الواصلون بمتابعتهم إلى مرتبة التوحيد والعرفان التي هي الفناء في ذاته.

والمحجوبون المجبولون على الغفلة، المنهمكون في الغي والضلال يتعجبون عن إرشاد الأنبياء والأولياء عباد الله إلى فضاء توحيده، وينكرون لياقتهم للنبوة والرسالة؛ إنما هو لجهلهم بدقائق المناسبات ورقائق الارتباطات الواقعة بين الحق والإنسان الكامل، ويقيسون أحوال الأنبياء والأولياء إلى أحوال آحاد الناس، ولم يتفطنوا أن أفضل البشر أفضل من أفضل الملائكة؛ لتحقيقهم في مرتبة الخلافة والنيابة الإلهية بجمعيتهم دونهم؛ لعدم جمعيتهم.

لذلك ردَّ الله سبحانه على هؤلاء الجهلة بما هم عليه من التعجب والإنكار، ووبخهم بما وبخهم؛ لينبه المؤمنين على ما هو الحق، فقال متيمناً باسمه العظيم، ومخاطباً على رسوله الكريم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي ظهر على ما ظهر بمقتضى أوصافه وأسمائه الكامنة في وحدة ذاته فيتراعى، متكررة بكثرة أسمائه وصفاته ﴿الرَّحْمَنُ﴾ على جميع مظاهره بالإمداد الدائم المتجدد، وحسب تجدد تجلياته الذاتية الحية ﴿الرَّحِيمُ﴾ على خلاصة مظاهره وزبدة مكوناته التي هي الإنسان الجامع لجميع مراتب المظاهر بالنبوة العامة والولاية التامة، الشاملة لكلتا مرتبتي الأول والآخر، والظاهر والباطن، في المبدأ والمعاد باعتبار النشأتين.

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ۝١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَهُ سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَافِعٍ لَهُ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ مَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ ۝٤﴾ [يونس: 1-4].

﴿الر﴾^(١) أيها الإنسان اللبيب، الرشيد، اللائق للرسالة العامة، والرئاسة الكلية

(١) الألف عين الوجدانية، واللام عين الأزلية، والراء عين الربوبية من عين الوجدانية، تجلّى بالآلف لقلوب الموحدين والمنفردين من الحدثان، ليفنوا في سبحات الألوهية، وتجلّى من عين الأزلية

الكاملة الشاملة على كافة البرايا ﴿تِلْكَ﴾ الآيات المنزلة في هذه السورة ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [يونس: 1] أي: بعض آيات الكتاب الإلهي الذي هو حضرة علمه ولوح قضائه، ناطقة بالصدق والصواب على مقتضى الحكمة المتقنة الإلهية، نازلة من عنده؛ لتصديقك وتأيدك يا أكمل الرسل في تبشيرائك وإنذارائك، ونبوتك ورسالتك وإرشادك لأهل الغي والضلال.

﴿أَكَاَنَ لِلنَّاسِ﴾ الناسين بطلان هوياتهم ﴿عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا﴾ ألهمنا من محض فضلنا وجودنا ﴿إِلَى رَجُلٍ﴾ ناشئ ﴿مِنْهُمْ﴾ وظهر من جنسهم وبني نوعهم ﴿أَنْ أَنْذِرَ النَّاسَ﴾ المنهمكين في الغي والضلال بمقتضى أهوية هوياتهم الباطلة، وماهياتهم العاطلة، تعجبًا ناشئًا عن محض الغفلة والنسيان، والإعراض عن الحق، والانحراف عن طريق التوحيد وجادة الإسلام ﴿وَبَشِّرِ﴾ منهم أهل المحبة والولاء؛ يعني: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وأيقنوا برسالتك وإرشادك بوحدة ذات الحق واستقلاله في الوجود، وما يترفع عليه من الأسماء والصفات، والآثار المترتبة عليها، والشئون المتجددة بها ﴿أَنْ لَهُمْ﴾ أي: بأن لهم ﴿قَدَمٌ صِدْقٍ﴾ أي: إقدام صادق، وقدم راسخ ثابت في جادة التوحيد،

باللام لأرواح العارفين لتطيره بأجنحة أنوار القدم في القدم، وتجلّى من عين الربوبية بالراء؛ لأسرار المحبين ليستأنسوا بحسن الصفات، ويشتاقوا إلى مشاهدات الذات، سقى الموحدين رحيق الأنانية بأقداح الألف من بحار الوحدانية، فخرجوا بنعت الاتحاد، وسقى العارفين عقار العشق بأقداح اللام من أنهار الجمال، فخرجوا بنعت الاتصاف والهيئ، وسقى المحبين عروق الوداد بأقداح الراء من عيون أنوار الربوبية، فخرجوا بنعت الحيرة هائمين. وأيضًا: الألف آلاؤه للمصادقين، واللام ألطافه للمقربين، والراء رحمته على التائبين. قال الحسين: في القرآن علم كل شيء، وعلم القرآن في الأحرف التي في أوائل السور، وقد وقع لي إنما يكون في سورة يونس من الغرائب والمعائب والقصص والأمثال جمعها في ثلاثة أحرف في الألف واللام والراء، وتبّه بها قلب نبيه ﷺ، بإشارة الأحرف الثلاثة فكفى له ذلك؛ لأن بينه وبين الله رموزًا وإشارات، لا يطلع عليها جميع الخلائق، فلذلك يحتاجون إلى نزول سورة كاملة. وأيضًا: خاطبه بأحسن الأسماء مواساة وتربية، أشار بالألف: يا آدم الثاني؛ لأن الألف أول الحروف من آدم، وأشار باللام: يا لطيف، وأشار بالراء: يا رحيم، كما قال: يا ﴿طه﴾ يا ﴿يس﴾ ﴿يَتَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ ﴿يَتَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ أي: هذه الأبناء آيات صفاتية أزلية التي كنت حكيماً، وعالمًا بما في القدم والأزل، أيضًا أي: تلك علامات ما ألهمنا روحك في الأزل، فنعرفك بها مكان خطاب الأول، إن القرآن محكم بحكم الأزلية، وحججه البالغة بأمر الربوبية، والدعاء إلى العبودية من فهمه صار حكيماً بحكمته. وقيل: أي فيه علامات قبول الحكماء لهذا الخطاب.

وإرادة خالصة.

وصاروا ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ من السابقين المقربين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ثم لما ظهر أمر الرسالة وعلا قدره، وشاع دينه وكثر أتباعه ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ﴾ المصرون على الشرك والفساد من خبث طبيعتهم، وشدة بغضهم وشكيمتهم بعدما أبصروا منه خوارق عجزوا عنها، سيما القرآن الكامل في الإعجاز البالغ أعلى مراتب البلاغة: ﴿إِنْ هَذَا﴾ المدعي للنبوّة والرسالة ﴿لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: 2] ظاهر متفرد في فن السحر، وحيد في عصره فيه، ومن قرأ السحر أراد به القرآن المعجز لجمهور البلغاء مع توفر دواعيهم في معارضته، وصاروا من عجزهم بحيث لم يقدروا على إتيان أقصر آية منه.

وكيف يعارضون مع رسوله والكتاب المنزل من عنده سبحانه؟ ﴿إِنْ رَبُّكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ﴾ أي: قدر يسط عكوس أسمائه، ومد أظلال أوصافه ﴿السَّمَوَاتِ﴾ أي: العلويات التي هي الأعيان الثابتات ﴿وَالْأَرْضِ﴾ أي: عالم الطبيعة القابلة للانعكاس منها ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: ستة جهات؛ إذ يتوهم الامتداد والأبعاد، والأقطار فيها ﴿ثُمَّ اسْتَوَى﴾ بلا توهم التراخي والزمان والمهلة، على ما يقتضيه لفظة «ثم»، «بل» بلا أين وكيف وكم؟.

﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ المعروش المبسوط من انعكاس أسمائه وأوصافه ﴿يَذَرُ الْأَمْرَ﴾ أي: الحوادث الكائنة بالاستقلال ﴿مَا مِنْ شَيْءٍ﴾ من المظاهر والمصنوعات ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ وإمضاء مشيئته، وإنفاذ قضائه ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ﴾ أي: الموصوف المتفرد، المتوحد في ذاته بالالوهية، المستقل في آثاره وتديراته بالربوبية ﴿رَبُّكُمْ﴾ أي: مربيكم وموجدكم ﴿فَاغْبُذُوهُ﴾ حق عبادته حتى تعرفوه حق معرفته ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: 3] وتفكرون وحدة ذاته، وعظمة أسمائه وصفاته أيها العقلاء المجبولون على التفكير والتذكر في آلاء الله ونعمائه؟.

وكيف لا تتفكرون آلاءه؛ إذ ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره؛ إذ لا غير معه سبحانه في الوجود ﴿مَزِجْكُمْ جَمِيعًا﴾⁽¹⁾ كما وعدكم بقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ [يونس: 23]،

(1) قال في التأويلات: أي: جرى الميثاق على أن يكون رجوع القبول والمرحود إلى حضرته: فأما المقبول: فرجوعه إليه بجنابات العناية التي صورتها خطاب: ﴿لَزِجْني إِلَى رَبِّكَ﴾ [النجر: 28]،

﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ [الغاشية: 25]، ﴿وإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: 35] إلى غير ذلك من الآيات.

﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ الذي لا يخلف ميعاده أصلاً ﴿حَقًّا﴾ ثابتاً لازماً بلا تغيير وتبديل، وكيف لا يكون وعده حقاً؛ إذ هو قادر على جميع المقدورات والمرادات، ومن كمال قدرته ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ ويظهره من العدم إظهاراً إبداعياً بلا سبق مادة ومدة، ثم يعده؛ إظهاراً لقدرته أيضاً ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ في النشأة الأخرى؛ لإظهار أسرار تكليفاته التي كلف بها عباده في النشأة الأولى ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيده، وصدقوا رسله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المأمورة من عنده بالسنة كتبه ورسله ﴿بِالْقِسْطِ﴾ والعدل القويم، وتفضل على من تفضل عنايته منه ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، وأشركوا له شيئاً من مظاهره ﴿لَهُمْ﴾ في يوم العرض والجزاء، بعدما يحاسبوا ﴿شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ بدل ما يتلذذون بالأشربة المحرمة في النشأة الأولى ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: 4] بالله، ويكذبون رسله؛ عناداً وإصراراً، وكيف يكفرون بالله أولئك الحمقى، العمي، الهالكون في تيه الغفلة والضلال، وظلمة الجهل وسوء الفعّال؟!

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّئِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي آخِذَاتِ الْأَيْدِي وَالنَّجْمِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾ [يونس: 5-8].

وحقيقتها: انجذاب القلب إلى الله نقاء، ونتيجتها: غروب النفس عن الدنيا، واستواء الذهب والدر عندها، وإنزعاج القلب عما سوى الله تعالى، واستغراق الروح في بحر الشوق والمحبة، والتبرؤ عما سوى الله، وهيمان السر وحيرته في شهود الحق ورجوعه عن الخلق، وأما المردود: فرجوعه بغير اختياره مغلولاً بالسلاسل والأغلال يسحبون في النار على وجوههم وهي صورة صفة قهر الله، ومن نتائج قهر الله تعلقاته بالدنيا وما فيها، واستيلاء صفات النفس عليه من الحرص والبخل والأمل والكبر والغضب والشهوة والحسد والحقد والعداوة والشر، فإن كل واحدة منهما حلقة تلك السلاسل وغل من الأغلال يسحبون إلى النار.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً﴾ ليكون دليلاً على كمال ظهوره وإشراقه، وجلائه وانجلائه ﴿وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ منيراً في ظلمات الليل؛ ليكون دليلاً على إنارته وإضاءته سبحانه في مشكاة التعينات وظلمات الهويات ﴿وَقَدَرَهُ﴾ أي: للقمر ﴿مَنَازِلَ﴾ في السموات؛ تسهيلاً لكم في أموركم ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾ التي تحتاجون إليها في معاملاتكم وتجاراتكم وحرثكم، كما قدر منازل نور النبوة والولاية في مشكاة الأنبياء والأولياء الوارثين منهم؛ لتقتبسوا أنوار الإيمان المزيحة لظلم الكفر والعصيان من مصاييح أولئك الأمناء الكرام، وتتوسلوا بهم إلى أن تستضيئوا بضياء الشمس الحقيقي التي لا أقول لها أصلاً.

ثم قال سبحانه ترغيباً لعباده، وتنبيهاً لهم على أصل فطرتهم: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: ما أظهر وأوجد سبحانه ما أظهر في عالم الغيب والشهادة، حسب أسمائه وأوصافه إلا بالحق الثابت الصريح بلا احتياج إلى الدلائل والشواهد؛ إذ لا شيء أظهر من ذاته سبحانه حتى يجعل دليلاً عليه، وإنما ﴿يَفْصِلُ الْآيَاتِ﴾ المنبهة عليها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: 5] يتحققون بمرتبة اليقين العلمي؛ ليرتقوا منها إلى اليقين العيني والحقي، وأما المحجوبون فهم من عداد البهائم والأنعام، لا يرجى منهم الفلاح؛ لخباثة طبيعتهم ورداءة فطرتهم.

﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ وإيلاجه في النهار ﴿وَالنَّهَارِ﴾ وإيلاجه في الليل ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِيهِ﴾ أوضاع ﴿السَّمَوَاتِ﴾ من الأمور المقتضية لاختلافهما ﴿وَالْأَرْضِ﴾ من المكونات الكائنة فيها على مقتضى تربية العلويات وتدبيراتها ﴿لآيَاتٍ﴾ دلائل واضحة، وشواهد لاثحات دالة على قدرة القادر الحكيم المتقن في أمره وفعله ﴿لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: 6] عن قهر الله، ويلتجئون إليه سبحانه عن غضبه وسخطه.

ثم قال سبحانه على سبيل التهديد والوعيد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ لإنكارهم إعادتنا إياهم في يوم الجزاء؛ لنجزهم وفق ما عملوا ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ المستعار بلا التفات إلى دار القرار ﴿وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ أي: أسكنوا ووطنوا نفوسهم بلداتها وشهواتها ﴿وَالَّذِينَ هُمْ﴾ بالجملة: ﴿لِقِسَاوَةِ قُلُوبِهِمْ وَغِيَاوَةِ فُطُوتِهِمْ﴾ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ [يونس: 7] ذاهلون مع وضوحها وظهورها.

﴿أُولَئِكَ﴾ البعداء، المعزولون عن مقتضى العقل المستفاد من العقل الكل ﴿مَأْرَاهِمُ النَّارِ﴾ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [يونس: 8] من الكفر والعصيان، ومخالفة

الفعل المفاض.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ⑨ دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۖ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ⑩ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفَضَّلْنَاهُمْ أَجَلُهُمْ فَتَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُوتَ ⑪ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ⑫﴾ [يونس: 9-12].

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته المستمرة من تعقيب الوعيد بالوعد، وبالعكس: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله وتوحيده ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المأمورة من عنده؛ لإصلاح أحوالهم ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ﴾ إلى فضاء توحيده ﴿بِإِيمَانِهِمْ﴾ ويقينهم العلمي ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ أي: جداول المعارف والحقائق المنتشرة من بحر التوحيد، من صبغة باليقين العيني والحقي ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [يونس: 9] أي: هم مخلدون في مستلذاتهم الروحانية.

﴿دَعَوَاهُمْ فِيهَا﴾ ومناجاتهم مع ربهم، بعدما انقطعوا عن السلوك والتكميل: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾⁽¹⁾ أي: اللهم إنا ننزهك تنزيهاً، ونقدسك تقديساً عن جميع ما يليق بجناب قدسك ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا﴾ أي: ترحيب بعض أرباب الدرجات مع بعض على تفاوت مراتبهم ﴿سَلَامٌ﴾ وتسليم؛ لتحقيقهم بمقام الرضا ومقعد الصدق ﴿وَأَخِرُ دَعَوَاهُمْ﴾ بعد وصولهم إلى غاية مآمولهم: ﴿أَنْ الْحَمْدُ﴾ والمنة والثناء ﴿لِلَّهِ﴾ المنعم المفضل ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: 10] يريهم بأنواع اللطف والكرم تفضلاً منه

(1) قال روزبهان: لو ألهموا حمد الحق في أوائل الأنفاس لسقطت عنهم الدعاوى، لكنهم لم يزالوا يركضون في ميادين الجهل إلى أن فتح لهم طريق الحمد، فلما فتح لهم طريق الحمد سقطت عنهم الدعاوى، فرجعوا إلى رؤية المنة، فكانت آخر دعواهم أن قالوا: الحمد لله رب العالمين فرضوا الكل به، ورجعوا بالكلية، فأنطقهم لما أنطقهم به من المنطق المحمود.

سبحانه وامتنانا.

ثم قال سبحانه حثا لعباده إلى الرجوع والتوجه نحوه: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ﴾ المدير
 لأمر عباده ﴿لِلنَّاسِ الشَّرَّ﴾ حين استعجلوه؛ لغرض من الأغراض ﴿اَسْتَعِجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾
 أي: كاستعجال الخير لهم حين طلبوا، أو دعوا لأجله ﴿لَقَضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ يعني:
 انقضى مدة حياتهم بحلول أجلهم بدعائهم، ولكن أمهلناهم؛ رجاء أن يستغفروا منهم
 من يستغفر، وبالجمله: ﴿فَتَذَرُ﴾ ونترك المصريين ﴿الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ ورضوا
 بالحياة الدنيا واقتصروا عليها، وأنكروا يوم الجزاء واللقاء ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ المتجاوز عن
 الحد ﴿يَغْمَهُونَ﴾ [يونس: 11] يترددون؛ إمهالا لهم وتهويلا لعذابهم.

﴿و﴾ من شدة عمهم وطغيانهم ﴿إِذَا مَسَّ﴾ وعرض ﴿الْإِنْسَانَ الضُّرُّ﴾ أي: ما
 يضره من مرض مؤلم وأمر مفاجع مفرع ﴿دَعَانَا﴾ مشتكيا إلينا، بآثا شكواه عندنا، ملقيا
 ﴿لِجَنِّهِ﴾ إن لم يقدر على غيره ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ متضرعا متفجعا مستكشفا ﴿فَلَمَّا
 كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ﴾ وعجلنا له مراده تجاوز عنا وعن أمرنا، ولم يلتفت إلينا أصلا، وصار
 من شدة عمه وغفلته ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَذْعَنَا إِلَىٰ﴾ كشف ﴿ضُرِّ مِثْلِهِ كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما
 سمعت ﴿زَيْنَ﴾ أي: حيب وحسن ﴿لِلْمُشْرِفِينَ﴾ المنهمكين في الغي والضلال ﴿مَا
 كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 12] من مخالفة أمر الله، ومخاصمة رسوله والمؤمنين المتابعين
 له، والإصرار على ما هم عليه من العتو والعناد.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا
 لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَمُ خَلْفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ
 لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُنْزِلُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ
 لِقَاءَنَا آتِ بِشْرَةٍ أَوْ هَذَا أَوْ يَبُولُهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَيِّنَ مِنْ نَلْقَائِي فَسَبِّحْ إِنْ
 أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ
 مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا
 تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِعَايَاتِهِ إِنَّهُ لَا
 يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾ [يونس: 13-17].

ثم قال سبحانه مهديًا مقسمًا: ﴿وَاللَّهُ يَأْهْلُ مَكَّةَ﴾ ﴿لَقَدْ أَهْلَكْنَا﴾ بمقتضى قهرنا وجلالنا ﴿الْقُرُونِ﴾ الماضية ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أي: حين ظلموا مثل ظلمكم، وخرجوا عن إطاعة الله وإقامة حدوده مثل خروجكم ﴿وَاللَّهُ هُمْ أَيْضًا أَمْثَالَكُمْ، قَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالبراهين القاطعة، والحجج الساطعة الدالة على صدقهم؛ إنما جاءهم ليمتنعوا عما هم عليه من الظلم والفساد ﴿وَمَا كَانُوا﴾ أي: أولئك الأمم ﴿لِيُؤْمِنُوا﴾ لهم، ويصدقوهم فيما جاءوا به أمثالكم، بل كذبوهم وأصروا لهم على ما هم عليه، بل زادوا عليها؛ عنادًا ومكابرةً، فأخذناهم بظلمهم، وأهلكناهم بإصرارهم بعدما نبهنا عليهم فلم يتبهاوا ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يونس: 13] المصريين على الجرم مع ورود الزواجر والروادع.

﴿ثُمَّ﴾ بعد إهلاكهم واستئصالهم ﴿جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ﴾ ⁽¹⁾ أي: استخلفناكم، فهم خلفاءه ﴿فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ مختبرين، مبتلين أمثالهم ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 14] أتعملون الخير فيجازيكم خيرًا، أم تعملون الشر فيجازيكم شرًا، مثل ما جزيناهم؟.

﴿وَاللَّهُ هُمْ كَانُوا مِنْ شِدَّةِ انْهَمَاكِهِمْ فِي الْغَفْلَةِ وَالضَّلَالِ﴾ ﴿إِذَا تُثْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي: مع كونها مبيّنات لأحوال النشأة الأخرى وأحوال عذابها ونكالها ﴿قَالَ﴾ الكافرون: ﴿الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ بل ينكرون الحشر والنشر، والثواب والعقاب، وجميع ما يترتب على النشأة الأخرى، فكيف لقاءنا فيها ﴿أَنْتَ﴾ أيها الداعي من عند ربك ﴿بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا﴾ القرآن إن أردت أن تؤمن لك ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ وغير بعض آياته المشتملة على الإنذارات والتحذيرات الشديدة، فإننا لا طاقة لنا بها.

إنما يقصدون بقولهم هذا استهزاءً وسخريةً برسول الله، واستخفافاً بكتاب الله

(1) خلفاء الأرض نواب الأنبياء وورثة الرسل، وهم أهل الاستقامة والتمكين والجمعية، الذين يخاطبهم الله في كل نفس بلسان الولاية، ويورثهم خطابه الآداب السنية، والأعمال الزكية والأخلاق الكرامية، والأسوة الحسنة، ثم يورثهم هذه الأحكام بالأنس بالذكر، والخوض في الفكر، والسير بالقلوب في أنوار الغيوب، والطيران بالأرواح في عالم الأفراح، وإيواء الأسرار إلى مرادق المعجزة، فيرون بعد ذلك في حضرة القدس مجالس الأنس، ويشربون من بحار محبته، ويشتاقون إلى لقاءه، ويعشقون بوجهه، ويرونه لظهور الصفات وكشوف الذات كفاحًا، ويسمعون منه تعالى كلامًا صرًا، فيرجعون بعد ذلك إلى دعوة الخلق إلى الله بالسنة الموعظة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحفظ حدود الله عليهم. [العرائس].

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل في جوابهم: ﴿مَا يَكُونُ﴾ أي: ما يصح ويجوز ﴿لِي أَنْ أَبْذِلَهُ﴾ وأحرفه ﴿مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي﴾ على مقتضى أهويتكم الفاسدة ﴿إِنْ أَتَّبِعُ﴾ أي: ما أتبع وانتظر ﴿إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ وليس في وسعي وطاقتي سوى الاتباع والانتظار، وكيف أتصرف فيه ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾ بمجرد استماع قولكم هذا العصيان على نفسي، فكيف ﴿إِنْ عَصَيْتُ﴾ بقصد التبديل والتغير؟ ﴿رَبِّي﴾ استوجبت ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: 15] كما استوجبتكم بسوئكم هذا على سبيل الاقتراح والإلحاح.

﴿قُلْ﴾ أيضًا لهم إلزامًا وتبكيثًا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ أي: لو تعلق مشيئته غير هذا المثلو ﴿مَا تَلَوْتُهُ﴾ أنا، وما أوحاه علي، وما أجراه على لساني ﴿عَلَيْكُمْ وَلَا أَفْرَاكُمْ بِهِ﴾ وأعلمكم على لساني، ولكن تعلق بمشيئته بهذا فأوحاه وأجراه ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ لَكُمْ عُمْرًا﴾ مدة أربعين سنة ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: قبل وحي القرآن بلا تلاوة وإدراء وإعلام ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: 16] وتستعملون عقولكم في هذا الأمر، ولا تدبرون وتدرجون فيه مع أنكم متدربون بأساليب الكلام، متبالغون فيه أقصى الغاية.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ ونسب إليه ما لم يصدر عنه؛ افتراء ومراء ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ التي صدرت عنه، ونزلت على رسله وأنبيائه؛ لإصلاح أحوال عباده، وإرشادهم مبداء ومعاده، وبالجملة: ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: 17] المفترون عليه بالباطيل الزائفة، المكذبون كلامه المنزل من عنده على رسله.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتَبَهُتُ اللَّهُ يَمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ مُبَحَّثَةً وَتَعْلَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٨﴾ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِي مَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا آيَةً مِنْ رَبِّنَا فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلْ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿١١﴾﴾ [يونس: 18-21].

وكيف يفلحون ويفوزون بالفلاح ﴿و﴾ هم من شدة ضلالهم ﴿يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ المتوحد بذاته، المستقل بالوحيته ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ ١٢ لأنهم ليسوا من

ذوي القدرة والإرادة، بل من جملة الجمادات المعطلة التي لا شعور لها أصلاً ﴿وَيَقُولُونَ﴾ من كمال غفلتهم وضلالهم: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ الأجسام والتماثيل العاطلة ﴿شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ ينقذوهم من بأس الله ويطشه إن تحقق وقوعه ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل تسفيها وتحميقا: ﴿اتَّبِعُونِ﴾ وتخبرون بقولكم هذا ﴿اللَّهُ﴾ العالم بالسرائر والخفايا ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ من الأمور الكائنة لا ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ من الكوائن فيها، مع أنه سبحانه لا يعزب عن حيطة علمه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: 18] من الأوثان والتماثيل التي لا شعور لها أصلاً، مع أنها من أدون المظاهر، وأخس المخلوقات، وبالجملة: ما قدروا الله أولئك الحمقى حق قدره، لذلك نسبوا إليه ما هو منزّه عنه، تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ﴾ المجبولون على مظهرية الحق، المنعكسون من أظلال أسمائه الحسنی وصفاته العليا ﴿إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ملتجة إلى الله، مقتبسة من أنوار تجلياته ﴿فَاخْتَلَفُوا﴾ أي: الأظلال الهالكة باختلاف صور الأسماء المتقابلة، والأوصاف المتضادة المتخالفة حسب الشئون والتجليات المتجددة في الكمالات المترتبة عليها ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل؛ لتسويتهم وتعديلهم في النشأة الأخرى ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بالعدالة والقسط ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: 19] في هذه النشأة بلا تأخير إلى أخرى، لكن الحكمة المتقنة الإلهية تقتضي تأخيرها، ولذلك أخرت أمرهم وحسابهم وعذابهم؛ لئلا يبطل سر التكاليف والأوامر والنواهي.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ بعدما اقترحوا عنه بالآيات ولم تنزل: ﴿لَوْلَا﴾ أي: هلا ﴿أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ من الآيات المقترحة، مع أنه دعواه أن الله قادر على جميع المقدورات والمرادات، لا يخرج عن حيطة قدرته شيء ﴿فَقُلْ﴾ في جوابهم: بلى، إن الله قادر على جميع المقدورات، ومن جملة مقترحاتكم، إلا أن في عدم إنزالها وإنجاحها حكمة غيبية ومصلحة خفية، لا يعلمها إلا هو ﴿إِنَّمَا الْغَيْبُ﴾⁽¹⁾ كله ﴿اللَّهُ﴾ وفي حيطة حضرة

(1) قال الشيخ كبرى: يشير إلى معنيين: أحدهما: إن الغيب هو عالم الملكوت الذي ينزل منه الآيات، ويظهر منه للمعجزات بإنزال الله تعالى وإظهاره فهو الله وبحكمه ينزل الآيات منه متى شاء كما شاء، ﴿فَاتَنظَرُوا﴾ [يونس: 20] فإنه ينزلها، ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس: 20] أي: لينزلها، والثاني: إن الغيب هو عالم الغيب فهو الله وهو الذي قدر الأشياء بحكمته ومشيته، فإن اقتضت

علمه ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ بتعليق إرادته بمقترحاتكم ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ أيضا بلا تفاوت بيني وبينكم في عدم الاطلاع على غيبه ﴿مِنَ الْمُتَظِّرِينَ﴾ [يونس: 20].

ثم قال سبحانه على سبيل التوبيخ والتقريع للمسرفين: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ خلاصا ونجاة ﴿مِّنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّشْتَهُمٍ﴾ واضطرتهم إلى الرجوع والتوجه نحونا ﴿إِذَا لَهُمْ مُكْرٌ﴾ أي: ما جاءوا بعد نزول الرحمة إلى المكر والخديعة مع نبينا، والطمع ﴿فِي آيَاتِنَا قُلٍ﴾ لهم يا أكمل الرسل نيابة عنا: ﴿اللَّهُ﴾ المطلع لضماثركم ومخايلكم ﴿أَسْرَعُ مُكْرًا﴾ وأشد تدييرا وانتقاما على مكركم وخداعكم، أعد لكم عذاب مكركم، وأشهد عليكم الملائكة، كما قال: ﴿إِنْ رُسُلَنَا﴾ الموكلون عليكم، المراقبون لأحوالكم ﴿يَكْتُبُونَ﴾ في صحائف أعمالكم ﴿مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس: 21] وتحيلون مع الله ورسوله.

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتْ بِكُمْ بَرِيحٌ طَيِّبَةٌ وَفَرَحُوا بِجَآئِهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَجَسَهُمْ إِذَا هُمْ بِقُنُوفٍ فِي الْأَرْضِ يَغْيِرُ الْهَوَىٰ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغْيِكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَّتَعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يونس: 22-23].

وكيف لا يراقبكم ويحافظ عليكم ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ﴾ أي: يمكنكم على السير والسياحة ﴿فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ ليحرب إخلاصكم وتقواكم، ورسوخكم في الإيمان ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ﴾ أي: السفن ﴿وَجَرَّتْ بِكُمْ﴾ الجواري ﴿بِهِمْ﴾ أي: بمن في السفن ﴿بَرِيحٌ طَيِّبَةٌ﴾ معتدلة، موافقة لسيرها ﴿وَفَرَحُوا بِهَا﴾ ويجريها على مرادهم ﴿جَآئَتْهَا﴾ بغتة ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ شديدة الهبوب، مزلزلة لها ﴿وَقَدْ﴾ من شدة هبوبها وتحريكها البحر ﴿جَآءَهُمُ الْمَوْجُ﴾ مثل الجبال الرواسي ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: جانب وجهة ﴿وَضَنُّوا﴾ من غاية ارتفاع الأمواج المتوالية المتتالية ﴿أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أسباب

الحكمة والمشيئة الأزلية بإنزال آية من آياته وأوصاف ملتصكم فإنه سينزل ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَظِّرِينَ﴾ لإنزالها.

الإهلاك فتقع عليهم وتستأصلهم، وحيث **﴿دَعَا اللَّهَ﴾** ملتجئين متضرعين **﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾** أي: مقتصرين الإطاعة والانقياد له؛ إذ لا تعارضه حيث **﴿الْأَهْوَاءُ الْفَاسِدَةُ وَالْآرَاءُ الْبَاطِلَةُ﴾** قائلين: **﴿لَيْتَنَّا أَنْجَيْتَنَا﴾** يا ربنا بفضلك وجودك **﴿مِنْ هَذِهِ﴾** البلية المحيطة بنا **﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾** [يونس: 22] لنعمك المتذكرين دائماً لجودك وكرمك.

﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ﴾ إجابة لدعائهم، وكشفنا لضرهم وبلائهم **﴿إِذَا هُمْ﴾** يفاجئون إلى الكفران ويسارعون إلى الطغيان، حيث **﴿يَتَّبِعُونَ﴾** ويطلبون الفساد **﴿فِي الْأَرْضِ﴾** المعدة للعبادة والصلاح **﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾** أي: بلا رخصة شرعية، بل عن بغي وعناد، التفت سبحانه من الخطاب إلى الغيبة؛ تنبيهاً على بعدهم وطردهم عن ساحة عز الحضور، لذلك أبعدهم بالغيبة بعدما قربهم بالخطاب.

ثم قال سبحانه: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾** الناسين نعمة الإنجاء والخلاص عن ورطة الهلاك **﴿إِنَّمَا بَغْيَكُمْ﴾** وكفرانكم الذي فاجأكم به، بدل الشكر والإطاعة في النشأة الأولى وبال عائد **﴿عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾** في النشأة الأخرى؛ إذ **﴿مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾** أي: التمتع بلذاتها وشهواتها، والركون إلى مزخرفاتها قليل حقير ونزر يسير، لا ينبغي للعاقل أن يترك الباقي لأجل الفاني، واللذة الروحانية الدائمة المستمرة للذة الجسمانية المتناهية القصيرة **﴿ثُمَّ﴾** بعد انقضاء النشأة الأولى **﴿إِلَيْنَا﴾** لا إلى غيرنا؛ إذ لا غير معنا **﴿مَرْجِعُكُمْ﴾** ومصيركم رجوع الأطلال والأضواء والعكوس إلى الشمس **﴿فَتُنَبِّئُكُمْ﴾** أي: نخبركم ونعمل بكم **﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾** [يونس: 23] أي: بمقتضى عملكم، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَلْخَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهَا آمْنًا آمِنًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَقْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس: 24-25].

وبالجملة: **﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾** أي: شأنها وحالتها العجيبة التي كنتم تغفرون

بها، وتميلون إليها وتفتخرون بمزخرفاتها ومموهاتها، وأمتعتها وأبنيتها ﴿كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ﴾ واشتبك ﴿بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ أي: ترابها المنبتة للنبات، وحصل من اختلاطها ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ﴾ من أنواع البقول والحشائش ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ أي: شرعت لتربيتها ﴿وَأَزْيَّتْ﴾ أي: تزينت بأنواع التزيينات.

﴿وَوَظَنَ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ﴾ متمكنون ﴿عَلَيْهَا﴾ وعلى جمعها وحصادها، وأخذ غلاتها ﴿أَتَاهَا﴾ بغلة ﴿أَمْرُنَا﴾ بإهلاكها واستئصالها ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾ قبل صلاحها، بل مقطوعاً من أصلها إلى حيث ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنِ﴾ ولم تنبت فيها منها شيء ﴿بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ تَفْصِلُ﴾ ونمثل ﴿الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: 24] ويستعملون عقولهم بإدراك الممثل والممثل به، وبعد تعلقهم وتفكرهم يتنبهون أن الدنيا وحياتها ما هي إلا سراب غدار غرار، ويرق بلا قرار، من اغتر بفرورها هلك عطشى الأكباد، ومن استنار بنورها ضل عن طريق الرشاد.

﴿وَاللَّهُ﴾ الهادي لعباده ﴿يَدْعُو﴾ جميع عباده؛ إذ أصل فطرتهم وجبلتهم على التوحيد ودين الإسلام ﴿إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾⁽¹⁾ أي: مقر التوحيد الذي من تمكن فيه سلم من جميع الآثام، وسلم أمره إلى العليم العلام، القدوس السلام ﴿وَوَعَدَ﴾ بعد دعوته جميع الأنام ﴿بِإِهْدِي﴾ ويوفق ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ من خلص عباده ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: 24]

(1) يدعو أولاً وأبداً عباده إلى دار السلام وهي العدم صورة وظاهراً، وعلم الله وصفته؛ يعني: حقيقة، وإنما سمي العدم والعلم دار السلام؛ لأن العدم كان داراً قد سلم المعدوم فيها من آفة الحجب الروحانية والجسمانية والعلم دار قد سلم المعلوم فيها من آفة الإثنية والشركة في الوجود وهي دار الوجدانية؛ وأيضاً لأن السلام هو الله تعالى، والعلم صفته القائمة بذاته فالله تعالى يفضله وكرمه يدعو عباده أولاً من العدم إلى الوجود ومن العلم وهو الصفة إلى الفعل وهو الخلق ويدعوهم أبداً من الوجود إلى العدم، ومن الفعل إلى العلم فدعاهم من العلم إلى الوجود بالنفخة، وهي قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: 29]، ودعاهم من الوجود إلى العدم، والعلم بالجنبة وهي قوله تعالى: ﴿أَزِجِي إِلَى رَبِّكَ﴾ [الفجر: 28]، ولما دعا النبي ﷺ بالجنبة إلى علم الله الأزلي الأبدي، قال: قد علمت ما كان وسيكون؛ وذلك لأنه صار عالماً بعلم الله لا بعلم نفسه وهو قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: 113] وإنما علمه ذلك العلم حين قال له: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: 19] أي: فاعلم بعلم الله الذي دعيت بالجنبة إليه لا إله في الوجود إلا الله، فإن العلم الإلهي محيط بالوجود كله كما قال: ﴿قَدْ أَخَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: 12] فانت بعلمه محيط بالوجود كله، فتعلم حقيقة أن ليس في الوجود إله غير الله. [التأويلات].

[25] موصل إلى توحيده، وهو دين الإسلام المنزل على خير الأنام تميماً لحكمة التكليف المنزلة من عنده، وتمييزاً بين أهل الضلال والهداية من عباده، وأصحاب الجنة والنار بطبقاتهم.

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝٢٦﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ مَا لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ مِن عَاصِمٍ ۖ كَانَمَا أَغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَارًا تَعْبُدُونَ ۝٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ۝٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلَأُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ۖ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۝٣٠﴾ [يونس: 26-30].

لذلك قال سبحانه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ في هذه النشأة مع الله ورسله، وامثلوا جميع ما جاء من عنده في كتبه؛ تعبيراً وانقياداً، إيماناً واحتساباً ﴿الْحُسْنَى﴾ أي: المثوبة العظمى والدرجة العلا، بدل إحسانهم في الدنيا؛ عدلاً من الله ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ عليها، وهي رضوان الله منهم غايةً وتفضلاً ﴿وَوَصَّوْا مِنْ صَفَاءِ عَقَائِدِهِمْ وَإِحْسَانِهِمْ مَعَ اللَّهِ﴾ ﴿لَا يَرْهَقُ﴾ ويلحق ﴿وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ غبار الغفلة والندامة ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ صغار وهوان من التواني والتكاسل في احتمال التكاليف الإلهية ﴿أُولَٰئِكَ﴾ السعداء، المقبولون عند الله ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ المعدة لأرباب الفضل والعناية ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: 26]. جزاء بما كانوا يعملون من الخيرات والمبرات.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾ من طغيان نفوسهم، ولم يلتفتوا إلى ما أمرهم الحق، وهداهم إليه رسله، يجيزون على مقتضى ما اقترفوا ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ عدلاً منه سبحانه ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي: تغطاهم غبار المذلة والخذلان، بدل ما اكتسبوا من البغي والعدوان ﴿مَا لَهُمْ﴾ حيثئذ ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: من عذابه وعقابه ﴿مِّنْ عَاصِمٍ﴾ حافظ يحفظهم، أو شفيع يشفع لهم ويخفف عنهم، بل صاروا من ظلمة كفرهم وفسقهم ﴿كَانَمَا أَغْشِيَتْ﴾ سترت وأحيطت ﴿وُجُوهَهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ في غاية الظلمة لعدم استنارتهم بنور الإيمان والعمل الصالح ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الأشقياء، الهالكون في تيه الغي

والضلال ﴿أَضْحَابُ النَّارِ﴾ المعدة لأهل الغفلة والأهواء ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: 27] جزاء بما كانوا يكسبون من الكفر والمعاصي.

﴿وَأَذْكُرْ لَهُمْ يَا أَكْمَلُ الرُّسُلِ﴾ ﴿يَوْمَ نَخْشِرُهُمْ﴾ أي: كلا الفريقين ﴿جَمِيعًا﴾ في يوم العرض والجزاء ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ بنا غيرنا من التماثيل والأصنام: الزموا ﴿مَكَانَكُمْ﴾ واستقروا عليها ﴿أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ﴾ حتى تسألوا عما أجرمتم ﴿فَزَيَّلْنَا﴾ فزقنا وفصلنا ﴿بَيْنَهُمْ﴾ أي: رفعنا رابطة العابدية والمعبودية التي بها وصلتهم وارتباطهم ﴿وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ﴾ مخاطبين إياه مشافهة؛ براءة لنفوسهم: ﴿مَا كُنْتُمْ﴾ أيها الضالون، المنهمكون في الغي والضلال ﴿إِنَّا نَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: 28] بعلمنا وأمرنا؛ إذ لسنا من ذوي العلم وأولي الأمر، بل تعبدون أنتم أهواءكم وشياطينكم الكامنة في نفوسكم قد افترستم علينا ونسبتم بنا؛ عنادًا ومكابرة.

﴿فَكَفَى بِاللَّهِ﴾ اليوم وفيما مضى ﴿شَهِيدًا﴾ على ما جرى ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ هو أعلم بعلمه القديم ﴿إِنْ كُنَّا﴾ أي: إنا كنا ﴿عَنْ جِبَادَتِكُمْ﴾ أي: توجهكم ورجوعكم إلينا ﴿لَغَافِلِينَ﴾ [يونس: 29] إذ لم نخلق من ذوي الشعور والإدراك في نشأة الاختبار حتى نضلحكم ونستعبدكم.

وبالجملة: ﴿هُنَالِكَ﴾ أي: حين أحضروا للسؤال والجواب، والجزاء والحساب ﴿تَبْلَوْ﴾ أي: تختبر وتتفطن ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ جزاء ﴿مَا أَصْلَفَتْ﴾ وكسبت فيما سبقت ﴿وَأَعْدَتْ لَهَا نَافِلَةً﴾ أي: بعد تفطنهم وتنبيههم ﴿رُذُودًا﴾ جميعًا ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ المتوحد المتفرد للجزاء؛ إذ هو ﴿مَوْلَاهُمْ﴾ ومولى أمورهم ﴿الْحَقُّ﴾ وما سواه من الآلهة الكاذبة الباطلة، ومع بطلانها ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: غاب عنهم وضاع عنهم ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: 30] ظلمًا وزورًا، وسموهم آلهة وشفعاء، ولم يبق إلا الله الواحد القهار، ولو كوشفوا بوحدة الحق في جميع الأحيان والأحياز لتحقيقوا بتوحيده دائمًا بلا توقف إلى يوم القيامة، إلا أنهم لانهماكهم في الغفلة والضلال لم يتبها في النشأة الأولى.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾ ﴿سَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الَّذِي﴾ ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَوْلَ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ ﴿فَإِنْ تَصَرَّفْتُمْ﴾ ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوا لِلْحَقِّ مِمَّنْ دَعَا إِلَهُكُمْ﴾ ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوا لِلْحَقِّ مِمَّنْ دَعَا إِلَهُكُمْ﴾

يَسْبُدُّوُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتَ تُؤَفِّكُونَ ﴿٣١﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي
لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ فَأَلَكُزْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ
﴿٣٥﴾ [يونس: 31-35].

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لمن أنكر توحيد الحق، واستقلاله في الآثار والتدبيرات
الواقعة في الأقطار إلزاماً لهم وتبكيثاً: ﴿مَنْ يَزُوقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ﴾ بأمطار الأمطار،
وتصعيد البخار ﴿وَالْأَرْضِ﴾ بالإنبات والإخراج ﴿أَمْ مَنْ يَمْلِكُ﴾ ويستطيع أن يخلق
﴿السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ اللتين هما من أعظم أسباب حفظكم وحضانتكم ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ
الْحَيَّ﴾ الحيوان السوي ﴿مِنَ الْمَيِّتِ﴾ أي: النطفة ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أي:
النطفة الجامدة من الحيوان ﴿وَوَ﴾ بالجملة: ﴿مَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ في عالم الأسباب
والمسيبات ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ اضطراراً لغاية ظهوره ووضوحه، لا يمكنهم أن يكابروا:
﴿اللَّهُ﴾ المدبر لجميع الأمور الكائنة في الآفاق والأنفس؛ إذ من غاية ظهوره لا
يعاندون، ولا يكابرون ﴿فَقُلْ﴾ لهم بعدما اعترفوا بالله المدبر لجميع الكوائن والفواسد؛
توبيخاً وتقريعاً: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: 31] وتحذرون من بطشه وانتقامه، تشركون له ما
لا يسمع ولا يضر، ولا يغني من الحق شيئاً.

﴿فَدَلِّكُمْ﴾ الذي اعترفتم به، هو ﴿اللَّهُ﴾ المتوحد، المستحق للالوهية والمعبودية؛
إذ هو ﴿رَبُّكُمْ﴾ أي: مربيكم ومدبر أمركم؛ لأنه ﴿الْحَقُّ﴾ الثابت، الحقيق بالحقية
﴿فَمَاذَا بَعَدَ﴾ وحدة ﴿الْحَقِّ﴾ مما اتخذتم آلهة ظلمًا وزورًا ﴿إِلَّا الضَّلَالُ﴾ الباطل
﴿فَأَنْتَ تُضِلُّونَ﴾ [يونس: 32] أي: فكيف تصرفون وترجعون إلى غيره من الأظلال
الهالكة، وتنسبونها إلى الألوهية والربوبية.

﴿كَذَلِكَ﴾ أي: كما ثبت الربوبية والألوهية للحق سبحانه ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾
أي: ثبتت وتمت صدقًا وعدلاً لا مبدل لكلماته ﴿عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ أي: خرجوا من
عبادة الله ظلمًا وعدوانًا ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: 33] أي: لا يوقنون بالله، ولا يصلون
إلى مرتبة التوحيد أصلاً، لا علمًا ولا عينًا.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل إلزامًا وتبكيثاً: ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ﴾ أي: في وسعهم
وقدرتهم ﴿مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ أي: يوجده ثم يعدهم ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ
يُعِيدُهُ﴾ كما هو شأن الإله، المنفرد بالالوهية ﴿فَأَنْتَ تُؤَفِّكُونَ﴾ [يونس: 34] أي: كيف

تشكون وتصرفون عن جادة التوحيد بالميل إلى هؤلاء التماثيل الزائفة، العاطلة المعطلة.

﴿قُلْ﴾ لهم أيضا تبكيًا وإلزامًا: ﴿قُلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَىٰ طريق ﴿الحَقِّ﴾ وصراط مستقيم، موصل إلى توحيدِهِ، فإن بهتوا ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ الهادي لعباده ﴿يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ وطريق توحيدِهِ من يشاء من عباده، ويوصله إلى مرتبة حق اليقين ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَىٰ الْحَقِّ﴾ أي: اليقين الحقي ﴿أَحَقُّ﴾ أي: أليق وأحرى ﴿أَنْ يُشَبَّحَ﴾ أي: يطاع وينقاد له ﴿أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي﴾ بنفسه إلى شيء أصلاً ﴿إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾ فاهتدى إن كان من أهل الاستهداء كبعض آلهتكم، مثل عزيز وعيسى ﴿فَمَا﴾ عرض ولحق ﴿لَكُمْ﴾ أيها العقلاء، المعزولون عن مقتضى العقل ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: 35] بالوهيتهم وشركتهم، مع أن بديهية العقل يأبى عن ذلك.

﴿وَمَا يَشَبِّحُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ ٣٦
وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٣٧ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٣٨ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّابَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ٣٩ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ٤٠ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٌ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيثُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ٤١ [يونس: 36-41].

﴿و﴾ بالجملة: ﴿وَمَا يَشَبِّحُ أَكْثَرُهُمْ﴾ أي: أكثر المشركين في إشراك هؤلاء المنحطين عن درجة الاعتبار مع الله المتزه عن الشريك مطلقاً ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ وتخميناً ناشئاً من تخيلات فاسدة، وتوهمات كاسدة من إنشاء الآثار إلى ظواهر الأسباب، مع الغفلة عن المسبب الموجد لها، و﴿إِنَّ الظَّنَّ﴾ والتخمين الذي تشبثوا وتمسكوا به ﴿لَا يُغْنِي﴾ ولا يفيد ﴿مِنْ الْحَقِّ﴾ الصريح الذي هو مناط الإيمان والاعتقاد ﴿فَتَبَيَّنَ﴾ من الإغناء ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لجميع مخايلهم ﴿عَلِيمٌ﴾ خبير بصير ﴿بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: 36] على مقتضى ظنونهم وخيالاتهم وأوهامهم، فيجازيهم على مقتضى علمه وخبرته.

وبعد ما نبه سبحانه على بطلان اعتقاداتهم وظنونهم وجهالاتهم، أراد أن ينبه أن

مستند أهل الإيمان الذي هو القرآن الموضح لهم طريق التوحيد والعرفان ليس كذلك، فقال: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ﴾⁽¹⁾ المنزل على خير الأنام، المبين لهم قواعد دين الإسلام ﴿أَنْ يَفْتَرَى﴾ ويخيل أنه صدر ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ العليم الحكيم، وكيف يصدر هذا من غير الله؛ إذ هو في أعلى مراتب البلاغة، ونهاية درجات الإعجاز! لصدوره عن الحكمة المتقنة الإلهية التي كلت الأفهام دونها، وعجزت المدارك والآلات عن دركها، فلا يتوهم صدوره عن غير الله أصلاً ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مطابقاً، كما نزل من عنده في الكتب السالفة، بل هو أعلى حكمة، وأتم به فائدة منها ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾ الذي من علمه ولوح قضائه، وبالجملة: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أنه نازل ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: 37] ليس في وسع بشر أن يأتي بمثله.

أيشكون نزوله على رسول الله ﷺ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ واخترعه من عنده، ونسبه إلى الله ترويحاً وتعظيماً؟ ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل: بعدما شككتكم أنه من عند الله، بل جزمتم بأنه من عند غيره ﴿فَأَثَرُوا بِسُورَةٍ﴾ قصيرة ﴿مِثْلِهِ﴾ في الفصاحة ورعاية المقتضيات والحكم والمطابقات، ووجوه الدلالات والتمثيلات، والتشبيهات والمجازات والكنائيات ﴿وَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إن عجزتم أنتم ﴿أَذْعُوا﴾ واستظهروا ﴿مَنْ اسْتَطَعْتُمْ﴾ واستوثقتم به ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: 38] في دعوكم أنه من كلام البشر مفترى على الله.

ثم لما أفحموا على الإتيان، وعجزوا عن المعارضة، ومع ذلك لم ينصفوا، أو لم يقرروا بأنه معجز ليس من كلام البشر ﴿بَلْ كَذَّبُوا﴾ بادروا إلى الرد والتكذيب ﴿بِمَا﴾ أي: بشيء ﴿لَمْ يَحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ ولم يعلموا ويفهموا ما فيه من قرائحهم ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ من معلم وملهم، بل كابروا في تكذيبه بلا سند عقلي ونقل ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل تكذيبهم هذا ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أنبياءهم وكتبهم التي جاءوا به ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: 39] الخارجين عن مقتضى الأوامر،

(1) يعني وما كان ينبغي لهذا القرآن أن يختلف ويفتعل لأن معنى الافتراء الاختلاق والمعنى ليس وصف القرآن وصف شيء ممكن أن يفترى به على الله؛ لأن المفترى هو الذي يأتي به البشر وذلك أن كفار مكة زعموا أن محمداً ﷺ أتى بهذا القرآن من عند نفسه على سبيل الافتعال والاختلاق فأخبر الله ﷻ أن هذا القرآن وحي أنزل الله عليه وأنه مبرأ من الافتراء والكذب، وأنه لا يقدر عليه أحد إلا الله تعالى. انظر [تفسير الخازن (3/ 398)].

المبادرين إلى تكذيب الله وتكذيب كتبه ورسله، وما جرى عليهم من المصيبات الهائلة،
فانتظر يا أكمل الرسل لهؤلاء المكذبين، المكابرين أمثالها.

﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي: من المكذبين المكابرين ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ أي: بالقرآن، ويصدق
بإعجازه في نفسه ويصر على التكذيب؛ عنادًا ومكابرة ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ لغلظ
غشاوته، وشدة قساوته وشكيمته ﴿و﴾ بالجملة: ﴿رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿أَعْلَمُ
بِالْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: 40] المكذبين المعاندين الذين يفسدون في الأرض بأنواع
الفسادات.

﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ وأصروا على تكذيبك، مع وضوح دلائل صدقك ﴿فَقُلْ﴾ تبريًا
وتنزيها: ﴿لِي عَمَلِي﴾ أنا أجزى بما أعمل ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ تُجزون أنتم أيضًا بما
تعملون ﴿أَنْتُمْ بَرِئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ﴾ منكرون له ﴿وَأَنَا﴾ أيضًا ﴿بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾
[يونس: 41] بأضعاف براءتكم، فانتظروا بجزاء أعمالكم، وأنا أيضًا أنتظر بجزاء عملي
حتى يأتي وقت الجزاء.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ ٤٢ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ
يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ﴾ ٤٣ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ
شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ٤٤ ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كُنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهْرِ
يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خِيراً الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا اللَّهُمَّا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ ٤٥ ﴿وَأَمَّا نُرُوتُكَ فَهِيَ نَارُكَ
لَوْ نَوَيْتُكَ لَأَتَيْنَا مَرَجَهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: 42-46].

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ استهزاء، وأنت تلتفت إلى أسماعهم، وتبالغوا فيه؛
ليتعضوا، وهم لا يسمعون ولا يفقهون؛ لاكتة قلوبهم وصمم أسماعهم ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ
الصُّمَّ﴾ وتجتهد في إصغائهم وإسماعهم ﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: 42] لجهلهم
المركوز في جبلتهم ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ ويعاين دلائل نبوتك ويشاهد أماراتها،
ومع ذلك ينكر بك وينبوتك ﴿أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى﴾ وتقدر على إسماعه ﴿وَلَوْ كَانُوا﴾
مجبولين بأنهم ﴿لَا يَبْصُرُونَ﴾ [يونس: 43] لتعامي بصائرهم وأبصارهم، وقساوة
قلوبهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿لَا يَظْلِمُ النَّاسَ﴾ المستوجبين

للعذاب والنكال ﴿شَيْئًا﴾ مما لحقهم منه ﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ﴾ الناسين صرف ما أنعم الله لهم إلى ما خلق لأجله ﴿أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: 44] بصرفها إلى خلاف ما حكم الله وأظهره له، لذلك استحقوا المقت والانتقام.

﴿وَ﴾ اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ يَخْشَرُهُمْ﴾ أي: أهواله المتطاولة، وشدائده المترادفة المتتالية إلى حيث يصور عندهم مدة حياتهم في الدنيا ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا﴾ فيها ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾ لطول ذلك اليوم وشدة أهواله ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: وهم يعرف بعضهم بعضًا هذا في أول النشر، ثم يشتد عليهم الأمر ويرتفع التعارف والالتفات، ويصير كل منهم رهينة ما كسبت، وبالجمل: ﴿قَدْ خَسِرَ﴾ وخاب خيبة عظيمة ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ في الآخرة، وأصروا على ما هم عليه من اقتراف المعاصي، ولم يلتفتوا إلى الأنبياء والذي جاءوا به من عند الله؛ لإصلاح أحوالهم في مبدئهم ومعادهم ﴿وَمَا كَانُوا﴾ أيضًا ﴿مُهْتَدِينَ﴾ [يونس: 45] بطريق الصلاح والصواب من تلقاء نفوسهم بلا إرشاد مرشد.

﴿وَ﴾ لقصورهم عن الرشد والهداية بلا مرشد مهدي ﴿إِنَّمَا تُرِيدُكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿بَغْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ بالهداية والإرشاد، والسلوك في سبيل الصواب والسداد ﴿أَوْ تَوَفِّيكَ﴾ قبل وصولهم إلى فنائك؛ ليسترشدوا منك، ويستهدوا من زلال هدايتك، ويسترشحوا من رشحات فيضك وجودك ليصفوا من كدر هوياتهم ورين أنانياتهم ﴿فَالْيَنَّا مَرْجِفُهُمْ﴾ جميعًا، ضالًا وهاديًا، رجوع الأضلال إلى الشمس ﴿ثُمَّ﴾ بعد رجوعهم ﴿اللَّهُ﴾ المظهر لهم من كتم العدم؛ لحكمة العبودية والعرفان ﴿شَهِيدٌ﴾ مطلع حاضر بعلمه الحضورى ﴿عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: 46] من المعرفة والضلال، والإيمان والطغيان يجازيهم على مقتضى علمه وخبرته.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾
 ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَجِيرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن يَأْتِكُمْ عَذَابٌ مِّنْ بَيْنِنَا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعِجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَمَّا إِذَا مَا وَقَعَ مَأْثَمُهُمْ يَوْمَ تَأْتِيهِمْ سَاعَتُهُمْ قَدْ كَانَتْ يَوْمَئِذٍ تُجْرَوْنَ إِلَّا بِمَا

كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَنْشِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلَّ إِي وَرَقَةٍ إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَشَدُّ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ [يونس: 47-53].

﴿و﴾ اعلّموا أن ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أي: فرقة وطائفة ﴿رَسُولٌ﴾ مرسل من عند الله على مقتضى حكمته وحكمه؛ ليهديهم إلى توحيدة ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ والعدل الموضوع من عند الله لإصلاح أحوال عباده ﴿وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ﴾ [يونس: 47] في يوم الجزاء، ولا ينقصون من أجور أعمالهم بل يجازون مقدار ما يقتفون من المعاصي.

﴿و﴾ من خبث بواطنهم ﴿يَقُولُونَ﴾ لك مستنكراً عليك، مستهزئاً معك يا أكمل الرسل: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ الذي ادعيت إتيان العذاب فيه عين وقته ﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿صَادِقِينَ﴾ [يونس: 48] في هذه الدعوة، مصدقين لمن يدعي الصدق فيه.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل: ﴿لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي﴾ ولا أقدر أن أكتسب عليها ولها ﴿ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ وقدره في سابق قضائه، ومتى لم أقدر على أحوال نفسي، فكيف لي قدرة على استعجال ما في مشيئة الله في غيبه وتعيين وقته؟ مع أنه لم يأذن لي، ولم يوح إلي من عنده سوى أن ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم سواء كانوا محقين أو مبطلين ﴿أَجَلٌ﴾ معين، ووقت مقدر، مقرر في علم الله ﴿إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ الذي عينه الحق؛ لإهلاكهم فيه لا يمكن التخلف فيه إذن لا استعجال ولا استخار ﴿قُلْ﴾ يَسْتَجِرُّونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: 49] أي: لا يمكنهم طلب التأخر لمحة وطرفة؛ إذ الساعة مصروفة إلى مطلق الزمان؛ ليدفعوا الضر، ولا يمكنهم أيضاً طلب التقديم؛ ليجلبوا النفع، بل الأمر حتم في وقته، لا يتجاوز عنه أصلاً، فانتظروا فسيجيء أجلكم ووقتكم، وينجز وعدكم.

ومتى كان الأجل مبهماً، ولم يمكن لأحد أن يعين وقته ﴿قُلْ﴾ لهم توبيخاً وتقريعاً: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني أيها المجرمون المستعجلون للعذاب والنكال ﴿إِنْ أَنَا كُنْتُ عَذَابُهُ بَيِّنَاتًا﴾ أي: حال كونكم بائتين في الليل ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ حال كونكم مترددين فيها، وعلى أي شأن وكل حال يصعب عليكم أمره؛ إذ هو يفزعكم ويفجعكم، وإذا كان حالكم عند نزوله وحلوله هذا ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ﴾ سبحانه من طوله؛ إذ كله مكروه ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: 50] المستحقون لأنواع العقوبة والعذاب؛ أتكفرون وتكذبون له

وتصرون على ما أنتم عليه من الكفر والشرك إلى وقت حلول العذاب؟! ﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ﴾ ونزل ﴿آمَنْتُمْ بِهِ﴾ ولم ينفعكم الإيمان حينئذ؛ إذ قيل لكم حينئذ من وراء سرادات العز والجلال: ﴿الآن﴾ أيها الضالون المكذبون آمنتم ﴿وَوَ﴾ الحال أنه ﴿قَدْ كُتِّمَ﴾ من شدة إنكاركم وإصراركم ﴿بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [يونس: 51] استهزاء وسخرية.

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالله بالخروج عن مقتضى أوامره وتكذيب رسله: ﴿ذُوقُوا﴾ بدل ذوقكم واستلذاذكم بتكذيب الرسل، والاستهزاء بهم ﴿عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ المستمر الدائم الذي لا ينقطع أبد الآباد ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ به ﴿إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [يونس: 52] في النشأة الأولى من الجرائم العظام والمعاصي والآثام.

﴿وَوَ﴾ بعد تبليغك إليهم مآل أمرهم وعاقبة حالهم، أنهم ﴿يَسْتَنْبِثُونَكَ﴾ ويستخبرونك على مقتضى أكتهم المستكنة في قلوبهم: ﴿أَحَقُّ هُوَ﴾ أي: ما أخبرت به من الوعيدات الهائلة؛ يعني: أجد هو أم هزل وتخويف؟ ﴿قُلْ﴾ مبالغاً في تحقيقه وتقريره: ﴿إِي وَرَبِّي﴾⁽¹⁾ أقسم بربي ﴿إِنَّهُ لَحَقُّ﴾ ثابت محقق عندي بوحى الله وإلهامه، لا شبهة في وقوعه وثبوته ﴿وَمَا أَنْتُمْ﴾ بأمثال هذه الشبهات الواهية والظنون والجهالات ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: 53] مسقطين العذاب النازل عليكم.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ. وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾
 وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ
 وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَتَأْتِيهَا
 النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمٌ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكَمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾

(1) يعني ويستخبرونك أحق هو؟ قل: (إي وربي)، ويعنى بلى وربي إنه لحق. فقال جدي: لئن كنت صادقاً، فإنكم تملكون إحدى وسبعين سنة، ولقد بعث الله ﷺ في بني إسرائيل ألف نبي كلهم يخبرون عن أمك ولم يخبرونا كم تملكون حتى أخبرتنا أنت الآن، ثم قال جدي لليهود: كيف ندخل في دين رجل منتهى ملك أمته إحدى وسبعون سنة، فقال عمر بن الخطاب، رضوان الله عليه: وما يدريك أنها إحدى وسبعون سنة؟ فقال جدي: أما ألف في الحساب فواحد، واللام ثلاثون، والميم أربعون سنة، فضحك رسول الله ﷺ فقال جدي: هل غير هذا؟ فقال النبي ﷺ: «نعم، ﴿المض﴾ كتاب أنزل إليك» [الأعراف: 1-2]. [تفسير مقاتل (4/1)] بتحقيقنا.

قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ [يونس: 54-58].

﴿و﴾ كيف تسقطون عذاب الله عنكم لو فرض ﴿لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ وخرجت عن مقتضى أوامر الله ونواهيهِ ﴿مَّا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: خزائن ما فيها جميعاً ﴿لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ بل بأضعافه وآلافه لو فرض قبول الفدية منها ﴿و﴾ بعد افتدائهم هذا ﴿أَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ أي: بهتوا حين عاينوا العذاب وأموالها، وندموا عما افتدوا بمقابلته، وآيسوا عنها مطلقاً ﴿و﴾ لم ينفعهم الفدية أصلاً بل ﴿قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ الإلهي ومقتضى حكومته وحكمته ﴿وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ﴾ [يونس: 54] في جزاء ظلمهم وكفرهم، وكيف يتصور الظلم من الله؛ إذ الكل من أظلال أوصافه وأسمائه.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ﴾ وحيطة قدرته وعلمه ﴿مَّا﴾ ظهر ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَ﴾ ما ظهر في ﴿الْأَرْضِ﴾ من الكائنات والفاسادات يعذب به من يشاء عدلاً منه، ويرحم على من يشاء فضلاً ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ الذي وعد لعباده من الثواب والعقاب ﴿حَقٌّ﴾ محقق ثابت لا محالة؛ إذ لا يجري الخلف في وعده أصلاً ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ﴾ لقصور فهمهم، وقلة تدبرهم في أحكامه المبرمة وحكمته المتقنة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: 55] حقية وعده، ولا يؤمنون بها جهلاً وعناداً.

وكيف يشكون ويرددون أولئك المصرون المعاندون في سعة قدرته، وتستبعدون منه إنجاز ما وعده؛ إذ ﴿هُوَ يُخَبِّرُ﴾ أي: يظهر، ويوجد بالتجلي الحي أولاً هياكلهم وأشباحهم مع أنهم لم يكونوا شيئاً مذكوراً ﴿و﴾ بعد إظهارهم وإحيائهم ﴿يُمِيتُ﴾ ويعدم بالتجلي القهري على ما هم عليه من العدم ﴿و﴾ كيف لا يقدر على إعادتهم أحياء للجزاء والحساب بعد إماتتهم؛ إذ هم بجميع أمورهم وأحوالهم ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره؛ إذ لا غير في الوجود سواه ﴿تَرْجَعُونَ﴾ [يونس: 56] رجوع الأخواء والأظلال إلى الشمس.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ الناس المنشأ الأصلي والوطن الحقيقي ﴿قَدْ جَاءَكُمْ﴾ لإيقاظكم وانتباهكم ﴿مَوْعِظَةٌ﴾ وتذكير ﴿مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ أي: تشفيه لغليلكم وأكتكم المستكنة في صدوركم ﴿وَهُدًى﴾ هادياً لأرباب الغاية والوصول إلى مقر التوحيد ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ عامة شاملة ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 57] من أصحاب البر والتقوى فعليكم أن تتعظوا وتذكروا بأحكامه، وتأملوا في رموزه وإشاراته، وتدبروا في مفاتيحه ومطالعه، حتى تنكشفوا منه بقدر وسعكم وطاقتم ما تنكشفوا، والله الهادي

إلى جنبه من يشاء من عباده وهو العزيز الحكيم.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لمن تبعك إرشادًا لهم وتذكيرًا: ﴿بِفَضْلِ اللَّهِ﴾ وحسن قبوله وشرف عزه وحضوره ﴿وَبِرَحْمَتِهِ﴾ الواسعة المتسعة لجميع مظاهره فليتشرفوا ولينكشفوا ﴿فَبِذَلِكَ﴾ التلذذ والحضور الحقيقي ﴿فَلْيَفْرَحُوا﴾ بدل ما لم يتلذذوا ولم يفرحوا بالمستلذات الجسمانية الفانية المتناهية ﴿هُوَ﴾ أي: فرحكم وسروركم الروحاني ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: 58] من أهوية نفوسكم ومقتضيات هوياتكم إن كنتم موقنين مخلصين.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَدَّبَكُمْ لَكُمْ أَمْرًا عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٦١﴾ [يونس: 59-61].

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني كيف كفرتم في ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ لمعاشكم وتقوية مزاجكم ﴿مِنْ رِزْقٍ﴾ مسوق إليكم محصل بأسباب سماوي مباح لكم ﴿فَجَعَلْتُمْ﴾ من تلقاء أنفسكم ﴿مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾ أي: حرمتم بعضه وحللتهم بعضًا آخر بلا ورود شرع ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل إلزامًا وتقريعًا: ﴿اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ بهذه التفرقة والقسمة ﴿أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: 59] بنسبتها إليه.

﴿وَمَا ظَنُّ﴾ أي: أي شيء ظن أولئك المفترون ﴿الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ بأنهم لم يجازوا ولم يؤاخذوا ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ على افترائهم على الله ما لم يصدر عنه، بل إنهم مؤاخذون على جرائهم على الله وافترائهم به، سيما بعد ورود الزواجر والروادع من الآيات الدالة على امتناعهم عنها فلم يمتنعوا ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿لَذُو فَضْلٍ﴾ عظيم ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ بإنزال الكتب وإرسال الرسل المنبهين على ما هو الأصلح لهم وألبق بحالهم ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ﴾ بجهلهم وخبث باطنهم ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يونس: 60] نعمه بل ينكرون ويكفرون بها عنادًا ومكابرة.

﴿وَكَيْفَ يَنْكُرُونَ رِسَالَاتَكَ وَوَحْيِكَ مِنْ اللَّهِ وَتَأْيِيدِكَ مِنْ عِنْدِهِ مَسْجِدَهُ إِذْ مَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ وأمر من ادعاء الرسالة من الله والتشريع من جانبه بلا إذن منه ﴿وَمَا تَشَاءُ مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾ مدعيًا نزوله من عنده بلا وحيه وإنزاله ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ﴾ أنتم أيضًا ﴿مِنْ عَمَلٍ﴾ صالح أو طالح، خير أو شر ﴿إِلَّا كُنَّا﴾ بذاتنا وأوصافنا وأسمائنا ﴿عَلَيْكُمْ شُهَدَاءُ﴾ حضراء رقباء، مطلعين على جميع ما جتم به وقت ﴿إِذْ تُفِيضُونَ﴾ أي: تخوضون وتقصدون الشروع ﴿فِيهِ﴾ أو الذب عنه ﴿وَكَيْفَ لَا نَطْلُعَ عَلَيْهَا وَلَا يَحِيطَ عِلْمُنَا بِهَا وَشُهُودُنَا إِيَّاهَا إِذْ مَا يَغْزُبُ﴾ أي: لا يغيب ويبعد ﴿عَنْ رَيْكَ﴾ ومريك أيها المظهر الجامع لجميع المراتب الكونية والكيانية والمتخلق بجميع الأخلاق الإلهية ﴿مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ كائنة ﴿فِي﴾ أقطار ﴿الْأَرْضِ وَلَا﴾ كائنة ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ وفضائها ﴿وَكَيْفَ يَغْزِبُ وَيَغِيبُ عَنْ حِيطَةِ عِلْمِهِ شَيْءٌ إِذْ لَا أَضْفَرُ مِنْ ذَلِكَ﴾ المقدار ﴿وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: 61] ظاهر الإبانة والظهور بالنسبة إلى أرباب الولاء، الباذلين أرواحهم في طريق الفناء، المستغرقين في بحر الوحدة، الفانين عن هوياتهم بالمرة.

﴿إِلَّا إِنْ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ١٢ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ ١٣ ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِلُ لِكَلِمَاتِهِ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ١٤ ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْوِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ١٥ ﴿إِلَّا إِنْ هُمْ فِي السَّمَاءِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَشْعُرُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْمَعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس: 62-66].

﴿إِلَّا إِنْ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ﴾ المنخلين عن لوازم البشرية بالكلية المنسلخين عن مقتضيات أهوية نفوسهم رأسًا ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: 62] إذ الخوف والحزن إنما هي من لوازم الطبيعة ومن ارتكاب مقتضياتها.

وبعدما انسلخوا عنها وتجردوا عن لوازمها وفانوا في هوية الحق وصاروا ما صاروا، لم يبقَ فيهم مبدأ الخوف والحزن والأمن والسرور؛ إذ لا يتصف الفاني بأمثال هذه الأضداد، وهم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله في بداية سلوكهم؛ أي: تحققوا بمقام اليقين

العلمي ﴿و﴾ بعد تمكنهم وتقررهم فيه ﴿كَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: 63] ويحذرون من سطوة سلطنة صفاته الجلالية لانغماسهم بشواغل أهوية الهويات وانهماكهم بعلائق التعينات.

ثم لما استخلصوا منها بالإخلاص والإخبات الصادق ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ عند الله بالفوز العظيم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ إذ هم تحققوا بمقام العبودية وتقررُوا في مقر التوحيد، ووصلوا إلى ما أظهرهم الحق لأجله وهو المعرفة والشهود ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ التامات الناطقة بالكرامة والبشرى ﴿ذَلِكَ﴾ التبشير الشامل للنشأتين ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: 64] واللفظ الجسيم لأهل العناية من أرباب القبول.

﴿و﴾ بعدما تحققت يا أكمل الرسل بولاية الله واتصفت بولائه وفزت بما فزت ﴿لَا يَخْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ الباطل بالكفر والإشراك بالله وتكذيب كتابه، ومنه أنزل إليه، ولا تغتم بتهديدهم إياك ولا تبال مفاخرتهم وخيلاءهم بالمال والجاه عليك ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ﴾ الاعتبارية العظيمة ﴿لِلَّهِ﴾ المتعزز برداء العظمة والجلال، المتوحد بنعوت الكمال والجمال ﴿جَمِيعًا﴾ لا يعتد بعزة هؤلاء الغواة والعصاة، وسيخذلهم الله عن قريب بالقهر والانتقام، وينصرك عليهم بالغلبة والاستيلاء؛ إذ ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم الكاذبة الباطلة ﴿الْعَلِيمُ﴾ [يونس: 65] بنياتهم الفاسدة يجازيهم على مقتضى علمه، وينتقم عنهم وفق خبرته.

قل يا أيها النبي الهادي لمن يدعي ربوبية الأظلال الهالكة وألوهية التماثيل الباطلة تنبيهاً لهم وإيقاظاً عن غفلتهم: كيف تدعون أيها الحمقى شركة المصنوع المفضول مع الصانع القديم الحكيم؟! ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ﴾ أي: تنبهوا أيها المسرفون الجاهلون بقدر الله المتوحد المتفرد بذاته، المتجلي في الآفاق بأسمائه وصفاته، مظاهر ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ﴾ من الملائكة ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ من الثقلين، وهم مع فضلهم وشرفهم وعلو شأنهم لا يستحقون الألوهية والربوبية ﴿و﴾ كيف يستحق أولئك الجمادات الساقطة عن درجة الاعتبار لذلك ﴿مَا يَتَّبِعُ﴾ المشركون ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ شركاء ﴿فِي آلُوْهِتِهِ﴾ مستحقين للعبادة كعبادته إلا الزور الباطل والزائغ الزائل بل ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ﴾ أي: ما يتبعون هؤلاء الضالون المشركون ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾ والتخمين الناشئ من جهلهم وغفلتهم عن سر هوية الحق في المظاهر كلها؛ لذلك حقروها في مظهر دون

مظهر ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾⁽¹⁾ [يونس: 66] أي: ما هم في ادعائهم وحصرهم هذا إلا كاذبون آفكون إفكًا عظيمًا، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيرًا.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (٦٧) قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لِمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثَمَرًا إِنَّمَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَدِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ [يونس: 67-70].

كيف تغفلون عن الله أيها الجاهلون، وكيف تشركون معه غيره أيها المحجوبون ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ﴾ بكمال قدرته وحكمته لبأساً ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ وتستريحوا من المتاعب ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ النَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ لتهتدوا إلى مطالبكم في أمور معاشكم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الجعل والتقدير ﴿لآيَاتٍ﴾ عظام ودلائل جسام على كمال قدرته ومثانة حكمه وحكمته وتوحيده في ألوهيته، وتفرده في ربوبيته واستقلاله في التصرف بلا مظاهرة أحد ومشاركة ضد وند ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس: 67] سمع تدبر وتلدب واستكشاف تام بعزيمة صادقة صافية عن شوب الغفلة والذهول.

ومن كثافة حجبهم وغشاوة قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم ما قدروا الله حق قدره؛ لذلك نسبوا إليه ما هو منزّه عنه سبحانه؛ حيث ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾

(1) قال الشيخ حقي (160/13): يكذبون فإن الخرص الكذب وكل قول بالظن والتخمين سواء طابق الواقع أم لا، قال الراغب: كل قول مقول عن ظن وتخمين يقال له خرص سواء كان ذلك مطابقاً للشيء أو مخالفاً له من حيث إن صاحبه لم يقله عن علم ولا غلبة ظن ولا سماع بل اعتمد فيه على الظن والتخمين كفعل الخارص في خرصه، وكل من قال قولاً على هذا النحو يسمى كاذباً، وإن كان مطابقاً للقول المخبر به، كما حكى عن قول المنافقين في قوله تعالى: (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد أنك لرسول الله) إلى قوله: (إن المنافقين لَكاذِبُونَ) يقول الفقير: إسناد المشيئة إلى الله إيمان وتوحيد إن صدر من المؤمن وإلا فكفر وشرك لأنه من العناد والمعصية والجهل بحقيقة الأمر فلا يعتبر.

وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً، كيف يكون له ولد ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ بذاته عن التعدد مطلقاً، ليس لغيره وجود أصلاً، بل ﴿لَهُ﴾ مظاهر ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ظهر عليها سبحانه حسب أسمائه الحسنى وصفاته العليا على مقتضى التجلي الحبي اللطفي بلا انصباع لها بالكون والتحقق بل بالانعكاس؟ ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ﴾ أي: ما عندكم أيها الجاهلون بمعرفة الله وحق قدره ﴿مِنْ سُلْطَانٍ﴾ حجة وبرهان ﴿بِهَذَا﴾ الادعاء الكاذب والقول الباطل، بل تتكلمون به افتراء ومراء ﴿أَتَقُولُونَ﴾ وتفترون أيها المفترون ﴿عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يونس: 68] ولا تدركون لياقته لجنابه.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل نيابة عنا للمكذبين المفترين كلاماً ناشئاً عن محض الحكمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ﴾ وينسبون ﴿عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ﴾ [يونس: 69] ولا يفوزون في النشأة الأخرى بمرتبة التوحيد التي هي معراج أهل الكمال، بل يحصل لهم بافترائهم هذا ﴿مَتَاعٌ﴾ أي: تمتع قليل ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ من الرئاسة والجاه ﴿ثُمَّ﴾ بعد انقضاء النشأة الأولى ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿ثُمَّ﴾ بعد تيقنهم وكشفهم فيها ﴿نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ﴾ بدل ما يتلذذون في النشأة الأولى ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: 70] أي: بسبب كفرهم وشركهم.

﴿وَآتِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُوا لِقَوْمِي وَتَذَكَّرِي بِشَايَتِي﴾
 اللَّهُ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَجَبْتَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خُلَفَاءَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِشَايَتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكِبِينَ ﴿٧٣﴾ [يونس: 71-73].

﴿وَآتِلْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عَلَيْهِمْ﴾ تذكيراً وتعريضاً ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾ أي: قصته مع قومه وقت ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ حين استعظموا أمره وقصدوا إهلاكه عناداً ومكابرة: ﴿يَا قَوْمِ﴾ أضافهم إلى نفسه على مقتضى شفقة النبوة ﴿إِنْ كَانَ كَبُرَ﴾ أي: شق وعظم ﴿عَلَيْكُمْ مَقَامِي﴾ فيكم، وحياتي بينكم ﴿وَتَذَكَّرِي﴾ إياكم ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على توحيده واستقلاله في ألوهيته وربوبيته ﴿فَعَلَى اللَّهِ﴾ لا على غيره؛ إذ لا غير معه ولا شيء سواه ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ أي: وثقت به وفوضت أمري إليه ﴿فَأَجْمِعُوا﴾ أي: فعليكم أن

تجمعوا ﴿أَمْرُكُمْ﴾ وتدابيركم في قتلي وإهلاكى ﴿وَأَمْرُكُمْ﴾ مع ذلك ادعوا ﴿فَرَكَاةُكُمْ﴾ مستظهرين لهم في دفعي ﴿ثُمَّ﴾ بعد تدبيركم واستظهاركم بهم أظهروا عليّ بحيث ﴿لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ﴾ أي: لم يبق فيه ﴿عَلَيْكُمْ غُمَّةٌ﴾ ستره تغتمون بها وتحزنون بسببها، بل رتبوا أمركم على ما تقتضيه نفوسكم وترتضيه عقولكم ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ﴾ واصرفوا نحوي ما هيأتم ودبرتم من الأسباب الموجبة لإهلاكى ﴿وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ [يونس: 71] أي: لا تمهلوني طرفة بل امضوا على ما أنتم عليه من قتلي وإهلاكى، فإني لا أبالي بكم وبتدابيركم وظهرائكم؛ إذ الله حسبي وعليه توكلتي وبه اعتمادى واعتصامى، أذكر لكم بإذنه وأعظكم بوحيه.

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ وانصرفتم عن تذكيري ﴿فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: ليس بسبب توليكم وإعراضكم سؤالي منكم الجعل حتى يشق عليك إعطاؤه فانصرفتم وأعرضتم، بل ﴿إِنْ أَجْرِي﴾ أي: ما أجري وجعلي ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ الذي أمرني به ﴿وَأَمِزْتُ﴾ من عنده ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: 72] المسلمين الأمور كلها إليه، المنقادين لحكمه وقضائه؛ إذ الكل منه بدأ وإليه يعود.

ومع ذلك النصيح والشفقة والتلين التام المنبعث عن محض الحكمة، والحجج والبراهين الدالة على صدقه في دعواه ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ عنادًا ومكابرة، وأصروا على تكذيبه عتوا واستكبارًا، فأخذناهم بالطوفان؛ لانهماكهم في الغي والطغيان ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ﴾ من الغرق محفوظين ﴿فِي الْفُلْكِ﴾⁽¹⁾ التي نحتها بيده بروحي الله إياه وتعليمه، وهم قد استهزؤوا معه حين اشتغل بتريتها ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾ أي: أصحاب الفلك ﴿خَلَائِفَ﴾ من الهالكين، وهم ثمانون مؤمنون بالله مصدقون لرسوله ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ﴾ أيها المعتبر الرائي ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [يونس: 73] المكذبين لنذيرهم؟ وإلى أين أدى إنكارهم واستكبارهم؟ فاعتبروا يا أولي الأبصار.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ رَسُولًا﴾ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ ثَمُودَ وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ

(1) يعني في القبضة والأسر وهبت رياح الكرم على المریدین الذين هم في الطريق وفرحوا بما يلحقهم من العناية والرعاية جاءتها ربيع عاصف أتت عليهم من موارد القدرة، ما أفناهم عن صفاتهم، وحيرهم في طريقهم، وجاءتهم أمواج القهر، وقهرهم عملهم. [العرائس].

وَمَلَأْنَاهُ بِبَايَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لِسِحْرٌ مِّمَّنْ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِرْيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ [يونس: 74-78].

﴿ثُمَّ﴾ لما ازداد أولئك الخلفاء الناجون، وتشعبوا أممًا وأحزابًا ودار عليهم الأدوار فصاروا منصرفين عن طريق الحق، مائلين عن سبيل الرشاد ﴿بَعَثْنَا﴾ لإصلاح أحوالهم ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: بعد نوح ﴿رُسُلًا﴾ منهم كل واحد من الرسل ﴿إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ فجاءوهم بِالْبَيِّنَاتِ الواضحة والمعجزات الساطعة القاطعة المثبتة لدعواهم ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ أي: فما تيسر لهم وضح عندهم وثبت لديهم أن يؤمنوا ويصدقوا ﴿بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: قبل بعثة الرسل، بل أصروا على ما هم عليه، واعتادوا له بلا تغيير وتبديل لتركب جهلهم المركوز في جبلتهم وخبائث طيبتهم ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ﴾ ونختم بختام الغفلة والنسيان ﴿عَلَى قُلُوبِ الْمُغْتَدِينَ﴾ [يونس: 74] المجاوزين عن حدود الله، الراسخين على التجاوز والعدوان.

﴿ثُمَّ﴾ لما عتوا منهم من عتوا وأخذنا منهم من أخذنا ﴿بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: بعد أولئك الرسل الماضين ﴿مُوسَى وَهَارُونَ﴾ الذي هو أخوه وظهره ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ المبالغ في العتو والعناد إلى حيث ادعى الربوبية لنفسه بقوله: أنا ربكم الأعلى ﴿وَمَلَأْنَاهُ﴾ المؤمنين له المعاوين لشأنه ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على استقلالنا في الآثار وتفردنا في الألوهية والربوبية وعلى صدق رسولنا في جميع ما جاء به من عندنا ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن الانقياد، واستقبلوا بالتكذيب والعناد ﴿وَهُمْ﴾ هم في سابق علمنا ﴿كَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [يونس: 75] بأعظم الجرائم مستحقين بأشد العذاب؛ لذلك أظهروا ما في استعداداتهم وقابلياتهم.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ الحقيق بالاتباع والانقياد ﴿مِنْ عِنْدِنَا﴾ بعدما عارضوا معه وقابلوا بمعجزاته ما قابلوا ﴿قَالُوا﴾ من فرط عتوهم وعنادهم بدل ما صدقوه وآمنوا له بعد ظهور أمره وشأنه: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي جاء به هذا الساحر الكذاب ﴿لِسِحْرٌ مِّمَّنْ﴾ [يونس: 76] عظيم ظاهر فائق على سحر جميع السحرة.

﴿قَالَ مُوسَى﴾ بعدما سمع قولهم هذا يسأل عن إيمانهم، متحسرًا متحزنًا على

مقتضى شفقة النبوة، موبخاً لهم على وجه الفطنة والتذكير: ﴿أَتَقُولُونَ﴾ أيها الحمقى ﴿لِلْحَقِّ﴾ الصريح الثابت الصحيح ﴿لَمَّا جَاءَكُمْ﴾ لإصلاح حالكم ليورث في قلوبكم تصديقاً لوحداية ربكم: إنه سحر باطل ﴿أ﴾ ما تستحيون من الله ولا تنصفون وتقولون: ﴿سِحْرٌ هَذَا﴾ الحال أنه ﴿لَا يُفْلِحُ﴾ ولا يفوز بالخير ﴿الشَّاحِزُونَ﴾ [يونس: 77] وهذا خير كله عاجلاً وأجلاً، وفوز بالفلاح والنجاح.

﴿قَالُوا﴾ على سبيل المكابرة بعدما سمعوا من موسى قوله ونصحه: ﴿أَجِئْنَا﴾ أيها الساحر الكذاب ﴿لِتُلْفِتَنَا﴾ وتصرفنا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ وأسلافنا ﴿و﴾ اشتبهت أن ﴿تَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ﴾ والعظمة ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ التي كنا عليها مستقرين ﴿و﴾ اذهباً إلى حيث شئتما ﴿مَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 78] مصدقين منقادين.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ﴾ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمُ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَا أَمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالِي فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامِنُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَحْنَارِحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ [يونس: 79-86].

﴿و﴾ بعدما أفحموا عنه براهينهما وحججهما، وعجزوا عن معجزاتهما صمموا العزم لمعارضتهما؛ حيث ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ آمراً لأعوانه وأنصاره: ﴿اتُّوْنِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [يونس: 79] ماهر كامل فيه، فأرسلوا شرطاً لجميع أهل السحر، فأجمعوا واجتمعوا وجاءوا على فناء فرعون مجتمعين، ثم عينوا الوقت والموعِد، فخرجوا إليه ليعارضوا معهما.

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ﴾ الميقات والموعِد، قالوا لموسى تحقيراً له وتهويئاً لأمره: ألق ما جئت به من السحر ﴿قَالَ لَهُمُ مُوسَى﴾ مستعيناً بالله من عنده متوكلاً عليه: ﴿أَلْقُوا﴾ أيها المغترون المكذبون ﴿مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ [يونس: 80].

﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا﴾ ما جاءوا به من السحر واستحسنوا من فرعون واستأملوا منه الجعل الكثير وجزموا الغلبة ﴿قَالَ مُوسَى﴾ بعدما رأى ما ألقوا: ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ﴾ أيها المفسدون المعاندون ﴿السَّخَرُ إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لجميع مخايلكم ﴿سَيَبْطِلُ﴾ عن قريب، ثم ألقى موسى عصاه، فإذا هي تلقف ما يافكون، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون، فانقلبوا هنالك صاغرين ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿لَا يُضْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: 81] منهم؛ لانهماكهم في الإفساد والإسراف، المصرين على العتو والعتاد.

﴿و﴾ بالجملة: ﴿يُحِقُّ اللَّهُ الْحَقُّ﴾ الثابت من عنده ويقرره في مكانه ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ أي: بأوامره ونواهيه وآياته ومعجزاته ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾⁽¹⁾ [يونس: 82] المحرومون عن نور الإيمان والتوحيد ذلك التثبيت والتقرير.

ثم لما ظهر أمر موسى وشاع غلبته وفاق معجزاته على ما جاءوا به من السحر والشعبذة ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى﴾ منهم بعد ظهور صدقه بين أظهرهم ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ﴾ شبان ﴿قَوْمِهِ﴾ أي: بني إسرائيل، وسبب توقفهم بعد الدعوة أنهم ﴿عَلَى خَوْفٍ﴾ وخطر عظيم ﴿مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ الذين يجتمعون حولهم من القبط ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ ويصول عليهم ليقتلهم ﴿و﴾ كيف لا يخافون أولئك المظلومون؟ ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ﴾ المتناهي في العتو والاستكبار ﴿لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ﴾ غالب قاهر على جميع من فيها ﴿وإِنَّهُ لَمِنَ الْمُفْسِرِينَ﴾ [يونس: 83] بالاستيلاء والبسطة والكبرياء إلى حيث تفوه من غاية كبره بـ: أنا ربكم الأعلى.

﴿و﴾ بعدما رأى موسى توقف قومه في أمر الإيمان بعد وضوح البرهان ﴿قَالَ مُوسَى﴾ على وجه العظة والتذكر، وتعليم التوكل والتفويض الذي هو أقوى شعائر الإيمان، منادياً لهم ليقبلوه عن ظهر القلب: ﴿يَا قَوْمِ﴾ أراد به بني إسرائيل ﴿إِن كُنتُمْ

(1) الإشارة: الأكوان كلها عند أهل التحقيق شعوزة سحرية، خيالية كخيال السحر الذي يظهره المشعوذ، تظهر ثم تبطن، وليس في الوجود حقيقة إلا الواحد الأحد الفرد الصمد، فهي ثابتة بإثباته، ممحوة بأحدية ذاته، وهي أيضاً أشبه شيء بالظلال، والظلال لا وجود لها من ذاتها، وإنما تابعة لشواخصها، ولذلك قالوا: ظلال الأشجار لا تعرق السفن عن التسيار، فظلال الأكوان وأجرامها لا تعوق سفن الأفكار عن التسيار في بحار معاني الأسرار، بل تغيب عن ظلال حسها إلى فضاء شهود معانيها، فالعارف لا يحجبه عن الله شيء؛ لنفوذه إلى شهود أسرار الربوبية في كل شيء، والله تعالى أعلم. انظر [البحر المديد (3/ 11)].

أَمْشُمْ بِاللَّهِ الرَّقِيبَ الْحَسِيبَ لِعِبَادِهِ ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾ فِي جَمِيعِ أُمُورِكُمْ وَحَالَاتِكُمْ ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: 84] مُسْلِمِينَ أُمُورَكُمْ إِلَيْهِ، مُنْقَادِينَ لِحُكْمِهِ، وَمَا جَرَى عَلَيْكُمْ مِنْ قَضَائِهِ.

ثُمَّ لَمَّا سَمِعُوا مَقَالَةَ مُوسَى تَأَثَرُوا مِنْهَا وَتَذَكَّرُوا ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ﴾ الْمَتَوَلَّى لِأُمُورِنَا ﴿تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا﴾ يَا مَنْ رَبَّنَا بِلُطْفِكَ وَهَدَانَا إِلَى تَوْحِيدِهِ ﴿لَا تَجْعَلْنَا﴾ بِحَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ ﴿فِتْنَةً﴾ أَي: مَحَلَّ فِتْنَةٍ وَمُصِيبَةٍ ﴿لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: 85] الَّذِي قَصَدُوا أَنْ يَتَسَلَطُوا عَلَيْنَا وَيَفْتِنُوا بِنَا.

﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ﴾ الَّتِي وَسَعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴿مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [يونس: 86] الْقَاصِدِينَ سِتْرَ الْحَقِّ بِأَبَاطِيلِهِمُ الزَّائِغَةَ، الْكَائِدِينَ الْمَاكِرِينَ مَعَ مَنْ تَوَجَّهَ نَحْوَكَ وَرَجَعَ إِلَيْكَ.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَلِخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ٨٧ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ٨٨ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ٨٩ [يونس: 87-89].

﴿و﴾ بَعْدَمَا أَخْلَصُوا فِي تَضَرُّعِهِمْ وَتَوَجُّهِهِمْ إِلَيْنَا ﴿أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى﴾ أَصَاةَ ﴿وَأَخِيهِ﴾ تَبَعًا ﴿أَنْ تَبَوَّءَا﴾ أَي: خِذَا مَبَاةً؛ أَي: مَسْكَنًا وَمَيْتًا ﴿لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ﴾ وَأَمَرَ لَهُمْ أَنْ يَبْنُوا ﴿بُيُوتًا﴾ فِيهَا ﴿و﴾ بَعْدَمَا بَنَيْتُمْ بُيُوتًا ﴿اجْعَلُوا﴾ أَي: كُلَّ وَاحِدٍ مِنْكُمَا وَمِنْهُمْ ﴿بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ وَمَسْجِدًا تَوَجَّهُونَ فِيهَا إِلَى اللَّهِ وَتَقْرُبُونَ نَحْوَهُ ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ فِيهَا أَي: أَدِيمُوا الْمِيلَ وَالتَّوَجُّهَ نَحْوَ الْحَقِّ مَخْبِتِينَ خَاشِعِينَ مُخْلِصِينَ ﴿و﴾ بَعْدَمَا وَاطَبُوا عَلَى مَا أَمَرُوا وَاسْتَقَامُوا عَلَيْهِ مُخْلِصِينَ ﴿بَشِّرِ﴾ يَا مُوسَى الدَّاعِيَ لَهُمْ إِلَى الْحَقِّ ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 87] الْمُتَوَجِّهِينَ نَحْوَهُ بِالنَّصْرَةِ عَلَى الْأَعْدَاءِ فِي الدُّنْيَا، وَالْكَرَامَةِ الْعَظِيمَةِ فِي النُّشَاةِ الْآخَرَى، وَالْفُوزَ بِالْوُصُولِ إِلَى قِنَاءِ الْمَوْلَى.

﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ بَعْدَمَا تَفَرَّسَ الْقَبُولَ وَالْإِجَابَةَ لِلدَّعَاءِ، دَاعِيًا عَلَى الْأَعْدَاءِ: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ بِفَضْلِكَ وَجُودِكَ﴾ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً يَتَزَيَّنُونَ بِهَا ﴿وَأَمْوَالًا﴾ يَمِيلُونَ إِلَيْهَا

ويفتخرون بها ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ولم يشكروا لنعمك بل يكفروا بها يا ﴿رَبَّنَا﴾ وإنما افتخروا وباهوا بحطامهم ﴿لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾ ضعفاء المؤمنين المتلونين الذين لم يتمكنوا في مقر اليقين ولم يتوطنوا في موطن التمكين ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ أي: امحها واتلفها؛ لئلا يتمكنوا على تضليل عبادك بها ﴿وَاشْدُدْ﴾ ختمك وطبعك ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا﴾ ولا ينكشفوا بالإذعان والقبول ﴿حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ﴾ المعد لهم لكفرهم وإصرارهم ﴿الْأَلِيمَ﴾ [يونس: 88] المؤلم في غاية الإيلام حين رأوا المؤمنين في سرور دائم ولذة مستمرة وجنة نعيم.

﴿قَالَ﴾ سبحانه مبشراً لموسى: ﴿قَدْ أَجِيتَ دَعْوَتُكُمَا﴾ ووقع مناجاتكما في محل القبول، ثنى الضمير؛ لأن هارون يؤمن حين دعا ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ على ما أنتما عليه من الدعوة وإلزام الحجة ولا تفتروا في أمركما هذا، والزما الصبر؛ إذ الأمور مرهونة بأوقاتها ﴿وَلَا تَسْبَحَانِ﴾ في الاستعجال والاستسراع ﴿سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: 89] الأدب مع الله في إلحاحهم واقتراحاتهم في طلبه الحاجات.

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَأَكْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ تُنْجِيكَ يَدُنَا لَنَكُونَنَّ لِمَنْ خَلَقَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبْوَأَ صَدَقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَفْرءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِتَايَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [يونس: 90-95].

﴿و﴾ بعدما تمرنوا بالصبر واستقاموا على ما أمروا مخبتين، فازوا بما ناجوا وطلبوا مؤمليين حين ﴿جَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ﴾ أي: عبرناهم من البحر سالمين، وذلك حين هم فرعون وملاه أن يكبوا على بني إسرائيل ويستأصلوهم بالمرّة، فأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي ليلاً فأسرى بهم، فأخبروا فخرجوا على الفور، فأدركوهم

على شاطئ البحر فأوحينا إلى موسى بضرب العصا ف ضرب، فانفلق واقترب فرقا، فعبروا سالمين، فلما أبصروا انفلاق البحر وعبورهم سالمين ﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ﴾ فاقتحموا في البحر بلا مبالاة وتأمل ﴿بَغْيًا وَعَظْوًا﴾ ظلما وزورا، علوا واستكبارا، فاجتمع البحر وعاد على ما كان فغرقوا ﴿حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ﴾ أي: فرعون ﴿الْفَرْقُ﴾ وآيس من حياته وجزم ألا نجاة له أصلا ﴿قَالَ﴾ في حالة الاضطراب، مصرخا صائحا باكتيا، راجيا الخلاص بمجرد الإقرار: ﴿آمَنْتُ﴾ واعترفت ﴿أَنَّهُ﴾ أي: بأنه ﴿لَا إِلَهَ﴾ يعبد بالحق ﴿إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: 90] المتقادين لما جاء به رسوله.

وحين تفوه بها، هتف هاتف من وراء سرادقات العز والجلال قائلاً: ﴿الآن﴾ أيها الطاغى الغاوى الباغى آمنت حين انقضى وقت الإيمان وانقضى زمانه ﴿وَقَدْ﴾ أخذت على ما ﴿عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ في مدة حياتك ﴿وَكُنْتَ﴾ في زمان طغيانك وعصيانك الذي هو زمان الإيمان والعرفان ﴿مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: 91] بأنواع الفسادات لا من المؤمنين ١٢.

﴿قَالَتِوَمَ﴾ لا ينفعك إيمانك ﴿تَنْجِيكَ﴾ نخرجك من البحر ﴿بِيَدِنَا﴾ بلا روح ونسقطك على الساحل عرياناً ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ﴾ من المتجبرين المتكبرين ﴿آيَةً﴾ زاجرة وعبرة رادعة عن العتو والعناد، صارفة عن الجور والفساد ﴿وَأَنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ الناسين عهدونا وميثاقنا الذي عهدنا معهم في لوح قضائنا ﴿عَن آيَاتِنَا﴾ الدالة على أخذنا وانتقامنا ﴿لِغَافِلُونَ﴾ [يونس: 92] مثلك أيها الطاغى.

﴿و﴾ بعدما أهلكنا فرعون وملأه ﴿لَقَدْ بَوَّأْنَا﴾ أي: مكنا وأسكنا ﴿بَيْنَ إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأ صِدْقٍ﴾ أي: مقعد صدق وموضع ثبوت واستقرار وتمكين على ما تقتضيه نفوسهم وترتضيه عقولهم ﴿و﴾ بعد تمكينهم وتوطيئهم ﴿رَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾^(١) أي: أطياب

(١) قال في التأويلات: أي: من الفيض الرباني الفائض الروح العلوي بأنهما خلقا متصفين بصفات الروح، وما يلي إلى عالم العلوي من الحضرة من صفة الرحمانية فيفيض من الروح على القلب؛ لأن القلب من الروح بمنزلة العرش من الرب وهو محل استواء صفة الرحمانية من الرب يعني: محل ظهوره هذه الصفة الاختصاصية بقبول فيض هذه الصفة أولاً، كذلك مستوى عرش القلب وهو قابل الفيض الروحانية أولاً، فكل ما فاض من صفة الرحمانية على الروح يفيض الروح على القلب والسر.

الأغذية والفواكه ولذائذها ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ في أمر دينهم قبل نزول الكتاب، بل هم متفقون مجتمعون على ما بلغهم رسولهم وهداهم إليه ﴿حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ وأنزل عليهم الكتاب، فاختلَفوا فيه وتفرقوا فرقًا وتحزبوا أحزابًا، وانحرفوا عن طريق الحق وحرفوا الكتاب، سيما نعتك وحليتك وأوصافك يا أكمل الرسل ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ ويحكم عليهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: 93] أي: يفصل بينهم، ويميز محققهم من مبطلهم بالإثابة والعقاب.

﴿فَإِنْ كُنْتَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فِي شَكِّ﴾ وريب ﴿مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ في كتابك من قصصهم وأخبارهم ﴿فَأَسْأَلِ الَّذِينَ يَفْرءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ وارجع إليهم لإزالة شكك وحل شبهتك، وتفحص عنهم حتى تنكشف لك ويتحقق عندك ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ﴾ عند ﴿رَبِّكَ﴾ الصريح المطابق للواقع ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ فيه ﴿مِنَ الْمُفْضَرِّينَ﴾ [يونس: 94] إذ ليس هذا محلاً للشك والارتياب؛ إذ ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: 42] لأنه تنزيل من حكيم عليم.

وبعد ما سمعت ما سمعت ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾ ألبتة ﴿مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ الذين كذبوا بآيات الله ﴿الدالة على كمال قدرته ومثانة علمه وحكمته﴾ ﴿فَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [يونس: 95] الساقطين عن مرتبة الخلافة، النازلين عن درجة أهل المعرفة والتوحيد.

وأما هذه الخطابات والعتابات من الله العليم الحكيم لحبيبه الذي ظهر على الخلق العظيم، وتمكن على الصراط المستقيم، إنما هو حث وترغيب للمؤمنين على ملازمة كتاب الله ومحافظة أوامره ونواهيه، وتثبيت لهم في إيمانهم وتصديقهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٦ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۝١٧ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِيَةً ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۝١٨ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝١٩ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوَفِّيَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلَ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝٢٠﴾ [يونس: 96-100].

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ﴾ أي: ثبتت وجرت ﴿عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل في

سابق علمه ولوح قضائه في كفرهم وشركهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: 96] بدعوتك وتبليغك إليهم الآيات الرادعة الزاجرة والبراهين الساطعة القاطعة.

بل ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ اقترحوها لم يؤمنوا؛ لشدة شكيمتهم وكثافة غشاوتهم ﴿حَتَّى يَرْوَا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: 97] المعد لهم من عند العزيز العليم، فاعرض عنهم يا أكمل الرسل ودعهم وأمرهم، فإننا نتقم منهم.

﴿فَلَوْلَا﴾ أي: فهلا ﴿كَانَتْ قَرْيَةٌ﴾ من القرى التي أهلكوا بظلمهم ﴿آمَنَتْ﴾ حين حلول العذاب عليهم، وظهر أماراته كما آمن فرعون حين غشية اليم ﴿فَنَقَّهَا﴾ في تلك الحالة ﴿إِيمَانُهَا﴾ ونُجِّي به عن العذاب ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا﴾ حين ظهر عليهم أمارات العذاب ولاح علامات الغضب الإلهي، وأخلصوا لله مخبتين خاضعين ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ﴾ الذي يفتضحون به ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ لو لم تكشف ﴿وَوَعَدْنَا الْعَذَابَ عَنْهُمْ﴾ ﴿مَتَّعْنَاهُمْ﴾ بأنواع التمتع مترفين ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: 98] أي: حين حلول الأجل.

وذلك أنه لما بعث يونس إلى «نينوى» قرية من قرى الموصل، كذبوه واستهزءوا به فوعدهم العذاب بعد ثلاث أو أربعين، فلما قرب الموعد خرج من الأفق سحب غليظ وغيم أسود ودخان شديد، فغشي قريتهم، فهابوا هيبة عظيمة، فطلبوا يونس فلم يجدوه فأيقنوا صدقه وهموا إلى الإنابة والتضرع، فلبسوا المسوح وخرجوا إلى الصحراء بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم، وفرقوا بين كل والدها، وحنَّ بعضها إلى بعض فصرخوا، وتضرعوا إلى حيث علت الأصوات والضجيج، وأظهروا الندامة وأخلصوا التوبة، فرحمهم الله وكشف عنهم، وكان يوم عاشوراء، يوم الجمعة.

﴿وَوَعَدْنَا الْكَاذِبِينَ﴾ لا تستبعد يا أكمل الرسل أمثال هذه اللطاف من الله الغفور الرحيم ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ وتعلق إرادته بالإيمان من على الأرض ﴿لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ﴾ بحيث لم يبق على وجه الأرض كافر أصلاً بل يؤمنهم ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين بلا اختلاف وتفرقة، لكن قضية الحكمة تقتضي الاختلاف والافتراق، والكفر والإيمان، والحق والباطل، والهداية والضلال؛ ليظهر سر التكاليفات والتحميلات الواردة من الله على السنة رسله وسر المجازاة في النشأة الأخرى، وحكمة خلق الجنة والنار وجميع الأمور الأخروية ومتى جرت حكمة الله على هذا ﴿أَفَأَنْتَ﴾ يا أكمل الرسل من كمال حرصك على تكثير المؤمنين ﴿تُكْرِهُ النَّاسَ﴾ وتلجئهم إلى الإيمان ﴿حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾

[يونس: 99] جميعًا، مع أن بعضهم مجبولون على الكفر، ولم يتعلق إرادة الله ومشيئته بإيمانهم.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَسِرَ وَوَسِعَ فِي وَسْعِهَا وَطَاقَتُهَا﴾ أن تؤمن بالله باختيارها ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وتوفيقه وإقداره، فعليك يا أكمل الرسل ألا تجهد نفسك في إهداء من أراد الله إضلاله؛ لأنك ﴿لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: 56] وهو العزيز الحكيم ﴿وَمَنْ حَكَمْتَ أَنَّهُ﴾ ﴿يَجْعَلُ الرَّجْسَ﴾ أي: الخذلان والحرمان ﴿عَلَى﴾ الكافرين ﴿الَّذِينَ لَا يَغْقِلُونَ﴾ [يونس: 100] أي: لا يستعملون عقولهم التي هي مناط التكاليف إلى ما خلق لأجله، ولا يتفكرون ويتأملون في الآثار الصادرة من القادر المختار حتى ينكشفوا بتوحيده.

﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾
 ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنْ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ تَتَّبِعِي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّنَكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ [يونس: 101-105].

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل على مقتضى مرتبة النبوة؛ تهيجًا لهم وتحريكًا على استعدادهم وقابليتهم: ﴿انظُرُوا﴾ أيها المجبولون على النظر والتأمل ﴿مَاذَا﴾ أي: أي شيء وذات ظهر بحسب أسمائه وصفاته ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: العلويات والسفليات والغيوب والشهادات ﴿وَمَا تَغْنِي﴾ وتكفي ﴿الآيَاتُ﴾ الدالة على وحدة الذات المتجلي في جميع الكوائن والجهات ﴿وَالنُّذُرُ﴾ المبين للآيات، المنبهين على مدلولاتها ﴿عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: 101] أي: لم يتعلق إرادة الله بإيمانهم وتوحيدهم وعرفانهم.

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ﴾ أي: ما ينتظرون أولئك المتمردون على الإيمان ﴿إِلَّا مِثْلَ﴾ ما وقع على أمثالهم من الخسف والكسف والغرق وغير ذلك من المعاييب التي وقعت في ﴿أَيَّامِ﴾ المشركين ﴿الَّذِينَ خَلَوْا﴾ ومضوا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فإن عارضوا معك بمثل ما

عارضت معهم مثل ما سلف من أسلافهم مع أنبيائهم ورسلمهم ﴿قُلْ﴾ لهم تبيكنا والزأما: ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ لمقتي وهلاكي ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَنْظِرِينَ﴾ [يونس: 102] لكن لمقتكم وهلاككم، فالأمر بيد الله وقبضة قدرته ومشيته.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما أهلكنا الأمم الماضية بتكذيبهم الرسل وإصرارهم على الكفر والشرك ﴿تَنْجِي﴾ مما أصابهم ﴿رُسُلَنَا﴾ الذين أرسلناهم إليهم ﴿وَوَ﴾ تنجي أيضا ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بنا وصدقوا رسلنا وانقادوا بما جاءوا به ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل إنجاننا إياهم ﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ تفضلاً منا وامتناناً على عبادنا ﴿تَنْجِي﴾ جميع ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾⁽¹⁾ [يونس: 103] المنقادين لرسولنا المتدينين بديننا، وعلى ذلك جرت سنتنا.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للمتريدين في أمرك ودينك المتمريدين عن إطاعتك وانقيادك: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ المجبولون على الغفلة والنسيان ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ﴾ وريب ﴿مِنْ دِينِي﴾ الذي هو أسد الأديان وأصحها وأشملها وأشرف الملل وأكملها؛ إذ هو مرجع كل الأديان كما هو مبدؤه؛ لابتناؤه على توحيد الذات التي اضمحلت دونها جميع الكثرات، ومع ظهور فضله وكماله ووضوح حجته وبرهانه وعلو شأنه أنتم تشكون فيه فأننا أحق أن أشك فيما أنتم عليه وعبدتم إليه ﴿فَلَا أَغْبُدُ الَّذِينَ يُعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ لقصورهم عن المعبودية وعدم استحقاقهم للالوهية والربوبية ﴿وَلَكِنْ أَغْبُدُ اللَّهَ﴾ الواحد الأحد الصمد ﴿الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ أي: أعدمكم ومعبوداتكم بعدما أظهركم وإياهم من العدم ﴿وَأَمِزْتُ﴾ من عنده ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 104] الموقنين لتوحيده المنقادين لحكمه.

﴿وَوَ﴾ أيضا أمرت من عنده ﴿أَنْ أَقِمَّ﴾ واستقم ﴿وَجْهَكَ﴾ أي: بوجهك الذي هو يلي الحق ﴿لِلَّذِينَ﴾ الذي أنزل إليك لإصلاح حال كونك ﴿خَنِيفًا﴾ مائلاً على

(1) قال المحقق روزبهان: إن الرسل وأتباعهم من المؤمنين محفوظون بنور عنايته عن اقتحام قهره عليهم، نجاة الأنبياء والمرسلين من حجاب الخطرات، ونجاة العارفين من حجاب الشهوات، ونجاة المؤمنين من غارات إبليس وسلب الشياطين إيمانهم برعايته القديمة المقرونة بمحبته الأزلية إياهم؛ لأن من أحب أحدا حفظه عن مهالك البعد منه. ﴿تَنْجِي رُسُلَنَا﴾ منا، وتنجي المؤمنين من قهرنا الأنبياء في عين الجمع، وهم في عين التفرقة، هم في الذات، وهم في الصفات، وكان ﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ نجاة العارفين؛ لأننا اصطفيانهم في الأزل بالكرامات والولايات، ومن اصطفيناه حقاً علينا الوفاء بما أخبرنا عن أنفسنا في حقه.

جميع الأديان الباطلة والآراء الفاسدة ﴿و﴾ بالجملة: ﴿لَا تَكُونَنَّ﴾ بعدما ظهر عليك حقيقة دينك ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يونس: 105] الذين يدعون الوجود لغير الله ويشركون معه سبحانه وتعالى عنادًا ومكابرة.

﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ (١٠٦) ﴿وَأَنْ يَمَسَّكَ اللَّهُ يَضْرِبَ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (١٠٧) ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا بِمُكَرِّرٍ﴾ (١٠٨) ﴿وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُصِّمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (١٠٩) [يونس: 106-109].

﴿و﴾ متى عرفت حقيقة الحال وظهر عندك جليلة المقال ﴿لَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الواجب وجوده ﴿مَا لَا يَنْفَعُكَ﴾ من الموجودات الباطلة والأظلال الزائلة ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ أيضًا؛ إذ لا أثر لها من ذاتها ولا وجود لها من نفسها ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ﴾ وادعيت وجود غير الحق ﴿فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: 106] الذين يظلمون على الله بادعاء الوجود والأثر لغيره.

﴿و﴾ كيف تدعي وتثبت لغيره وجودًا وأثرًا ﴿إِنْ يَمَسَّكَ اللَّهُ﴾ الرقيب عليك ويصيبك ﴿يَضْرِبُ﴾ يسوءك ويحزنك ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ﴾ ولا يدفع عنك ضرره ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا شيء سواه ولا إله إلا هو ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ يسرك تفضلاً عليك وامتناناً لك ﴿فَلَا رَادَّ﴾ ولا دافع ﴿لِفَضْلِهِ﴾ عنك ﴿يُصِيبُ بِهِ﴾ أي: بالفضل والحسنى ﴿مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ لا يمنع فضله جرائمهم وعصيانهم؛ إذ ﴿هُوَ الْغَفُورُ﴾ لذنوبهم بعد استغفارهم ورجوعهم ﴿الرَّحِيمُ﴾ [يونس: 107] عليهم يقبل توبتهم ويتجاوز عن سيئاتهم.

﴿قُلْ﴾ يا من بُعث لكافة البرايا وأُرسل إليهم بالتوحيد الذاتي الذي ختم به أمر التشريع والإرسال والإنزال، بلغ إليهم ما جئت به من ربك، منادياً عليهم ليقبل بقبوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ المكلفون بالعبادة والعرفان ﴿قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ﴾ الصريح ﴿مِنَ رَبِّكُمْ﴾ وهو الإسلام المبين لشعائر المعرفة والتوحيد ﴿فَمَنِ اهْتَدَى﴾ بالإسلام إلى التوحيد ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ ويكتسب الهداية لها ونال ثوابها إليها ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ ولم يهتدِ

بنور الإسلام ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ ويقترب الضلالة لنفسها، فعاد وبالها عليها، قل لهم أيضاً: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: 108] حفيظ، كفيل لأموركم ضمين لها، بل ما أنا إلا بشير ونذير أبلغكم ما أرسلت به، فلكم الخيار وعليكم الاختيار.

﴿وَاتَّبِعْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ من ربك وامض عليه، وبلغ الناس ﴿وَلَا تَبَالِي بِاعْرَاضِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ﴾ بل ﴿اضْبِرْ﴾ على أذاهم وتحمل مكروهااتهم، ولا تفر عن دعوتك إياهم ﴿حَتَّىٰ يَخُصِّمَ اللَّهُ﴾ المتولي لأمورك بنصرتك وغلبتك عليهم بالقتال وينسخ دينك جميع الأديان وينشره في جميع الأقطار ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يونس: 109] إذ هو مطلع على سرائر الأمور وخفاياها، قادر على جميع الانتقام لمن أراد مقتك وأعرض عنك.

رَبِّ احْكُم بِالْخَيْرِ وَالْحَسَنَىٰ وَوَقْنَا عَلَىٰ مَتَابَعَةِ سَيِّدِ الْوَرَىٰ.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب لتحقيق الحق، العازم على طريق التوحيد والعرفان، المستكشف عن رموز أهل الكشف وأرباب المحبة والولاء - أنجح الله آمالك، ويسر الله مآلك ويصونك عما عليك - أن تحافظ على شعائر دين الإسلام الذي هو الحق الصريح المنزل على خير الأنام بالعزيمة الصحيحة الخالصة عن شوب الرياء والسمعة، الصافية على قدر الغفلة والهوى، وتلازم الاستفادة والاسترشاد من كتاب الله وأحاديث رسوله - صلوات الله عليه وسلامه - وما سمحت به أكابر الصحابة، سيما الحضرة الرضوية المرتضوية وأولاده الكرام - سلام الله عليهم وكرم الله وجوههم - والتابعين لهم بإحسان - رضوان الله عليهم أجمعين - وما جاد به المشايخ العظام والأماجد الكرام، أنار الله براهينهم، وقدس أسرارهم.

وكن في عزمك هذا متوجهاً إلى قبلة التوحيد وكعبة الذات ماثلاً عن الأديان الباطلة والآراء الفاسدة، مصفياً قلبك عن إمارات الكثرة والتعدد إلى حيث ارتفع عنك الالتفات إلى نفسك وشأنك حتى يحل عليك الحيرة المغنية لهويتك في هوية الحق المسقطة لتعينك رأساً، ولا يتيسر لك هذا إلا بالركون عن لوازم الطبيعة والخروج عنها وعما يترتب عليها من اللذات الوهمية والمشتبهات البهيمية التي هي مقتضيات التعينات العدمية والتشخصات الهيولانية.

ومتى صفت شرك وسيرتك عن أمثال هذه المزخرفات العائقة عن الاستغراق في

بحر الذات، فزت بما فزت، وصرت بما صرت، وحكم الله عليك بالخير والحسنى
وأسكنك عند سدرة المنتهى، عندها جنة المأوى، وليس وراء الله مرمى، لا حول ولا
قوة إلا بالله، هو يقول الحق، وهو يهدي السبيل.

ترجمد الله تعالى الجزء الأول من مخطوط تفسير شريف حضرة سلطان

العارفين الشيخ عبد القادر الجيلاني قدس الله سره

سورة هود

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة هود العنيفة

لا يخفى على ذوي البصيرة والاستبصار وأولي الخبرة والاعتبار من المنقطعين نحو الحق، المتأملين في كشف غوامض أسرار توحيده بقدر الاستطاعة والافتقار بتوفيق من الحكيم القدير، المجبولين على الحكمة والتدبير من لدن حكيم خبير، أن مبنى الأمر ومناط هذا الشأن العظيم الذي هو التوحيد والعرفان إنما هو على العبودية والتذلل التام والانكسار المفرط المفضي إلى إفناء الهويات الباطلة في هوية الحق الحقيقي بالحقية وفناء التعينات العدمية فيها، وذلك لا يحصل إلا بمتابعة الرسول البشير والنذير، المؤيد من عند العليم القدير، ليرشدهم ويهديهم بالتوجه والتبتل إلى اللطيف الخبير؛ إذ مرجع الكل إليه كما أن مبدأه من عنده ومصدره لديه ومعاده عليه، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: 6].

لذلك أخبر سبحانه لرسوله المبعوث على كافة الخلق، المبين لهم طريق الرشاد في كتابه المنزل عليه بعد إحكام آياته وتفصيلها؛ تأييداً له وتقوية لأمره، ليهدي به التائبين عن جادة التوحيد، المنصرفين نحوها بمتابعة الشيطان المريد، فقال متمنياً باسمه العظيم ومخاطباً على رسوله الكريم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي أحكم آيات كتابه الدالة على توحيد ذاته لتكون موصلة إليه سبحانه لمن تمسك بها ﴿الرَّحْمَنِ﴾ على عباده بتفصيل تلك الآيات تسهلاً عليهم وتوضيحاً ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم بأمرهم بالعبادة والتذلل ليتحققوا بمرتبة حق اليقين الذي هو الصراط المستقيم.

﴿الرَّكُتُ أَخْرَجْتَ إِلَهُهُ ثُمَّ قُلْتَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ ۝١﴾ لَا تَقْبَلُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُرْ
مِّنْهُ نَذِيرٌ وَنَشِيرٌ ۝٢﴾ وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيَّ يُغْفِرْكُمْ مِّنْ ذُنُوبِهِمْ حَسَنًا إِنَّ أَجَلَ مُّسَيِّئِكُمْ هُوَ كُلُّ
ذِي فَضْلٍ فَضْلُهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ

ثَوَقِيلِرُ ﴿١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢﴾ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٣﴾ [هود: 1-6].

﴿الر﴾ أيها الإنسان الأحق الأليق لإعلاء لواء لوازم أنوار الألوهية وارتفاع رايات رموز أسرار الربوبية بين الأنام بالبيان والتبيان هذا ﴿كِتَابٌ﴾ أنزل إليك لتأييدك في أمرك، مصدق لما في الكتب السالفة جامع لأحكامها ﴿أُخْكِمْتُ﴾ ونظمت ﴿آيَاتُهُ﴾ أشد تنظيم وأبلغ إحكام وإتقان بحيث لا يعرضه خلل واختلال لا في معناه ولا في لفظه؛ لذلك عجزت عن معارضته جميع أرباب اللسن والفصاحة مع وفور وعيهم ﴿ثُمَّ﴾ بعد إحكامه لفظاً ومعنى ﴿فُصِّلْتُ﴾ وأوضحت فيه من المعارف والحقائق والأحكام المتعلقة بالعقائد والعلوم اليقينية، والقصص المشيرة إلى العبر والمواعظ والأمثال المشعرة إلى الرموز والإشارات ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ﴾ متقن في أفعاله ﴿خَيْرٍ﴾⁽¹⁾ [هود: 1] يصدر عنه الأفعال على وجه الخبرة والاعتبار.

وحكم فيه ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ أيها المجبولون على العبادة في الفطرة الأصلية ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾ الواحد الأحد الصمد، الذي أوجدكم من كتم العدم باستقلاله إبداعاً إبداعياً، وقل لهم يا أكمل الرسل تبشيراً وتنبيهاً: ﴿إِنِّي﴾ مع كوني من جملتكم ﴿لَكُمْ مِّنْهُ﴾ أي: من الله المتوحد بذاته بأمره ووحيه ﴿نَذِيرٌ﴾ أنذركم عما يبعدكم عن الحق، حتى لا تستحقوا عذابه وعقابه ﴿وَبَشِيرٌ﴾ [هود: 2] أبشركم ما يقربكم إلى جنابه، حتى تستحقوا الفوز العظيم من عنده.

(1) قال في التاويلات: ﴿الر﴾ يشير بالالف: إلى الله، وباللام: إلى جبريل، وبالراء: إلى الرسول؛ يعني: ما أنزل الله مع جبريل إلى الرسول، ﴿كِتَابٌ أُخْكِمْتُ آيَاتُهُ﴾ يعني: القرآن كتاب أحكمت بالحكم آياته، كقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: 151] فالكتاب: هو القرآن، والحكمة: هي الحقائق والمعاني والأسرار التي أدرجت في آياته، ﴿ثُمَّ فُصِّلْتُ﴾ أي: بينت لقلب العارفين تلك الحقائق والحكم ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ﴾ [هود: 1] أودع فيها بالحكمة البالغة التي لا يقدر غيره أبداً عليها فيها، وهذا سر من أسرار إعجاز القرآن، ﴿خَيْرٍ﴾ [هود: 1] على تعليمها من الله لمن يشاء من عباده كقوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ جِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: 65] يشير إلى أن القرآن ظهرًا يطلع عليه أهل اللغة.

﴿و﴾ حكم فيه أيضا ﴿أَنِ اسْتَغْفِرُوا﴾ واسترجعوا في فرطاتكم ﴿رَبِّكُمْ﴾ الذي أوجدكم على فطرة المعرفة والتوحيد ﴿ثُمَّ تُؤْتُوا إِلَيْهِ﴾ وتوصلوا به بعد رفع حجب الأنانية عن البين، وكشف سدل التعينات الوهمية عن العين ﴿يُمَتِّعْكُمْ﴾ بعد اضمحلال رسومكم ونلاشي هوياتكم في هويته بالرزق المعنوي والغذاء الحقيقي من عنده ﴿مُتَاعًا حَسَنًا﴾ على مقتضى نشأته وأوصافه وأسمائه وتطورات تجلياته الجمالية والجلالية ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو الطامة الكبرى التي انقهرت دونها توهمات الأظلال وتخيلات السوى والأغيار.

﴿و﴾ بعد تسيركم وتنزيلكم من عالم الغيب متنازلين إلى عالم الشهادة لاقتراف الحقائق والمعارف، وترجيحكم منها إليها متصاعدين إظهارًا لقدرته وبسطته ﴿يُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ﴾ أي: ليؤت ويعط كلاً من ذوي العناية الموفقين على الهداية التي جبلوا لأجلها ﴿فَضْلَهُ﴾ أي: حقه وجزائه، أي: قبل منهم ما اكتسبوا من الحقائق والمعارف والمكاشفات والمشاهدات وأقرهم في النهاية على مقر نزلوا منه في الهداية ﴿و﴾ قل لهم يا أكمل الرسل إحاضاً للنصح: ﴿إِنْ تَوَلَّوْا﴾ وتعرضوا وتنصرفوا أيها المجبولون على التكليف عن مقتضى إنذاري وتبشيري ﴿فَإِنِّي﴾ من غاية إشفائي لكم وتحتي نحوكم ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: 3] أي: نزول العذاب يوم العرض الأكبر الذي أشرقت فيه شمس الذات إلى حيث اضمحلت الأظلال والعكوس مطلقاً، ونودي من وراء سرادقات العز والجلال بلا تراحم الأظلال والأغيار: ﴿لَيَمُنَّ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ وأجيب أيضاً من ورائها: ﴿إِلَهُ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: 16].

واعلموا أيها الأظلال المقهورة ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، المتجلي في الآفاق بالاستقلال والاستحقاق ﴿مَزْجِعُكُمْ﴾ ورجوعكم رجوع الظل إلى ذي الظل والعكوس إلى ما انعكس منها ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه في ذاته قاهر فوق عباده ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من صور العذاب والانتقام ﴿قَدِيرٌ﴾ [هود: 4] لا يخرج عن حيطه قدرته شيء، ولا يعزب عن علمه معلوم، مما جرى عليهم من الأحوال.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ﴾ أي: المحجوبون الغافلون من غاية جهلهم وغفلتهم عن الله ﴿يَشْتُونَ﴾ أي: يقطعون وينحرفون ﴿ضُدُّوهُمْ﴾ عن الميل إلى الحق والتوجه نحوه طالبين ﴿لِيَسْتَحْفُوا مِنْهُ﴾ أي: يستروا ويخفوا من الله ما تكمن صدورهم من الإعراض عن الحق بأوامره ورسله ﴿أَلَا﴾ إنهم لم يعلموا ولم يتفطنوا أن الله المطلع بجميع ما

جری فی ملکہ یعلم منهم ما جری علیهم وظهر منهم ﴿جِئْنَ یَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ أي: يطلبون التذثر والتغطي وقت رقودهم فی مضاجعهم، بل ﴿يَعْلَمُ﴾ منهم ﴿مَا يُسْرُونَ﴾ فی ضمائرهم ﴿وَمَا يُغْلِثُونَ﴾ بأفواههم ومشاعرهم، وكيف لا یعلم سبحانه ﴿إِنَّهُ﴾ بذاته وأوصافه وأسمائه ﴿عَلِيمٌ﴾ بعلمه الجسوري ﴿بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [هود: 5] وبما هو مكنون فیها من السرائر والضمائر.

﴿وَ﴾ كيف يستبعد أمثال هذا من حیطة حضرة علمه؛ إذ ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ ترك ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ مثلاً ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ المتكفل لأرزاق مظاهره ومصنوعاته ﴿رِزْقُهَا﴾ أي: ما تعيش وتتقوم به ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿يَعْلَمُ﴾ منشأها ومصدرها فی عالم الغیب، ویعلم أيضاً ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾ أي: محل قرارها وبقائها فی عالم الشهادة، ومقدار ثباتها واستقرارها فیها ﴿وَ﴾ یعلم أيضاً ﴿مُسْتَوْدَعَهَا﴾⁽¹⁾ ومرجعها فی عالم الغیب بعد انقضاء النشأة الأولى، وبالجمله: ﴿كُلُّ﴾ من الأحوال والأطوار والنشأة الطارئة علیها بحیث لا یشد شیء منها محفوظ مثبت ﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: 6] هو حضرة علمه ولوح قضائه، فكيف تنكرون أيها المنكرون إحاطة علمه، وتستخفون منه شیئاً من مخایلكم؟!.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ يَبْتَليكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِصُهُ إِلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَدْخَلْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ مَّا رَحِمَهُ ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُونُ

(1) قال الشيخ نجم الدين كبرى في التأويلات: يعلم الذي تؤل إليه عند استكمال صورتها ومعناها المستودع فيها، وللإنسان خاصة يعلم مستقر روحه في عالم الأرواح أكان في الصف الأول، أو في الثاني، أو في الثالث، أو في الرابع، فإنه جاء في معنى حديث النبي ﷺ أنه قال: «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف، إن الأرواح كانت في أربعة صفوف: كان في الصف الأول: أرواح الأنبياء وأرواح خواص الأولياء، وفي الصف الثاني: أرواح الأولياء وأرواح خواص المؤمنين، وفي الصف الثالث: أرواح المؤمنين والمسلمين، وفي الصف الرابع: أرواح الكفار والمنافقين، ويعلم مستودع روحه عنه استكمال مرتبة كل نفس منهم من دركات النيران، ودرجات الجنات إلى مقدر صدق عند ملك مقتدر.

كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴿[هود: 7-11].

﴿٩﴾ أني يعزب ويغيب عن علمه شيء ١٩ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ﴾ أي: أظهر وأبدع ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: العلويات والسفليات اللتين هما بمثابة الآباء والأمهات والفواعل والقوالب لنشأتكم وظهوركم ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ ليحيط بالجهات كلها ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ﴾ أي: مجلاه ومحل بروزه على الماء، وتشعشع تجلياته قبل ظهور هذه المظاهر والمكونات ﴿عَلَى الْمَاءِ﴾ أي: على الحياة الحقيقية الخالية عن التغيرات والانقلابات المتوهمة من التعينات العدمية والتشخصات الهيولانية، وإنما أظهرها على هذا التمثال وأوجدما على هذا المنوال ﴿لِيَبْلُوكُمُ﴾ ويختبركم أيها الأظلال والعكوس ﴿أَيُّكُمُ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وقبولا، وأتم توجهها ورجوعا، وأكمل تحققا ووصولا في يوم الجزاء.

﴿١٠﴾ بعدما نبههم الحق على ما هو الحق، وأوجدهم على فطرة الفطنة والذكاء بمبدئهم ونشأتهم الأصلية ﴿لَئِنْ قُلْتَ﴾ يا أكمل الرسل تذكيرا لهم وإصلاحا لحالهم: ﴿إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ﴾ للحساب والجزاء وتنفيذ الأعمال، فعليكم أن تنهأوا لها وتدخلوها لأجلها حتى لا تؤاخذوا ولا تعاقبوا ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ منهم من كمال غفلتهم وقسوتهم بعدما سمعوا منك قولك هذا: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [هود: 7] عظيم؛ إذ إحياء الموتى من العظام الرفات لا يتصور إلا بالسحر الخارق للعادات، فإن وقع فهو في غاية العظمة ونهاية الغرابة.

﴿١١﴾ بعدما استوجبوا لأسوأ العذاب واستحقوا لأليم العقاب بكفرهم وإنكارهم ﴿لَئِنْ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ﴾ المعد لهم؛ أي: إتيانه ﴿إِلَىٰ أُمَّةٍ﴾ أي: جماعة من الأيام والأوقات ﴿مُغْدُوذَةٍ﴾ قلائل ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ مستهزئين مستسخرين من غاية جهلهم وإنكارهم: ﴿مَا يَخْبِئُنَا﴾ أي: يمنعنا عن إتيان ما يدعيه من العذاب ووقوع ما يعد به من الأخذ والبطش ﴿أَلَا﴾ تنبهوا أيها المؤمنون وتذكروا ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ العذاب، واعلموا يقينا أن العذاب ﴿لَيْسَ مَضْرُوقًا عَنْهُمْ﴾ حيثذ، ساقطا عن ذمتهم، بل نزل عليهم ﴿وَحَاقَ﴾ وأحاط ﴿بِهِمْ﴾ حتما ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [هود: 8] من العذاب الموعود

وقت إنذار الرسول.

﴿وَمِنْ غَايَةِ لُطْفِنَا وَجُودِنَا إِلَى الْإِنْسَانِ، وَنَهَايَةِ إِحْسَانِنَا مَعَهُ وَتَفَقُّدِنَا لِحَالِهِ ﴿وَلَيْنِ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ الْمَجْبُولِ عَلَى النِّسْيَانِ وَالْكَفْرَانِ وَأَعْطَيْنَاهُ ﴿مِمَّا رَحِمْنَا﴾ وَنِعْمَةً تَسْرَهُ وَتَفْرَجُ هَمَّهُ ﴿ثُمَّ نَرْغَاهَا مِنْهُ﴾ وَمَنْعْنَاهَا عَنْهُ؛ إِظْهَارًا لِقُدْرَتِنَا وَكَمَالِ بَسْطَتِنَا ﴿إِنَّهُ﴾ مِنْ قَلَّةِ تَصْبِرِهِ وَغَايَةِ ضَعْفِهِ وَتَكْسَرِهِ ﴿لَيُثْوَمَنَّ﴾ قَنُوطٍ مِنْ فَضْلِنَا وَرَحْمَتِنَا ﴿كَفُورٌ﴾ [هود: 9] لَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِ مِنْ نِعْمَتِنَا.

﴿وَلَيْنِ أَذَقْنَاهُ﴾ وَأَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴿نِعْمَاءَ بَعْدَ ضُرَاءَ مُسْتَهَةٍ﴾ أَي: أَعْجَزْتَهُ وَأَزْعَجْتَهُ ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ مَفْتَحِرًا مَبَاهِيًا بَطْرًا ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ﴾ الْمُؤَلِّمَةِ الْمُحْزَنَةِ ﴿عَنِّي إِنَّهُ﴾ مِنْ غَايَةِ غَفْلَتِهِ عَنِ الْمُنْعَمِ ﴿لَفَرِحَ﴾ بَطْرُ فَرِحَانٍ ﴿فَخُورٌ﴾ [هود: 10] مَغْرُورٌ مَفْتَحِرٌ بِمَا فِي يَدِهِ مِنَ النِّعَمِ، مَشْغُولٌ بِهَا عَنْ شُكْرِهَا وَأَدَاءِ حَقِّهَا.

﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ مِنَ السَّيِّئَاتِ الْمُؤَلِّمَةِ، وَاسْتَرْجَعُوا إِلَى اللَّهِ لِكَشْفِهَا ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وَوَاضَبُوا عَلَى الْخَيْرَاتِ وَالْحَسَنَاتِ وَدَاوَمُوا عَلَى الْإِثَارِ وَالصَّدَقَاتِ؛ شُكْرًا لَمَّا أَنْعَمْنَا عَلَيْهِمْ ﴿أُولَئِكَ﴾ السَّعْدَاءُ الصَّابِرُونَ عَنِ الْبَلَاءِ، الشَّاكِرُونَ عَلَى النِّعْمَاءِ ﴿لَهُمْ مُغْفِرَةٌ﴾ أَي: سِتْرٌ وَمَحْوٌ لَذُنُوبِهِمُ الَّتِي مَضَتْ عَلَيْهِمْ ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: 11] هُوَ الرِّضَاءُ مِنْهُمْ تَفَضُّلاً عَلَيْهِمْ وَامْتِنَانًا.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ وَادْعُوا مَنِ اسْتَلْعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِنْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَنْزَلَ يَعْلَمُ اللَّهُ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفٍ إِلَيْهِمْ أَعْمَلْتُمْ فِيهَا وَهَرَفَهَا لَا يُتِّخِذُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطِلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: 12-16].

﴿فَلَعَلَّكَ﴾ يَا أَكْمَلَ الرُّسُلِ مِنْ غَايَةِ وَدَادِكَ إِيْمَانِهِمْ وَمَحَبَّتِكَ مُتَابِعَتِهِمْ ﴿تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ مِنْ عِنْدِنَا، مُشْتَمَلًا عَلَى تَوْبِيخِهِمْ وَتَقْرِيعِهِمْ وَزَجْرِهِمْ وَتَشْنِيعِهِمْ؛ كِرَاهَةً أَنْ يَرْكَنُوا عَنْكَ وَيَنْصَرِفُوا عَنْ مُتَابِعَتِكَ ﴿وَضَائِقٌ﴾ أَي: بِسَبَبِ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ

﴿بِهِ صَدْرُكَ﴾ مخافة ﴿أَنْ يَقُولُوا﴾ حين أظهرت عليهم بما أوحيت به: ﴿لَوْلَا﴾ أي: هلا ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتْرًا﴾ بدل هذه التوبييخات والتفريعات من عند ربه ليتابع الناس له ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ مصدق لنبوته ورسالته ليطيعوا ويؤمنوا له طوعًا بلا كلفة، لا تبالٍ يا أكمل الرسل بهم ويقولهم ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ بلغ ما أنزل إليك من إنذارهم وتخويفهم، ولا تلتفت إلى ردهم وقبولهم، وتوكل على دينك وثق به، فإنه يكفي عنك مؤنة شرورهم وضررهم ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ صدر عنهم ﴿وَكِيلٌ﴾ [هود: 12] عليهم يعلم منهم ما هو مستوجب العقوبة والعذاب، وما هو قوي للنوال والثواب، يجازيهم على مقتضى علمه وخبرته، أو لم يكف بتصديقك القرآن المعجز لأرباب اللسن والبيان في تشددهم في المعارضة والمقاتلة.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ مكابرة وعنادًا: ﴿افْتَرَاءُ﴾ واختلقه من تلقاء نفسه ونسبه إلى الوحي ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل حين نسبوك إلى الافتراء والاختلاق: ﴿فَاتَّبَعُوا﴾ أيها المكابرون المعاندون ﴿بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ﴾ أي: مثل أقصر سورة من سور القرآن ﴿مُفْتَرِيَاتٍ﴾ مختلفات على ما زعمتم مع أنكم أحق باختلافها؛ لكثرة تمرنكم وتزاولكم في أمر الإنشاد والإنشاء، وتتبع كلام البغاء والتعود بممارسة القصص والقصائد، وإن عجزتم عن اختلافها بأنفسكم، فاستظهروا بإخوانكم ومعاونيكم ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ واتفقوا معهم في اختلافها ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: 13] في ظنكم هذا. ﴿فَإِنْ لَمْ يَنْتَهِبُوا لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ولم يأتوا بما تحدثتم لهم ﴿فَاغْلَبُوا﴾ أيها المؤمنون واطمأنوا وتيقنوا ﴿أَنَّمَا أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ ويكمال قدرته وإرادته، لا يمكن لأحد من مظاهره ومصنوعاته أن يأتي بمثله ويعارض معه، وكيف لا يعارض معه؛ إذ لا شيء سواه ﴿وَأَنْ لَا إِلَهَ﴾ في الوجود ﴿إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْصِلُونَ﴾ [هود: 14] منقادون لحكمه مسلمون أموركم كلها إليه، مخلصون مطمئنون، متمكنون في جادة التوحيد، بل أنتم أيها الموحدون المحمديون هكذا.

ثم قال سبحانه على سبيل العظة والتذكير: ﴿مَنْ كَانَ﴾ بارتكاب الأعمال واحتمال شدائدها ومتاعبها ﴿يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّاتَهَا﴾ المزخرفة التي تترتب عليها من الأموال والأولاد ﴿تُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا﴾ لأجلها ﴿وَهُمْ لَا يَتَخَسَّبُونَ﴾ [هود: 15] أي: لا ينقص شيء من أجور أعمالهم في النشأة الأولى إن كان غرضهم مقصورًا عليها، محصورًا بها.

وأما في النشأة الأخرى ﴿أُولَئِكَ﴾ القاصرون المقصرون هم ﴿الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: لم يبقَ لهم مما يترتب على أعمالهم فيها ﴿إِلَّا النَّارُ﴾ إذ حسناتهم توفى إليهم في النشأة الأولى ولم يبقَ لهم إلا توفية السيئات، وليس توفية السيئات إلا بالنار وما يترتب عليها من العذاب والآلام ﴿وَوَ﴾ بالجملة: ﴿حَبِطَ﴾ وضاع واضمحل ﴿مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ أي: في النشأة الأولى من الخيرات والمبرات بإرادتهم الأمور الدنيوية لأجلها ﴿وَوَ﴾ صار بعدم إصلاحهم وعكس مرادهم ﴿بَاطِلٌ﴾ فاسد مقتضى ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: 16] من الصالحات فيها، وإن ظهر على صورة الصالحات.

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كُتِبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٧) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (١٨) ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن مَّسِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (١٩) [هود: 17-19].

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ (١) أي: تظنون وتحسبون أن من انكشف له برهان واضح وكشف صريح وشهود محقق من قبل ربه، وتحقق بمقام التوحيد، وبسريان وحدة الذات في جميع الكائنات والفاقدات ﴿وَوَ﴾ مع ذلك ﴿يَتْلُوهُ﴾ يقرأ عليه ويجري على لسانه ﴿شَاهِدٌ﴾ ناطق بتصديقه نازل ﴿مِّنْهُ﴾ أي: من عند ربه؛ امتناناً له وتفضلاً عليه، يريد ويقصد من أفعاله وأعماله الصادرة عنه ظاهراً مثل ما أراد أولئك المحجوبون المستورون عن الحق، وإحاطته وشموله واستقلاله في الآثار الظاهرة في

(1) قال ابن عجيبة في «البحر المديد»: أي: من شهد مقام الله بالبيان، فقام له بشهادة الإيقان، فليس هذا كمن زين له سوء عمله، واتبع هواه، فأثره على طاعة مولاه. بل هذا قائم بشهادته، متبع لشهيدته، مستقيم على محبة معبوده. وقال الورتجبي: تقدير الآية على وجه الاستفهام: أفمن كان على بينة من ربه كمن هو في الضلالة والجهالة؟ أفمن كان على معرفة من ربه، وولاية وسلامة وكرامة، وكل عارف إذا شاهد الحق سبحانه بقلبه وروحه، وعقله وصره، فأدرك فيض أنوار جماله، وقربه، يؤثر ذلك في هيكله حتى يبرز من وجهه نور الله الساطع، ويراه كل صاحب نظر.

الآفاق، كلا وحاشا ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 9] وما يتذكر إلا أولو الألباب.

﴿وَ﴾ كيف ينكرون شهادة القرآن على تصديق خير الأنام؛ إذ ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: من قبل القرآن جاء ﴿كِتَابُ مُوسَى﴾ من قبل مصداقاً له في دعواه وصار من عموم حكمه ﴿إِنَّمَا﴾ أي: قدوة لقاطبة الأنام ﴿وَرَحْمَةً﴾ شاملة للخواص والعوام؛ لإهدائهم إلى دار السلام ﴿أُولَئِكَ﴾ أي: أهل التوراة، وهم الذين يؤمنون بها ويمثلون بما فيها ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: بحقية القرآن لكونه مذكوراً في التوراة المنزل عليهم ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾ أي: القرآن وبحقيقته ﴿مِنَ الْأَخْزَابِ﴾ المتحزبين مع المحرفين للتوراة، المنحرفين عن جادة الإيمان ﴿فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ لا بد أن يرد عليها على مقتضى العدل الإلهي ﴿فَلَا تَكُ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فِي مِزَانٍ﴾ شك وارتباب ﴿مِثْقَالِ﴾ أي: من ورودهم عليها إنجازاً لوعده ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ﴾ النازل ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ لا بد أن يتحقق وقوعه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ لانهماكهم في الغفلة وغلظ حجابهم عن الله ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: 17] بحقيقته وحقية وعده وإنجازه الموعود؛ لذلك حرفوا ما جاء من عنده في كتابه، وزادوا عليه ما لم يجيء منه.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ على الله ﴿مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ عمداً، وحرف كتابه بتقصيص شيء منه أو زيادة عليه ﴿أُولَئِكَ﴾ المحرفون المجترئون على الله بتبديل آياته ﴿يُفَرِّضُونَ﴾ في يوم العرض الأكبر ﴿عَلَى رَبِّهِمْ﴾ ويسألون عما فعلوا بكتاب الله، فينكرون ويستترهون أنفسهم عنه ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ﴾ من أعضائهم وجوارحهم إلزاماً لهم: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ المسرفون المعاندون ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ وحرفوا كتابه افتراء ومراء، ظلمًا وعدوانًا، وبعد إشهاد هؤلاء الأشهاد، نودي من وراء سرادقات العز والجلال؛ تفضيخاً لهم وتخذيلاً على رهوس الأشهاد: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ وطرده وإبعاده عن سعة رحمته ﴿عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: 18] المجاوزين عن مقتضى حكمه وحكمته عنادًا ومكابرة.

وهم ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾ ويصرفون عباد الله ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الذي هو الشرع المنزل من عنده على أنبيائه ورسله بالعدالة والتقويم ﴿وَيَتَّبِعُونَهَا غَوَجًا﴾ أي: يريدون أن يحدثوا فيها عوجًا وانحرافًا؛ ليصرفوا ويرتدوا منها أهلها بعد إيمانهم بها وانقيادهم إليها فاستحقوا العذاب والنكال الآخروي ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُمْ بِالْآخِرَةِ﴾ المعدة

للجزاء والانتقام ﴿هُم كَافِرُونَ﴾ [هود: 19] منكرون لخبث طبيعتهم ورداءة فطرتهم.

﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَزَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخَسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ * مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَصْصِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [هود: 20-24].

﴿أُولَئِكَ﴾ البعداء المسرفون المفترون على الله، المفرطون في تحريف كتابه ﴿لَمْ يَكُونُوا﴾ من أهل الإعجاز حتى صاروا ﴿مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ كل من تحدى معهم ويعارضهم ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ حتى ينصروهم ويحفظوهم عن عذاب الله إياهم إن تعلق إرادته بتعذيبهم في الدنيا، وإنما أمهلهم وأخر عذابهم إلى يوم الجزاء؛ ليقتربوا من موجباته وأسبابه أكثر مما كانوا عليه، حتى يدوم وبالها لأجلهم، بل ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ لأنهم بسبب إعراضهم عن الحق ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ لأن في آذانهم وقرا عن استماعه ﴿وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: 20] لتعاميهم عن أبصار آثاره ودلائله.

وبالجملة: ﴿أُولَئِكَ﴾ المعزولون عن استماع كلمة الحق وإبصار علاماته هم ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالافتراء على الله بما لا يليق بجنابه بإشراك مصنوعات معه في استحقاق العبادة ﴿وَمَعَ ذَلِكَ﴾ وغباب ﴿عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [هود: 21] من الآلهة الباطلة، ولم يبقَ لهم سوى الندامة والخسران.

لذلك ﴿لَا جَزَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخَسَرُونَ﴾ [هود: 22] المقصرون على الخسران والحرمان، ألا ذلك هو الخسران المبين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله وفوضوا أمورهم كلها إليه ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المقربة لهم إلى جنابه ﴿وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: تضرعوا له مطمئنين خاشعين ﴿أُولَئِكَ﴾ السعداء المقبولون الصالحون، المصالحون الخاشعون المخبتون ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ التي هي دار السعداء ﴿هُم فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [هود: 23] دائمون مطمئنون متمكنون لا

خوف عليهم ولا هم يحزنون.

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ أي: المؤمن والكافر في السعادة والشقاوة والهداية والضلال
﴿كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾⁽¹⁾ كل مع نقيضتها ﴿هَلْ يَشْتَوِيَانِ﴾ كل من
النقيضين ﴿مَثَلًا﴾ أيها العقلاء ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: 24] التفاوت والتفاضل حتى
تنبهوا وتتفطنوا.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِلَىٰ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾^(٢٥) ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾^(٢٦) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرِيكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرِيكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاؤُنَا بِأَدْوَىٰ الرَّأْيِ وَمَا نَرِي لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾^(٢٧) قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَتَقَوْمٍ رَبِّي وَهَ الْتِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنزَلْنَاهُمْ مَكْمُومًا وَأَنشَرْنَاهُمْ كَارِهُونَ﴾^(٢٨) [هود: 25-28].

﴿و﴾ من عدم تذكر الإنسان وتوغله في الغفلة والنسيان ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾
الناجي عما سوى الحق، المنجي للمهالكين في تيه الضلال ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ حين ظهر
عليهم أمارات الكفر والعصيان، ولاح فيهم علامات الظلم والطغيان قائلاً لهم على
وجه العظة والنصيحة: ﴿إِنِّي﴾ من غاية إشفائي وعطفي ﴿لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ أنذركم من طول
العذاب ونزول غضبه بسبب ظلمكم وكفركم ﴿مُبِينٌ﴾ [هود: 25] مظهر مبين لكم ما
يوجب تعذيبكم من أفعالكم وأعمالكم الدالة على كفركم وشرككم.

فعليكم أيها المسرفون المفرطون ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا﴾ ولا تتوجهوا ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾
الواحد الأحد الصمد، الذي لا شريك له ولا شيء سواه، ولا تشركوا به غيره ﴿إِنِّي﴾

(1) فمثل الكافر كمن جمع بين العمى والصمم، ومثل المؤمن كمن جمع بين السمع والبصر. فالواو
لعطف الصفات، ويجوز أن يكون شبه الكافر بمن هو أعمى فقط، وبمن هو أصم فقط والمؤمن
بضدهما، فهو تمثيل للكافرين بمثاليين، قاله ابن جزى. وقال اليبضاوي: يجوز أن يراد به تشبيه
الكافر بالأعمى؛ لتعاضده عن آيات الله، وبالأصم لتضامنه عن استماع كلام الله، وتأنيبه عن تدبره
معانيه. أو تشبيه المؤمن بالسميع والبصير؛ لأن أمره بالصدق، فيكون كل منهما مثبهاً باثنين
باعتبار وصفين. أو تشبيه الكافر بالجامع بين العمى والصمم، والمؤمن بالجامع بين ضديهما،
والعاطف لعطف الصفة على الصفة. البحر المديد (3/ 40).

﴿٣٢﴾ [هود: 29-32].

﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على تبليغي وإرشادي إياكم وإهدائي لكم ﴿مَالًا﴾ جعلاً وأجرًا ﴿إِنْ أَجَرْتُمْ﴾ أي: ما أجري ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ الذي أمرني به وبعثني لتبليغيه ﴿وَأَنْ أَرْتُمْ أَنْ أَطْرِدَ مِنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاعْلَمُوا أَنِّي﴾ ما أنا بطارد للذين آمنوا ﴿وَلَيْسَ فِي وَسْعِي طَرْدُهُمْ وَكَيْفَ أَطْرِدُهُمْ﴾ [إنهم] من غاية سعادتهم وصلاحهم ﴿مُتْلِقُوا رَبِّهِمْ﴾ الذي وفقهم على الإيمان والهداية، فيخاصمون مع طاردهم ويتقمون عنه ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ﴾ من خبث باطنكم ﴿قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [هود: 29] تنكرون لقاء الله وحوله وقوته وإعائه للمظلوم وانتقامه للظالم الطارد.

﴿وَيَا قَوْمِ﴾ المكابرين المعاندين في طلب طرد المؤمنين الموقنين ﴿مَنْ يَنْصُرُنِي﴾ ^(١) ويدفع عني ﴿مِنْ﴾ عذاب ﴿اللَّهِ﴾ ويطشه وانتقامه ﴿إِنْ طَرَدْتُهُمْ﴾ ابتغاء لمرضاتكم ومواساة لكم بلا إذن وارد من قبل الحق، ووحى نازل من عنده ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ^(٢) [هود: 30] أيها المجبولون على العقل المفاض، المستلزم للتوحيد والعرفان لينكشف الأمر عنكم، وتعرفوا وخامة عاقبة التماسكم طرد المؤمنين وتوفيقكم الإيمان عليه.

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ مدعيًا بعدم طرد المؤمنين الفاقدين حطام الدنيا ﴿عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ فأغنيهم بها، لذلك لم أطردهم ﴿وَلَا أَخْلُمُ الْغَيْبَ﴾ أي: لا أدعي الاطلاع على غيوب أحوالهم في مآلهم حتى يكون سبب ودادي لهم ﴿وَلَا أَقُولُ﴾ لكم مباهاة ومفاخرة: ﴿إِنِّي مُلْكٌ﴾ حتى تقولوا: ما أنت إلا بشر مثلنا ﴿وَلَا أَقُولُ﴾ أيضًا ﴿لِلَّذِينَ﴾

(١) قال في التاويلات: أي: من يمنعني من عذاب الله وقهره إن منعت البدن من الطاعة والعبودية، واقتصر على تجرد يقين النفس وتخليقها بأخلاق الروح كما هو معتقد أهل الفلاسفة وأهل الإباحة بأن يقولوا: إن أصل العبودية معرفة الربوبية وجمعية الباطن والتحلية بالأخلاق الحميدة، فلا عبرة للأعمال البدنية كذبوا الله ورسوله فضلوا وأضلوا كثيرًا، وإن القول ما قال المشايخ: الظاهر عنوان الباطن، وقال النبي ﷺ: «لا يستقيم إيمان أحدكم حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، ولا يستقيم لسانه حتى تستقيم أعماله» يعني: أركان الشريعة على جوارحه.

(٢) وفي التاويلات أيضًا: أن جمعية الباطن واستقامة الإيمان من نتائج استعمال الشريعة في الظاهر، والجمعية الحقيقية في الباطن هي المتولدة من الأنوار المودعة في أركان الشرع يسري إلى الباطن عند استعمال الشريعة في الظاهر وإن الله تعالى أودع النور في الشرع والظلمة في الطبع، وإنما بعث الأنبياء ليخرجوا الخلق من ظلمات الطبع إلى نور الشرع.

أي: للمؤمنين الذين ﴿تَزِدِّي أَخْيُتْكُمْ﴾ أي: استرذلتموهم، وتقولون في حقهم: ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي: ﴿لَنْ يُؤْتِيَهُمْ﴾ ويعطيهم ﴿اللَّهُ خَيْرًا﴾ في الدنيا والآخرة؛ إذ حالهم ومآلهم من الغيوب التي استأثر الله بها ولم يطلعني عليها؛ إذ ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ من الإخلاص والرضا، وما لي علم بحالهم إلا بوحى الله وإلهامه، ولم يوح إلي شيء من أحوالهم، وإن تفوهت عنهم وعن أحوالهم بلا وحي ﴿إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: 31] المجترئين على الله في ادعاء الاطلاع على غيبه رجماً به.

وبعد ما سمعوا من نوح عليه السلام ما سمعوا ﴿قَالُوا﴾ من فرط عتوهم وعنادهم: ﴿يَا نُوحُ﴾ نادوه استهانة واستحقاراً ﴿قَدْ جَادَلْتَنَا﴾ وخاصمتنا بالمقدمات الكاذبة الوهمية ﴿فَاكْثَرْتَ﴾ علينا ﴿جِدَالَنا﴾ وبالغت فيها وتماديت ﴿فَأْتِنَا﴾ أيها المكثر المفرط ﴿بِمَا تَعِدُّنَا﴾ من العذاب، فلما لن نؤمن بك ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود: 32] في دعواك.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (٣٣) ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٣٤) أم يقولون أفترينه قل إن أفتريته فعلى إجماعي وأنا بريء مما تجرمون (٣٥) وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتسبب بما كانوا يفعلون (٣٦) وأصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون (٣٧) [هود: 33-37].

﴿قَالَ﴾ نوح متأسفاً متحزناً، آيساً من إيمانهم: يا قوم لست بآت بموعد حتى تعجزوني وتضطروني وتستعزئوا بي، بل ﴿إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ﴾ أي: بالعذاب الموعود ﴿اللَّهُ﴾ المنتقم منكم ﴿إِنْ شَاءَ﴾ انتقامكم وتعلق إرادته لهلاككم ﴿وَمَا أَنْتُمْ﴾ حين غضبه سبحانه عليكم ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود: 33] الله في فعله وأخذه؛ إذ هو القاهر فوق عباده، بل أنتم حيث عجزون ومضطرون مقهورون.

﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ﴾ اليوم ﴿نَصْحِي﴾ لئلا يلحقكم ما سيلحقكم حين حلول العذاب ﴿إِنْ أَرَدْتُ﴾ وأحييت ﴿أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ﴾ لأحفظكم ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ أي: لا ينفعكم نصحي اليوم إن تعلق إرادة الله ومشيته في سابق علمه لإغوائكم، بل ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ ومولي أموركم ﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره من الأطلال ﴿تُرْجَعُونَ﴾ [هود: 34] في

جميع أموركم وحالاتكم.

أتريد يا نوح نصحتهم وإشفاقهم، وهم لا يقبلون منك ﴿أَمْ﴾ بل ﴿يَقُولُونَ اقْتِرَاءً﴾ أي: اختلقه من عنده ونسبه إلى الوحي ترويحاً ﴿قُلْ﴾ لهم حين قالوا لك هذه مجازاة عليهم وممارة: ﴿إِنْ اقْتَرِئْتَهُ﴾ واختلقت ما جئت به ﴿فَعَلَىٰ إِجْرَامِي﴾ أي: وبال أمري ونكاله ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿أَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ [هود: 35] وتنسبون إلي من الجرائم.

﴿وَ﴾ بعدما بالغوا في العتو والفساد والإصرار على ما هم عليه من الجور والفساد ﴿أَوْحِي﴾ وألهم ﴿إِلَىٰ نُوحٍ﴾ حين ظهر عليهم أمارات الإنكار، ولاح علامات الاستخفاف والاستكبار ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ﴾ لك أبداً بعد هذا ﴿مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ لك قبل هذا، فاقنط عن إيمانهم، ولا تجتهد في نصحتهم وإهدائهم ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ ولا تغتم من إهلاكهم ونزول العذاب عليهم إنهم مهلكون ﴿بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: 36] من الإعراض والإنكار والعتو والاستكبار.

﴿وَ﴾ بعدما حصل لك اليأس والقنوط من إيمانهم ﴿اصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ لحفظك ولمن آمن معك من الفرق ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بكنفنا وجوارنا وحفظنا وحصاننا ﴿وَوَحِينَا﴾⁽¹⁾ لك كيف تصنعها وتشيدها ﴿وَ﴾ بعدما صنعت ما صنعت ﴿لَا تُخَاطِبْنِي﴾ ولا تناج معي ﴿فِي﴾ إنجاء القوم ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالمكابرة والعناد ونبذوا وراء ظهورهم ما جئت به من الهداية والرشاد ﴿إِنَّهُمْ﴾ بسبب انهماكهم في الغفلة والغرور ﴿مُفْرَقُونَ﴾ [هود: 37] مهلكون حتماً، لا نجاة لهم أصلاً.

(1) قال البقلي: في هذه الكلمة إشارة عين، وذلك استعارة عين الربوبية من عيون الأزلية، ليصر بها حقائق الصنوع في علم الله، فيصنع الفلك بمنقوشه على نقش خاتم علم ملك الأزل أي: اصنع الفلك بعيني كما كنت أردت وجود السفينة في الأزل، وذكر الأعين، وهذا إشارة إلى عيون الصفات التي معادن أنوارها حقائق الذات أي: لتصف عينك في صناعة الفلك بأعين الصفاتية لترى بها ما أردنا من هيتها وتركيبها، وذلك موجود في كلامه على لسان نبيه ﷺ، حيث حكى عن الله سبحانه بقوله: «فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به»، وأيضاً: فيه تقاضا جريان العبودية في مشاهدة الربوبية كقوله ﷺ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ»، وأيضاً أي: كن في عيون رعايتنا وحفظنا، ولا تكن في رؤية عملك والاعتماد؛ فإن من نظر إلى غيري احتجب بغيري عني، قال بعضهم: أسقط عن نفسك تدبيرك، واصنع ما أنت صانع من أفعالك على مشاهدتنا دون مشاهدة نفسك، ومشاهدة أحد من الخلق، وقال بعضهم: اصنع الفلك، ولا تعتمد عليه؛ فإنك بأعيننا رعاية وكلاءة، فإن اعتمدت على الفلك وكلت إليه وسقطت عن أعبائنا.

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ نَجْرُهَا وَمُرْسَتْهَا إِنْ رِبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَقْرِبٍ يَبْقَى ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ قَالَ سَتَأْتِيَ إِلَىٰ جِبَلٍ يَفْصِلُ بَيْنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُفْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود: 38-43].

﴿و﴾ بعدما أوصاه الحق وأمره، شرع ﴿يَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾ بتعليم جبرائيل عليه السلام إياه بإذن الله ﴿و﴾ كان ﴿كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ﴾ طائف ﴿مِنْ قَوْمِهِ﴾ حين اشتغل بالفلك ﴿سَخِرُوا مِنْهُ﴾ واستهزءوا به؛ لكونه غي بادية لا ماء فيها، وقالوا على سبيل التهكم: صرت نجارًا بعدما كنت نبيًا ﴿قَالَ﴾ لهم نوح المكشوف عنده مآل ما أمر الحق له: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا﴾ الآن لجهلكم بسر صنيعنا ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾ حين كنا على الفلك وأنتم غرقى ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: 38] اليوم منا.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [هود: 39] وتدركون وبال ما أنتم عليه من الاستهزاء والسخرية.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ وحن أجلنا الذي أجلنا لمقتهم وهلاكهم ﴿وَفَارَ﴾ أي: نبع حيثل ﴿التَّنُّورُ﴾ المعهود في حضرة علمنا، نبع ماء الطوفان، وبعد فوران التنور وغلبيانه وأطلعت عليه امرأته فأخبرته إياه ﴿قُلْنَا﴾ له تفضلاً عليه وامتناناً: ﴿احْمِلْ فِيهَا﴾ أي: في السفينة ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ﴾ أي: من جنس ما يعيش في الهواء ﴿اثْنَيْنِ﴾ ذكرًا وأنثى ﴿و﴾ احمل أيضًا عليها ﴿أَهْلَكَ﴾ أي: جميع أهل بيتك ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ منا في سابق قضائنا بأنه كان من الكافرين المفرقين ﴿و﴾ احمل أيضًا عليها ﴿مَنْ آمَنَ﴾ لك من قومك ﴿و﴾ الحال أنه ﴿مَنْ آمَنَ مَعَهُ﴾ من قومه ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: 40] قيل: كانوا تسعة وسبعين وزوجته المسلمة وبنوه الثلاثة: سام وحام ويافث

ونسأؤهم، واثنان وسبعون رجلاً من غيرهم.

روي أنه ~~الطيرة~~ أتم السفينة وكان طولها ثلاثمائة ذراع، وعرضها خمسين، وجعل لها ثلاثة بطون، فحمل في أسفلها الدواب والوحوش، وفي أوسطها الإنس، وفي أعلاها الطير.

﴿وَبَعْدَمَا نَبِغَ النَّوْرُ وَانْتَشَرَ الْمَاءُ وَانْبَسَطَ عَلَى الْأَرْضِ﴾ قَالَ ﴿نُوحَ بُوْحِي اللَّهِ إِيَّاهُ: ﴿أَزْكَبُوا فِيهَا﴾ أَي: صيروا في جوفها متمكنين، واستقروا عليها قائلين متيمين: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ إِذْ هُوَ سَبْحَانَهُ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ ﴿مَجْرَاهَا وَمُزَاصَاهَا﴾ حَيْثُ أَرَادَ إِجْرَاءَهَا وَإِرْسَاءَهَا ﴿إِنْ رَبِّي﴾ الَّذِي رَبَّنِي بِلُطْفِهِ وَأَوْصَانِي بِصَنْعَتِهَا ﴿لَفَقُورٌ﴾ لِمَنْ اسْتَغْفَرَ لَهُ ﴿رُحِيمٌ﴾ [هود: 41] يَقْبَلُ تَوْبَتَهُ وَيَمْحُو زَلَّتْهُ وَيُنْجُو عَنْ عَذَابِهِ، فَرَكِبُوا مَسْمِينَ مَتِيمِينَ.

﴿وَمِنْ﴾ أَي: السفينة ﴿تَجْرِي بِهِمْ فِي﴾ خِلَالِ ﴿مَوْجٍ﴾ وَهُوَ مَا ارْتَفَعَ مِنَ الْمَاءِ مِنْ شِدَّةِ الرِّيحِ عَالٍ ﴿كَالْجِبَالِ﴾ الشَّامِخِ ﴿وَوُ﴾ حَيْثُذُ ﴿نَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ الْمَسْمَى بِكُنْعَانِ ﴿وَكَانَ فِي مَغْرَلٍ﴾ مِنْ أَبِيهِ؛ أَي: اعْتَزَلَ عَنْهُ وَانْصَرَفَ عَنْ دِينِهِ، فَرَأَاهُ بَيْنَ الْمَاءِ، فَتَحَرَّكَ عَطَفَ الْأَبُوةِ فَصَاحَ عَلَيْهِ: ﴿يَا بُنَيَّ﴾ صَغَرَهُ لِلشَّفَقَةِ وَالتَّرَحُّمِ ﴿أَزْكَبُ مُعْتَا﴾ لَتَنْجُو مِنَ الْغُرُقِ ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود: 42] حَتَّى لَا تَفْرُقَ.

﴿قَالَ﴾ ابْنُهُ مُسْتَكْرِئاً عَلَيْهِ: ﴿سَأُؤِي﴾ وَالتَّجَى ﴿إِلَى جَبَلٍ﴾ عَالٍ ﴿يَفْصِيئُنِي مِنْ﴾ إِغْرَاقِ ﴿الْمَاءِ﴾ بِشَمْوُخِهِ وَعُلُوِّهِ ﴿قَالَ﴾: يَا بُنَيَّ ﴿لَا عَاصِمَ﴾ وَلَا يَنْجِي ﴿الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ الْمَبْرَمِ وَحُكْمِهِ الْمَحْكَمِ ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ اللَّهُ وَأَنْجَاهُ؛ إِذْ لَا عَاصِمَ غَيْرَهُ ﴿وَوُ﴾ حَيْثُذُ ﴿حَالَ يَتْنَهُمَا﴾ أَي: بَيْنَ نُوحٍ وَابْنِهِ ﴿الْمَوْجِ﴾ الْعَظِيمِ ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾⁽¹⁾ [هود: 43] أَي: صَارَ ابْنُهُ مِنَ الْغُرُقِ الْهَالِكِينَ.

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَكَسِمَةَ أَفْوِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقِصِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى﴾

(1) قال البقلي: إن الله سبحانه أَدَبَ نبيه نوحاً ~~ههنا~~ هاهنا عرفه سابق العلم في غرقهم وهلاكهم، ليعرف طريق الدعاء ومكانه، وعرف أنه سبق بالدعاء عليهم، وقيل: ذلك ولم يقبل هاهنا؛ لأن دعاء الأول موافق القدر، والعارف المجاب إذا دعا على أحد بعد ذلك، ألا ترى إلى قول ذي النون ~~ههنا~~ حيث دعا على أهل سعائته كيف كانوا يفرقون، فقال بعد ذلك: إلهي تبت، ألا أدهو على أحد من عبادك بعد ذلك، وفيه وصف رقة قلب نبيه ~~ههنا~~ عليهم بعد احتمال جنونهم وأذيتهم، وهكذا يكون شأن الصادقين، قال ذو النون: إن كنت قد أيلت في الأزل بشيء من العناية فقد نجوت، وإلا فإن النداء والدعاء لا ينقذ الغرقى.

الْجُودِيَّ وَقِيلَ بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَبْنَوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَحْتَلِنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّي أَخْضَعُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَلَا تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَبْنَوحُ أَهِيَطُ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَذَابَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ [هود: 44-49].

﴿و﴾ بعدما انبسط الماء على وجه الأرض، وعلا على أعالي الجبال وأقلال الرواسي وهلك من عليها ﴿قِيلَ﴾ من وراء سرادقات العز والجلال منادياً آمراً على الأرض والسماء مثل النداء على ذوي العقول المكلفين المبادرين إلى امتثال الأوامر: ﴿يَا أَرْضُ﴾ النابعة للماء المخرجة له ﴿ابْلَعِي مَاءَكَ﴾ أي: انشقي ما نبع عنك من الماء ﴿وَيَا سَمَاءُ﴾ الماطرة الهامة ﴿أَقْلِعِي﴾ وأمسكي ماءك ولا تمطري؛ إذ يمطر الماء مثلما نبع من الأرض ﴿و﴾ بعد ورود الأمر الإلهي ﴿غِيضَ الْمَاءِ﴾ ونقص بنشف الأرض وإمساك السماء ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ الموعود الذي هو إهلاك الكفار وإنجاء المؤمنين ﴿و﴾ بعد انقضاء المأمور وإنجاز الموعود ﴿اسْتَوَتْ﴾ السفينة واستقرت ﴿عَلَى الْجُودِيَّ﴾ جبل بالموصل، وقيل: بالشام، وقيل: أو أمل.

روي أنه ~~الطوفان~~ ركب السفينة عاشر رجب، ونزل عليها عاشر المحرم، فصام ذلك اليوم، فصار سنة له على من بعده، وهو يوم عاشوراء ﴿و﴾ بعد إهلاك أولئك العصاة الغواة الكفرة ﴿قِيلَ﴾ من قبل الحق: ﴿بُعْثْنَا﴾ أي: مقتاً وهلاكاً ﴿لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: 44] الخارجين عن مقتضى الوحي الإلهي، المكذبين لرسله، وطرذاً لهم عن ساحة عز الحضور بحيث لا يرجى قربهم أصلاً.

﴿و﴾ بعدما وقع ما وقع ﴿نَادَى﴾ وناجى ﴿نُوحٌ رَبَّهُ﴾ باثناً له شكواه في حق ابنه ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي﴾ أيضاً ﴿مِنْ أَهْلِي﴾ وأنت بفضلك وعدتني بإنجاء أهلي ﴿وَوَإِنَّ

وَعَذِّكَ الَّذِي بِهِ ﴿الْحَقُّ﴾^(١) الصِّدْقُ لَا خَلْفَ فِيهِ ﴿وَأَنْتَ أَخْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: 45] أي: أفسطهم وأعدلهم بأحكام جميع الحكام راجع إليك.

﴿قَالَ﴾ سُبْحَانَهُ مَجِيئًا لَهُ مَزِيلاً لَشُكْوَاهُ: ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ﴾ بسبب اعتزاله عنك وعن دينك ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ إذ لا قرابة ولا ألفة بين المؤمن والكافر، وكيف يكون من أهلك ﴿إِنَّهُ﴾ من غاية فسقه وفساده ﴿عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ كأنه مغمور فيه مجسم منه لا يرجى صلاحه أصلاً ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي﴾ متعرضاً معترضاً علي ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ لوروده علي ﴿إِنِّي أَعْظُمُكَ﴾ وأذكر لك ﴿أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: 46] أي: كونك بذهولك عما نبهت عليك بالاستثناء السابق؛ يعني ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ [هود: 40].

﴿قَالَ﴾ نوح معتذراً إلى ربه، مستحيئاً منه: ﴿رَبِّ إِنِّي﴾ بعد ظهور خطيئي وذلتي ﴿أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ﴾ بعد هذا ﴿مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: ﴿وَلَا تُغْفِرْ لِي﴾ زلتي وسوء أدبي ﴿وَلَمْ﴾ ﴿تَزَحْمَنِي﴾ بفضلك وجودك ﴿أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: 47] خسراناً مبيئاً.

﴿قِيلَ﴾ من قبل الله بعدما غاض الماء واستوت السفينة وانكشفت الأرض ويبست: ﴿يَا نُوحُ اهْبِطْ﴾ انزل من السفينة أنت ومن معك وما معك مقروناً ﴿بِسَلَامٍ﴾ أي: سلامة ونجاة وأمن ناشئ ﴿مِنَّا﴾ عليك تفضلاً وامتناناً ﴿وَبَرَكَاتٍ﴾ أي: خيرات ومبرات كثيرة نازلة منا ﴿عَلَيْكَ﴾ أصالة ﴿وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ تبعاً، سماهم أمماً

(١) وذلك أن الله تعالى لما أراد بحكمته أن ينزل الأرواح المقدسة العلوية من أعلى عليين جواره، وقربه إلى أسفل سافلين القلب قالت أرواح الأنبياء والأولياء وخواص المؤمنين: يا ربنا وإلهنا ننزلنا من أعلى مقامات قريك إلى أسفل دركات بعذك، ومن عالم البقاء إلى عالم الفناء، ومن دار السرور واللقاء إلى دار الحزن والبلاء، ومن منزل التجرد والتواصل إلى منزل التوالد والتناسل، ومن رتبة الاصطفاء والاجتباء إلى مرتبة الاجتهاد والابتلاء، فوهبهم الله من عواطف إحسانه بأن تنجيهم وأهليهم من ورطات الهلاك، فكان من قضية حكمته أن يكون لنوح ~~سبعة~~ أربعة بنين: ثلاثة منهم مؤمنون وواحد كافر، فكذاك حكم أن يكون للروح أربعة بنين: ثلاثة منهم مؤمنون وهم: القلب والسر والعقل، وواحد كافر وهو النفس، فكما كان ثلاثة من بني نوح معه في السفينة، وكان واحد في معزل منه، فكذاك ثلاثة من بني الروح معه كانوا معه في سفينة الشريعة وكان واحد وهو كافر النفس في معزل منه من الدين والشريعة، فلما أشرف ولده الكافر على الفرق في بحر الدنيا وطوفان الآخرة. [التأويلات].

باعتبار المال ﴿و﴾ من ذرية من معك ﴿أُمَّم سُنْمَتُهُنَّ﴾ ونربيهم في النشأة الأولى بأنواع النعم ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِثْلًا﴾ في النشأة الأخرى بسبب كفرهم وفسقهم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: 48] مؤلم بدل ما يتلذذون بنعم الدنيا، ويكفرون بها.

﴿تِلْكَ﴾ أي: قصة نوح عليه السلام ﴿مِنْ أَتْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ أي: بعض أخباره ﴿نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل؛ تعليمًا لك وتذكيرًا لأمتك ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾ بالدراسة والتعليم ﴿مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ الوحي والإنزال، وإن طعن المشركون لك ونسبوك إلى الكذب والافتراء ﴿فَاصْبِرْ﴾ على أذياتهم، وكن في تبليغك على عزيمة صحيحة ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ﴾ الحميدة والأجر الجزيل في النشأة الأخرى ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: 49] الذين يحفظون نفوسهم عن الميل إلى البدع والأهواء، ويصبرون على المكاره والأذى، حتى يتحققوا بمقام الرضا ويفوزوا بشرف اللقاء.

﴿وَالِىَ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُورِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَنْقُورِ لَا أَشْكُرُ عَلَيْكَ أَجْرًا إِنِ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِى فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَنْقُورِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [هود: 50-53].

﴿و﴾ بعدما تناسل قوم نوح وتكاثرت أمم منهم، فاستكبروا عن طريق التوحيد واتخذوا الأصنام والأوثان آلهة، أرسلنا ﴿إِلَىٰ عَادٍ﴾ العادين عن طريق الحق، المتجاوزين عن صراط التوحيد ظلماً وعدواناً ﴿أَخَاهُمْ هُودًا﴾ ليهديهم إلى طريق الحق وصراط مستقيم ﴿قَالَ﴾ بعدما أوحينا إليه وأذنا له بتذكير قومه: ﴿يَا قَوْمِ﴾ أضافهم إلى نفسه تحنناً وإشفاقاً على ما هو مقتضى الإرشاد ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ الواحد الأحد الصمد الذي لا إله إلا هو واعتقدوا ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ﴾ يعبد بالحق ويرجع إليه ما في الأمور ﴿غَيْرُهُ﴾ إذ لا موجود سواه ولا إله إلا هو ﴿إِن أَنْتُمْ﴾ أي: ما أنتم بعدما ظهر الحق باتخاذ الأوثان آلهة غيره ﴿إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود: 50] مبطلون في اتخاذها افتراء ومراء.

﴿يَا قَوْمِ﴾ اسمعوا قولي واتعظوا به وامضوا بمقتضاه واقبلوا نصحي؛ إذ ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ ولا أطلب منكم عوضاً، بل أنا مأمور بالتبليغ والتذكير من عند

العليم الخبير ﴿إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي: بعثني بالإرشاد والإهداء، أتشكون في أمري وترددون في شأني وتذكيري ونصحي؟ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: 51] وتستعملون عقولكم في أفعالكم القبيحة وأعمالكم الفاسدة الناكبة عن طريق الاعتدال الذي هو صراط الله الأقوم الأعدل؟.

﴿و﴾ بعدما ازدادوا الإصرار والاستكبار، أخذهم الله بعقم الأرحام والأمطار فاضطروا، قال هود عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾⁽¹⁾ من فرطاتكم وهفواتكم، واطلبوا المغفرة والنجاة منه ﴿ثُمَّ تَوْبُوا﴾ واسترجعوا ﴿إِلَيْهِ﴾ نادمين مخلصين ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ﴾ بأمر الله تفضلاً وامتناناً ﴿مَذَرَارًا﴾ أمطاراً كثيرة على سبيل التتابع والإدراج ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ أي: يضاعف أولادكم التي هي قوة ظهوركم ﴿و﴾ عليكم أن ﴿لَا تَتَوَلَّوْا﴾ على الله حال كونكم ﴿مُجْرِمِينَ﴾ [هود: 52] معرضين عنه وعن رسله مصرين على ما أنتم عليه.

﴿قَالُوا﴾ بعدما سمعوا منه ما سمعوا: ﴿يَا هُودُ﴾ نادوه استحقاراً له واستكباراً

(1) قال البقلي: استغفروا من جنایات الأسرار، وتوبوا إليه لطلب الأنوار ترك النظر إلى الأغيار قدم الاستغفار على التوبة؛ لأن الاستغفار تقدیس، والتوبة تخلص، الاستغفار من الزلل، والتوبة من الغفل. سئل سهل بن عبد الله عن الاستغفار؟ فقال: هو الإجابة، ثم الإنابة، ثم التوبة، ثم الاستغفار، والاستغفار بالظاهر، والإنابة بالقلب، والتوبة مداومة الاستغفار من تقصيره فيها. وقال بعضهم: استغفروا ربكم عن الدعاوى، وتوبوا إليه من الخطرات المذمومة. وقال يوسف: استغفار العام من الذنوب، واستغفار الخاص من رؤية الأفعال دون رؤية المنة والفضل، واستغفار الأكابر من رؤية كل شيء سوى الحق لما بلغت في ذكر الضمير، إلى هاهنا سألني بعض أهل الصحبة عن حقائق استغفار العارفين؟ فقلت: استغفارهم عن كون وجودهم مع كون الحق، وعن تقصيرهم في المعرفة عن إدراك حقائق صفات معروفهم، وعن دعوى الأنانية في السكر في مقام صحوهم، وعن غاشية عين العبودية في مشاهدة الربوبية. ألا ترى إلى قوله عليه السلام: «إِنَّهُ لِيَبْلُغَ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً»، ومن جملة استغفاره عليه السلام في هذا المقام استغفار من رؤية وجود الحق، وعن رؤية مشاهدة الالتباس في رؤية مشاهدة صرف الوجدانية، وعن خواطر الأنانية. ثم بين أنه تعالى يجازيهم بعد رجوعهم مما سوى الحق إلى الحق بالتمتع بلفظه ووصاله والفرح بجماله أبد الأبدین بقوله: ﴿يَمَتِّعُكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا﴾ المتاع الحسن أنوار المواجه على الدوام، وصفاء الأحوال على السرمدية، وسنا الأذكار وحلاوة الأفكار، ونزول حقائق الكواشف، وظهور لطائف المعارف، والفرح برضوان الله، ولين العيش في مشاهدة الله، ما أحسن هذا المتاع منا في من الدنيا لقاءك مرة فإن نلتها استوفيت كل منالها.

عليه ﴿مَا جِئْنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ واضحة مثبتة لدعواك حتى نقبل منك قولك ﴿وَوَ﴾ بعدما لم تجيء إلينا بالبينه الملجئة ما كنا نعتقدك صادقاً صدوقاً ثقة حتى نقبل قولك بلا بينة، اترك ما أنت عليه من الدعوة الفاسدة؛ إذ ﴿مَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا﴾ التي وجدنا آباءنا لها عاكفين ﴿عَنْ قَوْلِكَ﴾ أي: عن مجرد دعواك بلا بينة ودليل ﴿وَوَ﴾ بالجملة: ﴿مَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: 53] مصدقين لك بلا شاهد وبينة.

﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذٌ بِنَاصِيئِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ [هود: 54-58].

بل ﴿إِنْ نَقُولُ﴾ أي: ما نقول في حقك ﴿إِلَّا اعْتَرَاكَ﴾ أي: سوى هذا القول وهو أنك أصابك ورماك ﴿بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ جنون وخفة عقل واختلال حال، وكنت أنت تسيء الأدب معهم، وتذكرهم وتهيجهم بما لا يليق بجنابهم، ولذلك أصابوك واستخفوا عقلك، وبعدها سمع هود ما سمع، آيس من إيمانهم وهدايتهم ﴿قَالَ﴾ مبرئاً أولاً لنفسه من الشرك، إحاضاً للنصح: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ﴾ العالم بسري وإعلاني وخفيات أسراري ﴿وَأَشْهَدُوا﴾ أنتم أيضاً أيها الهالكون في تيه الغفلة والغرور علي ﴿أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هود: 54] الله الواحد الأحد الصمد الذي ليس له شريك في الوجود أصلاً من الأظلال الهالكة والتماثيل الباطلة المتخذة ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ آلهة سواه ﴿فَكِيدُونِي﴾ أي: فعليكم أيها الحمقى المنحطين عن زمرة العقلاء بعدما سمعتم قلبي وحققتم براءتي أن تمكروني وتصيبوني أنتم وشركاؤكم ﴿جَمِيعًا ثُمَّ﴾ بعد اليوم ﴿لَا تُنْظِرُونَ﴾ [هود: 55] أي: لا تمهلون في أمري ولا في مكري.

﴿إِنِّي﴾ بعدما ﴿تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ لا أبالي بكم وبشركائكم، ولا

تحزن لمكرهم ومكركم بعدما أتمكن بمقر التوحيد؛ إذ ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ﴾⁽¹⁾ يتحرك على الأرض ﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه بذاته ﴿أَخَذَ بِثَاصِيَّتِهَا﴾ أي: وجودها التي تلي الحق يقودها ويتصرف بها كيف يشاء حسب إرادته اختياراً ﴿إِنْ رَبِّي﴾ في جميع شئونه وتطوراته ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: 56] لا عوج له أصلاً.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: تتولوا وتعرضوا عما جئت به من ربي ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أَرْسَلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ واجتهدت في تبليغه وبذلت وسعي فيه، فاعلموا أنه لا يبالي الله في إعراضكم وإصراركم، بل إن شاء يستأصلكم ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ ليتعظوا

(1) قال المحقق البقلي: دعا الجمهور بلسان التوحيد إلى منازل التفريد؛ ليدخلوا إلى مراتب الرضا، ويجلسوا على مساند الصفا، وينظروا في مرآة الأقدار مبصر الأنوار، لتطمئن أسرارهم في جريان التقدير، بما رأوا من سوابق القسمة، وأوائل الحكمة لكل دابة رزق عليه بقدر حوصلتها، فرزق الظاهر للأشباح، ورزق المشاهدة للأرواح، ورزق الوصلة للأسرار، ورزق الرهبة للنفوس، ورزق الرغبة للعقول، ورزق القرية للقلوب، ورزق الملائكة الخوف والذكر، ورزق الجن الزجر والوعيد، ورزق الحيوان روح العنصر، ورزق الحشرات خطرات التسبيح، ورزق السباع اقتحام ظلام عظمة الأفعال، ورزق الطيور الفرح والتهليل، ورزق الإنسان الذي تعيش به هو فيض الفعل وروح الفعل، ونور الصفة وشهود سنا الذات على الأسرار، وهو تعالى بلطفه يعلم مصارف الجميع من أفعاله وصفاته وذاته لما قال: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾: مستقر الأرواح أنوار ذاته، ومستقر القلوب أنوار صفاته، ومستقر العقول أنوار أفعاله، مستودع العقول العبادات، ومستودع القلوب المشاهدات، ومستودع الأرواح المكاشفات، ومستقر الأشباح أكناف الآيات، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ قبور المجاهدات، ومستقر العقول الأذكار ومستودعها الأفكار ومستقر القلوب المحبة، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ المعرفة، ومستقر الأرواح التوحيد، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ الفناء في الموحد مستقر الجميع أصلاب العدم، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ أنوار القدم. قيل: قرأ يوسف بن الحسين هذه الآية، ثم قال: ندب الله عباده جميعاً إلى التوكل والاعتماد، فأبوا بأجمعهم إلا اعتماد على عواري ما ملكوا إلا فقراء المهاجرين، ثم جرت تلك البركة في الفقراء الصادقين إلى من ترسم بهم من الصوفية، فالخلق أبوا الاعتماد على الأسباب، وأبت هذه الطائفة أن تعتمد على غير المسبب، وهو من أشد المناهج. قيل: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ ظاهر إسلامه، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ باطن إيمانه. وقيل: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ من الخلق، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ من الحق. وقيل: ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾ في الطاعات، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ في الأحوال. يقال: مستقر العابدین المساجد، ومستقر العارفين المشاهد. ويقال: النفوس مستودع التوفيق من الله، والقلوب مستودع التحقيق من قبل الله. قيل: القلوب مستودع المعرفة، والمعرفة وديعة فيها، والأرواح مستودع المحبة، فالمحباب ودائع فيها، والأسرار مستودع المشاهدات، فالمشاهدات ودائع الله

ويعتبروا منكم ﴿و﴾ أنتم بإعراضكم عنه سبحانه ﴿لَا تَصْرُوهُ شَيْئًا﴾ من الأضرار، لا بالله ولا بي ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ من كمال جوده وسعة رحمته ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ كائن في حيلة جوده ووجوده ﴿حَفِيفٌ﴾ [هود: 57] رقيق قريب.

﴿وَلَمَّا﴾ تمادوا في الغفلة والإعراض، وبالغوا في الإصرار والاستكبار ﴿جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بالريح، فعصفت عليهم السموم، وكانت تدخل من أنوفهم وأفواههم فقطعت أمعاءهم فهلكوا، ولما أخذناهم بما أخذناهم ﴿نَجَّيْنَا﴾ من مقام جودنا ﴿هُودًا﴾ الداعي لهم إلى سبيل الحق ﴿و﴾ نجينا أيضًا ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ منهم ﴿مَعَ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ تفضلاً عليهم وامتناناً ﴿و﴾ ما اقتصرنا على إنجائهم، بل ﴿نَجَّيْنَاهُمْ﴾ كرامة منا إياهم ﴿مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: 58] معد لأولئك الكفرة في النشأة الأخرى.

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا إِنْ عَادَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بُعْدًا لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ وَلِإِنْ نُمُوذَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿٦٢﴾﴾ [هود: 59-62].

﴿وَتِلْكَ﴾ العصاة الغواة المقهورون بقهر الله وغضبه ﴿عَادٌ﴾ المبالغون في العناد والعناد ﴿جَحَدُوا﴾ من غاية غفلتهم وغرورهم ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ المنزلة على السنة رسله ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ بالكذيب والاستحقار لاستلزام الواحد تكذيب الجميع ﴿وَاتَّبَعُوا﴾ من غاية جهلهم ونهاية بغضهم مع الله ورسله ﴿أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ﴾ مبالغ في التجبر والتكبر ﴿عَنِيدٍ﴾ [هود: 59] متناه في المكابرة والعناد، فتركوا متابعة الداعي لهم إلى سبيل الرشاد.

﴿و﴾ لذلك ﴿اتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: صاروا متبوعين للطرد والتخذيل في النشأة الأولى والأخرى ﴿إِلَّا﴾ تنبهوا يا أولي الأبصار والاعتبار ﴿إِنْ عَادَا﴾ المعاندين ﴿كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ نعمه وجحدوا توحيدَه ﴿إِلَّا بُعْدًا﴾ طردًا وتخذيلًا وتبعيدًا عن ساحة عز الحضور ﴿لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: 60] أردفه بعطف البيان للتمييز

عن عاد إرم.

﴿و﴾ بعدما انقروا وانقهروا بما انقهروا أرسلنا ﴿إِلَى ثَمُودَ﴾ حين ظهرنا بالكفر والشقاق والانصراف عن منهج الرشاد باتخاذ الأوثان آلهة ﴿أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ لأنه أولى وأليق لإرشادهم وإهدائهم ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 4] ولا تشركوا به شيئاً؛ إذ ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ﴾ موجد مظهر لكم من كتم العدم ﴿غَيْرُهُ﴾ بل ﴿هُوَ﴾ بذاته وأسمائه وأوصافه الذاتية والفعلية ﴿أَنْشَأَكُمْ﴾ وأظهركم ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ بامتداد أظلال أسمائه ورش نوره ﴿و﴾ بعدما أظهركم منها ﴿اسْتَغْفِرْكُمْ﴾ واستبقاكم ﴿فِيهَا﴾ ورياكم بأنواع اللطف والكرم عليها ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ واسترجعوا إليه على ما فرطتم في حقه ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا إِلَيْهِ﴾ مخلصين نادمين عسى أن يقبل منكم ويعفو عن زلاتكم ﴿إِنْ رَبِّي قَرِيبٌ﴾ لكم يعلم نوبتكم وإخلاصكم فيها ﴿مُجِيبٌ﴾ [هود: 61] يجيب دعوتكم ويعفو زلتكم.

﴿قَالُوا﴾ بعدما سمعوا دعوته وتذكيره: ﴿يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾ أي: مستشاراً ومؤتمناً، واعتقدناك سيداً ذا رشد ﴿قَبْلَ هَذَا﴾ الزمان فالآن صرت أخرج ﴿أَتْنَهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أي: نهيتنا عن عبادة معبودات آبائنا ﴿و﴾ الحال أنه ﴿إِنَّا لَفِي شَكٍّ﴾ وتردد عظيم ﴿مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ من توحيد الإله المعبود بالحق وإبطال آلهتنا التي وجدنا آباءنا لها عابدين، ﴿قَرِيبٌ﴾ [هود: 62] ذي رتبة متناهية إلى كمال الارتباب، مع أنك لم تأت بيعة معجزة تلجنا إلى تصديقك.

﴿قَالَ يَنْقُورِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَتْرَفٍ مِّنْ رَبِّي وَهَاتَتْ مِنْهُ رَحْمَةٌ فَمَنْ يُنصِرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ فما يزيدوني غير تحسير ﴿١٣﴾ وَيَنْقُورِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا يُسُورَ فَإِنَّهَا مِنْ عِلَاقِ قَرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتُّوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿١٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَهْلُهَا بِجَنَّتَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيٍ يُؤْتَاهُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٦﴾ وَلَخَلَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَثْوَيْتٍ ﴿١٧﴾ كَانَ لَمْ يَنْتَرَفِهَا إِلَّا إِنْ تَمُودًا كَفَرُوا إِنَّهُمْ آلَ جَدِّكَ ثَمُودَ ﴿١٨﴾ [هود: 63-68].

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني ﴿إِنْ كُنْتُ﴾ جئت لكم ملتباً ﴿عَلَى يَتْرَفٍ﴾

واضحۃ دالة على صدق ما ادعيت نازلة ﴿مِّنْ﴾ عند ﴿رَّبِّي﴾ لتصديقي وتأييدي ﴿وَوَ﴾ الحال أني قد ﴿آتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ نبوة ورسالة تامة، مؤيدة بأنواع المعجزات ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنِي﴾ ويمنعني ﴿مِّنْ﴾ عذاب ﴿اللَّهِ إِنَّ عَصِيَّتُهُ﴾ في تبليغ رسالته وإظهار ما أمرني بظهوره وأوصاني بنشره ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي﴾ حين ابتلائي وأخذ الله إياي بعصيانني ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود: 63] على تخسير وتخذيل على تخذيل.

﴿وَوَ﴾ بعدما آيس عن إيمانهم قال: ﴿يَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ دالة على صدقي في دعواي وتأيد الله إياي ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ﴾ مسلمة بلا منع وإباء ﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ﴾ لأجل الماء والكلأ ﴿فَيَأْخُذْكُمْ﴾ ويلحقكم بعدما أصبتموها بسوء ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: 64] أجله وحلولهن، وبعدها ظهرت الناقة بين أظهرهم وأكلت كلأهم وشربت ماءهم فتضرروا منها وشاوروا في أمرها وتقرر رأيهم إلى قتلها ﴿فَفَعَزَّوْهَا﴾ وهلكوها ظلماً وزوراً ﴿فَقَالَ﴾ صالح بعدما وقع الواقعة الهائلة: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ﴾ أي: عيشوا فيها بعدما خالفتكم حكم الله وآتيتكم بما نهيتكم ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ الأربعاء والخميس والجمعة، فوادعوا فيها وتوادعوا، واعلموا أن ﴿ذَلِكَ وَغَدٌ﴾ أوحى إلي من ربي ﴿غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: 65] أي: غير منسوب إلى الكذب، بل مصدق متيقن فلا تشكوا.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بالعذاب المهلك بعد انقضاء الأيام الثلاثة التي ظهرت فيها علامات من اصفرار في وجوههم في اليوم الأول، واحمرارها في الثاني، واسودادها في الثالث ﴿نَجَّيْنَا﴾ من فضلنا وجودنا ﴿صَالِحًا﴾ الذي صلح نفسه وأصلح نفوسهم، فلم يقبلوا إصلاحه، بل أفسدوها بأنفسهم ﴿وَوَ﴾ نجينا أيضاً منهم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ وصلحوا بإصلاحه ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ نازلة ﴿مِّنَّا﴾ على قلوبهم؛ ليقفوا بها على قبول دعوته والإيمان به، وبسبب إيمانهم نجوا من خزي النشأة الأخرى ﴿وَمِنْ خِزْيٍ يَوْمَئِذٍ﴾ أيضاً ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل الموفق لهم على الإيمان والإذعان ﴿هُوَ الْقَوِيُّ﴾ المحصور على القوة والقدرة؛ إذ لا حول ولا قوة إلا به ﴿الْعَزِيزُ﴾ [هود: 66] الغالب على أمثاله وإنفاذه حيث أراد وشاء.

﴿وَوَ﴾ بعدما أنجاهم الله بلطفه ﴿أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالعتو والفساد ﴿الصَّيْحَةَ﴾ الهائلة التي وعدما الله لإهلاكهم ﴿فَأَصْبَحُوا﴾ بعدما سمعوا الصيحة في أثناء الليل ﴿فِي دِيَارِهِمْ﴾ التي صاروا متمتعين فيها ﴿بِجَائِمِينَ﴾ [هود: 67] جامدين ميتين.

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا﴾ ولم يسكنوا ﴿فِيهَا﴾ أصلاً، ونادى عند وقوع الواقعة الهائلة أصحاب الاعتبار والاستبصار: ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ بكفران نعمه وتكذيب رسله ﴿أَلَا بُعِثْنَا لَثَمُودَ﴾ [هود: 68] عن سعة رحمة الحق في النشأة الأولى والأخرى.

وبعد ما انقرض أولئك الهالكون حدث بعدهم قوم لوط المبالغون في الغفلة القبيحة عقلاً ونقلاً، المصرون عليها إلى أن أخذناهم بما أخذناهم.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى﴾ قالوا سلمنا قال سلمتم فما ليث أن جاء بعجل حنيد ﴿٦٩﴾ ﴿فَلَمَّارَةً أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ قالوا لا نخف إننا أرسلنا إلى قوم لوط ﴿٧٠﴾ ﴿وَأَمْرًا تُدْهِمُهُمْ فَضَحِكْتُمْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءَهُ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ ﴿٧١﴾ ﴿قَالَتْ يَتُوبَلَىٰ أَيْلَهُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ ﴿٧٢﴾ ﴿قَالُوا اتَّعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ ﴿٧٣﴾ ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ ﴿٧٤﴾ ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ ﴿٧٥﴾ ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ اقْصِرْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَانْتِهَتْ عَذَابٌ عَذِيبٌ﴾ ﴿٧٦﴾ [هود: 76-69].

﴿٧٠﴾ حين أردنا أخذهم ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا﴾ أي: الملائكة المأمورون لإهلاك قوم لوط ﴿إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى﴾ والبشارة بالولد بعدما آيس هو وزوجته عن التوالد والتناسل ﴿قَالُوا﴾ له حين لاقوه: ﴿سَلَامًا﴾ أي: نسلم سلاماً عليكم ترحيباً منا عليك ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ عليكم دائماً مستمراً أيها المستحقون للتحية والترحيب ﴿فَمَا لَبِثَ﴾ وسكن بعد نزولهم إلى ﴿أَن جَاءَ بِعَجَلٍ حَنِيدٍ﴾ [هود: 69] مشوي؛ ضيافة لهم ونزلاً لقدمهم ووضع بين أيديهم، فانصرفوا عنه ولم يمدوا أيديهم نحوه.

﴿فَلَمَّا رَأَى﴾ إبراهيم ﴿أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ ولا يتناولون منه كما هو عادة المسافرين ﴿نَكِرَهُمْ﴾ أي: أنكر منهم عدم أكلهم؛ لأن الامتناع من الطعام دليل على قصد المكروه لصاحبه ﴿وَأَوْجَسَ﴾ أي: أضمر ﴿مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ خوفاً ورعباً حتى أحسوا منه الخوف وعلامات الرعب ﴿قَالُوا﴾ تسلية وتسكيناً: ﴿لَا تَخَفْ﴾ منا ﴿إِنَّا﴾ وإن كنا من أهل الإنذار والإهلاك ﴿أَرْسَلْنَا إِلَىٰ﴾ إهلاك ﴿قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: 70] ما لنا معك شغل.

﴿٧٠﴾ حين قالوا له ما قالوا ﴿وَأَمْرًا﴾ أي: سارة حاضرة ﴿قَائِمَةً﴾ لخدمة

الأضياف ﴿فَضَحِكْتُ﴾ بعدما سمعت قولهم فرحاً وسروراً؛ لأنها كانت تقول لإبراهيم: اضمم إليك لوطاً، فإني أعلم أن البلاء ينزل على هؤلاء المسرفين ﴿فَبَشَّرْنَاهَا﴾ أي: سارة تفضلاً وامتناناً ﴿بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ﴾ ولده ﴿يَعْقُوبَ﴾ [هود: 71] أبا الأنبياء.

﴿قَالَتْ﴾ بعدما سمعت التبشير مستحبة مستغربة: ﴿يَا وَيْلَتَى﴾ أي: يا هلكتي وفضيحتي ﴿أَلَيْدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ قد مضت علي تسع وتسعون سنة ﴿وَهَذَا بَغْلِي شَيْخًا﴾ فاني ابن مائة وعشرين سنة ﴿إِنَّ هَذَا﴾ أي: التوالد بيننا ﴿لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: 72] غريب خارق للعادة إن وقع.

﴿قَالُوا﴾ إزالة لشكها وتعجبها: ﴿أَتَفْجِيبُنَّ﴾ أي: تستبعدين ﴿مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ القادر المقتدر بالقدرة الكاملة أمثال هذا؛ أي: التوالد بين الهرمين تفضلاً وامتناناً مع أنها ﴿رَحْمَةُ اللَّهِ﴾ أي: أنواع فضله وجوده ﴿وَبَرَكَاتُهُ﴾ أي: خيراته الكثيرة النازلة ﴿عَلَيْكُمْ﴾ يا ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ يا أهل بيت الخلعة والنبوة ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه في ذاته ﴿حَمِيدٌ﴾ يفعل ما يوجب الحمد له ﴿مُجِيدٌ﴾ [هود: 73] محسن كثير الإحسان والإنعام المستجلب لأنواع المحامد والأثنية.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ أي: الخوف والرعب بتسليّة الرسل إياه ﴿وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى﴾ بما لا ترقب له فيه أخذ ﴿يُجَادِلُنَا﴾ أي: يجادل مع رسلنا ويناجي معنا ﴿فِي﴾ حق ﴿قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: 74] وأخذنا إياهم.

وما حمله على المجادلة والمناجاة في حقهم إلا فرط إشفاقه ورقة قلبه ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ﴾ في نفسه ﴿لَخَلِيمٌ﴾ غير عجول على الانتقام، كظيم الغيظ والغضب ﴿أَوَّاهٌ﴾ كثير التأوه والتأسف من الذنب الصادر عنه ﴿مُنِيبٌ﴾ [هود: 75] رجاع إلى الله في جميع حالاته، ففاس حالهم على نفسه، فأخذ يجادل في حقهم.

قال الرسل بوحى الله إياهم: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ المتحقق بمقام الخلعة ﴿أَغْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ الجدال، وانصرف عن مدافعة كلام الله المبرم ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ وثبت منه سبحانه الحكم بهلاكهم حتماً مبرماً، ولا تنفعهم مجادلتك وممانعتك ﴿وَلِإِنَّهُمْ لَكَاذِبِينَ﴾ عن قريب ﴿عَذَابٌ﴾ حتم ﴿غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾⁽¹⁾ [هود: 76] بتقويتك وحمايتك.

(1) فيه دلالة على أن القضاء المبرم لا يرد؛ وهو القضاء الغير المعلق، وإليه الإشارة بقوله تعالى أيضاً: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَزْدُوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ اِسْتَأْذَنُوا﴾ [البقرة: 217]؛ فإن مفهومه

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا مِّنْهُم وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْقَوِرْ هَهُنَا بَنَاتِي هُنَّ لَطِيفٌ لَّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّنْ سِجِّيلٍ مَّنْضُورٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود: 77-83].

﴿و﴾ اذكر يا اكمل الرسل ﴿لَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ على أشكال مرد ملاح صباح متناسبة الأعضاء، وهم لا يرون أمثالهم في الصباحة واللطافة وكمال الرشاقة ﴿بِهِمْ﴾ أي: ساء مجيئهم على هذه الأشكال لوطاً ومن آمن معه ﴿وَضَاقَ﴾ جيئهم على هذه الصورة البديعة ﴿بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي: شق على لوط والمؤمنين أمر حفظهم وحضانتهم؛ لأنهم علموا قبح صنيع قومهم لو علموا جيئهم قصدوا لهم مكروهاً، واشتد عليهم أيضاً مدافعتهم وإخراجهم؛ لأنهم نزلوا ضيقاً، فاضطر لوط في أمرهم وشأنهم وتحير ﴿وَقَالَ﴾ متأوهاً متأسفاً متضجراً: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: 77] شديد مظلم في غاية الشدة والظلمة.

﴿و﴾ بعدما أخبر القوم بنزولهم ﴿جَاءَهُ قَوْمُهُ﴾ متجسسين ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي:

أنهم لا يستطيعون أن يردوا المخلصين الراسخين عن دينهم، وإن ركبوا في ذلك، فمن كل صعب وذلول، إما إن الله كتب في حقهم السعادة فلا يتغير بحال من الأحوال، وأما القضاء المعلق فبخلاف ذلك، وتحقيقه أن كلاً من السعادة والشقاوة؛ إما أصلية أو عارضة، فالأصلية لا يعارضها عارض، وإن عارضها، فالمال إلى السعادة والشقاوة؛ لأن الأبد مرآة الأزل، فلا تزال صورة الأزل منعكسة في مرآة الأبد، فالمؤمن الأصلي لا يضره الكفر العارض، فإنه مكتوب في علم الله أنه مؤمن، وكذا في بطن الأم؛ فإن بطن الأم ناظرة إلى علم الله فهما لوحان متوافقان، وكونه مكتوباً في اللوح المحفوظ؛ إنه كافر لا يضره؛ لأنه لوح المحر والإثبات.

يطوفون حول بيته سريعًا، ويطلبون فرصة الدخول عليهم، ويحتالون لدفع لوط والمؤمنين وهم قوم خبيث ﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا﴾ من نهاية خبائثهم ﴿يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ الخارجة عن مقتضى العقل والنقل والمروءة، وحين اضطر لوط من ترددهم وتبخرتهم، ولم ير في نفسه مدافعتهم ومقاومتهم ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ لهم من غاية غيرته وحميته في حق أضيافه: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ الإناث ﴿بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ إن أردتم الوقاع ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ المنتقم الغيور عن تفضيحي ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ ولا تخجلوني في ضيفي ﴿الْيَسَّ مِنْكُمْ﴾ أيها المجبولون على فطرة الإدراك ﴿رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ [هود: 78] ذو مروءة وعقل كامل.

﴿قَالُوا﴾ في جوابه مبالغين مقسمين: والله ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ يقينًا ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي: ميل وحظ، بل إنما عرضت بناتك علينا لترك أضيافك ﴿وَأِنَّكَ﴾ أيضًا ﴿لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: 79].

ولما اضطر لوط مسارعتهن ومماراتهن ﴿قَالَ﴾ مشتكيًا إلى الله: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ﴾ أدفع بها حزني وخزي-أضيافي لأدفعكم بتوفيق الله ﴿أَوْ آوِي﴾ وأرجع حين ظهور عدم مقاومتي ومدافعتي معكم ﴿إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: 80] هو حفظ الله وكنف جواره وحصن حضائته.

ثم لما رأى الرمل اضطرار لوط واضطرابه؛ إذ هو يخلق على أضيافه باب بيته فيجادل مع قومه، يتكلم معهم، وبعدها امتدت مجادلته معهم، قصدوا أن يثقبوا الجدار فاشتغلوا بالثقب والنقب ﴿قَالُوا﴾ أي: الرمل بعدما بلغ ألم لوط غايته: ﴿يَا لُوطُ﴾ لا تغتم ولا تضطرب في أمرنا ولا تهلك نفسك غيرة وغيظًا ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنَ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ أبدًا؛ أي: لن ينالوا بإضرارنا حتى اضطرت من أجلنا، ذرنا معهم، وأخرج من بيتنا وبينهم، وأخرج لوط مفتحًا باب بيته، فدخلوا على الرمل بالفور، فضرب جبرائيل ^{عليه السلام} بجناحه فأعماههم، فانقلبوا صائحين صارخين: النجاء النجاء فإن في بيت لوط سحرة.

وبعدما خرجوا فاقدين أبصارهم، قال الرسل أمرًا للوط: ﴿فَأَسْرِ﴾ أي: سر ليلاً ﴿بِأَهْلِكَ﴾ أي: بمن آمن معك ﴿بِقِطْعٍ﴾ أي: بعد مضي طائفة ﴿مِنَ اللَّيْلِ وَ﴾ بعدما خرجتم ﴿لَا يَلْتَمِثْ﴾ ولا ينظر ﴿مِنْكُمْ﴾ أيها الخارجون ﴿أَخَذَ﴾ خلفه حين سمع حنينهم وأنينهم وتشدد العذاب عليهم ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾ فإنها تلتفت حين سمعت الصيحة، فخرجوا على الوجه المأمور، فنزل عليهم العذاب بعد خروجهم بالفور،

فصاحوا صيحةً عظيمةً، ولم يلتفت أحد من الخارجين إلا امرأته، فلما سمعت التفتت، وصاحت: واقوماه! فأصيب بلا تراخ ومهلة ﴿إِنَّهُ﴾ أي: الشأن والامر في علمنا أنها ﴿مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ فلما سمع لوط ما سمع، استسرع إلى مقتهم من كمال ضجرته منهم، قالوا له: ﴿إِنْ مَوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ﴾ أي: موعد هلاكهم صبح هذه الليلة ﴿الْيَسُّ الصُّبْحُ﴾ أيها المستعجل ﴿بِقَرِيبٍ﴾ [هود: 81].

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ على رسلنا بإهلاكهم ﴿جَعَلْنَا﴾ أي: جعل الرسل بإقدارنا وتمكيننا إياهم قريتهم ﴿عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾⁽¹⁾ أي: يقلبون عليهم بيوتهم ﴿وَوَ﴾ مع ذلك ﴿أَمْطَرْنَا﴾ من جانب السماء ﴿عَلَيْهَا﴾ أي: على أماكنهم وقراهم ﴿جِجَارَةً﴾ تنحجر ﴿مِّنْ سِجِّيلٍ﴾ وهو معرب من سنك كل ﴿مُنْضُودٍ﴾ [هود: 82] ممتزج منضد بعضها على بعض ﴿مُسْوَمَةٌ﴾ معلمة مقدرة ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ وفي حضرة علمه ولوح قضائه لأمثال هذه البغاة الغواة الهالكين في تيه الغفلة والغرور.

﴿وَمَا هِيَ﴾ أي: أمثال هذه البليات والمعيات ﴿مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ الخارجين عن مقتضى حدود الله وأوامره ونواهيه ﴿بِيعِيدٍ﴾ [هود: 83] غريب حتى يستغرب في حقهم.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوِّمَ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَتَقَوِّمُ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَقْنَطُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ يَقِيْتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَنْشُعِبُ أَصْلُوكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَّتْرَكَ مَا يَنْعَبُدُ

(1) إذا طاب عيش العارفين بجمال معروفهم، وسكنوا بمواساة لطائف قربه، واستأنسوا بنرجس مودته، وورد وصلته ويأسمين نور صحبته، واطمأنوا في مكانات كشوف غرائب الملك والملكوت، وأمنوا من بليات الامتحان، هاج غيرة القدم عليهم، وأقلعهم طوارقات القهر، وألقتهم إلى منازل الامتحان، وجعلت أعالي قلوبهم وأحوالهم أسافل نفوسهم وشهواتها، حتى يعرفوا أن ساحة الكبرياء منزهة عن الأنس والوحشة والوجود والعدم، والمريدون إذا استكبروا على المشايخ يقلب الله مواجيلهم بطر النفوس ومجاهدتهم اتباع شهواتهم، الويل لمن كان هكذا المسلم عليهم أحجار البعد، نعوذ بالله منها، وسماتها تواتر العصيان، والخروج على أطيار بساتين الرحمان، وهذا جزاء من خرج على سادته ومشايخه، [العراس].

مَا بَأْسُنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ [هود: 84-87].

﴿و﴾ اذكر يا أكمل الرسل للمؤمنين المعبرين من ذوي الاستبصار والاعتبار وقت؛ إذ أرسلنا ﴿إِلَى مَدْيَنَ﴾ حين بالغوا التطفيف والتخسير في المكيلات والموزونات ﴿أَخَاهُمْ﴾ ومن شيعتهم ﴿شُعَيْبًا﴾ المتشعب منهم، ليكون أدخل في نصحتهم وأجهد في إهدائهم وإرشادهم ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ موصيًا لهم، متحنًا على وجه الشفقة والنصيحة ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ الواحد الأحد الصمد الذي ليس له شريك في الوجود والالوهية والربوبية وتيقنوا أنه ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ﴾ مظهر لكم ولجميع ما ظهر وبطن غيبًا وشهادة ﴿غَيْرُهُ﴾ بل الالوهية محصورة إليه، مقصورة له؛ إذ لا شيء سواه، ولا يستحق للعبادة إلا هو ﴿و﴾ عليكم أيها المأمورون من عنده بالاعتدال والاقتصاد في جميع الأخلاق والأفعال والأحوال أن ﴿لَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ لبني نوعكم ﴿إِنِّي أَرَأَيْكُمْ بِخَيْرٍ﴾ أي: سعة ورفاهية غاية لكم وتفضلاً عليكم، فعليكم أن تزيدوها وتديموها بالشكر والإنصاف والانتصاف على مقتضى ما أمرتم به من عند ربكم، وإن لم تعلموا مني ونصحي ولم تقبلوا قولي ﴿وإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ من غيرة الله وكمال قهره وسطوته ﴿عَذَابَ يَوْمٍ مُّجِيطٍ﴾ [هود: 84] فيه عذابه على جميع أهل الزيف والضلال، المنحرفين عن جادة الاعتدال.

﴿و﴾ بعدما قدم عليهم المنهي للعناية والاهتمام بشأنه، أردفه بالمأمور؛ للتأكيد والمبالغة وزيادة التقرير والإحكام، كأنه استدل عليه لمزيد إشفاقه وكمال مرحمته، فقال: ﴿يَا قَوْمِ﴾ إن أردتم خير الدارين ونفع النشأتين ﴿أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ على عباد الله؛ أي: لا تزيدوا عليها ولا تنقصوا منها؛ إذ الطرفان كلاهما مذمومان، بل أوفوهما ﴿بِالْقِسْطِ﴾ والعدل ﴿و﴾ عليكم أن ﴿لَا تَبْخُسُوا﴾ ولا تنقصوا ﴿النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ في حال من الأحوال ﴿و﴾ بالجملة: ﴿لَا تَغْشُوا فِي الْأَرْضِ مَفْسِدِينَ﴾ [هود: 85] أي: لا تظهروا عليها بالخداع والحيف والبخس والتطفيف.

﴿بَقِيَّةُ اللَّهِ﴾ التي قدرها في سابق حضرة علمه ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ومزيد مما لكم من تطفيفكم وتنقيصكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ بالله وبتدبيراته وتقديراته ﴿و﴾ اعلموا يا قوم إني ﴿مَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيظٍ﴾ [هود: 86] يحفظكم عن جميع ما لا يعينكم، بل أنا مبلغ ما أرسلت به إليكم، فلکم الامثال والتوفيق من الله الكبير المتعال.

ثم لما سمعوا منه ما سمعوا ﴿قَالُوا﴾ مستهزئين متهمين: ﴿يَا شُعَيْبُ﴾ المدعي دعوة الخلق إلى الحق ﴿أَصْلَاحُكَ﴾ الكثيرة التي تصلحها في خلواتك ﴿تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَغْبِذُ آبَاؤُنَا﴾ من الأصنام والأوثان ﴿أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ أي: تأمرك صلواتك أن تترك أفعالنا التي كنا عملنا بها في ازدياد أموالنا حسب إرادتنا واختيارنا ﴿إِنَّكَ﴾ أيها الداعي للخلق إلى الحق ﴿لَأَنْتَ الْحَلِيمُ﴾ ذو الحلم والكرم، ولا تعجل في الانتقام ﴿الرَّشِيدُ﴾ [هود: 87] العاقل، لا تتكدر بمثل هذه الأوهام، قالوا له هذا استهزاء وسخرية.

﴿قَالَ يَنْقُورُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَتْنٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَكُم عَنْهُ إِنْ أَرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ ﴿٨٨﴾ وَيَنْقُورُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ ثَابِعُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبَّ رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِتْنًا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِيزٌ ﴿٩١﴾ [هود: 88-91].

﴿قَالَ﴾ شعيب بعدما تفرس بنور النبوة باستهزائهم: ﴿يَا قَوْمُ﴾ الساعين للباطل المصيرين عليه ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِنْ كُنْتُ﴾ جئت لكم ﴿عَلَى يَتْنٍ﴾ مصدقة ناشئة ﴿مِّن رَّبِّي﴾ معجزة لجميع ما يقابلني ويعارضني ﴿وَر﴾ مع ذلك ﴿رَزَقَنِي مِنْهُ﴾ أي: من عنده سبحانه ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ معنويًا وصورياً وروحانيًا وجسمانيًا، فهل يليق بمثلي أن يفترى عليه، وينسب إليه مراء ما لم يوح من عنده كذبًا وبهتانًا ﴿وَر﴾ اعلّموا أيضًا أنني ﴿مَا أَرِيدُ﴾ بنهي لكم عن التطفيف والتبخيس ﴿أَنْ أُخَالِفَكُمْ﴾ فيما أنتم عليه وأرجع بنفسي ﴿إِلَىٰ مَا أَنهَكُم عَنْهُ﴾ لاستبد وأنخصص به، وهو إفساد وميل عن جادة الله الحق وصراط الله الأقوم، فكيف يميل الموحد المؤيد إلى أمثال هذا، بل ﴿إِنْ أَرِيدُ﴾ أي: ما أريد ﴿إِلَّا الْإِصْلَاحَ﴾ مقدار ﴿مَا اسْتَطَعْتُ وَ﴾ ما أنا متكفل للصالح أيضًا ومدع الاستقلال به ﴿مَا تَوْفِيقِي﴾ أي: إقداري وتمكيني وحولي وقوتي ﴿إِلَّا بِاللَّهِ﴾ إذ لا حول ولا قوة بالأصالة إلا بالله لذلك ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: وثقت والتجأت ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾^(١)

(1) قال في التاويلات: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فيما اختصني به في الازل، ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ فيما قدر لي لا إلى

[هود: 88] أرجع وأتوجه في جميع ما رجوت؛ إذ هو مولاي ومولي أموري وعليه اعتمادى واعتضادى.

﴿و﴾ بعدما تفرس منهم المصيبة والمراء المفرط، قال على مقتضى المحبة والشفقة وإرخاء العنان: ﴿يَا قَوْمَ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ أي: لا يحملنكم بغضى وعداوتى على الجرائم المستجلبة لأنواع العذاب والنكال، إني أخاف عليكم ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ﴾ بسبب جرائمكم وعصيانكم ﴿مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَزْ﴾ مثل ما أصاب ﴿قَوْمَ هُودٍ أَزْ﴾ مثل ما أصاب ﴿قَوْمَ صَالِحٍ﴾ وبالجمل: ﴿وَمَا قَوْمَ لُوطٍ﴾ وقصة استئصالهم وإهلاكهم وتقليب أماكنهم عليهم ﴿مَنْكُمْ يَبْعِدُ﴾ [هود: 89] متماد في البعد إلى حيث يحصل لكم الذهول عنه لقرب عهدهم.

﴿و﴾ يا قوم ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ الذي أظهركم من العدم من جميع فرطاتكم ﴿ثُمَّ تَوُوبُوا إِلَيْهِ﴾ أي: اخلصوا في إنابتكم ورجوعكم، ولا تغتموا بعد إخلاص التوبة بما جرى عليكم من الجرائم ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ﴾ يقبل توبتكم ويعفو عن زلاتكم ﴿وَدُودٌ﴾ [هود: 90] يحبكم ويرحمكم ويتفضل عليكم.

وبعدما بالغ في نصحتهم وإرشادهم ﴿قَالُوا﴾ تسفيها عليه وتخويفا: ﴿يَا شُعَيْبُ﴾ نادوه على سبيل الاستهزاء والاستحقار ﴿مَا نَفَقَهُ﴾ ونفهم ونعقل ﴿كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ أي: بعض هذياناتك التي تكلمت بها ﴿وَإِنَّا﴾ أي: وإن لم نفهم بعض كلماتك لابتنائها على الخيال والخرق ﴿لَنَرَاكَ﴾ في بادي الرأي ﴿فِينَا ضَعِيفًا﴾ في غاية الضعف والحقارة ﴿و﴾ بالجمل: ﴿لَوْلَا رَهْطُكَ﴾ أي: عشائرك وأقوامك ﴿لَرَجَفْنَاكَ﴾ بالحجارة ألبتة بسبب هذياناتك وذكرك آلهتنا بالسوء، ودخلك على أفعالنا مع أموالنا ﴿و﴾ اعلم يقينا إنك بنفسك ﴿مَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: 91] بل عزتك عندنا بسبب رهطك لكونهم إخواننا في الدين، فلا نريد أذاهم بقتلك، وإلا فلا نبالي بك ويرحمتك.

﴿قَالَ يَنْقُورُ أَرْهَطِي أَهْزُ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذُ شُؤهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِي﴾

غيره، والتوكل على ثلاثة أوجه: توكل المبتدئ؛ وهو ترك الأسباب في طلب المعاش. وتوكل المتوسط؛ وهو ترك طلب المعاش في طلب العيش مع الله. وتوكل المتهني؛ وهو استهلاك الوجود في وجود الله وإفناء الاختيار في اختيار الله؛ ليبقى في هويته بلا هو متصرفا في الأسباب به، ولا يرى التصرف والأسباب إلا لمسبب الأسباب.

يَمَا تَعْمَلُونَ مُخِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَقَوْمِ أَغْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جَثِيمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّإِمْدِينَ كَمَا بَعْدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ [هود: 92-95].

وبعدما آيس شعيب عليه السلام من إيمانهم ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ أضافهم إلى نفسه هنا تهكمًا بخلاف ما مضى؛ إذ قد آيس عن صلاحهم بالمرّة ﴿أَرْهَطِي﴾ وأقوالي ﴿أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ الذي أوجدكم من كتم العدم، فعزرتهم وراعى جانبهم ﴿وَأَتَّخَذْتُمُوهُ﴾ أي: الله سبحانه وأوامره ونواهيه وإطاعة رسوله ﴿وَرَاءَكُمْ ظَهْرِي﴾ أي: منبؤًا وراء ظهوركم، بل رجحتهم جانب المصنوع على جانب الصانع ﴿إِنِّي رَقِيبٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من المفاصد ﴿مُخِيطٌ﴾ [هود: 92] بعلمه إحاطة حضور لا يغيب عنه شيء، فيفصلها عليكم ويجازيكم بها.

﴿وَيَا قَوْمِ﴾ الناكين عن طريق الحق المصيرين على الباطل ﴿اغْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ وعلى مقتضى مرتبتكم ونشأتكم أي عمل شتم ﴿إِنِّي﴾ أيضًا ﴿عَامِلٌ﴾ على شأني ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أنتم وأنا أيضًا ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ ويرديه ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ منا بالله وبسر ربوبيته وتوحيده ﴿وَارْتَقِبُوا﴾ أي: انتظروا وترقبوا بالعذاب والنكال ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود: 93] متظر.

﴿وَلَمَّا جَاءَ﴾ ونفذ ﴿أَمْرُنَا﴾ بإهلاكهم ﴿نَجَّيْنَا﴾ وأخرجنا أولاً من بينهم ﴿شُعَيْبًا﴾ الناجي ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ وامثلوا بما أمروا به من عندنا ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ نازلة ﴿مِنَّا﴾ إياهم تفضلاً ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم حين صاروا في فراشهم باتين ﴿الصَّيْحَةَ﴾ الهائلة ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ﴾ التي كانوا مترفين فيها ﴿جَاثِمِينَ﴾ [هود: 94] جامدين جثومهم وأجسادهم بلا روح.

وصاروا ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا﴾ ولم يسكنوا ﴿فِيهَا﴾ فصاح عليهم من صاح من أرباب الفطنة والعبرة: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّإِمْدِينَ كَمَا بَعْدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: 95].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِنْ فِرْعَوْنُ وَمَلَأِيُوسَاقَبُوا أَمْرًا

فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَبْسُ
الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَبْسُ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَلِكَ مِنْ
أَنْبَاءِ الْفُرَى نَقْصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ
فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ
تَتَّبِيرٍ ﴿١٠١﴾ [هود: 96-101].

وبعدما انقرض أولئك الطغاة الغواة المنهمكين في الغي والضلال، المفسدين في
الأرض بأنواع الإفساد والإضلال ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ حين حدث على الأرض أمثال
أولئك الهالكين بل أسوأهم حالاً وأقبحهم شيمة وخصالاً وأشدّهم بغضاً وشكيمة على
الحق وأهله، عبدنا ﴿مُوسَى﴾ المخصص من عندنا بتكليمنا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على
توحيدنا واستقلالنا في ملكنا وملكوتنا ﴿وَسُلْطَانٍ﴾ أي: أيّدناه من عندنا بحجة واضحة
وبرهان ﴿مُبِينٍ﴾ [هود: 96] ظاهر الدلالة على صدقه في دعواه عند من له أدنى مسكة.
﴿إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ الذي هو رأس أهل الضلال ورئيسهم إلى حيث تبعوه بالالوهية
من غاية عتوه واستكباره ﴿وَمَلَأْنَاهُ﴾ المعاوين له في أمره وشأنه، ثم لما أمهلنا زماناً على
غروره ورفعنا قدره في هذه الدنيا مسروراً؛ تغريراً عليه ﴿فَاتَّبَعُوا﴾ من على الأرض
﴿أَمْرُ فِرْعَوْنَ﴾ وامتثلوا بمقتضاه ﴿وَالْحَالُ أَنَّهُ﴾ [هود: 97] هادٍ إلى الحق، موصل إلى مقصد التوحيد، بل هو غار موصل إلى نار الخذلان وسعير
الحرمان.

إذ هو بنفسه ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ﴾ أي: يتقدم عليهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ التي انكشفت فيها
السرائر واضمحلت الأوهام ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ مثل إيرادهم على ماء نيل في دار الدنيا،
شبه حالهم في النشأة الأخرى بحالهم في النشأة الأولى، لذلك عبر عنه بالإيراد
﴿وَيَبْسُ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود: 98] ونار الخذلان وجحيم الحرمان.

﴿وَالْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ هم من غاية خبثهم وفسادهم ﴿أَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ﴾ النشأة ﴿لَعْنَةً﴾ دائمة
مستمرة ﴿وَالْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ يلعنون أيضاً ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بأضعاف هذه اللعنة، وبالجمل: ﴿يَبْسُ
الرِّفْدُ﴾ أي: العون والعطاء ﴿الْمَرْفُودُ﴾ [هود: 99] أي: المعان والمعطى رفدهم التي
هي طردهم في الدارين ولعنهم في النشأتين.

﴿ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى﴾ وأخبارهم وما جرى عليهم ﴿نَقْصَةٌ عَلَيْكَ﴾ بالوحي يا أكمل الرسل ليكون عبرة لك ولمن تبعك مشاهدة وتذكيرًا ﴿مِنْهَا﴾ أي: من تلك القرى ﴿قَائِمٌ﴾ جذرانها بلا سقف ﴿وَوَ﴾ منها ما هو ﴿خَصِيدٌ﴾ [هود: 100] مدرّوس منك، كالزراع المحصود، عفت آثاره واندرست أطلاله.

﴿وَوَ﴾ بالجملة: ﴿مَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بإهلاكهم وتخريب ديارهم ﴿وَلَكِنْ﴾ هم ﴿ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ باتخاذ مصنوعاتنا آلهة أمثالنا مستحقة للعبادة، ظنًا منهم أن آلهتهم تنفعهم لدى الحاجة وتشفعهم وقت الشفاعة ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ﴾ أي: كفت ودفعت عنهم ﴿آلَهُتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ظلمًا وزورًا ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: شيئًا قليلًا من القضاء ﴿لَمَّا جَاءَ﴾ أي: حين جاء ﴿أَمْرُ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل، وحين نزل عذابه وحل عقابه إياه، بل ﴿وَمَا زَادُوهُمْ﴾ آلهتهم حين حلول العذاب عليهم ﴿غَيْرَ تَنْبِيٍّ﴾ [هود: 101] أي: هلاك وتخسير؛ لأنهم بسبب عبادة هؤلاء صاروا مطرودين عن سعة رحمة الله وجوده.

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [١٠٢] إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُفْلٌ وَسَوِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَمْ يَفِيَّا زَفِيرٌ وَشَهيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَلِيلِيكَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَقَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سُوءُوا فِي الْجَنَّةِ خَلِيلِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوفٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَفْعِلُ هَؤُلَاءِ مَا يَحْبِبُونَ إِلَّا كَمَا يَحْبُدُّ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ نَصِيبُهُمْ خَيْرٌ مِّنْ قُرْصِ ﴿١٠٩﴾ [هود: 102-109].

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما سمعت يا أكمل الرسل ﴿أَخْذُ رَبِّكَ﴾ أي: انتقامه ويطشه ﴿إِذَا أَخَذَ الْقُرَى﴾ أي: حين أخذ أهلها بظلمهم وعصيانهم ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ خارجة عن مقتضى الأمر الإلهي ونهيه، وبالجملة: ﴿إِنْ أَخَذَهُ﴾ للمُسرفين الخارجين عن حيطه حدوده ﴿أَلِيمٌ﴾ مؤلم ﴿شَدِيدٌ﴾ [هود: 102] في غاية الشدة؛ لكونهم مبالغين في

الإصرار والاستكبار.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور من قصص الأمم الهالكة ﴿لَايَةً﴾ عظة وعبرة ﴿لِمَنْ﴾
خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ وحساب الله إياه فيها على رؤوس الأشهاد ﴿ذَلِكَ﴾ اليوم ﴿يَوْمٌ﴾
مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ⁽¹⁾ [هود: 103] شهد فيه الجميع للجميع بل
الأعضاء والجوارح على صاحبها.

﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ﴾ أي: اليوم الموعود ﴿إِلَّا لَأَجَلٍ مُّعَدُّودٍ﴾ [هود: 104] أي: لانقضاء

مدة قصيرة.

اذكر يا أكمل الرسل عظة وتذكيرًا لمن تبعك ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ ذلك اليوم الدوِّعود
الهائل ﴿لَا تَكَلِّمْ﴾ فيه ﴿نَفْسٍ﴾ ولا يشفع شافع؛ لشدة هوله وفزعه ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي:
بإذن الله وإقداره إياها ﴿فَمِنْهُمْ﴾ أي: بعض الناس من الموقوفين في المحشر ﴿شَقِيٍّ﴾
خرج من الدنيا على الشقاوة ووخامة العاقبة ﴿وَمِنْهُمْ﴾ [هود: 105] خرج
منها على السعادة وحسن العاقبة.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا﴾ في الدنيا وخرجوا منها على الشقاوة ﴿فَفِي النَّارِ﴾ أي: هم
في النشأة الأخرى داخلون في النار ومضطربون فيها؛ إذ ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾
[هود: 106] أي: إخراج النفس من شدة الحرارة، وشهيق؛ أي: رده؛ يعني: حالهم فيها
كحال من استولت عليه الحرارة على قلبه وضيق الأمر عليه، فيردد نفسه كما في مكررة
الموت، وذلك من شدة كربهم وآلمهم ولكونهم متناهين في الشقاوة في دار الدنيا، لا
ينقطع عذابهم فيها أصلاً.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ أي: ما تحقق الجهتان الحقيقيتان؛
أي: الفوق والتحت ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ أي: تعلق إرادته ومشيته لإخراج بعض منها
كفساق المؤمنين ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: 107] أي: له الاختيار التام في جميع
مراداته ومقدوراته، ومن جملتها: إخراج بعض العصاة من النار.

(1) قال يحيى بن معاذ: الأيام منها يوم مفقود، ويوم مشهود، ويوم مورود، ويوم موجود، ويوم
محدود، فالיום المفقود: أميك؛ فإنك على ما فرطت فيه، واليوم المشهود يومك فتزود منه ما
استطعت، واليوم المورود: لا تدري هو لك أم أنت له لعله ليس من أيامك، وهو غدك فلا
تشغل به ولا تهتم له، واليوم الموحود: فاجعله من بالك، واذكره على كل أحوالك، واعمل له
فإنه آخر أيامك، ويوم ممدود: يوم يقوم الناس لرب العالمين، فانظر لنفسك لوقوف ذلك.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا﴾ في الدنيا، وخرجوا على السعادة منها ﴿فَفِي الْجَنَّةِ﴾ أي: هم في النشأة الأخرى في الجنة التي هي منازل السعداء الآمنين، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ متنعمين فيها مترفحين بأنواع النعم الجسام ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ وتعلق إرادته بإعلامها، وهو الانكشاف الذاتي والتجلي الشهودي، وذلك لمن يعطى ﴿عِطَاءً غَيْرَ مُجْدُوذٍ﴾⁽¹⁾ [هود: 108] أي: غير مقطوع؛ إذ لا انقطاع للتجليات الذاتية ولا للذاتها المرتبة عليها بالنسبة إلى الفائزين بها، جعلنا الله من خدامهم.

وبعدما تبين حال السعداء المقبولين والأشقياء المردودين ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ شك وتردد ﴿مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ المشركون، ألا يستجلب عليهم العذاب والنكال كما استجلب على أسلافهم؛ إذ هم ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ﴾ وأسلافهم ﴿مِمَّنْ قَبْلُ﴾ فسيلحقهم مثل ما لحقهم؛ لأن اشتراك الأسباب يوجب اشتراك المسببات ﴿وَلِإِنَّا﴾ وإن أمهلناهم زماناً في الدنيا ﴿لَمَوْفُوهُمْ نَصِيَّتُهُمْ﴾ وحظهم من العذاب في الآخرة مثلهم ﴿غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ [هود: 109] من عذابهم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُتِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ لَفِيَ شَكٌّ مِنْهُ مُرِيبٌ﴾⁽¹¹⁰⁾ وَإِنْ كَلَّا لَمَا لِيَؤَيِّتَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُمْ بِمَاتِعِلُونَ خَيْرٌ⁽¹¹¹⁾ فَاسْتَوَيْتُمْ كَمَا أَمَرْتُ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ⁽¹¹²⁾ وَلَا تَزَكُّوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ⁽¹¹³⁾ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّكَ لَحَسْبَتُ يَدَيْكَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ⁽¹¹⁴⁾ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ⁽¹¹⁵⁾ [هود: 110-115].

(1) الإشارة: السعادة على قسمين: سعادة الظاهر، وسعادة الباطن. والشقاوة كذلك. أما سعادة الظاهر ففي الدنيا بالراحة من التعب، وفي الآخرة بالنجاة من العذاب، وأما سعادة الباطن ففي الدنيا براحة القلب من كد الهموم والأحزان، واليقين والاطمئنان في حضرة الشهود والعيان، وفي الآخرة بدوام النظر في مقعد صدق عند مليك مقتدر. وشقاوة الظاهر باتصال الكد والتعب. البحر المديد (75/3).

﴿وَكَيْفَ لَا نُوفِي الْعَذَابَ عَلَى الْمَشْرِكِينَ﴾ ﴿لَقَدْ آتَيْنَا﴾ من عظيم جودنا ﴿مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة حين فشا الجدال والمراء والكفر والفسوق بين بني إسرائيل واضمحلت العدالة الإلهية بالكلية ﴿فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ مثل اختلافهم في كتابك الذي هو أفضل الكتب علمًا وإحاطة، وأجمعهم حكمًا، وأشملهم معرفة، وأكملهم حقيقة وكشفًا ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ في أنظار هؤلاء الكفرة وإمهالهم إلى يوم القيامة ﴿لَقُضِيَ﴾ أي: حكم وفرق ﴿بَيْنَهُمْ﴾ الآن، بحيث يتميز المحق من المبطل، فليحق المبطلين وبال ما صنعوا، فهلكوا كما هلكوا ﴿وَأَيْنَهُمْ﴾ أي: كفار قومك، من غاية انهماكهم في الغفلة وتماديهم في العناد والاستكبار ﴿لَفِي شَكٍّ﴾ أي: من أمر القرآن مع أنهم عارضوا معه مرارًا فأفحموا ﴿مِنَّهُ مُرِيبٌ﴾ [هود: 110] موقع للريب والشك للخرفاء المنحطين عن التأمل في مرموزاته والتدريب في إشاراته.

﴿وَإِنْ كُلاً﴾ أي: كلاً من المؤمنين المحققين والمبطلين الكافرين، والله ﴿لَيُؤَفِّيَنَّهُمْ﴾ ويوفرن عليهم بلا زيادة وتنقيص؛ إظهارًا للقدرة الكاملة والعدالة التامة الشاملة ﴿رَبِّكَ﴾ الذي أظهرهم من كتم العدم بلا سبق مادة ومدة ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ أي: أجورها وجزاءها، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه بذاته وأوصافه وأسمائه ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ من الخير والشر والصالح والفساد والعبادة وتركها ﴿خَبِيرٌ﴾ [هود: 111] على وجه الحضور، لا تغيب عنه غائبة ولا تخفى عليه خافية.

ومتى تلطفت يا أكمل الرسل بخبرة الحق وحضوره، وتنهت تنبيها وجدائيا حضوريا وانكشفت بها انكشافا عينيا شهوديا ﴿فَاسْتَقِمْ﴾ أي: فاعتدل في أوصافك وأفعالك وأقوالك ﴿كَمَا أُمِرْتَ﴾ من ربك بوحيه عليك وإلهامه إليك، وأمر أيضا بالعدالة والاستقامة ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ وآمن لك واتخذ طريقك مسلكا إلى الحق ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ أي: لا تميلوا ولا تخرجوا أيها المتحققون بحقية التوحيد واستقامة صراطه ولا تنحرفوا عن سبيل السلامة التي هي جادة الشريعة المصطفوية أصلاً ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه بذاته ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من جميع الأعمال الموجبة للعدالة والانحراف ﴿بُصِيرٌ﴾ [هود: 112] لا يخفى عليه شيء.

ولصعوبة الامتثال بهذه الآية الكريمة قال ﷺ: «شيبتي سورة هود»⁽¹⁾.

(1) رواه ابن سعد (435/1)، وأبو يعلى (102/1)، رقم (107)، والطبراني في «الأوسط» (8/16)، رقم

وقال أيضًا ﷺ: «هذه الآية قصمت ظهور أنبياء الله وأوليائه»⁽¹⁾.

﴿وَلَا تَزْكُتُوا﴾ أي: لا تميلوا ميله ولا تلتفتوا التفاتًا قليلًا أيها المستترون على صراط الله، المستقيمون لجادة عرفانه ﴿إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: خرجوا عن حدود الله الموضوعه لإصلاح أحوال عباده ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ بأدنى الميل والالتفات ﴿وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ ينقذونكم من النار لو توالونهم أو تداومون الميل إليهم ﴿ثُمَّ﴾ اعلموا أنكم لو اخترتم موالاة الظلمة واتخذتموهم إخوانًا كسائر المؤمنين ﴿لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: 113] ولا تنقذون من النار، فعليكم ألا تتخذوا الكفار أولياء من دون المؤمنين.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ أي: أدم الميل والركون إلى الله بجميع الأعضاء والجوارح في جميع الأوقات والحالات، سيما ﴿طَرَفِي النَّهَارِ﴾ أي: قبل الطلوع وقبل الغروب، فإنهما وقتان محفوظان عن وسوسة الأوهام، خاليان غالبًا عن الشواغل ﴿وَوَعَدُكَ﴾ تختلس لتوجهك ﴿زُلْفَى﴾ أي: ساعات ﴿مِّنْ﴾ آخر ﴿الَّيْلِ﴾ قريبة بالنهار، فإن إقدامك عليها وإقامتك لها حسنات، خصوصًا في تلك الساعات الخالية عن وساوس الخيالات ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ﴾ الخالية عن الرياء والرعونات ﴿يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ وتصفى صاحبها عن كدر الغفلات ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الأمر بالاستقامة على المتعطين، الذين يذكرون الله في السراء والضراء ويتعظون بجميع ما جرى عليهم من الخصب والرخاء، إنما هو ﴿ذِكْرِي﴾ وعظة وتذكرة شافية ﴿لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: 114] الله في عموم أحوالهم وحالاتهم.

وبالجملة: ﴿وَأَضْبِرْ﴾ على أذاهم واكظم غيظك، فإن الصبر على الأذى من أعظم الحسنات ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: 115] سيما على من أساء عليه.

﴿مَلَأْنَا مَنَاقِبَ الَّذِينَ مَنَعُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَن يَأْتُوا فِي الْبُيُوتِ﴾

8269) قال الهيثمي (37/7): رواه الطبرني في «الأوسط» ورجاله رجال الصحيح ويأتي في

سورة الواقعة، ورواه أبو يعلى إلا أن عكرمة لم يدرك أبا بكر.

(1) لم أقف عليه.

قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ [هود: 116-119].

﴿فَلَوْلَا﴾ أي: فهلا ﴿كَانَ مِنَ الْقُرُونِ﴾ اللاتي خلون ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ وفيها ﴿أُولُوا بَقِيَّةٍ﴾ أي: ذوو رأي ونهية وفضل وتدبير ﴿يَنْهَوْنَ﴾ برأيهم وتدبيرهم ﴿عَنِ الْفَسَادِ﴾ الواقع ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ ولكن ما أبقينا عليها منهم ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: من عقلائهم، ليتبع لهم العوام فينجوا من الآثام ﴿وَوَ﴾ مع ذلك لم يتبعوا حتى ينجوا، بل ﴿اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالعرض على عذاب الله والخروج عن مقتضى حدوده بـ ﴿مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ أي: المترفة المتعمة من ذوي اللذات والشهوات، فاهتموا بتحصيل أسبابها ﴿وَوَكَانُوا﴾ بميلهم إلى الهوى واللذات ﴿مُجْرِمِينَ﴾ [هود: 116] مستحقين لأنواع العقوبات.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾ أي: ليس من سنته وجري عادته ﴿لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ بشرك وكفر صدر عنهم ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: 117] أي: والحال أن أهلها مصلحون على الأرض لا مفسدون فيها؛ يعني: لا يأخذهم سبحانه بمجرد حق الله بلا انضمام حقوق العباد إليه، بل إنما أخذهم الله حين فشا الفسوق والمراء، وظهر الفساد والجidal بين العباد.

كيف ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ من غاية لطفه لعباده ﴿لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: 118] متفقة على التوحيد بلا مخالفة منهم.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ وجعل فطرته على صرافة التوحيد ﴿وَلِذَلِكَ﴾ التوحيد والعرفان ﴿خَلَقَهُمْ﴾ وجبلهم ﴿وَوَ﴾ بالجملة: ﴿تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ بوضع الاختلاف بين استعدادات عباده حسب تجلياته وشئونه على مقتضى أوصافه وأسمائه المتقابلة بحسب الكمال ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ التي أعدت للأشقياء المردودين المنحرفين عن جادة العدالة الإلهية والقسط الحقيقي ﴿مِنَ الْجِنَّةِ﴾ أي: الشياطين ﴿وَالنَّاسِ﴾ التابعين لهم

والمقتفين أثرهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾^(١) [هود: 119] أي: منهما جميعًا.

﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(١٢٠) وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ^(١٢١) وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ^(١٢٢) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ^(١٢٣) [هود: 120-123].

﴿وَكُلًّا﴾ أي: كل قصة ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ﴾ العظام من جملة ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِ﴾ ونقرر على التوحيد ﴿فُؤَادَكَ﴾ إذ بكل قصة من القصص المذكورة يشرح صدرك للتوحيد ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ أي: الشهود والانكشاف التام خاصة ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: 120] الذين يصدقونك ويقتفون أثرك.

(١) إن الله سبحانه حفظ الأوقات على أهل المشاهدات والمحاضرات، ووسمها بوظائف الطاعات لهم ليصلوا بالمجالسات والمحاضرات والمراقبات والطاعات إلى معالي الدرجات والقربات؛ لأن من حضر بقلبه وروحه وعقله مجالس الذكر والمراقبة يصل سره إلى رؤية المشاهدة أحد طرفي النهار؛ لأن كثرة الفترة والزلة والغفلة يكون بالنهار حتى يكونا ذاهبين بما جرى بينهما من الغفلات بما فيها من صفاء الأذكار وجولان الأفكار، وأخذ طرقًا من الليل، وهو أولها لبقاء صفاء الوقت، وحلاوة الذكر والطاعة، وحرقة الوجد، ولهيب القلب، ولذة الأنس إلى النهار، ولا يترك صاحبها عاقلًا، وإن كان نائمًا، فإذا وصل أوقات الليل بأوقات النهار ووصل أوقات النهار بأوقات الليل بنعت عد الأنفاس، ونفي خواطر الوسواس، تذهب أنوارها غبار الخطرات، وظلمة المعارضات، وهيجان الطبيعيات البشرية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِفَاتِ﴾: إن حسنات أنوار المشاهدات تذهب سيئات المعارضات، وتذهب حسنات كشف الجمال سيئات الخيال، وتذهب حسنات التوحيد والمعرفة والفهم سيئات الظن والوهم، ولا يعرف ما وصفنا إلا أهل الذكر من المريدين، وأهل المراقبة من المحبين، وأهل الرعاية من العارفين، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّكَّيرِينَ﴾ قال أبو عثمان: الأوقات والساعات جعلت علامات الأذكار أوقافًا للتيقظ والاعتبار، فمن مرت عليه أحواله وأوقاته وساعاته في غفلة، فليتيقن بموت القلب؛ لأنه مطالب في كل وقت من أوقاته، إما بفريضة أو سنة أو أدب. قال الواسطي: أنوار الطاعات تذهب بظلم المعاصي. قال بعضهم: رؤية الفضل تسقط عن العبد رؤية العمل. قال أبو عثمان: حسن الظن بالخلق ينهب بالأمانة والغيبة، ويورث الشفقة والتصيحة والرحمة، وذلك موعظة لمن يوفق له ويؤهل.

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بك وبدينك وبكتابك ممارسة لهم ومباهلة ﴿اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ أي عمل شتم ﴿إِنَّا عَامِلُونَ﴾ [هود: 121] على مكانتنا وشأننا بتوفيق الله.

﴿وَانْتَظِرُوا﴾ بأي شيء انتظرتم ﴿إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ [هود: 122] العلم عند الله.

إذ ﴿وَلِلَّهِ﴾ لا لغيره ﴿غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: الإطلاع عليهما وعلى مكتوناتهما ﴿وَالنَّهْيِ﴾ لا إلى غيره ﴿يُزَجِّعُ الْأَمْرُ كُلَّهُ﴾ إذ لا شيء ولا أمر إلا هو ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ حق عبادته ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ حق التوكل والتفويض ﴿وَمَا رَبُّكَ﴾ يا أكمل الرسل المحيط علمه بجميع ذرائر الأكوان إحاطة حضور ﴿بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: 123] من الإخلاص في العبادة والتبتل والتوكل والتفويض والرضاء والتسليم.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المأمور بتهديب الأخلاق من الرذائل، والأوصاف من الذمائم، والأوصاف والأفعال من القبائح، والأقوال من الكواذب، والأطوار من المخالفة المنافية لصرافة التوحيد أن تستقيم بعزائمك هذه على الوجه المأمور لنبيك الذي هو قبلة لجميع مقاصدك بقوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود: 112] أي: فاعتدل بجميع ما صدر عنك، فلك أن تقتفي أثره ﷺ في جميع حالاتك من أمثال الأوامر واجتناب النواهي وتهديب الأخلاق؛ إذ هو ﷺ زبدة أرباب التوحيد الواصلين بمقعد الصدق ومنزل التفريد، والسابقون واللاحقون كلهم يقتبسون من مشكاة أنواره ﷺ.

فعليك أيها المستعد المستشرد من الكلام المجيد أن تضبط جميع أحوالك على الاستقامة والاعتدال، وتجنب عن كلا طرفي الإفراط والتفريط، وتستعيد بالله عن مداخله الرياء والسمعة المنافيين للإخلاص.

واعلم أن خير قرينك في طريقك هذا الرضا والتسليم والتفويض إلى العزيز العليم، ولك العزلة عن الخلطة والانخراط في سلك أهل الثروة والغفلة، والقناعة بالكفاف والعزوبة بالعفاف.

وعليك ألا تفرق خاطرک وهمك في أمور دنياك ولو لحظة حتى لا تورثك همًا كثيرًا وحزنًا طويلًا؛ إذ المسافر في منزله لا يتصرف إلا مقدار مقيله، أما تسمع قول

النبي ﷺ الأديب الأريب: «كن في الدنيا كأنك غريب»⁽¹⁾ ١٩.

أو: «اشدد حيازيمك للموت والرحيل كأنك عابر سبيل»⁽²⁾.

وبالجملة: لا تغتر بحياتك في دار الغرور، وعد نفسك من أصحاب القبور، فإنه دأب أهل السرور، ديدنة أرباب الحضور.

(1) رواه البخاري في «صحيحه» (267/21).

(2) رواه الطبراني في «الكبير» (84/1)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (175/6) بنحوه.

سورة يوسف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة يوسف عليه السلام

لا يخفى على من تأمل في صور الرؤيا وتدبر في كيفية ظهورها وانمحاتها سريعاً وعدم استقرارها كالبرق الخاطف، أن الوجود الخيالي ألطف الموجودات وأرقها وأصفها عن كدر الهولي، وأشبهها بالتجليات الإلهية المتجددة المتشعبة دائماً، إلا أن الآثار الغيبية التي هي متروعة عنها، مأخوذة منها ستوجد ألبتة، كذلك وجب العبور عنها والتعبير بها، ولهذا صار الرؤيا الصالحة جزءاً من سبعين جزءاً من أجزاء النبوة، إلا أن المطلعين عليها والمتأملين فيها ممن حصنه الله بالنفوس القدسية والمرتبة الحدسية المتفرعة على التمرين والرسوخ في سر سريان الوحدة الذاتية، المتجلية على ذرات المكونات، وفي كيفية رقائق المناسبات والارتباطات الواقعة بين أجزاء المظاهر وجزئياتها، إنما هو في غاية الندرة وبواسطة ذلك صارت كمالاتهم اللاتقة لنشأتهم كلها بالفعل، وصاروا بذلك مستحقين للخلافة والنيابة الإلهية.

ومنهم يوسف الصديق - صلوات الرحمن عليه وسلامه - أحاط بحضرة الخيال إلى حيث لم يشذ عن تعبيره صورة من صور الرؤيا، كما أخبر عنه الحق سبحانه في هذه السورة ويفصح عنه التواريخ والآثار المروية عن النبي المختار ﷺ، لما أراد سبحانه أن يشير إلى مرتبته وبنه على نبيه بعلو شأنه ورتبته، ذكر قصته في كتابه تميماً لسعة دائرة كمال حبيبه ﷺ، والمقتفين أثره من خلص أولياء الله؛ لينال كل منهم إلى ما قدر الله لهم من حظوظ المراتب، فقال متيماً باسمه الكريم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المتجلي بكمالاته على حضرة الخيال ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لعباده بالعبور عنها على صور الهياكل العينية والتمثال ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم إلى كيفية ظهوره بالتفصيل والإجمال.

﴿الرَّحْمَنُ﴾ أَيْتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾

فَمَنْ نَقَّصَ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ

رَأَيْتُهُمْ لِي سَجِدِينَ ﴿١٠﴾ قَالَ يَبْنَؤُا لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١١﴾ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُرِيكَ نِعَمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٢﴾ [يوسف: 1-6].

﴿الر﴾ أيها الإنسان الكامل اللائق، الرشيد لرفع لواء سرائر الربوبية ورموز التوحيد، وتميز أجل لباب الرؤيا والروايات الواردة لتبيينه عن قشورها ﴿تِلْكَ﴾ العبر والأمثال والقصص والآثار المذكورة لك فيما يتلى عليك يا أكمل الرسل لتأييدك وارتفاع شأنك ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [يوسف: 1] الذي هو حضرة علمنا المشتمل على جميع مراداتنا ومقدوراتنا.

﴿إِنَّا﴾ من مقام جودنا ولطفنا ﴿أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا﴾ منظماً على صور الألفاظ والعبارات، مترجماً عما عليه الأمر في حضرة علمنا الحضورى ﴿عَزِيزًا﴾ أسلوبه عناية منا إليكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْقَهُونَ﴾ [يوسف: 2] معناها وتطلعون على مرموزاتها وإشاراتنا وتطرحون عقولكم الموهوبة لكم لكشف سرائرها وخفياتها.

﴿نَحْنُ﴾ من كمال لطفنا معك ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل، تأييداً لأمرك وتعظيماً لشأنك ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾^(١) استماعاً وأكملها انتفاعاً وأشملها عبرة وأتمها

(1) إن الله سبحانه لما أراد أن يوقع عتقاء همته إمتاع قوسينية إلى شبكة عشق زينب، وسقاها من مشارب سواقي الالتباس زلال بحر تجلى صفة الجمال بأفداح الأفعال، رأى قدس همته عن علل الإنسانية في ذلك، وغيرته على معهد مشاهدة الأزل نسلى قلبه بهذه القصة التي هي مطية رواحل أسرار العاشقين والواقفين، وهو تعالى بجوده واختياره له سيادة الكونين ورسالة العالمين يواسيه لئلا يضيق صدره في محل الامتحان، لأن امتحان بالعشق الإنساني مراقي مشاهدة جمال الأزال والأباد ليسير في ميادين القدم والأبد بمراكب العشق، فإن بالعشق بلغوا إلى العشق، وحسن القصة بيان عشق الإنساني في مراتب الأرواح العاشقة، وطيرانها من هذه المقامة إلى عشق الألوهية، ومشاهدة الأزلية. فقد بين تعالى أن قصة العاشق والمعشوق أحسن القصص لما فيها من الأمثال والعبر، والذوق والشوق، والفراق والوصال، والبلاء والعناء، وشأن يوسف ~~عليه السلام~~ كله عشق به أبوه، وهكذا كل من رآه، لأن حسن جمال القديم ألبس وجهه، وكان مرآة الله في بلاد الله تجلى الحق منها للعباد. وكيف لا يكون أحسن القصص؟ وهذه القصة قديمة أزلية، وكل حسن في العالم هي معدة بها، ومنها صدر كل الحسن والمستحسن، ومن

فائدة وأعمها عائدة؛ إذ الفطن اللبيب استفاد منها من العبر والتذكيرات والرموز والإشارات ما يكفي مؤونة سلوكه في أمر دينه لو كان من ذوي الرشد وأهل الخبرة والبصيرة، وإنما علمناه لك ونبهناه عليك ملتبًا ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا﴾ أي: بإيحائنا وإنزالنا ﴿إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ المخبر عن المغيبات المكنونة في حضرة علمنا ﴿وَإِنْ كُنْتَ فِي نَفْسِكَ﴾ أي: قبل وحين وإلهامنا إياك ﴿لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: 3].

اذكر يا أكمل الرسل ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾⁽¹⁾ حين بلغ الحلم وترقى من الطفولية: ﴿يَا أَبَتِ﴾ ناداه تحتًا إليه ﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾ في المنام ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ من الكواكب العظام ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أيضًا معهن ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: 4] واضعين جباههم على تراب المذلة عندي تعظيمًا وترحيًا - جمعها جمع العقلاء باعتبار ما يؤول إليه ويؤول به - ثم لما تفرس أبوه من الرؤيا ما تفرس، بادر إلى نهيه عن الإفشاء والانتشار لإخوته حيث ﴿قَالَ﴾ له قبل أن يشتغل بتأويلها وتعبيرها: ﴿يَا بُنَيَّ﴾ صغره؛ تلطفاً له وإشفاقاً عليه وتخوفاً من كيد إخوته ﴿لَا تَقْصُصْ﴾ ولا تذكر

كمال حسنها أنه تعالى أخرجها من تحت التكليف، ولم يذكر في قصة العاشق والمعشوق الأمر والنهي، كأنها خير الوصال وأثر الجمال، ومثل لعشاقه معه.

(1) جمع الله في اسم يوسف ﷺ أربعة حروف: الياء، والواو، والسين، والفاء، والياء: يسار ملكه، والواو: وضاحة وجهه، والسين: اطلاعه على أسرار الغيب بحسن تأويل الرؤيا والمكاشفات، والفاء: وفاءه في عهد الرسالة، فإذا اجتمعت هذه الأوصاف في يوسف ﷺ سمي يوسف ﷺ، وأيضاً كان فيه خالص العبودية والحزن في شوقه إلى جمال الربوبية.

قال بعضهم: سُمِّيَ يوسف بيوسف ﷺ؛ لأن الأسيف العبد، وتعبد يوسف، ويقال: لحزنه، والأسف الحزن. جئنا إلى معنى رؤياه: رؤياه: أول مقام المكاشفة؛ لأن أحوال المكاشفين أوائلها المنامات، فإذا قويت الحال تصير الرؤيا كشفًا، ويبين الرؤيا والمكاشفات مقامات ذكرتها في الكتاب المكاشفة، وافهم رزقك الله فهم معاني المكاشفات أن الله سبحانه مثل عالم الملكوت مما فيها مع أسرار الجبروت بنيران الكواكب والشموس والأقمار. وأيضاً: مثل بها أحكام أكابر الأنبياء والأولياء، فالشمس مثل الذات، والقمر مثل الصفات، والكواكب مثل الأوصاف والنعوت والأسماء، وليس غرضي هاهنا بيان أشكال المكاشفات برقتها، لكن أقول بعون الله وتأييده نبذة مما كوشف ليوسف ﷺ: كان يوسف ﷺ آدم الثاني؛ لأن عليه كان من كسوة الربوبية ما كان على آدم، فرأت الملائكة على آدم ما رأت، فسجدوا له كلهم، وهاهنا سجد له أشرف الأنبياء، وهم خير من الملائكة، وكيف لا يسجدون لهما، ومن وجهها تتلأل الأنوار القدوسية، وجلال السبوحية. [عرائس البيان].

﴿رُؤْيَاكَ﴾ التي رأيتها ﴿عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾ لئلا يحسدوا لك من ارتفاع شأنك ﴿فَتَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ بإغواء الشيطان إياهم ويختالوا لمقتك وهلاكك؛ حسداً لك ولعلو شأنك ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ﴾ المغوي المضل ﴿لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: 5] ظاهر العداوة، محيل عظيم، يعاديهم في لباس الصداقة ويفسدهم في صورة الإصلاح.

ثم لما سارع يعقوب ^{عليه السلام} بالنهي عن الانتشار والإفشاء تحذيراً وتخويفاً له من كيد إخوته، اشتغل بتأويل رؤيته، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: مثل إراءتك هذه الرؤيا وتخصيصك بها ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أي: يتخبك من بين الناس ويخصك بالرئاسة العظمى والمرتبة العليا، وهي النبوة والنيابة الإلهية ﴿وَوَ﴾ بعدما يجتبيك ويصطفيك ﴿يُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ أي: يخصصك بعلم الرؤيا وتعبيرها إلى حيث انكشف لك حضرة الخيال انكشافاً تاماً ﴿وَوَ﴾ بالجملة: ﴿يَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَ﴾ بواسطتك ﴿عَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾ أي: بنيه وأحفاده ومن ينتمي إليه وإن سفل ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبْنَائِكَ﴾ أي: جديك ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ في سالف الزمان؛ يعني ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ أعطاهما من الإنعام والأفضال ما لم يعط أحداً من الخلقة والإنجاء والإنقاذ والفدية والخلاص، وغير ذلك من النعم الجسام ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي رباك بأنواع اللطف والكرم ﴿عَلِيمٌ﴾ بعلمه الحضورى لاستعدادات عباده على مقتضى ما ثبت في لوح قضائه إجمالاً ﴿حَكِيمٌ﴾ [يوسف: 6] في صورة تفضيله على وفق إجماله، لا يشذ عن حيلة علمه شيء.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْمُتَذَكِّرِينَ ۝٧﴾ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ أَبَانَا لِمَنْ عَصَبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝٨ أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ طَرْحُوهُ أَرْضًا يَخُلُ لَكُمْ وَجْهُ أَيْكُمُ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ۝٩ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ۝١٠ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصَحُونَ ۝١١ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝١٢﴾ [يوسف: 7-12].

واعلم يا أكمل الرسل أنه ﴿لَقَدْ كَانَ فِي﴾ قصة ﴿يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ﴾ وما جرى بينهم من الحيل والمخادعات وإسقاط المروءة والخيانات، والإنابة والرجوع منها إلى الله في الخلوات، وإظهار العدم والاستحياء من الله، ومنه يوسف وآية ﴿آيَاتٍ﴾ دلائل

واضحات، وشواهد مفصحات عن أسرار التوحيد ﴿لِلسَّائِلِينَ﴾ [يوسف: 7] لو تأملوا في رموزها وإشاراتنا واعتبروا منها⁽¹⁾.

اذكر لهم يا أكمل الرسل: ﴿إِذْ قَالُوا﴾ أي: إخوة يوسف حين بثوا الشكوى من أبيهم في خلواتهم، حاسدين على يوسف وأخيهم: ﴿يُوسُفَ وَأَخُوهُ﴾ بنيامين، أضافوه لكونه من أمه ﴿أَحَبُّ إِلَيْنَا مِثًا﴾ يؤانس معهما ويتحنن إليهما ﴿وَنَحْنُ غَضَبَةٌ﴾ فرقة ذوو قوة وكفاية تستحق وتليق أن يحبنا ويلتفت إلينا، وبالجملة: ﴿إِنَّ أَبَانَا﴾ في تفضيل المفضل والمفضل وترجيح المرجوح ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: 8] ظاهر المخالفة للعقل والعرف.

فعليكم أيها الإخوان أن تتأملوا في أمر أبيكم، وتشاوروا لمقت يوسف وهلاكه حتى لا يلحق العار عليكم ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ حتى يئأس أبوك منه ويقبل إليكم بالكلية ﴿أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ بعيدة عن العمران غاية البعد حتى ينساه أبوه، وحيثن ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ أي: يخص ويخلص لكم مواجهة أبيكم خاليًا عن أغياركم، ويقتصر حيثن التفاته وتحنته نحوكم ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: بعد فقد يوسف عن نظر أبيكم وغيبته من عنده ﴿قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ [يوسف: 9] لخدمته وصحبته ومؤانسته، أو المعنى بأن تنوبوا بعدما صدر عنكم هذه الجريمة، وتكونوا من بعده قَوْمًا صَالِحِينَ تائبين.

وبعدما تشاوروا في مقت يوسف وطرحه وطرده ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ وهو يهوذا وكان أحسنهم رأيًا: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ إذ نحن من عترة الأنبياء، لا يليق بنا قتله بلا رخصة شرعية ﴿وَ﴾ إن أردتم أن تدفعوه من عند أبيكم ﴿الْقُوَّةُ فِي غِيَابَةِ الْجَبِّ﴾ الذي على متن الطريق ﴿يَلْتَقِطُهُ﴾ أي: يأخذه ويذهب ﴿بَغْضِ السَّيَّارَةِ﴾ أي: بعض السائرين في أقطار الأرض، الواردين على الماء، فلا طريق لكم لطرده وطرحه سوى هذا ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [يوسف: 10] قاصدين جازمين أن تفعلوا معه ما يبعده عن وجه أبيه.

وبعدما سمعوا من يهوذا ما سمعوا واستقرار رأيهم على رأيه، فأخذوا يحتالون

(1) قال البقلي: آيات يوسف سواطع نور الحق من وجهه، وظهور علوم الغيب في قلبه، ومعرفة بذات الله وصفاته، وكريم الآية ونعمائه ولطيف أفعاله وصنائه، وما وضع الله في النفس الأمانة من عظيم قهر شهواتها، واستيلاء هواها، وفترتها وشرتها، ودقائق خدعتها، ولطيفة ما بينها وبين طبائع الشياطين، وحسن عاقبته، ويلوغه إلى أهل التمكين، وما بدا من إخوته من الغيرة والفرقة، وهذه البراهين تذكرة وتبصرة للمريدين والمحبين العارفين.

ويعمكرون؛ لينالوا ما قصدوا، فاجتمعوا يوماً عند أبيهم تحتاً عليه وتواضعوا ﴿قَالُوا﴾ له على سبيل الشكوى وإظهار الحزن: ﴿يَا أَبَانَا﴾ نحن بنوك وخادموك، ويوسف أخونا وقرة عيننا وقوة ظهرنا ﴿مَا لَكَ﴾ أي شيء من السوء منا عرض لك ووصل إليك ﴿لَا تَأْمَنَّا﴾ أي: لا تجعلنا أمناً مشفقين ﴿عَلَى يَوْسُفَ وَإِنَّا﴾ في أنفسنا ﴿لَهُ لَنَاصِبُونَ﴾ [يوسف: 11] مشفقون حافظون يريدون الخير له.

ثم لما تفرسوا بأن أثر كلامهم في أبيهم، ولاح منه أمارات الرضا والتسليم، أخذوا في المكر حيث قالوا متضرعين إليه متحنين نحوه: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾ نخرج إلى الصحراء مستنشقين ﴿يَزْتَع﴾ ويتفكه من أنواع الفواكه ﴿وَيَلْعَبُ﴾⁽¹⁾ بأنواع اللعب من الاستباق والانتضال؛ تفريجاً له وتفريجاً للقلب ﴿وَو﴾ لا تخف من أن يلحقه مكروه ﴿إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف: 12] بجمعنا من المكروهات.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾

(1) قال في التأويلات: رضي يعقوب بلعبهم لا جرم ابتلي بما ابتلي، فاللعب خلقنا، وقيل: خدعوا أباهم بميعاد للذيد، ثم فرقوا به بينه وبين والده، فينبغي للمؤمن أن يعتبر ولا ينخدع بما يخدع بالشيطان من المواعيد واللذائذ الباطلة، وقد قيل: أعدت شيء مشغل بالدنيا، والموت يطلبه، وغافل ليس بمفعول عنه، وضاحك ملا فيه ولا يدري إلى أي الدارين مصيره، وقيل أيضاً: أكرم الله أربعة من الصبيان في حال صبيانهم:

الأول: عيسى عليه السلام كما قال في حقه: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: 48] ومما حكى من حكمته قوله: معاشر الحواريين لا تجعلوا اليوم همكم، عند كل يوم هم. والثاني: يحيى عليه السلام كما قال في حقه: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: 12]، ومما روي من حكمة أنه قال: من حي بالموافقة فإنه لا يموت بالمخالفة، فإن كنت اليوم حياً بالمخالفة تكن غداً ميتاً بالعقوبة، وإنما لقى الحكمة كما حكى؛ ولهذا ندب الآباء إلى تعليم الصبيان أمور دينهم في صباهم؛ ليعتادوها ويشبوا عليها. والثالث: سليمان عليه السلام أكرم في صباه بالفهم كما قال: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ [الأنبياء: 79]. والرابع: يوسف عليه السلام أوتي الحكمة في صباه فقوى سره لاحتمال البنيان، فأهل الولاء يحتملون أعباء البلاء، وقيل: البئر موضع الهلكة، ولما وصل إليها بركته صارت موضع السلامة والنار موضع الحرق، فلما وصل إليها حشمة الخليل انقلبت بإذن الله نزهة وروضته، والغار كان محل الوحشة، فلما وصل إليها حشمة المصطفى صار مزار الأولياء، كذلك القبر محل الوحشة، فإذا وضع فيه من صحته التوحيد والمعرفة والطاعة انقلب روضة من رياض الجنة كما قال: ﴿فَزَوْجُ مَرْيَمَ وَزَيْنَبُ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: 89].

﴿١٣﴾ قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَيْرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ
وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾
وَجَاءَ وَآبَاؤُهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ
مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءَهُ عَلَى
قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا
تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴿يوسف: 13-18﴾.

ثم لما بالغوا وألحوا ﴿قَالَ﴾ أبوهم: ﴿إِنِّي﴾ من شدة محبتي وشوقي إليه،
وتحسني وعطفي نحوه ﴿لَيُخْرِئَنِي﴾ مفارقتة ﴿أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ مع ذلك ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ
الذِّئْبُ﴾ لأن أرضنا مذبذبة ﴿وَأَنْتُمْ﴾ كشدة شغلكم على الرتع واللعب ﴿عَنْهُ غَافِلُونَ﴾
[يوسف: 13] حيثئذ، ذاهلون عن حضائنه وحفظه.

﴿قَالُوا﴾ على سبيل الاستبعاد والاستنكار مقسمين؛ تفريرا عليه وتأكيذا لمكرهم
وخداعهم: والله ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: جماعة أقوياء ذوو عدة وعدة
وقدرة وقوة ﴿إِنَّا إِذَا لَخَيْرُونَ﴾ [يوسف: 14] ضعفاء ذليلون مغبونون، قالوا ذلك على
سبيل التشدد وإظهار الجرأة والشجاعة، كأنهم يستدلون على عدم وقوع المحذر به.

﴿فَلَمَّا﴾ احتالوا وبالغوا في الحيلة والمكر إلى أن ﴿ذَهَبُوا بِهِ﴾ أي: بيوسف إلى
الصحراء، فاشتغلوا بضربه وشتمه والقهر عليه وأنواع العذاب والعقاب، وكادوا أن
يقتلوه ظلما وزورا، قال لهم يهوذا: أنتم عهدتم ألا تقتلوه، فما هذه المبالغة والاشتداد،
أما تستحيون من الله؟ ﴿وَوَ﴾ بعدما قال لهم يهوذا هذا ﴿أَجْمَعُوا﴾ واتفقوا ﴿أَنْ يَجْعَلُوهُ﴾
ويطرحوه ﴿فِي غِيَابِ الْجُبِّ﴾ وهو جب معروف مشهور بجب يوسف، على ثلاثة أميال
من صفد يعقوب، قريب من جسر يقال له: جسر يعقوب بفرسخ تقريبا، فقربوه على
الجب وعزموا إلقاءه فيها، فتعلق يوسف بشفير البئر، فربطوا يديه وتزعوا عنه قميصه؛
ليلطخوه بالدم الكذب، فألقوه مربوطة يديه على الماء وكان فيها صخرة عظيمة جلس
عليها عريانا قلقا، حائرا، حزنا، مضطربا، مستوحشا ﴿وَوَ﴾ بعدما ألقوه وقضوا الوطر
أزلنا عنه وحشته وكربه بأن ﴿أَوْحَيْنَا﴾ من مقام لطفنا وجودنا ﴿إِلَيْهِ﴾: لا تغتم أيها
الصديق من صنيع هؤلاء الغواة الهالكين في تيه الحسد والعناد، إِنَّا بمقتضى كرمنا

وإحساننا لنفضلك عليهم ونمكنك على انتقامهم إلى حيث ﴿لَتَسْتَثْنَهُمْ﴾ وتحدثتهم معاتباً عليهم، متتقماً منهم ﴿بِأَمْرِهِمْ هَذَا﴾ معك وحيلتهم ومكرهم مع أبيك ﴿وَهُمْ﴾ في تلك الحالة ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: 15] أنك يوسف؛ لعلو شأنك وارتفاع قدرك وسلطانك، اصبر أيها الصديق على أذاهم في الحال، فإن لك السلطنة والسطوة عليهم في المال.

﴿وَ﴾ بعدما فعلوا بيوسف ما فعلوا ﴿جَاءُوا أَبَاهُمْ﴾ ملتبسين محتالين ﴿عِشَاءً﴾ في آخر اليوم ﴿يَتَكُونُ﴾⁽¹⁾ [يوسف: 16] صائحين، صارفين، فزعين؛ تغريزاً على أبيهم.

(1) قال نجم الدين كبرى: ليس كل بكاء يكون حقاً فقد يبكي الظالم كما في قصة يوسف وإخوته وجاءت امرأة إلى القاضي أبي هاشم وهي تبكي فقال له: هذه ضعيفة تبكي، فقال: ليس كل من بكى صدق، قال الله تعالى: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَتَكُونُ﴾ فالبكاء على وجوه:
الأول: بكاء الحياء، وهو كان لأدم عليه السلام بكى مائتي سنة بعد الذلة حياة من الله تعالى، وحكي أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه: «يا ابن آدم أين الشكر على العطاء؟ فإن لم يكن فأين الرضاء بالقضاء؟ فإن لم يكن فأين الصبر على البلاء؟ فإن لم يكن فأين النفي عند الهوى؟ فإن لم يكن فأين الوفاء لإله السماء؟ فإن لم يكن فأين البكاء على الجفاء؟». والثاني: بكاء الخجلة، وهو لداود عليه السلام بكى أربعين سنة، ثم ملا كفه دمعاً ودفعها إلى السماء فقال: «يا رب أما ترحم دمي؟» فأوحى الله تعالى إليه تذكر دمك وتنسى ذنبك، فغشي عليه خجلاً مما قاله، وفي حديث غريب: أنه جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أبكي كلما ذكرتك [ففيض] بكائي خجلاً من الله تعالى، فهل ينفعني ذلك؟ فقال ﷺ: «كل قطرة منها تطفئ بحوراً من النار». والثالث: البكاء خوفاً من النار، فقال تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً﴾ [التوبة: 82] وحكي أن يحيى بن زكريا - عليهم السلام - كان على المنبر يوماً فقال: أتاني جبريل آنفاً فقال: إن في النار ذرقة يقال لها: سكران فيها جبل يقال له غضبان لا ينجوا منها إلا الباكون من خشية الله، ثم بكى حتى غشي عليه وسقط من الكرسي، فما أفاق إلا بعد ثلاثة أيام، وقيل لبعضهم: ما يغنيك لا تخف، وقال: ولو أن الله تعالى أوعدني بعصيانته، الحبس في الحمام لكنت خائفاً به كيف، وقد قال: ﴿إِنْ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً﴾ [النبا: 21] والرابع: البكاء من هية الله وهو بكاء الأنبياء، وكما قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ [مريم: 58]. والخامس: بكاء الشوق وهو لشعيب عليه السلام حكي أنه بكى حتى أظلمت عيناه ثلاث مرات، وحكي أنه كانت لامرأة بنت صغيرة تبكي أبناً، فجاءت والدتها إلى الحسن البصري - رحمه الله عليه - فعرضت بتها والتمست أن يحضرها، فجاء الحسن فقال لها: يا جارية إن لعينك عليك حقاً، قالت: إن عيني إن كانت تصلح لرؤية الله فألف مثلها في سيله، وإن لم تكن أهلاً لذلك فدعها تعمي، فقام الحسن وقال: جئت واحظاً فوقعت بما أوعظ. والسادس: بكاء فوت الطاعة، قال الله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ [التوبة: 92] والسابع: بكاء الحيلة، قال الله تعالى: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَتَكُونُ﴾

فلما سمع يعقوب صياحهم اضطرب فقال: ما لكم؟ وأين يوسف؟ ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أي: نتسابق بالعدو والرمي واستمر تسابقنا ومالنا ﴿وَوَيْلٌ لَّكَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ﴾ ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا قَدْ تَرَكْنَا يُوْسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا﴾ لحفظها، فغفلنا عنه بفرور السباق ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ وكنت نظرت من أول الأمر فوق ﴿وَوَيْلٌ لَّكَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ﴾ نحن نعلم ﴿مَا أَنتَ﴾ يا أبانا ﴿بِمُؤْمِنٍ﴾ أي: مصدق ﴿لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: 17] فيما أخبرنا لك؛ لسوء ظنك بنا وفرط محبتك بيوسف.

﴿وَوَيْلٌ لَّكَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ﴾ بعدما تفرسوا منه الإنكار والاستبعاد ﴿جَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ﴾ معه ﴿بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ يعني: جاءوا مثبتين لدعواهم بدم كذب ملطخ على قميصه، مفترين على الذئب بأنه أكله، وبعدهما جاءوا بالقميص الملطخ، طلب منهم أبوه، فألقاه على وجهه فبكى بكاء فظيماً فجيئاً، وتمادى في البكاء زماناً طويلاً حتى احمر وجهه من الدم الملطوخ به، ثم كشف القميص فرآه لم يمزق، فقال: ما رأيت ذنباً أحلم من هذا الذئب، أكل ابني ولم يمزق قميصه! ثم ﴿قَالَ﴾ متوجهاً إليهم: ما جئتم به معتردين عليّ ليس بمطابق للواقع ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ سهلت ويسرت ﴿لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ بإلقاء الشيطان وتعليمه إياكم لتعتذروا به عليّ ﴿فَصَبِرْ جَمِلاً﴾ أجمل عليّ فيما ابتليت ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى﴾ احتمال ﴿مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: 18] بالاستكتم أيها المسرفون؛ إذ لا طاقة في تحمله إلا بعون الله وإقداره.

[يوسف: 16] فالإخوة كانوا يكون احتيالاً شوقاً إلى الله، فشتان ما بين البكائين قوله تعالى: ﴿جَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف: 18] فحكى أنه لما رأى يعقوب القميص قال: فلئن كان كما قلت كان الذئب مشفقاً على القميص فلبسته أشفق على يوسف كما أشفق على القميص، فلئن كنتم صادقين فاذهبوا فخذوا الذئب وأتوني به، وكان يهوذا رجلاً إذا صاح على أسد سقط من هيته، فأخذوا ذنباً ولوئوا مخالفه بالدم وأتوا يعقوب به مشدود اليد والرجل، فقال: خلوه فخلوه، فقال يعقوب: يا روبيل سله لم أكل يوسف، فسأله فلم يجبه، فقال يعقوب: لم لا تجيبه؟ فقال: يا نبي الله أن بنيك عقوك وعصوك، ونحن نهيئ أن نكلم العصاة، فقال: لم لا ترحم يوسف وفجعني به؟ فقال: بعزة الله ما أكلت يوسف وإني مظلوم مكذوب عليّ، وأني غريب من بلاد مصر جئت لأهل قرابة لي ها هنا أنا لا أحوم حول غنمك فكيف أكل ابنك؟ فقال يعقوب: فمن فعل فقال الله لا يهلك سر خلقه، فإننا لا أهتك سرهم، ولما رأى يعقوب القميص صحيحاً مؤخرًا غير مخرق رجا أن يكون يوسف حيًا، فكذا حال المؤمن وإن تلوث بخطاياها فما دام لباس الإيمان صحيحاً فالرجاء باق.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلَيْهِ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَّوهُ بِشَرِّ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَا مِرَّةٍ أَكْرَمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ؕ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يوسف: 19-22].

﴿١٩﴾ بعدما مضى ثلاثة أيام على الإلقاء ﴿جَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ رفقة وقفل عظيم يسرون من مدين إلى مصر، فترلوا قريب الجب ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ الذي كان يرد الماء للاستسقاء، وهو مالك بن ذعر الخزاعي ﴿فَأَدْلَى دَلْوَهُ﴾ أي: ألقاها لإخراج الماء، فتدلى بها يوسف، فأخرجها فرآه ﴿قَالَ﴾ مستبشراً فرحاناً: ﴿يَا بُشْرَى﴾ تعالي فهذا أوانك؛ إذ ﴿هَذَا﴾ الذي خرج بالدلو بدل الماء ﴿غُلَامٌ﴾ صبيح مليح في غاية الصباحة والملاحة ﴿و﴾ بعدما أخرجوه ومن معه من رفقاته ﴿أَسَرُّوه﴾ وأخفوا أمره من البعض الآخر ليكون ﴿بِضَاعَةً﴾ لهم وقت وصولهم إلى مصر، ليشروه ويقسموا ثمنه ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لمخايل عباده ﴿عَلَيْهِمْ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يوسف: 19] أي: يقصدون عمله ويسرون في نفوسهم.

وبعدما اطلع أخوة يوسف على قدوم السيارة ونزولهم على الجب تسارعوا نحوهم لبيعوه لهم حتى يخلصوا منه بالكلية، فوصلوا الجب ولم يجدوه ويأدروا إلى القفل فتجسسوه، فوجدوه عندهم، فقالوا لهم: هذا عبدنا قد أبق منا، إن اشتريتم نشريه على ما رضيتم، وأقر يوسف على الرقية ولم ينكر عليهم؛ خوفاً من القتل ﴿وَشَرَّوهُ﴾ بعدما اعترف بالرقية وباعوه ﴿بِشَرِّ بَخْسٍ﴾ مبخوس منقوص ﴿دَرَاهِمَ﴾ لا دنائير ﴿مَعْدُودَةٍ﴾ أي: قليلة ﴿و﴾ إنما شروه بها؛ لأنهم ﴿كَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: 20] الراغبين المعرضين عنه، لذلك باعوه بها.

ولما اشتراه مالك بن ذعر من إخوته بما اشتراه، ذهب به إلى مصر بضاعة، فلما وصلوا إلى مصر وأراد أن يبيعه، فسلمه إلى النحاس فباعه ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ﴾ وهو العزيز الذي كان على خزائن ملك مصر، واسمه: قبطير أو أطفير، حين

ذهب به إلى بيته ﴿لَا مَرَاتِهِ﴾ زليخا أو راعيل: ﴿أَكْرَمِي مَثْوَاهُ﴾ وأحسني حاله ومعاشه، وتلطفي معه بأنواع اللطف والشفقة، إني أفرس منه الرشد والنجابة ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ بعقله ورشده وكفايته وتدبيره ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ يستخلف منا؛ لأنه كان عقيماً فأراد أن يتبناه ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما عطفنا عليه العزيز بعد قهر إخوته وفرقة أبيه وأخيه وغربته من وطنه، ووحشته في غيابة الجب وذلة رقبته ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: جعلناه متصرفاً ذا قدرة واختيار في أرض مصر، ليتصرف فيها بالرشد التام والقدرة الكاملة ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ﴾ وننبه عليه ﴿مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ الواقعة في عالم الكون والفساد طريق الرشد والعدالة؛ ليصل بها إلى الاعتدال الحقيقي ﴿وَاللَّهُ﴾ المدبر لأمر عباده ﴿غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ المراد له، المتعلق بمصالح بعض عباده ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 21] غلبته واستقلاله في أمره وتصرفه في ملكه، لذلك اشتغلوا بخلاف مراده والسعي في إبطاله كإخوة يوسف، فلم يصلوا إلى ما قصدوا.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ يوسف ﴿أَشُدَّهُ﴾ أي: كمال عقله وقوته وأوانه ما بين الثلاثين والأربعين ﴿آتَيْنَاهُ﴾ إنجازاً لما وعدنا عليه في سابق علمنا وقضائنا ﴿حُكْمًا﴾ أي: حكومة بين الناس مقارنة بين العدل والقسط ﴿وَعِلْمًا﴾ بسرائر الأمور ورقائق المناسبات ومن جملتها تعبير الرؤيا ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: مثل إيتائنا إياه من الفضائل والفواضل المقدرة له في لوح القضاء ﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 22] الذين يحسنون الأدب معنا في جميع حالاتهم اتقاء منا وتوجهها إلينا.

﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٣) ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَوْنُ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَجُلًا بَرَّهَنَ رَبَّهُ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (٢٤) ﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَيْصَةُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٥) [يوسف: 23-25].

﴿و﴾ أذكر يا أكمل الرسل اتقاء يوسف الصديق من الله وقت اشتعال نار الشهوة في عتقوان الشباب، حين ﴿رَوَدَتْهُ﴾ أي: خادعته وألحت عليه بالوقاع ﴿الَّتِي﴾ أي: المرأة التي ﴿هُوَ﴾ أي: يوسف ﴿فِي بَيْتِهَا﴾ وهي سيدة له حاكمة عليه، وهي زليخا

امراً العزيز، واحتالت عليه أن يخرجها **﴿عَنْ نَزَاهةٍ نَفْسِهِ﴾** ونجاة فطرته، وهي العصمة والعفاف إلى ما تهوى نفسها وهو الوقاع والسفاح **﴿وَو﴾** بالغت في ذلك المكر والاحتيال إلى أن **﴿غَلَقَتْ الْأَبْوَابَ﴾** ⁽¹⁾ السبعة يوماً عليه وخلت معه في بيته **﴿وَقَالَتْ﴾** متحنتة عليه معرضة نفسها إليه: **﴿هَيْتَ لَكَ﴾** أي: بادر يا يوسف إلى التعانق والجمع معي **﴿قَالَ﴾** يوسف على مقتضى نجابة النبوة وطهارة الفطرة بإلهام الله إياه مع سورة شهوته ووفور أمن ميله؛ اتقاء من محارم الله ورعاية لحق من أحسن إليه: **﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾** أي: أعوذ بالله معاذاً والوذ نحوه أن يعصمني عن أمثال هذه الغفلة الذميمة والديانة القبيحة سيما مع من يريني **﴿إِنَّهُ﴾** أي: زوجك سيدي **﴿رَبِّي﴾** يريني بأنواع اللطف

(1) قال في التاويلات: ليكون نظر يوسف إليها، وكذا إذا أكرم عبداً أغلق عليه أبواب الشهوات واللذات، ونفرة عن الخلق حتى يكون جملة نظره مقصورة على أموره، وقيل: غلقت هي الأبواب؛ ليكون يوسف معها ويخلو للشهوة، والله تعالى فتح له باب العصمة؛ ليخرج طاهراً نقياً من بين ذلك ليعلم أن الباب الذي يغلقه المخلوق سهل، والباب الذي يغلقه الله لا يفتحه أبداً أحد، قال الله تعالى: **﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ﴾** [فاطر: 2] ولما رد يوسف بتهمة وهمية أيد من الله تعالى أيد في الله بالعصمة؛ ليعلم أن من جاهد في الله أيد بتوفيقه كما قال: **﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾** [العنكبوت: 69]. وقيل: كانت الحكمة في ذلك أن الملائكة قالوا: **﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾** [البقرة: 30] فابتلوا بهاروت وماروت، وموافقته المرأة من غير مراودة منها، وعصم يوسف مع حسنه وجمال المرأة ومراودتها ليكرمه بالعروض على الملائكة، ويعلمهم أنه يعلم ما لا تعلمون، كما قال الله تعالى: **﴿إِنِّي أَغْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾** [البقرة: 30] والنكتة فيه أنه لما التجأ في ابتداء الأمر إلى الله واستعاذ به أعانه وعصمه، فنبغي للمؤمن أن يفرع في ابتداء هوله إليه ليعيله، وكذا ينبغي أن يكون أمر المؤمن في إشارة رضاه الله أغلب من إشارة هوى نفسه، فقد قيل خمسة أشياء من أعجب العجائب: أحدها: أن الله تعالى [مهد ويسر] للخلق ما في الأرض، ثم إنهم ييخلون برغيف. والثاني: إنه أمدحهم بنعمه، قال: **﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾** [النحل: 53]، ثم إنهم استعملوها في خدمة عدوه. والثالث: إنه يغيث لمن استغاث، وهم يفرعون إلى مخلوق ضعيف لا ينفع ولا يضر في إلا بإغاثة الله تعالى إياه كذلك. والرابع: إنهم يرجون ثوابه، ثم يعملون للخلق. والخامس: إنه خالقهم ورازقهم وملكهم، وتر إليه كل أمورهم وهو مطلع عليهم، ثم أنهم يستحيون عنه في ضعيف مثلهم ولا يستحيون منه. وقيل لما اجتمع يوسف والمرأة في موضع واحد صاح الشيطان فرحاً، قال: ظفرت به، فرد فرحه بعصمة الله، ولما وصل موسى إلى البحر وكان وراءه فرعون وجنوده فرح الشيطان وقال: البحر أمامهم والسيوف وراءهم ولم يدرك أن النجاة كانت حظهم من الله تعالى، فكللك أمر المؤمن وقت النزاع إن أيد بعناية لن يضره من شيطان ونجا من المخاوف على مراغمة الشياطين عصمتنا الله في شرهم.

والكرم، سيما ﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ وأوصى لك بإحساني، فكيف أسيء في مقابلة إحسان محسني، ومولي أمري ومولي نعمي ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ﴾ ويفوز ﴿الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: 23] بالخير والحسن، لو خرجوا من مقتضى الأمر الإلهي، سيما بالإساءة في معاملة الإحسان.

﴿و﴾ بعدما رد يوسف عليها أمرها ﴿لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾⁽¹⁾ أي: قصدت زليخا

(1) قال روزبهان: خالص الحقيقة في هذا المعنى في تلك الهمتين، إن همة زليخا سبقت على همة يوسف عليه السلام، وحسن يوسف عليه السلام سبق بجذب قلب زليخا وهمتها إلى معدنه؛ لأنَّ عشق زليخا وحسن يوسف صفتان صادرتان من المعدنيين الأزليين، وهما صفة جمال القدم ومحبة الأزل، فلما هاجت همة زليخا بعد انجذاب قلبها إلى معدن عشق يوسف عليه السلام هاجت أيضًا همة يوسف عليه السلام إلى أهلية عشقها وحسنها وهمتها، فصارت الهمتان بعضها من بعض، فهاجت همة الجواهر إلى الجواهر، والفطرة إلى الفطرة، والطبيعة إلى الطبيعة، والإنسانية إلى الإنسانية، والروحاني إلى الروحاني، والإلهي إلى الإلهي، فصارت جميعها بوصف الهمتين متحيرة، حتى صار شخصيهما، وسوادهما، وخيالهما، وعقلهما، وقلبهما، وروحهما، وسرهما واحدًا في واحد. .. فكيف نتهم الهمتين، وأصل الجواهر نور الإرادة، وأصل الفطرة فعل الإرادة، وأصل الطبيعة مباشرة القدرة؛ لكن الصورة وأصل الإنسان وجود معجون القهر الروحاني مباشرة اللطف، وإلهي تجلي الجمال، وظهور الذات في الصفات، وظهور الصفات في الأفعال، فترقى الهمة من أصل الجواهر إلى نور الإرادة، ومن أصل الفطرة إلى فعل الإرادة، ومن أصل الطبيعة مباشرة القدرة، ومن أصل الإنساني إلى وجود معجون القهر، وذلك سر النفس الأمارة، ومن أصل الروحاني إلى مباشرة اللطف، ومن أصل إلهي إلى تجلي الجمال، وظهور الذات في الصفات، وظهور الصفات في الأفعال، ففي عين الجمع أصل العشقين، والهمتين من معنى تجلي الذات والصفات والأفعال، فإذا علمت ذلك فترى شخصيهما شخصًا، وروحهما روحًا، وقلبهما قلبًا، وهمتها همة، وسرهما سرًا، وكلهما كلاً، وذلك الكل صدر من الكل، وذلك الكل علة العلل، ومعلل الأشياء ومكون الكون أصل الأصول، فمن يدم وغرائب حقيقة قدس المعرفة في الإشارة، إشارة منه بدأت، وإليه تعود بيني وبينك، أتنازعني، فأدفع بلطفك أنني من البين يا صاحب الهمة، إذا تجلى من فعله لفعله بوصف الفعل صار العشق مع الشهوة، وإذا تجلت الصفة بالصفة بوصف الصفة صار العشق مع شهوة الروحاني بلا شهوة الإنساني، وإذا تجلى الذات للذات بوصف الذات صار العشق بوصف العشق الأزلي المقدس عن حركات أسرار جميع الشهوات؛ لأنَّ عشقه أزلي بلا علة، فأول همة حركة الفعل إلى الفعل، وهناك موضع الامتحان والفتنة المخالفة الأمر، وأوسط الهمة تجلي الصفة إلى الصفة، فهناك مقام الالتباس، ونهايتها تجلي الذات للذات، وهناك مقام القدس والطهارة من الامتحان، فإذا كان يوسف عليه السلام في بدايتها ووسطها كان في محل العتاب، فإذا تجلت الذات للذات سلبه أنوار الذات من المقامين، ولولا ذلك لبقى في بحر الامتحان وعتاب الرحمن.

وتعلقت به إرادة واختيارًا لتصل إلى مرادها منه ﴿وَهُمْ﴾ يوسف أيضًا ﴿بِهَا﴾ على مقتضى بشرته مع أنه لا إرادة له لمرادها ولا اختيارًا إذ الكف عن المنهي لا بد وأن يكون عند القدرة عليه وإلا لم يكن معدوْحًا ولا مستوجبًا للمثوبة والقربة ﴿لَوْ لَا أَن﴾ أي: أنه ﴿رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ أي: دليله الواضح الدال على قبح الزنا وإساءة المحسن بإلقاء الله إياه وإلهامه في قلبه، لهلك بنيران طغيان القوة الشهوية، لكن رآه بإراءة الله إياه، فأبى وامتنع ﴿كَذَلِكَ﴾ فعلنا معه وألهمنا إليه ﴿لِنُصْرِفَ عَنْهُ الشُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ في مقابلة الإحسان والفحشاء بدل العصمة والعفاف ﴿إِنَّهُ﴾ أي: يوسف الصديق ﴿مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: 24] الخالصين عن رين البشرية وشين شهوتها وغضبيتها، المنزهين عن مقتضيات القوى البهيمية مطلقًا.

وبعد ما غلب على يوسف الالتقاء عن محارم الله على مقتضى البرهان الذي رآه بإراءة الله إياه، بادر إلى الفرار منها، وقصد أن يخرج وقصدت أيضًا أن تمنعه عن الخروج ﴿وَأَمْتَبَقَا الْبَابَ﴾ أي: تسابقا نحوه يسبقها يوسف فأخذت ذيل قميصه ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ﴾ أي: شقت ذيله ﴿مِنْ دُبُرٍ﴾ لأنها في عقبه، ففتح يوسف الباب، فخرجا متعاقبين مضطرين ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾ أي: صادقا زوجها ﴿لَذَا الْبَابِ﴾ وعنده ﴿قَالَتْ﴾ مسرعة باكية على سبيل الشكاية: ﴿مَا جَزَاءُ﴾ أي: أي شيء مكافأة ﴿مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ أي: قصد الزنا معها مكرها ﴿إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ﴾ أي: غير أن يقيد ويدخل في السجن ﴿أَوْ عَذَابَ أَلِيمٍ﴾ [يوسف: 25] مؤلم أشد من السجن.

وإنما فعلتها وبادرت إلى الشكوى متباكية؛ لتظهر براءتها وعصمتها عند زوجها وتحمل الخطأ على يوسف؛ لتنتقم عنه أو تلينه وتضطره على نجاح مرادها، مع أنها قد شغفها حبًا ولم تصبر عنه لحظة.

﴿قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ قَمِيصِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدِّمَ مِن قَبْلِ فَصَدَّقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدِّمَ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدِّمَ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكَ كُنتِ مِنَ الْفَاطِطِينَ ﴿٢٩﴾ [يوسف: 26-29].

﴿قَالَ﴾ يوسف مستحيًا من ربه: يا سيدي ما لي في ذلك خطأ ﴿هِيَ﴾ بنفسها

﴿وَأَوَدُّنِي﴾ أي: خادعتني ﴿عَنْ نَفْسِي﴾ وبعدهما تعارضا عند السيد ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ هو صبي في المهد أبهم في الشهادة وأجمل؛ لأنه كان ﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾ وابن عمها أو ابن خالها فقال الشاهد: ﴿إِنْ كَانَ قَمِيضُهُ﴾ أي: قميص يوسف ﴿قَدْ مِنْ قَبْلِ﴾ أي: شق من قدامه ﴿فَصَدَقْتُ﴾ زليخا ﴿وَهُوَ﴾ أي: يوسف ﴿مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [يوسف: 26] في دعوى البراءة والتزويه ﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيضُهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ﴾ أي: خلف ﴿فَكَذَبْتُ﴾ هي في دعوى العصمة والعفة ﴿وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: 27] فيما ادعى من العفة والبراءة.

﴿فَلَمَّا رَأَى﴾ السيد ﴿قَمِيضُهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ﴾ تفرس إلى براءته وطهارة ذيله مع أن الشاهد أيضا ليس من أرباب الولاية؛ إذ هو صبي رضيع في المهد لم يتكلم إلا بهذا فكوشف من نجابته وعفته ما كوشف، فتوجه نحو زوجته ﴿قَالَ﴾ مقررًا عليها معرضًا: ﴿إِنَّهُ﴾ أي: ما وقع ﴿مِنْ كَيْدِكُنْ﴾ وحيلتك أيتها المحتالات ﴿إِنْ كَيْدَكُنْ﴾ ومكركن أيتها الماكرات المفسدات ﴿عَظِيمٌ﴾⁽¹⁾ [يوسف: 28] من كيد الشيطان ومكره؛ لأن الشيطان يستعين ويستمد منكم وقت اضطرابه.

ثم لما انكشف الأمر من عند العزيز، وجزم بطهارة ذيل يوسف ونجابة طيبته، بادر إلى ستره وإخفائه؛ خوفًا من الفضيحة، فقال مناديا ليوسف أولاً لصدقه وطهارته: ﴿يُوسُفُ﴾ أي: يا يوسف ﴿أَغْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ التكلم واكتمه في سر، فقد ظهر عندي صدقك وبراءتك ﴿وَاسْتَغْفِرِي﴾ يا راعيل أو زليخا ﴿لِذَنْبِكِ﴾ في هذا الأمر ﴿إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: 29] المتعمدين القاصدين على الجريمة القبيحة الدنيئة الشنيعة، جمعه جمع الذكور للتغليب.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ

(1) قال الشبلي: على من لم يصحبه من ربه توفيق الرعاية، فأما من كان بعين الحق كيف يلحقه كيد كائد، فلما فشي الخبر وكثرت الملامة، وسمعت نساء البلد هاجت سرهن؛ لأن أزواجهن كانت متآلفة بروح زليخا، وهن جميعًا مع روح يوسف ﷺ فتقاضى سرهن حقائق الخبر، وتفتيش الأمر ليلدن ما ذافت زليخا فاحتلن، وقلن ذكر ملامتها.

هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣٠﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رُودِنُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيُصْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٣١﴾ [يوسف: 30-32].

﴿و﴾ بعدما شاع أمرهما وانتشر قصتهما بين الأنعام ﴿قَالَ نِسْوَةٌ﴾⁽¹⁾ جماعة من النساء من صناديدهن ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾ على وجه التشنيع والتقريع: ﴿امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تَزَاوَدُ﴾ تخادع وتحتال ﴿فَتَاَهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ طلبًا لمواقعة إياها ومجامعته معها؛ لأنها ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي: دخل عن جميع شغاف قلبها وشقوقه، فصار قلبها ممتلئًا بمحبته وعشقه؛

(1) قال في التأويلات: قيل: أحبين ثلاث نسوة ثلاثة من المؤمنين فنلن أكبر مما طلبن: الأولى: أحبت امرأة العزيز يوسف ~~عليه السلام~~ فنالت من بركته المعرفة، فيحكي أن هؤلاء النسوة اللاتي قطعن أيديهن قلن ليوسف وهو في السجن: أحب سيدتك التي اشتريتك وإن أردتنا فنحن لك، فيقول يوسف: معاذ الله لا أعصي الله وإن بقيت في السجن، ولما علم عزيز مصر أن امرأته عشقت يوسف حلف أنه لا يخرج من السجن مادام حيًا، فتفكرت المرأة وقالت: شاب حديث السن ويخاف عقوبة الله فانا أولى أن أخاف، فأمنت واشتغلت بعبادة الله تعالى. الثانية: آسية امرأة فرعون أحبت موسى فنالت ببركة موسى الجنة ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي حِجَابًا فِي الْجَنَّةِ﴾ [التحریم: 11]. الثالثة: خديجة - رضي الله عنها - أحبت محمدًا ~~عليه السلام~~ قبل النبوة نالت ببركة الهداية بالإسلام، فمحببة أولياء الله سبب لنيل الرحمة فما ظنك بمحبة الله تعالى. وقيل أيضًا: هؤلاء النسوة أصابتهن الغمة والمحنة، فالغمة نعمة الضيافة، والمحنة قطع الأيدي، ثم كن تنسين الكل عند رؤية يوسف، فكذا المؤمن نصيبه النعمة والمحنة في الدنيا، وفي القبر يرى الوحشة، وفي القيامة يرى الأحوال، وعلى الصراط يرى أنواع عذاب جهنم، وفي الجنة يرى ألوان نعمها، فإذا أكرم برؤية الله تعالى نسي الكل وشغله عن كل نعيم، قال الحسن: لو بقي أهل الجنة في الرؤية على حالتهم لا يخطر ببالهم شيء. وقيل: هؤلاء النسوة يحملن ما أصابهن في مشاهدة يوسف، وكذا المرأة يتحمل مؤنة الزوجية بمشاهدة الأهل والولد فكيف لا يتحمل مدعي المحبة الله تعالى مشقة بلائه طمعًا في مشاهدته؟ وقيل: هؤلاء النسوة لما شغلن بجمال يوسف قطعن أيديهن ولم يحسن بذلك، فلما أفقن وجدن ألم القطع والتلوث بالدماء وبقيت الحسرة عليهن، فكذا طالب الدنيا يتعب نفسه بطلبها ويتحمل المشاق في جمعها ويتلى بملك ولا يحس بالأمها، ثم عند انقطاع الأنفاس يفيق من سكرته ويرى ديوانه مسودًا بالسيئات وعمره ضائعًا في الزلات ويبقى في غصص الحشرات نعوذ بالله منها، وقيل: أكمل الله تعالى ليوسف ثلاثة أشياء الحسن كما روي أنه أعطي ثلاثي الحسن، وحكي أنه في سنة الجذب كانوا ينظرون إليه فيشبهون، وكانت رؤية عذابهم وكانوا لا يحسون بألم الجوع في مشاهدته، وأكمل له المحبة أيضًا فجمع له بين فراق الوالد وغصة الغربة ومشقة الجب والحبس والابتلاء بالنسوة، وأكمل له العصمة حتى عصم مع شدة السيئات، وشره الشهوة، وجمال النسوة، وإمكان انتهاز الفرصة، والتمكن من قضاء الشهوة في الخلق.

لذلك راودته فامتنع عنها وأفضحها ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا﴾ بقبح فعلها وسوء صنيعها ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: 30] من لحوق العار وفشو الفضيحة، سيما مع الرقيق وكسر عرض العزيز بين الأنام.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ﴾ راعيل ﴿بِمَكْرِهِنَّ﴾ وغيتهن وتخططن خفية ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ قواصدا؛ ليدعوهن على سبيل الضيافة ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ﴾ أي: هيات لكل واحدة منهن في بيتها ﴿مُتَّكَأً﴾ على حدة ليتكئن عليها على ما هو عادة بلدتهم، ووضعت عند كل متكأ طبقاً من الفواكه مثل الكمثرى والتفاح وغيرهما ﴿وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ﴾ أي: على عدد رءوسهن ﴿سَكِينًا﴾ في غاية الحدة والمضاء، وبعد تهيئة أماكنهن على الوجه المذكور جئن وجلسن عليها واشتغلن بأكل الفواكه وتنقية قشورها بالسكين ﴿وَوَ﴾ بعد ذلك ﴿قَالَتْ﴾ راعيل ليوسف: ﴿أَخْرِجْ عَلَيْنِ﴾ فخرج ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ أُنَبِّئُكَ﴾ أي: كبرن الله برؤية جماله وحسنه البديع وبهائه؛ إذ يتشعشع ويلمع ضوء وجهه على الجدار مثل الشمس والقمر.

وعن النبي ﷺ أنه قال: «رأيت يوسف الصديق عليه السلام ليلة المعراج كالقمر ليلة البدر»⁽¹⁾.

ومن كمال حيرتهن على حسنه وجماله بهتن بأجمعهن ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ بالسكاكين أي: كل بسكينها ﴿وَوَ﴾ بعدما أفقن ﴿قُلْنَ﴾ مستبعدات مستغربات: ﴿خَاشَ اللَّهُ﴾ أي: تنزه ذاته أن يعجز عن خلق مثله، غير أنه ﴿مَا هَذَا﴾ الهيكل المرأي ﴿بَشَرًا﴾ إذ لا نرى بشراً على هذه الصورة ﴿إِنْ هَذَا﴾ أي: بل ما هذا المشاهد المحسوس ﴿إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: 31] نجيب مجسم من الروح لا من الطين.

وبعدما تفرست راعيل منهن ما تفرست من كمال الحيرة والحسرة والوله والهيمن برؤيته ﴿قَالَتْ فَلِكُنَّ﴾ أي: فهذا ذلك العبد الكنعاني ﴿الَّذِي لُفْتُ فِيهِ﴾ أي: في مراودته والافتتان به وبمحبه ﴿وَوَ﴾ لما رأت راعيل ما رأت من نفسها بل أشد منها، أقرت عندهن ما فعلت معه؛ لتستعين منهن ويحتلن في تليين قلبه، فقالت متحسرة: ﴿لَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ مراراً كثيرة ﴿فَاسْتَفْصَمَ﴾ وأبى عن القبول من كمال عفته وعصمته ﴿وَوَ﴾ الله ﴿لَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ﴾ أي: ما أنا أمر به من المواقعة والمجامعة،

(1) أخرجه الطبري في «تهذيب الآثار» (267/2) بنحوه.

ولم يقبل قولي ولم يقض حاجتي ﴿لَيْسَ جَنَّتْ﴾ أي: ليس جنته ﴿وَلْيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [يوسف: 32] الذليلين المهانين، الباقيين في السجن مدة مديدة.

فلما قالت راعيل ما قالت وأقسمت، التفتن بأجمعهن على إعانتها وإنجاح مرادها منه والحن، واقترحن على يوسف بقبول قولها والإتيان بمطلوبها إلحاحاً بليغاً، بل أضمرن في أنفسهن كل منهن إتيانه عليهن بمقتضى النساء.

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَلَا أَتَصَرَّفُ عَنْ كَيْدِهِنَّ أَصَبُّ إِلَيْنَ وَأَكُنَّ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَ جُنَّتْ حَتَّىٰ حِينٍ (٣٥) وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٌ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرِنِّي أَخَصِرُ خَيْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرِنِّي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُزَقَّا بِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (٣٧)﴾ [يوسف: 33-37].

وحين رأى يوسف اتفاقهن واجتماعهن على منكر، ناجى ربه من شرهن وتعوذ نحوه من فتنهن حيث: ﴿قَالَ رَبِّ﴾ يا من رباني بأنواع اللطف والكرم والعصمة والعفاف ﴿السِّجْنُ﴾ الذي أوعدتني به هذه المرأة ﴿أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ وأثر عندي ﴿مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ هؤلاء البغيات ﴿وَلَا أَتَصَرَّفُ﴾ أي: وإن لم تصرف بفضلك وعصمتك ﴿عَنْ كَيْدِهِنَّ﴾ ولم تحفظني من مكرهن، بإلقاء البرهان الفعلي والكشفي في سري ﴿أَصَبُّ﴾ أي: أميل وأتحن نحوهن على مقتضى القوى البهيمية ﴿إِلَيْنَ وَأَكُنَّ﴾ حيثن ﴿مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: 33] المتابعين لشیطان الشهوة، الخارجين عن مقتضى العقل المفاض من المبدأ الفياض.

وبعد ما أخلص في مناجاته وأبر في رجوعه وعرض حاجاته ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ ما ناجاه ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ وحفظ عن مكرهن ﴿إِنَّهُ﴾ بذاته وأوصافه وأسمائه ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لمناجاة عباده ﴿الْعَلِيمُ﴾ [يوسف: 34] بحاجاتهم منها.

﴿ثُمَّ بَدَأَ﴾ أي: ظهر ولاح ﴿لَهُمْ﴾ للعزیز وأصحابه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ﴾ أي: بعد رؤيتهم علامات الصدق وأمارات العصمة والعفاف، سيما شهادة الطفل الذي

شهد بطهارته وصدقه، مع أنه لم يعهد من أمثال هذا، فتشاوروا في أمره وتأملوا في شأنه، فاستقر رأيهم ﴿لَيْسَ جُنَّتُهُ حَتَّىٰ حِينَ﴾ [يوسف: 35] لئلا يلحق العار عليهم ولا ينتشر بين الأنام صدقه وعصمته وقبح صنيعها وفاحشة فعلها، بل يحسبون أنه مجرم وراعىل متهمة؛ لذلك حملوا الجرم عليه، ورموه افتراءً، فأدخلوه السجن انتقاماً وجزاءً.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ﴾ أي: يوسف ﴿السِّجْنَ﴾ في تلك المدة ﴿فَتَيَّانَ﴾ من أعوان الملك شرابيه وخبازه بتهمة اتُّهما بها، فلما رأيا منه الرشد والنجابة وصفاء الصورة والمعنى ﴿قَالَ أَخَذَهُمَا﴾ وهو الشرابي مستعيراً عنه حاكياً عما مضى: ﴿إِنِّي أَرَانِي﴾ في المنام ﴿أَغْصِرُ﴾ ماء العنب ليصير ﴿خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ﴾ وهو الخباز: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَخْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا﴾ على طبق ﴿تَأْكُلُ﴾ وتنهش ﴿الطَّيْرُ مِنْهُ نَبْتًا بِتَأْوِيلِهِ﴾ أي: أخبرنا بما يؤول إليه ويعبر به رؤيانا ﴿إِنَّا نَرَاكَ﴾ في بادئ الرأي ﴿مِنَ الْمُخْسِنِينَ﴾ [يوسف: 36] المصلحين لمفاسد الأنام وتحمل ما يشكل عليهم، ومن جملتها تعبير الرؤيا.

ثم لما تفرس يوسف منهم الإخلاص وحسن الظن بالنسبة إليه، بادر قبل الاشتغال بالتعبير إلى تمهيد مقدمة دالة على التوحيد والإيمان والمعرفة والإيقان، منبهة على استقلال الحق الحقيقي بالحقية في ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله وجميع آثاره الحادثة في الكائنات والفسادات، حيث ﴿قَالَ﴾ أولاً ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا﴾ في المستقبل ﴿طَعَامٌ تَرْزُقَانِهِ﴾ لسد الجوعة وتقويم المزاج ﴿إِلَّا نَبَاتُكُمَا﴾ وأخبرتكما ﴿بِتَأْوِيلِهِ﴾ وتبيين ماهيته وكيفية تأثيره وتوليدته من الأخلاط وتقويته للمزاج ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ بمدة ﴿ذَلِكُمَا﴾ أي: تعبير رؤياكما وتأويل طعامكما ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ أي: من جملة الأمور التي علمني ربي من لدنه بأن أطلعني على رقائق المناسبات ودقائق الارتباطات، والازدواجات الواقعة بين أجزاء العالم وجزئياتها على التفصيل المشروح، المثبت في الأعيان الثابتة وعالم الأسماء والصفات المنبسطة على ظواهر الأكوان ﴿إِنِّي﴾ بعدما انكشف الغطاء عن بصري وارتفع الحجب عن بصيرتي ﴿تَرَكْتُ﴾ بتوفيق الله وإلهامه ﴿مِلَّةَ قَوْمٍ﴾ ذوي حجب ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ وتوحيده واستقلاله في الوجود ﴿وَوَ﴾ مع ذلك ﴿هُمْ بِالْآخِرَةِ﴾ أي: في النشأة المعدة لجزاء ما جرى عليهم في هذه النشأة ﴿هُمْ كَافِرُونَ﴾ [يوسف: 37] منكرون.

﴿وَاتَّبَعَتْ مِلَّةَ مَا بَاءَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾

ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَصْنَعِي السِّجْنَ أَزْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْشُرَ وَآبَاءُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَصْنَعِي السِّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمْ فَيَسْتَقِ رَبَّهُ خَيْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُضْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ [يوسف: 38-41].

﴿وَاتَّبَعْتُ﴾ في سلوكي طريق التوحيد ﴿مِلَّةَ آبَائِي﴾ وأجدادي ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا﴾ أي: ما صح وجاز لنا معاشر النبياء ﴿أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ﴾ المتوحد بذاته وأوصافه وأسمائه، المستقل في وجوده وحقيقته ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ لا وجود له أصلاً سوى العكسية والظلية ﴿ذَلِكَ﴾ الشهود والانكشاف ﴿مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾ الذين أرسلنا إليهم ويُعْثَا بينهم ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ الناسين حقوق نعم الله ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: 38] نعمة الإرسال وبعثة الرسل، ولا يواظبون على أداء شكرها.

ثم لما مهد يوسف لصاحبه طريق التوحيد ونبه عليهما السلوك عليه، أشار إلى دعوتهما إليه على سبيل التدرج كما هو دأب الأنبياء، فقال منادياً لهما ليقبلا على قبول قوله: ﴿يَا صَاحِبِي السِّجْنَ﴾ الساكنين فيه، المصاحبين معي ﴿أَزْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ﴾ متكثرون في العدد، متماثلون في عدم القدرة والاختيار ﴿خَيْرٌ﴾ عندكم وأحق لعبادتكم وانقيادكم ﴿أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ﴾ المتوحد في ذاته، المستقل في ألوهيته وربوبيته، المستغني في ذاته عن المظاهر مطلقاً ﴿الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: 39] الغالب على جميع السوى والأغيار.

واعلما أيها الأخوان أن ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ أنتم ومن على دينكما في مصر من عبدة الآلهة الباطلة ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ أي: من دون الله الواحد الأحد الصمد، الذي لا شريك له في الوجود أصلاً ﴿إِلَّا أَسْمَاءُ﴾ مطلقة على الأضلال معدومة، وعكوساً موهومة ﴿سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاءُكُمْ﴾ من تلقاء نفوسكم آلهة ومعبودات، مع أنه ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ المنزل للكتب والمرسل للرسل ﴿بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: بشأن آلهتكم من حجة وبرهان عقلي ونقلي حتى تكون تمسكاً لكم في اتخاذكم هؤلاء التماثيل آلهة مستحقة للعبادة

والإطاعة ﴿إِنْ الْحُكْمُ﴾ أي: ما الحكم المطلق والاستحقاق التام للإطاعة والانقياد وعبادة العباد ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ المتردي برداء العظمة والكبرياء، المتفرد بالجلال والبقاء، المتوحد في البسطة والاستيلاء؛ إذ هو المستحق بالعبادة، المستقل بالربوبية؛ لأنه في ذاته هو ولا شيء سواه، ولا إله إلا هو مع ﴿أَمَرَ﴾ فيما أنزل من الكتب على أنبيائه ورسله ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ ولا ترجعوا إليها الأظلال الهالكة والعكوس الباطلة ﴿إِلَّا إِيَّاهُ﴾ إذ به وبامتداد أظلال أوصافه وأسمائه ظهرت أشباحكم، ولاحت تماثيلكم وأرواحكم، فلا رجوع لكم إلا ﴿ذَلِكَ﴾ أي: طريق التوحيد، هو ﴿الَّذِينَ الْقِيَمُ﴾ أي: الأقوم والأعدل، الذي لا عوج فيه أصلاً ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ لكثافة حجتهم وغلظ غيظتهم وأغشيتهم ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 40] ولا يفهمون سر سريان الوحدة في الكثرة، فحجبوا بالمظاهر المتكثرة عن الوحدة الظاهرة فانصرفوا عن طريق الحق إلى الباطل ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: 40].

ثم لما دعاهما إلى الإيمان والتوحيد، ونبه عليهما طريقه، اشتغل بتعبير رؤياهما، فقال منادياً لهما أيضاً: ﴿يَا صَاحِبَي السِّجْنِ أَمَّا أَخَذُكُمَا﴾ وهو الشرابي ﴿فَيَسْقِي رَبَّهُ﴾ أي: سيده وملكه ﴿خَمْرًا﴾ على ما كان عليه بلا احتياج إلى تأويل ﴿وَأَمَّا الْآخَرُ﴾ وهو الخباز ﴿فَيُضَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ هذا ما ظهر لي في تأويل رؤياه بتوفيق الله إياي، وبعدما سمعا منه التأويل قالا: كذبنا فيما قلنا لك واستعبرنا منك، قال يوسف ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: 41] أي: حكم حكماً مبرماً على الوجه الذي ذكر في حضرة علم الله ولوح قضائه؛ لأن الأمر الذي جرى على لسان الأنبياء لا بد أن يقع؛ إذ لا جريان للكذب وعدم المطابقة في السنة الأنبياء والرسول.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ وَكَرَّ رَيْبَهُ فَلَمَّ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ (٤٢) وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ (٤٤)﴾ [يوسف: 42-44].

﴿وَقَالَ﴾ يوسف ﴿لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ وهو الشرابي: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ

رَبِّكَ⁽¹⁾ أي: اذكر حالي لملك عند ملاقاتك، وقل له أن رجلاً سُجن بلا جرم صدر عنه، وأوصاه به على طمع أن يستخلصه ويستكشف عن أمره، ولم يستثن مع أن المناسب بحاله ورتبته العلية الاتكال على الله، والتبتل نحوه بلا التفات إلى الغير أصلاً، والرضا بما جرى عليه من القضاء، والتصبر على هجوم البلاء وتزاحم المكروهات، فضلاً عن أن يستمد بلا استثناء، وذلك قبل الوحي ﴿فَأَنسَاءَ الشَّيْطَانُ﴾ للناجي ﴿ذَكَرَ رَبَّهُ﴾ أي: ذكر حال يوسف عند الملك حين جلس في مجلسه وسقى له خمراً ﴿فَلَبِثَ﴾ وبقي يوسف بسبب ترك الاستثناء والاستخلاص من المصنوع الأرذل الأنزل والاستعانة منه ﴿فِي السِّجْنِ﴾ بعد لبثه خمساً ﴿بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: 42] أي: سبعا بعد الخمس؛ مجازاة عليه وانتقاماً عنه، كما قال ﷻ: «رحم الله أخي يوسف لو لم يقل: اذكرني عند ربك لما لبث في السجن سبعا بعد الخمس»⁽²⁾.

﴿و﴾ بعدما لبث في السجن بضعا هيا سبحانه سيئاً بأن ﴿قَالَ الْمَلِكُ﴾ وهو ريان بن الوليد لأصحابه يوماً: ﴿إِنِّي أَرَى﴾ في المنام ﴿سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ أرى أيضاً ﴿سَبْعَ سُتَلَاتٍ خُضِرَ﴾ سبعا ﴿أَخْرَ يَابِسَاتٍ﴾ قد التفن على السبع الخضر فغلبن عليها، فجمع من في ملكه من أهل التنجيم والتكهن وجميع العلماء والصلحاء وعرضها عليهم وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي﴾ في رؤيائي؛ أي: عبروها وأولوها ﴿فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: 43] أي: إن كنتم من أهل التعبير والصور والعبرة والاعتبار.

فلما سمعوا قوله وتأملوا في رؤياه ﴿قَالُوا﴾ بأجمعهم متفقين: هذه ﴿أَضْغَاثُ أَخْلَامٍ﴾ أي: أباطيل صوركها المتخيلة وخالطتها تخليطاً إلى حيث لا يقبل التعبير والتأويل أصلاً ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَخْلَامِ﴾ الباطلة ﴿بِغَالِمِينَ﴾ [يوسف: 44] معبرين.

﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَّا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا

(1) قال التستري (235/1): حكى أن جبريل ﷺ دخل على يوسف في السجن، فقال له جبريل: يا طاهر ابن طاهر، إن الله تعالى أكرمني بك وبآبائك، وهو يقول لك: يا يوسف، أما استحييت مني حيث استشفعت إلى غيري، فوعزتي لأبشك بضغ سنين قال: يا جبريل، هو عني راض؟ قال: نعم، قال: إذن لا أبالي.

(2) ذكره النسفي في مدارك التنزيل (70/2).

الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعُ سُبُلُكُمُ خُضِرٍ وَأُخْرَى
يَا بَسَنَتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ
فِي سُبُلِهِ ۖ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا نَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعُ شِدَادٍ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا
مِمَّا تَحْصِتُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِشُونَ ﴿٤٩﴾ [يوسف: 49-45]

﴿٥٠﴾ بعدما عجز الملاء عن تعبير رؤيا الملك، واجتمعوا على أنها أضغاث أحلام
﴿قَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا﴾ أي: من صاحبي السجن، وهو الشرابي الموصى له بالذكر
فنسي ﴿وَأَذْكُرُ﴾ بهذا التقريب ما أوصى له يوسف ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: بعد مدة مديدة ﴿أَنَا
أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف: 45] فأرسله الملك ودخل عليه، فقال: يا ﴿يُوسُفُ
أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾⁽¹⁾ الصدوق في تأويل الرؤيا ﴿أَفْتِنَا﴾ وعبر لنا ﴿فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ
يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُبُلَاتٍ خُضِرٍ﴾ ملتفتة إلى سبع آخر ﴿وَأُخْرَى يَابِسَاتٍ﴾ عبر
لي هذه الرؤيا ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ﴾ بتأويلها ﴿إِلَى النَّاسِ﴾ الذين عجزوا عن تعبيره وصيروه
من الأباطيل والتخليطات الساقطة عن درجة التغيير والتأويل ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾
[يوسف: 46] تأويله ويفحمون عما يقولون؛ إذ الرؤيا للملك، وهم جعلوها من قبيل
الأضغاث، وأنت إذا عبرتها أرجو أن تتخلص من هذا السجن.

﴿قَالَ﴾ يوسف مؤولاً للرؤيا مدبراً فيه طريق المعاش؛ لئلا يضطروا في تدبيره:
﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ على ما هو دأبكم وعاداتكم ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ﴾ واركوه
﴿فِي سُبُلِهِ﴾ أي: فعليكم أن تدخروا ما حصدتم في سني الخصب بأن تتركوه في
سبله ولا تفرقه منه ولا يدوسوه؛ لئلا يقع فيه السوس ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا

(1) قال البقلي: سماه الصديق في دعواه علم الغيب، ومكاشفته، وعلم بأنبائه العجيبة، صادق في
مكاشفة الذي استقام الصديقية فيه، وذلك تتابع أنوار الإيقان والعرفان بعد كشف أنوار التجلي
في قلبه، ووصف هذا استواء الحال، واستقامة الأعمال. قال أبو حفص: الصديق الذي لا يتغير
عليه باطن أمره من ظاهره. قال بعضهم: الصديق هو الصادق قولاً وفعلًا وعزمًا وزينة وعقدًا.
وقال بعضهم: الصديق الذي لا يخالف قوله فعله، ولا حاله عمله. قال ابن الفرحي: الصديق
كأبي بكر الذي يبذل الكونين في رؤية الحق؛ لما قال النبي ﷺ: «ما أبقيت لنفسك؟ قال الله
ورسوله».

تَأْكُلُونَ ﴿يوسف: 47﴾ في تلك المدة.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي: بعد انقضاء سني الخصب والرخاء ﴿سَنِيْعٌ شِدَادٌ﴾ ذوي جَدْبٍ وَعَنَاءٍ، لا يَنْبِتُ فِيهَا الزَّرْعُ وفي تلك المدة ﴿يَأْكُلْنَ﴾ أي: أهلها جميع ﴿مَا قَدْ مَثُمْ لَهُنَّ﴾ وادخرتم لهن في سني الخصب ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُخْصِنُونَ﴾ [يوسف: 48] أي: تحرزونه وتحفظونه للبذر.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي: بعد انقضاء السبع الشداد ﴿عَامٌ﴾ ذو بركة ورخاء ﴿فِيهِ يُغَاثُ﴾ ويمطر ﴿النَّاسُ﴾ بعدما مُنِعُوا القَطَرُ مدة مديدة ﴿وَوَصَّارُ النَّاسِ مِنْ كَمَالِ الْخَصْبِ﴾ [يوسف: 49] الأدم من العنب والخرنوب وأنواع الحبوب.

كل ما جاء به يوسف ^{عليه السلام} من التأويل والتدبير مستند إلى الوحي والإلهام والعلم بدقائق المناسبات الواقعة بين ذرائر الأكوان.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِيَنِي بِهِ؟ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْمُرْزِقِ الْفَنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف: 50-53].

﴿وَوَصَّارُ النَّاسِ مِنْ كَمَالِ الْخَصْبِ﴾ لما سمع الشرايبي من يوسف ما سمع، تسارع إلى الملك وأخبره ما سمع من التعبير ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِيَنِي بِهِ؟﴾ فأرسل من يحضره ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ﴾ ليخرجه من السجن ﴿قَالَ﴾ يوسف: لا أخرج من السجن ما لم يظهر براءتي وعصمتي وطهارة ذيلي وكمال عفتي مما يرموني ويسجنوني بسببه ﴿أَرْجِعْ﴾ أيها الرسول ﴿إِلَى رَبِّكَ﴾ وسيدك ﴿فَاسْأَلْهُ﴾ أن يكشف عن أمره وما جرى علي من ظلم أولئك المفترين، سيما ليسأل: ﴿مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ؟﴾ وما شأنهن معي ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ الذي رباني بكمال العصمة والعفة ﴿بِكَيْدِهِنَّ﴾ ومكرهن الذي قصدن معي ﴿عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 50] على التفصيل الذي يخفون في نفوسهن، يجازيهن في يوم الجزاء على مقتضى علمه.

ثم لما رجع الرسول إلى الملك وأخبر عن حاله ومقاله، بادر الملك إلى إحضار

أولئك النسوان فحضرن ﴿قَالَ﴾ الملك منتقمًا عنهن، مفتشًا عما جرى بينهن وبين يوسف: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾ وشأنكن أيتها الماكرات المحتالات ﴿إِذْ رَاوَدْتُنَّ﴾ وخادعتن بأنواع الحيلة والخداع ﴿يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ وأي شيء ظهر منه من أمارات الفساد وعلامات الفسوق حتى تجترئن بمرأودته؟! ﴿قُلْنَ﴾ بأجمعهن بعدما سمعن كلام الملك واستفساره على وجه الانتقام: ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ أي: فعلة ذميمة وديدنة قبيحة باعثة لنا إلى مرأودته، سوى أنا رأيناه على صورة عجيبة وحسن بديع، ملنا إليه وأردنا مخالطته فاستعصم من كمال عفقه ونجابه طيسته، ثم ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ﴾ عند الملك بعدما بدا ما أخفت وفشا ما سترت، مقرة مقررة لطهارة ذيله: ﴿الآنَ خَضَعَضَ﴾ أي: لاح وظهر ﴿الْحَقُّ﴾ وارتفع عنه الحجب وانكشف الأستار ﴿أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ بعدما شغفني حبه وأزعجني ميله ﴿وَوَإِنَّهُ﴾ في ذاته وأقواله وأفعاله ﴿لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: 51] المبرئين المنزهين عما افترينا عليه ورمينا به.

ثم لما انكشف أمره عند الملك وثبت براءته، أرسل الرسول إليه ثانيًا ليخرجه من السجن، قال يوسف على مقتضى الحكمة الصادرة من السنة الأنبياء؛ توطيئًا لنفس العزيز وتسلية له، ليجزم أنه ما أساء الأدب معه في السر والعلانية ﴿ذَلِكَ﴾ الكشف والتفتيش إنما هو ﴿لِيَعْلَمَ﴾ العزيز يقينًا ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ حين انغلاق الأبواب السبعة، وأنا مع زوجته فكيف في غيرها ﴿وَوَ﴾ ليعلم العزيز أيضًا ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لجميع ما جرى على عباده ﴿لَا يَهْدِي كَيْدَ الْبَاطِلِينَ﴾ [يوسف: 52] أي: لا يوصل أهل الخيانة إلى ما يقصدون إليه بكيدهم وحيلتهم، بل يفضحونهم بها على رءوس الأشهاد في الأولى والأخرى.

ثم قال: ﴿وَمَا أَبرَأُ﴾ وأنزه ﴿نَفْسِي﴾ عن الفراطات والغفلات والخواطر القبيحة والديدنة الشنيعة على مقتضى القوى الشهوية واللذة البهيمية، وكيف أبرأ وأنزه ﴿إِنَّ النَّفْسَ﴾ المركوزة في الجيلة الإنسانية ﴿لَأَمَّارَةٌ﴾ مائلة بالطبع ﴿بِالسُّوءِ﴾⁽¹⁾ والفساد

(1) قال في التاويلات: يعني: خلقت النفس على جيلة الأمارية بالسوء طبعًا حين خلقت إلى طبعها لا يأتي منها إلا الشر ولا تأمر بالسوء، ولكن إذا رحمها ربها ونظر إليها بنظر العناية يقبلها من طبعها ويبدل صفاتها، ويجعل أمارتها مبدلة بالمأمورية وشريرتها بالخيرية، فإذا تنفس صبح الهداية في ليلة البشرية وأضاء أفق سماء القلب صارت النفس لوامة تلوم نفسها على شر فعلتها، وندمت على ما صدر عنها من الأمارية بالسوء، فيتوب الله عليها فان الندم توبة، وإذا طلعت

متوجهة نحوه إذا خلى وطبعها ﴿إِلَّا مَا رَجِمَ رَبِّي﴾ أي: حفظها الله من كمال رحمته وشفقته من طغيانها ووسوسة الشيطان إليها ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ الذي رباني بالعصمة والعفاف ﴿غَفُورٌ﴾ لما صدر عني من الخواطر النفسانية ﴿رَحِيمٌ﴾ [يوسف: 53] يرحمني بفضلِهِ ويعصمني بلطفه عما يبعدني من كنفه وجواره.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْنِسُ بِيَوْمِ اسْتِخْلَاصِي لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾
 قَالَ لَجَعَلَنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ ﴿٥٥﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا
 مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ
 خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [يوسف: 54-57].

﴿و﴾ بعدما فتش الملك عن أحواله وما جرى عليه، ثبت عنده أمانته وديانته ورعاية حقوق سيده ورشده في الأمور، سيما في التعبيرات والتأويلات، وصدقته في جميع الأقوال الصادرة عنه ﴿قَالَ الْمَلِكُ﴾ متحنًا عليه متشوقًا للقياء: ﴿أَتُؤْنِسُ بِهِ﴾ سريعًا ﴿أَسْتَخْلِصُهُ﴾ أي: أجعله خالصًا ﴿لِنَفْسِي﴾ ليكون أنيسي وجليسي ومولي أمري وظهيري في تدابير الأمور، فحضره عنده وسلم على الملك ترحيبًا وتعظيمًا ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ وأخذ بحمد الملك وثنائه ودعائه على اللغة العبرية، قال الملك: ما هذا اللسان؟ قال: هذا لسان آبائي وأجدادي، وكان الملك يتكلم على سبعين لغة، فكلم معه بجميعها، فأجاب جميعها وأحسن فيها، فتعجب الملك منه وقال: أريد أن أسمع تأويل رؤيائي منك مشافهة، فحكاه وبين وجوه المناسبات بين التعبيرات والسنوات المجدية والمخصبة وكيفية الانتقالات والتعبيرات على مقدار فهم الملك وتأويلات السنايل الخضر واليابس على الوجه الذي ألهم وأوحى، فازداد الملك محبة ومودة لذلك ﴿قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾ ذو مكانة ومرتبة عليّة ومنزلة رفيعة ﴿أَمِينٌ﴾ [يوسف: 54] مؤتمن على جميع أمورنا، فلك التصريف في ملكنا كيف تشاء.

شمس العناية من أفق الهداية صارت النفس ملهمة إذ هي تنورت بأنوار شمس العناية فالهمها نورها فجورها وتقواها، وإذا بلغت شمس العناية وسط سماء الهداية وأشرقت الأرض بنور ربها صارت النفس مطمئنة مستعدة لخطاب ربها بحلقة ﴿أَزِجِي إِلَى رَبِّكَ زَاهِيَةً مُزْجِيَةً﴾ [الفجر: 28].

وبعدما رأى يوسف ^{عليه السلام} ألا محيص له عنه، ولا بد له من ارتكاب أمر من أمور الملك ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ أي: أرض مصر ﴿إِنِّي﴾ بإقامة هذا الأمر ﴿خَفِيفٌ﴾ بوجوه محافظة أي جنس من الأجناس ﴿عَلَيْتُمْ﴾ [يوسف: 55] بطرق تدابيرها والتصرف فيها.

قيل: اتفق وفات قطير - هو سيد يوسف - في تلك الليالي، وكان هذا المنصب له لذلك طلبه، وتزوج زليخا زوجته التي قد شغفها حباً، فوجد لها عذراء وولد يوسف منها أفرايم وميشا.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما سمعت من القصة ﴿مَكَّنَّا﴾ قدرنا ﴿لِيُؤَسِّفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أرض مصر بعدما أدخلناه رقيقاً مهاناً وصيرناه مسجوناً مدة متطاولة ورفعنا مكانته فيها إلى حيث ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ أي: يتنعم وترفه ﴿مِنْهَا﴾ أي: من نواحيها وبلادها ﴿حَيْثُ يَشَاءُ﴾ تهوى نفسه ويميل إليها طبعه؛ إذ من ستتنا أنا ﴿نُصِيبُ﴾ ونوفي ﴿بِرَحْمَتِنَا﴾ التي وسعت كل شيء ﴿مَنْ نَشَاءُ﴾ من خلص عبادنا المجبولين على فطرة توحيدنا السالكين سبيل الإنابة والرجوع إلى فضاء فنائنا ﴿وَوَ﴾ بالجملة: إنا ﴿لَا نُضِيعُ﴾ أي: لا نهمل ولا نقص ﴿أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 56] الذين يحسنون الأدب مع الله في جميع حالاتهم وشئونهم ولا يغفلون منه طرفة ولا يلتفتون إلى غيره لمحة، ولا يخطرون ببالهم سواه خطرة، هذا حالهم في النشأة الأولى.

﴿وَوَ﴾ الله ﴿لَا أَجْرَ﴾ النشأة ﴿الْآخِرَةِ﴾ المعدة لهم فيها ﴿خَيْرٌ﴾ منها بالأضعاف والالاف ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيد الله عن ظهر القلب وصميم الفؤاد ﴿وَوَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: 57] عن محارم الله طلباً لمرضاته وقياماً بحسن آدابه، رجاء من ثوابه وخوفاً من عقابه.

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتَأْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفِي الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ مِنْ يَدِي وَلَا تَقْرَبُونِي﴾ ﴿٦٠﴾ ﴿قَالُوا سَتَرُوهُ عَنْهٗ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ ﴿٦١﴾ ﴿وَقَالَ لِفَتَىٰهِ أَجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٦٢﴾ [يوسف: 58-62].

﴿و﴾ حين استوزر الملك يوسف ^{عليه السلام} وأقامه في ضبط الممالك وقيام أمور الناس من التدبيرات المتعلقة بأمور معاشهم من تكثير الغلات والزراعات حتى دخلت السنين المجدية، وكانت البيوتات والمغلات مملوءة بأنواع الحبوب، ثم لما أحاط الجذب جميع بلاد مصر والشام وعم البلوى في جميع الأماكن والجهات، اضطر الناس إلى أن يلتجئوا إلى باب العزيز؛ ليستغلوا منه ويسدوا رمقهم؛ لذلك ﴿جَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ من الكنعان ليستغلوا ﴿فَدَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ بأجمعهم ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾ بالفور، وسألهم عن الوطن والمصلحة، فقالوا: نحن أولاد يعقوب جُددنا الآن، واضطربنا إلى أن جئنا نستقوت من جاء العزيز ولا يحصل من الغير مطلقاً.

ثم قال لهم يوسف: أنتم بأجمعكم أبناء رجل واحد؟ قالوا: نعم إن لأبينا اثني عشر ابناً، عشرة من زوجة واثان من زوجة أخرى، ونحن تلك العشرة وواحد من الاثنين، قد هلك في الصحراء، والآخر عند أبينا يؤانس معه ويدفع به وحشة ابنه؛ إذ هو محبوب له مرغوب عنده ﴿وَهُمْ﴾ مع طول صحبتهم معه ومجالسته عنده ﴿لَهُ مُنْكِزُونَ﴾ ⁽¹⁾ [يوسف: 58] لا يتفقهون ولا يتنبهون فكيف يعرفونه.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمُ﴾ الخدام بإذن العزيز ﴿بِجَهَازِهِمْ﴾ وهياوا أرحالهم فأرادوا أن يشدوا، دخلوا على العزيز للتوديع ﴿قَالَ﴾ لهم العزيز: ﴿اثْبُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَيْكُمُ﴾ ليدل على صدقكم ونجابة أصلكم ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ﴾ وأتمه لكم ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ [يوسف: 59] أحسن ضيافتكم مثل ما أحسنت.

﴿فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ﴾ أي: بأخيكم بنيامين ﴿فَلَا كَيْلَ لَّكُمْ حِنْدِي﴾ أي: فاعلموا ألا

(1) قال في التأويلات: قيل: إنما أنكروا؛ لأنهم كانوا قد جفوه، والجفاء يورث الوحشة ويلهب الألفة، ويورث المخالفة ويلهب الموافقة، ويورث المحاربة ويلهب المسالمة، ويعد ولا يقرب، وينكر المعروف، ولما صفوا تحت سرير فكان بلسان الحال ناداه انظروا ماذا فعلتم بيوسف؟ وماذا صنع الله به؟ أنتم أهتموه والله أعزه، وأنتم جعلتموه في الحب والله جعله على سرير الملك؛ ليعلم العالمون أن العزيز من أعزه الله، والدليل من أذله الله، ﴿ثَوْنِي الْمُلْكُ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكُ مِمَّن تَشَاءُ﴾ [آل عمران: 26]، وقيل: إن يوسف جعل في الحب ثم في السجن، فلم يعرضه الله تعالى في تلك الحالة على إخوته، ولما توجه بتاج الملك عرضه عليهم؛ وكذا أمر المؤمن يكون نطفة ثم علقه ولا يعرض في هذه الأحوال، فإذا تمت خلقته وكملت صورته أظهر وعرض، ثم إذا توفاه يعرض للإتيان أماته وأقبره، فإذا أعاد خلقه عرضه مكرماً بلباس التوحيد متوجاً بتاج الملك كما قال: ﴿يَوْمَ نَخْشِرُ الْمُغْتَابِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدْ﴾ [مريم: 85].

كيل لكم عندي بعد اليوم ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ [يوسف: 60] ولا تدخلوا داري؛ إذ أنتم حينئذ قوم كاذبون.

وبعدما سمعوا منه كلامًا موحشًا، وتفرسوا أنهم لو لم يأتوا بأخيهم لما اكتال لهم العزيز ولم ينزلهم، فكيف أن يحسن معهم ويضيفهم؟ ﴿قَالُوا﴾ له معذرين: إن له أبا شيخًا كبيرًا، محزونًا، آسفًا يتسلى به ﴿مَسْرَاوِدُ﴾ ونجتهد مقدار طاقتنا ﴿عَنْهُ أَبَاهُ﴾ ونخدع به بأنواع الخداع حتى نأتي ﴿وَأِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ [يوسف: 61] ألبته وجوها من الخداع لإتيانه.

﴿وَوَ﴾ بعدما هياوا للسفر وأرادوا أن يرحلوا ﴿قَالَ﴾ يوسف ﴿لِفِتْيَانِهِ﴾ أي: خدامه وأعوانه: ﴿اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ التي أتوا بها وهي الأدم والنعال في رحالهم على وجه لا يشعرونها ﴿لَعَلَّهُمْ يَغْرِفُونَهَا﴾ وقت ﴿إِذَا انْقَلَبُوا﴾ ورجعوا ﴿إِلَى أَهْلِهِمْ﴾ وبعد رؤيتهم البضاعة آيسوا ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ بعد ذلك ﴿يَرْجِعُونَ﴾ [يوسف: 62] بأخيهم لو رجعوا.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَصْكُتْ لَنَا لَمْ نَحْفَظْهُ﴾ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبُغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَعِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانًا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنَأَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنِّي اللَّهُ لَتَأْتُنَّنِي بِهِمْ لَا أَنِ يَحْمِلَ بِكُمْ فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ [يوسف: 63-66].

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا﴾ من مصر ﴿إِلَى أَبِيهِمْ﴾ حكوا ما جرى بينهم وبين العزيز من الحكايات التي مضت، ثم طلبه منهم ما يصدقهم ويشهد لهم واضطرارهم من الشاهد وأمرهم العزيز بإحضار أخيهم بنيامين؛ ليكون مصدقًا لهم، ثم بعدما بسطوا الكلام عند أبيهم ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ بعد اليوم لو لم ترسل معنا بنيامين ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانًا﴾ ليكون مصدقًا لنا عند العزيز وبعد تصديقه إيانا ﴿نَكُتْ﴾ لجميعنا ﴿وَوَ﴾ لم لم ترسله معنا ﴿إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف: 63] من طرق المكروه عليه؛ إذ نحن عصبة ذوو قدرة وقوة!.

﴿قَالَ﴾ لَهُمْ أَبُوهُمْ مَتَاسِفًا مَتَحْزِنًا: ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ﴾ وَاجْعَلْكُمْ وَقَايَةً لَهُ ﴿إِلَّا كَمَا آمَنُكُمْ عَلَى أَخِيهِ﴾ يَوْسُفَ ﴿مِنْ قَبْلُ قَالَهُ﴾ الرَّقِيبُ عَلَى عِبَادِهِ فِي جَمِيعِ حَالَاتِهِمْ ﴿خَيْرٌ﴾ لَهُمْ ﴿خَافِظًا﴾ أَي: مِنْ جِهَةِ الْحُضَانَةِ وَالْحَفِظِ ﴿وَهُوَ﴾ فِي ذَاتِهِ ﴿أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: 64] إِذْ رَحِمَ الْكُلَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ الرَّحِيمُ بِالذَّاتِ، وَرَحِمَ غَيْرَهُ إِنَّمَا يَتَشَبَّهُ مِنْ رَحْمِهِ.

وَبَعْدَمَا أَلْحَوْا مَعَ أَبِيهِمْ وَاقْتَرَحُوا لَهُ بِإِرْسَالِ أَخِيهِمْ بَنِيَامِينَ، وَتَفَرَّسُوا مِنْهُ أَنَّهُ لَمْ يَرْضَ بِإِرْسَالِهِ، خَرَجُوا مِنْ عِنْدِهِ مَحْزُونِينَ ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ﴾ الَّتِي جَاءُوا بِهَا ﴿وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ﴾ الَّتِي اشْتَرَوْا بِهَا الْكَيْلَ ﴿رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ نَدَمُوا وَتَحْزَنُوا، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ شَاكِينَ مُشْتَكِينَ ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا﴾ إِنَّا نَجْزِمُ بِمَنْعِ الْكَيْلِ لَوْ نَكَّرَ ﴿مَا تَبْغِي﴾ أَي: أَي شَيْءٍ نَفْعَلُ وَنَدْبِرُ ﴿هَلِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ عَلَى وَجْهِ لَا نَطْلُعُ عَلَيْهَا إِلَّا الْآنَ، فَجَزَمْنَا إِلَّا كَيْلَ لَنَا إِنْ عَدْنَا إِلَيْهِ مَرَّةً أُخْرَى بَلَا إِيَّانَ أَخِينَا، وَنَكُونُ عِنْدَ الْعَزِيزِ مِنَ الْكَاذِبِينَ الصَّاعِرِينَ وَنَسْأَلُ مِنْكَ يَا أَبَانَا مِنْ كَمَالِ كَرَمِكَ وَجَاهِكَ أَنْ تَرْسَلَ مَعَنَا أَخَانَا؛ لِيَصْدُقَنَا عِنْدَ الْعَزِيزِ ﴿وَوَ﴾ بَعْدَ تَصْدِيقِهِ إِيَّانَا ﴿نُمِيزُ﴾ وَنَحْمِلُ الْعَطَايَا مِنْ عِنْدِهِ ﴿أَهْلُنَا﴾ أَي: لِأَجْلِهِمْ ﴿وَنُحْفَظُ﴾ فِي الذَّهَابِ وَالْإِيَابِ ﴿أَخَانًا وَنَزْدَادُ﴾ بِسَبِيهِ ﴿كَتِلَ بِعِيرٍ﴾ أَي: حَمَلَهُ؛ إِذْ مِنْ سَنَةِ الْعَزِيزِ أَنْ يَحْمِلَ لِكُلِّ مَنَا بَعِيرًا ﴿ذَلِكَ﴾ الْكَيْلُ الَّذِي جِئْنَا بِهِ ﴿كَتِلَ يَسِيرُ﴾ [يوسف: 65] قَلِيلٌ لَا يَفِي لِمَعَاشِنَا إِلَى وَقْتِ الْخَصْبِ مَا لَمْ نَزِدْ.

ثُمَّ لَمَّا بِالْغَوَا فِي سَوَالِهِمْ وَاقْتَرَحُوا الْإِسْعَافَ مَا طَلَبُوا ﴿قَالَ﴾ لَهُمْ أَبُوهُمْ مَعَاتِبًا عَلَيْهِمْ: ﴿لَنْ أَرْسِلَهُ﴾ أَي: بَنِيَامِينَ ﴿مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ أَي: بِمِثْنٍ وَقَسْمًا أَثَقَ بِهِ وَأَعْتَمَدَ عَلَيْهِ ﴿لَتَأْتِيَنِي بِهِ﴾ أَلْبَتَّةَ بَلَا خَلْفٍ ﴿إِلَّا أَنْ يُخَاطَ بِكُمْ﴾ نَوْعٌ مِنَ الْبَلَاءِ مِنَ إِمَامِ الْعَدُوِّ وَغَيْرِهِ ﴿فَلَمَّا﴾ اضْطَرُّوا إِلَى مَا طَلَبَهُ أَبُوهُمْ مِنْهُمْ ﴿آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ فَرَضِي بِإِرْسَالِ بَنِيَامِينَ مَعَهُمْ ضَرُورَةً ثُمَّ ﴿قَالَ﴾ أَبُوهُمْ تَأْكِيدًا وَتَغْلِيظًا وَتَفْوِيضًا لِأَمْرِهِ إِلَى رَبِّهِ: ﴿اللَّهُ﴾ الْمَطْلَعُ لِجَمِيعِ حَالَاتِ عِبَادِهِ ﴿عَلَى مَا تَقُولُ﴾ وَيَجْرِي بَيْنَنَا ﴿وَكَيْلُ﴾ [يوسف: 66] أَي: رَقِيبٌ حَفِيزٌ، يَفْعَلُ بِنَا عَلَى مَقْتَضَى عِلْمِهِ وَخَبْرَتِهِ.

ثُمَّ لَمَّا رَضِيَ يَعْقُوبُ ~~الطاهر~~ بِإِرْسَالِ ابْنِهِ بَنِيَامِينَ، فَشَدُّوا وَخَرَجُوا مِنْ عِنْدِهِ، وَصَى لَبْنِيَهُ أَنْ يَتَفَرَّقُوا عِنْدَ الدَّخُولِ إِلَى مِصْرَ، وَلَا تَدْخُلُوا كَوَكْبَةً وَاحِدَةً؛ خَوْفًا مِنْهُمْ أَنْ يِعَانُوا؛ إِذْ هُمْ ذَوُرُ جَمَالٍ وَبِهَاءٍ، كَانَ النَّاسُ يَتَعَجَّبُونَ مِنْهُمْ حَيْثُ انْصَرَفُوا مُجْتَمِعِينَ.

﴿وَقَالَ يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَأَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أَخْفَى عَنْكُمْ مِنَ

اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ [يوسف: 67-69].

﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا﴾ على البلدة ﴿مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾ مجتمعين ﴿وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾⁽¹⁾ فرادى، حتى لا تتضرروا من العيون اللامة ﴿و﴾ اعلموا أنني ﴿مَا أَغْنِي﴾ وأدفع بقولي لكم هذا ﴿عَنْكُمْ مِنْ﴾ قضاء ﴿اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ﴾ أي: ما الحكم والأمر ﴿إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ﴾ لا على غيره من الأظلال ﴿تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ﴾ في كل الأمور

(1) قال في التاويلات: قال: هذا الافتراق بقي في بني إسرائيل، انفلق البحر لهم اثنتي عشرة فلقة كما قال: ﴿فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطُّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: 63]، وقال: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتِي عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الأعراف: 160] وقال: ﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَجْمًا﴾ [البقرة: 60] وقال: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: 12] وقال في حق المؤمنين: ﴿وَأَلْفَ بَيْنٍ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: 63] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: 45] وقال: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب: 35] وقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: 71] فلا ينبغي للمؤمنين أن يفرقوا؛ بل ينبغي أن يكونوا كنفس واحدة يشد بعضهم بعضاً، وقيل: أربعة نفر أمروا بدخول أربعة أبواب كما قال: ﴿وَأَثَرُوا الْيُبُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: 189] وذلك لموافقة الشرع ومخالفة الهوى، وأمروا إخوة يوسف بدخول أبواب مصر؛ لكمال النفقة وحسن المقال: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾ [يوسف: 67] وأمروا الكفرة بدخول أبواب النار لإظهار العقوبة والنكال كما قال: ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [الزمر: 72] وأمر المؤمنون بدخول الجنان بكمال الكرامة وإظهار النوال كما قال: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: 49]، وقيل: أربعة أبواب فتحت لأربعة نفر لأربعة أشياء فتحت أبواب النعمة للغافلين؛ للاستدراج والإمهال كما قال: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 44]، وفتحت أبواب السماء على قوم نوح للخزي والنكال كما قال: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ [القمر: 11]، وفتحت أبواب النار على الكفار للعقوبة وللأسل والغلل كما قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحْتُمْ أَبْوَابَهَا﴾ [الزمر: 73]، وفتحت أبواب الجنان على المؤمنين للفضل والأفضال كما قال: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾.

﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: 67] إذ لا رجوع للكل إلا إليه.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا﴾ مصر ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ آبَاؤُهُمْ﴾ متفرقين من أبواب متعددة ﴿وَمَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ﴾ ويدفع تدبير أبيهم ﴿مِنْ﴾ قضاء ﴿اللَّهِ﴾ الذي قدر لهم ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ إذ الأمر والقضاء لله ولا معقب لحكمه ﴿إِلَّا﴾ يعني: سوى ما كان ﴿حَاجَةً﴾ تختلج ﴿فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ بالوصية لأبنائه تفاؤلاً وتفريجاً ﴿وَلِإِنَّهُ﴾ أي: يعقوب ﴿لَظَهَرَ﴾ ﴿الَّذِي عَلِمَ﴾ كامل مفاض له من لدنا، متعلق بما لا مرد لقضائنا، لذلك قال: وما أغني عنكم من الله من شيء ﴿لَمَّا عَلِمْنَاهُ﴾ بطريق الوحي والإلهام إياه ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ المجبولين على الجهل والنسيان ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 68] أن قضاءنا لا يرد، وأن الحذر لا يغني عن القدر؛ لذلك أصاب بهم ما خافوا عنه.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾ مع بنيامين، أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على سباط، فبقي بنيامين وحيداً، فبكى وتأوه متحسراً، وقال: لو كان أخي يوسف حياً لما بقيت وحيداً، ولما رأى يوسف حنينه وبكائه ﴿آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ وزجع نحوه وضم نفسه إلى نفسه، وأجلسه على سباطه، ثم أمر يوسف أن ينزلوهم كل اثنين بمنزل واحد، فبقي بنيامين لا ثاني له، فاغتم حيثئذ أشد اغتمام، فذهب به يوسف إلى منزله، فقال له: أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟ قال: فمن يجد مثلك أخاً، غير أنك لم يلدك يعقوب ولا راحيل.

ثم لما رأى يوسف زيادة همه وحزنه وكثرة تأسفه وغمه ﴿قَالَ﴾ لا تحزن ولا تغتم ﴿إِنِّي﴾ بشخصي ﴿أَنَا أَخُوكَ﴾ يوسف بن يعقوب وراحيل، قد احتال علي أخوتك وخادصوني بأنواع الحيل والخداع إلى أن فرقوا بيني وبينك وبين أبي مدة مديدة حسداً، فأنقذني الله عن مكرهم وكيدهم، وخلصني عن قيد الرقية والسجن وأنواع المحن ورفع قلدي ومكانتي وشرفني برؤيتك، وأعطاني من المكرمات ما لا يحصى ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ ولا تحزن يا أخي ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: 69] معي ومعك من أنواع الصغار والهوان وأصناف الأذيات.

ثم لما قرت عينا بنيامين بوجه يوسف وسر قلبه لقياه بعدما آيس وقنط، قال: يا أخي لا أفارقك أبداً، قال يوسف: لا يتيسر هذا إلا بعد أن اتهمك بتهمة، فأخذك لأجلها إن رضيت، قال: رضيت بأي تهمة اتهمتني بها.

﴿قَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِي ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْيَاسُورُ﴾

إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَقَبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا تَفْقَدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتَنَا لِنُغِيدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ [يوسف: 76-70]

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ﴾ على الوجه المعهود وشدوا رحالهم ﴿جَعَلَ السَّقَايَةَ﴾ أي: أمر يوسف للخدمة أن يجعلوا السقاية التي بها يكال، وهي من الفضة، وقيل: من الذهب ﴿فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ بنيامين، وعندما شدوا الرحال ودعوا مع العزيز جميعاً، فخرجوا عقبها ﴿ثُمَّ﴾ بعدما خرجوا من البلدة ﴿أُذِّنْ مُؤَذِّنٌ﴾ أي: صاح عليهم صائح من قبل العزيز: ﴿أَيُّهَا الْعَبْرُ﴾ أي: القفل إلى أين تمشون؟ ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ [يوسف: 70] مديرين:

﴿قَالُوا وَقَبِلُوا عَلَيْهِمْ﴾ أي: على الصائحين، مضطربين خائفين: ﴿مَاذَا تَفْقَدُونَ﴾ [يوسف: 71] أيها الفاقدون المتفقدون؟

﴿قَالُوا تَفْقَدُ صُوعَ الْمَلِكِ﴾ أي: الأنية التي يصاع ويكال بها ﴿وَهُ﴾ بالجملة: ﴿لِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ من المكيل ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ [يوسف: 72] ضمين أتكفل أن أتفحص من رحله.

﴿قَالُوا﴾ مضطربين، مقسمين، مستبعدين: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ أيها الخدمة والعزيز ﴿مَا جِئْتَا﴾ عندكم وفي أرضكم ﴿لِنُغِيدَ فِي الْأَرْضِ﴾ سيما السرقة، فإنها من أعظم الفسادات ﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ [يوسف: 73] أصلاً، إذ نحن أولاد الأنبياء ولا يليق بنا أمثال هذا.

﴿قَالُوا﴾ أي: الشرطة والخدام: ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ﴾ أي: أي شيء جزاء السارق منكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ [يوسف: 74] في دعوى البراءة والنزاهة؟

﴿قَالُوا﴾ أي: إخوة يوسف: ﴿جَزَاؤُهُ﴾ أي: جزاء السارق ﴿مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ﴾

فَهُوَ ﴿فَهَوُ﴾ نفسه وشخصه ﴿جَزَاؤُهُ﴾ أي: جزاء سرقة بآن يسرق سنة، وكان جزاء السارق في دين يعقوب استرقاق سنة ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما قلنا ﴿نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [يوسف: 75] السارقين في دين أبناء يعقوب ~~الظالمين~~.

ثم لما أفتوا بما أفتوا أخذوا بالتفتيش والكشف ﴿فَبَدَأَ﴾ الزاعم ﴿بِأَوْعِيَّتِهِمْ﴾ أي: بتفتيشها وتفحصها ﴿قَبْلَ وَغَاءِ أَخِيهِ﴾ بنيامين ﴿ثُمَّ﴾ بعدما استقصى الكل واستقرأها تفشيًا ﴿اِسْتَخْرَجَهَا﴾ أي: السقاية ﴿مِنْ وَغَاءِ أَخِيهِ﴾ لئلا يظن أنهم يدسونها في رحله ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل كيد يوسف لأخذ أخيه بنيامين ﴿كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ في أخذه من يد إخوته وخلاصه من الرق والسجن، وكدنا له أيضًا في أخذ أخيه من إخوته بفتواهم أيضًا؛ إذ ﴿مَا كَانَ﴾ أي: ما صح وجاز له ﴿لِيَأْخُذَ أَخَاهُ﴾ بجرم السرقة ﴿فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ أي: ملك مصر؛ إذ في دينه الضرب وأخذ ضعف ما سرق ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ هذا الحكم المخصوص في دين الملك، وألهمه ليوسف بنفاذه أو يحكم في هذه المسألة على دين آبائه، أو كان الملك أسلم بيده، ودخل بدين آبائه على ما نقل ﴿نَزْفَعُ﴾ ونعلو ﴿دَرَجَاتٍ﴾ أي: مراتب ومنازل ﴿مَنْ نَشَاءُ﴾ من عبادنا، بزيادة الفضائل والكمالات والحقائق والمعارف ﴿وَرَوْ﴾ لا يبعد منا أمثال هذا؛ إذ ﴿فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 76] أعلى منه لا إلى نهاية؛ إذ لا انقطاع لتجددات التجليات أصلاً، لذلك قال سبحانه: «ألا طال شوق الأبرار إلى لقائي»⁽¹⁾ أي: في شوقي وتجلياتي.

﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُّوسُفُ فِي نَفْسِهِ. وَلَمْ يَبْدُهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَنَّاتٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَا نَبِيَّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَكَادَ اللَّهُ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعًا عَنْدَهُ إِنَّا إِنْ لَأُنْظِرُكُمْ ﴿٧٩﴾ قُلْنَا اسْتَفْسُوا مِنْهُ خَلَصُوا بِحَيَاتٍ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِيَ أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [يوسف: 77-80].

ثم لما شاهدوا استخراج الوعاء من رحل بنيامين اضطربوا اضطرابًا شديدًا

(1) رواه أبو نعيم في «الحلية» (91/10).

وتحزنوا حزناً غليظاً ﴿قَالُوا﴾ مغاضبين عليه يريدون مقتله: ﴿إِنْ يَسْرِقْ﴾ هذا اللئيم، فلا تعجبوا منه؛ إذ هي من ديدنة أخيه سرت عليه ﴿فَقَدْ سَرَقَ﴾ مثله ﴿أَخْ لَّهُ﴾ أكبر منه ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ في أوان طفولته يريدون يوسف.

قيل: ورثت عمه يوسف من أبيها منطقة إبراهيم، وكانت تحضن يوسف وتحبه، فلما شب أراد يعقوب انتزاعه منها، فلم ترض العمّة، فشدت المنطقة على وسطه ثم أظهرت ضياعها، فتفحص عنها فوجدتها مشدودة في وسطه، فتحاكموا فصارت أحق به في دينهم.

فلما سمع يوسف منهم ما سمع ﴿فَأَسْرَهَا﴾ وكتمها ﴿يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ ولم يظهر الإنكار عليهم بل أضمر حيث ﴿قَالَ﴾ في نفسه وسره: ﴿أَنْتُمْ﴾ أيها المسرفون ﴿شَرُّ مَكَانًا﴾ أي: خصلة ومنزلة وشأننا ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لأحوال عباده ﴿أَعْلَمُ﴾ منكم ﴿بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: 77] وتشرحون بألستكم افتراء ومراء.

ثم لما جزم العزيز بأخذ أخيه على جريمة السرقة واسترقاقه إلى سنة ﴿قَالُوا﴾ متضرعين متذللين منادين له على وجه الخضوع راجين من قبوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ أدام الله عزك ﴿إِنْ لَّهُ﴾ أي: لهذا المفسد السارق ﴿أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ في السن والمرتبة؛ إذ هو نبي من الأنبياء، ضرير من فراق ابنه الهالك، يتسلى قلبه ويزول وحشته لمؤانسته هذا المسرف، مع أنا حلفنا معه وآتيناه موثقاً عظيماً أن نرجع فيه ﴿فَنُحِذُّ﴾ من جاهك وإحسانك ﴿أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ أي: بدله بواحد منا لنخدم في بابك، وأطلقه لنذهب به إلى أبيه الضرير الضعيف؛ لئلا يستوحش ولا نحث في حلفنا ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾⁽¹⁾ [يوسف: 78] المتعودين للإحسان، المتمرنين فيه، فتمم علينا وعلى الشيخ الضعيف

(1) قال روزبهان: أي: ممن يعفو عن ظلمه. وأيضاً: أي: من المشاهدين الملكوت، والمكاشفين لهم أنوار الجبروت. وأيضاً: أي: من العالمين بحل مشكلات الغيوب، وعجائبات القلوب. وأيضاً: من العارفين بدقائق الأحوال، وحقائق الإجمال. قال ابن عطاء: من المائلين إلى الفقراء بالإحسان إليهم، والقعود معهم والأنس بهم. وقال أبو بكر بن طاهر: إنا نراك من المحسنين، لا ترد عذر معتذر. وقال بعضهم: إنا نراك من المحسنين إلى من أساء إليك، وهو من شرائط الإيمان.

وقال بعضهم: أي: العالمين بعلم الرؤيا. وقال أبو بكر الورّاق: الراجعين إلى الله في النوائب والمحن.

وقال يوسف بن الحسين: التاركين حظك لحظوظ إخوانك. وقال الجنيد: العارفين حقائق الأمور.

إحسانك وامتنانك.

﴿قَالَ﴾ يوسف: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾ يعني: نعوذ بالله أن نأخذ غير السارق بدله ظلمًا لمصلحتكم ﴿إِنَّا﴾ وإن فعلنا مثل ما التمستم منا كنا ﴿إِذَا لُفَّتِ الْمُونُ﴾ [يوسف: 79] خارجون عن حدود الله بلا إذن شرعي.

﴿فَلَمَّا اسْتِئْأَسُوا مِنْهُ﴾ ومن تبديله ﴿خَلَّصُوا﴾ وخرجوا من عنده ﴿نَجِيًّا﴾ متناجين في نفوسهم بأن ما عليه العزيز هو الحق؛ لأن أخذ البريء بدل المجرم ظلم صريح، ثم لما صمموا العزم إلى الرجوع وآيسوا من بنيامين ﴿قَالَ كَيْبُرُهُمْ﴾ رأيا وسئا، وهو روبيل أو شمعون: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا﴾ أيها المسرفون ﴿أَنْ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا﴾ عظيمًا وعهدًا وثيقًا ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ القادر المقتدر على أنواع الغضب والانتقام أن ترجعوا به ﴿وَوَ﴾ أيضًا لم تستحيوا من الله ولم تتذكروا ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ في سالف الزمان ﴿مَا قَزَطْتُمْ فِي﴾ حق ﴿يُوسُفَ﴾ من الإذلال والزجر التام والألم المفرط والإلقاء في الحب وبيعه رقيقًا، وغير ذلك من أنواع الأذيات معه، وأنتم ما استحييتم من الله، تدعون وراثة الأنبياء وتنسبون أنفسكم إليهم وبعد اللبث والتي فعلتم بأخيه أيضًا هذا ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ أي: لا أزول عن أرض مصر ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ بالخروج منها ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يوسف: 80].

﴿ارْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ ٨١ ﴿وَمَنْ لِّلْقَرْيَةِ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرِ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ ٨٢ ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَقْصِرَ بِهِمْ عَنْ أَنْ يُرْسِلَ عَنْهُمْ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ ٨٣ ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا سَفِي عَلَىٰ يُونُسَ وَأَبِصْرَتِ صَيَّاهُ مِنْ الْحُزْنِ فَهُوَ كَوْبٌ﴾ ٨٤ ﴿قَالُوا نَالَهُ تَفْتَرًا تَذَكَّرُ يُونُسَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ ٨٥ ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بِنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَقْلَمَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ٨٦ [يوسف: 81-86].

﴿ارْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا﴾ بسرته ﴿إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا﴾ أيقنا أنه سارق، وما علمنا إلا بالمشاهدة والإحساس بأن استخرج صاع الملك من رحله، وإنا ﴿وَوَ﴾ إن كنا حفيظًا له رقيقًا عليه عما يعرضه ويشينه لكن ﴿مَا كُنَّا

لِلْغَيْبِ ﴿المستور عنا﴾ ﴿خَافِظِينَ﴾ [يوسف: 81] إذ لا اطلاع لنا على سره.

﴿و﴾ إن لم تقبل يا أبانا قولنا ﴿اسْأَلِ الْقَزِيَّةَ﴾ أي: أهلها ﴿الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ لدى الحوامل ونهيئة الأسباب ﴿و﴾ أسهل من ذلك اسأل ﴿الْعِيرَ﴾ أي: القفل ﴿الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ إذ هم رفقائنا معنا حين سرق ابنك وأخذوه، مع أنا اجتهدنا كثيرًا أن يؤخذ منا واحد بدله لم يقبلوا منا، وقالوا: ما نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده، وإن مضينا على مقتضى مقترحكم نكون من الظالمين بأخذ البريء بدل الجاني، مع أن يهوذا أو روبيل قد تخلف عنا خوفًا من الحنث واستحياء منك ﴿و﴾ الله يا أبانا ﴿إِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [يوسف: 82] فيما حكينا لك عما جرى علينا مما تم.

ثم لما سمع يعقوب ما سمع تأسف وتأوه وبكى كثيرًا ﴿قَالَ﴾ من أين يعرف العزيز أن السارق يؤخذ لسرقته ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ أي: زينت وحسنت ﴿لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ أن تفرقوا ابني عني ظلمًا وزورًا كما فرقتم أخاه فيما مضى ﴿فَصَبِّرْ جَمِيلٌ﴾ أي: أمري صبر جميل؛ إذ الصبر أجمل مني فيما فرطتم في ابني أيها المسرفون المفسدون ﴿عَسَى﴾ الله ﴿المطلع بحالي وحزني بمقتضى لطفه وسعة جوده ورحمته﴾ ﴿أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ﴾ أي: يوسف وأخيه وكبيركم المتخلف عنكم ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه بذاته ﴿هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بمناجاة عباده ونيلهم إلى حاجاتهم ﴿الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: 83] في أفعاله على مقتضى مصالح عباده.

﴿و﴾ بعدما سمع منهم أبوهم ﴿تَوَلَّى﴾ وانصرف وأعرض ﴿عَنْهُمْ﴾ مغاضبًا عليهم مشتكيًا إلى ربه من فعالهم ﴿وَقَالَ﴾ من شدة حزنه وكآبته ونهاية ضجرته على مفارقة ابنه: ﴿يَا أَسْفَى﴾ أي: يا حزني وشدة بلائي ويا حسرتي وحرقة قلبي وكبدي، وبالجملة: يا هلكتي تعالي؛ إذ لم يبق بيني وبينك ما يبعدني عنك ويبعدك عني ﴿عَلَى يُونُسَ﴾ خصه بالذكر لأنه عمدة محبته وزبدة مودته، مع أنه يتردد في حياته ويجزم بحياة الآخرين ﴿و﴾ لما تمادى ألمه وتطاول حزنه وأسفه ﴿اِيْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنْ﴾ كثرة ﴿الْحُزْنِ﴾ قبل فقدان هذين الابنين ويعد فقدانهما ﴿فَهُوَ﴾ نفسه ﴿كَظِيمٍ﴾ [يوسف: 84]

مملوء من الحزن والبلاء كأنه مجسم منها، متجرع الغصص والألم من بنيه.

ثم لما رأى الناس ما رأوا منه من قلة الأكل والشرب وذوبان الجسم ونقصان القوى البشرية والسهرة المفرط واستمرار الأسف والحزن ﴿قَالُوا﴾ متعجبين من حاله مقسمين على هلاكه: ﴿تَاللَّهِ ثَقَاتُ﴾ أي: لا تزال ﴿تَذْكُرُ يُونُسَ﴾ على هذا المنوال ﴿حَتَّى

تَكُونُ حَزْناً ﴿مَرِيضاً مَهْزُولاً مَدْفُوقاً مَشْرِقاً عَلَى الْهَلَاكِ﴾ ﴿أَوْ تَكُونُ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾
[يوسف: 85].

ثم لما بالغوا في منعه عما عليه من الكآبة والحزن والتأوه والبكاء ﴿قَالَ﴾ في جوابهم مستكراً عليهم: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي﴾ أي: ما أبث وأنشر شكواي ﴿وَحُزْنِي﴾ المفرط الخارج عن التصبر ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ المطلع لما في قلبي من الحرقة والألم؛ رجاء أن يزيل عني ما يؤذيني ويوصلني بلطفه وجوده إلى ما يسرني ويفرج عني ﴿وَوَعَلَّمُوا أَيُّهَا اللَّائِمُونَ الْمُبَالِغُونَ فِي مَنَعِي أَنِي بِالْهَامِ اللَّهُ وَوَحْيِهِ إِلَيَّ﴾ ﴿أَعْلَمُ مِنْ﴾ كرم ﴿اللَّهِ﴾ وسعة جوده وفضله ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 86] أنتم أيها اللائمون، بل إنما حملني الله وأزعجني على بث الشكوى ونشر النجوى معه وإظهار التذلل والخشوع والتضرع والخضوع نحوه، حتى لا أقنطه عن ملاقة يوسف ولا أترك المناجاة مع الله لأجله وإن تطاولت المدة.

﴿يَبْقَى أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِشُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٨٧﴾ ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الْفُرُجَ وَحَشْنَا بَضْعَهُ مَرْجَعَهُ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَوَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ [يوسف: 87-90].

ثم لما استروح يعقوب من روح الله واستنشق من نسيمات رحمته، نادى بنيه نداء مرحمة وإشفاق؛ ليقبلوا إليه بعدما آيسوا عنه وعن عطفه؛ إذ بالغوا في سوء الأدب معه وإيقاعه بأنواع المحن والشدائد، فقال: ﴿يَا بَنِيَّ أَذْهَبُوا﴾ إلى مصر مرة أخرى ﴿فَتَحَسَّسُوا﴾ أي: تفحصوا وتطلبوا أصالة ﴿مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ بنيامين تبعاً ﴿وَلَا تَأْيَسُوا﴾ أي: لا تقنطوا يا بني ﴿مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ وتنفيسه تفريجاً لهم؛ إذ نحن معاشر الأنبياء لا يليق بنا اليأس والقنوط عن كرم الله وجوده في حال من الأحوال ﴿إِنَّهُ لَا يَأْسُ﴾ أي: لا يقنط ﴿مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ وكمال قدرته وسعة جوده ﴿إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: 87] الساترون بغيوم هوياتهم الباطلة شمس الحق السارية المتجلية في الآفاق،

الفائضة عليهم سجال الفضل والكرم على مقدار قابلياتهم واستعداداتهم.
فعلیکم ألا تقنطروا من الله في حال من الأحوال، بل اعتقدوا أن له التصرف
والقدرة التامة والإرادة الكاملة على ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على
قلب بشر.

ثم لما صمموا العزم بالخروج إلى مصر كرة أخرى بإذن أبيهم وخرجوا من عنده
وساروا إلى أن وصلوا مصر ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ أي: على يوسف ﴿قَالُوا﴾ أولاً: ﴿يَا
أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلُنَا الضُّرُّ﴾ أي: الجذب وشدة الجوع ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ﴾ قليلة
رديئة ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ وتممه لنا من جاهك وإحسانك ﴿و﴾ قالوا ثانياً: ﴿تَصَدَّقْ
عَلَيْنَا﴾ برد أخينا لنرده إلى أبيه المحزون، فإنه قد أشرف على الهلاك من شدة الحزن
والأسف ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المجازي عن أعمال عباده ﴿يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: 88]
المؤمنين منهم جزاء حسناً، لا جزاء أحسن منه.

ثم لما سمع يوسف من أسف أبيه وشدة كربه وكآبته وابيضاض في عينيه وهزال
جسمه وإشرافه على الانهدام والانخرام، شرع يظهر أمره عليهم حيث ﴿قَالَ﴾ تفضيحاً
لهم وتقريباً: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ﴾ أيها المفسدون قبح ﴿مَّا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ من الزجر
والإذلال والضرب والشتم وأنواع المكروهات والمذمومات، سيما ما شريتموه بثمن
بخس دراهم معدودة لتبعده عن وجه أبيه، وتطردوه عن ساحة عز حضوره ﴿إِذْ أَنْتُمْ﴾
قوم ﴿جَاهِلُونَ﴾ [يوسف: 89] بالأمر لبقاء الله، ولا معقب لحكمه، يفعل ما يشاء
ويحكم ما يريد، فاجتهدتم لهدم بناء الله وتغيير مراده ورد قضائه مبارزة عليه وخروجاً
بين يديه.

وبعدما سمعوا منه ما سمعوا ﴿قَالُوا﴾ مخبتين خاضعين متذللين بعدما عرفوه
مستفهمين على سبيل التقرير والتثبيت: ﴿أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ أيها العزيز ﴿قَالَ أَنَا
يُوسُفُ﴾ بن يعقوب الذي فعلتم به ما فعلتم ﴿وَهَذَا أَخِي﴾ بنيامين من أبي وأمي ﴿قَدْ
مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بأنواع الكرم والإحسان، ووقانا عما قصدتم علينا من السوء والإذلال
 وأنواع الوبال والنكال ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ﴾ عن محارم الله وعما لا يرضى به الله ﴿وَيُضَيِّقْ﴾
على ما جرى عليه من القضاء ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ الرقيب المطلع لأحوال عباده ﴿لَا يُضِيعُ﴾
أي: لا يهمل ولا ينقص ﴿أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 90] الذين يحسنون الأدب مع الله
ويعبدونه كأنهم يرونه.

﴿ قَالُوا نَأْتِيهِ لَقَدْ أَتَرَكْنَا اللَّهَ عَلَيْهِ وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ ٩١ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ ٩٢ اذْهَبُوا بِقِيَمِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ٩٣ وَلَمَّا فَصَلَ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴾ ٩٤ قَالُوا تَأَلَّوْنَاكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ ٩٥ [يوسف: 91-95].

ثم لما ظهر عليهم ما ظهر من الفضيحة والشناعة وأنواع الندامة والكآبة ﴿قَالُوا﴾ متضرعين، مستحيين، متذللين، مقسمين على سبيل التثبيت والتقدير: ﴿تَاللَّهِ﴾ يا أخانا ﴿لَقَدْ أَتَرَكْنَا اللَّهَ﴾ واصطفاك ﴿عَلَيْنَا﴾ وأراك في المنام ما أراك من سجود الشمس والقمر والكواكب المعبرة، وكفاك هذا دليلاً على نجابتك واختيارك علينا، مع أن أبانا قد علم منك ما علم من الرشد وكمال العلم والفضل؛ لذلك أترك علينا محبة وعطفاً ﴿و﴾ بالجملة: ﴿إِنْ كُنَّا﴾ أي: إنا كنا ﴿لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: 91] إذلالك وإرادة إهلاكك وضربك وإيذائك، وفي إبطال إرادة الله ومشيتته وكمال حكمته وقدرته، وفي إيذاء أينا بمفارقتك عنه وإيقاعه بأنواع البليات والنكبات إلى حيث ابيضت كريمته من فراقك، فالآن الأمر بيدك وإنا مجرمون، معترفون بأنواع الجرائم، فلك الاختيار، وعلينا الحسرة والندامة وأنواع الكآبة والسآمة.

ثم لما رأى يوسف منهم ما رأى من الندامة المفرطة والخجل والخذلان وأنواع الخيبة والخسران ﴿قَالَ﴾ لهم؛ تسلية عليهم وتركية لنفسه بمقتضى نجابة طبيته: ﴿لَا تَثْرِيبَ﴾ أي: لا تقريع ولا توبيخ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ مني في حال من الأحوال سيما ﴿الْيَوْمَ﴾ الذي أنتم تعتذرون فيه وتستعفون عني، فاعلموا أنني عفوت لكم ما لي من الحقوق عليكم، وأبرأت ذمتكم عنها، بل ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ بعدما استغفرتم إليه مخلصين ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه في ذاته ﴿أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: 92] لأن رحم جميع الرحماء من ظل رحمته التي وسعت كل شيء.

وبعد تسليتهم وعفوهم وإخزاء الرعب عن خواطرهم، أمرهم بالذهاب إلى أيهم المحزون؛ ليخلص عما عليه من الحزن المفرط، فقال: ﴿اذْهَبُوا﴾ يا إخواني ﴿بِقِيَمِي هَذَا﴾ - وهو عليه - فأخرجه ولفه بلا تنقية وغسل ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ﴾ أي:

يرجع ويصير ﴿بَصِيرًا﴾ بعدما كان فاقد العينين ﴿وَقَدْ﴾ بعد أن يصير بصيرًا صحيحًا سويًا ﴿أَتُونِي بِأَهْلِكُمْ﴾ أي: جميع ما ينسب إليكم من النسوان والذراري والخدم والحشم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف: 93].

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ أي: القافلة من عمران مصر ﴿قَالَ أَبُوهُم﴾ لمن في صحبته من المؤمنين له: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾⁽¹⁾ [يوسف: 94] وتسفهوني أيها الحضار، وتسبونني إلى نقصان العقل والخرف لصدقتموني.

﴿قَالُوا﴾ أي: الحاضرون: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ﴾ بتذكير يوسف وكثرة تحضيره ببالك ﴿لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف: 95] أي: ضلالك الذي كنت عليه زمانًا مستمرًا، وهو وإن سفهه الناس تزايد وجدانه، وارتقى ساعة فساعة.

﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ﴾ فَأَزَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَبْنَوتُ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْتُ رَأْيِي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ [يوسف: 96-100].

(1) قال نجم الدين كبرى: يحكى أن ريح الثوب لم يجدها الإخوة ووجدتها يعقوب؛ لأن الإخوة كانوا عاقين لوالديهم، وكان الثوب من الجنة فلم يجدوا ريحه، ثم بعد ذلك رحموا وغفروا وقيل لم يجدوا ريح الثوب؛ لأنهم ما احترموا يوسف، بل هتكوا حرمة فلا جرم لم يجدوا ريحه كما لا يجد غير التائب ريح التوبة في الآخرة، وقيل: كان ليوسف قميص المحبة ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف: 18]، وقميصه الفتنة ﴿وَقَدْ ذُكِّرْتُ بِمِصْرَةٍ مِنْ دُونِ﴾ [يوسف: 25] وقميصه البشارة، ﴿ادْفَعُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾ [يوسف: 93] ولما كان يوم البلاء تباغضوا، ولما كان يوم الفرح توادوا واعتشروا وتنافسوا أنهم يذهب بالقميص ويشر يعقوب به، هكذا قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: 140] فسبحانه من عزيز حميد فقال: لما يريد بقلب الدهور ويحدث الأمور بعد الأمور.

﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ وهو يهوذا مع القميص ﴿أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ﴾ على الوجه المأمور ﴿فَارْتَدَّ﴾ أي: عاد ورد فجأة ﴿بَصِيرًا﴾ كما كان في سالف الزمان، فشكر الله وحمده، وسجد له سجدة خضوع وخشوع وتذلل تام، ثم رفع رأسه من سجوده ﴿قَالَ﴾ لبيه ولحضر مجلسه: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ﴾ حين لمتوني بالأسف والحزن وكثرة المناجاة مع الله لملاقاة يوسف ﴿إِنِّي أَغْلَمُ مِنْكُمْ﴾ كرم ﴿اللَّهُ﴾ وسعة جوده ورحمته ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 96] أنتم أيها اللاتمنون.

ثم لما سر يعقوب عليه السلام وخلص من الشدائد والمحن وقر عيناه ﴿قَالُوا﴾ أي: بنوه منادين له متضرعين إليه: ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ التي كنا نعمل معك ومع من أحبيته واخترته علينا ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ فعلنا من الجرائم العظام والمعاصي والآثام ﴿خَاطِئِينَ﴾ [يوسف: 97] جاهلين عن عواقبها وما يؤول إليها؛ إذ هو من قضاء الله إيانا ولا مرد لقضائه.

ثم لما تفرس يعقوب عليه السلام منهم الإخلاص والإنابة التامة والرجوع عن ظهر القلب ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ في ذاته ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ﴾ لذنوب عباده بعدما أخلصوا ﴿الرَّحِيمُ﴾ [يوسف: 98] لهم يقبل توبتهم.

سوف أمر استغفارهم إلى ملاقة يوسف والمشورة معه، يدل عليه ما روي أن يعقوب استقبل القبلة قائما يدعو، وقام يوسف خلفه يؤمن، وقاموا خلفهما أذلة خاشعين حتى نزل جبريل عليه السلام، فقال: إن الله قد أجاب دعوتك في حق أبنائك وعقد موافيقهم بعدك على النبوة.

ثم لما صمموا عزم الرحيل إلى مصر شدوا ركابهم، وساروا حتى وصلوا إلى قريها، سمع يوسف بقدمهم، وخرج إلى استقبالهم مع الملك وجنوده وجميع أهل مصر ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾ ووصلوا إليه ﴿آوَى إِلَيْهِ﴾ أي: اعتنق وضم يوسف ﴿أَبَوَيْهِ﴾ إلى نفسه وواسا معهما ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ﴾ [يوسف: 99] عن نكبات الجذب والقحط وأذيات الرحيل.

﴿و﴾ بعدما دخلوا على بيته ﴿رَفَعَ أَبَوَيْهِ﴾ تعظيما لهما وتوقيرا ﴿عَلَى الْفَرْشِ﴾ الذي يجلس هو عليه، وهو يقوم بين يديهما ﴿و﴾ بعدما تمكن أبواه على عرشه ﴿خَرُّوا﴾ أي: هما وبنوهما ﴿لَهُ سُجْدًا﴾ أي: خروا لشكر لقياء وشرف حضوره لله سجود شكر وخضوع.

ولما رأى يوسف سجودهم تذكر ما رأى في المنام في أوان الصبا ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ في سالف الزمان ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ صدقاً محققاً مطابقاً للواقع ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي﴾ ربي بأنواع الإحسانات ﴿إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ بعدما كنت فيه مدة مديدة ﴿وَوَ﴾ أعظم منه أنه ﴿جَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ أي: البادية البعيدة ﴿مِنْ بَغْدٍ أَنْ تُزْرَعَ﴾ وأوقع ﴿الشَّيْطَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ بأنواع الإيقاعات والوساوس ﴿إِنْ رَبِّي﴾ الذي رباني بأنواع اللطف والكرم ﴿لَطِيفٌ﴾ مدبر كامل وموفق كافل ﴿لَمَّا يَشَاءُ﴾ من الأمور ويريد إصلاحه ﴿إِنَّهُ﴾ بذاته ﴿هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بعلمه الحضورى لمصالح عباده ﴿الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: 100] المتقن في أفعاله على مقتضى ما تعلق بعلمه وإرادته.

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (١٠١) ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ [يوسف: 101-104].

ثم دعا يوسف ﷺ لنفسه وناجى مع ربه مناجاة صادرة عن محض الحكمة والذكاء والفطنة بقوله: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني بلطفك وفضلك بأنواع التربية والنعم إلى حيث ﴿قَدْ آتَيْتَنِي﴾ وأعطيتني ﴿مِنْ الْمُلْكِ﴾ الظاهر أي: الحكومة المتعلقة بعالم الشهادة ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ أي: العبور من الحوادث الكائنة في عالم الشهادة إلى ما في عالم الغيب من الصور المقتضية إياها ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: عالم الأسماء التي انعكست منها هذه الأظلال الهالكة الشهادية ﴿أَنْتَ﴾ بذاتك بعدما تحققت بتوحيذك وانكشفت به، ورفعت الحجب بيني وبينه ﴿وَلِيِّي﴾ ومولى أموري وحامل أسراري ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي: في النشأة الأولى والآخرى ﴿تَوَفَّنِي﴾ اقبضني ﴿مُسْلِمًا﴾ مسلماً مفوضاً جميع أموري إليك ﴿وَأَلْحِقْنِي﴾ بالصلحين [يوسف: 101] الذين أصلحوا نفوسهم في النشأة الأولى والآخرى حتى يفوزوا من عندك بشرف اللقيا.

﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من قصة يوسف وما جرى بينه وبين إخوته وبين امرأة العزيز

وغير ذلك من الوقائع الهائلة، الواقعة على يوسف وعلى أبيه وأخيه من حسد إخوتهما ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ أي: من الإخبارات التي سترت عنك يا أكمل الرسل ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ أي: نعلمك بالوحي والإلهام، ومحقق مسلم عند ذوي العقول ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ وعندهم وفي جمعهم وقت ﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾⁽¹⁾ [يوسف: 102] أي: يقصدون المكر والخداع مع يوسف وأبيه، بعدما شاوروا كثيراً في إهلاك يوسف وإبعاده من عند أبيه واستقرار رأيهم بعد تكرار المشاورة على ما فعلوا به واتفقوا عليه، وما أنت أيضاً من أهل الإملاء والنسخ أن تضبط قصصهم من التواريخ، ولا من أهل التعلم المستفيد من الغير، بل ما هو إلا وحي يوحى إليك من عندنا.

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ الذين يترددون بين يديك ﴿وَلَوْ خَرَجْتَ﴾ بإيمانهم وإذعانهم ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: 103] لك مصدقين لما جئت به من عند ربك.

﴿وَمَا﴾ ما عرض لهم ولحق لنفوسهم من الغفلة لم يقبلوا ما قلت لهم؛ إذ ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على تبليغ ما جئت به من عند الله ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ جعل مال من حطام الدنيا كما يفعله حملة الأخبار ومتفقهة الزمان والمتشيخة من أهل التلبس، بل ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما هذا القرآن وما فيه من العبر والأحكام والقصص المستلزمة لأنواع المواعظ والتذكيرات ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عام، وفائدة جليلة شاملة ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ [يوسف: 104].

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَاتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾^(١٥)
﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِآيَاتِهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ﴾^(١٦) أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ غَلَابِ آيَاتِهِ

(1) (وَهُمْ يَمْكُرُونَ) به ويبغون له الغوائل حتى تقف على ظواهر أسرارهم وبواطنها وتطلع على سرائيرهم طراً وتحيط بما لديهم خبراً، وليس المراد مجرد نفي حضوره ﷺ في مشهد إجماعهم ومكرهم فقط، بل في سائر المشاهد أيضاً، وإنما تخصيصه بالذكر لكونه مطلع القصة وأخفى أحوالها كما ينبيء عنه قوله: وهم يمكرون، والخطاب وإن كان لرسول الله ﷺ لكن المراد إلزام المكئين والمعنى ذلك من أنباء الغيب نوحى إليك، إذ لا سبيل إلى معرفتك إياه سوى ذلك إذ عدم سماعك ذلك من الغير وعدم مطالعتك للكتب أمر لا يشك فيه المكئبون أيضاً ولم تكن بين ظهرائهم عند وقوع الأمر حتى تعرفه كما هو فتلقاه إليهم، وفيه تهكم بالكفار فكانهم يشكون في ذلك فيدفع شكهم، وفيه أيضاً إيدان بأن ما ذكر من النبأ هو الحق المطابق للواقع، وما يتغله أهل الكتاب ليس على ما هو عليه يعني أن مثل هذا التحقيق بلا وحي لا يتصور إلا بالحضور والملاحظة وإذ ليس ذلك بالحضور فهو بالوحي. انظر: [تفسير أبي السعود (3/ 474)].

تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ [يوسف: 105-108].

﴿وَكَايْنٍ﴾ أي: كثير ﴿مِنْ آيَةٍ﴾ دالة على وجود الصانع وتوحيده واستقلاله في التصرف في الآثار كائنة ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: العلويات والسفليات، أو عالم الأسماء والصفات وعالم الطبيعة المنعكسة منها ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ مرور غفلة وذهول ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: 105] لا يعتبرون منها ولا يتأملون فيها وفي رموزها وإشاراتنا، وذلك من كمال توغلهم في الكثافة والحجب الظلمانية، ونهاية تدنسهم بأدناس الطبيعة الهولانية.

﴿وَلَا يَشْعُرُونَ﴾ لذلك ﴿مَا يُؤْمِنُ﴾ ويوقن ﴿أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ﴾ المستغني في ذاته عن جميع المظاهر، المستقل بوجوده بحيث لا وجود لغيره أصلاً ﴿إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: 106] مشتركون من مصنوعات في استحقاق العبادة ما لا وجود له في نفسه أصلاً.

أيغفلون أولئك المسرفون عن مكر الله؟ ﴿أَفَأَمِنُوا﴾ عن كمال قدرته على الانتقام ولم يخافوا ﴿أَن تَأْتِيَهُمْ﴾ وترسل عليهم ﴿غَاشِيَةٌ﴾ أي: عقوبة هائلة نازلة ﴿مِنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ في هذه النشأة تغشيهم وتحيط بهم ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ﴾ الموعودة ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: 107] أماراتها وعلاماتها؟.

وإن أصروا على كفرهم وإشراكهم بالله، عدم الالتفات بك وبقولك ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل مجارة عليهم: ﴿هَذِهِ سَبِيلِي﴾ أي: الدعوة إلى التوحيد وإعداد الزاد ليوم المعاد طريقي، وأنا بُعثت لأجلها ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ أي: إلى توحيده كافة عباده ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ تامة فائضة علي من عنده سبحانه ﴿أَنَا﴾ أي: أدعو أنا لمقتضى الوحي والإلهام ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ من خيار أمتي بوسيلة إرشادي وإهدائي إليهم ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أي: أنزهه تنزيهاً تاماً عن معتقدات أهل الزيغ والضلال في حقه سبحانه ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: 108] أي: أبرئ نفسي عما هم عليه من الشرك المنافي للتوحيد.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا

أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ
 مَن نَّشَاءُ وَلَا يَرُدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي
 الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ
 شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ [يوسف: 109-111].

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ أيها المبعوث لكل ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ مثلك
 من جنس البشر ﴿نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ أي: نخصهم بالوحي والإلهام؛ لنجاة طيبتهم في أصل
 خلقتهم مع أنهم ﴿مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ أي: من جملة ما يسكنون فيها ﴿أَلَّا﴾ يصرون هؤلاء
 المعاندون على تكذيبك، معللين بقولهم الباطل: ولو شاء ربنا لأنزل ملائكة ﴿فَلَمَّ
 يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ﴾ كذبوا الرسل المبعوثين لهم مضوا
 ﴿مِّن قَبْلِهِمْ﴾ مثل تكذيبهم إياك حتى يعتبروا منها ﴿وَوَاللَّهِ﴾ لَدَارُ الْآخِرَةِ ﴿الْمَعْدَةُ
 لِلْفُوزِ وَالْفَلَاحِ﴾ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ﴿أَي: لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يحفظون نفوسهم عما حذرهم
 الله منها﴾ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿[يوسف: 109] أيها المسرفون المكذبون بها خيريتها، مع أنكم
 مجبولون من زمرة العقلاء، وهم أيضًا أمثالكم أيها المسرفون المكابرون.

وإن تمادوا في الغفلة والإصرار على التكذيب مدة مديدة ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ﴾
 وقنط ﴿الرُّسُلُ﴾ المبعوثون إليهم بل ﴿وَوَظَنُّوا﴾ من طول الإمهال وعدم الأخذ والبطش
 ﴿أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ يقينًا، وصاروا كأنهم قد أخلف عنهم الوعد الذي
 وعدوا به من جانب الحق، وبعدما ازداد بأسهم وقنوطهم، قد جاءهم نصرنا الذي
 وعدناهم وعذابنا الذي قد أوعدنا به أممهم، وبعدما جاء أخذنا إياهم ﴿فَنُجِّيَ﴾
 ونخلص ﴿مِّنْ نَّشَاءٍ﴾ إيمانه بنا وبرسلنا وانقياده إياهم ﴿وَوَاللَّهِ﴾ بالجملة: ﴿لَا يَرُدُّ بَأْسُنَا﴾
 الذي قد وعدنا به ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: 110] الذين أجرموا علينا بتكذيب
 رسلنا وكتبنا، وإن طالت مدة الإمهال.

ثم قال سبحانه تنبيهاً وحثاً لعباده على ما في كتابه من الإشارات: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي
 قَصَصِهِمْ﴾ أي: قصص الأنبياء المذكورين في القرآن سيما قصة يوسف ﴿عِبْرَةٌ﴾
 اعتبار واستبصار ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ الذين يتأملون ويتعمقون في لب الكلام، ويعرضون
 عن قشوره، ﴿وَمَا كَانَ﴾ القرآن ما ذكر فيه من القصص والأحكام ﴿حَدِيثًا﴾ مختلفًا
 ﴿يُفْتَرَىٰ﴾ به إلى الله افتراء ومراء ﴿وَلَكِن﴾ وحي نزل من عند الله ليكون ﴿تَصَدِّقُ الَّذِي﴾

بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿١﴾ مِنَ الْكِتَابِ الْإِلَهِيَّةِ؛ أَي: مُصَدِّقًا أَحْكَامَهَا وَأَثَارَهَا ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾
احتيج إليه في الدين من الأمور المتعلقة؛ لتَهْدِيبِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ ﴿وَهُدًى﴾ من
تمسك به وعمل بما فيه أَمِنَ مِنَ الضَّلَالِ ﴿وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: 111] أَي:
يعملونه ويصدقون بمقتضاه.

خاتمة السورة⁽¹⁾

(1) قال الشيخ نجم الدين كبرى في «التأويلات»: من العبر والمواعظ والفوائد في هذه القصة: إنه
قال: لقد كان في يوسف وإخوته فلم ينقطع الوصلة بينهم بالجفاء الذي وقع منهم؛ لبقاء أصل
الدين في مؤاخاتة بخلاف ابن نوح، فإنه قال في حقه: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: 46] ولا في
إخوة يوسف عزموا على أن يتضرعوا إلى الله إلى التوبة والإنابة، كما أخبر عنهم بقوله تعالى:
﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ [يوسف: 9] قال بعض المفسرين: وأما كنعان فلم يعزم على
الالتجاء إلى الله تعالى، بل ﴿قَالَ سَأُوِي إِلَى جَبَلٍ يَخَصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [هود: 43]، ومنها: روي
أنه ابتلي بذلك الفراق؛ لأن امرأته حين وجدت ريح قدرهم فسألت عن يعقوب من ذلك الطعام
فقال: اذهبي إلى بيتك مشاهدي إليك، ثم نسي وعدهم فابتلي بذلك الفراق، وقيل: ببداية ذبح
عجلاً بحضرة أمه فينبغي أن يعتبر ويحذر زمن أمثال ذلك. ومنها: إنه أظهر لبيه زيادة محبة
ليوسف فحملهم ذلك على أن فعلوا ما فعلوا، فينبغي أن يعتبر المؤمن ويسوي بين أولاده جهده
في المحبة وأن لم يمكنه فليكن ذلك عنهم، ولذلك يستحب في شرعنا التسوية بين الأولاد في
العطاء. ومنها: ألا يأمن من نزغات الشيطان في حال من الأحوال، فإنهم كانوا من أبناء النبي ﷺ
ومع ذلك نزع الشيطان بينهم. ومنها: اجتناب الجسد إذا حملهم الحسد على فعلهم ذلك. ومنها:
إن المحبة سبب البلاء، فمن ادعى المحبة فليستعد للبلاء. ومنها: ألا يوثق بكل أحد، ولا يؤتمن
على أحد، اتهم يعقوب بنيه على ابنه فأصابه منهم ما أصاب. ومنها: إن الأولاد فتنة، ولقد روي
في القصة أنه التمس من الله أن يرسله، فيعمد إلى الصحراء فلم يرد أن يمسكه. ومنها: فضيلتي
الصبر، فلقد صبر يعقوب فنال الفرج، وصبر يوسف فنال الملك والمراد، وصبرت زليخاء
فبلغت المقصود. ومنها: فضيلة الحلم، فلقد حلم عنهم حين قدر عليهم وقال: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ
عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ﴾. ومنها: إن الإقرار بالذنب سبب العفو، فإنهم قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ قابلهم بأنه
قال: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾. ومنها: من يريد الله رفعه فلن يضره كيد كائد،
فلقد كادوا ليوسف فلم يمكنهم دفع رفعته ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ ولقد كاد الكفار رسولنا ﷺ
كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنفال: 30] فلم يدفعوا مراد الله فيه، فكذلك
المؤمن إذا كان معه عناية الله لم يضره كيد جني ولا كيد أنسي به، ونسأل الله تعالى ألا يخلينا
عن عنايته ورعايته بفضلته وكرمه فهم بموعظتها، وقال رويم: همت زليخاء بالمعصية، وهم
يوسف بالرجوع إليها في الفرار منها، وذلك قوله ﷺ: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ قال ابن عطاء: لولا أن
رأى برهان ربه أي: واعظاً من قلبه، وهو قوله ﷺ: «واعظ الله في قلب كل مؤمن». وقال

الجنيد: تحرك طبع البشرية في يوسف ولم يعدوه طبع العادة والعبد في تحريك الخلق غير مذموم، وفي مقالة المعصية ملوم، وذكر الله على يوسف همه على طريق المحمدة لا على طريق المذمة. وقال أبو عثمان: ما كان هم بها إلا هم شفقة عليها، ودعا إلى الله في قطع تلك الهممة الدنية عنها كيف يكون هم يوسف غير ذلك أو هم أنها بدا والله تعالى يقول: ﴿كَذَلِكَ لِنُضَرِّفَ عَنْهُ الشُّوْءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ [يوسف: 24]، فكانت الفحشاء مصروفة عنه كيف يبقى عليه موضع هم دوني. قال الشيخ كبرى: همت به زليخاء هم النفسانية الهوائية، لكن بمناسبة وقضاء الريانية وهم بها يوسف هم اتلاف الروحانية لمناسبة أحكام الأزلية بينهما بالزوجية، فإن كان هم زليخاء هم العاشقين بالمعشوق وكانهم يوسف هم الزوج بزوجه لولا أن رأى برهان ربه وهو وارد رباني يرد على قلب نوراني مؤيد بروح من عالم الأنبياء الذي يحكم على الغيب بعلم تأويل الأحاديث فأنباء أنه زوجته، ولكن ما قال: بعد وقت الازدواج فهم بسائق والزجر لعدم انقضاء مدة كما قال: ﴿كَذَلِكَ لِنُضَرِّفَ عَنْهُ الشُّوْءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ [يوسف: 24] والسوء شغل البضع بنكاح الغير، والفحشاء المباشرة قبل النكاح. قال الجنيد: مثل الشري ما علامة المحبة قال: ما ذكره الله في كتابه (قد شغفها حبًا)، قال: ألا يرى جفاء الحبيب جفاء، بل يرى جفاؤه وفاء. وقال الشبلي: علامة الصدق في المحبة استواء المحبة في الشدة والرخاء، وقال سمنون: الشفاف في المحبة امتلاء القلب منها حتى لا يكون لشيء عندها فيه مكان، وقال الشبلي: الشفاف نهاية العشق. وقال جعفر: الشفاف مثل القيم أظلم قلبها عن النظر في غيره والاشتغال بسواه. وقال بعضهم: الشفاف جلد رقيق على وجه حبة القلب وهو مبلغ غاية عشق المخلوق، فلا يتجاوز عشق المخلوق الشفاف وجه القلب هي مبلغ عشق الخالق، فيجاوز الشفاف ويبلغ حبة القلب. قال بعضهم في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْتَهُ﴾ [يوسف: 31] يشاهدن حسنا غير موضع الشهوة مؤيدا بعصم النبوة فأكبرته. وقال أبو سعيد الخراز: المحب من يكون في حال المشاهدة غائبا عن حسه فانيا عن نفسه لا يحسن بما يجري عليه. قال مخلوف: في رؤية مخلوقا لم يتألم بقطع اليد ولم يحسن به وأنتم تتألمون مما يصيبكم من أثقال المحبة بالحقيقة. قال سهل: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بِشَرِّ مِثْلِكُمْ﴾ [المؤمنون: 24] ما هذا إلا ملك في أخلاقه بشر في صورته. قال محمد بن علي بن زين العابدين - سلام الله عليهم -: ما هذا ياهل أن يدعي إلى المفاصد بل مثله يكرم، ويتزه عن مواضع الاعتراضات لكرم أخلاقه ولطف شمائله. وقال ابن عطاء في قوله: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالشُّوْءِ﴾ [يوسف: 53] بالنفس مجبولة على سوء الأدب، والعبد مأمور بملازمة الأدب، فالنفس تجري على طبعها في ميدان المخالفة، والعبد يردا محمد عن سوء المطالبة، فمن أعرض عن الجهد فقد أطلق عناده النفس وغفل عن الرعاية الأدب، فمهما أماتها فهو شريك في مرادها. وقال الجنيد: من أعان نفسه على هواها فقد أشرك في قتل نفسه والمجودية ملازمة الأدب والطغيان سوء الأدب. وقال سهل: خلق الله النفس، وجعل طبعها بالجهل، وجعل الهوى أقرب الأشياء إليها، وجعل الهوى الباب الذي منه الهلاك. وقال الواسطي: النفس ظلمة وسراجها سرها، فمن لم يكن له سر فهو ظلعه أبدا. وقال سهل: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالشُّوْءِ﴾ ليس لها في

الأخلاق نصيب. وقال الشيخ ﷺ: إن النفس خلقت أماراة بالسوء، فإذا أرحمها ربها جعلها مأمورة، وبنور الرحمة مستورة، وبالواردات الربانية مقهورة، وبنظر العناية منظورة، وذنوبها مغفورة، وأخلاقها المذمومة محمودة، وعلى العبودية مطمئنة، ولجذبات الإلهية قابلة، وإلى ربها راجعة راضية مرضية في زمرة خواص العباد داخلة، ولجنة جوار الحق مسئلة، وبسطوات تجلي صفات الجمال والجلال فانية، وبصفة بقاء الله باقية. وعن محمد بن كعب القرطبي عن الإمام علي بن أبي طالب - عليه السلام - قضي القضية فقال رجل من ناحية المسجد: يا أمير المؤمنين ليل القضاء كما قضيت، قال: كيف هو؟ قال: هو كذا أو كذا، قال: صدقت وأخطأت ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 76]. قال بعضهم في قوله: ﴿تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ﴾ [يوسف: 76] بالعلم، وقيل: بالتقوى، وقيل: بترفع الشهوات والأهواء عنه، وقيل: بالاستقامة، وقيل: بالمكاشفة والمشاهدة، وقيل: بالفراصة الصادقة، وقيل: بالمعرفة والتوفيق، وقيل: بإجابة الدعاء، وقيل: بالإقبال على الآخرة والإعراض عن الدنيا، وقيل: بمعرفة مكائيد النفس. وقال الجنيد: رفع درجات في نشأ بإسقاط الكونين عنه ورفعته عن الالتفات إلى الأحوال والمقامات؛ ليكون خالصاً لنا بلا علة. وقال بعضهم ﷺ: نرفع درجات من نشأ بالبقاء بعد الفناء؛ ليكون فائتاً عن وجوده المجازي باقياً بوجوده الحقيقي. وقال بعضهم في قوله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ فوق كل ذي معرفة عارف إلى أن ينتهي المعرفة إلى المعروف، فيسقط الأوصاف ويبقى حقاً محضاً. وقال بعضهم: العلوم تتفاوت على مقدار الصنائع والتعليم إلى أن ترى من يتلقف العلم من الحق ورزق العلم اللدني، فذلك العالم بالعلم اللدني الذي لا عالم فوقه في الخلق. وقال الشيخ ﷺ: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ﴾ في المنقول والمعقول ﴿عَلِيمٌ﴾ هو عالم بالله. وقال بعضهم: الصبر الجميل الذي ليس فيه إظهار الشكور والإحساس للبلوى. وقال الشيخ ﷺ: الصبر جميل إن ترى البلاء جميلاً من الجليل، والصبر يدفع البلاء إلى الخليل. وقال الجنيد في قوله: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ [يوسف: 84] وقال: يا أسفاً على يوسف أعرض عنهم لما لم يجد من عندهم الفرج ﴿وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ لم يترك في هذا النفس الواحد بقياً حتى أوحى الله تعالى إليه أن يا موسى على غيري ذلك الصبر الجميل الذي وعدتنا في نفسك أبنائي، وقد أخذنا منك واحداً، وأبقيناك عشراً وأنت مع هذا تظهر الشكوى وتقول: صبر جميل. قال ابن عطاء: بكاء يعقوب وتأسفه لفقد الألفة، وذلك أنه لما لقي يوسف ﷺ زاد في البكاء، فقال: يا أبت أتبكي عند الفراق وعند التلاقي، قال: ذلك بكاء حرقة القلوب وهذا بكاء الدهش. وقال أبو سعيد القرشي: أوحى الله تعالى إلى يعقوب تنأسف على غيري وعزني لأخذن عينك ولا أردهما إليك حتى تنساء. وسئل أبو سعيد القرشي لم لم يذهب عين آدم وداود من هول بكائهما وذهبت عين يعقوب؟ قال: لأن بكاءهما كان من خوف الله، وبكاء يعقوب كان على فقد ولده فحفظاً وعوتب. وقيل: ﴿وَاتَّيَسَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: 84]، وقال: بكاء الأحران؛ يعمي العيون، وبكاء الشوق يجلي العيون، وقال أيضاً: الطبيب الحاذق من يأخذ الدواء من الداء الذي يعقوب عى بفقد يوسف فلم يبصر الآباء بإلقاء الثوب على وجهه. قال الشيخ ﷺ: ما كان بكاء يعقوب

عليك أيها المستبصر، الخبير المسترشد، البصير - بضرك الله بعيوب نفسك،

وتأسفه على فقد صورة يوسف، وإنما كان على خوف فقد قلب يوسف في يوسف، وابتضت عيناه من الحزن على هذا المعنى ألا ترى أنه لما ألقى على وجهه بقميص يوسف كيف ارتد بصيرًا؛ لأنه شم في قميصه رائحة سلامة قلبه، فكما أنه كان عمام من حزن فقد قلب يوسف كان بصره من سرور وسلامة قلب يوسف. قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَأَضْلَمَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ كان علمه الله كان حقيقة وعلمكم به علم استدلال. وقال الجنيد في قوله: ﴿وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ﴾ [يوسف: 87]، تحقق رجاء الراجين عند تواتر النعم وترادف المصائب؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ﴾ [يوسف: 87] والنبى ﷺ يقول: «أفضل العبادة انتظار الفرج». قال أبو عثمان في قوله: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ [يوسف: 101]، قال بما كان يجري عليه في حالتي السراء والضراء وهذا هو الملك. قال ابن عطاء: الملك هو احتياج حساده إليه وقال بعضهم هو القناعة فيه. قال الشيخ هـ: هو أراه البرهان أخبرهم بها ليملك نفسه وينهاها به عن الهوى. وقال الصادق في قوله: ﴿إِنْ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ أوقف حكم عباده تحت مشيئته إن شاء عذبهم، وإن شاء عفا عنهم، وإن شاء قربهم، وإن شاء بعدهم؛ لتكون المشيئة والقُدوة له لا لغيره. وعن سهل في قوله: ﴿ثَوَّقْنِي مُسْلِمًا﴾ قال: أمتي وأنا مسلم إليك أمري معرض إليك شافي لا يكون لي إلى نفسي مجال ولا تدبير في سبب من الأسباب. وقال: الدينوري: ﴿وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ في إصلاحهم لمجالسك وحضرتك، وأسقطت عنهم الخلق، وأزلت عنهم رعونات الطبع. قال أبو صالح: من العباد من زين الله تعالى ظاهره بأداب الخدمة، ونور باطنه بنور المعرفة. وجعله راحة للمخلوق سعد ببركته من قصده، وما يؤمن من أكثرهم بالله إلا وهم مشركون. قال الواسطي: وهم مشركون في ملاحظة الخواطر والكرامات، وقال بعضهم: وما يؤمن أكثرهم باللسان إلا وهم مشركون عند نزول النوائب في الرجوع إلى سواء، والاعتماد فيه على ضعف مثلهم وفي قوله: ﴿قُلْ عَلَيْهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: 108]. قال ابن عطاء: أدعوكم إلى من تعودتم من النعم والأفضال والبر والتوال على الأفعال، وهو الله الذي لم يزل ولا يزال تبارك العزيز المتعال. وقال بعضهم: فرّق بين من دعا إلى الله وبين من دعا إلى سبيل الله؛ فمن دعا إلى الله يدهو الخلق إليه به لا يكون فيه حظ لنفسه، ومن دعا إلى سبيل الله يدعوهم بنفسه إليه لذلك كثرت الإجابة لمن يدعو إلى سبيله لمشكلة الطبع، وقل من يجيب لمن يدعو إلى الله؛ لأن فيه مفارقة الطبع والنفس، وقال بعضهم: البصيرة من لباس الأرواح، وليس لها من الأجسام حظ. وقال الواسطي: على بصيرة أيقن الله أنه ليس إليه من الهداية شيء. وقال ابن عطاء: منهم: من اتبع الجزء على الظاهر، ومنهم: من اتبعه على الحقيقة، والتحقيق فذلك الذي قال الله تعالى: ﴿أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: 108]، لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب. قال الصادق: لأولي الأمر أو مع الله، وقال ابن عطاء: عبرة لمن اعتبر وعظة لمن اتعظ في آن، أن النفس ليست بمحل الأمن والاعتقاد عليها، وصلى الله تعالى على محمد وآله أجمعين.

وجنبك عن غوائلها - أن تعتبر من القصة التي ذكرت في هذه السورة، وتحترز عن المكائد المذكورة فيها والمخادعات المصروفة بها والمرموزة إليها، وتصفي أماره نفسك عن مبادئها وتبرئها حسب طاقتك وقدر وسعك وطاقتك وقوتك عما يؤول إليها ويؤدي نحوها، وتشمر ذيل همتك لتهديب ظاهره وباطنه عما يعوقك عن سلوك طريق التوحيد المفضي إلى اضمحلال الرسوم وانقهار التعينات العدمية والأظلال الهالكة، المؤدية إلى الكثرة والتنويه، الحاجة عن صرافة الوحدة الذاتية بالنسبة إلى ذوي الحجب الكثيفة والغشاوة الغليظة.

وعليك أن تتوجه بوجه قلبك إلى إفناء لوازم تعيناتك الباطلة، وهوياتك العاطلة التي هي شياطين طريقك نحو الحق المنزه عن التغيير والتبديل، المقدس عن الانقلاب والتحويل؛ إذ لا يشغله شأن عن شأن، ولا يفتره كر الدهور ومر الزمان، بل ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: 29]، و﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: 26].

وبالجملة: بعدما فنيت عن وجوه تعيناتك رأساً، يبقى وجه ربك الذي لا انقلاب له أصلاً ذو الجلال الذاتي والأزلي، وأمر كرام الأبدى السرمدي.

جعلنا الله ممن أيده الحق لسلوك طريق الفناء، ووفقهم لإفناء ما يعوقهم عن شرف اللقاء، إنه سميع مجيب.

سورة الرعد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الرعد

لا يخفى على من ترقى عن مرتبتي العلم والعين بلا تلوين، وتحقق على مرتبة حق اليقين، مع تثبيت وتمكين أن الآثار الغريبة والتدابير العجيبة الكائنة في عالم الكون والفساد إنما تصدر عن ذات متصفة بجميع أوصاف الكمال، منزهة عن نقص الحدوث والزوال، مستقلة في تصرفاتها بلا مزاحمة ضد وند ومظاهرة معاون وممد؛ إذ لا وجود لغيره ولا ثبوت لسواه أصلاً.

فدلت الأفعال المتقنة والآثار المحكمة والنظام المحسوس المشاهد على هذا الضبط البديع على وحدة فاعلها عند من تثبت بأذيال العقل المستدل.

وأما أهل الكشف والشهود، والمستغرقون في مطالعة جمال الله وجلال الله لا يرون في الوجود إلا هو؛ ولذلك لا يسندون الآثار والأفعال والحركات والسكنات والحوادث الكامنة مطلقاً إلا إليه أولاً وبالذات، بلا رؤية الأسباب والوسائل، بل إنما يرونها ويعتقدونها من لوائح تجلياته وأشعة شئونه وتطوراته؛ لذلك نبه سبحانه في كتابه على عباده مخاطباً لحبيبه على أن التدابير الكائنة إنما تستند إليه تعالى، وتصدر عنه بالاستقلال، فقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المتجلى على ظواهر الكائنات بأنواع التدبيرات ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لعموم عباده في النشأة الأولى بوفور العطيات ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم في النشأة الأخرى بأعظم المثوبات وأرفع الدرجات.

﴿الْمَرْءُ يَلِكُ مَا يَكُتُبُ وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ١ ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَمَصَرَّ السَّمَاءَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَائِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ ٢ ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِجَاسًا وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ٣ ﴿[الرعد: 1-3].

﴿المر﴾⁽¹⁾ أيها الإنسان الكامل اللبيب اللائق لملاحظة رموز آثار التوحيد اللائح عن غرته الغراء مقتضيات لوازم الرشد والرضا عما جرى عليه القضاء ﴿تِلْكَ﴾ السورة المنزلة إليك ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ الجامع للكتب المنزلة أي: من جملة آياته ﴿و﴾ أيضًا ﴿الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ قبل نزولها ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ من الآيات النازلة كلها ﴿الْحَقُّ﴾ المطابق للواقع، النازل من عند الحكيم العليم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ لانهماكهم في الغفلة والنسيان ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الرعد: 1] أي: لا يصدقون ولا يعتقدون بحقيقته وحقية منزله.

وكيف لا يعتقدون حقيقته أولئك الحمقى المعاندون؛ إذ هو ﴿اللَّهُ﴾ المبدئ المبدع الرفيع البديع ﴿الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ﴾ أي: العلويات معلقًا ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ واسطين يعتمدن عليها ظاهرًا كما ﴿تَرَوْنَهَا﴾ في بادئ النظر؛ لتكون أسبابًا ووسائل للسفليات ﴿ثُمَّ﴾ لما رفعها وصور بها على أبلغ النظام وأبدعها ﴿اسْتَوَى﴾ باسمه الرحمن ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي: على عروش جميع الكائنات بالإظهار والإبراز وأنواع التدبيرات المتعلقة لحفظها وبقاء نظامها ﴿وَسَخَّرَ﴾ من بينها ﴿الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ لتتميم التدبير ﴿كُلٌّ﴾ منها ﴿يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: يدور دورة معينة شتاءً وصيفًا، ربيعًا

(1) قال البقلي: إن الله سبحانه تجلي من فعله الخاص لفعله العام؛ فأجاد من بين الفعلين حروفًا جعلها صادق أسرار الصفات والذات، وأخبار الغيب، وغيب الغيب؛ فوضع في الألف سر الألوهية لنفسه، وسر الأنانية لصفوة توحيده، ووضع في اللام سر أزليته لنفسه، وسر لطفه وفي ظهوره بوصف الأزل لأهل التباسه من أهل عشقه وشوقه، ووضع في الميم سر محبته في هواء أزليته لطلب ألوهيته، ووضع في الراء أنور ربوبيته، وجعلها مرآة لعبوديته عبادة؛ فيرون منها لطائف صفاته وروح ملكوت قدسه؛ فلما انحسرت الأرواح من طلب الألوهية وجعلت إلى معادن أنوار الربوبية، وسكنت جمادات من مرآة حرف الراء من رحمته الكافية ورأفة الشافية من كل شيء دون الله؛ فالألف صندوق الألوهية لا يفتح إلا لأهل الأنانية في التوحيد، واللام صندوق نور الأزلية والجمال ولا يفتح إلا لأهل الوله في شوقه، والميم صندوق محبته الأزلية ولا يفتح إلا لأهل محبته؛ فالراء صندوق نور ربوبيته ولا يفتح إلا لسلاك عبوديته الذين مرادهم منه نفسه لا غير.

قال الشبلي: ما من حرف من الحروف إلا وهو يسبح الله بلسان ويذكره بلغة بكل لسان منها حروف، ولكل حرف لسان وهو سر الله في خلقه الذي يقع زوائد المفهوم وزيادة الأذكار.

وقال الحارث المحاسبي: إن الله لما خلق الأحرف دعاها إلى الطاعة؛ فأجابت على حسب ما حلاها الخطاب واللبسها، وكانت الحروف كلها على صورة الألف إلا أن ألف بقيت على صورته وحليتها التي بها ابتدأت، ثم من سنة الله سبحانه أن وضع ما تكلم به من الأسرار في لباس الحروف على رأس كل صورة.

وخريفاً؛ لإصلاح ما يتعلق بمعاشهم وحفظهم، وبالجملة: ﴿يُذَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ على ما ينبغي ويليق بلا فتور وقصور ﴿يُفْضِلُ﴾ لكم ﴿الآيَاتِ﴾ ويوضح لكم الدلائل والشواهد الدالة على توحيده ﴿لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: 2] أي: رجاء أن تتفطنوا وتيقنوا بموجدكم ومربيكم.

﴿وَ﴾ كيف لا تتفطنون أيها المجبولون على فطرة الفطنة والذكاء ﴿هُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ وفرشها مبسوطة ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ وجبالاً شامخات؛ لتكون أوتاداً لها ﴿وَأَنْهَارًا﴾ متشعبة منها، جارية على وجه الأرض؛ لأنبات ما تقاتون وتتقوتون بها ﴿وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ لتكون سبيلاً لدوامها وبقائها ولإنضاجها وإصلاحها ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ أي: يلبس الليل بالنهار لتسكين البرودة، والنهار بالليل؛ لتسكين الحرارة؛ ليحصل الاعتدال في طبيعة الهواء المنضج ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الحكم والتدابير ﴿لَآيَاتٍ﴾ دلائل واضحات وشواهد لانتحات ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: 3] ويتأملون في حكم الصانع الحكيم والمدير العليم.

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١﴾ وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبْ قَوْلُهُمْ أَهَٰذَا كُنَّا تُرَابًا لَّهَآ فَنَافَىٰ خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَكْثَلُ فِي أَغْنَانِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢﴾ وَتَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَقْفَرٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٣﴾﴾ [الرعد: 4-6].

﴿وَ﴾ أيضاً من بدائع قدرته وغرائب حكمته أنه حصل ﴿فِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ متماثلة في الطبيعة والمزاج ﴿وَ﴾ حصلت في بعضها ﴿جَنَّاتٌ﴾ وساتين ﴿مِّنْ أَعْنَابٍ وَ﴾ في بعضها ﴿زَرْعٌ وَ﴾ في البعض ﴿نَخِيلٌ﴾ مختلفة أنواعها بعضها ﴿صِنْوَانٌ﴾ أي: نخلات متكررة، أصلها واحد ﴿وَعِزُّ صِنْوَانٍ﴾ أي: متفرقات الأصول مع أنها كلها ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَ﴾ مع وحدة طبيعة الأرض والماء ﴿نُفِضَ بَعْضُهَا﴾ أي: بعض الثمرات ﴿عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ﴾ لأن بعضها ضار وبعضها نافع، وبعضها حلو وبعضها حامض، إلى غير ذلك من التفاوت والاختلافات ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾

الاختلاف مع وحدة طبيعة القابل ﴿لَا يَاتِ﴾ عظام ودلائل جسام على حكمة الصانع الحكيم ومتانة فعله ﴿لَقَوْمٌ يَغْفُلُونَ﴾ [الرعد: 4] ويستعملون عقولهم في التفكير بمصنوعات الحق والتدبير بمبدعاته ومخترعاته.

﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ﴾ يا أكمل الرسل إنكار الكفار حشر الأجساد مع وضوح دلائله وسطوع براهينه ﴿فَعَجَبَ قَوْلُهُمْ﴾ أي: فعليك أن تتعجب من قولهم - هذا حال كونهم مستفهمين مستبعدين على سبيل التعجب - أنا ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا﴾ وعظامًا رفاتًا ﴿أَئِذَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ كلا وحاشا أن نعود أجسامًا إنسانًا بعدما صرنا كذلك ﴿أَوَلَيْكَ﴾ البعداء المعزولون عن منهج الرشاد هم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ الذين أوجدتهم وأظهرهم من كتم العدم بلا سبق مادة ومدة، وببأهم بأنواع التربية مع أن إعادتهم أيسر من إبدائهم وإبداعهم ﴿وَأَوَلَيْكَ﴾ الضالون المقيدون بسلاسل الطبيعة في النشأة الأولى صار ﴿الْأَغْلَالُ فِي أَغْنَاهِمُ﴾ في النشأة الأخرى، دائمًا مستمرًا ﴿وَو﴾ بالجملة: ﴿أَوَلَيْكَ﴾ الأشقياء المردودون ﴿أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الرعد: 5] أبد الآباد.

﴿وَو﴾ من قبح صنيعهم ونهاية غفلتهم عن الله وانتقامه وغيرته ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ المهددة بها والموعدة عليها، أي: يطلبون منك يا أكمل الرسل استعجال إتيانها استهزاء واستنكارًا ﴿قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ الموعودة لهم على تقدير إيمانهم ﴿وَو﴾ الحال أنه ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ على أمثالهم من الأمم الهالكة ﴿الْمَثَلَاتُ﴾ أي: القصاصات والعقوبات التي صارت أمثالاً يضرب بها، وحالهم يكفي مؤنة استعجالهم واستهزائهم لو تأملوا ﴿وَو﴾ هم من غاية إصرارهم وكفرهم وإن استحقوا ما يستعجلونه على أقبح الوجوه، لكن أمهلهم الله الحكيم العليم زمانًا بمقتضى جوده ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الرحيم الرحيم ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ سترٍ وعفو ﴿لِلنَّاسِ﴾ المنهمكين في الغفلة والنسيان ﴿عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ أي: مع ظلمهم على أنفسهم باستجلاب عذاب الله إياها ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ أيضًا على مقتضى عدله وفهره ﴿لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: 6] وسريع الحساب على من خرج من رتبة إطاعته استكبارًا واستنكافًا.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالَى ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ

وَمَنْ جَهَرَ بِهِ، وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِآيَاتِنَا وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ يَمِينِهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءَ أَفْلًا مَرَدَّدًا هُوَ أَلَهُمْ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿١١﴾ [الرعد: 7-11].

﴿١٠﴾ من شدة شكيمتهم وغيظهم معك يا أكمل الرسل ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بك وبدينك وبكتابك: ﴿لَوْلَا﴾ أي: هلا ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةً﴾ اقترحناه بها ﴿مَنْ رِئَهِ﴾ إن كان نبيا مثل الأنبياء الماضين، لا تبال يا أكمل الرسل بهم ويكفرهم وقولهم هذا ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ﴾ مخبر بما جئت به من عند ربك، لا مهد مصلح، وإنما عليك البلاغ ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: 7] وهو الله سبحانه، إن تعلق إرادته بهدايتهم يهديهم؛ إذ هو عالم بسرائرهم وضمائرهم، وما جرى عليهم وما يؤول أمرهم إليه.

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضورى ﴿مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى﴾ من النطفة المضبوطة ﴿وَمَا تَفِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ أي: تنقصها منها وفقا لفضلاتها ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ عليها لتنميتها وتصويرها ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾^(١) [الرعد: 8] أي: حصول كل كائن عنده إنما هو بمقدار مخصوص من مادة معينة ومدة مقررة، لا ينقص منها ولا يزيد عليها.

والإطلاع عليها وعلى كيفيتها وكمياتها مما استأثر الله به في غيبه؛ إذ هو بذاته سبحانه ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ أي: الذي غاب عنا أنيته ولميته ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: التي خفي علينا لميته، وكيف لا يعلم الغيب والشهادة؛ إذ هو ﴿الْكَبِيرُ﴾ بذاته ﴿الْمُتَعَالَى﴾ [الرعد: 9] أي: المتره في صفاته عن الاتصاف بصفات كلا العالمين ولوازمهما.

وإن كان كل منها من أظلال أوصافه الذاتية وأسمائه الحسنى ﴿سَوَاءٌ﴾ عنده سبحانه في حيلة حضرة علمه المتعلق بأحوال المكونات ﴿مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلِ﴾ وأخفاه وأضمره في نفسه ﴿وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ وأظهره ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ﴾ أي: مستتر

(١) قال البقلى: أي: بقدر، وعزوا بشرف، إذ الكل منه يلدوا، وقدرها من قدره، وشرفها من شرفه، وأيضا أي كل شيء عنده لفظات بيد قدرته، ولها حد ومقدار؛ لأن من أوصاف الحدتين الحدود والنقصان، أي كل شيء محدود مقدور لإجلال قدر القدم.

قال الإمام الحسين: كل ربط بحده، وأوقف معرفته، فلا يجاوز قدره إلا من يعدو طوره.

قال بعضهم: كل شيء بوزن ومقدار، ومن لم يزن نفسه ولم يطالع أنفاسه فهو في حيز الغافلين، ومن لم يعرف مقداره وقدر عظيم النعمة عنده أعجب بنفسه، أو بما يلدو منها.

متغط **﴿بِالْأَنبُلِ﴾** ومن هو **﴿وَصَارَتْ﴾** بارز ظاهر **﴿بِالنَّهَارِ﴾** [الرعد: 10] أي: لا يشغله سبحانه شأن عن شأن، ولا يحجب عليه الأستار والسدول، ولا يعين عليه البروز والظهور؛ إذ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

إذ **﴿لَهُ﴾** سبحانه بالنسبة إلى كل شيء من الأشياء حتى الذرة والمخطرة والطرفة واللمحة **﴿مُعَقَّبَاتٍ﴾** من الأوصاف الإلهية مسميات بالملائكة يعقبن عليها متواليات متاليات محيطات **﴿مَنْ يَبِينُ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ﴾** عما لا يعنيه وينافره ويؤذيه، وما هو إلا **﴿مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾** إياهم وتعلق إرادته ومشيتته لحصانته وحفظه على مقتضى لطفه وجماله **﴿إِنَّ اللَّهَ﴾** المدبر لأمر عباده، المصلح لأحوالهم **﴿لَا يُغَيِّرُ﴾** ولا يبدل **﴿مَا بِقَوْمٍ﴾** من النعمة والعافية والرفاهية والفرح والسرور **﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا﴾** ويبدلوا **﴿مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾** من محاسن الأخلاق ومحامد الأوصاف إلى المعاليج والمذائم بتوك أوامر الله وارتكاب نواهيه **﴿وَهُ﴾** بالجملة: **﴿إِذَا أَرَادَ اللَّهُ﴾** المطلع لسرائر عباده واستعداداتهم **﴿بِقَوْمٍ سُوءٍ﴾** ناشئاً من خبائث طيبتهم **﴿فَلَا مَرَدُّ لَهُ﴾** أي: لا يمكن لأحد من خلقه رد إرادته **﴿وَهُ﴾** كيف يرد مراده سبحانه؛ إذ **﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾** [الرعد: 11] يولي أمورهم ويرجعون إليه في الوقائع والخطوب.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ۝١٢﴾
﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ ۝١٣﴾ لَمْ دَعْوَةُ الْفَقْرِ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَلْبِهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِلَغِيهِ وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۝١٤ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝١٥﴾ [الرعد: 12-15].

كيف يرجعون إلى غير الله ويستردون مراده سبحانه مع أنه **﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ﴾** بغته ويورث منه فيكم **﴿خَوْفًا﴾** من أن تصابوا به **﴿وَطَمَعًا﴾** بما هو مستبج له من المطر **﴿وَهُ﴾** أيضاً **﴿يُنشِئُ﴾** من الأبخرة المتصاعدة **﴿السَّحَابَ﴾** المتواكمن من الأبخرة **﴿الثِّقَالَ﴾** [الرعد: 12] بالمياه المنكثرة.

﴿وَهُ﴾ حين إراءة البروق وإنشاء السحب **﴿يُسَبِّحُ الرَّعْدُ﴾** المثلون من اصطكاك

الأبخرة والأدخنة المحتبسة بين السحب المتراكمة ﴿بِحَمْدِهِ﴾ أي: بحمد الله، بإلقاء الملائكة الموكلين عليه، المعاقبين الممدين له ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ أيضًا يسبحون بحمده ﴿مِنْ خِيفَتِهِ﴾ أي: من خوف الله وسطوة جلاله وقهره ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿يُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾ الكائنة من الأبخرة والأدخنة المحترقة بالأجزاء النارية ﴿فَيَصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ إهلاكه وقتله زجرًا له وانتقامًا عليه ﴿وَهُمْ﴾ من غاية ضعفهم وعدم قدرتهم وقوتهم ﴿يُجَادِلُونَ﴾ ويكابرون ﴿فِي﴾ توحيد ﴿اللَّهِ﴾ وفيما جاءت به رسلة من عنده من الأوامر والنواهي المتعلقة بالنشأة الأولى والأخرى ﴿وَ﴾ الحال أن لكمال قدرته وبسطته وسلطته القاهرة وجلاله ﴿هُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾⁽¹⁾ [الرعد: 13] صعب المكايدة والانتقام لمن جادل معه وكذب رسله بالباطل.

لكن ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ أي: قبولها وإجابتها وإنجاحها لمن دعا بها، مخلصًا في دعائه وتوجهه نحو الحق ﴿وَ﴾ المشركون ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: من دون الله من الأصنام والأوثان ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ قليل مما يطلبونه، بل ما مثلهم في دعوة الأصنام ودعائهم إياهم ﴿إِلَّا كَبَاسِطٌ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ﴾ أي: كمثل عطشان بسط كفيه إلى الماء يدعوه ﴿لِيَبْلُغَ قَاهُ﴾ ويرويه ﴿وَ﴾ الحال إنه غائر عميق ﴿مَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ وبسبب ذلك زاد عطشه وحرقة قلبه وزفرة صدره، كذلك المشركون يدعون إلى أصنامهم؛ ليشفعوا لهم ويصلوا إلى مرامهم، وهم جماد لا يقدرُونَ على الاتصال والقبول أصلاً ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ الساترين بأباطيلهم وأوثانهم نور الحق الحقيق بالحقية، الوحيد في الألوهية، الفريد بالعبودية ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [الرعد: 14] خسران وحرمان وخذلان وبطلان.

﴿وَ﴾ كيف يتوجه ويدعي لغير الحق، مع أنه لا إله إلا الله، هو ولا شيء سواه؛ إذ ﴿اللَّهُ﴾ المتأصل في الوجود، المتصف بالقيومية، لا لغيره من الأظلال الهالكة في

(1) أي: في ذاته وصفاته يشير به إلى أن أهل الخذلان في ذات الله وفي صفاته مثل الغلاصة والحكماء اليونانية الذين لم يتابعوا الأنبياء، وما آمنوا بهم، وتابعوا العقل دون السمع، وبعض المتكلمين من أهل الأهواء والبدع هم الذين أصابتهم صواعق القهر، واحترقت استعداداتهم في قبول الإيمان؛ فظنوا يجادلون في الله، هل هو فاعل مختار أو موجب بالذات لا بالاختيار؟ ويجادلون في صفات الله هل للذات صفات قائمة به أم هو قادر بالذات، ولا صفات له؟ [التأويلات].

أنفسها ﴿يَسْجُدُ﴾ أي: يتذلل ويتضرع ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: عالم الأسماء والصفات المسمى بالأعيان الثابتة ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: عالم الطبيعة من الصور والهيكل المنعكسة من الأسماء والصفات ﴿طَوَّعًا﴾ أي: طائعين راغبين عن خبرة واستبصار ﴿وَكُذَّهًا﴾ كارهين عن حيرة وضلال ﴿وَمَنْ لَا يَسْجُدُ لَهُ﴾ أي: لوازم هوياتهم وما يترتب عليها ملتبسين ﴿بِالْغُدُوِّ﴾ أي: أول الظهور والبروز ﴿وَالْأَصَالِ﴾ [الرعد: 15] أي: وقت الانمحاء والانقضاء.

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَفَعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾﴾ أنزل من السماء ماء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَخَرٍ دَكِّ السَّيْلِ يَنْفُثُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَطْلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد: 16-17].

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لمن عاند الحق وجادل مع أهله مكابرة، مستفهما على سبيل التبيكيت والإسكات: ﴿مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: موجدهما ومظهرهما من كتم العدم ومربيهما بأنواع التربية والكرم؟ ﴿قُلْ﴾ أيضا أنت في جواب سؤالك؛ إذ هم معزولون عن التنطق بكلمة الحق؛ إذ ختم الله على قلوبهم وأفواههم: ﴿اللَّهُ﴾ أي: الموجد والمربي، هو الله المستقل بالالوهية والربوبية، ثم بعدما ظهر الحق ﴿قُلْ﴾ لهم على سبيل التوبيخ والتفريع: ﴿أَفَاتَّخَذْتُمْ﴾ أيها الجاهلون بالله وحق قدره ﴿مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ معبودات من جنس مصنوعاته، سيما أدونها وهي الجمادات التي ﴿لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَفَعًا وَلَا ضَرًّا﴾ فضلا لغيرهم.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل توبيخًا وتفريعًا: أيها الجاهلون المعزولون عن مقتضى العقل الفطري ﴿هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ الفاقد للبصر ﴿وَالْبَصِيرُ﴾ الواجد لها؟ ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ﴾ أي: الأعدام الهالكة في نفسها ﴿وَالنُّورُ﴾ الوجود المتشعشع في ذاته؟ ﴿أَمْ جَعَلُوا﴾ أولئك الحمقى العمي الهالكون في تيه الغفلة والضلal ﴿لِلَّهِ﴾ المنزه عن المثل والمثال ﴿شُرَكَاءَ﴾ مثله ﴿خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ وأوجدوا

لخلقه وإيجاده ﴿فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: حتى اشتبه عليهم وتشابه خلقهم لخلقه، سبحانه عما يقول الظالمون علواً كبيراً ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل إرشاد وتكميلاً: ﴿اللَّهُ﴾ المستجمع لصفات الكمال بأسرها والمربي لجميع الكائنات برمتها ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: مظهرها وموجدتها بالاستقلال بلا مظاهرة ومشاركة ﴿وَهُوَ﴾ بذاته ﴿الْوَاحِدُ﴾ المستقل في الوجود ﴿الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: 16] للأغيار الهالكة في أنفسها، المنعكسة من أظلال أسمائه وأوصافه، الباقية في صرافة عدميتها الأصلية.

ومن إشفافه ومرحمته على عباده أن ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: من العالم الروحاني ﴿مَاءً﴾ أي: ماء الإيمان والعرفان ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةً بِقُدَرِهَا﴾ أي: امتلئت النفوس القابلة بقدر ما يسع في استعداداتها منها، فسالت بعدما امتلئت ﴿فَاخْتَمَلَ السَّبِيلُ زَيْدًا زَابِيًا﴾⁽¹⁾ أي: ارتفع على مياه المعارف والحقائق زيد التقليدات الحاصلة

(1) شبه الله سبحانه أنزل الماء من السماء إلى الأودية بما نزل من مياه بحار أنوار ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله إلى قلوب الموحدين والعارفين والصادقين والمكاشفين والمشاهدين والعاشقين والمشتاقين والمحبين والموقنين والمخلصين والمتعبدين والمريدين، وكما يحتل الأودية بضعفها، وقوتها وضيقها، وسطها ماء المطر، فكذلك تلك القلوب تحتل مياه أنوار قاموس الكبرياء من الذات والصفات والأوصاف والنعوت والأسماء والأفعال بقدر حواصلها، وأقدار استعدادها من المحبة والمعرفة والتوحيد، وكما أن قطرات الأمطار يكون في الأودية سبلاً، فتحمل المسيل زيداً وحنالاً، وما يكون مانعاً من جريان السيل في الأودية، فكذلك يكون تواتر أنوار تجلي الحق يكون سيل المعارف والكواشف، فتسيل من جداول القلوب أنوار العيوب، فتحتمل من أوصاف البشرية، وما دون الحق الذي يمنع القلوب من رؤية الغيوب، فيذهب به عن صحاري القلوب وقيعانها التي هي أصدافهم العالية في طلب جواهر الحكم من بحار المشاهدة، فتصير بعد ذلك صافية مقدمة من زيد الرياء والسمعة والشك والشرك والنفاق والخواطر المذمومة، فيبقى القلوب في بحر المشاهدة صابحة في نور الأزل والأبد بلا علاقة، ومانع من العرش إلى الثرى، وذلك من بركة تجلي مشاهدة الله سبحانه التي بدت من الحق بلا واسطة ولا سبب، كما أن المطر ينزل من السماء بلا سبب من أسباب الخلق، ولا بعلة طلبهم بل محض فيض فياض القديم الأزلي على الذي ارتضى برضاء من أهل رضوانه في الأزل، فمياه تلك البحار في أودية تلك القلوب، بعضها من بحر الذات، وبعضها من بحر الصفات، وبعضها من بحر الأسماء، وبعضها من بحر الأوصاف، وبعضها من بحر النعوت، وبعضها من بحر الأفعال، فالذي من بحر الذات يجري في أودية قلوب الموحدين والعارفين والمتجربين والمتجربين، ويذهب بما في قلوبهم من أوصاف الحلوثة، وينبت أوراق ورد الربوبية من هناك يدهون الاتحاد، ويولّهون في الانبساط، وأما الذي من بحر الصفات، فيجري على قلوب العاشقين والمحبين والمشتاقين، ويذهب منها أوصاف النفوسية، وحنال الطبيعة، وينبت فيها

من رسوب القوى البشرية، وغش الطبيعة تسقطها على الأطراف وتصفيتها عن الكدورة مطلقاً ﴿و﴾ مثل ذلك الزبد الباطل يحصل ﴿مِمَّا يُوقَدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ من الذهب والفضة والنحاس والحديد وغيرها حين أرادوا ذوبانها ﴿ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ أي: طلب اتخاذها منها ﴿أَوْ مَتَاعٍ﴾ آخر من الأواني وآلات الحرب ﴿زَبَدٌ﴾ فاسد باطل في نفسه ﴿مَثَلُهُ﴾ الزبد الأول.

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ لهم؛ لكي يتنبهوا ويتفطنوا فيتبعوا الحق ويجتنبوا عن الباطل، ثم يثنى لهم سبحانه مآلهم توضيحاً وتقريراً بقوله: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ﴾ المرتفع على الماء ﴿فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ أي: يضمحل ويتلاشى بالجفاف كما أن زبد التقليدات يسقط ويضمحل بإشراق نور اليقين ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ من مياه المعارف والحقائق ﴿فَيَمْكُثُ﴾ ويستقر ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الطبيعة القابلة لانعكاس أشعة الأسماء والصفات الإلهية لينبت فيها شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: 17].

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِمُؤَاتٍ لَهُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَاقَتَدُوا بِوَيْءٍ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَهُمُ جَهَنَّمُ وَيَسَّرُ لِلَّهِادُ ﴿١٨﴾ أَفَنُ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَحَقٌّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذَرُ أَزْوَاجًا أَلَا لَيْسَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً

نرجس الأنس وباسمين القدمس، ومن هناك يدعون السكر والهيجان والمواجيد، وأما الذي من بحر الأوصاف والنعوت؛ فيجري على أودية قلوب الموقنين والمشاهدين والمكاشفين، ويذهب منها غبار الخطرات وزيد الهواجسات، وينبت فيها رياحين الدقائق والحقائق. وأما الذي من بحر الأسماء؛ فيجري على أودية قلوب المخلصين والمتعبدين، ويذهب منها وسواس الشيطان والميل إلى الحديثين، وينبت فيها زهر الحكمة والفطنة. وأما الذي من بحر الأفعال؛ فيجري على أودية قلوب المرئيين، ويذهب منها زيد الشهوات، وينبت فيها شقائق المعاملات وعبر المراقبات؛ فسبحان الذي خضع كل قلب من قلوب هؤلاء بمورد من موارد الطافه، ومشرب من مشارب أعطافه. [العرائس].

وَيَذَرُهُمْ فِي الْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَمْ يُعْقِبِ الدَّارِ ﴿٢٢﴾ [الرعد: 18-22].

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ فطلبوا منه ﴿الْحُسْنَى﴾ أي: المثوبة العظمى والمرتبة العليا معتقدين إفاضتها وإعطاءها إياهم ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ مثل ما استجاب أهل الحق ولم يعتقدوا مثل ما اعتقد أولئك المحققون لم ينالوا نصيبهم وحظهم ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ﴾ ملك ﴿مَّا فِي الْأَرْضِ﴾ من الزخارف والأموال ﴿جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ بل أضعافه وأمثاله ﴿لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ لنيل ما نالوا لكن لم ينالوا، بل ﴿أُولَئِكَ﴾ الأشقياء المردودون عن عز القبول ﴿لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ يحاسبون على جميع ما صدر عنهم من النكير والقطمير ويؤاخذون عليها ﴿وَوَالْجَمَلَةُ﴾ ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ الخذلان والطرود والحرمان ﴿وَيُشْسِ الْمِهَادُ﴾ [الرعد: 18] مهد أولئك الضالين عن منهج الرشاد.

أينكر المشرك المتمرد عن متابعتك وقبول دينك؟ ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ﴾ ويصدق ﴿أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ لتأييدك من الكتاب الجامع لما في الكتب السالفة من الأوامر والنواهي والأمثال والرموز والإشارات هو ﴿الْحَقُّ﴾ المطابق للواقع بلا شك وارتباب فيه ﴿كَفَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ عن إيصار ما يرى في الآفاق من المبصرات، بل أشد عمى منه؛ لأنه فاقد البصيرة؛ إذ لا يمكن إدراك الأمور الدينية والمعارف اليقينية إلا بها ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ ويتفطن بسرائر كتاب الله ﴿أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: 19] المستكشفون عن لب الأمور، المعرضون عن قشوره.

ولا يحصل ذلك إلا بالبصيرة وهم ﴿الَّذِينَ يُوقُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ الذي عهدوا معه حين رش رشحات نور الوجود على أراضي استعداداتهم ﴿وَلَا يَنْقُضُونَ الْعِثَاقَ﴾ [الرعد: 20] الوثيق، بل يحفظونه ويواظبون على حفظه دائماً.

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ﴾ ويتصفون بعموم ﴿مَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ﴾ من المأمورات والمرضيات والمعارف والحقائق والخصائل الجميلة والأخلاق الحميدة ﴿أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ﴾ عن ارتكاب المنهيات والمحظورات والذمائم من الأطوار والأخلاق ﴿وَرَبُّهُمْ وَيَخَافُونَ﴾ من الله وعن مخالفة أمره ومقتضى نهيهِ ﴿سُوءُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: 21] ورداءة المنقلب والمآب.

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾ إذا أصابتهم مصيبة وأحاطتهم بلية ﴿إِتِّغَلَّ وَجْهَ رَبِّهِمْ﴾ وطلب مرضاته، مسترجعين إليه سبحانه، متضرعين نحوه ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: أداموا الميل والتوجه إليه في جميع الأحوال والأزمان ﴿وَأَنفَقُوا﴾ للفقراء المستحقين ﴿مِمَّا

رَزَقْنَاهُمْ ﴿وَوَفَّقْنَاهُمْ وَأَقْدَرْنَاهُمْ لِكِسْبِهَا﴾ ﴿سِرًّا﴾ أي: على وجه لا يشعر الفقير
 منفعة؛ لئلا يتأذى بالمن والأذى ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ على وجه يشعر به؛ لكي يبالغ المنفق في
 التذلل والانكسار بحيث لا يتوهم المنه أصلاً ﴿و﴾ أيضاً الذين ﴿يَذَرُونَ﴾ أي:
 يدفعون ويسقطون ﴿بِالْحَسَنَةِ﴾ أي: بالخصلة الحميدة والخلق المرضي ﴿السَّيِّئَةِ﴾ أي:
 الذميمة من الخصائل والأخلاق ﴿أُولَئِكَ﴾ السعداء الأولياء، ذوو العهد والوفاء
 والخوف والرجاء، الصابرون على البلاء، الراضون بما جرى عليهم من سوء القضاء،
 المتوجهون إلى المولى في السراء والضراء، المنفقون لرضاه من عندهم للفقراء، حصل
 ﴿لَهُمْ﴾ حين كانوا في النشأة الأولى ﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: 22] الأخرى، أي: ما
 يحصل فيها من اللذات والمثوبات ورفع الدرجات ونيل المرادات.

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ
 كُلِّ بَابٍ﴾ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ
 وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾
 اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ ﴿٢٦﴾
 وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَصْلُحُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ
 أُنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾
 [الرعد: 23-28].

ومن جملتها: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي: دار إقامة وخلود ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ هم أصالة
 واستحقاقاً ﴿و﴾ يدخل أيضاً بشفاعتهم وتبعتهم ﴿مَنْ صَلَحَ﴾ لصحبتهم ورفاقهم ﴿مِنْ
 آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ ومن يتمي إليهم ﴿و﴾ حين استقروا وتمكنوا فيها يزورهم
 ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ ترحيماً وتعظيماً ﴿يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ [الرعد: 23] من أبواب
 الجنة.

قائلين: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الفائزون بالفلاح والنجاح ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ في دار
 الابتلاء لأنواع المحن والبلاء ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: 24] أي: منزلكم ومنقلبكم
 في دار القرار وعواقب أموركم فيها من الفرح الدائم والسرور المستمر.
 ثم بين سبحانه على مقتضى سنته من تعقيب عواقب حسن الأبرار بقبح أحوال

الأسرار وخاتمة عواقبهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَتَّقُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ الذي عهدوا معه في بدء الوجود وأصل الفطرة ﴿مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ مع وثاقته وأحكامه ﴿وَر﴾ مع ذلك ﴿يَقْطَعُونَ﴾ ويتركون ﴿مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ ويحافظ عليها ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بأنواع الفسادات من الظلم والزور والافتراء والمراء والمكابرة مع الأنبياء والأولياء، وسوء الظن مع أرباب المحبة والولاء ﴿أُولَئِكَ﴾ المعزولون عن ساحة عز القبول ﴿لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أي: الطرد والحرمان والرد والخذلان في النشأة الأولى ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: 25] ورداءة المرجع والمآب في النشأة الأخرى.

ثم لما افتخر أهل مكة بما عندهم من الأمتعة والزخارف وبأهوائها، واستحقروا فقراء المؤمنين وشنعوا عليهم، ردَّ الله عليهم بكلام ناشئ عن محض الحكمة فقال: ﴿اللَّهُ﴾ المطلع لاستعدادات عباده ﴿يَسْطُ﴾ أي: يكثر ويوسع ﴿الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده في النشأة الأولى ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يقبض وينقص على من يشاء إرادة واختياراً، حكمة منه وتديباً ﴿وَر﴾ هم بمفاخرهم ومباهاتهم بحطام الدنيا قد ﴿فَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ المستعارة التي لا قرار لها ولا ثبات بل ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ وما يترتب عليها من اللذات الفانية والمشتهيات الغير الباقية ﴿فِي﴾ جانب حياة ﴿الْآخِرَةِ﴾ وما يترتب عليها من اللذات الدائمة والمشويات الباقية ﴿إِلَّا مَتَاعٌ﴾ [الرعد: 26] قليل حقير، لا تاق به ولا يلتفت إليه.

﴿وَر﴾ من خبث طبيعتهم ورداءة فطرتهم ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بك ويكتابك ويدينك: ﴿لَوْلَا﴾ أي: هلا ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾ ملجئة لإيماننا ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾ مع أنه يدهي التأيد منه، ومع شغفه لإيماننا ﴿قُلْ﴾ لهم: ما علي إلا البلاغ ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ على مقتضى علمه وعدله لمن أراد إضلاله وانتقامه ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ﴾ على مقتضى جوده ﴿مَنْ أُنَابَ﴾ [الرعد: 27] إليه من ظهر القلب؛ إذ كل ميسر لما خلق له.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيد الحق ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: تسكن وتستقر من دغدغة التقليد الباطل والتلوين المضمحل الزائل ﴿يَذْكُرُ اللَّهُ﴾ الواحد الأحد، المستقل في الوجود بلا اضطراب وتعدد وتردد، فقد اضمحلت وتلاشت عن صحائف خواطرهم نقوش الاعتبار والسوي مطلقاً ﴿أَلَا﴾ أيها الطالبون إلى مرتبة الكشف والشهود ﴿يَذْكُرُ﴾

اللَّهُ الْمَسْقُطُ لِلْإِضَافَاتِ ﴿تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾⁽¹⁾ [الرعد: 28] وتتمكن في مقام الحضور وتستريح عن تشاويش الأوهام.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَثَابٍ ۖ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِيَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّتِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٍ ۖ﴾⁽²⁾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ بِهِ الْمَوْتُ بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِصِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ۖ﴾⁽³⁾ [الرعد: 29-31].

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في أوائل سلوكهم وطلبهم ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المقربة لهم إلى مطلوبهم ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾ الفوز بالفلاح والنجاح ﴿وَحُسْنُ مَثَابٍ﴾ [الرعد: 29] وهو التحقق بمقام الكشف والشهود.

﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل إرمالنا الرسل على الأمم الماضية على مقتضى سنتنا القديمة ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فِي أُمَّةٍ﴾ منحرفة عن طريق الحق، وليس

(1) يعني: أهل الهداية هم الذين آمنوا، ولتعلم أن القلوب أربعة:

قلب قايي: وهو قلب الكفار والمنافقين فاطمئنانه بالدنيا وشهواتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الرعد: 26] واطمأنوا بها.

وقلب نايي: وهو قلب المسلم كقوله تعالى: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: 115] فاطمئنانه بذكر الله؛ كقوله تعالى بالتوبة ونعيم الجنة؛ كقوله تعالى: ﴿فَتَأْتِ بِحَبْلٍ عَلَيْهِ وَهْدَى﴾ [طه: 122].

وقلب مشتاق: وهو قلب المؤمن المطيع، فاطمئنانه بذكر الله كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: 28].

وقلب وجداني: وهو قلب الأنبياء وخوارج الأولياء فاطمئنانه بالله وصفاته كقوله تعالى لخليله ﷺ في جواب قوله: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُخْبِي الْمَوْتَى﴾ قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي [البقرة: 260] بإراءتك بأي كيفية إحياء الموتى إذا تجلى لقلبي بصفة محبتك فأكون يحيى الموتى؛ ولهذا إذا تجلى الله تبارك وتعالى على قلب العبد تطمئن به، فينعكس نور الاطمئنان من مرآة قلبه على نفسه فتصير النفس مطمئنة أيضًا فتستحق بجذبات العناية، وهي خطاب ﴿أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [الفجر: 28]. [التأويلات].

إرسالك عليهم ببدع ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت ﴿مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾ أمثالهم مائلون عن طريق الحق وسواء السبيل، وإنما أرسلناك ﴿لِتَسْلُوَ عَلَيْهِمْ﴾ وتبلغهم ﴿الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ من المعارف والحقائق والآداب والأخلاق المرضية المقبولة في جنبنا، المودعة في استعدادات عبادنا؛ ليفوزوا بها سعة رحمتنا وجودنا ﴿وَهُمْ﴾ لانهماكهم في الغفلات والشهوات ﴿يَكْفُرُونَ﴾ وينكرون ﴿بِالزُّحْمَنِ﴾ الذي وسع كل شيء رحمة وعلماً ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للمنكرين الغافلين تنبيهاً عليهم وتبليغاً، وإن كانوا من الحمقى الهالكين في تيه الغفلة والنسيان ﴿هُوَ رَبِّي﴾ وربكم ومولى أمري وأموركم ﴿لَا إِلَهَ﴾ في الوجود يعبد له ويرجع إليه في الوقائع ﴿إِلَّا هُوَ﴾ الواحد الأحد، الصمد الفرد، الذي لا شريك له ﴿عَلَيْهِ﴾ لا على غيره من الأظلال ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ في جميع أموري ﴿وَالَيْهِ﴾ لا إلى غيره من الأسباب والوسائل ﴿مَثَابِ﴾ [الرعد: 30] أي: مرجعي ومعادي.

﴿و﴾ بالجملة: ﴿لَوْ أَنَّ قُرْآنًا﴾ بمثابة لو قرأت ﴿سُيِّرَتْ﴾ وتحركت ﴿بِهِ الْجِبَالُ﴾ عن مكانها الأصلي وأندكت ﴿أَوْ قُطِعَتْ﴾ أي: انصدعت وانشقت ﴿بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلُّ مِمَّا فِي السَّمَاءِ﴾ عند قراءته عليهم واستماعهم له ﴿بَلْ لَّهُ الْأَمْرُ﴾ أي: القدرة الكاملة والحوّل التام والقوة الغالبة في الأمور المذكورة ﴿جَمِيعًا﴾ له سبحانه، إن تعلق إرادته ومشيته لكان ألبتة مع ذكر ما ذكر من الأمور، لم يؤمنوا به ولم يقبلوه منك؛ لشدة شكيمتهم وكمال فسوتهم ﴿أَفَلَمْ يَتَأَسُّوا﴾ ولم يقنط ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عن إيمان أولئك المدبرين المعاندين، مع ظهور أمارات الكفر عليهم وعلامات الإنكار عنهم، سيما بعدما سمعوا في حقهم من الله ما سمعوا، ولم يعلم هؤلاء المؤمنون ﴿أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ﴾ وتعلق إرادته بهداية الكل ﴿لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ فلم يهدم لعدم تعلق إرادته بهداية البعض ﴿و﴾ لا تقنطوا أيها المؤمنون عن نصر الله لياكم على أعدائكم ولا تياسوا عن روحه؛ إذ ﴿لَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأصروا على الكفر عنادًا واستكبارًا ﴿تُصِيبُهُمْ﴾ وتدور عليهم ﴿بِمَا صَنَعُوا﴾ أي: بصنيعهم هذا وإصرارهم عليه ﴿قَارِعَةً﴾ داهية هائلة تفرع أسماعهم، وتضطربهم اضطرابًا شديدًا ﴿أَوْ تَحُلْ﴾ وتنزل الداهية العظيمة في أحوالهم ﴿قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ ومساكنهم لتدور عليهم ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ الذي وعده لنيه بأن يتقم عنهم ويعذبهم عذابًا شديدًا في الدنيا والآخرة، في الدنيا بالفتح والظفر عليهم، وفي الآخرة بأنواع العقاب والنكال ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المؤيد لأنبيائه، المنجز لما

وعدهم من إهلاك أعدائهم ﴿لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ﴾ [الرعد: 31].

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُمُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ (٣٢) ﴿أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلُوبُهُمْ أَمْ تَتَّبِعُونَهُمَا بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَبْظَهَرُ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾ (٣٣) ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ (٣٤) ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُمُهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ (٣٥) [الرعد: 32-35].

ثم لا تحزن يا أكمل الرسل من استهزائهم وسخريتهم معك، ولا تبال بعمهم وسكرتهم وبطهرهم واستهتارهم بمالهم وجاههم ﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أشد من استهزاء هؤلاء معك ﴿فَأَمَلَيْتُمْ﴾ وأمهلتم ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: للمستهزئين الذين كفروا حتى انهكموا في الغفلة وتوغلوا فيها بطرين فرحين ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ فجأة واستأصلتهم بغتة ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [الرعد: 32] مع أولئك؟ ومع هؤلاء أشد من ذلك.

ثم قال سبحانه: ﴿أ﴾ ينسى الحساب ويترك العقاب ﴿فَمَن هُوَ قَائِمٌ﴾ (١) أي: مطلع محاسب ورقيب حافظ ﴿عَلَى كُلِّ نَفْسٍ﴾ من النفوس الخيرة والشريرة ليعيط ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ إن خيراً فخير وإن شراً فشر ﴿وَ﴾ لاسيما الشر الذي ﴿جَعَلُوا لِلَّهِ﴾ الأحد المنزه عن الشريك والولد ﴿شُرَكَاءَ﴾ فوق واحدة من أظلاله ومصنوعاته، مع أنه

(1) هو تعالى قائم على كل نفس قدر قوتها حمل أثقال ربوبيته، وأنوار عظمته وتربية جوده وحفظه وحنانيته؛ فمن نفس قام عليه بفعله، ومن نفس قام عليه بصفته من حيث كشف الصفة لها وكشف نور الفعل لها، ومن نفس قام عليها بالذات من حيث كشف سبحات الذات لها؛ فإن كسبت النفس عبوديته؛ فهي في مشاهدة أنوار فعله، وإن كسبت النفس محبته؛ فهي في رؤية أنوار صفاته، وإن كسبت معرفته وتوحيده في رؤية محاب أنوار ذاته؛ فإن قصرت للنفس الأول في عبوديته بالتفاتها إلى حظها أخذها الحق بعقوبة المجاهدة، وإن قصرت النفس الثاني في محبته بأنها استلذت محبته، ووقفت باللذة عنه أخذها الحق بأن وقعها في بحر النكرة، لكن الأخذ هاهنا الزيادة معرفتها لأنه سبحانه مشفق على النفس العارفة، وهو تعالى أخذ هذه النفوس قائم بنعت حفظ أنفاسها في طلبها الحق. [عراس البيان].

سبحانه تعالى عن ذلك علواً كبيراً ﴿قُلْ﴾ لهم تبكيثاً عليهم وإلزاماً لهم: ﴿مَسْمُومُهُمْ﴾ أي: تلك الشركاء بأسماء، وصفوهم بصفات يستحقون بها الألوهية والربوبية ﴿أَمْ تُبْتِغُونَهُ﴾ وتخبرونه ﴿بِمَا لَا يَغْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بأسماء وصفات لا يعلمها في الأرض، بل لا يعلمها في السماء ﴿أَمْ﴾ سموهم ﴿بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ﴾ مجازاً بلا اعتبار المعنى الحقيقي فيهم، وبالجملته: هم عاجزون عن الكل ساكتون عنها ﴿بَلْ﴾ إنما ﴿زُيِّنَ﴾ وحسن ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأشركوا ﴿مَكْرُهُمْ﴾ أي: تمويههم وتلييسهم مع علمهم بطلانها ﴿وَوَ﴾ مع ذلك ﴿ضُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي: قصدوا إعراض ضعفاء المؤمنين عن طريق الحق، وما هو إلا من غيهم وضلالهم في أصل فطرتهم ﴿وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ﴾ وأراد إضلاله ﴿فَمَا لَهُ مِنْ نَّاصٍ﴾ [الرعد: 33] يهديهم ويوفقهم إلى سبيل الرشاد.

بل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بغفلتهم عن معرفة الله واللذات الروحانية مع عدم شعورهم بها ﴿وَوَ﴾ الله ﴿لَعَذَابُ الْآخِرَةِ﴾ حين انكشف الحال وارتفع الحجب ﴿أَشَقُّ﴾ وأصعب ﴿وَوَ﴾ كيف لا يكون عذاب الآخرة أشق، إذ ﴿مَا لَهُمْ﴾ فيها ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ أي: عذابه وانتقامه ﴿مِنَ وَاقٍ﴾ [الرعد: 34] أي: حافظ شفيع يشفعهم ليخفف عنهم ويحفظهم من عذابه.

ثم قال سبحانه على مقتضى سته من تعقيب الوعيد بالوعد: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ المتحفظون نفوسهم عن ارتكاب المعاصي والآثام، المتمثلون بما أمروا من العقائد والأحكام ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ لإجرائهم أنهار المعارف والحقائق على أراضي استعداداتهم؛ لإنبات ثمرات الكشوف والشهود ﴿أُكُلُهَا﴾ من الرزق المعنوي والأغذية الروحانية ﴿دَائِمٌ﴾ غير منقطع ﴿وَوَ﴾ كذا ﴿ظِلُّهَا﴾ الذي تستريحون فيه دائم غير زائل، لا انقطاع لها أصلاً كأظلال الدنيا ﴿بَلَدُهَا﴾ الجنة التي وصفت بما وصفت ﴿وَعَفْوَ الدِّينِ اتَّقُوا﴾ أي: عاقبة أمر المؤمنين الذين اتقوا عن محارم الله ﴿وَعَفْوَ الْكَافِرِينَ﴾ المصرين على ارتكاب المعاصي والشهوات البهيمية ﴿النَّارُ﴾ [الرعد: 35] المعدلة لهم بدل لذاتهم وشهواتهم السيئة.

﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أَشْرِكُ بِهِ إِلَهًا أَدْعُوا إِلَيْهِ مَشَابِهُ ۖ وَكَذَلِكَ أُنزِلَتْ حُكْمًا

عَرِيًّا وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾
 وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِثَابِتٍ إِلَّا بِإِذْنِ
 اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾
 [الرعد: 36-39].

ثم قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ واتبعناهم النبي، المبين لهم ما فيه
 من الأوامر والنواهي ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: في كتابهم الجامع لما في كتبهم؛
 لأنهم يجدونه موافقاً مطابقاً لكتبهم ﴿وَمِنَ الْأَخْزَابِ﴾ من هؤلاء المتحزبين في أمر
 القرآن ﴿مَنْ يُنْكِرُ بَغْضَهُ﴾ أي: الآيات الناسخة لبعضها أحكام كتبهم، قل لهم: إنما
 نسخ ما نسخ من الأحكام الجزئية على مقتضى سنة الله في نسخ بعض الأحكام الجزئية
 الثابتة في الكتب السابقة بأحكام الكتب اللاحقة، وليس هذا ببدع، وأما العقائد الكلية
 المصونة عن طريان النسخ والتبديل، فهي المتفق عليها بين جماهير الأنبياء؛ لذلك ﴿قُلْ
 إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ﴾ الواحد الأحد، الصمد، الحقيق بالحقية، المستقل في الألوهية
 والربوبية ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِهِ﴾ من أظلاله ومصنوعاته وبمقتضى أمره ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره
 من الأظلال الهالكة في إشراق شمس ذاته ﴿أَدْعُو﴾ دعاء مؤمل متضرع خاشع خاضع
 ﴿وَكَيْفَ لَا أَدْعُو؟﴾ إذ ﴿إِلَيْهِ مَتَابٌ﴾ [الرعد: 36] أي: منقلبي ومرجعي، رجوع الظل
 إلى ذي الظل.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: مثل إنزالنا للأمم الماضية كتاباً بعد كتاب ناسخاً لبعض ما فيها
 على مقتضى الأزمان والأقوام كذلك ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي: القرآن، إليك يا أكمل الرسل
 ﴿حُكْمًا﴾ مبيناً للقضايا على مقتضى الحكمة المتقنة ﴿عَرِيًّا﴾ مناسباً بلسانك ولسان
 قومك يسهل لهم الاسترشاد والاستهداء به، ناسخاً لبعض ما في الكتب السالفة ﴿وَكَيْفَ
 اللَّهُ﴾ لئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ أنت بنفسك ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: أهواء أهل الكتاب وإن كانت قبل
 النسخ هدى سيما ﴿بَعْدَ مَا جَاءَكَ﴾ في كتابك ﴿مِنَ الْعِلْمِ﴾ بنسخها وبصيرورتها هوى
 ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ﴾ من غضبه وانتقامه ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾ يولي أمرك بالاستخلاص والاستشفاع
 ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ [الرعد: 37] يحفظك ويمنعك من مقتته.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ﴾ مثلك ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا

وَذُرِّيَّةٌ^(١) مثل أزواجك وأولادك، فلا يقدح في نبوتهم أزواجهم وأولادهم، فكيف يقدح في نبوتك مع أنك أفضل منهم ﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: ما صبح وجاز ﴿لِرَسُولٍ﴾ منهم ﴿أَن يَأْتِي بِآيَةٍ﴾ مقترحة ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وروحه ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ﴾ ووقت يسع فيه أمر من الأمور الكائنة والفاصلة ﴿كِتَابٍ﴾ [الرعد: 38] نازل من عنده ناطق بوقوع ما كان ويكون فيه.

﴿يَمْنَحُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ وينسخه على مقتضى حكمته وإرادته ﴿وَيُثَبِّتُ﴾ ما أراد إثباته ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: 39] أي: لوح القضاء والقدر المتوالية، المتتالية على مقتضى الأوصاف الذاتية الإلهية والتجليات اللطيفة والقهرية والجلالية والجمالية.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾^(١٠) أولم يروا أننا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها والله يمتحنكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب^(١١) وقد مكر الذين من قبلهم فلو المكر جميعاً يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكفر لمن عقى النار^(١٢) ويقول الذين كفروا لست مرسلاً قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب^(١٣) [الرعد: 40-43].

﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ بالجملة: لا تفرح يا أكمل الرسل ﴿إِن مَّا نُرِيَنَّكَ﴾ أي: إن تحقق إراءتنا لك ﴿بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ من الإهلاك والإجلاء والقهر والغلبة ﴿أَوْ نَتَوَقَّعَنَّكَ﴾ أي: لا تغتم أيضاً أن تحقق توفينا لك قبل رؤيتك بما نعدهم من العذاب والنكال بل ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ﴾ أي: ليس في وسعك وطاقتك ﴿البلاغ﴾ بما أمرت بتبليغه ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: 40] والجزاء بمقتضاه عاجلاً وآجلاً.

﴿أَمْ يَنكُرُونَ حسابنا إياهم وانتقامنا عنهم﴾ أولم يروا أننا نأتي الأرض التي شاعت فيها كفرهم ﴿ننقصها من أطرافها﴾ وأرجائها حتى ضاقت عليهم بإظهار دين

(1) يشير إلى أن الرسل لما جلبتهم العناية في البداية رقتهم من دركات البشرية الحيوانية إلى درجات الولاية الروحانية ثم رقتهم منها إلى معارج النبوة والرسالة الربانية في النهاية فلم يبق فيهم من دواعي البشرية وأحكام النفسانية ما يزعجهم إلى طلب الأزواج بالطبيعة والركون إلى الأولاد بخصائص الحيوانية؛ بل جعل لهم رغبة في الأزواج والأولاد على وفق الشريعة بخصوصية إطلاقه في إظهار صفة الخالق. [التأويلات].

الإسلام وإكثار أهله ﴿وَاللَّهُ﴾ المدبر على مقتضى الحكمة ﴿يَخْكُمُ﴾ بحكم مبرم ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ أصلاً ليدله ويغيره ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: 41] صعب الانتقام على من أراد تغيير حكمه وتبديله.

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ مع أنبيائهم المبعوثين إليهم مثل مكر هؤلاء الماكرين معك يا أكمل الرسل، فلحقهم ما لحقهم وهم غافلون عن مكر الله ﴿فَلِلَّهِ﴾ المطلع لعواقب الأمور ﴿الْمَكْرُ﴾ المعتمد به ﴿جَمِيعًا﴾ إذ ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضورى ﴿مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من خير وشر ونفع وضرر، فينتقم هو عنها على مقتضى علمه ﴿وَهُمْ﴾ وإن غفلوا عن مكر الله وما يترتب عليه من الوبال ﴿سَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ﴾ المصرون على الكفر والضلال ﴿لِمَنْ﴾ من الفريقين ﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: 42] أي: العاقبة الحميدة في النشأة الأخرى.

﴿وَهُمْ﴾ من شدة شكيمتهم وغيظهم معك يا أكمل الرسل ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بدينك وكتابك؛ أي: رؤساؤهم وصناديدهم: ﴿لَنْتَ مُزْمَلًا﴾ من عند الله مثل سائر الرسل؛ لذلك ما تتبعك ونؤمن بك وبكتابك ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: كفى الله بي شاهد لإثبات رسالتي وادعائي النبوة؛ إذ أيدني بالمعجزات القاطعة والبراهين الساطعة ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾⁽¹⁾ [الرعد: 43] من أصحاب اللسان والفصاحة وأرباب الفطنة والذكاء، المتأملين في مرموزات الكتاب، المتنعمين في استكشاف سرائره، لو تأملوا فيه حق تأمل وتدبر، لم يبق لهم شائبة شك وتردد في أنه ما هو من جنس كلام البشر، بل ما هو إلا وحي يوحى ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا

(1) قال البقلي: يعني: علم إشارات الله من أزاله في كتابه، يعني لطائف الحروف المتشابهة المشيرة إلى دقائق أسرارهِ وملكوته وحقائق جبروته، أي من علم الكتاب ولهم سر الخطاب بلا واسطة من حيث الكشف والإلهام والمشاهدة والكلام، متحققاً في هذه مشاهدته وشاهدته وشاهد آيات رسله نائب أنبيائه وسفير الحق إلى خلقه، له لسان العجائب من علوم الإلهية وغرائب حقائق الربوبية، وله لسان الخصوص من المعرفة والتوحيد، وله لسان خصوصية الخصوصية من بيان النعوت والأسماء والأوصاف والصفات وأبناء الغيب، وغيب الغيب والفراسات الصادقة، والآيات الواضحة. قال ﷺ في وصفهم: «إِنَّ فِي أَمْتِي مُحَدِّثِينَ مَكَلِّمِينَ، وَإِنْ عَمِرَ مِنْهُمْ». وله لسان العموم في علم المقامات من الصدق والإخلاص، والفرق بين الإلهام والوسواس والرياضات والمجاهدات وبيان عيوب النفس ومداواتها، وهو لسان الحق في العالم إذا نطق نطق الحق؛ لأن الحق نطق به.

لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿النور: 40﴾.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب القاصد لاستكشاف سرائر المرتبة الجامعة المحمدية التي اتحد عندها قوسا الوجوب والإمكان، واتصل دونها الغيب والشهادة أن تتأمل في القرآن المنزل عليه من عند ربه على مقتضى نشأته وكمال استعداداته وعزة شأنه، وتتدبر حق التدبر في مرموزاته بقدر وسعك وطاقتك، وإن كان الاطلاع على غوره من المستحيلات سيما بالنسبة إلى ذوي الاستعدادات الضعيفة حتى يشهد لك ذوقك ووجدانك برسائله ونبوته وهدايته إلى توحيد ربه وإرشاده إلى سبيل الحق، ولا يتيسر لك هذا إلا بعد تصفية ظاهرِكَ عن الشواغل الحسية والعلائق الدنيوية مطلقًا، وباطنكَ عن التقليدات والتخمينات الموروثة لدرن الجهالات ورين الخيالات الموقعة لأنواع الشبهات والترددات.

وبالجملة: لا يحصل لك هذا إلا بعد تحققك في مرتبة الموت الإرادي وخروجك عن مقتضى هويتك مطلقًا.

جعلنا الله ممن أيده الحق لسلوك طريق توحيده، ووفقه إلى سواء سبيله بيمينه وجوده.

سورة إبراهيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة إبراهيم الطويلة

لا يخفى على ذوي الاستبصار وأولي الفهم والاعتبار من المستكشفين المستيرين بلوامع نور الوجود المتشعبة والمتجلية على صفائح المكونات الغيبية والشهادية أن حكمة إرسال الرسل وإنزال الكتب إنما هو لإخراج أصحاب الجهالات والغفلات عن ظلمات الضلالات ومهاوي التقليدات والتخمينات إلى نور اليقين وفضاء العرفان؛ ليتنبهوا على شأنهم في منشئهم ومآلهم وحالهم، في مبدئهم ومعادهم ويتفطنوا، يتيسر لهم سلوك طريق التوحيد المنجي عن غياهب الشكوك وظلمات الأوهام، ويحصل لهم الترقى من المرتبة الأنزل الأدنى إلى الأرفع الأعلى؛ لذلك خاطب سبحانه حبيبه بما خاطب وأنزل عليه ما أنزل؛ تأييداً له وتتميمًا لإرشاد عباده إلى توحيده.

فقال متيمناً باسمه الكريم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المتجلي بالكمالات الثلاثة على صدور أنبيائه لتكميل من آمن لهم من عباده وإهدائهم إلى طريق توحيده ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لهم بإرسال من هو من جنسهم، ليسهل لهم الاستفادة والاسترشاد منه بلا كلفة ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم بإنزال الكتاب الجامع لجميع شعائر سلوكهم في مبدئهم ومعادهم ليدوم فيما بينهم.

﴿الرَّحْمَنُ﴾ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِتُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾ [إبراهيم: 1-4].

﴿الر﴾ أيها الإنسان الكامل الأحق الأليق للوامع لوائح رموزات رقائق الربوبية بأن تنزل على قلبك بطريق الوحي والإلهام، فتذيعه بين الأنام على سبيل الإرشاد والتكميل هذا ﴿كِتَابٌ﴾ جامع لجميع لوامع رقائق الربوبية ودقائق لوائح الألوهية، مناسب مطابق لمرتبتك الجامعة ﴿أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ تأييداً لك في أمرك ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ﴾⁽¹⁾ الناسين المقام الأصلي والمتمزل الحقيقي ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ الإمكانية الطبيعية الهيولانية ﴿إِلَى النُّورِ﴾ البحت الخالص عن شوب المادة والمدة، وليس إخراجك إياهم إلا ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ الذي رباهم في أصل استعداداتهم وفطرتهم بأنواع اللطف والكرم، ووقفهم على قبول ما جئت به من عند ربهم ليوصلهم ﴿إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ﴾ الغالب في أمره على مقتضى قدرته وإرادته على الوجه الأقوم الأعدل ﴿الْحَمِيدُ﴾ [إبراهيم: 1] في فعله؛ لخلوه عن كلا طرفي الإفراط والتفريط.

وكيف لا يكون صراطه مستقيماً وأفعاله معتدلاً مقتصدًا؛ إذ هو ﴿الله﴾ المستجمع لجميع الكمالات ﴿الَّذِي لَهُ﴾ تكوين ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ من الكواكب السيارات والثوابت على النمط البديع والتركيب العجيب ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من العناصر والمركبات على أقوم الأمزجة وأعدله ﴿وَوَيْلٌ﴾ أي: طرد وتبعد عن مرتبة التوحيد ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ الساترين شمس الحق الظاهر بالعدالة التامة والاستحقاق بغيوم الأظلال الباطلة والعكوس العاطلة ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: 2] هو مسخهم وتبديلهم عن كمال مظهرية الحق وخلافته إلى مرتبة الحيوانات العجم، بل إلى مرتبة الجمادات التي هي أنزل المراتب ﴿أَوَّلُكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: 179].

وهم ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ المستعارة التي لا مداد لها ولا قرار؛ إذ هي أظلال في ظلمة عكوس عاطلة ﴿عَلَى الْآخِرَةِ﴾ أي: على الحياة الآخروية التي هي بقاء سرمدي وحياة أزلية لا انقضاء لها أصلاً ﴿وَهُمْ﴾ هم مع اختيارهم وترجيحهم الحياة الفانية على الباقية ﴿يَصُدُّونَ﴾ ويصرفون الناس ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الذي هو الإيمان بالله

(1) قال الأستاذ: أقسم بهذه الحروف: إنه لَكِتَابٌ أنزل إليك لتخرج الناس به من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمات الشك إلى نور اليقين، ومن ظلمات التدبير إلى قضاء شهود التقدير، ومن ظلمات الابتداع إلى نور الاتباع، ومن ظلمات دعاوى النفس إلى نور معارف القلب، ومن ظلمات التفرقة إلى نور الجمع بإذن ربهم وإرادته ومشيتته، وسابق حكمه وقضائه إلى صراط رحمته، وهو نهج التوحيد وشواهد التفريد، تفسير القشيري (24/4).

وبرسوله وكتابه ﴿وَيَتَّبِعُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: يطلبون أن يحدثوا فيها مع استقامتها انحرافاً ﴿أُولَئِكَ﴾ الأشقياء المردودون عن طريق الحق، الساعون في الباطل مكابرة وعناداً ﴿فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم: 3] عن الهداية بمراحل بحيث لا يرجى هدايتهم أصلاً؛ لأنهم مجبولون على الضلالة والغواية في أصل فطرتهم.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُّسُولٍ﴾ من الرسل على أمة من الأمم ﴿إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ أي: ما أرسلناه إلا للغة موافقة بلغة قومه؛ ليفقهوا حديثه ويفهموا لسانه ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ طريق التوحيد، ويجنبهم عن خلافه وما عليه، وفي وسعه إلا البلاغ ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ﴾ المضل المذل لعباده ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ إضلاله وإذلاله على مقتضى قهره وجلاله ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ هدايته على مقتضى لطفه وجماله ﴿وَهُوَ﴾ في ذاته ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب على ما أراد وشاء إرادة واختيار ﴿الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: 4] المتقن في فعله على مقتضى إرادته.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدْحِثُونَ أَسْمَاءَكُمْ وَيَسَاءُكُمْ فِي ذَلِكَمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ قَالَتْ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ [إبراهيم: 5-7].

ثم ذكر سبحانه قصة إرسال موسى إلى قومه حين فشا الجidal والمراء بينهم وانحرفوا عن طريق الحق؛ ليتعظ به المؤمنون ويعتبروا، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ من مقام فضلنا وجودنا ﴿مُوسَى﴾ المؤيد ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الباهرة مثل: العصا واليد البيضاء وسائر المعجزات الظاهرة على يده، وقلنا له ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ الضالين عن سواء السبيل بمتابعة الأهوية الفاسدة ﴿مِنْ﴾ أنواع ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ الطارئة عليهم من الكفر والفسوق والعصيان والتقليدات والتخمينات الناشئة من الأوهام والخيالات، المنبعثة عن الكثرة المستدعية للانانية التي هي الظلمة الحقيقية ﴿إِلَى النُّورِ﴾ الحقيقي الذي هو صرافة التوحيد والوحدة الذاتية المسقطة لجميع الإضافات والكثرات ﴿وَذَكِّرْهُمْ﴾ أيضاً ﴿بِآيَاتِنَا﴾ التي مضت على الأمم الهالكة من أمثال هذه الأفعال المورثة لأنواع الظلمات؛

لعلهم يعتبروا عن سماعها وينصرفوا عما هم عليه من القبائح والذمائم ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾ أي: في ذكر تلك الوقائع الهائلة والبليات العظيمة ﴿لآيَاتٍ﴾ أي: دلائل واضحات وعبر ﴿لِكُلِّ﴾ مؤمن معتبر من أمثاله خائف من بطش الله ﴿ضَبَّارٍ﴾ على ما جرى عليه من قضائه ﴿شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: 5] مبالغ في الشكر على ما وصل إليه من آلائه ونعمائه.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ حين أراد تعديد نعم الله عليهم وإحسانه إليهم؛ ليستحيوا عن مخالفة أمره وترك طاعته وعبادته ﴿اذْكُرُوا﴾ أيها المغمورون بنعم الله ﴿نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ وقوموا لشكرها؛ أداء لحق شيء منها سيما ﴿إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ حين ﴿يُسْؤِمُونَكُمْ﴾ ويقصدون لكم ﴿سُوءَ عَذَابٍ﴾ أي: أفضح وأقبحه ﴿وَ﴾ هو أنه ﴿يَدْبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ قمعا وقلعا لعرفكم ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ توبيخا وتقريعا عليكم ﴿وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ﴾ نازل ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ إذ هو بإقدار الله إياهم ﴿عَظِيمٌ﴾ [إبراهيم: 6] لا بلاء أعظم منه.

والإنجاء عن أمثال هذا البلاء من أعظم النعماء، فعليكم أن تواظبوا لشكره ﴿وَ﴾ اذكروا أيضا ﴿إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ أي: أعلمكم إعلاما بليغا، وأوصاكم وصية عظيمة تتميما لتربيتكم ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ﴾⁽¹⁾ على ما أعطيتكم من النعم العظام وقمتم لأداء حقها ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ وأضاعفنكم بأمثالها وأضاعفها ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ﴾ في مقابلة الإحسان والعطاء، فلا يلحق علي أثر كفرانكم، بل ﴿إِنْ عَذَابِي﴾ ونكالي على من صرف عن أمري وخرج عن إطاعتي وانقيادي ﴿لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: 7] مبرم محكم لا يندفع أصلا، فعليكم أن تلازموا الشكر وتجنبوا عن الكفران.

(1) قال ابن عطاء: لئن شكرتم هدايتي لأزيدنكم خلعتي، ولئن شكرتم خلعتي لأزيدنكم مشاهدتي، ولئن شكرتم مشاهدتي لأزيدنكم ولايتي، ولئن شكرتم ولايتي لأزيدنكم دولتي.

ومثل ابن عطاء عن قوله: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ قال: إذا ورثت الأشياء إلى مصادرها من غير حضور منك لها فقد تم الشكر. وقال الجوزجاني: لئن شكرتم الإسلام لأزيدنكم الإيمان، ولئن شكرتم الإيمان لأزيدنكم الإحسان، ولئن شكرتم الإحسان لأزيدنكم المعرفة، ولئن شكرتم المعرفة لأزيدنكم الوصلة، ولئن شكرتم الوصلة لأزيدنكم القرب، ولئن شكرتم القرب لأزيدنكم الأنس. وقيل: إني خلقتكم لأزيدنكم الأنس بعد الوحشة، والقرب بعد البعد والحضور بعد الغيبة. قال الواسطي: ذكر الزيادة حججه عن الحقيقة، ثم كشفت الحقيقة لأقوام متواجدين.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ (٨) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُوءُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كُنَّا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ [إبراهيم: 8-10].

﴿و﴾ بعدما فرغ من التعداد والتذكير ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿مُوسَى﴾ قولاً ناشئاً عن محض الحكمة والرزانة على مقتضى نور النبوة والولاية: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا﴾ أيها الغافلون عن كمال استغناء الله وعلو شأنه وسمو سلطانه ﴿أَنْتُمْ﴾ بأجمعكم، بل ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ لا يزن في جنب استغناؤه سبحانه بمقدار جناح بعوضة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ المتردي برداء العظمة والكبرياء ﴿لَغَنِيٌّ﴾ في ذاته عما سواه من أظلاله مطلقاً ﴿حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: 8] بمقتضيات أوصافه وأسمائه.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ أيها التائهون في تيه الغفلة والغرور ﴿نَبُوءُ الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ لمثل ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ من الأمم الهالكة ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ المطلع لجميع ما كان ويكون، لا يعزب عن حيلة حضرة علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء حين ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ المبعوثون إليهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الواضحات، والمعجزات الباهرات المثبتة لرسالاتهم، فدعوهم إلى الإيمان والتوحيد وأمروهم بالمعروفات ونهواهم عن المنكرات ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ مشيرين إليها من غاية إنكارهم واستهزائهم ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا﴾ أي: اعترفنا بالكفر بأفواهنا، كأنهم أخبروا عن كفرهم بالجملة الماضية تحقيقاً وتقريباً لما هم عليه من الكفر والطغيان ﴿بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ من عند ربكم وكيف تؤمن لكم ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ﴾ عظيم ﴿مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ﴾ من الإله الواحد، الأحد الصمد المتصف بجميع صفات الكمال، الموجد المظهر للكائنات ﴿مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم: 9] موقع للريب المؤدي إلى الإنكار؛ إذ المتصف بهذه الصفات لا بد أن يكون أظهر من الشمس، مع أنه أخفى من كل شيء،

بل لا وجود له أصلاً.

﴿قَالَتْ﴾ لهم ﴿رُسُلُهُمْ﴾ على سبيل التوبيخ والتفريع: ﴿أَفَبَى اللَّهِ﴾ الظاهر المتجلى في الأفاق بالاستقلال والاستحقاق ﴿شُكٌّ﴾ وتردد مع كونه ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: موجدتهما ومظهرهما من كتم العدم بلا سبق مادة ومدة، إنما ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ إلى توحيدِه بإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿لِيُغْفِرَ لَكُمْ﴾ بعضاً ﴿مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ وهو ما بينكم وبينه سبحانه؛ إذ حق الغير لم يسقط ما لم يعف صاحب الحق عنه ﴿وَ﴾ بعد دعوتكم ﴿يُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو يوم الجزاء؛ ليهيئ كل منكم زاد يومه هذا على الوجه المأمور المبين في الكتب المنزلة على الرسل، وبعدما سمعوا من الرسل ما سمعوا ﴿قَالُوا﴾ مستنكرين عليهم، مستهزئين لهم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ تاكلون وتشربون وتفعلون جميع ما نفعل ﴿تُرِيدُونَ﴾ بأمثال هذه الحيل والتزويرات الباطلة ﴿أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ وأسلافنا من الآلهة والأصنام، وإن صدقتم في دعواكم ﴿فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: 10] أي: بحجة واضحة لائحة نقترحها منكم.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١١) ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَىٰ اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا مَآذٍ شُمُونًا وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (١٢) [إبراهيم: 11-12].

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ مسلمين منهم المشاركة في الجنس: ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ نشارك لكم في جميع أحوال البشر وأوصافه ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ﴾ المنعم المفضل ﴿يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ بمقتضى جوده وإحسانه بفضائل مخصوصة وكرائم غير شاملة على تفاوت مراتبهم واستعداداتهم المثبتة في علم الله ﴿وَ﴾ أما أمر مقترحاتكم فإنه ﴿مَا كَانَ﴾ أي: صح وجاز ﴿لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ﴾ تقترحون ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بتوقيفه ووحيه وإقداره إن تعلق إرادته بصدورها منا ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ لا على غيره من الأسباب والوسائل العادية ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم: 11] الموحدون المفوضون أمورهم كلها إلى الله أولاً وبالذات، ولا يعتقدون الجول والقوة إلا بالله المستقل في ذاته وأوصافه وأفعاله.

﴿وَعَلَمَ أَنَّ مَعَهُ الْمُنَافِقِينَ﴾^{١٢} بعد ما آيسوا عنهم وعن صلاحهم اشتغلوا إلى تركية نفوسهم ﴿مَا لَنَا﴾ أي: أي عذر عرض لنا ﴿أَلَا نَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ﴾ المصلح لأحوالنا، فلم لم نتخذه وكيلنا وكفيلنا؟ ﴿وَالْحَالُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ بِمَقْتَضَى لُطْفِهِ وَجَمَالِهِ﴾ قد هدانا وأوضح لنا ﴿سُبُلَنَا﴾ التي نسلك بها نحو توحيدهِ وعرفانه، وإن ما جرى علينا من المنافع والمضار إنما هو من عنده وبمقتضى مشيئته وإرادته ﴿وَاللَّهُ بَعْدَ مَا تَحَقَّقْنَا بِمَقَامِ التَّوْحِيدِ، وَتَمَكَّنَا فِي مَقَرِّ التَّجَرِيدِ وَالتَّفْرِيدِ﴾ لنضبرن على جميع ﴿عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا﴾ بالرد والإنكار وغير ذلك من الاستهزاء وسوء الأدب، وكيف لا نصبر؛ إذ الكل بيده سبحانه وبحيطة حضرة قدرته وإرادته، إنما وصل إلينا ابتلاء منه سبحانه إيانا واختباراً ﴿وَاللَّهُ بَعْدَ مَا تَحَقَّقَ وَيُثَبِّتُ أَنَّ الْكُلَّ مِنْ عِنْدِهِ﴾ على الله المستقل في جميع التصرفات والأفعال في كل الأمور والأحوال ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: 12] الموحدون، المفوضون أمورهم كلها إليه؛ لذلك بذلوا مهجهم في طريق التوحيد وإعلاء كلمته.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلرُّسُلِ هُمْ أَنْتُمْ أَتُؤْتُونَ فِي مِلَّةِنَا
فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ
الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَأَمْسَفَتُوا
وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَسَقَى مِنْ مَاءٍ صَٰدِرٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ
وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [إبراهيم: 13-17]

﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ﴾ بالجملة: أدى أمر استكبارهم واستنكارهم وتكذيبهم إلى أن ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ﴾ حين بالغوا في دعوتهم وإهدائهم ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ﴾ أيها المزورون الملبسون ﴿مِمَّنْ أَرْضَيْنَا﴾ إجلاء وإخراجاً على وجه الإهانة والإذلال ﴿أَوْ لَنَعُوذَنَّ﴾ منصفين ملجئين ﴿فِي مَلْتَنَّا﴾ التي هي ملة آبائكم وأسلافكم ﴿فَأَوْخَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ حين اشتد الأمر إليهم واضطروا من ظلمهم وطغيانهم، قائلاً لهم على سبيل الوعد والتبشير: لا تبالوا أيها الرسل المبلغون كلمة الحق إليهم من تهديداتهم وتشنيعاتهم، ولا تخافوا من شوكتهم وصولتهم نحن أقوى منهم ﴿لَنُهْلِكَنَّ﴾ بمقتضى قهرنا وجلالنا ونستأصلن ﴿الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: 13] الخارجين عن رتبة إطاعتكم وانقيادكم.

﴿وَلْيُسَكِّتْكُمْ﴾ ونقررنكم ﴿الْأَرْضَ﴾ التي هم يريدون إخراجكم منها مهانين

صاغرين ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: إهلاكهم واستئصالهم ﴿ذَلِكَ﴾ أي: إهلاك العدو وإيراث الأرض والديار ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾ أي: للمؤمنين الموعدين الخائفين عن قيامي وحفظي واطلاعي لجميع أحوال عبادي، وبسبب خوفهم هذا لا يخرجون عن مقتضى نهبي وأمرى ﴿وَوَ﴾ مع ذلك الخوف ﴿خَافَ وَعِيدٌ﴾⁽¹⁾ [إبراهيم: 14] أي: عن وعيدي في يوم الجزاء بأنواع العذاب والنكال.

ومن غاية خوفهم ورعبهم عن الوعيدات الآخروية استعدوا لها، وهياؤا أسباب النجاة منها، جعلنا الله ممن هيا أسباب أخراه في أولاه ﴿وَوَ﴾ كيف لا ينصرهم الحق ولا يهلك عدوهم؛ إذ هم ﴿اشْتَفْتَحُوا﴾ واستنصروا من الله، وطلبوا الفتح والنصرة على أعدائهم، مفوضين أمورهم كلها، مسلمين نفوسهم وأرواحهم على قضائه؛ لذلك فتح سبحانه عليهم ونصرهم على عدوهم ﴿وَوَخَّابٌ﴾ خيبة أبدية وخسر خسرانا سرمديا ﴿كُلُّ جَبَّارٍ﴾ متكبر متجبر على الله وعلى عباده ﴿عَنِيدٌ﴾ [إبراهيم: 15] مبالغ في العتو والعناد مع أنبيائه ورسله.

ومع ذلك لا يقتصر عليهم بالعذاب العاجل، بل ﴿مَنْ وَرَّاهُ﴾ أي: وراء العذاب الدنيوي ﴿جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان والطرود والحرمان ﴿وَيُسْقَى﴾ فيها حين اشتد زفرتهم ﴿مِنْ مَّاءٍ﴾ أي: مانع كالماء ﴿ضَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: 16] أي: قيع سائل من جراحات أجساد أهل النار.

﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ بتكلف واضطراب ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِفُّهُ﴾ أي: لا يقارب أن يجري على حلقه؛ للزوجته وحرارته والتصاقه ﴿وَوَ﴾ لعدم إساغته وجوازه ﴿يَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: يأتيه ويتوجه نحوه أسباب الموت من كل عضو من أعضائه؛ لوصول أثر اشتداده ورداءته وبشاعته كل جزء من أجزاء بدنه حتى أصول شعره، فتشعر من هوله كما يشاهد عند شرب الأدوية الرديئة الكريهة الرائحة واللذة مثل: السقمونيا والحنظل وغير ذلك ﴿وَوَ﴾ مع إتيان أسباب الموت من جميع الأعضاء ﴿مَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ حتى يخلص من العذاب، بل ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ﴾ أي: عقيب سقيه على هذا الوجه ﴿عَذَابٌ

(1) أي: قيامه للحساب بين يدي في القيامة، أو قيامي على عبادي، وحفظي لأعمالهم، واطلاعي على سرهم وعلايتهم، أو خاف عظمة ذاتي وجلالي، (وخاف وعيد) أي: وهيدي بالعذاب، أو علاني الموعود للكفار. البحر المديد (3/ 192).

غَلِيظٌ ﴿لِإِبْرَاهِيمَ: 17﴾ من أنواع العذاب.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْتُكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَبَّحْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِصٍ ﴿٢١﴾﴾ [إبراهيم: 18-21].

ثم قال سبحانه كلامًا جمليًا شاملاً لجميع أصحاب الضلال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ الذي رباهم بأنواع النعم، فيكفرون النعم والمنعم جميعًا متى لم يصلوا إلى مرتبة توحيده وعرفانه، ولم يؤمنوا به حتى يصلوا بالسلوك والمجاهدة إليه، شأنهم العجيب وحالهم الغريبة فيما يتلى عليكم أنه ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ الحسنة من الصدقة والعق والصلة وغير ذلك من الأعمال المقربة إلى الحق إن كانت غير مقرونة بالإيمان والمعرفة ﴿كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ ذو رياح شديدة عاصفة فطار بها الرماد إلى حيث لم يبق في مكانه أثر منه، أي: مثلهم وشأنهم في كون أعمالهم محبطة يوم القيامة كمثل ذلك الرماد بحيث ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ لدى الحاجة ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ من الأعمال المنجية المخلصة ﴿عَلَى شَيْءٍ﴾ قليل حقير، فكيف بالكثير العظيم منها؟ ﴿ذَلِكَ﴾ الإحباط والهباء وعدم النفع ﴿هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: 18] بمراحل عن الهداية والفوز بالفلاح، وما ذلك إلا لعدم مقارنتها بالإيمان والعرفان، ولتكذيب الرسل المبينين لهم طريق التوحيد والإيقان.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي المستبعد لإحباط أعمال أولئك الكفرة المعاندين مع الله ورسله ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ القادر، المقتدر بالقدرة التامة الكاملة بحيث لا ينتهي قدرته أصلاً ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: أظهرهما وأوجدتهما من كتم العدم على وجه الإبداع والاختراع ﴿بِالْحَقِّ﴾ الثابت المطابق للحكمة البالغة الكاملة بحيث ما ترى فيها من فطور وفتور، يشاهد أهل البصائر والاعتبار هذا النمط البديع والنظام العجيب فينكشفوا منها إلى مبدئها ومُنشئها، ومع ذلك ﴿إِنْ يَشَأْ﴾ سبحانه ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾ أيها المائلون عن

طريق الحق الناكبون عن مقتضى حكمته بمتابعة أهوية نفوسكم ومقتضيات هوياتكم الباطلة ﴿وَيَأْتِ﴾ بذلك ﴿بِخَلْقِ﴾ آخر ﴿جَدِيدِ﴾ [إبراهيم: 19] مستبدع مستحدث؛ ليواظبوا على طاعته ويداوموا على مقتضيات حكمته.

﴿و﴾ لا تستبعدوا من الله أمثال ذلك؛ إذ ﴿مَا ذَلِك﴾ وأمثاله ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ المتعزز بالمجد والبهاء والعظمة والكبرياء والبسطة والاستيلاء ﴿بِعَزِيزِ﴾ [إبراهيم: 20] متعذر أو متعسر؛ إذ لا يتعسر على قدرته المقدور، ولا يتعذر عليه شيء من الأمور.

﴿و﴾ كيف يتعسر أو يتعذر عليه شيء من الأشياء؛ إذ الكل ﴿بَرْزُوا﴾ أي: ظهوروا ورجعوا في النشأة الآخرة ﴿لِلَّهِ﴾ المظهر المبرز لهم من كتم العدم ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين؛ إذ لا يخرج عن محيطه شيء ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾ من ذوي الاستعدادات الضعيفة حين أخذوا بجرائمهم ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ عليهم في النشأة الأولى بالرئاسة والعقل التام، وادعاء الفضل والكمال إلى حيث جعلوا نفوسهم مبتدعين لهم حيث قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ في دار الدنيا، وأنتم ناصحون لنا، آمرون بتكذيب الرسل وأنواع الفواحش والقبائح الممنوعة بالسنة الرسل ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ﴾ اليوم حين أخذنا على ما أمرتمونا ﴿مُعْتَدُونَ عَنَّا﴾ أي: دافعون مانعون ﴿مِنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ المتقم منا ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: بعض من عذابنا ونكالنا؟ ﴿قَالُوا﴾ أي: المستكبرون بعدما عاتبهم الضعفاء: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ الهادي لعباده ﴿لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ ولكن أضلنا باسمه المضل، فأضللناكم، فالآن نحن وأنتم ضالون ظالمون مؤخذون ﴿سَوَاءَ عَلَيْنَا﴾ وعليكم ﴿أَجْزَعْنَا﴾ عن شدة العذاب والنكال ﴿أَمْ صَبْرْنَا﴾ على مقاساته وأحزانه ﴿مَا لَنَا مِنْ مُجِيبٍ﴾ [إبراهيم: 21] أي: مخلص ومناص.

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِي إِنْ كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ فِيهَا سَكَنٌ ﴿٢٣﴾﴾ [إبراهيم: 22-23].

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ﴾ أي: الأهوية الفاسدة المفسدة لهم في نشأتهم الأولى مصورة على صورة الشيطان المغوي ﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: بعد استقرار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المصلح المدبر لأحوال عباده ﴿وَعَدَكُمْ وَغَدَّ الْحَقُّ﴾ هذا اليوم الذي به تؤاخذون فيه ﴿وَوَعَدْتُكُمْ﴾ ضلالاً وإغراء لكم بخلافه ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ ما وعد به ربكم مع أن إنجازه مقطوع به لاشك فيه أصلاً، واتبعتم قولي مع أنه غرور وإضلال لا يرجى إنجازه مني أصلاً وأنتم جازمون به ﴿وَوَالْحَالُ أَنَّهُ﴾ ﴿مَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ حجة مرجحة وأدلة ملجئة ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ﴾ أي: سوى أن دعوتكم على مقتضى أهويتكم وأمنيتكم التي تقتضيها هويتكم وماهيتكم، ومع ذلك ﴿فَأَسْتَجِبْتُمْ لِي﴾ وصدقتم قولي بلا تردد ومماثلة طوعاً ورجبة.

﴿فَلَا تُلْهُمُونِي﴾ اليوم ﴿وَلُولُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ الباعثة الداعية على متابعتي مع جزمكم بمكري وعداوتي ﴿مَا أَنَا﴾ اليوم ﴿بِمُضِرِّكُمْ﴾ أي: مغيثكم ومعينكم، وإن ادعيت فيما مضى تغريزاً وتليساً ﴿وَمَا أَنْتُمْ﴾ أيضاً ﴿بِمُضِرِّخِي﴾ إذ انكشف الحال وانقطعت علاقة المحبة بيننا، وصارت كل نفس رهينة بما كسبت ﴿إِنِّي﴾ اليوم بعد انكشاف السرائر والضمائر ﴿كَفَزْتُ﴾ أي: تبرأت وأنكرت ﴿بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي﴾ أي: بإشراككم معي في إشراك الله الواحد الأحد الصمد، الذي لا شريك له أصلاً ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ في دار التليس والتزوير والإغواء والتغريب ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ الخارجين عن مقتضيات أوامر الله ونواهيه عدواناً وزوراً ﴿لَهُمْ﴾ اليوم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: 22] مؤلم أشد الإيلام.

ثم بين سبحانه على مقتضى سنته المستمرة بعدما بين أحوال الهالكين المنهمكين في تيه العتو والعناد، وفظاعة أمرهم في يوم الجزاء مآل المؤمنين الناجين عن تغريبات الدنيا الدنية وتسويلات الشياطين الغوية فيها.

فقال: ﴿وَأَدْخِلْ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيد الله وتصديق كتبه ورسله ﴿وَوَالْحَقُّ﴾ مع ذلك ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ التي هي نتائج الإيمان ﴿جَنَّاتٍ﴾ منتزهات من العلم والعين والحق ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ لتثبت في أراضي استعداداتهم وقابلياتهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من المكاشفات والمشاهدات الخارجة عن طرق البشر، ومع ذلك ﴿خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: برضاه وتوفيقه وتيسيره ﴿تَجِبَتْ لَهُمْ﴾ من قبل الحق بلسان الملائكة حين ملاقاتهم ﴿فِيهَا سَلَامٌ﴾ [إبراهيم: 23]

لأنهم مسلمون منقادون مسلمون أمورهم كلها إلى الله.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم: 24-27].

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي المعتبر الخير البصير ﴿كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ﴾ الهادي لعباده إلى توحيده ﴿مَثَلًا﴾ ليتبها منه بأن شبه ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ هي كلمة التوحيد القائلة المفصحة بالآلا وجود لسوى الحق ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ هي النخلة التي ﴿أَصْلُهَا﴾ وعرونها ﴿ثَابِتٌ﴾ في الأرض بحيث لا يقلعها ولا يشوشها الرياح أصلاً ﴿وَفَرْعُهَا﴾ أي: أفنانها وأغصانها مرتفعة ﴿فِي﴾ جانب ﴿السَّمَاءِ﴾^(١) [إبراهيم: 24].

(١) قال الشيرازي: أشار سبحانه إلى كلمة القديمة التي تكلم بها في اصطفايته أهل معرفته طلبت كلمته، وهي أطيب الطيبات باصطفايته أهل الولاية، وتلك الكلمة القديمة شجرة الصفات أصلها ثابت في القدم وفروعها في سماء البقاء، وتلك الشجرة مزهية عن ثغائر الحدثان وعن التبديل بطوارق القهريات، قال تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ مياه تلك الشجرة من بحار حسن العناية الأزلية والإرادة القديم، تؤتي أكلها ثمرات تجليها بالأرواح المحيين والعارفين والموحدين كل حين تفيض فيض أنوارها على أفئدة الصديقين وعقول المقربين؛ فأكمل تلك الشجرة ثمرات تجلي جميع الصفات والذات تربي بها قلوب الأولياء والصديقين، فثمرة مشاهدة الذات يورث لقلوب الموحدين التوحيد والتفريد والغناء والبقاء والصحو والمحو والحياة والوله، وثمرات الصفات يورث لفكر العارفين على قدر تجليها؛ فكل صفة يورث لها حقيقة من تلك الصفة؛ فميراث صفة العظمة الهيبة والخواف والإجلال، وميراث الكبرياء والبهتة والخجل والحياء، وميراث الجلال الخشية والخضوع، وميراث الجمال المحبة والشوق والعش، وميراث العلم المعرفة بالعلوم اللدنية، وميراث القلوة الكرامات، وميراث نور السمع استماع أصوات هواتف الغيب، وميراث نور البصر الفراسات الصادقة ورؤية الغيب وخيب الغيب، وميراث نور الخطاب والكلام والإطلاع على الأسرار والوله والهيمنان في الأنس والمناجاة، وميراث الحياة وحياة القلب بالرب وحياة العقل بنور القلب وحياة الروح بروح الوصال، وميراث رؤية القدم والبقاء الزفرات والعبرات والمواجيد والصعقات، وميراث رؤية أنوار الحكمة يبطون الأفعاليات ودقائق المقامات وحقائق المقامات وإدراك نور شواهد الآيات في

﴿تُؤْتِي أُكْلَهَا أَي: ثمارها﴾ ﴿كُلَّ حِينٍ﴾ من الأحيان المعينة للإثمار ﴿يَاذُن رَّبِّهَا﴾ أي: بإرادته ومشيتته؛ يعني: كما أن النخلة تنمو وتثمر بسبب أصلها الثابت في الأرض وفرعها المرتفع نحو السماء، ويحصل منها الثمر وقت حصولها، كذلك الكلمة الطيبة التوحيدية المستقرة، أصلها في أراضى الاستعدادات الفطرية المرتفعة أغصانها وأفنانها نحو سماء العالم الروحاني، المثمرة لثمرات المكاشفات والمشاهدات، القالعة القامعة لأشواك الكثرات، الناشئة من الإضافات العدمية ﴿وَوَ﴾ لا حاجة لأولي البصائر والألباب، المنكشفين بصرافة الوحدة الذاتية إلى أمثال هذه التنبيهات، بل ﴿يَضْرِبُ

كل فرة في مرآتي الأفاق، وميراث ثمرة الإرادة صدق العبودية وإخلاص المحبة ويسهل له جميع المرادات مادام متصفاً بالإرادة، ومن أكل ثمرًا من ثمار تلك الشجرة يحيى بحياة الأبدية، ويبقى في أنوار الأزلية لا يطرأ عليه بعد ذلك طوارق الفناء، وأيضًا الكلمة الطيبة كلمة ألهمت في قلوب أحبائه، تلك الكلمة شجرة المعرفة أصلها ثابت في أرض القلوب وفرعها في سماء الأرواح ومياه تلك الشجرة من بحر كشف المشاهدة، تؤتي أكلها كل حيث يأذن ربها من أنواع المقامات والحالات والكشوفات والكرامات والفراشات وحركتها في بستان الوصلة من جائحات الوسواس والهواجس، وأيضًا تلك الشجرة الطيبة كلمة التوحيد التي غرسها الحق في أرض بساتين الأرواح وأصلها هناك ثابت بالتوفيق، وفرعها في سماء القرب، وسقاها من سواقي العناية يرويها المعرفة وأغصانها المحبة، وأوراقها الشوق، وثمرها العشق، وحارسها الرعاية، ومزرعها الكفاية، ونهارها الأنس تؤتي أكلها كل حين في جميع الإفاص من لطائف العبودية، وعرفان أنوار الربوبية ساكن ظلها العقول، وظلها من ظلال الجمال، وهذه الثمرات في أواني كمالها مرفوعة على خوان المشاهدة والقرية. قال ابن عطاء: الكلمة الطيبة قوله: «لا إله إلا الله» على التحقيق، والشجرة الطيبة هي التي تظهر أسرار الموحدين عن دنس الأطماع بالثقة بالله، والانقطاع إليه عما سواه.

قال محمد بن علي: الشجرة الطيبة الإيمان أثبتها الله في قلوب أوليائه، وجعل أرضها التوفيق، وسماءها العناية، وماءها الرعاية، وأغصانها الكفاية، وأوراقها الولاية، وثمارها الوصلة، وظلها الأنس، فأصلها ثابت في قلب الولي، وفرعها في السماء ثابتة بالمريد من عند الجبار؛ فالأصل يربي الفرع بدوام الإشفاق والمراقبة، والفرع يهدي إلى الأصل ما يجتنبه من محل المشاهدة والقرب، هكذا أبدا قلب المؤمن وفواده.

قال أبو سعيد الخرازي: خزائن الله في السماء الغيوم، وخزائنه في الأرض القلوب؛ لأن الله خلق قلب المؤمن بيت خزائنه، ثم أرسل ريحًا فهبت فيه فكنسته من الكفر والشرك والنفاق، ثم أنشأ سحابة فأمطرت فيه، ثم أنبت شجرًا، فأثمرت الرضا والمحبة والشكر والصفوة والإخلاص والطاعة وهو قوله تعالى: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾.

الله المطلع لسرائر استعدادات عباده ﴿الْأَمْثَالُ﴾ المذكورة ﴿لِلنَّاسِ﴾ الناس عهودهم ومواثيقهم مع الله يحجب تعييناتهم المستتعبة للإضافات والكثرات ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: 25] رجاء أن يتذكروا ما نسوا من أمثال هذه الأمثال.

﴿و﴾ أيضًا ﴿مَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هي كلمة الكفر المستتعبة لأنواع الفسوق والعصيان، المخالفة لجادة التوحيد ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هي الحنظلة التي ﴿اجْتَثَّتْ﴾ أي: أخذت تنمو جثتها ﴿مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ﴾ بلا استحكام عرقها في الأرض وتعمقها؛ لذلك ﴿مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾⁽¹⁾ [إبراهيم: 26] إذ أدنى الرياح يقلبها كيف يشاء؛ يعني: كما أن الشجرة الخبيثة الغير المستقرة يقلبها الرياح كيف يشاء كذلك اعتقادات الكفرة والفسقة المقلدة يقلبها أدنى رياح الشكوك والشبهات، وتوقعهم في مهاوي الأوهام والخيالات. وبالجمله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ أي: بالإقرار المطابق للاعتقاد ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: حيث بذلوا أرواحهم لإعلاء كلمة الحق ولا ينصرفون عنها ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أيضًا بحيث لا يتلعمشون ولا يضطربون يوم العرض الأكبر، بل في البرزخ أيضًا عند سؤال المنكر والنكير ﴿و﴾ كما يثبت المؤمنين بالإيمان كذلك ﴿يُضِلُّ اللَّهُ﴾ المذل المضل ﴿الظَّالِمِينَ﴾ الذين خرجوا عن ريقه العبودية عنادًا واستكبارًا؛ أي: يثبتهم على الضلال إلى حيث لا يفوزون بالفلاح أصلاً، بل صاروا خالدين في النار أبد الأبد ﴿و﴾ بالجمله: ﴿يَفْعَلُ اللَّهُ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: 27] من الإهداء والإضلال، والإعزاز والإذلال.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ أي: بالإقرار المطابق للاعتقاد ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: حيث بذلوا أرواحهم لإعلاء كلمة الحق ولا ينصرفون عنها ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أيضًا بحيث لا يتلعمشون ولا يضطربون يوم العرض الأكبر، بل في البرزخ أيضًا عند سؤال المنكر والنكير ﴿و﴾ كما يثبت المؤمنين بالإيمان كذلك ﴿يُضِلُّ اللَّهُ﴾ المذل المضل ﴿الظَّالِمِينَ﴾ الذين خرجوا عن ريقه العبودية عنادًا واستكبارًا؛ أي: يثبتهم على الضلال إلى حيث لا يفوزون بالفلاح أصلاً، بل صاروا خالدين في النار أبد الأبد ﴿و﴾ بالجمله: ﴿يَفْعَلُ اللَّهُ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: 27] من الإهداء والإضلال، والإعزاز والإذلال.

(1) قال القشيري: (44/4): والشجرة الخبيثة هي الشوك اجتث من فوق الأرض؛ لأن الكفر متناقض متضاد، ليس له أصل صحيح، ولا برهان موجب، ولا دليل كاشف، ولا علة مقتضية، وإنما شبة وأباطيل وضلال، تقتضي مساوئ وتسويلات ما لها من قرار، لأنها حاصلة من شبة واهية وأصول فاسدة.

وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ [إبراهيم: 28-34].

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي إلى الظالمين المفسدين ﴿إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ الفائضة عليهم من محض فعله وعطائه؛ ليشكروا له ويواظبوا على أداء حقه ﴿كُفْرًا﴾ أي: يصرفونها كفرًا لها إلى البغي والطغيان على الله وعلى خُلُص عباده، مع أن المناسب صرفها إلى إعلاء كلمة الله ونصر دينه ونبيه ﴿وَوَ﴾ لذلك ﴿أَحْلَوْا﴾ وأدخلوا نفوسهم ﴿قَوْمَهُمْ﴾ التابعين لهم المعاندين لكفرهم ﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: 28] أي: الهلاك والخسار.

يعني: ﴿جَهَنَّمَ﴾ التي ﴿يُضِلُّونَهَا﴾ أي: يدخلون فيها أذلاء مهانين مقهورين، لا نجاة لهم منها أصلاً ﴿وَيُثَسِّسَ الْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: 29] والمقر مقرهم الذي هو جهنم الطرد والخذلان.

ومن خبث بواطنهم ﴿وَوَ﴾ شدة شكيمتهم ﴿جَعَلُوا لِلَّهِ﴾ المتوحد في ذاته ﴿أَنْدَادًا﴾ شركاء من أظلاله ومصنوعاته ﴿لِيُضِلُّوا﴾ ضعفاء الأنام ﴿عَنِ سَبِيلِهِ﴾ الذي هو دين الإسلام الموصل إلى توحيد الله ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿تَمَتُّعُوا﴾ أيها المفسدون بما أنتم عليه من الكفر والعناد ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ﴾ ومآل أمركم ﴿إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: 30] المعدة لتخذيكم وجزائكم.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بجميع ما جئت به إليهم من أمور الدين سيما الصلاة المصفية لبواطنهم والزكاة المزكية لظواهرهم كذلك: ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: يذيموها في الأوقات المفروضة فيها ﴿وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ على المستحقين ﴿سِرًّا﴾ بلا سبق سؤال ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ بعد السؤال، استعدوا أيها الطالبون للنجاة لأخراكم في أولاكم، وأعدوا زاد عقباكم ﴿مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بِنِعْمَةٍ فِيهِ﴾ ليتدارك المقصر بالإتفاق والصدقة بعض تقصيراته ﴿وَلَا﴾ يقبل فيه ﴿خِلَالٌ﴾ [إبراهيم: 31] أي: شفاعة من خليل حميم يشفع للجرائم والتقصيرات.

وكيف لا تستعدون بعدما أمركم الله بإعداده ووفق أسبابه عليكم؛ إذ ﴿الله﴾ الموفق لعباده أسباب معادهم هو المدير المصلح ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ﴾ أي: العلويات المعدة للإحاطة ﴿وَالْأَرْضِ﴾ أي: السفليات القابلة للفيض ﴿وَأَنْزَلَ﴾ أي: أفاض ﴿مِنْ﴾ جانب ﴿السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ﴾ أنواع ﴿الشَّجَرَاتِ﴾ لتكون ﴿رِزْقًا لَكُمْ﴾ مقوماً لمزاجكم، مبقياً لحياتكم؛ لتواظبوا على طاعة الله وإعداد زاد يوم المعاد ﴿وَمَعَ ذَلِكَ﴾ ﴿سَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ﴾ أي: السفن الجارية ﴿لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ أي: بمشيئته وإرادته؛ لتسيروا معها إلى حيث شئتم وتتجروا بها وتربحوا ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ﴾ أيضاً ﴿الْأَنْهَارَ﴾ [إبراهيم: 32] الجارية على بسيط الأرض؛ ليسهل لكم إخراج الجداول منها للحرثة والزراعة.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ﴾ أيضاً ﴿الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ مختلفين في سيرهما شتاء وصيفاً خريفاً وربيعاً؛ لانضاج ما تحرثونه وتزرعونه ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: 33] كسباتكم ومعاشكم.

﴿ز﴾ بالجملة: ﴿آتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾⁽¹⁾ بلسان استعداداتكم وقابلياتكم من متممات نفوسكم ومكملات إدراككم ﴿وَمِنْ﴾ بلغ إنعامه سبحانه إياكم في الكثرة إلى حيث ﴿إِنْ تَعُدُّوا﴾ وتحصوا ﴿نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ الفائضة عليكم لتربيتمكم ﴿لَا تُحْصَوْهَا﴾ أي: لا يسع لكم إحصاؤها من كمال كثرتها ووفورها، فلکم أن تواظبوا على شكرها وأداء حق شيء منها، وإن كانت القوة لا تفي بأدائها، لكن قليلاً منكم يشكرون نعمه ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ المجبول على الغفلة والنسيان في أصل فطرته باعتبار قوى بشريته وبهيئته

(1) قال الشيرازي: إن الله تعالى أعطاك أكبر ما في خزائنه وأجله وأعظمه من غير سؤال وهو التوحيد؛ فكيف يمنعك ما هو دونها من الثواب والعافية بسؤال؛ فاجتهد أيها العبد أن لا يكون سؤالك إلا منه، ولا رغبتك إلا به، ولا رجوعك إلا إليه؛ فإن الأشياء كلها له فمن شغله بغيره عنه فقد قطع عليه طريق الحقيقة، ومن شغله به جعل الأشياء كلها طلوع يديه؛ فتقلب له الأعيان ويقرب له البعد؛ فيمشي حيث أحب؛ ويخبر عما أراد؛ وهذا من مقامات العارفين. وقال بعضهم: وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها عد نعمة من نعمه يعجز عن الإحصاء؛ فكيف إذا تابعه النعم. قيل: أجل النعمة استواء الخلقة، وإلهام المعرفة، والذكر من بين سائر الحيوان، ولا يطبق القيام بشكرها أحد. وقيل: إن الإنسان لظلوم لنفسه، حيث ظن أن شكره يقابل نعمة كفار محجوب عن رؤية الفضل عليه في البدء والعافية. وقال سهل: وإن تعدوا نعمة الله عليكم بمحمد ﷺ لا تحصوره، بأن جعل السفير فيما بينكم وبينه السفير الأعلى والواسطة الأدنى.

﴿ظَلُّومٌ﴾ أي: مظلوم محزون عند الشدة وهجوم البلاء ﴿كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: 34] مبالغ في الكفران والنسيان وقت الفرح والسرور.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَا كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٣٦ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الشَّجَرِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ٣٧ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا تُخْفِي وَمَا تُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ٣٨ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ الدَّلِيلُ ٣٩﴾ [إبراهيم: 35-39].

﴿و﴾ اذكر يا أكمل الرسل وقت ﴿إِذْ قَالَ﴾ جدك ﴿إِبْرَاهِيمُ﴾ حين ناجى مع الله بعدما عمر مكة: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ﴾ التي تأمرني بتعميرها؛ يعني: مكة ﴿آمِنًا﴾ ذا أمن وأمان من تخريب العدو وتغييرها ﴿وَاجْنُبْنِي﴾ أي: بعدني ﴿وَبَنِيَّ﴾ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ [إبراهيم: 35] بتسويلات الأهوية الفاسدة والشياطين المضلة.

﴿رَبِّ إِنَّهُمْ﴾ أي: الأوثان والأصنام بإظهارك بعض الخوارق عليها ﴿أَضَلُّنَا﴾ وصرفن ﴿كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ عن جادة توحيدك ﴿فَمَنْ تَبِعْنِي﴾ بعدما دعوتهم إلى توحيدك ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ وعلى ملتي وديني ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ ولم يقبل قولي وأصر على ما هو عليه ﴿فَإِنَّكَ﴾ بمقتضى جودك وفضلك ﴿غَفُورٌ﴾ قادر على العفو والمغفرة عن جميع المعاصي ﴿رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: 36] ترحمهم بمقتضى سعة رحمتك وحلمك.

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أي: بعضًا منها وهو إسماعيل وبنوه ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ إذ هي حجرية لا زرع فيها ولا حرث ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ سمي به؛ إذ حرمت فيه المقاتلة والصيد والتعرض والتهاون مطلقًا حفظًا فيه؛ لذلك لا يزال معظمًا مكرمًا يهابه الجبابرة، وإنما أسكنتهم عنده؛ ليكنسوا بيتك من الأقدار، ويصفوه من الأقدار ﴿رَبَّنَا﴾ إنما أسكنت ذريتي عند بيتك ﴿لِيُقِيمُوا﴾ ويقيموا ﴿الصَّلَاةَ﴾ المقربة نحو جنابك وفناء بابك ﴿فَاجْعَلْ﴾ بمقتضى فضلك وجودك ﴿أَفْئِدَةً﴾ أي: وفدًا كثيرًا وقفلاً ﴿مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي﴾ أي: تميل وتتوجه ﴿إِلَيْهِمْ﴾ من الجوانب ﴿وَارْزُقْهُمْ مِّنَ﴾

أنواع ﴿الشَّمَرَاتِ﴾ المهداة إليهم من البلاد البعيدة، يأتي بها الزوار والتجار ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: 37] نعمتك ويواظبون على طاعتك وخدمة بيتك عن فراغ القلب.

﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا بأنواع اللطف والكرم ﴿إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي﴾ من حوائجنا ﴿وَمَا نُغْلِي﴾ أي: ما لنا علم به؛ إذ أنت أعلم بحوائجنا منا؛ إذ علمك بنا وبجميع مظاهره حضوري ذاتي، ولا علم لنا بذاتنا كذلك، بل نحن عاجزون عن إدراك أنفسنا كعجزنا عن إدراك ذاتك يا مولانا، لذلك قال ﷺ: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»⁽¹⁾ ﴿و﴾ كيف يخفي عليك حوائجنا؛ إذ ﴿مَا يَخْفَى﴾ ويستر ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ المحيط بكل الأشياء ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ لذلك ظاهر ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: 38] وكيف خفي عليه شيء؛ إذ هو عالم بها، مظهر لها، لا يعزب عنه شيء منها.

﴿الْحَمْدُ﴾ والمنة ﴿لِلَّهِ الَّذِي هَبَ لِي﴾ من يخلفني ويحيي اسمي حين آيست؛ إذ بلغ سني ﴿عَلَى﴾ كمال ﴿الْكِبَرِ﴾ والهرم ﴿إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ روي أنه ولد له إسماعيل لتسع وتسعين سنة، وإسحاق لمائة واثني عشرة سنة ﴿إِنْ رَبِّي﴾ الذي رباني بأنواع الكرم وشرفني بخلة الخلعة والحلم ﴿لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: 39] الذي صدر عن لسان استعدادي ومجيبه بطلب من يخلفني ويقوم مقامي.

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾ ﴿١٠﴾ ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ ﴿١١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَفُولًا عما يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمَ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿١٢﴾ مُتَطَهِّرِينَ مُقْنِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿١٣﴾ [إبراهيم: 40-43].

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ على وجه الخضوع والخشوع والتبتل والإخلاص ﴿و﴾ اجعل ﴿مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أيضًا من يقيمها على الوجه المذكور ﴿رَبَّنَا﴾ استجب مني ﴿وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾ [إبراهيم: 40] في حقي وحق أولادي.

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي﴾ بفضلك؛ إذ لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً ﴿وَلِوَالِدَيَّ﴾ وللمؤمنين ﴿جميعاً﴾ واعف بمقتضى جودك عن زلتي وزلاتهم ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾

(1) رواه أبو نعيم في «الحلية» (208/10).

[إبراهيم: 41] وينشر الديوان، ويحاسب كل على ما كسب من العصيان.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ يا أكمل الرسل ﴿الله﴾ المطلع على سرائر الأمور وخفياته ﴿غَافِلًا﴾ ناسيًا ذاهلاً ﴿عَمَّا يَفْعَلُ الظَّالِمُونَ﴾ الخارجون عن حدود الله بإمهالهم زمانًا، بل ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ ويسوف عذابهم ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ﴾ وتتحير ﴿فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: 42] وصاروا من شدة الهول والمهابة لا يقدرّون على أن يطرفوا عيونهم، بل تبقى مفتوحة حائرة كعيون الموتى، كأنهم قد انقطعت أرواحهم عن أجسادهم.

وهم مع هذه الحيرة والدهشة ﴿مُهْطِعِينَ﴾ مسرعين نحو المحشر، حيارى سكارى ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ أي: رافعيها نحو السماء، مترقبين لنزول البلاء، مدهوشين هائمين بحيث ﴿لَا يَزِيدُ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ لشدة ولههم وهيمانهم ﴿وَوَ﴾ في تلك الحالة ﴿أَفْتَدَتْهُمْ﴾ وقلوبهم التي هي محل الأمان والخيالات ﴿هَوَاءَ﴾ [إبراهيم: 43] أي: خالية، لا يخطر ببالهم شيء مطلقًا وإن كانت لا تخلو عن الأخطار أبدًا.

﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ فيقول الذين ظلموا ربّنا آخِرنا إلى أجل قريب ﴿ثُمَّ دَعَوْتَكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ أُولَئِكَ تَكُونُوا آفَئِسْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ۝ وَمَكَرْتُمْ فِي مَسْكِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ۝ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: 44-46].

﴿وَوَ﴾ متى سمعت يا أكمل الرسل أهوال يوم القيامة وأحوال الأنام فيها ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ﴾ الناسين عهود الحق ومواريثه التي عهدوا معه في بدء فطرتهم أي شيء يفعلون ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ في اليوم الموعود، وحينئذ انقطعت أسباب النجاة وتدابير الخلاص ولا يسع لهم التدارك أصلاً ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بتكذيب الله وتكذيب رسله حين رأوا العذاب، مناجين متضرعين متمنين: ﴿رَبَّنَا أَخْرِزْنَا﴾ أي: أعدنا وأرجعنا إلى الدنيا وأمهلنا فيها ﴿إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي: أيام قلائل ﴿ثُمَّ دَعَوْتَكَ﴾ ونقبلها عن السنة رسلك ﴿وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ ونصدقهم بجميع ما جاءوا به من عندك فيقال لهم على سبيل التهكم والتقريع: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا﴾ أيها الظالمون المسرفون ﴿أَفَئِسْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ في دار الدنيا بطرين مغرورين ﴿مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: 44]

أي: ما لنا وبال ولأموالنا زوال، وما لنا عن أماكننا ارتحال وانتقال.

﴿وَمَعَ قَوْلِكَ هَذَا وَبَيِّنْكَ عَلَيْهِ﴾ ﴿مَكَتُّمْ﴾ وَتَمَكَّتُمْ أَيُّهَا الْمُسْرِفُونَ الْمَفْرُطُونَ ﴿فِي مَسَاكِنِ الدِّينِ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ قَبْلَكُمْ أَمْثَالَكُمْ مِثْلُ: عَادَ وَثَمُودَ وَهُمْ أَيْضًا، مُقْسِمِينَ بِمَا أَقْسَمْتُمْ ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ﴾ وَظَهَرَ عِنْدَكُمْ الْآنَ ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ وَكَيْفَ انْتَقَمْنَا عَنْهُمْ وَاسْتَأْصَلْنَاهُمْ ﴿وَمِنْ صَارَ أَمْرُ إِهْلَاكِهِمْ مِنَ الْفَضَاحَةِ إِلَى أَنْ﴾ ﴿ضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: 45] لَتَعْتَبِرُوا عَنْ حَالِهِمْ وَتَتْرَكُوا أَعْمَالَهُمْ؛ لئلا تُتَقَمُوا أَمْثَالَهُمْ، وَمَنْعَ ذَلِكَ لَمْ تَعْتَبِرُوا وَلَمْ تَتْرَكُوا، فَالآنَ تَصَابُونَ وَتَوَاضِعُونَ بِأَشَدِّ مِمَّا أَصَابُوا وَأَخَذُوا.

﴿وَمِنْ لَا يَفِيدُكُمْ الْيَوْمَ الْمَكْرَ وَالْحِيلَةَ كَمَا لَا يَفِيدُ لَهُمْ مَكْرُهُمْ حِينَ أَخَذَهُمْ؛ إِذْ﴾ ﴿قَدْ مَكَّرُوا مَكْرَهُمْ﴾ الَّذِي خِيلَوْهُ دَلَائِلَ قَاطِعَةٍ وَظَنُّوهُ بِرَاهِمِينَ سَاطِعَةٍ ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ﴾ مَكْرُهُمْ ﴿أَيُّ: لَمْ يَفْهَمُوا أَنَّ عِنْدَ اللَّهِ مَسْبَحَانَهُ مَا يَزِيلُ مَكْرَهُمْ وَحِيلَهُمْ﴾ ﴿وَإِنْ كَانَ﴾ مَكْرُهُمْ ﴿فِي الْمَتَانَةِ وَالْقُوَّةِ﴾ ﴿لَتَنَزَّلَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: 46] إِذْ لَا يَعَارِضُ فَعْلَهُ وَلَا يَنَازِعُ حُكْمَهُ، بَلْ لَهُ الْغَلْبَةُ وَالْإِسْتِيلَاءُ وَالتَّعَزُّزُ وَالْكَبْرِيَاءُ.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٥٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٥٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٥٩﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ وَتَنْشِقُ وُجُوهُهُمْ النَّارُ ﴿٦٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٦١﴾ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ هَؤُلَاءِ وَحْدَهُ وَلَيْدٌ كَرُّوا لَوْلَا الْآلَتِ ﴿٦٢﴾ [إبراهيم: 47-52].

وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ﴾ الْقَادِرُ الْمُقْتَدِرُ عَلَى كُلِّ مَا أَرَادَ وَشَاءَ ﴿مُخْلِفَ﴾ إِنْجَازِ ﴿وَعْدِهِ﴾ الَّذِي وَعَدَ بِهِ ﴿رُسُلَهُ﴾ مِنْ إِهْلَاكِ عَدُوِّهِمْ وَتَعْلِيهِمْ بِأَشَدِّ الْعَذَابِ ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ الْمَتَرَدِيَّ بِرَدَاءِ الْعِظَمَةِ وَالْكَبْرِيَاءِ ﴿عَزِيزٌ﴾ غَالِبٌ قَادِرٌ عَلَى جَمِيعِ مَرَادَاتِهِ وَمَقْدُورَاتِهِ ﴿ذُو انْتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: 47] شَدِيدٌ عَلَى مَنْ أَرَادَ انْتِقَامَهُ وَيَطْشُهُ مِنْ أَعْدَائِهِ نَصْرَةً عَلَى أَوْلِيَائِهِ.

قُلْ لَهُمْ يَا أَكْمَلُ الرُّسُلِ: لَا تَغْتَرُّوا عَنْ إِهْوَائِ اللَّهِ لِإِيَّاكُمْ أَيُّهَا الْمُسْرِفُونَ فِي دُنْيَاكُمْ؛ إِذْ يَنْتَقِمُ عَنْكُمْ ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ﴾ وَتَغْيِيرُ تَغْيِيرًا كَلِيًّا، بَأَنَّ دَكَّتِ الْجِبَالُ دَكًّا وَصَارَتْ مَسَوًى لَا عَوْجَ لَهَا وَلَا أَمْتًا، وَصَارَتْ ﴿غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ الَّتِي كَانَتْ قَبْلَ هَذَا ﴿وَمِنْ طَوَيْتِ

﴿السَّمَوَاتِ﴾ المحسوسة، وانتشرت الكواكب، وكورت الشمس، فصارت أيضًا غير تلك السماوات، وبالجمله: تضعضعت أركان العالم وتغيرت أوضاعها وأشكالها وضمحلّت آثارها وتلاشت أجزاءها، وتداخلت أرجاؤها وأقطارها ﴿وَيَرْزُوا﴾ أي: ظهوروا وخرجوا أي: الأموات من أحداث أجسادهم بعد خلع تعيناتهم وجلباب هوياتهم ﴿لِلَّهِ﴾ المظهر لهم الظاهر فيهم ﴿الْوَّاحِدِ﴾ في ذاته وصفاته وأحواله وجميع شئونه وتجلياته، المستقل في وجوده ﴿الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: 48] للأغيار والسوى مطلقًا.

﴿وَتَرَى﴾ حيثُ ﴿الْمُجْرِمِينَ يَوْمِئِذٍ﴾ الذين أجرموا بالله بإثبات الوجود لغيره وإسناد الحوادث إلى أسبابها العادية ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ مقيدين ﴿فِي الْأَصْفَادِ﴾ [إبراهيم: 49] أي: سلاسل التقليدات والتقييدات وأغلال التعينات والتخمينات.

﴿سَرَابِيلُهُمْ﴾ أي: قمائن تعيناتهم وتشخصاتهم ﴿مِّن قَطْرَانٍ﴾ أي: من غرايب الظلمة العدمية، وهو في اللغة: دهن الأبهل والعرر، كالزفت أسود في غاية السواد، متن نته في غاية الكراهة ﴿وَتَغْشَى﴾ أي: تستر ﴿وَجُوهَهُمْ﴾ التي تلي الحق ﴿النَّارِ﴾ [إبراهيم: 50] أي: نار البعد والحرمان وسعير الخذلان والخسران.

وما ذلك؛ أي: انتقامهم وأخذهم إلا ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ﴾ الحكيم العليم المتقن في أفعاله ومأموراته ومنهياته وجميع تدبيراته ﴿كُلَّ نَفْسٍ﴾ متعينة بتعين مخصوص ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ وامثلت ما أمرت به ونهيت عنه أو أعرضت ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ الرقيب على عباده، المطلع لجميع أفعالهم ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [إبراهيم: 51] يحاسبهم ويجازيهم على مقتضى حسابه عدلاً منه.

﴿هَذَا﴾ أي: ما ذكر من أوصاف يوم القيامة وأحوالها وأفزاعها ﴿بَلَاغٍ﴾ أي: تذكرة كافية وموعظة وافية ﴿لِلنَّاسِ﴾ الذين نسوا طريق التوحيد وأعرضوا عنها بعروض الغفلة لهم، فليتعظوا ﴿وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾⁽¹⁾ عن المعاصي والإجرام حتى لا يؤاخذوا عليها،

(1) إن قلت: هذا الإنذار داخل في البلاغ؛ فهو تكرار.

قلت: إن البلاغ إنما هو بالنسبة إلى الأحكام العملية الداخلة تحت الأوامر الإلهية، والإنذار بالنظر إلى المنكرات الداخلة تحت النواهي؛ لأن الإنذار إعلام وتخويف، ولا تخويف إلا حيث العصيان، وفعل المنهي، والمخوف به؛ هو العذاب الجسماني والروحاني، وأما الجسماني بإحراق النار الصورية، وأما الروحاني فهو بإحراق النار المعنوية؛ وهي تجلي الجلال، ومن آثاره البعد والقطيعة، فكما أن أهل الجمال مقرَّبون؛ لينظروا إلى الجمال الإلهي؛ فكذا أهل

وليجنبوا عن الشرك ولا يركنوا إليه ﴿وَلْيَعْلَمُوا﴾ عموم العباد إيماناً وإذعاناً ﴿أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ يُعبد بالحق ويُرجع إليه إلى أن ينكشفوا بالحقيقة الحقية ﴿وَلْيَذْكُرْ﴾ خصوصاً ﴿أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [إبراهيم: 52] الناظرين بنور الله، الفانين به، الباقيين ببقائه. جعلنا الله ممن ذكر له فتذكر، وتحقق في مقر التوحيد وتقرر.

خاتمة السورة⁽¹⁾

الجلال مبعدون؛ ليحجبون عنه كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَنْجُونُونَ﴾ [المطففين: 15]، ثم هذا البعد اعتباري؛ لعدم ظهور آثار القرب، وإلا فالله قريب من عباده أينما كانوا، وأما هم فممنهم قرياء، ومنهم أقارب، ومنهم أباعد على طبقات مختلفة بحسب كشفهم، واحتجابهم، ودخل تحت التبليغ، والإنذار دعوة الجن، وإنذارهم أيضاً، والفرق بينهم، وبين الإنس: إن الإنس مُبَشَّرُونَ، كما أنهم منذرون، وأما الجن: فمئلرون فقط، دل عليه قوله تعالى حكاية: ﴿وَيُجْزَكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: 31] حيث خُصَّ الإجارة بالذكر، وطوى ذكر الإدخال في الجنات.

(1) قال في التأويلات: ﴿الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ [إبراهيم: 1] قال جعفر عهد خصصت به فيه بيان سالف الأمم وأحوالهم ونجاة أمك عنهم ﴿لِخُرْجِ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: 1] من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، ومن ظلمة البدعة إلى نور السنة ومن ظلمات النفوس إلى أنوار القلوب، وقال أبو بكر بن طاهر: من ظلمة الظن إلى أنوار الحقيقة، قال أبو جعفر: من ظلمة رؤية العقل إلى نور رؤية العقل.

وفي قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: 2] قال الواسطي: الكون كله له، من طلب الكون فاته المكون ومن طلب الحق فوجده سخر له الكون بما فيه. قوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَجِيبُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: 3] قال أبو علي الجوزجاني: من أحب الدنيا حرم عليه الآخرة، ومن طلب الآخرة حرم عليه طريق النجاة، ومن طلب طريق النجاة حرم عليه رؤية فضل الله، ومن طلب طريق رؤية الفضل حرم عليه الوصول إلى المتفضل. قوله: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7] مثل ابن عطاء عن هذه الآية قال: إذا وردت الأشياء إلى مصادرها من غير حضور منك لها تقديم الشكر، وقال الجوزجاني: لئن شكرتم الإسلام لأزيدنكم الإيمان، ولئن شكرتم الإيمان لأزيدنكم الإحسان، ولئن شكرتم الإحسان لأزيدنكم المعرفة، ولئن شكرتم المعرفة لأزيدنكم الوصلة، ولئن شكرتم الوصلة لأزيدنكم الأنس، وقال الحريري: كمال الشكر في مشاهدة العجز عن الشكر.

وردني عن داود رحمه الله قال: «يا رب كيف أشكرك وشكري لك تجلبد نعمة منك علي؟ قال: يا داود الآن شكرتني»، قال ابن عطاء: لئن شكرتم هدايتي لأزيدنكم خدمتي، ولئن شكرتم خدمتي

لأزيدنكم مشاهدتي، ولئن شكرتم لأزيدنكم ولايتي، ولئن شكرتم لأزيدنكم رؤيتي، وعن جعفر الصادق عليه السلام قال: إذا سمعت النعمة الشكر تأهبت للمزيد.

قوله: ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: 7] ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: 8] قال الواسطي: ليس الإيمان يقرب إلى الحق ولا الكفر يبعد عنه، لكن جرى به الأمر في الأزل بالسعادة والشقاوة فظاهر الإيمان والكفر إعلام الحقائق والحقائق القضاء الذي سبق الدهور لا الأزمان.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [إبراهيم: 19] قال سهل: خلق الأشياء كلها بقدرته وزينها بعلمه وأحكمها بحكمه، فالناظر من الخلق إلى الخالق يتبين له من الخالق عجائب الخلقة، والناظر من الخلق إلى الخلق يكشف له عن إشارة أنوار حكمته وبدائع متعته. وقال ابن عطاء: الكلمة الطيبة قوله: لا إله إلا الله على التحقيق، والشجرة الطيبة هي التي تظهر أسرار الموحدين عن دنس الأطماع بالتعبد لله والانقطاع إليه عما سواه، وقال محمد بن علي الباقر: الشجرة الطيبة الإيمان أنبتا الله تعالى وجعل أرضها التوفيق، وسماؤها العناية، وماؤها الرعاية، وأغصانها الكفاية، وأوراقها الولاية، وثمارها الوصلة، وظلها الأنس فأصلها ثابت في قلب المؤمن، وفرعها في السماء ثابت بالمريدين عند الجبار، فالأصل يرد الفروع بدوام الإشفاق والمراقبة والفرع يهدي إلى الأصل بالخشية من محل الشهادة والقرب هكذا أبدًا قلب المؤمن وفؤاده.

قال أبو سعيد الخراز: وخزائن الله في السماء الغيوب وخزائنه في الأرض القلوب؛ لأن الله تعالى جعل قلب المؤمن بيت خزائنه، ثم أرسل ريحًا فهبت فيه فكنه عن الكفر والشرك والنفاق؛ لأن الله تعالى جعل قلبًا ثم أنبت شجرة فثمرت الرضا والمحبة والصفوة والإخلاص والطاعة وهو قوله: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَضَلُّهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: 24] وذكر كل شيء من الدنيا إذا لم يكن لها حظ من الآلاء جف والشجر الذي في قلب المؤمن يجف إذا لم يسقها بماء التوبة ثم بماء الرحمة من فوق فيكون طريًا شهيقًا ثم يأتيه ثلاثة أشياء: طريق العبودية في النفس، وطريق المحبة في القلب، وطريق الذكر في السر فخدمة النفس الطاعة، وخدمة القلب النية، وخدمة السر المراقبة على الدوام، ثم يمطر عليها أمطار على النفس مطر الهداية، وعلى اللسان مطر اللطافة، وعلى القلب مطر العظمة، وعلى السر مطر النعمة، وعلى الروح مطر الكرامة، فينبت مطر اللسان الشكر والثناء، ومن مطر النفس الطاعة، ومن مطر القلب الصدق والصفاء، ومن مطر السر الشوق والحياء، ومن مطر الروح الرؤية والبقاء. قال محمد بن علي: الشجرة الخبيثة اللسان ما لم يقطعها المؤمن بسيوف الخوف فإنها تثمر أبدًا الكلمة الخبيثة، وقال بعضهم: الشجرة الخبيثة النفاق وهي التي لا تقر قرارًا حتى تهوي صاحبها في النار. وقال ابن عطاء: الشجرة الخبيثة الغيبة والبهتان وهما يفتحان على الإنسان باب الكذب والهجاء، وقال جعفر: الشجرة الخبيثة الشهوات وأرضها النفوس وماؤها الأمل وأوراقها الكسل وثمارها المعاصي وغايتها النار. وقال الواسطي في قوله: ﴿يَتَّبِعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا﴾ [إبراهيم: 27] الإيمان أي: فإن حقيقة مضاد الروح الإيمان وإيمان محبة عن ظلمات الروح وذلك استثناء من استثناء في إيمانه كيف يأمنه العبد وهو لا يخلف الميعاد ويثبت الله الذين آمنوا على مقدار المواجيد يكون الخوف والأمن ولم ينزع عن أحد الخوف ولا انقلب منه أحد الخطيئة، وما من أحد يسمى إلا يخاف عقابها أي: عقى سعيه فمن يثبت بالقول الثابت في الحياة الدنيا تسقط عنه تلك المخاوف وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْآنَهَارَ﴾ [إبراهيم: 32] قال الصادق:

وسخر لكم السموات بالأمطار، والأرض بالنبات، والبحر أن يتخذ تنورًا وسحرًا.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ [إبراهيم: 33] تدوران عليك وتوصلان إليك منافع السموات والنبات والزرور وسخر لكم قلب المؤمن لمحبه ومعرفة وخاصة الله من العباد القلوب لا غير؛ لأنها موضع نظره ومستودع أمانته ومعرفة إفاضة أسرار. قال يحيى بن معاذ في قوله تعالى: ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: 34] إن الله أعطاك أكبر ما في خزائنه وأجمله وأعظمه أعطاك من غير سؤالك وهو التوحيد فكيف يمنعك ما هو دونها من الثواب والعاقبة بسؤالك؟ فاجتهد أيها العبد ألا يكون سؤالك إلا منه ولا رغبتك ولا رجوعك إلا إليه فإن الأشياء كلها له فمن شغل بغيره فقد تقطع عليه طريق الحقيقة، ومن شغل منه جعل الأشياء كلها طوع يده فتقلب الأعيان ويقرب له البعيد ويمشي حيث أحب ويجري كما أراد، وهذا من مقامات العارفين. وقال بعضهم في قوله: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا﴾ [إبراهيم: 34] أي: عد نعمة من نعمه يعجز عن الإحصاء فكيف إذا تابعت النعم؟ وقيل: أجل النعم استواء الخلقة وإلهام المعرفة والذكر من بين سائر الحيوان ولا يطبق القيام لشكرها أحد، وقيل: إن الإنسان لظلم لنفسه شيطان، إن شكره يقابل نعمه كفار محجوب عن رؤية الفضل عليه في البداية والتعاقب، وقال سهل: وإن تعدوا نعمة الله بمحمد ﷺ لا تحصوها بأن جعل السفر فيما بينه وبين السنة الأعلى والواسطة الأولى. وقال ابن عطاء: أجل النعم رؤية معرفة النعم ورؤية التفسير في القيام لشكر النعم، وقال: النعمة أزلية كذلك يجب أن يكون الشكر أزليًا، واعلم أن لك نفسًا وقلبًا وروحًا فنعمة النفس الطاعة، ونعمة القلب اليقين، ونعمة الأرواح الحكمة، ونعمة المحبة الذكر، ونعمة المعرفة الألفة والنفس في أبحر الطاعات تتنعم والقلب في أبحر النعم، والمعرفة في بحر القرية والعيان بتنعم. وروي عن علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر بن محمد في قوله: ﴿زَبَّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [إبراهيم: 35] يعني: أقله العارفين اجعلهم آمين من الشرك آمين من قطيعتك.

وقوله: ﴿وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [إبراهيم: 37] قال: أرزقهم شكر ما أوليتهم من معرفتك، ﴿وَاجْعَلْنِي رِزْقًا وَأَجْعَلْ لِي رِزْقًا﴾ [إبراهيم: 35] أي: نعبده الهوى. قال الدنيوري: مجارية الأصنام مختلفة، فمنهم من صنمه نفسه، ومنهم من صنمه ماله، ومنهم من صنمه ولده، ومنهم من صنمه أقاربه، ومنهم من صنمه زوجته ومنهم من صنمه ضيعة، ومنهم من صنمه صلاته وزكاته وحججه وصيامه، ومنهم من صنمه حاله، والأصنام مختلفة وكل واحد من الخلق مربوط بصنم من هذه الأصنام والتبرؤ هو ألا يرى الإنسان لنفسه خلأ ولا مجالاً لا يعبد من أفعال

شيئاً ولا يسكن من حاله إلى شيء، رافعاً على نفسه باللوم في جميع ما يبدو منها من الخير والشر غير راضٍ به، وقال جعفر: لا تردني إلى مشاهدة الخلّة ولا ترد أولادي إلى مشاهدة النبوة. وقال ابن عطاء في قوله: ﴿وَاجْتَنِي وَنِي﴾ [إبراهيم: 35] قال: إن الله أمر إبراهيم ﷺ ببناء الكعبة فلما بناها قال: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ [البقرة: 127] فأوحى الله إليه: «يا إبراهيم أمرتك ببناء البيت وخصصتك من الأنبياء بذلك، ومنتت عليك ووفقتك لما وفتقتك له، ودفعت عنك النار، فقل له: ألا تستحي أن تمن عليّ وتقول: ربنا تقبل منا، فثبتت متي عليك وذكرت رؤية فعلك وممتلك» فمن أجل ذلك قال: ﴿وَاجْتَنِي وَنِي أَنْ تُغَيِّدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: 35] قال: إن نفسي أشد صنم وشرها إذا تابعت هواها واشتغلت بحفظها فاشتغلها بك واقطعها عما سواك. وقال الجنيد: وامنعني وبني أن نرى لأنفسنا وسيلة إليك، عند الافتقار، وقال ابن عطاء: الأصنام الخلّة والركون إليها وهي خطرات الغفلة وحجاب الخلّة، وقال أيضاً: هي النفس لأن لكل نفس صنمها من الهوى إلا من ظهر بأنواع التوفيق. وقال في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُبْعَثْ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [إبراهيم: 36] لما ذهب فمن استبشر رافة للمؤمنين قيل له: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ قال في قوله: ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ [إبراهيم: 36] لم يطع ولكن قال: فإن من صفتك الغفران والرحمة وليس على العباد.

وقال في قوله: ﴿فَأَجْعَلْ أَقْنِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: 37] من انقطع عن الخلق بالكلية صرف الله إليه وجوه الخلق وجعل مودته في صدورهم ومحبه في قلوبهم وذلك من دعاء الخليل لما انقطع بأهله عن الخلق والأقارب والأسباب دعاهم فقال: ﴿فَأَجْعَلْ أَقْنِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: 37]. وقال الخواص في قوله: ﴿وَرَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ [إبراهيم: 38] ما نخفي من حبك وما نعلن من شكرك، وقال ابن عطاء: ما نخفي من الأحوال وما نعلن من الأدب، قال أبو عثمان: ظهر شرك وأعمر باطنك وأصلح خفيات أمورك، فإن الله لا يخفي عليه شيء وهو الذي يعلم ما نخفي وما نعلن. وقال أحمد بن خضرويه: لو أذن الله لي في الشفاعة ما بدأت إلا بظالمي، قيل له: فكيف؟ قال: لأنني قلت بظالمي لم أقله بوالدي، قيل: وما ذلك؟ قال: لعن الله تعالى في قوله: ﴿وَلَا تُخْسِبَنَّ اللَّهُ عَافِيًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ [إبراهيم: 42] وقال بعض المتقدمين: الظلم على ثلاثة أوجه: ظلم مغفور، وظلم محاسب، وظلم غير مغفور، فالظلم المغفور: ظلم الرجل نفسه، والظلم المحاسب: ظلم أخاه، والظلم الذي لا يغفر: هو الشرك.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْنِدُهُمْ هَوَاءَ﴾ [إبراهيم: 43] قال ابن عطاء: هذه صفة قلوب أهل الحق ألا ترى أن الهوى قائم بالمشيئة والإرادة غير قائمة بعلائق فوقهما كذلك قلوب أهل الحق متعلقة به لا يقر إلا معه ولا يسكن إلا إليه ليس في قلوبهم محل لغير الله لا يساكن هوى الله ومثل قلوبهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: 88] لا يلتفت إلى سواه ولا له قرار مع غير الله.

وفي قوله ﴿وَسَكَّنْهُمْ فِي مَسَاكِينِ الدِّينِ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [إبراهيم: 45] قال أبو عثمان: مجاورة

عليك أيها اللبيب المتذكر لمرتبة الأحدية التي هي ينبوع بحر الوجود أن تذكر وتتعمق بمواعظ الكتاب الإلهي من مواعيده وإنذاراته وحكمه وأسراره؛ لتتفطن بتطوراتهِ وتجلياته، وشئونه في مراتب تنزلاته؛ حتى يسهل لك التيقظ من المنامات العارضة والغفلات الطارئة عليك من الإضافات الحاصلة بين الشئون والتجليات المبعدة عن صرافة الوحدة الذاتية، ويتيسر لك الوصول إلى منبع جميع الأسماء والصفات، المستتعبة لأنواع الكثرات، ومرجع جميع الكائنات والفاقدات المترتبة عليها.

فاعلم أيها الطالب القاصد لسلوك طريق الهداية الموصلة إلى صفاء التوحيد الذاتي أن التوجه إليها والوقوف على أماراتها لا يتيسر إلا بعد تنبيه منه نبيه، وإرشاد مرشد كامل خبير بصير.

لذلك جرت عادة الله، واستمرت سنته السنية على إرسال الرسل والأنبياء المؤيدين بالكتب والصحف؛ لتمكن لهم إرشاد الناقصين المنحطين عن درجة التدبر والتدرب في غوامض طرق العرفان ومغالق مسالك التوحيد، ومع ذلك لا يتيسر لهم إلا البلاغ من التبليغ والتوفيق، إنما هو من عند العزيز العليم.

وأكملُ الرسل نبينا ﷺ، وأفضلُ الكتب القرآن الجامع المنزل عليه، الناسخ لجميع ما نزل قبله من الكتب؛ لذلك قال سبحانه على سبيل العموم: ﴿هَذَا﴾ [إبراهيم: 52] أي: القرآن ﴿بَلَاغٌ لِلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: 52] أي: كامل في التبليغ والإرشاد لقاطبة الأنام إلى توحيد الملك العلام، فلك أن تتأمل فيه وتذكر به على الوجه المأمور؛ لتمكن في مقعد الصدق عند الملك الغفور.

الفاسق وأهل المعاصي من غير فسق الكافر ومعصيته مستقرة في القلب؛ لأن الله تعالى ذم قومًا من عباده، وقال: ﴿وَمَكَشَّمْ فِي مَسَاكِينِ اللَّيْلِ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [إبراهيم: 45] ولم يعلن من أقام فيها، وقال: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَابِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: 98] ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: 52] ذلك لما يظهر من كشف حقائقه من بني آدم من أحبابه وأوليائه؛ لأن الأرض والسموات لا تصير لما يظهر عن الأبدان من أنوار الحق، وقال جعفر: موعظة الحق وإنذار لهم ليجتنبوا أقران السوء ومجالسة المخالفين، فإن القلوب إذا تعودت مجالسة الأضداد تدنس، وقال بعضهم: كشف للخلق ما يبدو لهم وأمروا به.

سورة الحجر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الحجر

لا يخفى على ذو التمكن والاطمئنان من أرباب التوحيد والعرفان، الواصلين إلى مرتبة التحقيق والإيقان أن أصحاب التقليد والتلوين، المترددين في مضيق الحساب والتخمين متى ظهر عندهم ولاح عليهم أمارات تسليم أرباب التوحيد المفوضين أمورهم كلها إلى الله، وشاهدوا من ظواهر أحوالهم في أوصافهم وأفعالهم أمارات الاعتدال، وعلامات الرضا والتسليم تمنوا أن يكونوا أمثالهم وعلى أوصافهم وأخلاقهم، وأحبوا أن يتدينوا بدينهم، ويتخلقوا بأخلاقهم؛ لعدم رسوخهم فيما هم فيه من التقليدات الباطلة، والتخمينات العاطلة الموروثة لهم من آبائهم وأسلافهم، ويتفطنوا من أنفسهم التزلزل والتذبذب في ظنونهم وجهالاتهم، إلا أنهم من شدة شكيمتهم وضعفيتهم وخبت طينتهم لم يقدموا على قبول الإيمان والتدين بدين الإسلام، مع نزول الآيات الظاهرة الدالة المثبتة لحقية ورود المعجزات الباهرة المبينة لصدقه ومطابقته للواقع.

لذلك خاطب سبحانه حبيبه ﷺ على وجه التنبيه بما يدل على تأييده وتعضيده في أمره، وأوصاه بترك مكالمتهم ودعوتهم، وبشره بإهلاكهم وانتقامهم، فقال متيمناً باسمه العظيم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الموقف لعباده على مقتضى مشيئته ومراده ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لهم بتبيين دلائل دينه على مقتضى استعداداتهم وقابلياتهم ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يوفقهم على الاتصاف به وقبوله.

﴿الرَّتِّلِكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُبِينٍ﴾ ① رَبِّمَا يُوذُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوُ كَانُوا مُسْلِمِينَ ② ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَشْتَبِعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ③ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ④ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ⑤ وَقَالُوا يَتَأْتِيَآ إِلَهِي نُزْلٌ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ⑥ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ

مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَٰئِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُكُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ [الحجر: 1 - 12].

﴿الر﴾⁽¹⁾ أيها الإنسان الأفضل الأكمل، الأليق لأن يفيض عليه سبحانه لطائف رموزات أسرار الربوبية، ولوائح رقائق سرائر الألوهية اللامعة اللائحة من مقر الرحمة العامة، والكرامة الكاملة الشاملة ﴿تِلْكَ﴾ الآيات المذكورة في هذه السورة ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ أي: بعض آيات الكتاب الجامع الناسخ للكتب السالفة ﴿و﴾ آيات ﴿قُرْآنٍ﴾ فرقان فارق بين الهداية والضلالة، والرشد والغي ﴿مُبِينٍ﴾ [الحجر: 1] ظاهر البيان لأولي البصائر المتأملين في حكم إيجاد الموجودات، سيما الإنسان الكامل المميز الممتاز بأنواع الفضائل والكرامات، سيما العقل المفاض له من العقل الكلي ليتوجه به نحو موجد، ويتدبر به أمر سبئه ومعاده، ومن لم يصرفه إلى ما خُلق لأجله، وجبل لمصلحته فقد كفر وضل ضلالاً بعيداً بمراحل عن مرتبة الإنسانية؛ وذلك من غاية اتهمائهم في الغفلة، وعمهم وسكرتهم بمزخرفات الدنيا الدنية.

وحين فاقوا عن سكرتهم وعمهم أحياناً ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ﴾ أي: قلما يحب ويستحسن

(1) قال روزبهان: ﴿الر﴾ فهم النقد بما يرى من قلق الإلهام إخباراً كبير بصورة الألف واللام والراء، إن الله سبحانه يتن كالألف بحر الإثبات؛ لأنه خير عن الأولية، ألا ترى كيف قدمها على أول اسمه الله، ويتن باللام بحر النفي؛ لأنها شقيقة لام لا، وبين بالراء بحر كشف الربوبية، وظهور أنوار الرؤية، وهذه من شرائط المعرفة، فمن لم يسبح في بحر النفي بنعت الفناء لوجدان عين الحقيقة، وحق البقاء لا يبلغ إلى بحر الربوبية، ولا يدرك لطائفها، ولا يصل إلى عيان كشف الرؤية بحقائقها، وقد انقلبت هذه الحروف من أماكنها إيهاماً، وإشارة لفهوم الفهماء، وإدراك العلوم والعلماء، ألا تراها في نص صورة الإيمان، كيف كانت أولها لا إله، ثم ذكر محل الإثبات بالألف إلا الله، ولم يذكر الزاي؛ لأن الأكثرين استغرقوا في البحرين ولم يصلوا إلى البحر الثالث، لأجل ذلك لم يذكر الراء في هذه الكلمة، وهذا سر عجيب لا يعرفه إلا أهل السر من أهل التوحيد، وهي أصل الكتاب؛ لأن الكتاب جاء مخبراً بمجموعة عن أسرار ما بلسان صاحب الواقعة ﷺ.

على وجه التمني ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾⁽¹⁾ أي: ستروا الحق، ولم يصرفوا عقولهم إلى كشفه ﴿لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: 2] مصرفين عقولهم إلى معرفة الله، ومفوضين أمورهم كلها إليه، ومتوكلين على الله في جميع حالاتهم، لكن من شدة طغيانهم، ونهاية غوايتهم وخسرانهم لم يقبلوا دعوتك، ولم يؤمنوا بك وبكتابه يا أكمل الرسل عنادًا واستكبارًا؛ حتى ينجو من خذلان الدنيا وخسران الآخرة.

﴿ذَرَهُمْ﴾ يا أكمل الرسل وشغلهم في دنياهم ﴿يَأْكُلُوا﴾ من مأكولاتها المورثة لأنواع المرض في قلوبهم ﴿وَيَسْتَمْتِعُوا﴾ بمزخرفاتها الفانية ولذاتها الوهمية ﴿وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ﴾ ويشغلهم عن الاشتغال بالطاعات، ويحرمهم عن اللذات الأخروية مطلقًا ﴿فَسَوْفَ يَغْلَبُونَ﴾ [الحجر: 3] قبح صنيعهم، وسوء فعالهم حين انكشف الأمر وتبلى السرائر، فحيث يتنبهون بما فوتوا لأنفسهم من اللذات الروحانية بإعراضهم عن الله وكتابه ونبيه.

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الحجر: 4] أي: ما أردنا إهلاك قرية من القرى الهالكة إلا وكتبنا أولاً في لوحنا المحفوظ، وعلمنا القديم لإهلاكها أجلاً معلوماً ووقتاً معيناً.

بحيث ﴿مَا تَسْبِقُ﴾ وما تتقدم ﴿مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ الذي عين لإهلاكها ﴿وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ [الحجر: 5] عنه، بل متى وصلوا إليه هلكوا حتماً، بحيث لا يسع لهم التقديم والتأخير أصلاً.

﴿وَكَيْفَ لَا نَهْلِكُهُمْ﴾ ونعذبهم بأشد العذاب ولا نتقم عنهم؛ إذ هم ﴿قَالُوا﴾ حين دعوتك إياهم وإلقائك إليهم شعائر الإيمان والإسلام منادين لك، مستهزئين معك متهمين: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ الذي نُزِّلَ عَلَيْهِ من عند ربه ﴿الذِّكْرُ﴾ أي: الكتاب المبين له أمثال هذه الكلمات التي نسمع منك ﴿إِنَّكَ﴾ في دعوتك وادعائك النبوة والكتاب ﴿لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: 6] مخبط مختل العقل، يخبطك الجن، ويعلمك أمثال هذه

(1) اعلم أن (رُبَّ) مثقلة أو مخففة إذا دخلت على المضارع تكون للتقليل، فقال المفسرون: معنى قلة، وداوتهم أنهم كالسكران من ورود الشدائد الكثيرة المتعاقبة، فإذا صاروا إلى أنفسهم، ورجعوا إلى عقولهم، تمنوا ذلك، ولا كان من شأنهم أن يتمنوا ذلك في جميع أوقانهم، لا في بعض الأحيان.

الكلمات والحكايات، تخيلت أنهم ملائكة ينزلون إليك بها، وإن اطلعت على الملائكة وصاحبت معهم، مع أنك بشر مثلنا ١٩.

﴿لَوْ مَا﴾ أي: هلاً ﴿تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ﴾ المنزلين إليك ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الحجر: 7] في دعواك حتى نراهم ونسمع قولهم، مثل رؤيتك إياهم.

قل لهم يا أكمل الرسل نيابة عنا: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ﴾ لكل واحد من البشر، بل لمن نؤتي الحكمة منه له في أصل فطرته واستعداده، وهم الأنبياء والرسل المأمورون بالإرشاد والتكميل، وما ننزلهم ﴿إِلَّا﴾ تأييداً لهم ملتبساً ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بالدين الثابت المطابق للواقع؛ ليتدين بدينهم من يتبعهم، ويؤمن لهم إطاعة وانقياداً، ولو اطلع الكل على نزولهم، ورأوا صورهم لبطل حكمة الإطاعة والإرسال والتكميل؛ إذ الكل في الرشد والهداية على السواء حيثذ ﴿و﴾ أيضاً ﴿مَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾ [الحجر: 8] منتظرين إلى يوم الجزاء؛ إذ الكل ناجون مهديون في النشأة الأولى.

﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ بمقتضى حكمتنا ﴿نُنَزِّلُ الذِّكْرَ﴾^(١) أي: الكتب على الأنبياء والرسل على وجه يعجز البشر عن إتيان مثله؛ لكون ألفاظه ومعلوماته، ونظمه واتساقه خارجة عن مقتضيات مداركهم وعقولهم؛ لذلك ينسبون أكثر الأنبياء والرسل إلى الجنون والخيبط ﴿و﴾ مع ذلك ﴿إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9] عن تحريف أهل الزيغ والضلال المنحرفين عن جادة التوحيد.

﴿و﴾ لا تحزن يا أكمل الرسل من استهزائهم معك وتكذيبهم، فإنهم من الديانة القديمة بين أهل الضلال، فلنا ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ رسلاً حين شاع أنواع الفسوق والعصيان ﴿فِي شِعْرِ الْأَوَّلِينَ﴾ [الحجر: 10] أي: فتنهم وفرقهم.

(١) الذكر صفته، وصفته قائمة بذاته، وهو منزّه عن تغيير كل مغيرات، نزلنا القرآن في قلوب العارفين وصدور الموقنين وأسرار الموحدين وإننا له لحافظون، من مخالفتهم القرآن يحفظ قلوب الصديقين والصادقين بما حفظ قرآنه عن شكوك النفس، ومغالطة الشياطين، وحركات الضمائر بالخطرات المذمومة، وأيضاً كاشفنا عن أسرارهم في قلوب أوليائي، وبما كشفنا منه لهم حافظون بحفظها في صميم أسرارهم، ويحفظ أسرارهم عن غير فهم حقيقي.

قال ابن عطاء: نحن أنزلنا هذا الذكر شفاءً وبياناً وقرآناً وفرقاناً؛ ليهدي به من كان مرسوماً بالسعادة، منور بتقديس السر عن المخالفة، وإننا له لحافظون، وإننا نحفظه في قلوب أوليائه، ونستعمل به جوارح الخواص من عبادنا. يقال: أخبر أنه حافظ القرآن، وإنما يحفظه بقراءته، قلوب القراء خزائن كتابه، وهو لا يضيع حفظة كتابه، فإن في تضييعهم تضييع كتابه.

﴿وَهُمْ مِنْ خِثِّ طَيْبَتِهِمْ، وَشِدَّةِ شَكِيمَتِهِمْ وَضَغِينَتِهِمْ﴾ ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الحجر: 11] بأنواع الاستهزاء من نسبة الكذب والجنون، وأنواع العيوب.

﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ﴾ وندخله ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الحجر: 12] الذين تعلقت إرادتنا ومشيتنا بإهلاكهم وتعذيبهم على مقتضى أوصافنا القهرية والجلالية.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنْ أَصْرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَكُمْ لَهُمْ بَرَزَقِينَ ﴿٢٠﴾ وَلَئِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَيْكَ هُوَ يُحْشَرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ [الحجر: 13 - 25].

لذلك ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: بالرسول المنزل إليهم ﴿وَهُمْ﴾ كيف يؤمن بك يا أكمل الرسل هؤلاء الكفرة؛ إذ ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الحجر: 13] أي: سنة الله في الكفرة الماضين، أو سنة كل فرقة من أسلافهم، وهم أيضًا على أثرهم وطبقهم تقليدًا لهم ١٢.

﴿وَهُمْ مِنْ خِثِّ طَيْبَتِهِمْ، وَفُسُوقِهِمْ وَغَفْلَتِهِمْ﴾ ﴿لَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: على هؤلاء المستهزئين المنهمكين في الغي والضلال ﴿بَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ على خلاف العادة ليؤمنوا بك وبدينك وكتابك ﴿فَظَلُّوا فِيهِ﴾ وصاروا ﴿يَعْرُجُونَ﴾ [الحجر: 14] يصعدون منه نحو السماء، ويستوضحون ما فيها.

﴿لَقَالُوا﴾ من شدة غيهم وضلالهم: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ﴾ وحيث ﴿أَبْصَارُنَا﴾ بسحر محمد وتليسه، وإنما فعل بنا هذا؛ لنؤمن له، ونصدق قوله وكتابه، ونقبل دينه ﴿بَلْ﴾

أمرنا كذلك بلا شك وتردد؛ إذ ﴿نَحْنُ﴾ بمشاهدة هذا الفتح والعروج ﴿قَوْمٌ مُّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: 15] مغبوطون مخبوطون، لبس علينا الأمر هذا الشخص بالسكر والشعبذة.

ثم قال سبحانه امتناناً لعباده بتهيئة أسباب معاشهم: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا﴾ وقد رنا ﴿فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ اثني عشر تدور وتتبدل فيها الشمس في كل سنة شتاءً وصيفاً، ربيعاً وخريفاً، والقمر في كل شهر تميماً لأسباب معاشكم، وتنضيجاً لأقواتكم وأثماركم ﴿وَزَيَّنَّاها﴾ أي: حبسنا نظمها وترتيبها، وهيئاتها وأشكالها ﴿لِلنَّاطِرِينَ﴾⁽¹⁾ [الحجر: 16] المتأملين في كيفية حركاتها ودوراتها وانقلاباتها؛ ليستدلوا بها على قدرة مبدعها، ومثانة أمر صانعها ومخترعها إلى أن ينكشفوا بوحدة المظهر ورجوع الكل إليه.

﴿و﴾ مع ذلك ﴿حَفِظْنَاهَا مِنْ﴾ اطلاع ﴿كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾⁽²⁾ [الحجر: 17] على

(1) قال الورتجي: أخبر بجلاله وعز كبريائه عن سموات الذات، وأبراج الصفات، وأنه كشف أنوارها وأسرارها لنظار الأرواح والعقول والقلوب؛ لتسير في أبراجها بقدر قوتها من قوى السعادة والتوفيق، فكواكب الأرواح تسري في أبراج الأزليات والأبديات، ونجوم العقول تسير في أبراج أنوار العظمة والكبرياء، وسيارات القلوب تسير في برج سنا الجلال والجمال، وأقمار الأسرار وشموسها تسير في بروج سبحات الذات، فتحصيل الأرواح من أماكنها وسيرها التوحيد والتجريد والتفريد، وتحصل العقول من سيرها المعارف والكواشف، وتحصل القلوب من سيرها العشق والمحبة والشوق والخوف والرجاء والقبض والبسط والعلم والخشية والأنس والانبساط، وتحصل الأسرار من سيرها الفناء والبقاء والسكر والصحو، ولكل عارف وموحد ومحب وشائق وصادق ومخلص ومريد من كل برج من أبراج الصفات له نظر وفهم وعلم ومعرفة وكشف ومقام وعمل ونطق وإشارة وعبادة وجد وحال وأدب وأفعال وما لا يتناهى من دنيا تمارها المشاهدات ولطائفها المكاشفات؛ لأن منابعها الصفات التي منزلة عن الحدود والعلات، ومن صار في أبراج الصفات يرى منابع الصفات، وهي عيون ألوهية الذات، سبحانه من عظم شأنه وتقدمت أسمائه وصفاته وذاته عن أوهام الخليفة، ومن إدراك قلوب البرية، وذلك قوله بوصف تنزيهه: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾.

(2) قال الورتجي: منع كشف جمال صفاتها وجلال ذاتها عن أبصار البطالين والمدعين والمبطلين الزائغين عن الحق المقبلين على الخلق، هذا من أعالي دقائق الإشارات، وإشارة الأدنى أنه تعالى جعل في سماء الأرواح أبراج أنوار تجلي صفاته وذاته، وسيارات أنوار الصفات والذات تسير في أبراج همها، وجعل تلك الأبراج متورة مزينة بزينة نور الصفات والذات لسكان أرض القلوب من أنظار العقول؛ لترى العقول في ترائيها أقمار الصفات وشموس الذات من حيث التجلي لا من حيث كينونة الحلول، فتستشرف على أسرار معارف جوده ووجوده، فلكل نظر

ما فيها من السرائر والحكم المودعة.

﴿أَلَا مَنِ اسْتَرَقَّ﴾ واختلس من الشياطين ﴿السَّمْعَ﴾ والاستطلاع من سكان السماوات، وتكلف في الصعود والرقى نحوها ﴿فَاتَّبَعَهُ﴾ من كمال قهر الله إياه ﴿شِهَابٌ﴾ جذوة نار على مثال كوكب ﴿مُبِينٌ﴾ [الحجر: 18] ظاهر عند أولي الأبصار زجراً له، ومنعاً عن الاستطلاع بالسرائر.

﴿وَالْأَرْضِ﴾ أيضاً ﴿مَدَدْنَاهَا﴾ أي: مهّدها وبسطناها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ شامخات لتقررها وتثبيتها؛ ولتكون مقراً للمياه والعيون، ومعدناً للجواهر ﴿وَأَنْبَثْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مُّزْوَنٍ﴾ [الحجر: 19] مطبوع ملائم، تستحسنها الطباع وتستلذ به.

﴿وَ﴾ إنما ﴿جَعَلْنَا﴾ وخلقنا كل ذلك؛ أي: العلويات والسفليات؛ ليحصل ﴿لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشٌ﴾ يعيشون بها، وتقومون مزاجكم منها؛ لتتمكنوا وتقدرُوا على سلوك طريق التوحيد والعرفان الذي هو سبب إيجادكم، والباعث على إظهاركم؛ إذ ما خلقتكم وجبلتم إلا لأجله ﴿وَ﴾ كذا معاش ﴿مَنْ لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ [الحجر: 20] من أخلاقكم وأولادكم، وإن كنتم تظنون أنكم رازقون لهم ظناً كاذباً، بل رزقكم ورزقهم ورزق جميع من في حیطة الوجود علينا.

﴿وَ﴾ كيف لا يكون رزق الكل علينا ﴿إِن مِّن شَيْءٍ﴾ أي: ما من رطب ولا يابس مما يطلق عليه اسم الشيء ﴿إِلَّا عِنْدَنَا﴾ أي: في حیطة قدرتنا ومشيتنا ﴿خَزَائِنُهُ﴾⁽¹⁾

منها فائدة في القلوب من المواجهيد والحالات والمعاملات والمقامات، مثل الوجل والخشية والندم والرغبة والرغبة والمراقبة والمحاضرة والخطاب والشهود والوقوف بأسرار العبودية والربوبية، فتعت تلك القلوب بما رأت تلك العقول من أبراج سماء الأرواح الوجد والهيجان والهيمن والوله والزفرات والعبرات، صواحبها أوتاد الأرض ونقباء الأولياء وأصفياء الحضرة شمائلهم أنوار جود الله، يظهر من وجوههم سنا وجود الله، سبحان الله، من هم وأين ماوهم؟ طوبى لهم، ثم طوبى لهم ثم بفضلهم وجوده وحفظ تلك البروج من هواجسات النفوس ووساوسات الشياطين.

(1) قال الورتجي: قال ابن عطاء: في هذه الآية النظر إلى شواهد القسم أسكنت بالنفوس عن الحكم. وقال سهل: أخص خزائن الله في الأرض قلوب أوليائه التي هي محل معرفته وفضيه ومحل نظره، فمن حفظ تلك الخزنة بالذكر الدائم والمراقبة عمر الله قلبه بالرجوع إليه على دوام الأوقات والأعراض عما سواه. وقال: خزائنه في الحقيقة مقدوراتاه وهو سبحانه قادر على كل ما هو موهوم الحدوث. ويقال: خزائنه في الأرض قلوب العارفين بالله في الخزنة جواهر

أي: مخزونات كل شيء عندنا لا ينتهي قدرتنا دون مقدور، بل لنا القدرة الكاملة بإيجاد الخزائن من كل شيء ﴿وَلَكِنْ اقْتَبَضْتَ حِكْمَتَنَا أَنَا ﴿مَا تُنَزِّلُهُ﴾ ونظيره ﴿إِلَّا بِقَدْرِ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: 21] عندنا، وفي حيلة علمنا، وأجل مقدر لدينا لا اطلاع لأحد عليه!؟.

﴿وَمِنْ بَدَائِعِ حِكْمَتِنَا، وَعَجَائِبِ صُنْعَتِنَا ﴿أَرْسَلْنَا﴾ مِنْ مَقَامِ فَضْلِنَا وَجُودِنَا ﴿الرِّيَّاحَ﴾ الْهَابَةَ فِي فَصْلِ الرَّبِيعِ ﴿لَوَاقِحَ﴾ أَي: مَلَقَحَاتٍ تَجْعَلُ الْأَشْجَارَ حَوَامِلَ بِالْأَثْمَارِ ﴿فَأَنْزَلْنَا﴾ بَعْدَ صِرُورَتِهَا حَوَامِلَ ﴿مِنْ﴾ جَانِبِ ﴿السَّمَاءِ مَاءً﴾ لِتَرْبِيَتِهَا وَتَنْمِيَتِهَا ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ أَي: وَقْتَ الصَّلَاحِ وَالْحَصَادِ ﴿وَمَا أَنتُمْ لَهُ﴾ أَي: لِلْمَاءِ ﴿بِخَازِنِينَ﴾⁽¹⁾ [الحجر: 21] حَافِظِينَ؛ أَي: لَيْسَ فِي وَسْعِكُمْ وَطَاقَتِكُمْ حَفْظُهُ فِي الْحَيَاضِ وَالْغَدَائِرِ، وَكَذَا إِلْقَاحِ الْأَشْجَارِ وَإِنْبَاتِهَا وَسُقْيَافِهَا وَإِصْلَاحِهَا، وَجَمِيعِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهَا، إِذْ لَيْسَ عِنْدَكُمْ خَزَائِنُ كُلِّ شَيْءٍ.

﴿وَمِنْ أَيْضًا مِنْ غَرَائِبِ مَبْدَعَاتِنَا ﴿إِنَّا لَنَخْنُ نُخَيِّ﴾ وَنَظْهَرُ عَلَى مَقْتَضَى أَوْصَافِنَا اللَّطْفِيَّةِ الْبَسِيطَةِ ﴿وَنُؤْمِئُ﴾ وَنَعْدَمُ عَلَى مَقْتَضَى أَوْصَافِنَا الْقَهْرِيَّةِ الْقَبْضِيَّةِ ﴿وَنَخْنُ

من كل صنف، فحقائق العقل جواهر ومنعها في قلوب أقوام، ولطائف العلم جواهر، وبدائع المعرفة جواهر، وأسرار العارفين مواضع سره، فالنفوس خزائن توفيقه، والقلوب خزائن تحقيقه، واللسان خزائن ذكره.

ويقال: أرواح قلوب الفقراء عن تحمل المنة من الأغنياء فيما يعطوهم، وأرواح الأغنياء عن مطالبة الفقراء منهم شيئاً، فليس للفقير صرف القلب من الله إلى مخلوق، ولا افتقار منه لأحد، ولا للغني بقليل منه لأخذ ذلك الملك كله لله، والأمر بيد الله فلا قادر على الإبلاغ إلا الله.

(1) قال البقلي: غرس في قلوب أوليائه أشجار المعرفة التي هي من بساتين غيب ملكوته وجبروته، ثم أرسل عليها رياح لطفه بكشف جماله لها؛ فتلقح بشمال جماله أشجار معرفتهم ثمار محبته وشوقه وعشقه، ثم سقاها بمطر عنايته من بحر كرمه حتى أثمرت كل فصن منها حكمة من حكمه وعلماً من علومه، وخبراً من غيبه، وسراً من أسرارهِ، وحقيقة من حقائقه بها نسائم الأنس، ونورها لطائف القدس، وزهرها من لوائح إنصاف، ووردها من لوازم الذات، وفواكهها حياة مرضي المريدين تشفيهم من داء الفراق، وتربيهم بترياق الوفاق، فكل مالك عارف عاشق محب واله سقاء الحق من مطر لطفه من بحار كبريائه شربات مفرحات الأفراح بأفداح الأرواح؛ فيصير سكران جماله من حب جلاله هالماً من شوقه إلى وصاله، فلا العاشق الشائق يسكن من سكره، ولا من سقي شرابه، ولا ينقص بحر وصاله من شرب عاشق جماله وكمال جلاله.

الْوَارِثُونَ ﴿١﴾ [الحجر: 23] الباكون بعد انتهاء المظاهر وفنائها بعد الطامة الكبرى.

﴿و﴾ من كمال علمنا وخبرتنا أنا ﴿لَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ المتقدمين في الوجود ﴿مِنْكُمْ﴾ أي: من أسلافكم، بل من شئونكم ونشأتكم التي في أصلاب آباءكم وأرحام أمهاتكم، بل استعداداتكم في ذرات العناصر، بل حصصكم من الروح الأعظم ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ [الحجر: 24] المتأخرين منكم في الوجود على الوجه المذكور.

﴿و﴾ بالجملة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿هُوَ﴾ المطلع بسرائر الماضي والحال والمستقبل ﴿يَخْشُرُهُمْ﴾ في المحشر وموعد القيامة، والحساب والجزاء، وكيف لا ﴿إِنَّهُ﴾ في ذاته وأوصافه وأفعاله ﴿حَكِيمٌ﴾ متقن الفعل، متين الصنع ﴿عَلِيمٌ﴾ [الحجر: 25] لا يعزب عن حيطة حضرة علمه شيء!؟.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ ﴿٦﴾ وَلِلَّحَافِ خَلْقَهُ مِنْ قَبْلِ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴿٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ يَبْنَطُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿١٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿١٣﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ

(1) قال البقلي: نحى بمشاهدتنا قلوب المنقطعين من موت الفراق، ونميت نفوس المريدين بالخوف عنا وقهر عظمتنا عن حياة الشهوات، وأيضاً نحى الأرواح بتجلي بقائنا عن موت فنائها في مشاهدة قدمنا، ونفنيها عن حياتها بمشاهدة البقاء برؤية قدمنا وأزلنا، نحى أسرار العارفين بجمالنا ونميتها باحتجاب مشاهدة جلالنا عنها، ونحن الوارثون ما عليها من أحكام الربوبية وما لها من أحكام العبودية، قال الواسطي: نحى مَنْ نشاء بنا، ونميت من نشاء عنه، قال بعضهم: نحى أقواماً بالطاعة ونميت أقواماً بالمعصية، وقال البراق: نحى القلوب بنور الإيمان ونميت الأنفس بإتباع الشهوات، وقال أبو سعيد الخزاز: الحي من العباد من الحق حياته، والميت منهم من جر كانه بقاؤه. وقيل: نحى القلوب بالمشاهدة، ونميت النفوس بالاستتار، وقال سهل: نحى أهل الصفوة بمعرفتنا والإقبال علينا، ونميت المخالفين بإنكارنا والإعراض عنا، وقال أيضاً: نحى النفوس السعيدة متابعة القلوب الرضية، ونميت النفوس الشقية بمتابعة الهوى والشهوات، وقال الأستاذ: نحى القلوب بالمشاهدة، ونميت نفوسهم بالمجاهدة. ويقال: نحى المريدين بذكره، ونميت الغافلين بهجره. ويقال: نحى قوماً بأن يلاطفهم بلطف جماله، ونميت قوماً بأن يحجبهم عن نيل أفضاله.

رَجِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٢٨﴾
 قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٢٩﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٠﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ
 فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣١﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ
 عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٣﴾ [الحجر: 26 - 41].

ثم قال سبحانه امتناناً لكم، وتنبيهاً عن دناءة منشاكم، ثم على شرف مكائتكم
 وعلو شأنكم: أيها المكلفون من الثقلين، القابلون للإيمان والمعارف ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا
 الْإِنْسَانَ﴾ أي: أظهرنا جنسه، وقدرنا جسمه ﴿مِنْ صَلْصَالٍ﴾ أي: طين يابيس مصوت من
 غاية ييسه وبقائه على حر الشمس، متخذ ﴿مِنْ خَمَلٍ مُّسْنُونٍ﴾^(١) [الحجر: 26] أي: من
 طين أسود متن كربه الرائحة، يستكره ريحه جميع الحيوانات.

(١) غلط الملعون في دعواه بخالص العبودية والمعرفة بالوحدانية، وإفراد القدم عن الحدوث؛ لأنه
 ظن أن محض العبودية صورة السجود والركوع، ولم يعلم أن متابعة أمره بأوجه، هي خالص
 العبودية، وينبغي أن يتابع أمر معبوده، ولم يأمر بشد الزنار مثلاً، ولا ييالي بأن يشد على وسطه
 الزنار؛ لأن العاشق الصادق يأخذ أمر معشوقه، ولا يخالفه في جميع مراده، ولو كان مشفقاً على
 محبوبه بأن يخلص عبادته له، فإذا رد قوله ونازع إرادته كيف له شفقة على محبوبه يا ليت لو
 رأى في مكان الأمر جلال الأمر؛ فإن آدم ؑ كان قبله الظاهر كالكعبة، ولا يقع السجود إلا في
 مشاهدة الربوبية؛ لأنه قال: هو أهله لا غير ومقام إلا من مقام الامتحان، وظن الملعون أنه
 مستحكم في توحيد حبه حيث لم يسجد لغيره، وهناك لا غير لأن في حقيقة عين الجمال ما هو إلا
 هو، ولو كان نظره صحيحاً لم يلتفت إلى الوسائط؛ لأنه في عين الجمع الدليل والمدلول واحد
 من حيث الحقيقة لا من حيث الرسوم، فيبقى الملعون جاهلاً عن معرفته عين الجمع، وقد غلط
 أيضاً إفراده عن الحدوث؛ لأنه كان محجوباً بنظرين، نظر إلى آدم ؑ، ونظر إلى نفسه؛ فأما نظره
 إلى آدم ؑ قوله: ﴿لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ﴾، وأما نظره إلى نفسه قوله:
 ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾، ولو كان صحيح القول في نظره إلى عين الوحدانية يسقط عنه رؤية الغير في
 البين، ظن أنه عالم بالله، وقد وصل إلى عين الحقيقة، ولم يعرف أنه ما وصل إلى أدنى
 المقامات، ولو كان في محل التحقيق ما أحاله الحق إلى خدمة حادث من الحدثان، عرفه أنه لم
 يكن أيضاً مبتدأ من أهل الإرادة في أول درجات العبودية، ولو كان صادقاً في إرادته لأكل تراب
 قدم آدم ؑ؛ لأن المرید ملهوف واله بإرادته ومحبه لمقتداه، ولكن إيش ينفعه، وهو كان مريداً
 لا مريداً؛ لأنه كان معجباً برأيه، ناظر إلى نفسه في إرادته وعبادته، فقد حصل له الإنكار على
 مشايخه في زمانه، وسقط من عين الحق وعيون أصفياه إلى صهوات الرياسة والضلالة، نعوذ
 بالله من الحور بعد الكور، ومن الضلال بعد الهدى، ومن الرياء بعد الإخلاص.

﴿وَالْجَانَّ﴾ أي: جنسه أيضا ﴿خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل إيجاد الإنسان من مادة أدنى أيضا؛ إذ هو متخذ ﴿مِنْ نَّارِ السُّمُومِ﴾ [الحجر: 27] أي: شديد الحر متناه فيه.

انظروا أيها المعتبرون إلى نشأتكم ومادتكم ﴿وَوَ﴾ اذكروا تشریف ربكم إياكم وقت ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ يا أكمل الرسل، خصه سبحانه رسول الله ﷺ بالخطاب؛ للياقته وكمال استحقاقه أن يكون مخاطبًا معه، كأنه لجمعية مرتبة عموم مراتب بني نوعه، عبارة عن جميعهم ﴿لِلْمَلَائِكَةِ﴾ على سبيل الإخبار والتعليم: ﴿إِنِّي﴾ لمطالعة جمالي وجلالي، وجميع أوصاف كمالي على التفصيل ﴿خَالِقُ﴾ ومقدر ﴿بَشَرًا﴾ أي: تمثالا متخذًا ﴿مِنْ صَلْصَالٍ﴾ متخذة ﴿مِنْ خَمًا مُنْثُونٍ﴾ [الحجر: 28] بعيد بمراحل عن مقارنتي ومقارنتي؛ إذ هو أحسن الأشياء وأدونها.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ أي: عدلته وكملت هيكله وشكله ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ ورششت عليه من رشحات نور وجودي ليكون حيًا بحياتي، ومرآة لي أطالع فيها جميع أسمائي وأوصافي ﴿فَفَقُّوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: 29] فعليكم أن تضعوا جباهكم على تراب المذلة عنده تعظيمًا له وتكريمًا.

ولما سمعوا الأمر الوجوبي القطعي ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ﴾ بلا طلب مرجع ودليل ﴿كُلُّهُمْ﴾ بلا خروج واحد منهم ﴿أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر: 30] مجتمعون معًا بلا تقدم وتأخر، وتردد وتسويف.

﴿أَلَا إِبْلِيسَ﴾ الذي هو منهم تبعًا لأصلاته ﴿أَتَى﴾ عن السجود، وامتنع ﴿أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: 31].

ثم لما تخلف إبليس، وركن عن أمر الله ﴿قَالَ﴾ سبحانه توبيخًا وتقريعًا: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ﴾ أي: أي: شيء عرض لك يا إبليس ﴿أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: 32] الخاضعين الواضعين جباههم على تراب المذلة امثالاً للأمر الوجوبي^{١٩}.

﴿قَالَ﴾ إبليس محتجًا على الله، طالبًا للرجحان والمزية على سبيل الإنكار والتعريض: ﴿لَمْ أَكُنْ﴾ أي: لم يصح مني، ولم يستحسن عني، ولم يلق لمرتبتني ﴿لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ﴾ جسماني ظلماني كثيف ﴿خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ﴾ أكشف وأظلم منه، وأخذت الصلصال ﴿مِنْ خَمًا مُنْثُونٍ﴾ [الحجر: 33] لا شيء أظلم منه وأبعد عن مساحة عز القبول، والتمثال المشتغل على هذه الظلمات المتركمة لا يليق أن يخضع ويسجد له الروحاني النوراني.

﴿قَالَ﴾ سبحانه طردًا له وتبعيدًا: إذا تخلفت يا إبليس عن أمري، وخرجت عن مقتضى حكمي ﴿فَاخْرُجْ﴾ أيها المردود ﴿مِنْهَا﴾ أي: من بين الملائكة، ولا تعد نفسك من زمريتهم، فإنهم مقبولون مطيعون، وأنت مردود ومطرود ﴿فَإِنَّكَ﴾ بتخلفك عن مقتضى أمرنا ﴿رَجِيمٌ﴾ [الحجر: 34] بعيد عن رحمتنا وكرامتنا.

﴿وَإِنْ عَلَيْنَا اللَّعْنَةُ﴾ والطرْد والتخذيل، نازلة مستمرة ﴿إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الحجر: 35] مقرك ومقيلك النار المعدة لك، ولمن تبعك من عصاة العباد.

ثم لما آيس إبليس عن القبول، وقنط عن رحمة الله ﴿قَالَ﴾ مشتكيًا متحسرًا متأوهًا: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني بأنواع الكرم والنعم، فكفرت نعمك بمخالفة أمرك ﴿فَانْظُرْني﴾ وأمهلي ﴿إِلَى يَوْمِ يَتْعَثُونَ﴾ [الحجر: 36] ويحشرون؛ لأغوي بني آدم، وأنتقم عنهم.

﴿قَالَ﴾ سبحانه: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ [الحجر: 37] لتكون عبرة للعالمين. ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: 38] أي: إلى وقت لا يمكن فيه تلافي التقصير، وكسب الزاد للمعاد، ونهيئة الأسباب ليوم الميعاد. قيل: هي النفخة الأولى لحشر الأجساد.

﴿قَالَ﴾ إبليس مقسمًا مبالغًا: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ أي: بحق قدرتك التي أغويتني وأضللتني بها، وأحطتني عن رفعة منزلتي، وأخرجتني من بين أحبتي وإخوتي ﴿لَأَزِيَّتَنَّ لَهُمْ﴾ أعمالهم الفاسدة، وأحسن عليهم الأفعال القبيحة ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ وأغرینهم إلى ارتكاب أنواع المفسد والمقابح عليها، وأصناف الجرائم والآثام المائلة إليها نفوسهم طبعًا ﴿وَوَ﴾ بالجملة: ﴿لَأَغْوِيَّتَهُمْ﴾ وأضلنهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: 39] بحيث لا يشذ عنهم أحد من ذوي النفوس الأمارة.

﴿أَلَا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾⁽¹⁾ [الحجر: 40] المخلصين رقابهم عن ريبة

(1) الحاصل: إن عباد الله منهم المخلصون بكسر اللام؛ وهم الصادقون؛ بمعنى إنهم تخلصوا عن شوائب النفسانية في أعمالهم وأحوالهم، وهم على خطر في الجملة لبقاء شيء من نفوسهم، ومنهم المخلصون بالفتح؛ وهم الصديقون؛ بمعنى أنهم تخلصوا عن شوائب الغيرة، كما تخلصوا عن شوائب النفسانية، فهم قانون عن نفوسهم، باقون بربهم لا يد للشيطان عليهم أصلاً؛ لأن الشيطان إنما يخدم النفس؛ لأنها الأصل في الفساد، فإذا كانت حركات عن صفاتها الرذيلة؛ عزل الشيطان نفسه عن تلك النفس المطمئة؛ لأن النور والظلمة لا يجتمعان.

ولقد غلب عاصم على غيره من القراء في قراءة الفتح، وله درة معرفة، فإن المستثنى من العباد؛

الأمانة، المطمئنين المتمكنين في مقام الرضا والتسليم.

﴿قَالَ﴾ سبحانه على مقتضى إشفافه ورحمته: ﴿هَذَا﴾ أي: إخلاص المخلصين المطمئنين، الراضين بما جرى عليهم من قضائي ﴿صِرَاطٌ عَلَيَّ﴾ وطريق موصل إلى توحيدى، ووحدة ذاتي واستقلالي في آثار أوصافي وأسمائي ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر: 41] لا عوج فيه أصلاً، من توجه إليّ عن هذا الطريق فاز ونجا، بحيث لا يعرضه الضلال والانحراف أصلاً، وكيف يعرضه؛ إذ هو من خلص عبادي؟!

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ ٤٢ ﴿وَرِئَاسَةٌ لَهُمْ لِمَعْمَدِهِمْ أَجْمَعِينَ﴾ ٤٣ ﴿لَمَّا سَبَعَةُ أَبْنَاءَ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ ٤٤ ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ٤٥ ﴿أَدْخُلُوها بِسَلَامٍ ءَامِينَ﴾ ٤٦ ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُنْقَلَبِينَ﴾ ٤٧ ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ ٤٨ ﴿نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ٤٩ ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ ٥٠ ﴿وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ ٥١ ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ ٥٢ ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ ٥٣ ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ يُبَشِّرُونِ﴾ ٥٤ ﴿قَالُوا بِشَرِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَنِطِيطِ﴾ ٥٥ ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ ٥٦ ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ ٥٧ ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ ٥٨ [الحجر: 42 - 58].

﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ الذين هم تحت قبائي ﴿لَيْسَ لَكَ﴾ أيها المضل المغوي ﴿عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ أي: استيلاء وغلبة ﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: 42] الضالين يا غوائلك عن منهج اليقين، وهم وإن كانوا من جنسهم صورة ليسوا منهم حقيقة.

إنما هو هم لا غيرهم، وإن كان غيرهم أيضاً ممن يتذكر ويُبصر؛ لكن أين المخلط من غيره، فإنه ما كُامت بقية من النفس؛ فصاحبها غير محفوظ بالكلية، وقد عُرف بين الأولياء إن الكُمل محفوظون؛ بل معصومون إلا أن العصمة تُقال في الأنبياء، والحفظ في الأولياء فرقاً بين المقامين.

﴿وَإِنْ جَهَنَّمَ الْبَعْدُ وَالْخِذْلَانِ﴾ ﴿لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: 43] أي: تابعا ومتبوعا.

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ على عدد مداخلها من الشهوات السبعة المقتضية إياها، المذكورة في كريمة ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾ [آل عمران: 14].

﴿لِكُلِّ بَابٍ﴾ من الأبواب السبعة الجهنمية ﴿مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ [الحجر: 44] أي: طائفة مفروزة منهم بالدخول من كل باب، وإن كان الكل شريكا في الكل.

ثم قال سبحانه على مقتضى سنده المستمرة: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ المخلصين نفوسهم عن وسوسة الشياطين ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ متزهات من العلم والعين والحق ﴿وَعُيُونٍ﴾ [الحجر: 45] جاريات من زلال الحقائق والمعارف، صافيات عن كدر الرياء ودرن التقليدات.

ويقول لهم الملائكة حين وجدانهم متصفين بحلية التقوى: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ أي: سالمين عن شدائد الحساب وصعوبته ﴿آمِينَ﴾⁽¹⁾ [الحجر: 46] عن خوف العذاب والعقاب.

﴿وَكَيْفَ لَا يَكُونُونَ سَالِمِينَ آمِينَ﴾ إذ ﴿نَزَعْنَا﴾ وأخرجنا بنور الإيمان والتوحيد ﴿مَا فِي صُدُورِهِمْ﴾ وضمايرهم ﴿يَمِّنُ غَلٍّ﴾ أي: حقد وحسد متمكن في نفوسهم، متعلق لبني نوعهم حتى صاروا ﴿إِخْوَانًا﴾ أصدقاء متكئين ﴿عَلَى سُورٍ﴾ متساوية من الصداقة ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: 47] متناظرين مطالعين كل منهم في مرآة أخيه محامدا أخلاقه، ومحاسن شيعه.

﴿لَا يَمْشُهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي: محنة وعناء حتى يشوشوا بها ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: 48] حتى يخافوا منه، بل هم فيها خالدون مخلدون، مستمرون ما شاء الله.

ثم قال سبحانه تسلياً لعموم عباده، وتبشيراً لهم بسعة فضله ورحمته: ﴿ثَبَّتْنَا﴾

(1) قال في التأويلات: أي: بجنابات العناية والسلام من الله هو الجنة الإلهية آمين من موانع الدخول والخروج بعد الوصول وفيه إشارة إلى أن السير في الله لا يمكن إلا بالله وجناباته كما كان حال النبي ﷺ ليلة المعراج تأخر عنه جبريل في سكرة المتهى وبقي عند الرفرف في مقام قاب قوسين ما وصل إلى مقام أو أدنى وهو كمال القرب إلا بجلبة أذن مني فبسلام الله سلم من موانع الدخول والخروج بعد الوصول.

أي: أخبر وأعلم يا أكمل الرسل المبعوث على كافة الأمم عموم ﴿عِبَادِي﴾ مؤمنهم وكافرهم، مطيعهم وعاصيهم ﴿أَنِّي﴾ من كمال برِّي ومرحمتي إياهم ﴿أَنَا الْغَفُورُ﴾ المبالغ في الستر والعفو لمن استرجع إلي، واستغفر عن ظهر القلب، وأناب عن محض الندم ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الحجر: 49] لهم، أرحمهم وأقبل منهم توبتهم، وأعفو عنهم زلتهم. ﴿و﴾ نبئهم أيضا ﴿أَنَّ عَذَابِي﴾ وانتقامي وبطشي على من أصر على عنادي، واستمر على ترك طاعتي وانقيادي ﴿هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: 50] المؤلم المستمر الذي لا نجاة لأحد منه.

﴿و﴾ إن أنكروا على إنعامي وانتقامي ﴿نَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحجر: 51] تبيينًا وتوضيحًا لهم.

وقت ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ جرد مرد، صباح ملاح ﴿فَقَالُوا﴾ ترحيبًا وتكريمًا: ﴿سَلَامًا﴾ أي: نسلم عليك سلامًا، ثم لما تفرس إبراهيم بنور النبوة أنهم ملائكة جاءوا بأمر خطير ﴿قَالَ﴾ على سبيل المخالفة: ﴿إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ [الحجر: 52] أي: خائفون؛ لأنهم جاءوا هفوة، ودخلوا عليه بغتة بلا إذن واستئذان على عادة المسافرين، ولا يظهر عليه أثر السفر.

﴿قَالُوا﴾ أمنا له، وتسكينًا لخوفه واضطرابه: ﴿لَا تَوْجَلْ﴾ منا ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ من عند ربك ﴿بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾⁽¹⁾ [الحجر: 53] قابل للنبوة والرسالة، والحكمة الكاملة.

﴿قَالَ﴾ إبراهيم ~~عليه السلام~~ متأوها آيسًا، مستفهمًا على سبيل الاستبعاد: ﴿أَبَشِّرْتُمُونِي﴾ أيها المبشرون في زمانٍ قد انقطع الرجاء فيه عادة ﴿عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تُبَشِّرُونَ﴾ [الحجر: 54] المانع من الاستيلاء والاستثناء العادي؛ إذ هو في سنٍ قد انقطعت الشهوة عنه، وعن زوجته أيضًا؛ إذ هما في سن الهرم والكهولة.

﴿قَالُوا بَشِّرْنَاكَ﴾ ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ المطابق للواقع بإذن الحق، وعلى مقتدى قدرته الكاملة بإيجاد شيء بلا سبق السبب العادي له ﴿فَلَا تَكُنْ﴾ أيها النبي المتمكن

(1) قال نجم الدين كبرى: مع كبره وكبر امرأته بشارته للطالب الصادق أنه وإن كان مسنًا وقد ضعف جسمه وقواه وعجز عن جهاد النفس ومكابدتها واستعمالها في مباشرة الطاعات والأعمال البدنية ويوسوسه الشيطان من نيل درجات القربة؛ لأن أسباب تحصيل الكمال قد تناهت ومعظمها العمر والشباب؛ ولهذا قال المشايخ: الصوفي بعد الأربعين نادر.

في مقام الرضا والتسليم، المسند المفوض جميع الحوادث الكائنة في عالم الكون والفساد إلى الفاعل المختار بلا اعتبار الوسائل والأسباب ﴿مِنَ الْقَائِلِينَ﴾ [الحجر: 55] الجازمين بفقدان الشيء عند فقدان أسبابه العادية.

﴿قَالَ﴾ مستبعدًا مستوحشًا: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ﴾ ويأس ﴿مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ﴾ التي وسعت كل شيء على مقتضى جوده تفضلاً بلا سبق استحقاق واستعداد أسباب ﴿إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: 56] المقيّدون بسلاسل الأسباب الطبيعية، وأغلال الوسائل الهيولانية، ونحن معاشر الأنبياء لا نقول بأمثال هذه الأباطيل الزائفة.

ثم لما جرى بينهم ما جرى ﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام على مقتضى تفرسه منهم: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ أي: أمركم العظيم الذي جئتم لأجله ﴿أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [الحجر: 57] المهيون؟.

﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ [الحجر: 58] خارجين عن مقتضى العقل والشرع والطبع؛ إذ فعلتهم الفاحشة الشنيعة مما يستقبحه ويستكرهه العقول والطباع مطلقاً، فكيف الشرع، فنهلكهم اليوم بالمرة على مقتضى أمر الله وقدره.

﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجِّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ٥٩ ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا إِنَّا لَمِنَ الْغَافِرِينَ﴾ ٦٠ ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطِ الْمُرْسَلُونَ﴾ ٦١ ﴿قَالَ لَكُمْ قَوْمٌ مُّشْكِرُونَ﴾ ٦٢ ﴿قَالُوا بَلْ جِئْتَنَا بِمَاءٍ كَانُوا فِيهِ يَسْتَمِرُّونَ﴾ ٦٣ ﴿وَأَتَيْتَكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ ٦٤ ﴿فَأَمْرٌ بِأَهْلِكَ يَقْطَعُ مِنَ النَّارِ وَأَتَّبِعْ أَمْرَهُمْ وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ ٦٥ ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمَرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ ٦٦ ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ٦٧ ﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ ٦٨ ﴿وَأَقْرَأُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنِ﴾ ٦٩ ﴿قَالُوا أَوْلَمْ تَنْهَك عَنْهُ الْمَلَكُ﴾ ٧٠ ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتُ ابْنٍ كُنْتُ فَتِيلِينَ﴾ ٧١ ﴿لَعَنَّاكَ إِنَّهُمْ لَكَاظِمُونَ يَمْشُونَ﴾ ٧٢ ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ ٧٣ [الحجر: 59 - 73].

﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ أي: أهل بيته، ومن آمن له ﴿إِنَّا لَمُنَجِّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: 59] لكونهم معصومين مطيعين.

﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ المجرمة العاصية ﴿قَدَرْنَا﴾ بإعلام الله وإذنه إياه علينا ﴿إِنَّا لَمِنَ

الغَابِرِينَ ﴿[الحجر: 60] الباقين مع الكفرة الهالكين؛ لكونها باقية على اعتقادهم وعنادهم.

﴿فَلَمَّا جَاءَ﴾ ودخل على طريق الضيفان ﴿آل لُوطِ الْمُرْسَلُونَ﴾ [الحجر: 61] المراد الصباح الملاح.

﴿قَالَ﴾ لوط: ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها الضيفان ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ [الحجر: 62] أخاف عليكم من قومي وسوء فعالهم، وقبح ديدنتهم وعاداتهم، مع أنني أخاف من جثتكم أيضًا على هذا الوجه، بحيث لا أرى عليكم أمارات البشر.

﴿قَالُوا﴾ أي: المرسلون له: لا تخف لا علينا ولا منا؛ إذ ما جئنا لتخويفك وتوحيشك ﴿بَلْ جِئْنَاكَ﴾ لنسرك ونؤيدك، وننصررك على أعدائك ﴿بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [الحجر: 63] أي: بإثبات ما يشكون فيه ويترددون، بل يكذبونك فيه وراء، وهو العذاب الذي توعدت لهم، وادعيت نزوله عليهم، وهم يشكون فيه.

﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ المطابق للواقع ﴿وَلِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الحجر: 64] فيما قلنا لك.

والآن وقت إنجاز ما وعد الله بك من إنزال العذاب عليهم ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ أي: سر واذهب معهم ﴿بِقِطْعِ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ أي: في طائفة من آتات الليل وساعاته، فقدمهم أمامك ﴿وَاتَّبِعْ أَزْوَاجَهُمْ﴾ وأثرهم، والعذاب منزل عليهم عقيب خروجك بلا تراخ، وإذا كانوا خلفك أصابتهم منه ﴿وَوَعَدْنَاكَ بِإِعْدَادٍ﴾ أي: بعد ما خرجتم إليهم من بينهم ﴿لَا يُلَاقِيكَ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ خلفه، ولا ينظر إلى ما وراءه حتى لا يصيبه ما أصابهم، ولا يهوله ولا يفزعه ﴿وَأَمْضُوا﴾ أيها المأمورون ﴿حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر: 65].

﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ﴾ أي: حكمنا على لوط بالوحي إليه ﴿ذَلِكَ الْأَمْرُ﴾ الفطيع الهائل، وهو ﴿أَنْ ذَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ﴾ يعني: إن عواقب هؤلاء المسرفين المفرطين مقطوعة مستأصلة بالمرة، حال كونهم ﴿مُضْجِحِينَ﴾ [الحجر: 66] أي: حين دخول الصباح عليهم.

﴿وَوَعَدْنَاكَ بِإِعْدَادٍ﴾ أي: بعد ما بلغ الرسل إلى لوط ما جاءوا به من قِبَلِ الْحَقِّ ﴿جَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الحجر: 67] وهي سدوم، بأضياف لوط، ويستحسنوهم طامعين وقاعهم مسرعين حول بيته.

﴿قَالَ﴾ لهم لوط على مقتضى شفقة النبوة، وإن كان الأمر عنده مقضيًا محتمًا

وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ [الحجر: 74 - 88].

﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ بالزلزلة ﴿عَالِيَهَا﴾ أي: عالي المدينة ﴿سَافِلَهَا﴾ وسافلها عاليها؛ يعني: قد قلنا دورهم عليهم ﴿وَوَ﴾ مع ذلك ﴿أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً﴾ منعقدة منضمة مركبة ﴿مِنْ سِجِيلٍ﴾ [الحجر: 74] وهو معرب سنك وكل.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الإهلاك والتقليب والإمطار ﴿لَايَاتٍ﴾ وعبر ﴿لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: 75] المتأملين المتفرسين، المتعمقين في أية الأشياء ولميَّتها حتى ينكشف عليهم أمرها وسمتها، ولا تترددوا ولا تشكروا أيها السامعون المعتبرون في انقلاب تلك المدينة وتخريبها.

﴿وَأَنفَاهَا﴾ أي: المدينة المذكورة ﴿لِبَسِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: 76] أي: جادة ثابتة يطرقتها الناس، ويرون آثارها وأطلالها.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور من قصة إهلاك أولئك الطغاة البغاة، الهالكين في تيه الغفلة والشهوات ﴿لَايَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: 77] الخاشعين الخائفين من قهر الله وغضبه، الراجين من عفوه ورحمته.

﴿وَوَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل للمؤمنين الاعتبارين أيضًا قصة قوم شعيب عليه السلام ﴿إِنْ كَانَ﴾ أي: إنه كان ﴿أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ أي: الغيضة؛ إذ هم يسكنون فيها ﴿لِظَالِمِينَ﴾ [الحجر: 78] خارجين عن حدود الله الموضوع للعدالة بين عباده، المتعلقة ببخس المكيال والميزان ونقصهما.

وبعدما بالغوا فيها بعثنا إليهم شعيباً عليه السلام فكذبوه، واستهزءوا معه، وأرادوا مقتله ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ مثلما انتقمنا من قوم لوط ﴿وَأَنفَاهَا﴾ أي: أصحاب سدوم والأيكة ﴿لِبِقَاعٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: 79] أي: ملتبسين ملتصقين بسبيل واضح، وطريق مستقيم مستبين ظاهر لائح، جاء به كل نبي منهم، فكذبوه عتواً وعناداً، فأخذوا بما أخذوا.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ﴾ أيضًا مثل تكذيبهما ﴿أَصْحَابُ الْحِجْرِ﴾ وهو واد بين المدينة والشام يسكن فيها ثمود ﴿الْمُزْسِلِينَ﴾ [الحجر: 80] يعني: صالحاً القائم مقام جميع الأنبياء باعتبار اتحاد المرسل به، وهو الدعوة إلى توحيد الحق، وذلك حين بعثنا إليهم بعدما خرجوا عن حدود الله، وانحرفوا عن جادة توحيد.

﴿وَوَ﴾ أيدينا أمره بأن ﴿آتَيْنَاهُمْ﴾ معه ﴿آيَاتِنَا﴾ الدالة على توحيدنا ﴿فَكَاثَرُوا﴾ من

نهاية عتوهم وعنادهم ﴿عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الحجر: 81] بحيث لا يقبلونها أصلاً.
 ﴿وَمِنْ عَادَتِهِمُ الْمُسْتَمِرَّةُ بَيْنَهُمْ أَنَّهُمْ﴾ كَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا يسكنون فيها ﴿آمِنِينَ﴾ [الحجر: 82] من اللصوص، وأنواع المؤذيات والحشرات.

ولما لم يبالوا بالآيات والرسول، وتمادوا على غيهم وضلالهم الذي كانوا عليه انتقمنا منهم ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ﴾ الشديدة الهائلة، وهم حينئذ ﴿مُضْجِعِينَ﴾ [الحجر: 83] داخلين في الصباح، كقوم لوط، فأهلكوا بالمرة.

﴿فَمَا أَغْنَىٰ﴾ ودفع ﴿عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الحجر: 84] من الأموال والأمتعة، والغدد الكثيرة، والحصون المنيعة، والأبنية الوثيقة المشيدة شيئاً من عذاب الله ونكاله.

ثم قال سبحانه قولاً دالاً على كمال قدرته ومشيبته، ولطفه وقهره، وإنعامه وانتقامه تنبيهاً على ذوي البصائر والاعتبار المتفكرين في خلق الله، وإيجاده وإعدامه، واستقلال تصرفاته في ملكه وملكوته: ﴿وَمَا خَلَقْنَا﴾ وقدرنا ﴿السَّمَوَاتِ﴾ وما فيها من الآثار والمؤثرات العلوية ﴿وَالْأَرْضِ﴾ وما عليها من المتأثرات السفلية ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الكائنات والفاسدات الحادثة في الجو باطلاً عبثاً لا عبرة لها ولا اعتبار لإظهارها وظهورها، بل ما خَلَقْنَا مَا خَلَقْنَا ﴿إِلَّا﴾ ملتبساً ﴿بِالْحَقِّ﴾⁽¹⁾ المثبت لأصحاب الدلائل والبراهين، وتوحيد الحق الثابت المحقق لأرباب الكشف واليقين.

﴿وَأَعْلَمُوا أَيُّهَا الْعُقَلَاءُ الْمُكَلَّفُونَ الْمُعْتَبِرُونَ﴾ إِنَّ السَّاعَةَ ﴿الموعودة لانقهار التعينات، واضمحلال التشكلات ﴿لَآتِيَةٌ﴾ جزماً بلا تردد وشبهة، فيجازي فيها كل على

(1) قال في التأويلات: أي: لإظهار الآيات الحق بالحق لأرباب الحق المكاشفين بصفات الحق فإنه لا شهور للسموات والأرض وما بينهما غير الإنسان بأنها مظهر لآيات الحق، وإنما الشعور بذلك للإنسان الكامل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاجْتِلَابِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: 190] وهم الذين خلص لب أخلاقهم الربانية عن قشر صفاتهم الإنسانية، وفيه معنى آخر ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ﴾ أي: سموات الأرواح ﴿وَالْأَرْضِ﴾ أي: أرض الأشباح وما بينهما من النفوس والقلوب والأسرار والخفيات إلا بالحق ومظهره، فإن الإنسان مخصوص به من بين سائر المخلوقات والمكونات؛ لأنه يجمع مبادئ الظاهرة ومعانيه الباطنة مرآة لذات الحق تعالى وصفاته فهو مطهره عند التزكية التنقية، ومظهره عند التجلية والتجلي به لشعوره بذلك، كما كان حال من صقل مرآته عن صدا أنانيته وتجلي بشهوة هويته عند تجلي ربوبيته بالحق، فقال: أنا الحق ومن قال بعد فناء أنانيته عن بقائه بسبحانيته سبحانه ما أعظم شأني.

مقتضى ما كسبت في عالم التعينات والتطورات، وإذا كان الكل مجازون بأعمالهم، مسئولون عنها ﴿فَاصْفَحْ﴾ يا أكمل الرسل، وأعرض عن انتقام من يؤذيك ويرديك ﴿الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: 85] أي: الإعراض المستحسن عند الطباع، واحلم معهم، والطف عليهم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي ربك بأنواع اللطف والكرم، واصطفاك من بينهم بأصناف الفضائل والكمالات ﴿هُوَ الْخَلَّاقُ﴾⁽¹⁾ لهم ولأعمالهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ [الحجر: 86] المميز المبالغ في التمييز بين صالحها وفاسدها، يجازيهم على مقتضى علمه وخبرته.

﴿وَلَا تَبَالٍ﴾ يا أكمل الرسل بهم، وبما عندهم من حطام الدنيا ومزخرفاتها الفانية، ولا تحزن على أذاهم، فإننا من مقام جودنا وفضلنا ﴿لَقَدْ آتَيْنَاكَ﴾ وأعطيناك تميماً لتكريمك وتعظيمك ﴿سَبْعًا﴾ أي: سبع آيات ﴿مِّنَ الْمَثَانِي﴾ أي: الفاتحة التي تشي نزولها تارة بمكة، وتارة بالمدينة على عدد الصفات السبع الإلهية؛ ليكون لك حظ من جميعها، والسبع الطباق الفلكية والكواكب السبعة، والأقاليم السبعة الأرضية، والمشتهيات السبعة الدنيوية المذكورة في كريمة: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ [آل عمران: 14] لتكون عوضاً عنها، والأدوية السبعة الجهنمية؛ لتكون منجية منها، فتكون الفاتحة أعظم وأولى من الدنيا وما فيها.

﴿وَلَا تَقْصُرْ﴾ مع ذلك لا تقتصر عليها، بل آتيناك ﴿الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: 87] الجامع لفوائد ما في الكتب السالفة، الناسخ لها، المعجز لجميع من أتى بمعارضته ومقابلته. فعليك بعدما اصطفيناك يا أكمل الرسل من بين سائر الأنبياء بأمثال هذه الكرامات أن ﴿لَا تُمَدِّدْ عَيْنَيْكَ﴾ نحوهم، ولا تنظر نظر متحسر راغب، بل نظر معتبر كاره ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ﴾ من الزخارف ﴿أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ أي: أصنافاً من الأمتعة معطاة منها للكفرة ابتلاء لهم، بحيث صاروا بها مفتخرين، بطرين بين الناس ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ بعدم اتباعهم لك وإيمانهم بك؛ إذ هذه المزخرفات الدنية تحجبهم عن الإيمان، وتعوقهم عن العرفان؛ لأنهم مفتونون بها ﴿وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ وابسطها كل البسط ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: 88] الذين يتبعونك عن خلاء القلب، وصفاء القريحة بلا

(1) قال نجم الدين: يشير بالخلق وهو للمبالغة إلى أنه تعالى خالق لصور المخلوقات ومعانيها وحقائقها العليم، بمن خلقه مستنداً لمظهرية ذاته وصفاته ومظهريته، فلما كانت السموات والأرض وما بينهما مظهر الصفات الحق تعالى دون ذاته ولا شعور لها به، ولم تكن مظهرًا لذاته وصفاته وكان الإنسان الكامل.

شوب الرياء والسمعة، وشين الأهوية الفاسدة.

﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾ (٨٩) ﴿ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴾ (٩٠) ﴿ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾ (٩١) ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٩٢) ﴿ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٩٣) ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٩٤) ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ (٩٥) ﴿ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٩٦) ﴿ وَلَقَدْ فَكَّرْنَا أَنَّكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ (٩٧) ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ (٩٨) ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ (٩٩) [الحجر: 89 - 99].

﴿ وَقُلْ ﴾ للمعانددين المنكرين: ﴿ إِنِّي ﴾ بإذن ربي ووحيه إلي ﴿ أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾ [الحجر: 89] والمنذر المبين، أذكركم ببيان واضح، وبرهان لائح، نازل علي من ربي أن العقاب والعذاب سينزل علي من لم يؤمن بالله، وبوحدة ذاته، وصفات كماله. ﴿ كَمَا أَنزَلْنَا ﴾ أي: مثل العذاب الذي أنزلناه من قبل ﴿ عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴾ [الحجر: 90] وهم الرهط الذي تقاسموا أن يبيتوا صالحًا.

والمقتسمون اليوم هم ﴿ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ ﴾ المعجز لفظًا ومعنى، نصًا ودلالة، اقتضاءً ومطلقًا ﴿ عِضِينَ ﴾ (١) [الحجر: 91] أي: ذي أجزاء مختلفة، بعضها حق؛ لأنه مطابق للكتب السالفة، وبعضها باطل؛ لأنه مخالف لها، وبعضها شفر، وبعضها كهانة، مع أن الكل هداية لا ضلال فيها أصلاً، تعالى شأنه وكتابه عما يقولون علواً كبيراً. ﴿ فَوَرَبِّكَ ﴾ يا أكمل الرسل وعزته وجلاله ﴿ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر: 92] أي: عن جميعهم على التفصيل.

﴿ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر: 93] أي: يقدحون في القرآن، وينسبون إليه من المفتريات التي هو بريء منها، بعيد عنها بمراحل.

وإذا كان نزول القرآن للهداية العامة، والإرشاد الشامل ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ واجهر به يا أكمل الرسل، وافرق بين الحق والباطل على الوجه المأمور فيه، وبين

(١) قال في التأويلات: أي: جزؤه أجزاء في الاستعمال، فقوم: قراؤه وداوموا على تلاوته ليقال لهم القراء وبه يأكلون، وقوم: حفظوه بالقراءة ليقال لهم الحفاظ وبه يأكلون، وقوم: حصلوا تفسيره وتأويلاته ابتغاء طلب الشهرة وإظهاراً للفضل ليأكلوا، وقوم: استخرجوا معانيه واستنبطوا فقهه وبه يأكلون، وقوم: شرعوا في قصصه وأخباره ومواظبه وحكمه وبه يأكلون وقوم: أولوه على وفق مذاهبهم وفسروه برأيهم فكفروا بذلك.

للهداية والضلال ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: 94] واتركهم وأنفسهم، ولا تلتفت إليهم، ولا تتعرض لدفعهم ومنعهم إن استهزئوا بك.

﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ أَذَى الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: 95] عنك، وانتقمنا لأجلك منهم بأضعاف ما قصدوا بك من الاستهزاء والسخرية.

وكيف لا نتقم منهم؛ إذ هم المشركون المسرغون ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ﴾ المتوحد في ذاته وأوصافه وأفعاله ﴿إِلَهًا آخَرَ﴾ مستحقاً لعبادة ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: 96] عند انكشاف الحجب والأستار، قبح ما يقترون، ويتسيون إلى الله افتراءً ومراءً.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ﴾ منك يا أكمل الرسل ﴿أَنَّكَ يَصِيقُ صَدْرُكَ﴾ من كظم غيظك، ويقل صبرك على تحمل ألقامهم ﴿بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: 97] مما لا يليق بجنابنا من القدح في كلامنا، وإثبات الشركاء لنا مع وحدة قاتنا، ومن استهزائهم بك، ويمن تبعك من المؤمنين، فعليك ألا تلتفت إليهم، ولا تسمع هفياتاتهم، وإنما عليك العبرة منهم، وتنزيهنا وتقديسنا عن مقالاتهم.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ إذ تسيحك وتحميدك إيانا خير لك من استماع ما تفوهوا به مراءً ﴿وَكُنْ﴾ في نفسك في جميع أوقاتك وحالاتك ﴿مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: 98] الواضعين جباههم على تراب المذلة على قصد تعظيمنا وتبجيلنا.

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقُ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ ٩٩ ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾ ١٠٠ ﴿خَلِيلَيْنِ بِهِ وَسَاءَ لَمُتْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ جَمَلًا﴾ ١٠١ ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ ١٠٢ ﴿يَخْفَتُونَ يَنْتَهُمُ إِنْ لَيْشُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ ١٠٣ ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَيْشُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ ١٠٤ ﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ ١٠٥ ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ ١٠٦ ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ ١٠٧ ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ ١٠٨ ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرِضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ ١٠٩ ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ ١١٠ ﴿وَعَسَى الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ ١١١ ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ ١١٢ ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنْ

الْوَعِيدَ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْذِرُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ [طه: 99 - 113].

﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ﴾ واجتهد في سلوك طريق المعرفة ﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾⁽¹⁾ [الحجر: 99] ويحصل لك الكشف والشهود، ويرتفع عنك حجب الأنانية والوجود. جعلنا الله من الموقنين المنكشفين بمنه وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك القاصد لسلوك طريق التوحيد - أنجح الله آمالك - أن تبتدئ أولاً بعدما هذبت ظاهرك بالشرائع، وباطنك بالجلاء عن الموانع، بذكر الله الواحد الأحد الصمد، المتصف بجميع أوصاف الكمال إلى أن يؤدي ذكرك إلى الفكر المورث للمجاهدة والانزعاج، والشوق والابتهاج أحياناً، وواظب عليها إلى أن يستوعب جميع أوقاتك وحالاتك، وحينئذٍ ظهرت ولاحت على قلبك مقدمات المحبة والمودة، والعشق المزعج المفني، وصرت عليها زماناً إلى أن اشتاق وتعطش قلبك إلى فنائك وانقهارك في محبوبك.

وفي تلك الحالة عرضت عليك الحيرة والحسرة، والوحشة والقلق والاضطراب، والخوف والرجاء، واللذة والألم، وصرت بين بين، وأين أين، وكيف كيف. وبالجمله: كنت في تلوين وتكوين، وإطلاق وتقييد، وما هي سكراتك عند موتك الإرادي، واضطراباتك دونها، وحينئذٍ لا يسع لك إلا الرضا والتسليم، والتوكل والتفويض، إلى أن جذبك الحق، ووفقك بالتمكين والتسكين، وأطلقك عن التقييد والتعيين، وأفناك عنك، وأبقاك بذاته، وفزت بما فزت، وتكون حينئذٍ ﴿مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: 98] قد أتاك اليقين والتمكين، وأخلصك عن التردد والتلوين.

(1) قال في التأويلات: أي: إلى الأبد وذلك لأن حقيقة اليقين المعرفة، ولا نهاية لمقامات المعرفة فكما أن للواصل إلى مقام من مقامات المعرفة يأتيه يقين بتلك المقام في المعرفة كذلك يأتيه شك بمعرفة مقام آخر في المعرفة فيحتاج يقين آخر في إزالة هذا الشك إلى ما لا يتناهى، فثبت إلى اليقين هاهنا إشارة إلى الأبد.

سورة النحل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة النحل

لا يخفى على ذوي التمكن والتوطين من أرباب المحبة والولاء، الواصلين إلى مقر التوحيد، الناجين المخلصين عن ربة التلوين والتقليد، باستيلاء سلطان الإطلاق المفني للأغيار مطلقاً أن الأمور الإلهية الجارية على حسب الأوصاف الذاتية مرهونة بأوقات مقدرة، وآجال معينة من عنده سبحانه، لا يتقدم عليها ولا يتأخر عنها، بل إذا وصل وقتها وقع فيها حتماً حكماً مبرماً، لا تختلف عنها أصلاً إلا إذا علق الحق بتقديمها وتأخيرها، ووقفه في حضرة علمه القديم على أمر من الأمور.

لذلك أمر عباده بالدعاء والمناجاة ربما اتفق عليه ووافق له، فالاستخار والاستعجال، إنما هو من شيم أهل الزيغ والضلال، المقيدين بسلاسل الأسباب، وأغلال الوسائل، وأما أرباب الإطلاق المتحيرون في بيداء الألوهية، الوالهون في فضاء الربوبية، لا يستقدمون ولا يستأخرون في الأمور الحادثة، بل جريان الأمور كلها عندهم على سبيل التجدد الإبداعي، والأسباب والوسائل عندهم إنما هي توهّمات باطلة، وتخيلات عاطلة، نشأت من الإضافات العدمية، والاعتبارات الوهمية الحاصلة من توهم الزمان والمكان المتفرعين على الجهات العدمية، بالنسبة إلى المحبوسين في مضيق الأزل والأبد، والأول والآخر، والمبدئ والمنتهي.

لذلك أخبر سبحانه عباده بجريان أمره على مقتضى مراده، وقت تعلق إرادته ومشيته بإظهاره وإيجاده، فقال متيمناً باسمه الأعلى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي تجلى بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا على ما تجلى من مظاهره ومصنوعاته بلا سبق زمان ومكان. ﴿الرَّحْمَنُ﴾ الذي دبر أمور عباده على مقتضى مراده بأحسن التدبير في مبدئهم ومعادهم، بلا مشاركة ظهير ومشير ﴿الرَّحِيمُ﴾ الذي هداهم إلى سبيل توحيده بالإنذار والتبشير، وأرسل إليهم الأنبياء؛ ليبينوا لهم طريق الرشيد، ويجنبوهم عن الغي والضلال، وأنزل عليهم الكتب المينة الفارقة بين الحق والباطل، والحرام والحلال، وأخبرهم فيها عن يوم الحشر والعرض الموعود للجزاء والسؤال عما جرى عليهم في النشأة الأولى

من الأحوال، فلهم أن يصدقوه ويؤمنوا له، ولا يسألوا عن وقت قيامه، بل يهبطوا الزاد لأجله، ويشمروا الذيل لوقوعه تعبداً وانقياداً.

﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ①﴾ يُزِيلُ الْمَلَكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ② خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ③ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ④ وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ⑤ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ⑥ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَحِيمٌ ⑦ وَلَئِنْ لَمْ يَنْفَلِ الْيَوْمَ وَالْحَمِيرَ لَنَزَكُنَّوْهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ⑧﴾ [النحل: 1 - 8].

لذلك أخبر سبحانه عن إتيانه ووقوعه بالجملة الماضية تنبيهاً على تحقق وقوعه، فقال: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾⁽¹⁾ أي: يومه الموعود الذي انكشفت فيه السدول، ولاحت الأسرار، وارتفعت حجب التعينات والأستار، واضمحلت السوى والأغيار، ونودي من وراء سرادقات العز والجلال بعد انقهار الكل: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر: 16]؟ وأجيب أيضاً من ورائها: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: 16]، ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ أي: لا تستعجلوا وقوعه أيها المترددون الشاكون في أمره ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: 1] له من الآلهة الباطلة، ويدعون شفاعتها لهم عند الله لدى الحاجة.

(1) قال في التاويلات: كلام قديم كان الله في الأزل به متكلفاً، والمخاطبون به في الله محبوسين وهم طبقات ثلاث: منهم الغافلون والعاملون والعاشقون، فكان الخطاب مع الغافلين: بالعتاب إذا كانوا مشتاقين إلى الدنيا وزخارفها ولذاتها وشهواتها وهم أصحاب النفوس، والخطاب مع العاقلين: بوعد الثواب إذا كانوا مشتاقين إلى الطاعات والعبادات والأعمال الصالحات التي تبلغهم إلى الجنة ونعيمها الباقية وهم أرباب العقول، والخطاب مع العاشقين: يوصل رب الأرباب إذا كانوا مشتاقين إلى مشاهدة جمال ذي الجلال، فتستعجل أرواح كل طبقة منهم للخروج من العدم إلى الوجود لنيل العقود وطلب المقصود فتكلم الله تعالى في الأزل بقوله: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي: سيأتي أمر الله للخروج من العدم لإصابة ما كتب لكل طبقة منكم في القسمة الأزلية.

بل هو الله الواحد الأحد، الصمد الذي ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ﴾ المقربين عنده ﴿بِالرُّوحِ﴾ أي: بالوحي الناشئ ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ توفيقاً وتأيداً ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ﴾ خلص ﴿عِبَادِهِ﴾ وهم الأنبياء والمرسلون المأمورون ﴿أَنْ أُنذِرُوا﴾ أي: بأن خوفوا عباد الله المنحرفين عن استقامة صراطه، وجادة توحيده من بطشه وانتقامه إياهم؛ وقولوا لهم نيابة عن الله: ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ﴾ يُعبد بالحق ﴿إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: 2] عن مخالفة أمري وحكمي.

وكيف تشركون أيها المشركون ما لا يقدر على خلق أحقر الأشياء وأضعفها للقادر الحكيم الذي ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ﴾ مع كمال عظمتها ورفعتهَا ﴿وَالْأَرْضِ﴾ بكمال بسطتها، وإنما خلق ما خلق، وأظهر ما أظهر ملتبساً ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بانبساط نور الوجود الكائن الثابت في نفسه، وامتداد أظلال أوصافه وأسمائه عليهما، مع أنه على صرافة وحدته، وهما على عدميتهما الأصلية ﴿تَعَالَى﴾ وتقدس ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: 3] له شيئاً لا وجود له، ولا تحقق سوى الظلية والعكسية.

ولاسيما كيف يشركون أولئك الحمقى الضالون للقادر الذي ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ وأوجده على أحسن صورة، وأعدل تقويم ﴿مِنْ نُطْفَةٍ﴾ دنية مهينة، لا تميز لها أصلاً ولا شعور، وربّاهما إلى أن صار ذا رشد وتميز وكمال، وإدراك ودراية ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ مجادل مبالغ في امتياز الحق من الباطل، والهداية من الضلال ﴿مُبِينٌ﴾ [النحل: 4] ظاهر البيان بإقامة الدلائل والبراهين القاطعة، وما هي إلا من تربية مبدعها وخالقها القادر المقتدر بالإرادة والاختيار^١.

﴿وَالْأَنْعَامِ﴾ أيضاً ﴿خَلَقَهَا﴾ وأوجدها طفيلاً للإنسان؛ ليكون ﴿لَكُمْ﴾ أيها المجبولون على الكرامة الفطرية ﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾ تستدفئون به من الألبسة والأغطية المتخذة من أصوافها وأشعارها وأوبارها لدفع الحر والبرد ﴿وَمَنْافِعٌ﴾^(١) غير ذلك من الخبَاء والقباء وغيرهما ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: 5] لتقويم مزاجكم وتعديلها من

(1) قال الشيخ كبرى: أي: لتتفخوا بها حين اطلاعكم على صفاتها الحيوانية الذميمة التي هي مودعة في جبلتكم مما يخالف صفاتكم الروحانية الملكية، فتجتهدوا في تبديل الصفات الحيوانية الذميمة بالصفات الملكية الروحانية الحميدة احترازاً عن الاحتباس في حيزها واجتناباً عن شبهتها بقوله: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: 44].

لحومها وشحومها وألبانها.

﴿و﴾ أيضًا ﴿لَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ وزينة وجاء بين أظهركم ﴿جَيْنَ ثَرِيحُونَ﴾ وتجمعونها إلى المراح من المرعى وقت الرواح مملوءة الضروع والبطون ﴿وَجَيْنَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: 6] وترسلونها إلى المرعى وقت الصباح.

﴿و﴾ من أعظم فوائدها أنها ﴿تَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ أي: أحمالكم التي تستقلونها ﴿إِلَى بَلَدٍ﴾ بعيد ﴿لَمْ تَكُونُوا بِالْغِيَةِ﴾ أي: لم يحصل لكم بلوغها إليها لولاها ﴿إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ﴾ أي: بالمشقة التامة، والعسر المفرط، فخلقها سبحانه تيسيرًا لكم وتسهيلًا، تمييزًا لتكريمكم ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ﴾ الذي رباكم بأنواع اللطف والكرم ﴿لَزَّءُوفٌ﴾ عطوف مشفق لكم، يسهل عليكم كل عسير ﴿رُحِيمٌ﴾ [النحل: 7] لكم، يوفقكم ويهيئ أسبابكم؛ لتواظبوا على أداء ما أفترض عليكم من كسب المعارف والحقائق الرافعة لكم إلى أرفع المنازل، وأعلى المراتب.

ثم أشار سبحانه أيضًا إلى ما يضركم، ويدفع أذاكم، ويرفع جاهكم تمييزًا لتعظيمكم وتربيتكم، فقال: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ﴾ إنما خلقها وأظهرها سبحانه ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ تجعلوها ﴿زِينَةً﴾ لأنفسكم بين بني نوعكم ﴿و﴾ بالجملة: ﴿يَخْلُقُ﴾ لكم ربكم على مقتضى علمه بحوائجكم ومزيناتكم ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 8] وتاملون أنتم لأنفسكم مما يعينكم ويعينكم في النشأة الأولى والأخرى.

﴿وَقُلْ اللَّهُ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايَزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ① ﴿وَالَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ ثَمَرَاتٌ ② يُبَيِّتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ③﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالشُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِ رَبِّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ④﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَكْفُرُونَ ⑤﴾ وَمَا الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبًا تَبْسُوتُهَا وَتَرَى فِي الْفَلَكَ مَوَاقِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَكُمْ تَشْكُرُونَ ⑥﴾ وَالْقَى فِي

الْأَرْضِ رَوِّمُوكَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْتَهَرَا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ [النحل: 9 - 15].

﴿و﴾ كما يدبر سبحانه أمور معاش عباده على الوجه الأليق الأحسن بحالهم، كذلك له أن يدبر أمور معادكم، بل هي أولى للتدبير؛ لذلك ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿قَضُ السَّبِيلِ﴾ أي: إرشادهم وهدايتهم إلى طريق مستقيم موصل إلى توحيده؛ ليصلوا إليه، ويفوزوا بما وعدوا عنده ﴿و﴾ كيف لا يرشدكم سبحانه إلى سواء السبيل ﴿مِنْهَا﴾ أي: من السبيل ﴿جَائِزٌ﴾ مائل منصرف عن الحق وتوحيده على مقتضى أوصافه الجلالية المذلة المضلة تميمًا للقدرة الكاملة، والسلطنة العامة الشاملة لكلا طرفي اللطف والقهر، والجمال والجلال ﴿وَلَوْ مَاءً﴾ وأراد سبحانه هدايتكم ﴿لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: 9] على مقتضى تجليات الأوصاف اللطيفة الجمالية، المثمرة للذة الدائمة، والسرور المستمر الغير المنقطعة، لكن اقتضى حكمته البالغة أن يكون جنبه رفيقًا متعاليًا عن أن يطلع عليه واحد بعد واحد؛ لذلك تجلى على بعض المظاهر بالأوصاف القهرية الجلالية المورثة للحزن الدائم، والألم المخلد.

وكيف لا يدبر سبحانه أمور عباده ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ﴾ وأفاض ﴿مِنْ السَّمَاءِ مَاءً﴾ محييًا لموات الأرض، مثل إحياء الروح لأراضي الأجساد؛ ليحصل ﴿لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ﴾ تشربون منه، أو تعصرونه من القصب والفواكه ﴿و﴾ يحصل ﴿مِنْهُ شَجَرٌ﴾ أي: أنواع النباتات المستخرجة من الأرض لرعي مواشيكم؛ إذ ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: 10] وتُسرحون دوابكم للرعي إلى أن يسمن فيؤكل.

وأيضًا ﴿يُنَبِّثُ لَكُمْ﴾ أي: لقوتكم المقوم لمزاجكم ﴿بِهِ الزَّرْعُ﴾ بأنواعها؛ لتتخذوا منها أخبارًا ﴿وَالزُّيْتُونَ﴾ للإدام ﴿وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ﴾ للتفكه والتقوت أيضًا ﴿و﴾ بالجملة: يخرج لكم به ﴿مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ تميمًا لأموال معاشكم، وتقويمًا لمزاجكم؛ لتفكروا في آلائه ونعمائه، وتذكروا ذاته؛ كي تفوزوا بمعرفته وتوحيده ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: إنعام هذه النعم العظام المذكورة ﴿لَايَةً﴾ عظيمة، وبينه واضحة لائحة ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 11] أي: يستعملون عقولهم في تفكر آلاء الله ونعمائه؛ ليواظبوا على أداء شكرها.

﴿و﴾ من آياته سبحانه المتعلقة لتدبير أحوالكم: إنه ﴿سَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ﴾ لتسكنوا فيه وتشربوا ﴿وَالنَّهَارَ﴾ لتعيشوا فيه وتكتسبوا ﴿و﴾ أيضًا ﴿الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ لإنضاج

ما تتقوتون، وإصلاح ما تفكهنون ﴿وَر﴾ سخر ﴿النَّجُومُ﴾ أيضاً، لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر، حال كون كل منها ﴿مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾⁽¹⁾ تابعات لحكمه وتقديره على تقدير النصب، أو مع أن الكل مسخرات في قبضة قضائه، يصرفها حسب إرادته ومشيته على تقدير الرفع ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: التسخير المذكور ﴿لَايَةً﴾ أي: في كل منها دليل واضح، وبرهان لائح ﴿لَقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [النحل: 12] ويستدلون من الآثار إلى المؤثر، ومن المصنوعات إلى الصانع الحكيم.

﴿وَر﴾ سخر لكم أيضاً ﴿مَا ذَرَأَ﴾ وخلق ﴿لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ أشكاله وطبعه على مقتضى أهويتكم وأمزجتكم من الحوائج المتعلقة لحفظكم وترفعكم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [النحل: 13] ويتفطنون منها إلى كرامة الإنسان من بين سائر الأكوان، وإلى خلافته ونيابته عن الله.

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ﴾ لكم ﴿الْبَحْرَ﴾ من كمال لطفه وتكرمه إياكم ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وهو السمك ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً﴾ وزينة من الجواهر النفيسة ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ وتزينون بها ترفها وتنعم ﴿وَتَرَى﴾ أيها الرائي ﴿الْفُلْكَ﴾ أي: السفن ﴿مَوَاحِرَ فِيهِ﴾ أي: جوارى مشققات للبحر، مسيرات لمن فيها على الماء ﴿وَر﴾ ما ذلك إلا ﴿لِتَبْتَغُوا﴾ وتطلبوا ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ وجوده ما يهينكم، ويليق بكم من الحوائج والأرباح وغير ذلك ﴿وَر﴾ إنما سخر سبحانه ما سخر عليكم من البر والبحر ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: 14] رجاء أن تواظبوا وتداوموا على شكر نعمه، وتصرفوها طلباً لمرضاته.

﴿وَر﴾ من رحمته ولطفه أيضاً ﴿الَّذِي فِي الْأَرْضِ﴾ التي هي مستقركم ومنشركم ﴿رَوَاسِيَ﴾ مخافة ﴿أَنْ تَجِيدَ﴾ وتحرك ﴿بِكُمْ﴾ ولا يمكن استقراركم عليها لاضطرابها وتزلزلها، إذ هي في طبيعتها كرة حقيقية، ملقاة على الماء، مغمورة فيه، فلما ألقاها سبحانه عناية منه رواسي ثقلاً، صارت متفاوتة الأطراف في الثقل، فاستقرت وثبتت ﴿وَر﴾ أيضاً أجرى لكم ﴿أَنْهَارًا﴾ عليها كي يمكنكم الاستسقاء منها لدى الحاجة ﴿وَر﴾ عين لكم بين الجبال الراسيات ﴿سُبُلًا﴾ نافذات ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النحل: 15] إلى ما

(1) قال في التأويلات: وهو خطاب كن وتسخيرها استعمالها على وفق الشريعة وقانون الطريقة لعالجه الطبيب الحافق بصيرة والولاية كامل التصرف في الهداية مخصوص بالعناية.

تقصدون من البلدان البعيدة.

﴿وَعَلَّمَكُم مَّا تَجْمَعُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوكُمْ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مَُّنكِرَةٌ وَهُمْ فَسَّاكِينٌ ﴿٢٢﴾ لَّجَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُوكُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُخَبِّرُ الْمُنَكِّيرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِن أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا مِثْلَهُ مَّا يَزِيدُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَنَّ اللَّهَ بَنَسَنَّهُمْ مِّنَ الْفَوَاحِشِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [النحل: 16 - 26].

﴿و﴾ نصب لكم ﴿عَلَامَاتٍ﴾ دالة على مقاصدكم في البوادي والبراري بالتلال والوهاد ﴿و﴾ في البحار ﴿بِالنَّجْمِ﴾ أي: بالنجوم المتعارفة عند البحارين؛ إذ ﴿هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: 16] بها حين وقوعهم في لجج البحار، كل ذلك من الدلائل الدالة على وحدة الفاعل المختار، المتصف بجميع أوصاف الكمال، المنزه عن مشاركة الأضداد والأمثال، مبدع المخلوقات من كتم العدم بلا سبق مادة وزمان، ومخترع الكائنات بلا علل وأغراض على سبيل الفضل والإحسان.

﴿أ﴾ تشركون مع الله الواحد الأحد، الفرد الصمد الذي لا شيء في الوجود سواه، ولا إله إلا هو، يخلق ما يشاء على مقتضى جوده ورحمته، من لا يخلق شيئاً، بل هو من أدون المخلوقات ﴿فَمَن يَخْلُقُ﴾ أيها الحمقى ﴿كَمَن لَا يَخْلُقُ﴾ في الرتبة واستحقاق العبادة، ولم يفتنوا بالفرق بينهما مع جلالة وظهوره، مع أنكم من زمرة العقلاء ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 17] فطرتكم المعبولة على العلم والتمييز^{١٩}.

﴿و﴾ كيف تشركون مع الله المنعم المفضل عليكم، مع أنكم ﴿إِن تَعُدُوا نِعْمَةَ

﴿اللَّهُ﴾⁽¹⁾ الفائضة عليكم، وآلاءه الواصلة إليكم ﴿لَا تُخْضَوْنَهَا﴾ لكثرتها ووفورها، ومع ذلك أشركتم معه غيره، وكفرتكم بنعمه، مع أن المناسب لكم الرجوع إليه، والإنابة نحوه ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿لَغَفُورٌ﴾ لمن تاب وآمن، وعمل صالحاً ﴿رَحِيمٌ﴾ [النحل: 18] يقبل توبتهم، ويتجاوز عن سيئاتهم لو أخلصوا.

﴿وَاللَّهُ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿يَعْلَمُ﴾ منهم ﴿مَا تُسِرُّونَ﴾ في قلوبكم بلا موافقة ألسنتكم ﴿وَمَا تُغْلِبُونَ﴾ [النحل: 19] بألسنتكم بلا مطابقة قلوبكم، فعليكم أيها المؤمنون المنبيون أن تنبؤوا نحو الحق سرّاً وعلانية حتى لا تكونوا من المنافقين المخادعين مع الله.

﴿وَأَعْلَمُوا﴾ أيها المشركون المكابرون أن ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ المعبود بالحق آلهة، وتعبدونهم إفكاً كعبادته سبحانه، مع أنهم لا يستحقون الألوهية؛ إذ ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً﴾ حقيراً، وكيف بالعظيم، بل ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل: 20] مخلوقون.

بل هم من أدون المخلوقات؛ لأنهم ﴿أَمْوَاتٌ﴾ أي: جمادات لا شعور لهم أصلاً؛ لأنهم ﴿غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ أي: غير ذي حس وحركة إرادية ﴿وَأَكْثَرُ مَا يَشْعُرُونَ﴾ شعور الحيوانات ﴿أَيَّانَ يَتَعَفَّوْنَ﴾ [النحل: 21] أي: إلى أين يحشرون ويساقون من المرعى، فهم في أنفسهم أدنى وأخس من الحيوانات العجم، فكيف تتأني منهم الألوهية المستلزمة للاطلاع على جميع المغيبات الجارية في العوالم كلها اطلاع حضور وشهود؟!

بل ﴿إِلَهُكُمْ﴾ الذي أوجدكم من كتم العدم، وأظهركم في فضاء الوجود ﴿إِلَٰهٌ﴾

(1) قال في التأويلات: إشارة إلى أن النعمة نعمتين: أعطاف إعطائه ونعمة الطافه، فنعمة أعطاف إعطائه ما يتعلق بوجود النعمة وهو على ضربين: نعمة ظاهرة، ونعمة باطنة، ونعمة الطافه ما يتعلق بوجود المنعم وهو على ضربين: نعمة ذاته بالألوهية، ونعمة صفاته بالربوبية، وهي بلا نهاية فلا تعد ولا تحصى، وقال ابن عطاء: إن لك نفساً وقلباً وروحاً وعقلاً ومحبةً ودينًا ودنيا وطاعةً ومعصيةً وابتداءً وانتهاءً وحيثاً وأصلاً وفصلاً، فنعمة النفس: الطاعات والإحسان والنفس فيهما يتقلب، ونعمة الروح: الخوف والرجاء وهو فيهما يتقلب، ونعمة القلب: اليقين والإيمان وهو فيهما يتقلب، ونعمة العقل: الحكمة والبيان وهو فيهما يتقلب، ونعمة المعرفة: الذكر والقرآن وهو فيهما يتقلب، ونعمة المحبة: الألفة والمواصلة والأمن من الهجران وهو فيهما يتقلب.

وَاحِدٌ أَحَدٌ صَمَدٌ، لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفَاءٌ وَلَا شَرِيكَ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: 11]،
 إِنَّمَا يَظْهَرُ وَيُنْكَشِفُ تَوْحِيدَهُ سُبْحَانَهُ لِأُولَى الْعِزَائِمِ وَالنَّهْيِ، مِنْ أَرْيَابِ الْمَحَبَةِ وَالْوَلَاءِ
 فِي النِّشَاءِ الْأُولَى وَالْآخَرَى ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ الْمَعْدَةِ لِشَرَفِ الْلِقَاءِ ﴿قُلُوبُهُمْ
 مُنْكَرَةٌ﴾ بِلِقَاءِ اللَّهِ فِيهَا ﴿وَهُمْ﴾ مِنْ شِدَّةِ شَكِيمَتِهِمْ، وَكَثَافَةِ حُجْبِهِمْ مَعَ إِنْزَالِ الْكُتُبِ
 الْمَبِينَةِ لِأَحْوَالِهَا وَأَهْوَالِهَا، وَالرَّسْلِ الْمُنْبِهِينَ لَهُمْ عَلَيْهَا ﴿مُتَّكِبُونَ﴾ [النحل: 22]
 مُتَرَدِّدُونَ عَتَوًا وَعِنَادًا.

لِذَلِكَ ﴿لَا جَزْمَ﴾ أَي: حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَعَذِّبَهُمْ، مَعَ ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ الْمَطْلَعِ لِسِرَائِرِهِمْ
 وَضَمَائِرِهِمْ ﴿يَعْلَمُ﴾ بِعِلْمِهِ الْحَضُورِيِّ ﴿مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ مِنَ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ،
 فَيَجَازِيهِمْ عَلَى مَقْتَضَى عِلْمِهِ بِحَالِهِمْ، وَلَا يَحْسُنُ إِلَيْهِمْ سُبْحَانَهُ بَدَلُ إِسَاءَتِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ
 مُسْتَكْبِرُونَ ﴿إِنَّهُ﴾ سُبْحَانَهُ ﴿لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: 23] لِاشْتِرَاكِهِمْ مَعَهُ
 سُبْحَانَهُ فِي أَخْصِ أَوْصَافِهِ؛ إِذِ الْكِبْرِيَاءُ مَخْصُوصٌ بِهِ، لَا يَسَعُ لِأَحَدٍ أَنْ يَشَارَكَ مَعَهُ فِيهِ.
 ﴿وَهُ﴾ مِنْ غَايَةِ عَتَوِهِمْ وَاسْتِكْبَارِهِمْ ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ عَلَى سَبِيلِ الْإِسْتِفْسَارِ: ﴿مَآذَا
 أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ عَلَى نَبِيِّكُمْ ﴿قَالُوا﴾ عَلَى سَبِيلِ التَّهْكُمِ وَالِاسْتِهْزَاءِ: مَا أَنْزَلَ رَبِّي إِلَّا
 ﴿أَسَاطِيرَ الْأَوَّلِينَ﴾ [النحل: 24] أَي: الْأَكَاذِيبَ وَالْأَرْجُفَةَ الَّتِي سَطَرَهَا الْأَوَّلُونَ فِيمَا
 مَضَى مِنْ تَلْقَاءِ نَفُوسِهِمْ.

وَلِإِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ وَشَاعُوا بِهِ بَيْنَ الْأَنَامِ ﴿لِيُخَمِّلُوا أَفْزَارَهُمْ﴾ وَأَثَامَهُمْ ﴿كَامِلَةً﴾ بِلَا
 تَخْفِيفٍ شَيْءٍ مِنْهَا وَلَا نَقْصَانٍ؛ لِيُؤَاخِذُوا عَلَيْهَا ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ﴾ يَحْمِلُوا أَيْضًا ﴿مِنْ
 أَفْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ﴾ مِنْ ضَعْفَاءِ النَّاسِ بِقَوْلِهِمْ هَذَا إِيَّاهُمْ، مَعَ أَنَّهُمْ خَالِيَةُ الْأَذْهَانِ
 ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يَتَعَلَّقُ مِنْهُمْ بِالْقُرْآنِ وَإِعْجَازِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ لَا يَعْذِرُونَ؛ لِعَدَمِ التَّفَاتِهِمْ إِلَى
 التَّأَمُّلِ وَالتَّدْبِيرِ حَتَّى يَظْهَرَ عَلَيْهِمْ حَقِّيقَتُهُ وَبَطْلَانُ قَوْلِهِمْ ﴿إِلَّا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: 25]
 الْمُضِلُّونَ بِضَلَالِهِمْ، وَالضَّالُّونَ بِضَلَالِهِمْ، وَعَدَمِ تَأَمُّلِهِمْ وَتَدْبِيرِهِمْ، مَعَ أَنَّهُمْ
 مُجْبُولُونَ عَلَى التَّأَمُّلِ وَالتَّدْبِيرِ.

هَذَا التَّكْذِيبُ وَالِإِضْلَالُ، وَالتَّهْكُمُ وَالِاسْتِهْزَاءُ مِنَ الْأُمُورِ الْحَادِثَةِ بَيْنَ أَوْلَئِكَ
 الْهَالِكِينَ فِي تِيهِ الشَّرْكِ وَالطُّغْيَانِ، بَلْ مِنْ دِيْدَنَتِهِمُ الْقَدِيمَةِ، وَعَادَتِهِمُ الْمُسْتَمِرَّةِ؛ إِذْ ﴿قَدْ
 مَكَرَ الَّذِينَ﴾ مَضَوْا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وَاحْتَالُوا لِإِضْلَالِ الْعَوَامِ، وَبَنَوْا أُنْبِيَةَ رَفِيعَةٍ لِلصُّعُودِ
 إِلَى السَّمَاءِ، وَالْمُقَاتَلَةِ مَعَ سُكَّانِهَا وَإِلَهَائِهَا، ثُمَّ لَمَّا تَمَّ بِنْيَانُهُمْ وَقُصُورُهُمْ ﴿فَأَتَى اللَّهُ
 بُنْيَانَهُمْ﴾ أَي: أَتَى أَمْرَهُ سُبْحَانَهُ بِإِهْلَاكِهِمْ وَتَعْذِيبِهِمْ بِهَدْمِ بَنَائِهِمْ ﴿مِنْ الْقَوَاعِدِ﴾

والأعمدة والأساس التي بُنيت عليها البناء، فتضعضت وتحركت الدعائم ﴿فَقَرَّ عَلَىٰهِمُ الشَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ وهم تحته متمكنون مترفحون، فهلكوا ﴿وَالْجَمَلَةُ: ﴿أَتَاهُمُ الْعَذَابُ﴾ بَغْتَةً ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: 26] أماراتها قبل نزوله.

﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ وَيَقُولُ أَتُنْكَايَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَشْفُونَ فِيهِمْ؟﴾
 قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَبَرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَبَرٌ وَلَنِعَمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ [النحل: 27 - 33].

﴿ثُمَّ﴾ بعد تعذيبهم في النشأة الأولى ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ﴾ أي: يخذلهم الله، ويرديهم بتكذيب كلام الله ورسوله ﴿وَيَقُولُ﴾ لهم سبحانه على سبيل التوبيخ والتفريع: ﴿أَتُنْكَايَ الَّذِينَ كُنتُمْ﴾ أيها الضالون المضلون، المنهمكون في الغي والضلال ﴿تُشَاقِقُونَ﴾ وتعادون ﴿فِيهِمْ﴾ أي: في حقهم وشأنهم المؤمنين، وتعارضون معهم بادعاء الألوهية لأولئك التماثيل العاطلة الباطلة، ادعواهم حتى ينجوكم ويخلصوكم من عذابي ويطشي ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ من الأنبياء والرسل، وخلفائهم الذين دعواهم إلى الإيمان فلم يؤمنوا، بل يكذبونهم وينكرون عليهم، وعلى دينهم ونبىهم حين أبصروا أخذ الله إياهم شامتين لهم، متهمين عليهم: ﴿إِنَّ الْخِزْيَ﴾ أي: الذلة والصغار ﴿الْيَوْمَ وَالسُّوءَ﴾ المفرط المجاوز عن الحد نازل ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [النحل: 27]

المستكبرين الذين كذبوا الرسل، وأنكروا الكتب، واستهزءوا معهم.
 وهم ﴿الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ الموكلون عليهم حين معارضتهم بالقوآن،

وتكذيبهم إياه ويمن أنزل إليه، مع كونهم ﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ ومعرضيها على العذاب الأبدي، ثم لما عاينوا في النشأة الآخرة بحقيقته وصدقته، ومطابقته للواقع ﴿فَالْقَوَا السَّلَمَ﴾ أي: الانقياد والتسليم، مبرئين نفوسهم عن التكذيب والإساءة مع القرآن، قائلين: ﴿مَا كُنَّا﴾ في النشأة الأولى ﴿نَعْمَلُ مِنْ شَوْءٍ﴾ أي: ما نريد ونعتقد الإساءة في حقه، فيقول الملائكة لهم على سبيل التهكم: ﴿بَلَى﴾ أنتم لا تسيئون الأدب مع الرسول والقرآن ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع بجميع ما كان ويكون ﴿عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 28] من الرد والإنكار والتكذيب، فيجازيكم على مقتضى علمه.

ثم قيل لهم زجراً وقهراً: ﴿فَادْخُلُوا﴾ أيها المشركون المستكبرون، المعاندون مع الله ورسوله ﴿أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ كل فرقة منكم من باب منها، على تفاوت طبقاتكم في موجباتها، وادخلوا أنواع عذابها ونكالها، حال كونكم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ مخلدين مؤبدين ﴿فَلْيَبْشِرُوا الْفَاسِقِينَ﴾ [النحل: 29] جهنم البعد والخذلان التي هي منزل الطرد والحرمان.

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ عن محارم الله، وحفظوا نفوسهم عن العرض على المهالك الموجبة لسخط الله وغضبه: ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ على نبيكم لتربية دينكم، وتصفية مشربكم عن أكنار التقليدات والتخمينات ﴿قَالُوا﴾: أنزل ﴿خَيْرًا﴾ محضاً في النشأة الأولى والأخرى، أما في الأولى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ وعملوا الصالحات المقربة إلى الله ﴿حَسَنَةً﴾ كاملة من العلوم والمعارف المثمرة للمكاشفات والمشاهدات ﴿وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ﴾ فإِنَّ ﴿لِلَّذِينَ الْأَخِرَةِ﴾ المعدة للفوز بشرف اللقاء، والوصول إلى سدة المتهى ﴿خَيْرٌ﴾ من جميع الكمالات الأقصى، والدرجات العليا ﴿وَلَنُغْنِمَنَّ دَارَ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: 30] المتحفظين نفوسهم عن الالتفات إلى ما سوى الحق.

دار الآخرة التي هي ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ مصونة عن أمارات الكثرة المشمرة لللاثنية ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ مجردة عن جلباب التعينات العدمية ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ المنشئة عن التجليات المترتبة على الأوصاف الذاتية الإلهية ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ من مقتضيات الأوصاف اللطيفة الحبية الجمالية ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: 31] المائلين عن غير الله وسواه مطلقاً، الباذلين مهجهم في سبيله طوعاً، المنخلعين عن مقتضيات أوصاف بشرتهم إرادة واختياراً، الصابرين على ما جرى عليهم من القضاء تسليماً ورضاً.

وهم ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ الموكلون عليهم في نجاتهم، حال كونهم ﴿طَائِفِينَ﴾ طاهرين عن خبائث الإمكان، وردائل الخذلان والخسران، الناشئة من ظلمات الطباع والأركان ﴿يَقُولُونَ﴾ أي: الملائكة المأمورون لقبض أرواحهم عند قبضها: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الصابرون في البلوى، الساترون إلى المولى ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ التي هي خير المنقلب والمثوى، وفوزوا بشرف اللقيا ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 32] في النشأة الأولى من الإعراض عن مقتضيات الهوى، ومن الرضا بالقضاء، ومن الصبر على العناء، والشوق إلى الفناء.

ثم قال سبحانه توبيخاً وتقريعاً على المشركين: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ أي: ما ينتظرون أولئك التائهون في تيه الغفلة والغرور ﴿أَلَا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ المأمورون لقبض أرواحهم الخبيثة ﴿أَوْ يَأْتِي أَمْرٌ رَبِّكَ﴾⁽¹⁾ يا أكمل الرسل؛ أي: يوم القيامة المعدة لتعذيبهم وانتقامهم ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل إمهال هؤلاء الهالكين وإمهالهم في أمر الإيمان ﴿فَعَلِ الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ في زمن الأنبياء الماضين ﴿وَوَ﴾ بالجملة: ﴿مَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ المجازي لهم على مقتضى إساءتهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: 33] أي: يظلمون هم أنفسهم بعرضها على المهالك الموجبة أنواع العذاب والعقاب من تكذيب الرسل، وإنكار الكتب، وترك المأمورات، وإرتكاب المنهيات.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾⁽²⁾ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ⁽³⁾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ⁽⁴⁾ إِنَّ تَحَرُّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرَةٍ⁽⁵⁾

(1) قال في التاويلات: أي: جنابات الحق للوصول والخلوة التي لا يسعهم فيها ملك مقرب ولا نبي مرسل، كما كان حال النبي ﷺ ليلة المعراج حين بقى عند جبريل في سكرة المتهى وحبر بالرفرف إلى قرب قاب قوسين، وبقى الرفرف ثمة فكان ينتظر أمر ربه بقوله تعالى: ادن مني فجلبه الأمر أنزله مقام أو أدنى.

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا
كَذِبِينَ ﴿٣٩﴾ [النحل: 34 - 39].

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ عتوا وعنادا ﴿وَوَحَاقُ﴾ وأحاط ﴿بِهِمْ﴾ جزاء ﴿مَا
كَانُوا بِهِ يَشْتَهَرُونَ﴾ [النحل: 34] استكبارا واستنكارا.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ من غاية انهماكهم في الغي والضلال، وشدة إنكارهم
وشكيمتهم، متهمين على وجه الاحتجاج: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ الواحد الأحد، المستقل في
الأفعال بالإرادة والاختيار، على زعمكم عدم عبادتنا لآلهتنا وأصنامنا ﴿مَا عَبَدْنَا﴾ ألبتة
﴿مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا﴾ إذ مراده مقضي حتما ﴿و﴾ أيضا ﴿لَا حَرَمْنَا﴾
نحن ولا آبائنا من البحائر وغيرها ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ أي: بدون إذنه وإرادته ومشئته ﴿مِنْ
شَيْءٍ﴾ إذ لا يعارض فعله هذا صورة احتجاجهم واستدلالهم.

﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل استدلال هؤلاء الطغاة الغواة، الهالكين في تيه الغفلة والعناد
﴿فَعَلَ الَّذِينَ خَلُوا﴾ ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فأرسل عليهم رسلا، فكذبوهم وأنكروا عليهم،
فأخذهم الله بذنوبهم، فأهلكهم بأنواع العذاب والعقاب؛ لأن إرادة الله لم تتعلق بإيمانهم
وهدايتهم ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ﴾ أي: ما على الرسل ﴿إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ أي: تبليغ ما أرسلوا به
﴿الْمُبِينُ﴾ [النحل: 35] أي: على وجه التوضيح والتبيين؛ لئلا يبقى لهم شك وتردد في
سماعه، وأما قبولهم واتصافهم بها وهدايتهم، فأمر استأثر الله به، ليس لهم أن يخوضوا
فيه؛ لأنه خارج عن وسعهم وطاقاتهم.

ثم فصل سبحانه ما أجمل بقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم الهالكة
السالفة حين اختل أمور دينهم ﴿رُسُلًا﴾ منهم، قائلا لهم: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ المتصف
بالوحدانية والفردانية، المستقل بالوجود والآثار المترتبة عليه، المنزه عن الشريك
والأمثال ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾⁽¹⁾ أي: الآلهة المضلة التي أنتم تتخذونها من تلقاء

(1) قال في التأويلات: إشارة إلى أن شريعة الأنبياء - عليهم السلام - إلى الخلق بأن يأمرهم بعبادة
الله واجتناب طاغوت الهوى، وما يعبدون من دون الله ويعلموهم كيفية العبادة الخالصة عن
شوائب الرياء والسمعة وكيفية الاجتناب عما سوى الله ليصلوا بهذين القدمين إلى حضرة
الجلال، كما قال بعضهم: خطوتان وقد وصلت فالخطوة الأولى: عبادة الله بالتوحيد وهو التوجه

أنفسكم ظلماً وزوراً، ثم لما بلغهم الرسول جميع ما جاء به من عندنا ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ﴾ بأن أراد هدايته فهداه ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ خَفَّتْ﴾ أي: استمرت وثبتت ﴿عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ وتمرنت بقلبه؛ لتعلق مشيئة الله بضلاله، وإن ترددتم فيه ﴿فَسِيرُوا﴾ أيها الشاكون المترددون ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ التي هي مساكنهم ومنازلهم ﴿فَانظُرُوا﴾ واعتبروا من آثارهم وأطلالهم ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: 36] المستهزئين للرسول والكتب.

﴿إِنْ تَخْرَضْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عَلَى هُدَاهُمْ﴾ وتريد هدايتهم، إنك لا تهدي من أحببت ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ الحكيم الهادي لعباده على مقتضى علمه باستعداداتهم ﴿لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ أي: لا يريد هداية من أراد ضلاله في سابق علمه، ولوح قضائه ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ بعدما أراد الله إضلالهم ﴿مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [النحل: 37] ينصرهم على الهداية، ويشفع لهم حتى ينقلهم على الضلال.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ خَبِثَ طَبِيعَتُهُمْ، وَشَدَّةُ بَغْضِهِمْ وَضَغِيَّتُهُمْ﴾ ﴿أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي: أغلظوا فيها وأكدوا، قائلين: ﴿لَا يَبْعَثُ اللَّهُ﴾ ولا يحيى مرة أخرى ﴿مَنْ يَمُوتُ﴾ بأن زال الروح الحيواني عنه، ثم قال سبحانه راداً لهم، وتخطئة على أبلغ وجه وأكد أيضاً: ﴿بَلَى﴾ يبعثون؛ إذ وعد الله البعث والحشر ﴿وَوَعْدًا﴾ صدقاً ﴿عَلَيْهِ﴾ سبحانه إنجاز ما وعد ﴿حَقًّا﴾ حتماً وفاء لوعده، وإيفاء لحكمه، مع أنه القادر المقتدر بالقدرة الكاملة على كل ما دخل تحت حيطته وإرادته ومشيته ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 38] حق قدره، وقدر قدرته وسطوته وبسطته.

وإنما ينجز الوعد الموعود ﴿لِيَبَيِّنَ﴾ ويوضح ﴿لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ بل يستبعدونه ويستحيلونه ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ له، وأنكروا عليه عناداً ومكابرة ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ [النحل: 39] في إصرار عدم وقوعه وتكذيبه.

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ١٠ ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي أَقْوَامٍ مِمَّا ظَلَمُوا لِنُبَيِّنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ١١ ﴿الَّذِينَ

صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَتَنَلُوا
 أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا
 نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ
 يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ ﴿النحل: 40 - 46﴾.

وكيف تستبعدون أيها المنكرون أمثال هذا عن كمال قدرتنا وعلمنا وإرادتنا ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا﴾ وحكمنا حين تعلق إرادتنا ﴿لِشَيْءٍ﴾ أي: لإظهار شيء من الأشياء المثبتة في لوح قضائنا، وحضرة علمنا، أي: شيء كان عظيماً أو حقيراً ﴿إِذَا أَرَدْنَاهُ﴾ أن يوجد ويتحقق في عالم الشهادة ﴿أَن نَّقُولَ لَهُ﴾ على مقتضى صفتنا القديمة التي هي الكلام، فراضين وجوده وتحققه؛ إذ هو عدم صرف، ولا شيء محض: ﴿كُنْ﴾ كالمكونات الآخر ﴿فَيَكُونُ﴾ [النحل: 40] بلا تراخ ومهلة وامتداد ساعة ولحظة، بل التلفظ بحرف التعقيب بين الأمر الوجودي الإلهي، وحصول المأمور المراد له سبحانه، إنما هو من ضيق العطف وضرورة التعبير، وإلا فلا ترتب بينهما إلا وهماً؛ إذ الترتب إنما يحصل من توهم الزمان والآن، وعنده سبحانه لا زمان ولا مكان، بل له شأن لا يسع في زمان ومكان.

ثم أشار سبحانه إلى علو درجة المؤمنين، وارتفاع شأنهم، ورفعة قدرهم ومكانهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ عن بقعة الإمكان، حال كونهم سائرين ﴿فِي﴾ سبيل ﴿اللَّهِ﴾ بعدما حصل لهم مرتبة التمكّن والاطمئنان ﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ بتسلط الأمانة عليهم زماناً ﴿لَتُبَوِّتَنَّهُمْ﴾ ونمكنتهم ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ أي: في نشأتهم الأولى ﴿حَسَنَةً﴾ أي: حصة كاملة، وحظاً وافراً من المعارف والحقائق إلى حيث انخلعوا عن اللوازم البشرية بالمرة، وماتوا عن أوصاف البهيمية إرادة واختياراً ﴿وَوَعَدْنَا﴾ مع ذلك ﴿لَآخِرَةَ﴾ المعدة لرفع الحجب، وكشف الغطاء والسدل ﴿أَكْبَرَ﴾ قدراً، وأعظم شأنًا، وأعم لذة ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 41] ويفهمون لذته بالذوق لمالوا إليه زيادة ميل، واجتهدوا نحوه زيادة اجتهداد، رزقنا الله الوصول إليه، والحصول دونه، وأذاقنا لذته.

وأيضاً ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على ما أصابهم من المصيبات والبليات، مسترجعين إلى الله في جميع الحالات ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: لا على غيره من الوسائل والأسباب

﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: 42] في جميع شئونهم وتطوراتهم.

﴿و﴾ كيف يستبعدون رسالتك يا أكمل الرسل أولئك المشركون المعاندون؛ إذ ﴿مَا أَرْسَلْنَا﴾ للرسالة العامة رسلاً ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ مبشرين ومنذرين ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ أمثالك ﴿نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ شعائر الدين والإيمان، ونزل عليهم الكتب الميينة لأحكامها، فإن لم يقبلوا منك، ولم يعتقدوا صدقك، فقل لهم: ﴿فَأَسْأَلُوا﴾ أيها المكابرون المعاندون، الجاهلون بحال من مضى من الأنبياء ﴿أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ والعلم منكم، وهم الأخبار والقسيون ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 43] صدقه ومطابقته للواقع.

وكما أيدنا الرسل والأنبياء الماضين ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الواضحة ﴿وَالزُّبُرِ﴾ اللائحة ترويجاً لما جاءوا به، وأرسلوا معه؛ ليبينوا ويوضحوا بها أحكام أديانهم ﴿و﴾ كذلك أيضاً ﴿أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿الذِّكْرَ﴾ أي: الكتاب المعجز المشتمل على شعائر الإسلام وأحكامه ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ المتوغلين في الغفلة والنسيان ﴿مَا نَزَّلَ إِلَيْهِمْ﴾ من عند ربهم على مقتضى أزمانهم وأطوارهم من الأوامر والنواهي، والآداب والأخلاق ﴿وَلَعَلَّهُمْ﴾ بعد تبليغك إياهم، وتبيينك لهم ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾⁽¹⁾ [النحل: 44] في آياته وأحكامه، ويتأملون في حكمه ومرموزاته؛ كي يتفطنوا إلى معارفه وحقائقه، وكشوفاته وشهوداته الموعودة فيه.

ثم قال سبحانه تهديداً على أهل الزيغ والضلال، المنحرفين عن طريق الحق عتوا وعناداً: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السُّيُتَاتِ﴾ واحتالوا لهلاك الأنبياء، سيما معك يا أكمل الرسل، ولم يخافوا ﴿أَن يَخْصِفَ اللَّهُ﴾ القادر الغالب على الانتقام ﴿بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ كما خسفنا على قارون ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ﴾ بغتة، حال كونهم باتين في مراقبهم ﴿مِنْ حَيْثُ﴾ هم ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: 45] أماراتها ومقدماتها.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ﴾ العذاب وهم ﴿فِي ثَقَلِيهِمْ﴾ وتحركهم دائرين مترددين ﴿فَمَا هُمْ﴾ حين أخذه ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ [النحل: 46] مقاومين قادرين على دفع قهر الله وعذابه.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿٥٧﴾ أَوْلَدِ يَرْوَالِكُ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ

(1) فيما يستمعون من بيان القرآن والأحكام منكم على أنك أُمِّي ما قرأت الكتب المنزلة، ولا تعلمت العلوم وإنما يتبين لهم من نور الذكر بلازمون الذكر ويواظبون عليه ليصلوا إلى مقام المذكورين في متابعتك ورعاية ستك. [التأويلات النجمية].

يَنْفَعُوا ظِلَالَهُ عَنِ الِيمِينِ وَالشَّعَائِلِ سَجْدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ تَعْلَمُونَ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْشَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانِسْتُمْ فَتَمَتُّوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ [النحل: 47 - 55].

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ﴾ العذاب ﴿عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ وتنقص من أموالهم وأولادهم على سبيل التدرج إلى أن يستأصلهم بالمرة ﴿فَإِنْ رِئُكُمُ﴾ أيها المجترئون على الله ورسوله، المسيئون الأدب معهما ﴿لَرَأَوْفٍ﴾ عطف مشفق، لا يعاجلكم بالعذاب ﴿رَّحِيمٍ﴾ [النحل: 47] يمهلكم ويؤخر انتقامكم رجاء أن تتذكروا وتتعضوا.

﴿أ﴾ يصرون ويستمرون أولئك المشركون المسرفون على الشرك والنفاق ﴿وَلَمْ يَرَوْا﴾ وينظروا نظر العبرة والاستبصار ﴿إِلَى﴾ انقياد جميع ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ﴾ وأوجده وأظهره من كتم العدم إظهارًا إبداعيًا لحكمه وأمره ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ من الأشياء التي ﴿يَتَقَيَّأُ﴾ أي: يميل وينقلب ﴿ظِلَالُهُ﴾ بانقلاب الشمس وحركتها ﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾ مرة ﴿وَالشَّمَائِلِ﴾ أخرى، على مقتضى اختلاف أوضاع الشمس، حال كونهم ﴿مُسْجِدًا﴾ ساجدين متذللين خاضعين، واضعين جباههم على تراب المذلة إطاعةً وانقيادًا ﴿لِلَّهِ﴾ الواحد الأحد، المستقل في الألوهية والربوبية ﴿وَهُمْ﴾ في جميع حالاتهم وتقلباتهم ﴿ذَاخِرُونَ﴾ [النحل: 48] صاغرون ذليلون، خائفون من جلال الله وكبريائه، مستوحشون على سطوة قهره، وصوله استيلائه.

﴿و﴾ كيف يستكبرون أولئك المشركون المنكرون عن انقياد الله وإطاعته؛ إذ ﴿الله﴾ لا لغيره من الأظلال الهالكة، والتماثيل الباطلة ﴿يَسْجُدُ﴾ ويتذلل طوعاً وطبعاً جميع ﴿مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَ﴾ كذا جميع ﴿مَّا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾ تتحرك وتخرج من العدم نحو الوجود بامتداد أظلال الأوصاف الإلهية، ورش رشحات زلال وجوده عليها ﴿و﴾ خصوصاً ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ المهيمون المستغرقون في مطالعة جمال الله وجلاله ﴿وَهُمْ﴾ من غاية قربهم، وتنزههم عن العلائق المبعدة عن الله، وتجردهم عن أوصاف

الإمكان مطلقاً ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾⁽¹⁾ [النحل: 49] عن عبادة الله، والتذلل نحوه، فكيف أنتم أيها الهلكي الغرقى، المنغمسون في بحر الغفلة والضلال.

وإنما يسجد أولئك الساجدون المتذللون؛ لأنهم ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ﴾ القادر على الإنعام والانتقام أن يرسل عليهم عذاباً ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ لأنهم مقهورون تحت قبضة قدرته ﴿وَوَ﴾ لذلك ﴿يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: 50] ويجتنبون عما ينهون.

﴿وَوَ﴾ كيف لا تمنعون عن إثبات الشركاء لله الواحد الأحد الصمد أيها المشركون المعاندون بعدما ﴿قَالَ اللَّهُ﴾ عز شأنه، وجل بركاته: ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾ أيها المكلفون بالإيمان والعرفان ﴿إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ مستحقين للعبادة والانقياد، فكيف الزيادة ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ يُعبد بالحق، يُرجع نحوه في الوقائع، ويُفوض إليه الأمور كلها، وما هو إلا أنا ﴿فَلْيَأْتِي﴾ لا إلى غيري من مخلوقاتي ومصنوعاتي ﴿فَارْهَبُونِ﴾ [النحل: 51] أي: خصوني بالخوف والرجاء، وارجعوا إلي عند هجوم البلاء، ونزول القضاء؛ إذ لا راد لقضائي إلا فضلي وعطائي.

﴿وَوَ﴾ كيف لا يُرجع إليه، ويُستغاث منه، مع أن ﴿لَهُ﴾ ومنه ﴿مَا﴾ ظهر ﴿فِي﴾ السموات أي: عالم الأسماء والصفات التي هي الفواعل والمفيضات المؤثرات ﴿وَوَ﴾ ما ظهر في ﴿الْأَرْضِ﴾ أي: عالم الطبيعة من الاستعدادات التي هي القوابل المتأثرات من العلويات ﴿وَلَهُ﴾ لا لغيره من الأسباب والوسائل العادية ﴿الَّذِينَ﴾ أي: الإطاعة والانقياد، والتوجه والرجوع ﴿وَاصْبَا﴾ دائماً حتماً لازماً ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ﴾ المحيط لكل

(1) قال في التأويلات: بل يتذللون لكل شيء من بين يدي صانعه ساجد مسجود يلائم حاله كما أن كل شيء يسبح بحمده تسييحاً يلائم حاله، فتسبح بعضهم بلسان المقال، وتسبح بعضهم بلسان الحال، والله يعلم لسان حالهم كما لسان قائلهم، واعلم أن الله تعالى أعطى لكل شيء من أصناف المخلوقات من الحيوانات إلى الجمال سمعاً وبصراً ولساناً وفهماً به يسمع كلام الحق ويصبر شواهد الحق ويكلم الحق ويفهم إشارته، كما أخبر الله تعالى عن حال السموات والأرض وهما في العدم أعطاهما سمعاً به سمعا قوله: ﴿أَتَيْنَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾ [فصلت: 11] وأعطاهما فهماً به فهما كلامه وأعطاهما لساناً به قالتا: ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: 11] فكل شيء يسبح الله بذلك اللسان ويسجده بذلك الطوع، فمن هذا اللسان الملكوت بمعجزة النبي ﷺ كانت الحمصى تسبح له في يده، وكذلك الأحجار الثلاثة كلمت داود ﷺ، وأويت الجبال معه لما قال تعالى: ﴿وَأَنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: 44].

إحاطة شهود وحضور ﴿تَتَّقُونَ﴾ [النحل: 52] وتحذرون أيها الجاهلون بحق قدره، مع أنه لا ضار سواه، ولا نافع غيره ١٩.

﴿وَعَلِّمُوا أَيُّهَا الْمَجْبُولُونَ عَلَى التَّكْلِيفِ أَنْ ﴿مَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ﴾ واصله لكم، نافعة لنفوسكم، مسرة لقلوبكم ﴿فَمِنْ اللَّهِ﴾ المصلح لأحوالكم، وصلت إليكم امتناناً عليكم وتفضلاً؛ إذ لا نافع إلا هو ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ﴾ المشوش لنفوسكم، القاسي لقلوبكم ﴿فَالْيَايُ تَجَارُونَ﴾ [النحل: 53] تتضرعون وتستغيثون ليدفع عنكم أذاكم؛ إذ لا ضار أيضاً إلا هو.

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ﴾ بعد استغاثتكم ورجوعكم نحوه؛ إذ لا كاشف سواه ﴿إِذَا فَرِيقٌ﴾ أي: فجاء طائفة ﴿مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ﴾ الذي يدفع أذاهم، ويكشف ضرهم ﴿يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: 54] له غيره من الأصنام والتماثيل العاطلة التي لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، فكيف لغيرهم ٢٠.

وإنما فعلوا ذلك وأشركوا ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ من النعم، ولم يقوموا بشكرها عنادا ومكابرة، بل أسندوها إلى ما لا شعور لها أصلاً ظلماً وزوراً ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ أيها المشركون بنا، الكافرون لنعمنا ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 55] ما تكسبون لنفوسكم من العذاب المخلد، والعقاب المؤبد.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَنْ مَا كُنتُمْ تَفْعَلُونَ﴾ ٢١
 وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ٢٢ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ
 مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ٢٣ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي
 التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ٢٤ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ
 الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٢٥ وَلَوْ يَوَاسِئُكَ اللَّهُ النَّاسُ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ فَلَيْتَ مَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ
 مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَخِيرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ٢٦ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا
 يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ أَنَّ لَهُمُ لِسَانًا لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ
 مُّفْرَطُونَ ٢٧ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَرِيقَ لَّهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَعُورًا وَلِأُخْرَىٰ
 الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٢٨ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحِيمَةً لِّنُنَبِّئَهُمُ الْبُشْرَىٰ وَنُنَبِّئَهُمُ

وَهَذَى رَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ [النحل: 56 - 64].

والعجب كل العجب ينكرون بنا، مع أنا متصفون بجميع أوصاف الكمال، منعمون لهم بالنعم الجليلة الجزيلة ﴿وَيَجْعَلُونَ﴾ ويعينون ﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لألهتهم التي لا يعلمون ولا يفهمون منهم حصول الفائدة لهم، وجلب النفع إليهم أصلاً؛ إذ هي جمادات نحتوها بأيديهم ﴿نَصِيًّا﴾ أي: حظاً كاملاً ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾⁽¹⁾ وسقنا نحوهم جهلاً وعناداً، ومع ذلك خيلوا أنهم لا يسألون عنها، ولا يؤخذون عليها، بل يثابرون بها على زعمهم الفاسد، ورأيهم الكاسد ﴿تَاللَّهِ لَنَسْأَلَنَّهُنَّ﴾ أيها المسرفون ﴿عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ [النحل: 56] علينا بإثبات الشركاء، وإسناد نعمنا إليهم افتراءً ومراءً.

﴿و﴾ من جملة مفترياتهم بالله المتزه عن الأشباه والأولاد: إنهم ﴿يَجْعَلُونَ﴾ ويشبتون ﴿لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ حيث يقولون: الملائكة بنات الله، مع أنهم يكرهونها لأنفسهم ﴿سُبْحَانَهُ﴾ وتعالى عما يقولون علواً كبيراً ﴿وَلَهُمْ﴾ أي: يشبتون لأنفسهم ﴿مَا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: 57] من البنين.

﴿و﴾ الحال أنهم ﴿إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَى﴾ أي: بولادتها ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوِداً﴾ أي: صار وجهه أسود من غاية الحزن والكرامة ﴿وَهُوَ﴾ حيثذ ﴿كَظِيمٌ﴾ [النحل: 58] ممتلئ من الغيظ والبغض على الزوجة والوليدة.

وصار من شدة الغم والهم إلى حيث ﴿يَتَوَارَى﴾ ويستتر ﴿بَيْنَ الْقُومِ﴾ استحياء ﴿بِمِنْ سُوءٍ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾ أي: الوليدة المبشرة بها، وتردد في أمرها ﴿أَيْفِيكَ عَلَى هُونٍ﴾ أي: هوان ومذلة ﴿أَمْ يَدُشُّهُ﴾ ويخفيه ﴿فِي الثَّرَابِ﴾ غيرةً وحميةً ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: 59] لأنفسهم ما يشتهون، والله المتزه عن الولد ما يكرهون.

ثم قال سبحانه: ﴿لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ المعدة لعرض الأعمال على الله والجزاء منه على مقتضاها ﴿مَثَلُ السُّوءِ﴾ في حق الله المتزه عن الأهل والولد، سيما نسبتهم إليه ما يستقبحه نفوسهم من إثبات البنات له، تعالى عما يقول الظالمون علواً

(1) قال في التاويلات: إلى أصحاب النفوس والأهواء أنهم يجعلون مما رزقهم الله من الطاعات نصيباً بالرياء لمن لا علم لهم بأحوالهم شرهاً لنفوسهم بحسبان رفعة منزلتهم عندهم وهم غافلون فارغون عن توهمهم واقتراثهم في نفوسهم عليهم.

كبيرًا ﴿وَاللَّهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ هو الغني عن العالم وما فيها، فكيف الزواج والإيلاد، واللذين هما من أقوى أسباب الإمكان المنافي للوجوب الذاتي الذي هو من لوزام الألوهية والربوبية ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب المتفرد، المنيع ساحة عزته عن الاحتياج إلى غيره مطلقًا، فكيف إلى الزوجة والولد ﴿الْحَكِيمُ﴾ [النحل: 60] المتصف بكمال الحكمة المتقنة، كيف يختار لذاته ما لا يخلو عن وصمة النقصان؟!

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ﴾ الحكيم المتقن في أفعاله ﴿النَّاسَ﴾ الناسين عهود العبودية على مقتضى عدله وانتقامه ﴿بِظُلْمِهِمْ﴾ ومعاصيهم الصادرة عنهم دائمًا ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ أي: على وجه الأرض ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ أي: ذي حركة تتحرك عليها؛ إذ ما من متحرك إلا وينحرف عن جادة العدالة كثيرًا ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ﴾ ويمهلهم على مقتضى فضله وحكمته ولطفه ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: سماء الله وعينه في علمه لموتهم ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ المسمى المبرم المقضى به ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾⁽¹⁾ [النحل: 61] أي: لا يسع لهم الاستخار والاستقدام، بل لا بد أن يموتوا فيه حتمًا مقضيًا.

﴿وَمَنْ خَبِثَ بَاطِنُهُمْ﴾ وينسبون ﴿لِللَّهِ﴾ المنزه عن الأنداد والأولاد ﴿مَا يَكْرَهُونَ﴾ ما يستقبحون لنفوسهم، وهو إثبات البنات له سبحانه ﴿وَمَنْ يَكْرَهُ﴾ مع ذلك ﴿تَصِفُ﴾ وتقول ﴿أَلَيْسَتْهُمْ الْكَذِبُ﴾ تصريحًا وتنصيصًا ﴿أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى﴾ أي: بأن لهم المثوبة العظمى، والدرجة العليا عند الله، بل ﴿لَا جَزَمَ﴾ أي: حقًا عليهم وحتمًا ﴿أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ أي: جزاؤهم مقصور على النار، مخلدون فيها ﴿وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾ [النحل: 62] في العذاب، مقدمون على جميع العصاة والطغاة الداخلين في النار، المعجزين بها؛ لاستكبارهم على الله ورسوله.

(1) قال الشيخ نجم الدين: فتأخير أهل السعادة وأرباب السلوك إلى أجل سماء الله بحكمة وسعة في إفناء كل صفة من صفات النفس بتبديلها بصفات القلب والروح في حينه وأوانه، فإن صفات النفس سلم إلى القلب والروح به تصعد النفس إلى عالم الروحانية بقدم إفناء صفاتها في صفات الروحانية بتبديلها بها وتأخير أهل الشقاوة وأصحاب النار إلى أجل سماء الله بحكمته وسنته في إفناء كل صفة من صفات الروحانية بتبديلها بصفات النفسانية الحيوانية في حينه وأوانه، وأن الروح تسلم هذه الصفات وتنزل إلى سفل الحيوانية حتى تنخرط في سلك ﴿أَوَّلِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَقْلُ﴾ [الأعراف: 179].

﴿تَاللَّهِ﴾ يا أكمل الرسل ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ رسلاً ﴿إِلَى أُمَمٍ﴾ مضوا ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ حين فشا الجدال والمراء بينهم، فأنحرفوا عن جادة الاعتدال، وأيدنا الرسل بالكتب المبينة لطريق العدالة والاستقامة، فبينوا لهم على أبلغ وجه ﴿فَزَيْنٌ﴾ وحتن ﴿لَهُمْ الشَّيْطَانُ﴾ المغوي المضل ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ التي كانوا عليها، فأصروا على أعمالهم، فلم يقبلوا قول الأنبياء؛ لذلك نزل عليهم من العذاب ما نزل في الدنيا، وسينزل في الآخرة بأضعافه وآلافه ﴿فَهُوَ﴾ أي: الشيطان ﴿وَلَهُمْ﴾ أي: متولي أمور هؤلاء عنهم ﴿الْيَوْمَ﴾ لذلك لم يقبلوا قولك، ولم يسمعوا بياذك، بل أصروا على ما عليه أسلافهم من الغواية والضلالة ﴿وَلَهُمْ﴾ أيضاً مثل أسلافهم، بل أشد منهم ﴿عَذَابٌ﴾ في النشأة الأولى والآخرى ﴿الْيَوْمَ﴾ [النحل: 63] مؤلم أشد إيلام؛ لأن بياذك وتبليغك أكمل من بيان سائر الأنبياء.

﴿وَمَا أَنْزَلْنَا﴾ من مقام جودنا وفضلنا ﴿عَلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿الْكِتَابَ﴾ الجامع لما في الكتب السالفة مع زيادات خلت عنها تلك الكتب ﴿إِلَّا لِيُبَيِّنَ﴾ وتوضح ﴿لَهُمْ﴾ أي: للناس الأمر ﴿الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أي: التوحيد الذاتي وأحوال النشأة الأخرى، والمكاشفات والمشاهدات الواقعة فيها ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا﴾ أيضاً ﴿هُدًى﴾ أي: هادياً، يهديهم إلى التوحيد ببيان براهينه وحججه الموصلة إليه بالنسبة إلى أرباب المعاملات والمجاهدات، من الأبرار السائرين إلى الله بارتكاب الرياضات القالعة للدرن الإمكان، ورين التعلقات.

﴿وَرَحْمَةً﴾ أي: كشفاً وشهوذاً بالنسبة إلى المجذوبين المنجذيين نحو الحق، المنخلعين عن جلاب ناسوتهم بغتة، بلا صنع صدر عنهم، وأمر ظهر منهم، بل جذبهم الحق عن بشريتهم، وبدلهم تبديلاً، كل ذلك ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: 64] ويوقنون بتوحيد الله وصفاته الذاتية، ويتأملون في آثار مصنوعاته تأملاً صادقاً، ويعتبرون منها اعتباراً حقاً إلى أن ينكشفوا ويفوزوا بما فازوا، وينالوا بما نالوا، وليس وراء الله مرمى ولا متهى.

﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَالنَّخْلُ بِهَا يَأْكُلُونَ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ٦٥﴾
 وَلَئِنْ لَكُنَّ مِنَ الْأَعْتَابِ لَعِبْرَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٦٦
 ٦٧ وَمِنْ نِعْمَتِ الْغَيْلِ وَالْأَعْنَبِ تَتَذَكَّرُونَ ٦٨
 ٦٩ وَمِنْ نِعْمَتِ الْغَيْلِ وَالْأَعْنَبِ تَتَذَكَّرُونَ ٧٠
 ٧١ وَمِنْ نِعْمَتِ الْغَيْلِ وَالْأَعْنَبِ تَتَذَكَّرُونَ ٧٢
 ٧٣ وَمِنْ نِعْمَتِ الْغَيْلِ وَالْأَعْنَبِ تَتَذَكَّرُونَ ٧٤
 ٧٥ وَمِنْ نِعْمَتِ الْغَيْلِ وَالْأَعْنَبِ تَتَذَكَّرُونَ ٧٦
 ٧٧ وَمِنْ نِعْمَتِ الْغَيْلِ وَالْأَعْنَبِ تَتَذَكَّرُونَ ٧٨
 ٧٩ وَمِنْ نِعْمَتِ الْغَيْلِ وَالْأَعْنَبِ تَتَذَكَّرُونَ ٨٠
 ٨١ وَمِنْ نِعْمَتِ الْغَيْلِ وَالْأَعْنَبِ تَتَذَكَّرُونَ ٨٢
 ٨٣ وَمِنْ نِعْمَتِ الْغَيْلِ وَالْأَعْنَبِ تَتَذَكَّرُونَ ٨٤
 ٨٥ وَمِنْ نِعْمَتِ الْغَيْلِ وَالْأَعْنَبِ تَتَذَكَّرُونَ ٨٦
 ٨٧ وَمِنْ نِعْمَتِ الْغَيْلِ وَالْأَعْنَبِ تَتَذَكَّرُونَ ٨٨
 ٨٩ وَمِنْ نِعْمَتِ الْغَيْلِ وَالْأَعْنَبِ تَتَذَكَّرُونَ ٩٠
 ٩١ وَمِنْ نِعْمَتِ الْغَيْلِ وَالْأَعْنَبِ تَتَذَكَّرُونَ ٩٢
 ٩٣ وَمِنْ نِعْمَتِ الْغَيْلِ وَالْأَعْنَبِ تَتَذَكَّرُونَ ٩٤
 ٩٥ وَمِنْ نِعْمَتِ الْغَيْلِ وَالْأَعْنَبِ تَتَذَكَّرُونَ ٩٦
 ٩٧ وَمِنْ نِعْمَتِ الْغَيْلِ وَالْأَعْنَبِ تَتَذَكَّرُونَ ٩٨
 ٩٩ وَمِنْ نِعْمَتِ الْغَيْلِ وَالْأَعْنَبِ تَتَذَكَّرُونَ ١٠٠

يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ اللَّبَالِ يَوْمًا مِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي
 مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ
 لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَفِّقُكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُدْرِكُ إِلَى أَزْدِلِ الْعُمُرِ
 لَكِنِّي لَا يَعلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا
 الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَأْدِي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ
 يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ [النحل: 65 - 71].

﴿وَاللَّهُ﴾ الهادي لعباده إلى زلال توحيده ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: الطبيعة
 الهولانية ﴿مَاءً﴾ أي: معارف وحقائق وعلومًا لدنية ﴿فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ أي: الطبيعة
 الهولانية ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: بعدما كانت عدما صرفًا، فاتصفت بالعلوم والإدراكات
 الجزئية، وترقت منها متدرجًا إلى أن وصلت إلى مرتبة التوحيد المسقط للإضافات
 مطلقًا ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ التبيين والتذكير ﴿لَآيَةً﴾ دلائل وشواهد دالة على توحيد الحق
 ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [النحل: 65] سمع قبول وتأمل وتدبر.

﴿وَإِنْ لَكُمْ﴾ أيضًا أيها المتأملون المتدبرون ﴿فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ﴾ لو تعتبرون بها،
 وتتفكرون فيها حق التفكير والتدبر لانكشفتكم بعجائب صنعنا، وكمال قدرتنا، ومثانة
 حكمتنا، وحيطة علمنا وإرادتنا؛ إذ ﴿نُسْقِيكُمْ﴾ ونُشْرِبُكُمْ ﴿مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ أي: مما في
 بطون بعض الأنعام مستخرجًا ﴿مِنْ بَيْنِ قَرْيَتَيْنِ﴾ أي: أخلاط وفضلات مستقرة في
 كرشها ﴿وَدَمٍ﴾ نجس سائل، سار في العروق والشرابين ﴿لَبَنًا﴾ طاهرًا ﴿خَالِصًا﴾ صافيًا
 عن كدورات كلا الطرفين، بحيث لا يشوبه شيء منهما، لا من لون الدم، ولا من ربح
 الفرث ﴿سَائِغًا﴾ سهل المرور والانحدار، هنيئًا مرتيًا ﴿لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: 66] بلا
 تعسر لهم في شربه ولا كلفة.

﴿وَنُسْقِيكُمْ﴾ أيضًا أيها المتأملون ﴿مِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ﴾ بحيث
 ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ﴾ أي: من عصير كل منهما ﴿سَكْرًا﴾ خمرا، يترتب على شرب السكر
 المسكر، وهو وإن كان حرامًا شرعًا، إلا أنه يدل على عجائب صنع الله، وبدائع حكمته،
 وغرائب إبداعه واختراعه. ﴿وَنُسْقِيكُمْ مِنْ كُلِّ ثَمَرٍ﴾ أي: من كل ثمرتهما ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ كالتمر والزبيب،
 والدبس والخل، وأنواع الأدم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الاتخاذ ﴿لَآيَةً﴾ دالة على كمال قدرة الله

وحكمته ﴿لَقَوْمٍ يَغْفِلُونَ﴾ [النحل: 67] أي: يستعملون عقولهم بالنظر والتفكير في آلاء الله ونعمائه؛ كي يتفطنوا إلى وحدة ذاته.

﴿وَ﴾ من عجائب المبدعات، وغرائب المخترعات التي يجب العبرة والاعتبار عنها: إنه ﴿أَوْحَى﴾ وألهم ﴿رَبُّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿إِلَى النَّحْلِ﴾ الضعيف المنحول المستحق إظهارًا لكمال قدرته وحكمته ﴿أَنْ اتَّخِذِي﴾ أي: بأن اتخذي - أنثى باعتبار المعنى، وإن كان لفظ النحل مذكرًا - ﴿مِنْ﴾ شقوق ﴿الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ تأوين إليها ﴿وَ﴾ كذا ﴿مِنْ﴾ شقوق ﴿الشُّجَرِ﴾ في الأجسام ﴿وَ﴾ كذا ﴿مِمَّا يَغْرِشُونَ﴾ [النحل: 68] وبينون لك من الأبنية والأماكن، واصنعي فيها بإلهام الله إياك بيوتات من الشمعة المتخذة من أنواع الأزهار والنباتات التي لا علم لنا بتعيينها وإحصائها كلها مسدسات، متساويات الأضلاع والزوايا، بحيث لا تفاوت بين أضلاعها وزواياها أصلاً، بحيث عجز عن تصويرها حذاق المهندسين، فكيف عن تحقيقها وكنهها، تاهت في بيداء ألوهيته أنظار العقل وآراؤه.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما تم بناؤك ﴿كُلِّي مِنْ كُلِّ الشُّرَابِ﴾ التي ألهمناك أكلها ﴿فَاسْلُكِي﴾ في اتخاذ العسل منها ﴿سُبُلَ رَبِّكِ﴾ أي: السبل التي ألهمك ربك بسلوكها على وجهها بلا انحراف واعوجاج ﴿ذُلُلًا﴾ مسخرة في حكمه بلا تصرف صدرت عنك.

ثم لما عملت على مقتضى ما أوحيت وألهمت ﴿يَخْرُجُ﴾ لكم أيها المكلفون بالإيمان والمعارف ﴿مِنْ بُطُونِهَا﴾ أي: بطون البيوتات ﴿شُرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾⁽¹⁾

(1) قال روزبهان: شراب معرفته بقدوم جلال وعز بقائه، وأنوار ذاته، فاختلف ألوانه باختلاف رؤيتها أنوار كل صفة، فعلى قدر رؤية الصفات يكون ألوانها، فمن لون المحبة، ومن لون العشق، ومن لون الأنس، ومن لون الفكر، ومن لون القبض والبسط، ومن لون الخوف والرجاء، ومن لون البسط والانبساط في هذه المقامات شفاء لكل مريض المحبة، وسقيم الألفة، وملدوغ الشوق، وسليم المعرفة، ومن شأن ذلك العسل لون نوري من بهاء الله وطعم حلاوة من حلاوة وصلة الله، فإذا حصل ذلك العسل من مشاهدة الله في حواصل تلك النحل، يحصل من ذلك العسل الذي صدر من تجلي الربوبية لها شمع العبودية، فإذا تهر عليه نيران المحبة تميز بين الربوبية والعبودية، فيصير عسل الربوبية موضع ذوق مقام الأنس، كقوله **سبحانه**: «أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني» فمن شرب قطرة منه بنعت الجذب، ومتابعته بنعت المحبة، يشفيه من كل سقم من علل الشهوات النفسانية، ولسقم الشيطانية ويصير مربي صحيحًا بأنوار الربوبية، فحالاته شراب الوصال يليق بالمخمورين بخمار الإرادة، ويكون شمه أوصاف العبودية الخالصة بمرجه من نور كواشفه ومعارفه، فيضيء لكل سالك طريقه، وكل سائل رشده.

أبيض وأسود، وأخضر وأصفر ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ عن الأمراض البلغمية بالأصالة، وعن غيرها بالتبعية ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾ الإلهام والوحي والخطاب على الزنبور الضعيفة بأوامر عجزت عنه فحول العقلاء، الكاملين في القوة النظرية والعلمية، وامثالها وصنعها على الوجه المأمور بلا فوت شيء منها ﴿لَايَةً﴾ أي: دليلاً واضحاً، وبرهاناً قاطعاً لاثناً على قدرة القادر العليم، والصانع الحكيم الذي ألهمها وأوصاها ما أوصاها ﴿لَقَوْمٌ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 69] ويتدبرون في الأمور، ويتعمقون فيها متدبرين في أنيتها؛ كي يصلوا إلى لميتها.

ثم قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ﴾ القادر. المقتدر للإحياء والإماتة ﴿خَلَقَكُمْ﴾ وأظهركم من كتم العدم إظهاراً إبداعياً، وإيحاءاً اختراعياً مقدراً مدة معينة لبقائكم في النشأة الأولى ﴿ثُمَّ﴾ بعد انقضاء المدة المقدرة ﴿يَتَوَفَّاكُمْ﴾ أي: يميّتكم ويفنيكم ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ﴾ يقدر لبقائه في هذه النشأة مدة متطاولة، بحيث ﴿يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمْرِ﴾ وأخيه وأسوته، وإنما يرد بعض الناس إليه ﴿لَكِنِّي لَا يَغْلَمُ﴾ ويفهم ﴿بَعْدَ﴾ تعلق ﴿عِلْمٍ﴾ منه بمعلوم مخصوص ﴿شَيْئاً﴾⁽¹⁾ من أحوال ذلك المعلوم؛ يعني: يرجع إلى مرتبة الطفولية بعد كمال العقل، وإنما رده سبحانه إظهاراً للقدرة الكاملة، وتذكيراً وعبرة للناس؛ لئلا يطلبوا من الله طول الأعمار، وبعده الآجال ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المدير لأمر عباده ﴿عَلِيمٌ﴾ بمصالحهم ومفاسدهم ﴿قَدِيرٌ﴾ [النحل: 70] مقدر مقدر للأصلح لهم تفضلاً وامتناناً.

﴿وَاللَّهُ﴾ المقدر لمصالحكم أيضاً ﴿فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ بأن

(1) في قوله: ﴿لَكِنِّي لَا يَغْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ نكر العلم والشيء؛ إشارة إلى أن العارف بالله إذا وصل إلى الله؛ كان علمه علماً واحداً هو علمه بالله تعالى فهو أجل العلوم كما أن الله تعالى أجل المعلومات؛ يعني أن أجل العلوم هو ما تعلق بأجل المعلومات، وأما ما عاده مما تعلق بغير الله تعالى فدونه فظهر أن علم التصوف أجل العلوم. ولأنه باحث عن ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله من طريق الكشف لا من طريق العقل كما عليه أهل الحكمة البحثية ونحوهم وكذا العلوم الكشفية إذا لم تكن سفلية متعلقة بالإكوان بل كانت علوية متعلقة بما ذكر من ذات الله، وأسمائه وصفاته وأفعاله وهي عين العلوم التي تذكر في كتب التصوف؛ لكنها من قبيل العين والأذواق، وما في كتب التصوف فرموز، وإشارات، ورسوم وإنما نكر الشيء؛ لأن الأشياء أيضاً في الحقيقة شيء واحد، والوجود والعالم من جوهر واحد فإذا اتحد العلم اتحد الأشياء ولما لم يكن الأشياء ذاتية أصلية باقية على حالها وإنما خلقت كتلون زوال وشواهد اضمحلت عند حصول الفناء فكان علم الغاني في الله العلم بالله لا العلم بالأشياء والأشياء.

قدر للبعض غنى، ولللبعض فقراً، ولللبعض كفاية، على حسب تفاوت مراتبهم واستعداداتهم في علم الله، ولوح قضائه، وقدر البعض مالكا للبعض، والبعض مملوكا له ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا﴾ بسعة الرزق والبسطة من الموالي والملاك ﴿بِرِزْقِهِمْ﴾ أي: بعض ما رزقهم الله ﴿عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ من الممالك بأن يقدر للمالك في قسمة الله رزق، بل ﴿فَهُمْ﴾ أي: الممالك والموالي ﴿فِيهِ﴾ أي: في تقدير الرزق وقسمته ﴿سَوَاءٌ﴾ أي: كما قدر للملاك قدر للممالك أيضا، غاية ما في الباب: إن الرزق المقدر للممالك إنما يصل إليهم من يد الموالي ﴿أَفَبِعَمَلِهِ يَفْتَنُونَ﴾ [النحل: 71] ينكرون ويكفرون بإسناد أرزاق الممالك إلى الموالي، لا إلى الله الرازق لجميع العباد.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفِي الْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَيَنْعَمَتِ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ (٧٢) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضُرُّهُ أَمْثَالُ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمِنْ رَزْقِنَا مِمَّا رَزَقْنَا حَسَنًا فَهُوَ يَفِيقُ مِنْهُ رِبًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلَوْ خِيبَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمَحٍ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ [النحل: 72 - 77].

﴿والله﴾ المدير المصلح لأحوال عباده ﴿جَعَلَ لَكُمْ﴾ تفضلاً عليكم ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: من جنسكم، وبني نوعكم ﴿أَزْوَاجًا﴾ نساء، تستأنسون بهن، وتستسلون منهن ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ﴾ ليخلفوا فيكم، ويحيوا أسماءكم ﴿وَرَبَّ﴾ جعل لكم من أبنائكم وبناتكم ﴿حَفَدَةً﴾ يسرعون إلى خدمتكم وطاعتكم ﴿وَرَبَّ﴾ بالجملة: ﴿رَزَقَكُمْ﴾ الله تفضلاً عليكم وامتناناً ﴿مِنْ الطَّيِّبَاتِ﴾ المقوية المقومة لأمرجتكم

وبنيتكم؛ لتواظبوا على طاعة الله، وتداوموا الميل إلى جنبه، وتلازموا شكر نعمه ﴿أ﴾
 تتركون متابعة الحق الحقيقي بالتبعية، وهو القرآن المعجز، والرسول المبين له
 ﴿فَالْبَاطِلُ﴾ الذي هو الأصنام والأوثان ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ يصدقون ويعبدون ﴿و﴾ بالجملة:
 ﴿بِنِعْمَةِ اللَّهِ﴾ المنعم المكرم بأنواع الكرم ﴿هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل: 72] حيث صرفوها
 إلى خلاف ما أمروا بصرفها؛ إذ إعطاء النعم إياهم إنما هو لتقوية طاعة الله، وكسب
 معارفه وحقائقه، لا لعبادة الأصنام والأوثان الباطلة.

﴿و﴾ من خبث باطنهم، وثمره كفرانهم نعم الله أنهم ﴿يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾
 المالك لأزمة الأمور الجارية في خلال الزمان والدهور ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا﴾
 معنويًا روحانيًا فائضًا ﴿مِنَ السَّمَوَاتِ﴾ أي: عالم الأسماء والصفات على مقتضى
 الجود الإلهي ﴿و﴾ لا رزقًا صورياً جسمانيًا معنويًا؛ لاكتساب المعارف الروحانية،
 مستخرجة من ﴿الْأَرْضِ﴾ أي: عالم الهولي والطبيعة ﴿شَيْئًا وَ﴾ هم أيضًا ﴿لَا
 يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل: 73] لأنفسهم، فكيف لغيرهم؟!.

﴿فَلَا تَضْرِبُوا﴾ ولا تثبتوا أيها الجاهلون بقدر الله وعلو شأنه ﴿لِلَّهِ﴾ المنزه عن
 الأنداد والأشباه ﴿الْأَمْثَالِ﴾ إذ لا مثل ولا شبه ولا كفاء، فكيف يشاركون له دونه ﴿إِنَّ
 اللَّهَ﴾ المطلع لجميع الكوائن والفواصد ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضورى جميع أحوالكم،
 وأحوال معبوداتكم، وما جرى عليكم وعليهم ﴿وَأَنْتُمْ﴾ أيها الغافلون الجاهلون بحق
 قدره ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 74] منه شيئًا، فكيف تضربون له مثلاً؟!.

بل ﴿ضَرَبَ اللَّهُ﴾ العالم بجميع السرائر والخفايا ﴿مَثَلًا﴾ لنفسه، ولمن أثبت
 المشركون له سبحانه شريكًا من الأصنام والأوثان، مثل سبحانه شركاءهم ﴿عَبْدًا
 مَمْلُوكًا﴾ رقيقًا لا مكاتبًا ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ من التصرف في مكاسبه بغير إذن مولاه
 ﴿و﴾ مثل سبحانه نفسه ﴿مَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا﴾ يعني: من أحرارنا لأرقائهم تفضلاً وإحساناً
 ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ حلالاً وافراً ﴿فَهُوَ يَنْفِقُ﴾ ويتصرف ﴿مِنْهُ﴾ أي: من رزقه وكسبه ﴿بِسرٍّ﴾
 بحيث لا يطلع على إنفاقه أحد، حتى الفقراء المستحقون ﴿وَجَهْرًا﴾ وعلانية على
 رؤوس الملأ.

﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ الأحرار المتصرفون أموالهم بالاستقلال والاختيار، وأولئك
 العبيد المعزولون عن التصرف رأياً ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ما أعطانا عقلاً نجزم به عدم
 المساواة بين الفريقين، ونميز به الحق عن الباطل، والهداية عن الضلال ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا

يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 75] الفرق بين كلا الفريقين؛ لعدم صرفهم نعمة العقل إلى ما خلق لأجله، وهو الامتياز المذكور.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ وَهُوَ﴾ أيضاً ﴿مَثَلًا﴾ لنفسه، ولتلك المعبودات الباطلة، فقال: مثلنا ومثلهم مثل ﴿رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾ أي: أخرس وأصم ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ من التفهم والتفهم ﴿وَهُوَ﴾ كيف يقدر على النفع للغير؛ إذ ﴿هُوَ﴾ في نفسه ﴿كُلُّ﴾ ثقل ﴿عَلَى مَوْلَاهُ﴾ أي: حافظه ومولي أموره ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُ﴾ ويصرفه لطلب المهام ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ نجح ونيل، وهو مثل الأصنام العاطلة الكليلة التي لا خير فيها أصلاً ﴿هَلْ يَنْشَوِي﴾ أيها العقلاء المميزون ﴿هُوَ﴾ أي: هذا الموصوف بالأوصاف المذكورة ﴿وَمَنْ﴾ هو ذو منطق فصيح معرب ﴿يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ وينال بالخير والحسن أينما توجهه بنفسه ﴿وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: 76] معتدل مائل عن كلا طرفي الإفراط والتفريط المذمومين، وهو مثل لله الواحد الأحد الصمد، المتصرف المستقل في ملكه بالإرادة والاختيار.

ثم أشار سبحانه إلى علو شأنه، وسمو برهانه، وتخصصه باطلاع المغيبات التي لا اطلاع لأحد عليها، فقال: ﴿وَلِلَّهِ﴾ خاصة واستقلالاً ﴿غَيْبُ السَّمَاوَاتِ﴾ أي: ما فيها من جنود الله ومخلوقاته ﴿وَهُوَ غَيْبُ﴾ [الأرض] أي: ما عليها أيضاً من جنوده، لا اطلاع لأحد مثلاً عليها ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ﴾ الموعودة، وقصة وقوعها وقيامها بالنسبة إلى قبضة قدرته ﴿إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾ أي: كرجع الطرف من أعلى الحدة إلى أسفلها في القرب والدنو ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ أي: بل هو أقرب من رجوع الطرف؛ إذ الآن فيه متحقق في سرعة نفوذ قضاء الله بعد تعلق إرادته، الآن موهوم مخيل؛ إذ لا تراخي بين الأمر الإلهي ووقوع المأمور المراد له إلا وهماً على ما مر في تفسير قوله سبحانه: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: 3]، ولا يستبعد عن الله سبحانه أمثال هذا ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتصف بجميع أوصاف الكمال ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ داخل في حطة حضرة علمه وقدرته ﴿قَدِيرٌ﴾ [النحل: 77] لا يتهى قدرته دون مقدور أصلاً.

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ ﴿الَّذِينَ يَرَوْنَ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْءِ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٧٩﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ

يُوتِيكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَثَا وَنَعَّمَا إِلَهُ الْبَنِينَ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ [النحل: 78 - 85].

﴿و﴾ كيف ينتهي قدرته؛ إذ ﴿اللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ وأنتم خاؤون عن العلوم كلها، بحيث ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ من المعلومات أصلاً ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ﴾ أسباباً وأدوات تعلمون بها أنواعاً من العلوم، هياً لكم ﴿السَّمْعُ﴾ لإدراك المسموعات الجزئية ﴿وَالْأَبْصَارُ﴾ لإدراك المبصرات الجزئية ﴿وَالْأَفْتِدَةُ﴾ لإدراك الكليات والجزئيات، والمناسبات والمباينات الواقعة بين العلوم والإدراكات، كل ذلك بقدرة الله وإرادته، وفضله وجوده ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١) [النحل: 78] يعني: رجاء أن تعدوا نعم منعمكم عليكم في شئونكم وتطوراتكم، وتواظبوا على شكرها؛ كي تعرفوا ذاته، وتصلوا إليه.

﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ ولم ينظروا ﴿إِلَى﴾ جنس ﴿الطَّيْرِ﴾ كيف صارت ﴿مُسَخَّرَاتٍ﴾ مذللات للطيран والسيран بريشات واضحة ﴿فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾ أي: في الهواء المتباعد عن الأرض ﴿مَا يُفْسِكُهُنَّ﴾ بلا علاقة ودعامة ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ المتفرد بالقدرة التامة الكاملة

(1) أخبر تعالى أنه أخرج الكل من بطون الأقدار، وأرحام العدم، وأصلاّب المشيئة، على نعت الجهل به والإشراف على ذاته وصفاته بنعت المعرفة، لا يعلمون شيئاً من أحكام الربوبية، وأمور العبودية، والعلم بأوصاف الأزل، فالبسكم أسماغاً من نور سمعه، وكساكم أبصاراً من نور بصره، وأودع في قلوبكم علوم غيبه، بأن حلاها بحلية فطرة الإسلام والإيمان والإيقان، فتسمعون بسمعه كلامه، وتبصرون ببصره جماله، وتعقلون بنوره ذاته وصفاته ونعوته وأسمائه، وتشرب أزواحكم من سواقي قلوبكم شراب محبته وشوقه وعشقه، حين ترد أنوار المواجيد عليها من بحار كشف وحدانيته وسرمديته. [العرائس].

على أمثال هذه المقدورات ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الشئون والتطورات المختلفة، والتسخيرات والتدليلات للطير ﴿لآيَاتٍ﴾ دلائل قاطعات على كمال علم الله وقدرته وإرادته ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: 79] بتوحيد الله، ويعتقدون اتصافه بجميع أوصاف الكمال.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ﴾ أي: من جملة مقدرواته المتعلقة بأمور معاشكم: إنه جعل لكم ﴿مِنْ يَتُوتِكُمْ﴾ التي بنيتم بأيديكم بإقدار الله وتمكينه وتعليمه إياكم ﴿سَكَنًا﴾ أي: مسكنًا تسكنون فيها، كالبيوت المتخذة من الحجر والمدر، والأجر والخشب ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ﴾ أيضًا ﴿مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ أي: تحملونها وتنقلونها ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ وترحالكم من مكانٍ إلى مكانٍ ﴿وَوَ﴾ كذا ﴿يَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ وحضركم ﴿وَوَ﴾ جعل لكم أيضًا ﴿مِنْ أَضْوَافِهَا﴾ هي للضائنة والغنم ﴿وَأَوْثَارَهَا﴾ هي للإبل ﴿وَأَشْغَارَهَا﴾ هي للتمر ﴿أَثَاثًا﴾ أي: ما يلبس ويفرش ﴿وَوَ﴾ صار ﴿مَتَاعًا﴾ لكم، تتمتعون بها ﴿إِلَى حِينٍ﴾ [النحل: 80] أي: إلى مدة متطاولة من الزمان.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ﴾ أيضًا ﴿مِمَّا خَلَقَ﴾ من الأبنية والشجر والجبال وغيرها ﴿ظِلَالًا﴾ تتفيثون وتستظلون به من حرِّ الشمس ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ﴾ أيضًا ﴿مِنْ الْجِبَالِ أَكْنَثًا﴾ أي: كونا، تسكنون بها لدفع البرد ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ﴾ أيضًا ﴿سَرَابِيلَ﴾ أي: أثوابًا وأكسية وأغطية متخذة من الصوف والقطن، والكثان والحرير وغيرها ﴿تَقِيَكُمُ الْحَرَّ﴾ أي: تحفظكم من شدة الحر ﴿وَسَرَابِيلَ﴾ أي: الدروع والجواشن والسربالات ﴿تَقِيَكُمُ بَأْسَكُمْ﴾ عند الحراب والقتال ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما ذكر من أنواع النعم ﴿يَتِمُّ نِعْمَتُهُ﴾ الفائضة ﴿عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: 81] أي: تنقادون وتطيعون، وتسلمون أموركم كلها، وتتخذونه وكيلًا.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ وأعرضوا عن حكم الله بعدما تلوث عليهم يا أكمل الرسل ما تلوث من أوامره وأحكامه، ولم يقبلوا منك الحق، لا تبالي بهم وبإعراضهم ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: 82] الموضح، وقد بلغت، وعلينا الحساب والجزاء بالعذاب والعقاب.

وكيف لا يحاسبون ولا يعاقبون أولئك المشركون، إنهم ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ التي عُدَّها وهبها لهم ﴿ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ من خبث بواطنهم بإسنادها إلى شركائهم وشفعائهم ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾ أي: عرفائهم وعقلائهم الذين يعرفون النعمة والمنعم، ثم ينكرون إنعامه، وأتباعهم؛ أي: ضعفاؤهم في العقل والتمييز كلهم هم ﴿الْكَافِرُونَ﴾

[النحل: 83] الجاحدون لله وإنعامه، يجازون على مقتضى جحودهم وإنكارهم.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ وهو نبيهم القائم بأمرهم، المشرف الناظر بحالهم من قبل الحق، يشهد لهم وعليهم بالإيمان والكفر، ويوم العرض والجزاء ﴿لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لا يُمهلون للاعتذار، ولا يُقبل منهم إن اعتذروا ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾⁽¹⁾ [النحل: 84] ويسترضون من العتبي، وهي الرضا.

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالعرض على المهالك، بالخروج عن حدود الله الموضوعة فيهم ﴿الْعَذَابِ﴾ الموعود لهم بالسنة الرسل والكتب ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ أي: يتيقنوا أو يتحققوا ألا مخلص لهم منه، ولا تخفيف عنهم بشفاعه أحد ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [النحل: 85] يُمهلون؛ ليتداركوا ما فوتوا من الإيمان والإطاعة.

﴿وَإِنَّمَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَ هُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾^(٨٦) ﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّامَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾^(٨٧) ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾^(٨٨) ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾^(٨٩) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٩٠) ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾^(٩١) [النحل: 86 - 91].

﴿وَ﴾ كذا ﴿إِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ حين يأسوا وقنطوا من شفاعتهم

(1) قال في التأويلات: يعني: ولا يتكلفون أن يعرفوا ربهم، وذلك لأن الدنيا مزرعة الآخرة والأرواح تدور في أرض الأشباح فمربيها ومنبتها ومشمرها أعمال الشريعة بشرط الإيمان ومفسدها ومبطلها ومغير أحوالها عن خصيتها الكفر وأعمال الطبيعة والموت حصاها والقيامة بيدرها فكل نبات فساد في الأرض بطل استعداده لقبول التربة، ولم يتم أمر نباته فلما حصد وحصل في البذر ولا تفيد أسباب التربة لتغير أحوالها.

ومعاونتهم، وعاینوهم أنهم هلکی أمثالهم ﴿قَالُوا﴾ متضرعين إلى الله نادمين: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربنا بأنواع اللطف والكرم، فكفّرنا نعمك وبك، وبأوامرك ونواهيك الجارية على السنة رسلك ﴿هَؤُلَاءِ﴾ الهلکی الغاوون ﴿شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ﴾ عنادًا ومكابرةً، وبواسطة هؤلاء الضلال ردّدنا قول أنبيائك ورسلك وكتبك، ثم لما سمع شركاؤهم منهم قولهم هذا ﴿فَالْقُوا﴾ وأجابوا ﴿إِلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾: ما تدعون وما تعبدون أيها الضالون الظالمون إلا أهويتكم وأمانيتكم ﴿إِنكُم لَكَاذِبُونَ﴾ [النحل: 86] مقصرون على الكذب والزور في دعوى إطاعتنا وعبادتنا.

﴿و﴾ حين اضطر أولئك المشركون الضالون ﴿الْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾ أي: الاستسلام والانقياد بعدما تعتوا واستكبروا في النشأة الأولى، وما ينفعهم حيثُ انقيادهم وتسليمهم ﴿وَضَلُّ عَنْهُمْ﴾ أي: خفي عليهم، وضاع عنهم ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [النحل: 87] على شركائهم من الشفاعة لدى الحاجة، حتى تبراوا منهم وكذبوهم.

ثم قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأعرضوا عن الحق بأنفسهم ﴿و﴾ مع ذلك ﴿صَدُّوا﴾ ومنعوا ضعفاء الأنام ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الموصِل إلى توحيده، وهو الشرع الشريف المصطفوي ﴿زِدْنَاهُمْ﴾ في النشأة الأخرى بسبب ضلالهم وإضلالهم ﴿عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: 88] الغير عن متابعتك يا أكمل الرسل، ويفسدون في أنفسهم.

﴿و﴾ اذكر لهم ﴿يَوْمَ تَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وهو نبيهم ورسولهم ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ الغواة البغاة، المنهمكين في بحر الإعراض والإضلال ﴿و﴾ الحال: أنا قد ﴿نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ المشتمل لفوائد جميع الأديان والكتب، وجعلناه ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ موضعًا مفصلاً ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه من أمور الدين من الشعائر والأحكام والأركان، والآداب والأخلاق، والمندوبات والمحظورات، والمواعظ والتذكيرات، والقصص التي يعتبر منها المعتبرون المسترشدون بالنسبة إلى عوام المؤمنين ﴿وَهَدَى﴾ إلى معارف وحقائق، يهديهم إلى طريق التوحيد المنجي عن غياهب التقليدات والتخمينات بالنسبة إلى خواصهم.

﴿وَرَحْمَةً﴾ أي: كشفًا وشهودًا مترتبة على الجذبة والخطفة، والخطوة بالنسبة إلى خواص الخواص ﴿و﴾ بالجملة: ما هو إلا ﴿بُشْرَى لِّلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: 89] المتقادين لله بسرائرهم وظواهرهم، مفوضين أمورهم كلها إليه بلا تلثم وتذبذب.

وكيف لا يسلمون ويفوضون ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المدير لمصالح عباده ﴿يَأْمُرُ﴾ أولاً عباده ﴿بِالْعَدْلِ﴾ أي: القسط والاعتدال في جميع الأفعال والأقوال، والشئون والأطوار ﴿وَالْإِحْسَانَ﴾ ثانياً؛ لأنهم ما لم يعتدلوا ولم يستقيموا لم يتأت لهم التخلق بأخلاق الله التي هي كمال الإحسان والعرفان ﴿وَلِإِثْنَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ ثالثاً؛ أي: إيصال ما حصل لهم من المعارف والحقائق، والمكاشفات والمشاهدات إلى مستحقهم من ذوي القربى من جهة الدين، المتوجهين نحو الحق عن ظهر القلب، الراغبين إليه عن محض المحبة والوداد، المتعطشين إلى زلال توحيده؛ لأنهم ما لم يتمكنوا ويتقررروا في مرتبة الإحسان، لم يتأت منهم الاستكمال والاسترشاد.

وكما يرغب سبحانه عباده بموجبات الإيمان والتوحيد، ومعظّمات أصوله وأركانه، ينقّرههم أيضاً عن غوائلهم ومهلكاتهم ومغوياتهم، فقال: ﴿وَيَنْهَى﴾ أولاً ﴿عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ أي: إفراط القوة الشهوية الموجبة لردالة النفس، وسقوطها عن المروءة والعدالة المقتضية للتخلق بالأخلاق المرضية الإلهية، وخروجها عن الحدود الشرعية الموضوعة لحفظه حكمة الزواج والتناسل بمتابعة القوى البهيمية الناشئة عن طغيان الطبيعة الهولانية الناسوتية، المنافية لصفاء القوى الروحانية اللاهوتية.

﴿وَعَنْ﴾ ثانياً؛ إذ كل من رُكِبَ على جموح القوة الغضبية، وأخذ سيف الهذيان المثيرة لأنواع الفتن والبليات، وعمل بمقتضاها، ونبذ الحلم والرحمة وراء ظهره، فهو بمراحل عن مرتبة الإحسان، بل لا يرجى منه إلا الخذلان والخسران ﴿وَعَنْ﴾ ثانياً؛ لأن من تمكن وتمادى على مقتضى كلتا القوتين الشهوية والغضبية فقط، سقط عن المروءة والعدالة اللتين هما من أقوى أسباب الكمال المستلزم للإرشاد والتكميل، ومتى سقطتا عنه فقد استكبر على خلق الله، وتجبر وبغى وظلم، ألا لعنة الله على الظالمين، إنما ﴿يُعِظُكُمْ﴾ الله المصلح لأحوالكم بما يعظكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾⁽¹⁾ [النحل: 90] رجاء أن تتعظوا وتتمثلوا بما أمروا، وتجتنبوا عما

(1) قال الورتجي: إن الله سبحانه دعا العباد إلى الاتصاف بصفته، منها العدل والإحسان والشفقة والرحمة والقدس والطهارة عما لا يليق به، فهو العادل والمحسن والرحمن والرحيم غير ظالم جائز، وهو منزّه عن جميع العلل، فمن كسي أنوار هذه الصفات بنعت الذوق والمباشرة، وحلّاه بزيئها يخرج عادلاً محسناً، رعوفاً رحيماً، طاهراً مطهراً، صادقاً مصدقاً، ولياً، حياً محبوباً، مريداً مراداً، مراعي محفوظاً، يعدل بنفسه فيدفعها عن الشرك والشك ورؤية الغير وطلب

نهوا؛ كي تصلوا إلى صفاء توحيده المسقط للمنافرات رأسا.

﴿و﴾ من علامة اتعاظكم وتذكركم الوفاء بالعهود والمواثيق ﴿أَوْفُوا﴾ أيها الطالبون لمرتبة العدالة ﴿بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ وميثاقه الذي عهدتم مع الله بالسنة استعداداتكم في بدء فطرتكم، وكذا بجميع العهود والمواثيق ﴿إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ مع إخوانكم، وبني نوعكم ﴿و﴾ أيضا ﴿لَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ﴾ سيما ﴿بِعَهْدِ تَوْكِيدِهَا﴾ وتغليظها ﴿و﴾ كيف تنقضونها؛ إذ ﴿قَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ الرَّقِيبَ﴾ ﴿عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ وكيلًا لتلك البيعة ﴿إِنَّ اللَّهَ الْمَطَّلِعَ لُضْمَاتِهِمْ وَمَخَائِلِهِمْ﴾ ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضورى ﴿مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: 91] من نقض الأيمان وأماراتها.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخْلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ مِنْ أَرَبٍ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخْلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا أَلْوَمَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: 92 - 97].

العوض في العبودية، يأخذ منها الاتصاف بينها وبين عباد الله بالألا يرى عيب غيرها، بل يرى عيبها في جميع الأوقات، وينصف بين عباد الله، ويحسن إلى من أساء إليه، ويعبد الله بوصف الرؤية وشهود غيبه، ويراعي ذوي القرابة في المعرفة والمحبة من المريدين الصادقين، ويرحم الجهال من المسلمين وينهى نفسه عن مباشرة فواحش دعاوى الأنانية، ومباشرة الهوى والشهوة، ويدفعها عن الظلم باستكباره عن العبودية، ويأمرها بإذعانها عند تراب أقدام أولياء الله ليكون مطمئنا في عبودية الحق ذاكرة لسلطان ربوبيته، وقهر جبروته وملكوته، وإحاطته بكل ذرة وفناء الخليفة.

﴿وَعَدَمًا﴾ بعدما علم الله منكم ما فعلتم ونقضتم من الإيمان ﴿لَا تَكُونُوا﴾ في نقضها وعدم وثوقها ﴿كَالَّتِي﴾ أي: كالمرأة التي ﴿نَقَضَتْ﴾ ونفثت ﴿غَزَلَهَا مِنْ بَغْدِ قُوَّةٍ﴾ أي: بعدما غزلتها وقتلتها قوة محكمة نقضتها ﴿أَنْكَاثًا﴾ بلا غرض يترتب على نقضها سوى الجنون والحزن، فأنتم كذلك في نقضكم إيمانكم الوثيقة بذكر الله وعلمه بلا غرض منكم يتعلق بنقضها سوى أنكم ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ﴾ أي: نقضها ﴿دَخَلًا﴾ أي: خديعة ومكيدة واقعة ﴿بَيْنَكُمْ﴾ محفوظة إلى ﴿أَنْ تَكُونَ﴾ وتقع ﴿أُمَّةٌ﴾ قوية ﴿هِيَ أَرْبَى﴾ أي: أقوى وأزيد عددًا وعددًا ﴿مِنْ أُمَّةٍ﴾ أنتم تحلفون معهم، فتنقضون حلف الأمة الضعيفة، وتتبعون القوية بعد نقض العهود واليمين، وما هذا إلا مكر وخديعة مع الله، ومع عباده ﴿إِنَّمَا يَتْلُوَكُمْ﴾ ويختبركم ﴿اللَّهُ بِهِ﴾ أي: بازدياد القوية؛ لكي يظهر أتمسكون إيمانكم أم تنقضون ﴿وَلْيَبَيِّنَنَّ﴾ ويوضح ﴿لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل: 92] فيثيبكم بالوفاء، ويفضحكم ويعاقبكم بالنقض.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ القادر على جميع المقدورات هدايتكم جميعًا ﴿لَجَعَلَكُمْ﴾ وخلقكم ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ متفقة على الهداية والإسلام ﴿وَلَكِنْ﴾ حكمته تقتضي خلاف ذلك، ولذلك ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ على مقتضى قهره وجلاله ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ على مقتضى لطفه وجماله ﴿وَلَتَسْأَلَنَّ﴾ وتحاسب كل منكم في يوم الجزاء ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 93] إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

وبعدما أشار سبحانه إلى قبح المكر والخديعة باليمين والحلف ترويجًا لما في نفوسهم من الظلم والعدوان صرخ بالنهي تأكيدًا ومبالغة؛ ليحترز المؤمنون عن أمثاله، فقال: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿أَيْمَانَكُمْ﴾ ومواثيقكم ﴿دَخَلًا﴾ أي: مفسدة مبطنة مخفية ﴿بَيْنَكُمْ﴾ ترويجًا لكذبكم ﴿فَتَزُلْ قَدَمٌ﴾ أي: قدم كل منكم عن شعائر الإيمان ﴿بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ واستقرارها فيها ﴿وَتَذُوقُوا الشُّوْءَ﴾ العذاب في النشأة الأولى ﴿بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: بسبب ميلكم وانحرافكم عن طريق الحق الذي هو الوفاء بالعهود والمواثيق ﴿وَلَكُمْ﴾ بارتكاب المنهي ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: 94] في النشأة الأخرى بأضعاف ما في الأولى.

﴿وَعَدَمًا﴾ أيضًا ﴿لَا تَشْتَرُوا﴾ ولا تستبدلوا وتأخذوا أيها المؤمنون ﴿بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ أي: بنقض عهده، والارتداد عن دينه ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: حطامًا دنيويًا ﴿إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ لوفائكم بعهده، وثباتكم على دينه أجر عظيم أخروي ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لبقائه وعدم

زواله، ودوام لذته ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 95] خيريته لا اخترتم البتة.

وكيف لا يكون ما عند الله خيرًا؛ إذ ﴿مَا عِنْدَكُمْ﴾ من حطام الدنيا ومزخرفاتها ﴿يَنفَدُ﴾ أي: يزول ويضمحل ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾⁽¹⁾ من اللذات الأخروية، والمعارف اليقينية ﴿بَاقٍ﴾ بقاء أبدًا سرمديًا إلى ما شاء الله، لا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على ما فوتوا من الأعراض الدنيوية؛ بسبب ثباتهم وتقررهم على الأمور الأخروية، ولم ينقضوا العهود والمواثيق المتعلقة بالدين، ولم يستبدلوا الأعلى بالادنى الفاني، ولحقهم بذلك ما لحقهم من المحن والشدائد القاحلة، وضاع عنهم ما ضاع من لذاتها وشهواتها، فصبروا على جميع ما أعطيناهم ﴿أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 96] أي: لنجزينهم ونثيبهم بجزاء أحسن من مقتضى عملهم؛ لوفائهم على عهودنا ومواثيقنا، وجريهم على مقتضى أمرنا ونهينا.

﴿مَنْ عَمِلَ﴾ منكم عملاً ﴿صَالِحًا﴾ لقبولنا، ناشئاً ﴿مِّنْ ذَكَرٍ﴾ منكم ﴿أَوْ أَنَّىٰ وَ﴾ الحال أنه ﴿هُوَ﴾ في حين العمل ﴿مُؤْمِنٌ﴾ موخِّد بالله، مصدق للرسول والكتب المتزلة إليهم، ممثل بجميع ما جاء به الرسول ﷺ، طالب للترقي من العلم إلى العین، ثم إلى الحق ﴿فَلَنُخَيِّئَهُ﴾ بعد فنائه عن لوازم بشريته وموته، وانخلاعه عن مقتضيات أوصاف بهيميته بإرادته واختياره ﴿حَيَاةً طَيِّبَةً﴾⁽²⁾ معنوية خالصة عن وصمة الموت والفوت

(1) أخبر سبحانه أن كل وارد يرد على قلوبهم من موارد القرب الإلهية يجري ولا يثبت، ويبقى لهم أصل الأصل، وهو مشاهدة جلاله وعزته، وأيضًا ما عندكم من المعارف ينفذ في سبحات جماله المعروف، وما في عنديته من أنوار الذات والصفات التي يبدو منها جميع المعارف باقية للمعارفين المحبين، فإن بنقص المعارف لا ينقص الكواشف، وإنه بنقص الأعمال لا ينقص الأحوال.

(2) معنى الآية أن العمل الصالح ثلاثة أشياء: الثبوت من الكون وما فيه بنعت تصاخره في عين من يرى القدم، وبذل الوجود لتصاريف الربوبية بنعت الرضا واللذة في البلاء، ورفع النظر عن الجزاء، والأعواض بكل حال، وهو مؤمن أي موقن مشاهد في حاله وعلمه قبول الحق وإقباله إليه بوصف الرضا عنه، وأيضًا هو مشاهد ما وعده الله له من أحكام الغيب بنور البصيرة، وأيضًا وهو مخلص عن النظر إلى غير الله، وهو مؤمن بما يقول هاتف الغيب في قلبه، وأيضًا هو مؤمن بأن وجوده وطاعته لا يليق بحضرة القدم، من كان هكذا يلبس الحق سره وروحه وقلبه وعقله بركة حياته الأزلية، فيحييه بحياته، ويريه بهاء جماله، ويصيره مستأنسًا بوصله، معافًا من فضله، فيكون ملبسًا في ظاهره وباطنه بلباس لطفه، محروسًا من قهره برعايته، فمقامه مقام العافية خارجًا من

مطلقاً، خالية عن شوب الزوال والانقضاء، صافية عن الكدورات المتعلقة للحياة الصورية ﴿و﴾ بالجملة: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ أي: أجر عملهم وصبرهم عن مقتضيات القوى البشرية، والحياة الصورية ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 97] أي: أحسن وأوفر من جزاء عملهم الذي جاءوا به حين كانوا سائرين إلينا، طالبين الوصول إلى صفاء توحيدنا.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (٩٨) إِنَّهُمْ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠) وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَاتٍ آيَةً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزَكِّي قَالَوَا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَاتٍ آلِيٍّ يُتْلَىٰ ذِكْرُ الْبَاطِلِ وَأَعْجَبِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (١٠٣) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَادِبُونَ (١٠٥) مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦)﴾ [النحل: 98 - 106].

ومن جملة الأعمال الصالحة المثمرة للحياة الطيبة المعنوية، بل من أجلها: قراءة القرآن المشتمل على المعارف والحقائق، والمكاشفات والمشاهدات المترتبة على سلوك طريق التوحيد والعرفان ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ أي: قصدت قراءته أيها القارئ

امتحان البلاء، وهذا جزاء من أقبل عليه له لا لنفسه ولا لغيره، فيبقى عيشه مع الحق بلا كدورة ولا فترة، وفي جميع أنفاسه مشاهدة مكاشف خارج من نعوت التغاير النفسانية بحوادث الشهوات وخطوات الشيطان، ما أطيب حاله وما أحلى شأنه وما ألد حاله، طوبى له ثم طوبى له.

الطالب لاستكشاف غوامض مرموزاته، ومعضلات إشاراته ﴿فَاسْتَعِذْ﴾ والتجأ أولاً ﴿بِاللَّهِ﴾ المتجلي بصفة الكلام المعجز لقاطبة الأنام، الحفيظ لخلص عباده من جميع ما لا يعينهم من المعاصي والآثام ﴿مِنْ﴾ وساوس ﴿الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: 98] المطرود والمبعد عن ساحة عزّ الحضور برجوم آثار الأوصاف القهرية الإلهية، ومن غوائله وتسويلاته التي هي جنود الهوى والغفلة، والتخيلات الباطلة، والتوهمات المثيرة لأنواع الأمانى والشهوات.

﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ﴾ أي: استيلاء وغلبة ﴿عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيد الله، وأيقنوا بحقية كتبه ورسله، وبالיום الموعود وما فيه من العرض والجزاء ﴿وَوَعَدَ﴾ مع ذلك ﴿عَلَى رَبِّهِمْ﴾ ومربيهم لا على غيره من الأسباب الوسائل العادية ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾⁽¹⁾ [النحل: 99] ويسلمون ويسندون جميع أمورهم إليه أصالة.

وكيف يكون للشيطان استيلاء على المؤمنين الموقنين؛ إذ هم يعادونه عداوة شديدة، ويخاصمون معه مخاصمة مستمرة ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ﴾ واستيلاؤه ﴿عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ ويحبونه ويقبلون قوله، ويسمعون غوايته، ويطيعون أمره ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ﴾ أي: بسبب إغوائه وإغرائه ووسوسته ﴿مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: 100] بالله الواحد الأحد،

(1) قال في التأويلات: يعني: سلطان نور الإيمان، والتوكل غالب على سلطان وسوسة الشيطان، فإذا كان هذا حال الأمة مع الشيطان، فكيف يكون كمال النبوة معه؟! ثبت أن المراد بالخطاب الأمة، وإنما خص النبي ﷺ به لتعتبر الأمة وتنبه أن مثل هذا النبي ﷺ مهما يكون كمال النبوة معه فيثبت آله مأمورًا بالاستعاذة بالله من الشيطان، فيكون الأمة بها أولى وأحق فأما تخصيص الاستعاذة بالله عند قراءة القرآن من الشيطان الرجيم لمعانٍ وفوائد: فأولها: لكي يتذكر القارئ واقعة الشيطان ويتفكر في أمره إنما صار شيطانًا رجيمًا بعد أن كان ملكًا كريمًا، لأنه فسق عن أمر ربه وخالفه وأبى أن يسجد لآدم ﴿وَاشْتَكِرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 34] أي: فصار من الكافرين فينتبه بذلك عند قراءة القرآن ويصفي نيته قبل القراءة على أن ياتمر بما أمر الله في القرآن وينتهي عما نهى عنه احترازًا عن المخالفة، فإن فيها الطرد واللعن والرجم والفسق والكفر وإنها مظنة للخلود في النار، وثانيها: لأن العبد لا يخلو من حديث النفس وهواجسها ومن إلقاء الشيطان ووساوسه وقلبه لا بدّ يتشوش بذلك، فلا يجد حلاوة كلام الله فأمره بالاستعاذة تركية للنفس عن هواجسها وتصفية للقلب عن وساوس الشيطان؛ ليتحلى بنور القرآن فإن التحلية تكون بعد التزكية والتصفية، فافهم جدًّا، ثالثها: ولأن في كل كلمة من كلمات القرآن أن الله تعالى إشارات ومعانٍ وحقائق لا يفهمها إلا قلب مطهر عن تلوثات الهواجس والوساوس معطر بطيب أنفاس الحق، وذلك مودع في الاستعاذة بالله فأمر بها لحصول الفهم.

المنزه عن الشريك والولد.

ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَو﴾ من كمال قدرتنا، ووفور حكمتنا: نسخ بعض الآيات وتبديلها بالنسبة إلى بعض الأعصار والأزمان، فَإِنَّا ﴿إِذَا بَدَّلْنَا آيَةً﴾ ناسخة ﴿مَكَانَ آيَةٍ﴾ منسوخة لحكمة ظهرت علينا، ومصلحة لاحت لدينا، فلا بدُّ ألاَّ نُسأل عن نسخنا وتبديلنا، بل عن جميع أفعالنا مطلقاً، ولا يُسند فعلنا إلى غيرنا مطلقاً ﴿وَو﴾ كيف يُسند فعله سبحانه لغيره؛ إذ ﴿اللَّهُ﴾ المطلع لجميع ما كان ويكون اطلاع حضور وشهود ﴿أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ بحسب الأوقات والأزمان، فله نسخ ما ثبت، وإثبات ما نسخ ﴿قَالُوا﴾ أي: المشركون المعاندون حين ظهر في القرآن نسخ بعض الآيات المثبتة، وإثبات بعض المنسوخات القديمة متهمين طاعنين: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ أي: ما أنت أيها المدّعي للرسالة والوحي إلاَّ مفترٍ كذاب، قلتَ بقولٍ من تلقاء نفسك، ثمَّ ظهر لك ما فيه، بدلتَ بأخرى على مقتضى أهوائك وأمانيك، ونسبته إلى ربك افتراءً ومراءً، مع أنك أخبرت أن ربك يقول: ﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [ق: 29]، كل ذلك؛ أي: النسخ والتبديل، والإنزال من عندنا لحكمة ظهرت علينا ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 101] حكمة النسخ والتبديل في الأحكام، فيكرونها.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل: ما أنا مفترٍ في هذا النسخ والتبديل، بل ﴿نَزَّلَهُ﴾ أي: القرآن ﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾ أي: جبرائيل عليه السلام عليّ هكذا، وهو منزّه عن جميع النقائص، فكيف عن الافتراء، وأوصاني أنه منزل ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ الذي ربّاك بأنواع التربية، وأيدك بهذا الكلام المعجز ملتبساً ﴿بِالْحَقِّ﴾ والصدق المطابق للواقع بلا شائبة شك وتردد، وإنما أنزله ﴿لِيُثَبِّتَ﴾ ويقرر ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ تثبيتاً وتقريراً في مرتبة اليقين العلمي ﴿وَهُدًى﴾ أي: هدايةً ورشداً للعارفين المتحققين في مرتبة اليقين العيني ﴿وَبُشْرَى﴾ أي: بشارة وتمكيناً لأهل الكشف والشهود في مرتبة اليقين الحقي، كل ذلك ﴿لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: 102]. المسلمين أمورهم كلها إلى الله طوعاً وورغبة.

ثُمَّ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَنْ مَطَاعِنِ الْمُشْرِكِينَ بِالْقُرْآنِ وَالرَّسُولِ، فَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ﴾ لا يسلمون نزول القرآن منا وحياً وإلهاماً، ويكذبونك يا أكمل الرسل في نسبتك إنزاله إلينا، بل ﴿يَقُولُونَ﴾ ما هو إلاَّ مفترٍ ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ﴾ هذا ﴿بَشَرٌ﴾ أي: عبدٌ رومي، أو رجلٌ من العجم، أو رجالٌ آخر على ما قالوا، وكيف يقولون وينسبون أولئك المكابرون المعاندون هذا إلى القرآن؛ إذ ﴿لِإِنْسَانٍ الَّذِي يُلْحِدُونَ﴾ أي: يميلون وينسبون ﴿إِلَيْهِ﴾

عنادًا ﴿أَعْجَمِي﴾ معلق غير بين، وأنت عربي لا تفهم لغتهم ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ﴾ فصيح ﴿ثُبِينْ﴾ [النحل: 103] واضح بليغ في أعلى مراتب البلاغة، بحيث عجزت عن معارضته مصاقع الخطباء مع كمال تحديهم، ومع ظهور إعجازه واعتراف الكل بأنه معجز، لم يقبلوا حقيقته، ولم يصدقوا أنه كلام الله.

﴿إِنَّ الدِّينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على وحدة ذاته، وكمال أوصافه وأسمائه، طبع الله على قلوبهم وختمها، بحيث ﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ المضلُّ المذلُّ إلى حقية كتابه ورسوله الذي أنزل إليه، بل ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: 104] في النشأة الأولى والأخرى، ثم قلب سبحانه ما فتروا برسول الله ﷺ وأعاده عليهم، فقال: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ﴾ على الله بنسبة كلامه إلى غيره ﴿الدِّينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ولا يصدقون ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على كمال توحيده ﴿وَأُولَئِكَ﴾ المفترون المسرفون ﴿هُمْ الكَاذِبُونَ﴾⁽¹⁾ [النحل: 105] المقصرون على الكذب والافتراء والمراء من شدة قسوتهم، وخبت باطنهم.

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ﴾ المستحق للإيمان والعبودية، سيما ارتد ﴿مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾ أي: بعدما آمن له - العياذ بالله - فقد استحق غضب الله وقهره ﴿أَلَا مَنْ أَكْثَرُ﴾ على الكفر، وهذد بالقتل وأنواع العقوبات حين العجز، فأجرى كلمة الكفر على لسانه ﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ متمكن فيه، راسخ غير متزلزل، بلا مطابقة وموافقة بلسانه، فهو باقي على إيمانه، ولا غضب عليه، بل له الأجر الجزيل؛ لأن العبرة في الإيمان والكفر بالقلب؛ لأنهما فعلاان له أصالة ﴿وَلَكِنْ﴾ من المغضوبين ﴿مَنْ شَرَحَ﴾ وملا ﴿بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ اعتقادًا أو رضاء مستحسنًا له، مستطيا إياه ﴿فَعَلَيْنَهُمْ غَضَبٌ﴾ وقهر نازل ﴿مِنْ

(1) قال في التأويلات: أي: هم المتسبون إلى الكذب الحقيقي الذي صار اسم العلم لهم بأنهم كذبوا على الله وكذبوا بآياته، وكذبوا على النبي ﷺ وكذبوا به وبما جاء به، وكذبوا بالقرآن والمعجزات، وفيه إشارة إلى أن الكذبات التي تقع في أثناء كلام من يؤمن بالله ورسوله وكتبه ولا يكذب عليهم ولا يكذب بهم، فإنها ليست من الكذاب الذي يفترى من لا يؤمن بآيات الله وإته مخصوص بمن يفترى على الله الكذب، وإن الكذبات التي تقع للمؤمن وهي من جملة المعاصي لا تخرجه من الإيمان، وإن ينقص بها الإيمان ثم بالتوبة يرجع الإيمان إلى أصله كسائر المعاصي والذنوب، يدل على هذا قوله ﷺ: «ما يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا» ثبت أن المؤمن ينفخ الكذب في بعض الأوقات إذا لم يكن مصرًا عليه ويتوب.

الله المتقم الغيور ﴿وَلَهُمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: 106] لعظم جرمهم الذي هو الارتداد، العياذ بالله.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿١٠٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَنَّهُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾ * يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا مِنْ مَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَهُ ﴿١١٤﴾ [النحل: 107 - 114]

وما ﴿ذَلِكَ﴾ أي: تحسينهم الكفر، واستطابتهم به إلا ﴿بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا﴾ واستطابوا ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: الحياة الصورية المستعارة الزائلة ﴿عَلَى﴾ حياة ﴿الْآخِرَةِ﴾ التي هي الحياة المعنوية الحقيقية السرمدية التي لا زوال لها أصلاً ﴿و﴾ أيضاً بسبب ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المطلع على استعدادات عباده ﴿لَا يَهْدِي﴾ إلى الإيمان والتوحيد ﴿الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [النحل: 107] المجبولين على الكفر والعناد بحسب أصل فطرتهم واستعداداتهم.

﴿أُولَئِكَ﴾ المجبولون على الكفر هم ﴿الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ﴾ وختم ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ إلى حيث لا يفهمون، ولا يتفطنون بسرائر الإيمان والتوحيد أصلاً، ولا يتلذذون بلذاتها لغلظ حجبهم وكثافتها ﴿و﴾ على ﴿سَمْعِهِمْ﴾ إلى حيث لا يسمعون، ولا يقبلون دلائل التوحيد وأماراتها من أرباب الكشف واليقين ﴿و﴾ على ﴿أَبْصَارِهِمْ﴾ إلى حيث لا ينظرون نظر عبدة وبصارة إلى المظاهر والآثار المترتبة على الأوصاف الذاتية الإلهية ﴿و﴾ بالجملة: ﴿أُولَئِكَ﴾ البعداء المطرودون عن عزّ الحضور ﴿هُمُ الْغَافِلُونَ﴾

[النحل: 108] المقصرون على الغفلة والنسيان، التائهون في تيه الضلال والطغيان.

﴿لَا جَزْمَ لَّهُمْ﴾ بسبب طردهم وخذلانهم ﴿فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ﴾ [النحل:

109] المقصرون على الخسران والنقصان.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما سمعت أحوال أولئك المقهورين المطرودين ﴿إِنْ رَبُّكَ﴾ الذي ربك بأنواع الكرامات، وأوصلك إلى أعلى المقامات يجزي خير الجزاء تفضلاً وإحساناً ﴿لِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ عن بقعة الإمكان حين كوشفوا بما فيها من الخذلان والخسران، وأنواع الرذائل والنقصان، وذلك ﴿مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا﴾ بأنواع الفتن والمحن باستيلاء جنود الأمانة بالسوء عليهم ﴿ثُمَّ جَاهَدُوا﴾ معها بترك مآلوفاتها، وقطع تعلقاتها، وصرفها عن مشتبهاتها ومستلذاتها ﴿وَصَبَرُوا﴾ على متاعب الرياضات، ومشاق المجاهدات إلى أن صارت أماراتهم مطمئنة راضية مرضية، ثم بعدما قطعوا مسالك السلوك، ومنازل التلوين والتزلزل ﴿إِنْ رَبُّكَ﴾ المفضل المحسن إليك يا أكمل الرسل، وإلى من تبعك من خيار المؤمنين ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي: بعد المجاهدات والرياضات ﴿لَفَقُورٌ﴾ يستر أنانيتهم، ويغنيهم عن هوياتهم مطلقاً ﴿رُجِيمٌ﴾ [النحل: 110] لهم، يمكنهم في مقام الرضا والتسليم مطمئنين مرضيين.

هب لنا من لدنك رحمةً يا ذا القوة المتين.

واذكر يا أكمل الرسل المبعوث إلى كافة الأنام ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ﴾ عاصية أو مطيعة ﴿تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾⁽¹⁾ أي: ذاتها، وتهتم لشأنها بلا التفات منها إلى شفاعة غيرها؛ إذ هي رهينة ما كسبت من خيرٍ وشرٍ ﴿وَتُؤْفَى كُلُّ نَفْسٍ﴾ جزاء ﴿مَا عَمِلَتْ﴾

(1) قال البقلي: الأنفس بالتفاوت، نفس تجادل عن معصيتها، ونفس تجادل عن طاعتها، ونفس تجادل عن خوفها من النار، ونفس تجادل عن طمعها في الجنة، وهؤلاء الأنفس مشغولة بمجادلتها عن مشاهدة خالقها والشوق إلى لقائه، والنفس المنبسطة العاشقة الهائمة ينسبط إلى ربها، وتدل عليه دلال عاشق على معشوقه، وشائق على مشوقه، وتقول في مجادلتها وانبساطها: إلهي فعلت بي ما فعلت في الدنيا، ابتليتني ببلايا محبتك، وعظائم الشوق إليك، وحبستني في دار الامتحان مع أعدائي، فأين عنلك وإنصافك؟ أما آن وقت حصول المراد، فتكشف لي جلال سرمديتك حتى أنظر إليك بك أبداً، فكل نفس ليس هذا دأبها فهي محجوجة بمجادلتها، محجوبة بعملها في الدنيا والآخرة، وهو تعالى يعطي كل ذي فضل فضله، ويعطي مأمول كل نفس بقدر طاعتها، وهو منزّه عن النسيان والظلم والضلال، فيجازي الكل بإحسانه، فإنه لا يتقص من ملكه مثقال ذرة، وأن يدخل الكل في جواره، ويربهم جماله.

طاعة ومعصية ﴿وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ [النحل: 111] في جزائهم وأجورهم لا زيادة ولا نقصاناً على مقتضى العدل الإلهي.

﴿و﴾ بعدما أراد سبحانه أن ينه على أهل النعمة، وأرباب الرخاء والرفاهية، ألا يبطروا، ولا يباهوا بما في أيديهم من النعم، ويداوموا على شكرها، وأداء حقها خوفاً من زوالها وفنائها، وانقلابها شدة ونقمة ﴿ضَرَبَ اللَّهُ﴾ المدبر لأمورهم ﴿مَثَلًا﴾ تعتبرون منها وتتعضون ﴿قِزْيَةً﴾ هي مكة أو أيلة ﴿كَانَتْ﴾ نفوس أهلها ﴿آمِنَةً﴾ عن الخوف من العدو والجوع من نقصان الغلات والأثمار ﴿مُطْمَئِنَّةً﴾ بما عندهم من الحوائج بلا تردد ومشقة؛ إذ ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا﴾ على الترادف والتوالي ﴿رَغَدًا﴾ واسعاً وافراً ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ من البلاد التي في حواليتها ونواحيها.

وصاروا مترفين متنعمين إلى أن باهوا وبطروا ﴿فَكَفَرَتْ﴾ أهلها ﴿بِأَنْعَمَ اللَّهُ﴾ الواصلة إليهم، وأسندوها إلى غير الله عناداً ومكابرة، وخرجوا على رسول الله، وطعنوا في كتاب الله ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ بعد خلع خلع الأمن والاطمئنان؛ أي: مسار الجوع والخوف في سائر أعضائهم وجوارحهم سريان أثر المذوقات، ونفورها إلى حيث لا ينجو عن أثرهما جزء من أجزاء البدن، كل ذلك ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: 112] من الكفران والتكذيب والطعن، والعناد والاستكبار.

﴿و﴾ كيف لا يأخذهم، ولا يذيقهم ﴿لَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ﴾ أفضل وأكمل من جميع الرسل مع كتاب أكمل وأشمل من سائر الكتب ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أشد تكذيب، وأنكروه أقبح إنكار ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ العاجل، وهو الجذب الواقع بينهم، أو وقعة بدر ﴿و﴾ الحال أنهم في تلك الحالة ﴿هُمْ ظَالِمُونَ﴾ [النحل: 113] خارجون على الله، وعلى رسوله، والعذاب الآجل سيأخذهم في النشأة الأخرى بأضعاف ما في النشأة الأولى.

﴿فَفَعَلَ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾
 وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَى وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَنْقَادُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ

لَا تَطْمَؤُنَا فِيهَا وَلَا تَضْحَى ﴿١١٩﴾ فَوَسَّوَسَ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّخِذُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى
شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَى ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَّتْ لَهُمَا سَوْءَتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ
عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقٍ لِّلْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٢١﴾ ثُمَّ لَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَأَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١٢٢﴾ قَالَ
أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا
يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ ﴿طه: 114 - 125﴾.

وإذا سمعتم أيها المؤمنون المعتبرون من أحوال أولئك الأشقياء، المغمورين في
بحر الغفلة والغرور، البطيرين بما عندهم من اللذة والسرور، وسمعتم أيضا أحوالهم
وأحوالهم ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا﴾ مباحًا بحسب الشرع ﴿طَيِّبًا﴾ مما كسبتم
بيمينكم على مقتضى سنة الله من خلق الأيدي والأرجل للمكاسب، أو مما اتجرتهم
وربحتهم، وهو من الكسب أيضا ﴿وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ الذي أقدركم ومكنكم على
الكسب ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِثَاءً تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: 114] أي: تطيعون وتقصدون عبادته برفع
الوسائل والأسباب العادية عن البين.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهْلُ لِفَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ
أَضْطَرَّ غَيْرَ بِلَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلْيَتَّكِ اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿١٢٦﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمْ
الْكُذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنُفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا
يُفْلِحُونَ ﴿١٢٧﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا
ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٢٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّنَا لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَلَةٍ
ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّنَا مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٣٠﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ
أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣١﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِ لِحَبَّتِهِ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ ﴿١٣٢﴾ وَمَا آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَإِنَّ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٣﴾ [النحل: 115 -

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ أي: اعلّموا ما حرّم عليكم ربكم في دينكم إلا الميتة المائتة حتف أنفه بلا تزكية وتسمية ﴿وَالْدَّمَ﴾ المسفوح السائل من الحيوانات المباحة ﴿وَلَحْمَ الْخِتِيرِ وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ وسُمّي عليه من أسماء الأصنام ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ﴾ منكم أيها المؤمنون إلى أكل هذه المحرمات، حال كونه ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ خارج على السلطان العادل، المقيم للشرائع والأحكام ﴿وَلَا عَادٍ﴾ مجاوزٍ عن الحدود الشرعية لغرض فاسدٍ من أنواع المعاصي، وقطع الطريق والإباق ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع على سرائر عباده وضمائرهم ﴿غَفُورٌ﴾ يستر زلتهم الاضطرارية ﴿رَحِيمٌ﴾ [النحل: 115] يقبل توبتهم عنها.

ثم نهاهم سبحانه عن القول بالأقوال الفاسدة من تلقاء أنفسهم، ومقتضى أهوائهم، كما يقول المشركون المسرفون، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا﴾ أيها المتدينون بدين الإسلام المنزل على خير الأنام ﴿لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾ أي: شيء تصف ألسنتكم إياه الوصف الكذب بلا ورود وحي وإذن شرع، بل من تلقاء أنفسكم افتراء ومراء، بأن تقولوا: ﴿هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ وتنسبوه إلى الله ﴿لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ تزيينا لقولكم الباطل، وترويجا له، كما قالوا: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾ [الأنعام: 139]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ﴾ وينسبون ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ المنزه عن مطلق الأباطيل ﴿الْكَذِبَ﴾ ظلما وزورا ﴿لَا يَفْلِحُونَ﴾ [النحل: 116] ولا يفوزون بخير الدارين.

إذ نفعهم فيما يفترون ويكذبون ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ ومنفعة صغيرة لا اعتداد بها ﴿وَلَهُمْ﴾ بسبب ذلك في النشأة الأخرى ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: 117] مؤلّم مؤبد لا نجاة لهم منه أصلاً.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ في سورة الأنعام، حيث قلنا: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ [الأنعام: 146]، ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ في تحريم ما حرّمنا عليهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: 118] أي: هم يظلمون أنفسهم بارتكاب المعاصي والمناهي، وترك المأمورات والمندوبات؛ لذلك عُوقبوا وأخذوا بما أخذوا.

﴿ثُمَّ﴾ بشر سبحانه على عموم أصحاب المعاصي والآثام بالعفو والمغفرة، والشفقة عليهم بعدما تابوا وندموا عما هم عليهم مخلصين، فقال لحبيبه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾

الذي بعثك يا أكمل الرسل إلى كافة البرايا بشيراً ونذيراً، يحسن ويرحم ﴿لِّلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ﴾ أي: الفعلة القبيحة، والديانة الشنيعة المذمومة في الشرع، مع كونهم في حين ارتكابها ملتبسين ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ ناشئة من عدم التدبر والتأمل بوخامة عواقبها شرعاً مع تدينهم، وقبولهم بأحكام الشريعة، وكانوا ممن لا يؤمن، ولا يقبل ما ورد به الشرع ﴿ثُمَّ تَابُوا﴾ وندموا ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ ارتكاب ﴿ذَلِكَ﴾ السوء ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ بالتوبة والاستغفار ما أفسدوا على نفوسهم بالفساد والإصرار ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ المحسن المفضل على التائب المخلص ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي: بعد التوبة والندم ﴿لَغَفُورٌ﴾ يستر ذلتهم ﴿رَحِيمٌ﴾ [النحل: 119] يقبل توبتهم.

ثم أشار سبحانه إلى فضائل خليله - صلوات الرحمن عليه وسلامه - وكمال كرامته، ونجابه فطرته، وطهارة أصله وطيبته، وعلو شأنه ورتبته، وارتفاع قدره ومنزلته - فقال: ﴿إِنَّ﴾ جَدَّكَ يا أكمل الرسل ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ الذي اختاره الله لخلته، واصطفاه لرسالته ﴿كَانَ أُمَّةً﴾ أي: إماماً مقتدىً، لائقاً للقدوة بالأمور الدينية؛ لأنه كان ﴿قَانِثًا﴾ مطيعاً ﴿لِلَّهِ﴾ راغباً إلى امتثال مأموراته، واجتناب منهياته ﴿خَنيفًا﴾ مائلاً عن الأديان الباطلة، والآراء الفاسدة ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: 120] في حال من الأحوال.

بل هو رأس الموحدين، ورئيس أرباب التحقق واليقين ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ﴾ أي: صارفاً لنعم الله إلى ما خلقه سبحانه لأجله على الوجه الأعدل الأقوم بلا تبذير وتقتير، طالباً فيه رضا الله بلا شائبة من الرياء والسمعة؛ لذلك ﴿اجْتَبَاهُ﴾ واختاره للرسالة العامة ﴿وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: 121] موصلٍ إلى توحيده بلا عوج وانحراف.

﴿وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾ من لدنا تفضلاً عليه وإحساناً ﴿حَسَنَةً﴾ صورة إلى حيث لا تنقطع آثار إنفاقه وجوده إلى يوم القيامة ﴿وَأَنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل: 122] لقبولنا، الواصلين إلى صفاء توحيدنا.

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ خَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٢٣﴾
 إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَخَدِّ لَهُمْ

يَأْتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ [النحل: 123 - 128].

﴿ثم﴾ بعدما ما أشرنا إليك يا أكمل الرسل كمال استحقاقه، ولياقته للاقتدار والمتابعة ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ تكريماً لك وله ﴿أَنْ أَتَّبِعْ﴾ في إيصال الدعوة، وتبليغ الرسالة، وإظهار الدين والأحكام، والرفق والتلين مع الأنام، والحكم والتواضع معهم على أبلغ وجه وأكمل نظام ﴿مِثْلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: خصلة جدك - عليك وعليه الصلاة والسلام - إذ كان ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً عن كلا طرفي الإفراط والتفريط في جميع الأطوار والأخلاق، والأفعال والأقوال ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: 123] المستكبرين في خلق من الأخلاق، ووصف من الأوصاف، بل كان على مقتضى صرافة التوحيد، وعدالة اليقين والتحقيق؛ لذلك صار إماماً للموحدين إلى قيام الساعة.

ثم قال سبحانه تعييراً على المشركين، وتقريعاً لهم: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ﴾ أي: قدر وفرض لحوق وبال يوم السبت، وأنواع العقوبات والمسوخ ﴿عَلَى﴾ المشركين ﴿الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ وجادلوا مع نبيهم في تعيينه واختياره؛ إذ أمرهم موسى عليه السلام بتعظيم يوم الجمعة واتخاذها عيداً، فأبوا معللين: إن الله قد فرغ من خلق السماوات والأرض في السبت، فنحن نوافق، ونتخذ عيداً، فالزمهم الله تعظيم السبت، وتحريم الصيد فيه، فاحتالوا فيه، فاصطادوا بالمكر، فمسخهم الله، ولحقهم من الوبال ما لحقهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿لَيَخْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل: 124] ويجادلون مع الرسل، فيجازيهم ويعاقبهم على مقتضى ما صدر عنهم.

ثم أشار سبحانه إلى تتميم تكريم حبيبه ﷺ، وتعظيم رتبته، وتهذيب أخلاقه، وتكميل حكمته ورسالته، وتعميم رأفته ورحمته إلى جميع البرية، وكافة الخليقة؛ إذ هو مبعوث على الكل بالرحمة العامة، وهو خاتم الرسالة والنبوة، ومكمل أمر التشريع والتكميل؛ إذ العلة الغائية في مطلق التشريع والإنزال والإرسال إنما هي ظهور مرتبته ومكانته التي هي الدعوة إلى التوحيد الذاتي، ومتى ظهرت فقد كملت وتمت؛ لذلك نزل في شأنه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: 3].

وهي آخر آية نزلت من القرآن، وقال ﷺ: «بُعِثْتُ لِأَتُكِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»⁽¹⁾ فقال مخاطبًا له خطاب تمكين وتكريم: ﴿ادْعُ﴾ يا أكمل الرسل ﴿إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ أي: إلى طريق توحيد مربيك الذي أرشدك إلى معارج عنايته، وهداك إلى كمال كرامته كافة البرايا، وعامة العباد ﴿بِالْحِكْمَةِ﴾ البالغة المكيفة لقلوبهم عن صلابة التقليدات الراسخة الموروثة لهم عن أسلافهم، المصفية نفوسهم عن الحمية الجاهلية المتمكنة فيها، الخالية عن توهم السطوة والاستيلاء، المثيرة لأنواع الأعراض النفسانية المترتبة على البشرية، المزيلة لأنواع الشبه والتخييلات الناشئة من الأسباب والوسائل العادية المقنعة، ملائمة للفطرة الأصلية التي فطر الناس عليها رجاء أن يتفطنوا، ويتنبهوا بمقتضى جبلتهم وفطرتهم.

﴿وَالْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ﴾ الموروثة لهم يقظانًا من سِنَةِ الْغَفْلَةِ، ونوم النسيان، المحصلة لهم شوقًا وسرورًا إلى مُبْدئهم ومُنشئهم، المرغبة لهم إلى اللذات الروحانية الدائمة الباقية المستمرة بلا ورود زوال وانقطاع، المنفردة عما هم عليه من العوائق، والعلائق العائقة من اللذات الوهمية المنقضية المنقطعة الموروثة لأنواع المحن والأحزان.

﴿وَ﴾ إن احتجت يا أكمل الرسل في دعوتهم إلى المجادلة معهم والمكالمة ﴿جَادِلْهُمْ بِالَّتِي﴾ أي: بالطريق التي ﴿هِيَ أَحْسَنُ﴾ الطرق وأسلمها، وأعدلها من المقدمات المعتدلة الدالة على المساواة من كلا الجانبين برفق وتلين ومسكنة، وإرخاء عنان خالٍ عن السطوة والتهور، والغضب والتجبر، وعن التمسخر والضحك والاستهزاء، والتجهيل والتسفيه، والتشنيع الشنيع، كما يفعله عوام العلماء في محاوراتهم ومناظراتهم؛ إذ هي بعيدة عن الحكمة بمراحل، مثيرة لأنواع الفتن والخصومات، فلك ألا تبالغ في إهدائهم وإيمانهم، ولا تتشوش وتتحزن عن ضلالهم وطغيانهم؛ إذ ما عليك إلا تبليغ ما أرسلت به.

وأما حصول الهداية والضلالة فيهم فأمر خارج عن وسعك وطاقتك ﴿إِنْ رَبِّكَ﴾ المطلع على استعدادات عباده وقابلياتهم ﴿هُوَ أَغْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ الموصول إلى توحيدِهِ ﴿وَهُوَ﴾ أيضًا ﴿أَغْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: 125] إذ قدر في سابق قضاة

(1) رواه البيهقي (192/10)، والقضاعي في «الشهاب» (270/4).

هدايتهم وضلالهم، وكذا جميع ما جرى عليهم في شئونهم وتطوراتهم على التفصيل، بحيث لا يشذ عن حيلة حضرة علمه شيء منها.

وبعد ما أمر سبحانه حبيبه بما أمر من آداب الدعوة، وأخلاق الرسالة والنبوة، ومراعاة حقوق الأنام، والمداواة معهم، أشار إلى المجازاة والمحاذاة، والقصاص والعقوبات الواقعة في أمر الرسالة، ووضع التشريع والتبليغ؛ إذ هي مبنية على الأمر بترك المألوفات، وترك العادات والاعتقادات، وترك التخمينات والتقليدات؛ لذلك لا يخلو عن المنازعات والمخاصمات المؤدية إلى أنواع الجنايات.

فقال سبحانه مخاطباً له ولمن تبعه من المؤمنين: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ أيها المؤمنون متقمين عنهم ﴿فَعَاقِبُوا﴾ أي: فعليكم أن تعاقبوا ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾⁽¹⁾ لا أزيد منه؛ إذ الزيادة منافية لاعتدال الإيمان والتوحيد ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ﴾ أيها المؤمنون على ما أصابكم من العقوبات، وأعرضتم عن الانتقام صفحاً، وكظمت الغيظ كظمًا ﴿لَهُوَ﴾ أي: العفو والكظم ﴿خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: 126] الذين صبروا على ما أصابهم من المكروهات، مسترجعين إلى الله، منزلين إنزاله إليه سبحانه بلا رؤية الوسائل في البين، بل يعدون العناء عطاءً، والترح فرحاً، والنقمة نعمة، والمحنة منحة؛ لصدورها من الله.

وبعد ما خاطب وأوصى سبحانه للمؤمنين بالصبر والعفو على وجه العموم، وترك الانتقام، خص رسوله ﷺ بالخطاب؛ لكونه أحق وأولى بامثال أمثاله؛ إذ هو جامع جميع مراتب الكمال بالاستحقاق والاستقلال، فقال: ﴿وَاضْبِرْ﴾ أيها المتحقق المتمكن في مقر التوحيد، المسقط لجميع الإضافات على ما جرى عليك من الأذيات المترتبة على بشرتك وناسوتك ﴿وَمَا صَبْرُكَ﴾ وكظمك بعد فنائك عن بشرتك ﴿إِلَّا بِاللهِ﴾ المتجلي عليك بالإطلاق إلى أن انخلعت عنك لوازم ناسوتك، وما بقيت لك إلا

(1) قال في التأويلات: إشارة إلى من دعا إلى الله فأجاب وجاهد النفس ونهاها عن الهوى، وسلك طريق الحق بالاتباع دون الابتداع، ثم هبت صرصر البلاء من غريب الابتلاء، واستولت النفس وحجب في مراتع الدنيا وشهواتها على وفق طبعها وهواها حتى غلبت الروح وجنوده وعاقبتهم بأنواع عقوبات مختلفة من التباعد والتقاعد والتقاطع إلى أن نسمت رياح العواطف عن مهب العناية، وطلعت شمس الإقبال عن مشرق الأفضال وانقلب الأحوال فأقبل نهار الروح مشرقة بأنوار الجمال وأدبر ليل النفس مظلمة بقهر الجلال وأسرت النفس وجنودها وعزم الروح وجنوده على معاقبتهم بالفطام عن مألوفاتهم والإقدام على مخالفاتهم وتأديبهم بسياط الجوع والعطش فنودوا من حظائر القدس ومجالس الأنس.

لوازم لاهوتك، وظاهر أنه لا يجري فيها المكروه والمنكر ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على المؤمنين بما لحقهم من المنافرات والمشوشات ﴿وَلَا تَكُ﴾ بعد انشراح صدرك بالتوحيد الذاتي ﴿فِي ضَيْقٍ﴾ ضيق صدر، وحزن وكآبة ﴿فَمَا يَمْكُرُونَ﴾⁽¹⁾ [النحل: 127] أولئك الماكرون المعاندون المكابرون.

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المختبر لأنبيائه وأوليائه، وخواص عباده بأنواع الأذى والمحن الجسمانية ﴿مَعَ﴾ الصابرين ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ وأخذروا عن الانتقام وقت الغدرة طلباً لمرضاة الله، وجرياً على مقتضى توحيده ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مُخْشَوْنَ﴾ [النحل: 128] على من أساء إليهم رفقا لهم، وتلطيفاً إياهم ابتغاء لمرضاة الله، وتثبيتاً في طريق توحيده. أذقنا حلاوة توحيدك، وأصبرنا على ما جرى علينا من المحن، والعطاء والعناء طلباً لمرضاتك، إنك على ما تشاء قدير.

خاتمة السورة

عليك أيها المسترشد الخبير البصير - أرشدك الله إلى امثال ما سمعت في هذه السورة، سيما في الكريمة المذكورة آنفاً، ورزقك الاتصاف بما فيها من الحكيم والآداب، والأخلاق المرضية، والسجيا الفاضلة - أن تتأمل فيها حق التأمل والتعمق، حال كونك خالياً صافياً عن الكدورات العارضة من طغيان القوى البهيمية، والحمية الجاهلية، تاركاً بما عرض عليك من الأغراض النفسانية المترتبة على الأمور العادية، المستلزمة فيه لأنواع الضلال والفساد من التفوق على الأقران، والترفع على الإخوان، والتكبر على ضعفاء الأنام، والتلذذ بالسمعة والرياء المشيرة لأصناف الأهواء الفاسدة، والآراء الباطلة التي لا يمكن قلعها وقمعها أصلاً، سيما تمرنت ورسخت، فلك أن تراجع وجدانك بأي شيء أردت الترفع، وقصدت التفوق والتفضل، أما ترى أن منشأك ماذا ؟! أما استحييت التفوه من هذا وهذا ؟! ١٩.

(1) قال الشيخ البقلي: أي: انظر إلى مرادنا منهم، ولا تنظر إلى مرادك منهم، فإن أمر الربوبية سابق على أمر العبودية. قال ابن عطاء: كان النبي ﷺ لم يكن يضيق بهم صديراً، ولكن الله تعالى حذر ما هو موهوم في البشرية، وإن كان هو مترها عنه. قال الأستاذ: طالع التقدير فيما لا نجعله حظراً عندنا، لا ينبغي أن يوجب أثراً فيك، ومن أسقطنا قدره فاستصغر قدره وأمره، ثم تسلى قلب نبيه ﷺ بأنه تعالى مع مثنى صادق شاهد محسن.

وأما قصة كرامتك وخلافتك التي هي من المواهب الإلهية، والعطاءات الغيبية، فإنما هي مبنية على محض التذلل والتواضع، والخضوع والانكسار مع كل ذرة من ذرات الكائنات؛ إذ مبناه على الحكمة المتقنة المتشعبة من أسرار سرائر الرسالة والنبوة، وهي عبارة عن اعتدال جميع الأوصاف، وتزكية النفس عن جميع الرذائل، بل هي مبنية على إفناء مقتضيات الأوصاف البشرية رأساً وإرادة واختياراً.

وبالجملة: من أنصف على نفسه أدرك أن جميع ما في نفسه سوى التذلل والانكسار، والمسكنة والافتقار، حال كونه خاليًا عن شوب الرياء والسمعة، والعُجب والجُزْبَة، إنما هي رعونات صدرت من طغيان القوى البهيمية المؤيدة بالعقل المستعار المموه بتمويهات الأوهام الباطنة، وتزيينات الخيالات الكاذبة.

هب لنا من لدنك جذبةً تنجينا من أنانيتنا، ولذةً تلجئنا إلى سلوك طريق الفناء الموصول إلى البقاء السرمدى، إنك أنت الوهاب.

فهرس المحتويات

3 سورة الأنعام
3 فاتحة سورة الأنعام
65 خاتمة سورة الأنعام
67 سورة الأعراف
67 فاتحة سورة الأعراف
148 خاتمة السورة
150 سورة الأنفال
150 فاتحة سورة الأنفال
183 خاتمة السورة
184 سورة التوبة
184 فاتحة سورة التوبة
245 خاتمة السورة
247 سورة يونس
247 فاتحة سورة يونس <small>الطبعة</small>
288 خاتمة السورة
290 سورة هود
290 فاتحة سورة هود <small>الطبعة</small>
333 خاتمة السورة
335 سورة يوسف
335 فاتحة سورة يوسف <small>الطبعة</small>
381 خاتمة السورة
386 سورة الرعد
386 فاتحة سورة الرعد
406 خاتمة السورة
407 سورة إبراهيم

407	فاتحة سورة إبراهيم <small>عليه السلام</small>
428	خاتمة السورة
433	سورة الحجر
433	فاتحة سورة الحجر
456	خاتمة السورة
457	سورة النحل
457	فاتحة سورة النحل
506	خاتمة السورة
509	فهرس المحتويات

